

الزعيم الكردي

عليكاي بطي

بطلاً تاريخياً، أسطورياً، وشعبياً

دراسة

الجزء الأول

الكتاب: الزعيم الكردي عليكي بطي
بطلاً تاريخياً، أسطورياً، وشعبياً

الكاتب: إبراهيم محمود

الطبعة الأولى: 2020

جميع الحقوق محفوظة

الترقيم الدولي: ISBN 978-9933-636-16-6

9 789933 636166

الناشر: دار الزمان
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - سورية



فايبر وواتس أب:

0049 176 76866381

موبايل: 0049 176 76866381

E-mail: zeman005@yahoo.com

الإخراج الداخلي: دار الزمان

الغلاف: م. جمال الأبطح

لوحة الغلاف: هابيل إبراهيم محمود

لا يسمح بطباعة هذا الكتاب أو تصويره أو نسخه إلا بإذن خاص ومسبق من الناشر

Copy Right Dar Zaman Publishing
All Right Reserved. No Part of This Publication May be Reproduced Transmitted
Without Premission in Writing From The Publisher

إبراهيم محمود



الزعيم الكردي

عليكي بطي

بطلاً تاريخياً، أسطورياً، وشعبياً

دراسة

الجزء الأول

الفهرس

أقوال توضيحية	9
أقواس مفتوحة	13
تنويه	15
لماذا البطل، لماذا عليكي بطي	17
القسم الأول	57
الفصل الأول: عن التاريخ الذي لا بد أن يعاين:	59
التأسيس لتاريخ عنف آخر	60
أرغنون أسطورة ولادة الأتراك	95
السؤال الكردي- الكردي المؤجل	109
ملحق: زخرفة تاريخية « كردستان- ديار بكر »	130
الفصل الثاني: عليكي بطي في نسيجه الحي والمختلف عليه	141
اليد والباب	141
طرقات على باب التاريخ الأصم	152
أهي بانوراما ؟	183
النطق بالتاريخ أيضاً	201
بين الحسابي والهندسي	221
الفصل الثالث: حاجو الثاني وانعطافة تاريخية كبرى	231
مفصل حركي منبه	231
استنطاق الصراع	239
حكاية القوة	244
الذبح الذابح	252
ما يمكن قوله فيما تقدّم، وما الذي يمكن قوله فيما تأخر؟	258

267	القسم الثاني
269	الفصل الأول: عليكي بطي بطلاً تاريخياً
269	ولادة الزعيم عليكي بطي، ولادة تاريخ آخر
269	من المنعطف طبعاً
272	نقاط ارتكاز إجرائية
280	التقاط أنفاس
291	الموظفون المحليون والقضايا العرقية
306	دوامة العنف العالية
309	الزعيم الذي سيكون
311	اسم على تاريخ
321	أي تاريخ لعلليكي بطي:
321	أسئلة حائرة
323	أسئلة استنطاقية
332	دين الزمان- المكان
334	الاسم الذي أصبح لقباً لعائلة كاملة
347	اللعبة المستمرة
357	المشهد المفصلي للانتقام
363	رواية جكرخوين
370	عليكي بطي وصعوده النجمي
383	أهي علامة فارقة ؟
395	عليكي بطي في خضم الحرب العالمية الأولى:
395	لافتة مُضاءة
404	الأليف الغريب
409	مأثورات ضاغطة
424	تعميق الأثر

436	قراءة في العتمة
439	ملحق: كل الحق على القوميات المقهورة
453	من عليكي بطي إلى شمعون حنا حيدو:
453	تدشين الاسم تاريخياً
456	نقاط وأكثر
460	فرد أكبر من اسمه
464	تنويه مهم جداً
471	عليكي بطي وسط التحدي الديني والقومي:
471	بطولة اللاتوقع
474	مصادقة المرتفع
482	ما يجب قوله أيضاً
488	تمثيل العنف
495	هوية طبوغرافية للمكان
499	الحراك القاعي
508	لعبة شدّ الكذب
524	أثريات الخيانة والزيف
553	التسلل في وضح النهار
568	صفحة جكرخوين عن تاريخ عاصف:
568	الضمير الصريح أكثر
574	حسابات مسجلة
586	الملح في الجرح المفتوح «عليكي بطي بصفته قضية»
593	سيرة ذاتية للمؤلف

لائقة توضيحية

إلى قراء هذا الكتاب

أقدر فيكم كل طريقة تعامل مع هذا الكتاب، حتى بمجرد قراءة عنوانه، وأخذ العلم به.

أقدر فيكم أي محاولة للدخول إليه، حتى وأنتم تكتفون بمجرد قراءة عنوانه خارجاً، وفي الداخل، ومن ثم تقليب صفحاته، وأخذ العلم بخطوطه العامة، ولو في القليل القليل من هذه الخطوط.

أقدر فيكم كل رغبة بالتوقف عنده، ساعة تشاؤون، ولو بقراءته جزئياً أو كلياً، وقد أمضيت بعض الوقت معه، وأخذ علم ما بفكرة ما قرأتموه.

أقدر فيكم تلك الإرادة الواعية والصبور والنهرية للقراءة كلمةً فكلمة، عبارة فعبارة، فقرة فقرة، فصلاً ففصلاً، والوقت الثمين الذي تستهلكوه، وأنتم تنتقلون، كما أشرت من عنوان فرعي إلى آخر، وأنتم تقيمون علاقة بين صفحة وأخرى، بطريقتكم الخاصة، وأنتم تمعنون النظر في كل صورة منشورة، ومدى علاقتها بما هو مقيم في ثنيات الكتاب، وأخذ العلم بكل ذلك.

أقدر فيكم رأيكم وأنتم تجهرون به عالياً.

أقدر فيكم موقفكم العالي، وأنتم تتكلمون على هذا الرأي، إنما على الأقل، لأن هناك علاقة ما أقمتوها مع الكتاب.

وأنتم تقرؤون هذه النقاط، لا بد أن تتشكل لديكم انطباعات عما أثرته هنا، كما أرى، وعما يخص تصوري لما ستكون عليه نوعيات التعامل مع الكتاب هذا، حال أي كتاب، ولكنه الكتاب الذي ينتمي إلى مكان وزمان، ومجتمع، لا أعتقد أن كثيرين من المعنيين به، من كردنا بالذات، وحيث تتم تسمية كل ذلك، ببيعيين عن قيمة كل ذلك، لتكون له خصوصية تاريخية.

ومن باب هذا التقدير، من باب هذا الاهتمام بالكتاب وما سيكون عند قراءته، وما قدرته وأقدره تبعاً بالتالي، ومن باب أخذ العلم بمحتواه، وهندسة الكتابة ومكوّناته، والذين تنفسوا أحياءاً عبر سطورهم، ومنحوه أبعاداً ثقافية لها بصمتها، أقول:

ليس هذا الكتاب كتاب حكايات، كما يمكن أن يوحي الكتاب بذلك. فعليكي بطي أكبر من أن يكون ربيب، أو صنيع، أو نسيج حكاية، رغم أن هناك الكثير مما يُسمّيه، كما لو أنه حكاية عليكي بطي Çîroka Elîkê Betê ! نعم، هناك حكاية عليكي بطي، سوى أن حكايات تتردد عن عليكي بطي، لا تقدّم عليكي بطي، كما كان ذات يوم نسيج مجتمع يضمه إليه، ويعرّف به في آن، وليكون أكبر من النسيان في الزمن، كما سنرى، لكن عليكي بطي أكبر من مفهوم الحكاية، وعلم الحكاية، وأدب الحكاية، وخيالات الحكاية، لأن عليكي بطي كائن تاريخي من لحم ودم بالتأكيد. فالحكاية ارتبطت ببعض التسلية والترويح عن النفس، أو حتى الخُفة، أي انعدام الجدّة.. لهذا، من رأى، أو اعتقد، أو تصوّر، أنه داخل في هذا المضمار، يستحسن له أن يدعه جانباً، لئلا يصطدم بخلاف ما كان ينتظره.

ليس هذا الكتاب محض تاريخ، لأن التاريخ يقوم على وقائع يمكن التأكد منها، وعلى وثائق أو مستندات «صكوك معينة»، يمكن الرجوع إليها، إنما هو كتاب تاريخ، وما ليس تاريخاً، فثمة رديف له، من حكايات ذات طابع شعبي، وثمة ما يحيل عليكي بطي على ما هو أسطوري، وهذا يتطلب المزيد من الجهد للربط بين هذه العناصر التي تكونه.

ليس هذا الكتاب، كتاب شخص محدد، وباسمه، وإن كان ظاهراً باسم محدد ومعلوم «عليكي بطي»، إنما هي وضعية الشجرة: شجرة كبيرة، عالية، وجذورها تمتد إلى جهات شتى، وفي أعماق سحيقة، يمثّلها المجتمع بالذات، وهذا يحتاج إلى معاينة كشفية وتقييمية تحرك الناظر في أكثر من اتجاه، وأكثر من عمق، وأفق رؤية بحثية كذلك.

ليس هذا الكتاب تالياً على كتابي «دولة حاجو آغا الكردية» والصادر سنة 2018، ليس استمراراً لمحتواه، أو تكملة له، رغم التداخل الكبير والأثر بينهما، كما سيوضّح مضمونه، وفي نقاط مختلفة، كونهما خرجا من البيضة النُسبية ذاتها «من حيث الأصل»، وكونهما تربّيا في العش نفسه: عش مجتمع كُبراً فيه وكُبرَ معهما، وينتميان إلى الفضاء ذاته كردياً هنا: فضاء الخروج مما هو ذاتي، أو شخصي، إنما لكل منهما طريقة طيرانه من عل، وتحرك على الأرض، وحتى إثارة انطباعات في نفوس الناس «كردهما» وخلافهما. وقد كان في مقدوري تأليف كتاب «عليكي بطي» أولاً، إن أخلصتُ لسياق التاريخ بالتأكيد، جهة الأسبقية في الحضور ولُفّت الأنظار، إنما هو إجراء بحثي، حيث إن ما سيثار هنا، سيُزيد ما

أثرته في كتابي السالف ذكره وضوحاً وربما عمّق أثر أكثر، واختلافهما تآلفاً، بأكثر من معنى ودراية، والعنوان الفرعي لكل منهما، يشكّل علامة فارقة له: دولة حاجو الكردية: دراسة في تاريخ سياسي وشخصي. وهنا: الزعيم عليكي بطي: بطلاً تاريخياً وأسطورياً، وشعبياً. نعم، هناك بطولة تسمّى الاثنين، ولكنها مميّزة في كل حالة، وتظهر ثراء البطولة نفسها هنا.

إنه الحرص البحثي الذي دفع بي إلى تثبيت هذه النقاط، قبل الدخول في خضمّ الكتاب وعالمه المركّب، أعني به، أنه، ربما، كحال الكتاب السابق، وكما هو تعقيد علم كل منهما، يحتاج إلى المزيد من عناء القراءة، والربط، وتحريّ الأثر، أكثر من سماع مغنٍّ وهو يكيل إليه المديح، أو فك معنى لفقرة تاريخية، مبنوثة ضمن كتاب يأتي على ذكره. إنه ليس رهاناً، أو اشتراطاً، ليس حقيقة، أزعّم أنني عائدها وواردها ومكابدها عموماً وخصوصاً، إنما مسمّيتها بطريقتي التي تقدّم نفسها بتواضع لكل من ذكرتُ.

إنه كتاب تحديّ النسيان، والمقيم في تاريخ يهجس باسمه، فحطّ هنا رحالُه بمعنى ما!

إنه الحرص مجدداً على وجوب حماية الذاكرة التي تسمّينا جماعياً، ومنحها القدر الكافي من الاحترام والتقدير، ومن ثم عدم الاستهانة بوظائفها، تجاه أي حركة كتابية، وبالنسبة إلى الكرد، الذين يعطون الذاكرة بمفهومها الشفاهي مكانة معتبرة، حتى لدن المعتمدين على الكتابة عينها، في توثيق يومياتهم، أو نقل وقائع معين، من صلب الحياة اليومية لهم، وهو واجب يقارب ما هو قومي وإنساني، لأن ثمة «أمانات» تاريخية، مجتمعية، ومن ثم ثقافية لا تسجّل باسم طرف معين، أو جماعتها وحدها، إنما باسم حقيقة إنسانية، وفي هذا الإطار، يسهل قول أنه إذا كان خصوم هذه الذاكرة، أو أعداؤها، يبذلون الغالي والنفيس، لمحو مكوناتها، كي يشار إلى ما يعينهم تجاه حملة الذاكرة الجماعية تلك، وما في ذلك من إعلان إعدام لها، وطبها إلى الأبد، وما يترتب على كل ذلك من التكرار لوجود بشر، لهم ماض معين، ومواقع معينة، ولغة معينة، بسبب حالة الشطب الموجّه، فإن الواجب الأوكد لمن ينتمون إليها، هو التنبه إلى خبث من يشدّد على «مخدر» النسيان» من يعمل في ظله ليل نهار، في مواجهة المعتبرين أعداء له، حيث حرّموا من نعمة الكتابة، وليس لعجز بنيوي فيهم عن تعلّمها، ومن ثم وجوب إبقاء أرشيف الذاكرة مضاء، وجارٍ تداوله بين أهلها، لتكون مكتبتهم النقالة ووطنهم الرمزي.

إنه البحث في صميم ما كان، وعُتِم عليه، وهو الإصغاء إلى ما كان، وجرى تصميمته كثيراً، وفي الاعتبار الأول، هناك اعتماد الشك المنهجي في كل ما يُنسب إلى الكرد وليس لهم، عندما يعرف بالكرد دون اسمهم، أو حين يكون رمز، بطل، زعيم فعلي، معرّفاً به كما هي مآثرة التركي الرسمي «Eşkiya: قاطع طريق، شقياً، لصاً، عاصياً، إرهابياً... الخ»

كما يقول مفكرنا التركي الكبير اسماعيل بشكجي، في مقال له معنون ب: تاريخ الكرد Kürdlerin Tarihi ، 12-8/2019:

يجب الاعتراف أن الأرشيقات التركية والعربية والفارسية تحتوي على تزيف للكرد. من المهم للباحث الكردي الذي بدأ العمل في هذه الأرشيقات الانتباه إلى هذا الوضع. وربما تم التزوير في كتب أو مقالات مترجمة. وقد تكون الفصول المتعلقة بالكرد غير مترجمة أو مترجمة بشكل غير صحيح. لذلك، ومن المهم كذلك رؤية أصل الكتاب أو المقالة.

Türk, Arap ve Fars arşivlerinin Kürdler konusunda tahrifat içerdiği kabul edilmelidir. Bu arşivlerde çalışmaya başlayan bir Kürd araştırmacının bu duruma dikkat etmesi önemlidir. Tahrifat, tercüme kitaplarda veya yazılarda da yapılmış olabilir. Kürdlerle ilgili bölümler çevrilmemiş veya yanlış çevrilmiş olabilir. bu bakımdan, kitabın veya yazının aslını görmek de önemlidir.

أقواس مفتوحة

البطل هو ذلك الإنسان سواء أكان رجلاً أم امرأة، الذي لديه المقدرة على أن يكافح من خلال حدوده الشخصية والتاريخية المكانية في سبيل الأشكال الإنسانية التي تتمتع بالصلاحية المطلقة. أما آراؤه وأفكاره وإلهاماته فتأتي نقيّةً منبثقةً مع المنابع الأولى للحياة والفكر الإنسانيين.

جوزيف كامبل: البطل بألف وجه

منذ لحظات قليلة، ضربت عاصفة رعدية رهيبة ميسولونجي. وتداعى الليل برقاً وتراقق الرعد بعضه بعضاً في الظلام. ورسم وميض البرق الوجيز الخطوط العريضة للجزر البعيدة على البحيرة. وكانت الامطار العاصفة تضرب نوافذ المنازل. والجنود والرعاة الذين لجؤوا إلى هناك ما زالوا غير مدركين للجنابة الجديدة، لكنهم يعتقدون، مثل أسلافهم، أن العجائب ترافقت مع وفاة بطل، ويلاحظون عنف الرعد الذي لا يصدق، وقالوا لبعضهم بعضاً بيرون مات.

أندريه موروا: دون خوان أو حياة بيرون Don juan ou la vie de byron

سواء أكانت خيالية أو حقيقية، يقال أن البطل قد حقق إنجازاً استثنائياً في خدمة المجتمع. وقد دفعه التزامه الجسدي إلى تجاوز نفسه، وأحياناً يخاطر بحياته. ولكن من الضروري أن تُحسب براعته لتكون جديرة بالتقدير العام

مارك توريت: ما هو البطل ؟ Qu'est-ce qu'un héros

قرأت هناك أن المرتدين من القسطنطينية قد أصدروا، باليونانية السيئة إلى أبعد حد، مرسوماً ضد أعظم قائد في القرن، لأن هذا البطل قد قال هذه الكلمات في خضم المحادثة: الحقيقة تضئ بنورها الخاص، ونحن لا نضيء الأرواح بلهب المحارق. وأكد المحققون أن هذا الافتراض كان زندقة وحصاداً هرطقة، وأن البديهة المعاكسة كانت كاثوليكية وعالمية ويونانية: فلا ينير المرء إلا الأرواح بلهب المحارق، ولا يمكن للحقيقة إلا أن تشرق من النور الخاص.

فولتير: براعة فولتير L'Ingénu de Voltaire

آه يا جان بدون قبر وبدون صورة، أنت من عرفت أن قبر الأبطال هو قلب الأحياء، بغض النظر عن عشرين ألف تمثال، لا تحسب تماثيل الكنائس: إلى كل شيء تحبه

فرنسا، أعطيتَ وجهكَ يرَ معروف. مرة أخرى، ستستمر زهور القرون. باسم كل أولئك الموجودين هنا أو الموجودين هنا، نرجو أن يرحبوا بك على البحر، أنت التي أعطيت العالم الرمز الوحيد للنصر وهو أيضاً رمزاً للشفقة !

روان - احتفالات جان دارك Fêtes Jeanne d'Arc

إنقاذ حياة شخص ما أو هزيمة عدو قوي للغاية هي الأعمال البطولية بامتياز في الأساطير القديمة والملحمة في المجتمع الحديث، ومع ذلك، فإنه يمكن أن يمثل الأبطال قيماً أخرى. وبهذا المعنى، يمكن اعتبار الشخص المسئول عن نجاح رياضي أو الفنان المعبود بطلاً. ثم هناك بعض الأشخاص الذين يعتبرون أبطالاً للتغلب على جميع أنواع الشدائد في الحياة.

les definition: **تعريف البطل:**

«هناك ارتباط وثيق بين مستقبل تركيا ومصير العلاقات بين الغرب والإسلام، والحرب، والسلم في المنطقة وبقية أنحاء العالم... وستواجه مستقبلاً ثلاثة خيارات: أن تصبح عضواً في الاتحاد الأوروبي.. أن تصبح في صميم امبراطورية في آسيا الوسطى.. تنقسم إلى ثلاثة أجزاء: الأول في أوروبا والثاني في آسيا الوسطى، والأخير كردي.. الأول هو الأفضل لأوروبا، والثاني للولايات المتحدة والثالث قد يؤدي، إذا تم تتوافر له إدارة متناغمة، إلى فوضى عارمة في منطقة تتجمع فيها أكثر من نصف مصادر الطاقة المتحجرة على الكرة الأرضية».

جاك أتالي: معجم القرن الحادي والعشرين

تنويه

في موقع www.hsimsek.com التركي، وتحت عنوان التمردات من العهد العثماني إلى اليوم OSMANLIDAN GÜNÜMÜZE İSYANLAR

أشيرَ إلى ثلاث فترات، وقد شهدت كل فترة زمنية مجموعة تمرُّدات «بتعبير الدولة العثمانية- التركية الرسمي»:

فترة الحكم العثماني الممتدة ما بين عامي 1414- 1910، قرابة خمسة قرون، حيث شهدت «43» ثورة «تمرد».

من انتفاضة ابن جنيد في إزمير سنة 1414- إلى انتفاضة الألبان سنة 1910 الفترة الفاصلة ما بعد الحرب العالمية الأولى، وهي ثلاث سنوات: ما بين 1919-1922، وقد شهدت «25» انتفاضة أو ثورة أو حركة مقاومة.

من انتفاضة علي بطي 1919- إلى انتفاضة بونتوس سنة 1922 الفترة «الجمهورية التركية» والتي تمتد ما بين عامي 1924-1984، وقد شهدت «19» انتفاضة أو ثورة أو حركة نضالية.

من انتفاضة النساطرة سنة 1924- إلى الكفاح المسلَّح لحزب العمال الكردستاني سنة 1984

وتبيّن أن الأكثر حضوراً وكثافة هي الفترة الثانية، كما ألمحنا إلى ذلك.

في نهاية المقال، ورد التالي:

إنهم يتَّبِعون لجمهورية تركيا، «أسَّسوا جمهورية تركيا لشعب تركيا الذي يطلق عليه الأمة التركية». هناك من يقول أنا لستُ من الأمة التركية، أنا من الأمة الكردية، هذا خطأ، هناك دولة واحدة، هي جمهورية تركيا... مفهوم الأمة لا يقوم على أساس عِرقي. إن تعريف الأمة هو الذي شكل الدولة.

وما يأتي قطعياً:

Tek bir bayrak ve tek bir ulusal marş ve tek bir başkent, Bunları kabul etmeyenin bu ülkede yaşama hakkı yoktur.O zaman kendine yeni bir vatan bulacaktır. Devleti yönetenler bunu açıkça ifade edemiyorlarsa, Türk milleti bunu anlamayanlara anlatmasını bilir.«Herkes önce

yutacağı kemiği ölçsün, ondan sonra yutsun» sonra bunu çıkarmakta zorlanır.Durum onu gösteriyor' ki, yakında ciddi bir hesaplaşma başlayacak, Bu günlerde yanlış davranışlar sergileyen, başta politikacılar olmak üzere bu hesaplaşmanın faturası ağır olacak gibi görülüyor.Bu en son temennimizdir.

علم واحد، نشيد وطني واحد، وعاصمة واحدة، وأولئك الذين لا يقبلونها لا يحق لهم العيش في هذا البلد، ليجدوا لأنفسهم وطناً آخر. إذا كان حكام الدولة لا يمكنهم التعبير عن ذلك بوضوح، فإن الأمة التركية تعرف كيف تشرح ذلك لأولئك الذين لا يستوعبونها. يبدو أن فاتورة هذه المواجهة ثقيلة، وتلك هي رغبتنا الأخيرة.

لماذا البطل، لماذا عليكي بطي

«إننا نطيع مَنْ نصبناهم في مواقع السلطة، ثم إننا نطيع القوانين ذاتها، وخاصة ما وُضع منها لحماية المضطَّهدين، ونرى أن من العار خرق تلك القوانين غير المدونة»

قول لبركليس، في كتاب ثيوسيديديس «455-400 ق.م»: تاريخ الحرب البيلوبونيسية، ترجمة: دينا الملاح - عمرو الملاح، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2003، ص

157

سأستعيد جانباً من طفولتي، سأنتقل منها إلى فضاء رحب، كما هي رحابة هذا الموضوع المسمّى أصلاً، كعنوان، والذي أسمّيه أصلاً أيضاً لكل ما شغلني منذ عقود من الزمن، وأكثر منه، وبشكل أكثر كثافة، منذ سنوات، جهة النوعية ومحتواها التاريخي والاجتماعي، وقد بات ملحاً عليّ، أن أنتقل به من نطاق الذاكرة المحبّبة عن سواي، أو المعتمّ عليها، إلى فسحة ورقية، وأطلقها معلومةً، لها أبعادها، لا تعود تغنيني أنا وحدي، إنما سواي هذه المرة، وإن كنتُ المعني الأول بها هنا، وإن كنت مطلقاً سراحها من الذاكرة، لأكون مقروءاً كذلك من خلالها .

طبعاً، سأحدث عن البطل، البطل الذي يكون لكل منا صورة معينة، أو أكثر عنه، وهنا سيكون البطل الذي يشغلني من ألف الكتاب هذا إلى يائه، وهو كتاب لا يخفى في ضخامته، وما يمكنه أن يثير من تساؤلات، سوى أنني، وكما نوهتُ منذ البداية، أنني سأقدّم لكتاب البطل، أو لبطل كتاب، ربما لا يعرف عنه إلا القليل القليل، في الوقت الذي يمكن التعرف إليه في أرشيفات تلك الدول التي قرّرت يوماً مصير الكرد وكردستانهم، وكان لهذا البطل الذي سيعرف عنه لاحقاً، تحركه، صوته، مكانته، خياله الخاص في أذهان الكثيرين م حوله: مؤيدين ومعارضين، وهم يتكلمون بلغات مختلفة، وعلى مستوى دول وأنظمة «بريطانيا، فرنسا، تركيا ذات الدور هنا...»، فلا يكون من قول، أو عبارة، أو شاهد إلا ويحمل بصمة منه، تأكيداً على حضوره رغم غيابه!

لازلتُ أتذكر، ومنذ سنوات، الطفولة الأولى، ما كان يتردّد له صدىً داخل البيت، لحظة القيام بعمل معين، من أيّ منا، نحن الصغار، ومن قبل الكبار في البيت، ومن يزورنا، والثناء عليه بكلمة واحدة، مرفقة بابتسامة، أو صيحة فرح، بالتوازي مع التصنيف أحياناً «هيبه بطل»، الكلمة ذاتها كانت تُقال بالكردية، إنما مع تخفيف حرف «الطاء» لتصبح «بتل betel» شأن كلمات أخرى، ثقيلة على اللسان الكردي،

وهي تعدّل لتتناسب طبيعة التهجئة الكردية، مثل «الصاد، الضاد، الذال» أو من باب إظهار تأثير اللسان الكردي باللسان العربي، تجاه حُرْف بدا وكأنه من صلب العائلة اللغوية الكردية، أو في حروف ألفبائها «العين تحديداً» بدلاً من «الهاء» كما في «جعف، للعين çav»، «عاني/عني، للجبين enî»، «عُور، للمعدة ûr... الخ. طبعاً، كان علينا انتظار سنوات طوال، لنعلم، أن مفردة «البطل» العربية، تقابلها «leheng» في الكردية، في منطقتنا، رغم أن المفردة العربية تلك، لازالت تستخدم، ربما أكثر من الكردية نظيرتها، لدى نسبة كبيرة من الكرد المأخوذون بالثقافة العربية، أو المحكومين بها، بصورة أدق، وانعكاس ذلك على وضعهم الثقافي والنفسي، وجرّاء التكرار المستمر لمثل هذه الكلمة وغيرها في بيئتنا، تلك التي عُرِفَ بطابعها الكردي في مساحة واسعة نسبياً.

ومن المؤكد، أننا كنّا على وعي طفولي، بأن الكلمة تلك ذات قيمة إيجابية، قيمة مؤثرة ومعلّمة بتحليقاتها المتخيلة في النفس طبعاً، بما أن هناك ابتسامة أو ضحكة مرفّقة مع تصفيق تترأى لنا، فنتوق إلى تكرار العمل نفسه، أو ما عمل آخر، من الخانة نفسها، لنحصل على «المكافأة» الرمزية عينها، وهي تبعث فينا سروراً وبهجة، وفي إثرها أحياناً قطعة سكر، أو «فرنك» بمرردود ذلك الزمان، خاصة، حين كنّا نسمع من أفواه الكبار، وهم يأتون على ذكر شخص آخر، دون أن نعرف عن قرب، بأنه «بطل». وكان علينا بالمقابل، أن ننتظر سنوات كافية، لتعرف إليها، كما هي حقيقتها، أو دلالتها، أو تنوع صورها، وكيف، ومتى، ولماذا تقال هنا وهناك !

وانتظار الزمن الملائم للإحاطة علماً بهذه المفردة، ارتبط بوجود عالم كامل، ومن نواحي كثيرة جداً، هي مجموعة المؤثرات في البنية العضوية، النفسية، الاجتماعية، الثقافية، السياسية والتاريخية لأي منا، وتبعاً لطبيعة الظروف، تبعاً للبيئة وما تضمه إليها من مكونات بشرية، وطبيعة العلاقات القائمة فيما بينها، وصلة كل من هؤلاء بنفسه والعالم.

أي ما يعطي «البطل» حقوقه الثقافية، الاجتماعية والإيديولوجية كذلك، بالنسبة إلى وسط اجتماعي، لا أخاله واحداً، أو سوياً، كما يُظن، ولا مكافئاً بقواه المشكّلة له، إنما مركز قوى بينها تفاعلات، تجاذبات، مناوشات، متاخمات حدودية، إغارات خفية، أو علنية، مناورات جانبية، أو تعهدات مرتجلة، لبقاء الوضع مستقراً نوعاً ما، إنما في القاع، ثمة ما يغلي، ويبقي الظاهر دائم السخونة، والمهيأ لأي انفجار جزئي، حيث يكون القلق ضماناً لبقاء الجميع، نهَب توترات، حتى الذين لا يدّخرون جهداً في استغلال مواقعهم السلطوية، أو نفوذهم السلطوي، وفتونتهم في إيلام المبعّد سلطوياً،

وهو أمرٌ يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار، فلهذا الجانب بالمقابل، بطله النموذجي، أو أبطاله الذين يكونون محل احتفاء من قبل المنتمين إلى خانة السلطة، مهما تميّزوا بنوعية العنف في التاريخ، وفي استباحة دماء الآخرين، كما سنرى.

بالطريقة هذه، لم يعد البطل واحداً، كما هو وضع أشياء كثيرة، تكون حاملة شبكة الرموز الكبرى في المجتمع الذي لا يكون أحادي التكوين القومي أو الاثني والديني أو المذهبي، تعبيراً عن عقد تاريخية واجتماعية بالمقابل، لينقسم مفهوم البطل هذا على نفسه، بمقدار ما يتميز المجتمع بانقساماته، أو شروخه السياسية، واضطراباتة الاجتماعية، وما يكون عليه سيستامه الأخلاقي وهو نتاج عملي وتاريخي، لللائحة العلاقات الاجتماعية- السياسية الكبرى بالتأكيد .

بالطريقة هذه، تطبّب منا الزمنّ المزيّد من ضبّط النفس، ومن الوعي الموازي، لنكون أكثر دراية بما يعنينا، جهة الانتماء القومي أو الاثني بالمعنى الأقل حضوراً دلاليّاً، أكثر احتياجاً إلى تلك الخبرات القاعية، وتلك المقيمة والمتحركة في شيات العلاقات التي تلون قيم المجتمع عموماً، وطريقة تداول هذه القيم، وكيفية تنفّسها، من خلال التماوجات الثقافية، والتقاط الأكثر دواماً وهيمنة لا بل وإرهاب أبعاد موجّهة، حيث إن القيم لم تكن يوماً مجردة، كما هي أرقام الحساب، إنما ما يصلها بالمحسوس الاجتماعي في سرّيان فعله التاريخي، لنكون إزاء هندسة القيم، ومصنعها، وطرق توزيعها، ومن ثم الحفاظ عليها، تعبيراً عن سيطرة إيديولوجية، هي السقف الأكثر امتداداً والذي تتسلح به السلطة القائمة. كان علينا، نحن الذين نشير إلى كلمة «البطل» وقد باتت «البتل» بكامل تداعياتها الاجتماعية، وأرضيتها الفكرية، وخيالاتها الحدودية، أن نرؤى كثيراً، وأن نكون شديدي الحيطه الحيطه والحذر، عندما نتهجأها، وهي تخصصنا، وقد علّمنا، أن لكل جماعة اثنية، كما ذكرنا، إشارات الخاصة، وتوجهاتها، وردود أفعالها، بالنسبة لكلمة البطل، عندما يكون البطل لدى هذه الجماعة معتداً به، ومحل تقريع واستهجان لدى الاثنية الأخرى والفاعلة في تمّتين البنيان السلطوي لها. وعندما لا يعود البطل مطلق السراح، لأن يشار إليه، إلا في سياق معين، وضمن وسط ممّتلئ: بشريّاً، وبصيغة معينة، تحسباً لأي طارئ. إلى درجة إمكان القول، أن التاريخ الذي نحتكم إليه، وهو محل خلافات كبرى، جهة الذين أسهموا في كتابته، أو في نشره كما وصلنا بعناوينه الكبرى، وكما أعلمنا به، ونحن على مقاعد التعليم الأولى، ومن ثم الدراسة الجامعية، ولاحقاً، من خلال تلك الكتب التي يُسمَح بتداولها، في المكتبات العامة، وتلك الرسمية بشكل أخص، ليس من

خلال العناوين التي تتصدر كتبها فحسب، وإنما حتى في تلك الداخلية منها، وما يشغل سطوراً أو صفحات، أو ما ينير ساحة الكلمة بعلامة معينة، خارج ما هو مراقب أو مرصود، وأن نكون على بيّنة ممّا نحن فيه، وكيف نقيم علاقاتنا، بحذر شديد، حتى مع أكثر المقربين إلينا، أعني بهم، من هم رموز وجود قومية لنا، في وسط ضار، وأن نبقي على أشد ما يكونه التنبّه إلى هذا المنزلق التاريخي أو ما صار أمنياً في عمومه، وهو الذي يحيل إليه كل شيء، مجرداً إياه من فاعله الإنساني المختلف إجمالاً، ماحياً كل أثر له، وملاحقاً، حتى طريقة التفكير فيه، باعتماد أساليب ترهيب مرئية ولامرئية، وهو ما أضفى على مفهوم البطل طابعاً من الكشكولية «الفيسفسائية» الهائلة والغرائبية «الإيكزوتيكية»، في مجتمع يعادي الاختلاف أو تنوع الألوان اثياً، وجمالية الاختلاف هنا وهناك بالمقابل..

كما تبين لنا نحن الصغار حينذاك، وفي مدارج العمر، ونحن نمتلىء بهجةً، لحظة سماع تلك الكلمة، وهي تخرج من أفواه آبائنا وأجدادنا وأهلنا ومن هم من بني جنسنا وقتذاك، ولحظة تقدّمنا في العمر، وتبين لنا ما يكون عليه مقام الكلمة تلك وهي ملفوظة، والضرورية التي تدفع مادياً ومعنوياً، أمام من يعتبرونا موجّهة إليهم، وللنيل منهم.

كان ذلك طبيعياً حينها، أي على أرض الواقع المرسوم، حيث اللغة التي نتكلمها، هي التي تعلّمنا، إن أمعنا النظر فيها، أنها تترجم من خلال طريقة التكلم بها، واستعمالها اليومي، ما تكون عليه اعتباراً ومكانة، أي حين تكون مرآة شديدة الحسية والمرونة في التعريف بواقع من يتكلمونها، ومن يتداولونها فيما بينهم، دونما حاجة إلى السؤال عنها، ممن ينطقون بها، أو تكون كما يقال بـ «اللغة الأم»، وهي إقرار بحقيقة شديدة الدقة عما يجري عملياً:

إننا لا نملك اللغات عينها، وعلى المسافة نفسها جهة المقام أو المقال في المجتمع. إننا لا نملك اللغة عينها، ولن نستطيع ادّعاء ذلك، حتى لو كانت هي ذاتها، حين نتكلمها معاً، وفي النوعية التي تعرّف بها تاريخياً فيما بيننا.

إننا في الوضع هذا، نكون معروفين من خلال لغاتنا المختلفة، أو لغتنا التي عهدناها فيما بيننا، معروفين للآخرين من خلال هذه اللغة التي تخصنا في الصميم، وذلك الامتحان الصعب الذي نتعرض له عبرها، من جهة أولئك الذين يمنحون لأنفسهم الحق في ترسيم حدود لها، أو منحها اسماً، أو كياناً معيناً، تبعاً لنظرتهم إلى من يتكلمونها طبعاً، كما في هذه الكلمة الجامعة المانعة، إن جاز التعبير، وهي أكثر من كونها مجرد كلمة طبعاً.

وهذا ما يتضح لمن يهमे أمرها، من خلال التركيز عليها، ومراقبتها، وأين تكون، ومن قبل من يجري التعامل بها أو معها، وفي أي زمان ومكان.

كان علينا نحن الصغار، أن نكبر، ونحن نعيش ندرة التصريح بمثل هذه الكلمة، تعبيراً عن ندرة الفرص التي كنّا نحياها، حيث نشير إليها، أو نسمّيها في أمكنة يجري التدقيق على سرّيتها، لئذْكر بعضنا بعضاً، أن هناك البطل الذي لا ينبغي الانقطاع عن تسميته، ولا التخوف ممّا يمكن أن يجري لنا، إن سمّيناه رغم أنّف من يعتمد قوى هائلة، مميّنة كما يقول التاريخ، لنحسن البقاء في الحياة، والانتماء إلى التاريخ الذي أصبح فيه بطلاً. دون ذلك، كيف يمكن لهذا البطل أن نعلمه حق العلم ما تعلّمناه منه، وما نقوم به، ونجعل للبطولة وضعيةً سيرورة؟

وكان علينا نحن الصغار، أن نحرص على عمرنا وكل خطوة نخطوها إلى الأمام، وكل نظرة نمسح بها الأشياء من حولنا، وألا نكبّر، ونتنفّس إلا ونحن جديرون بمثل هذا الترعّع والتنفّس، لئلا نمنح أعداءنا التاريخيين فرصة إيلائنا أكثر مما نحن فيه، أكثر مما نحن عليه.

إذ من الصعب جداً، أن يجد المرء نفسه وسط من يحتكرون البطولة باسمهم، ويعتبرون من عداهم إيذاء لتلك البطولة عينها، من الصعب جداً تحمّل وجع البطولة في وسط هو نفسه مبني على العنف، والحيلولة دون ظهور كل ما يصل أياً كان بها، بما أن البطولة التي ينسبونها إلى أنفسهم تقوم على نفي الآخر وحتى محوه وجودياً.

ولكّم تعلّمنا من هذا العنف الذي يحمل بصمة أعدائنا، ككرد، كم اكتشفنا من مفارقات التاريخ، ومعاناة الواقع، ونحن نمتص الغضب الهستيري لهؤلاء الذين يتحدثون بالنيابة عنا، دون وجود أي قرابة اعتبارية بيننا، وكّم كبرنا، كما هو حال العجين الذي يزداد له عجنًا، ليكون خبزه أكثر نكهة طعم اشتهاً بالمقابل، وتقوى صلاتنا بمن هم رموز لنا، أعني بها أولئك الذين خرجوا من خانة «الاسم المجهول» أو «الغفل من الاسم» إلى رحابة الاسم الكبير والممنوع من الصرّف، إلا بمعايير البطولة، والتي تجاوزت الحدود المحليّة له، وبمعانٍ شتى.

ولا شك، أن عليكي بطي، الممنوع من الصرّف اعتباراً بأكثر من معنى، هو الاسم المشدود إلى لقبه، وهو الصعب تلفّظه من جهة الذين يستثقلون تهجّثه على مقياس لغتهم ذات الباع الطويل تاريخياً بالعنف الذي يشير إليهم. اسم كردي، ولقب كردي بمحتواه، وهو ما كان له أن ينال مثل هذا الحضور في تاريخ تجاوز جغرافيته المديادية،

إن جاز التعبير، وذاكرة المحيطين به، ليكون اسم بطل، لا أظن أن كثيرين يتمنون أن يكونوه، أو ينبت في بيت كل منهم، وحي كل منهم، وفي مدينة كل منهم رجل، ليس كأبي رجل، هو عليك بطي.

هذا يفصح عن تناهي أوجه البطولة، عن مراتبها والمعنيين بها، وحديث البطل وعمره الرمزي.

الدال على ذلك، أن كثيراً ما يتم تداول هذا الاسم، بلسان الإنسان العادي، رجلاً أم امرأة، وفي مجالس عامرة، وبين شخصين أحياناً، دون أي معرفة فعلية بحقيقة أمره:

من يكون عليك بطي ؟

لماذا عليك بطي وليس غيره ؟

لماذا لا يكون عليك وليس غيره ؟

أين هو الآن عليك بطي ؟

كيف أصبح عليك بطي «هذا الاسم المغمور» في البداية، ذلك الاسم المشهور، وهو في يفاعه شبابه مهيوياً، مرهوب الجانب، وليس في نهاية عمره المقضي ؟

أسئلة تطرح في سياق هذه العلاقة بمفهوم «البطل». واسم يجري الاعتماد عليه دون تحفظ من قبل الكثيرين، دونما حاجة إلى معرفة من يكون فعلاً، وابن من يكون فعلاً، وأي بطن حملته وأنجبته، وأي أب احتضنه. فبالنسبة لطريقة تعامل مع اسم معلوم كهذا، وفي مقام البطل، لا يهم من يُسميه حرفياً، كونه يعرف أنه اسم كردي أولاً ؟ وأنه يشير بذلك إلى بطل في زمانه، واستثنائي جهة البطولة ونوعيتها ثانياً، وهذا يمنحه امتيازاً شرفياً.

والبطل الذي أسمىه، وكان موجوداً قبلي، وسيستمر بعدي بالتأكيد، يحمل بصمة زمانية- مكانية، وفي مواجهة تحديات ما كان له أن يكون بهذا الزخم الاعتباري، إن لم يعيش مرارة التحدي، ومغامرة المجابهة: أن يكون رجل تحديات، بطلها، لا «شقياً» بلسان ألد خصومه تركياً.

وأن يكون المرء بطلاً، ويشغل أهل السيف والقلم، كما يقال، وله أرشيفه الكبير، ففي ذلك مآثرة:

اسم لشخص، في مواجهة جبروت دولة طاغية، ومن معها، ممن ينتشون بالدخول في ركب أعداء شعبهم، ليس من اليسير قياس المسافة الفاصلة بينهما: شخص ودولة،

وهي بغطرستها مادياً ومعنوياً، يتطلب كل ذلك، المزيد من المكاشفة، من التحري في أصول هذا المنبع التاريخي المنفجر، والذي يمضي بنا إلى ما وراء أكثر من قرن حيث كان رحيله المأساوي، إلى قرابة قرن وأربعة عقود من الزمن، حيث كانت ولادته، كما يقول تاريخه. إنما إلى أكثر من قرون، للوقوف على حقيقة هذا العدو الذي تراكم بمروزه ودسائسه، في مواجهة الكرد.

وحين أقول ذلك، فلأن الذي يهمني أمره، وربما غيري في وضع كهذا الذي أجدني فيه، وهو أن ليس أي عداً لا تجاه بني عثمان، أو تركيا، أو غيرهما، ممن يعرفون بتاريخ من علاقات الكراهية والعداء المستفحل تجاه الكرد وجوداً ومصيراً جهة الدول التي تقاسمتهم، إنما، ما يثير ذاكرة من الحساسيات الكبرى، هو أن لأولئك «أعني بهم بني عثمان، وتالياً: تركيا، والأنظمة الموازية لها في عنفها الموجه» من لا يكفون عن استعداد الكرد، وأنا واحد من هؤلاء الكرد، والأكثر توضيحاً، أنه لم يكن لبني عثمان التاريخ نفسه، أو «الهوية» الجغرافية والثقافة نفسها، وبأكثر من معنى، لولا التواجد الكردي في المنطقة، وقد علوا راياتهم فوق أكتاف الكرد، وأن تركيا هذه «الاسم الحديث أو المستحدث جداً تاريخياً، ليس له أي معنى تاريخي، ولا وثيقة فعلية، إلا من خلال العنف الدموي الذي كان للكرد، أكثر من سواهم، وإلى هذه اللحظة بالتأكيد، الثمن الباهظ له: مادياً ومعنوياً» لازالت تستمر بمنطق «تتريك» كل شيء، وإلا فليغيّب جانباً.

ليس هذا فحسب، إن ما يزيد الطين بلة، والألم إيلاًماً، هو ما يجعل الحاضرين في المكان وممثليه في المكان كذلك، والكرد، بصورة رئيسة، طارئین، وما يترتب على ذلك من مطاردات وملاحقات، وبعثرات، وهو تأكيد صريح على أن هذا العنف المتنامي يترجم طارئيتهم.

نعم، ولئلاً، يقال لنا، أنني سميتُ كردياً واحداً، بوصفه البطل الوحيد في فضاء الذاكرة الكردية، أو التاريخ الكردي الذي وصلنا أو أطلعنا عليه، كما يُظن. وهذا خطأ وألف خطأ وخطأ. فليس من جهة كردية، ليس من زمان كردي مقتطع، إلا ويقدم لنا بطلاً من طينة مختلفة، دون ذلك يستحيل علينا الحديث عن الكرد ووجودهم في التاريخ، وكيف تعامل معه أعداء الكرد، أو ممن سعوا إلى طمس الاسم الكردي أو تشويه صورته. سوى أن الحديث عن عليكي بطي، وكما سيعرف لاحقاً، حديث يتعدى نطاق الاسم الشخصي، كما كان تناولي لابن عمه حاجو الثالث، وفي سياقات تاريخية وثقافية مختلفة، على وقع التاريخ المختلف لكل منهما، ولأن في إضاءة معلّم

هذه الشخصية المضاعة من الداخل، إضاءة لجهات كردستانية بالمقابل، وهو نزيل الكتابة والصوت المغنى به.

كما لو أنه لم يمُتْ، لم يرحل عنا، بالمفهوم المادي، ولأن حيثيات التاريخ التي تحيط به، تضعه في صورة الحدث الأكثر مأساوية وملحمية كما لو أنه يعيش معنا إلى هذه اللحظة، على صعيد القوى الفاعلة في بنية هذا الحدث، وما يضيء حاضرننا.

ولا بد أن الذين يقيمون علاقات فعلية مع هذا التاريخ، يقدرّون عنف الأعداء وألأعيبهم ضد الكرد، وتركيا، وقبلها: الدولة العثمانية التي أفرزت الكيان التركي، أو طرحته حصيلة مخاض طويل طورانياً، بعنف تاريخها القائم، ترينا مثل هذا التركيز على الكرد.

من الضرورات الأخلاقية الكبرى، وإرادة الوعي الكبرى بالتوازي مع تلك، في الحالة هذه، أن يكون لي أبطال، أعنى بهم، أو أبحث عنهم، أو أحاول السؤال عنهم، إذ إن هناك من هم أبطال في الوسط الشعبي، وهو ما يعطي سلسلة الأبطال، وهي في تنوع حلقاتها تلك الديمومة والعافية الاعتبارية، لا بل ويغذي آمال الشعب وتوقه إلى حياة أكثر استقراراً.

ولهذا، فإن عليكي بطي لم يفرض نفسه عليّ ككاتب، إنما ذلك الإرث التاريخي، الأسطوري، والفولكلوري الذي عايشته في أمكنة مختلفة، كثالوث منفتح على رحابة الزمان والمكان، هو الذي حفّز داخلي إرادة الكتابة.

أقول ذلك، وأنا أتابع ما هو منشور، وما هو مرئي أيضاً. أي إنني أسمع وأرى، حيث تبرز النجومية في أسماء، أو شخصيات كثيرة، من الإنسان العادي، الذي يفاجئ من حوله، وحتى أهله بخصال وفي موقف معين، وقد ارتقى إلى مستوى البطل. يصادق على كونه حقيقة، ويعترف به عملياً، بصيغة ما. يعني ذلك أن داخل أي منا ما هو كامن، ما ينتظر ولادته، ومن ثم اكتمال ظروف تشكّله، ليعلن عنه بطلاً. لكن ندرته تعني أنه غير متاح لأي كان، ولن يكون في مقدور أي كان، أن يصبح بطلاً. وأنا أشدد على ذلك القائم بأعمال تركّيه بطلاً، وتؤبّد صفة البطولة فيه خارج حدود زمانه ومكانه، وليس عما يُستهان به هذا الاسم، كما هم هؤلاء الذين يعلن عنهم في منابر رسمية، أو محسوبة هنا وهناك أبطال أمة، شعب، أو كتاباً فعليين، أو قادة يشهد لهم بروعة قيادتهم، أو زعماء يدخلون التاريخ من بابه الواسع، وليس عبر تزكيات شعبية... كل ذلك خارج نطاق ما أعنى به.

ما يجمع بين التاريخ والأسطورة والفولكلور، هو هذا الممنوح سمّة متعدية لواقعه. يسمّيه التاريخ، إنما ليس بين «يديه» من المعلومات التي تؤهّله لأن يُحيله إليه فقط، ففي التاريخ، وفي وضع كهذا، هناك دائماً ما يفتقده منطق التاريخ، حتى لو أنه عامّ على بحر لجب من الوثائق والوقائع، حين ينبغي المرشّح لأن يكون بطلاً، حامل سمات تعنيه ولا تتكرر في غيره. التاريخ لا يصنع أبطالاً، إنما الأبطال هم من يقفون وراء ظهور التاريخ، وهو يتجدد، وفي عالم كل بطل من النوع المذكور، يتوافر تاريخ، إنما دون أن يتلبسه التاريخ، وهنا، تكون الأسطورة حاضرة، وهي تمارس لعبتها، أو تعلن عن مهمتها لتقديم بطلها الموسوم، عبر خيال ليس معطى للمؤرخ، كما في حال اللاتوقع في مسلك شخص ما، والاستمرار في هذا المنحى، وليصبح شعبياً، جهة ارتباطه بمثل عليا، يتلمس هذا الشعب أو ذاك فيه أهلية بقائه في الحياة.

من جهة أخرى، تكون البيئة الاجتماعية التي تشهد ولادة شخص استثنائي كهذا، هي الحاضنة الكبرى له. كما لو أنها بمكوناتها الطبيعية، والذين يعيشون فيها، عبارة عن صهارة كيميائية، لإبراز شخص كهذا. وبالتالي، فإن ما لا يُسمّى جهة التذكير بالاسم، يتكفل الموسوم بطلاً بحمله، كما في الكثير من الحكايات التي تتحدث عن البطولة ذات الصلة بما هو اجتماعي وسياسي وقومي. في البطل، يجد الذين يتلفون حوله، دون أن يكون لهم اسم، أو قائمة اسمية، فيكون هو من يُسمّيه، وما هذه الوفرة من الأغاني التي تفصح عنها إلا تعبيراً عن ذلك.

ولهذا يقولون أن لكل بيئة مسبكها، وحبكتها، وبدعتها أيضاً لطرح أسماء خارقة، تفترضها خاصية البيئة هذه، تتناسب والمعادن المنصهرة رمزياً داخله.

حسبي أن أشير إلى ما يقوله أحدهم، جهة البطل ومتحولاته في التاريخ:

(في عالمنا المحبط، لا تزال بعض الشخصيات الرائعة تبدو نشطة للغاية. فيشهد أبطال الشوارع والساحات ومحطات المترو والمدارس التي تحمل الاسم نفسه على الاختيارات والمعارك السياسية والأخلاقية السائدة في مجال تاريخ التمثيل. ينشأ مصطلح البطل أيضاً يومياً بمناسبة خبر، أو التزام رياضي، أو فيلم، أو مسلسل تلفزيوني. نتاج النظام الإعلامي، لم يكن اسم البطل منحوتاً في الحجر ولا مطلياً بالميناء. يرتدي القماش الخفيف والعاجل الذي تقدمه الورق المطبوع أو بكسل الشاشة. نتفهم من خلال تنوع ظروف مصنعه صعوبة رسم صورة شخصية للروبوت. تزداد الصعوبة بسبب القرب أو حتى تراكم الشخصية البطولية مع نماذج أخرى من

التميز مثل الآلهة والشهداء والمشاهير، وقبل كل شيء، الرجال العظماء. ما هي مكانة ديغول أو زيدان أو هاري بوتر، على سبيل المثال فقط هؤلاء الشخصيات البارزة الذين سكنوا مخيلة حديثة؟ يمكننا أن نرى أنه تحت اسمهم العام، فإن الأبطال هم في صميم قضايا ذات طبيعة مختلفة.

كتب أندريه مالرو في الأمل L'Espoir: «لا يوجد بطل بدون جمهور». المنتصر أو المهزوم، البطل هو أصل الطائفة. عملها، حقيقي أو مخترع، معروف فقط لأنه مدعوم بخطاب (ملحمة، ملحمة، أغنية، درس في التاريخ، مقال صحفي، تصوير، فيلم...). هذا ما تعلمنا إياه قصة جلجامش، الملك السومري لأوروك، التي ترتبط مآثرها الأسطورية بميلاد الملحمة بين الألفية الثالثة والثانية قبل الميلاد. لذلك يجب علينا أن نميز بين الفعل الشجاع والفعل البطولي، لأننا نفصل تاريخ الحقائق عن تاريخ التمثيل.

في حين لم يظهر جميع الأبطال بالضرورة شجاعة حقيقية، لم يصبح جميع الأفراد الشجعان أبطالاً. يتم تعريف الأخير من خلال حقيقة أنهم مروا دائماً بالمصنع البطولي، وهي عملية لبناء صورتهم للأبطال.

وبالتالي يتنقل البطل بين التاريخ والذاكرة، بين البطل السلبي والبطل الإيجابي، بالنسبة للکرد في منظور أعدائهم، وبين الذاكرة التي تعيش سخونة مكوناتها، بالنسبة للکرد، جراء المآسي التي تعيشها، في تنوعها، والذاكرة التي تعيش شبق وقائعها بالنسبة للذين يعيشون فتنة السلطة والعنف ضد غيرهم، كما في حال المتعاملين مع الكرد سلطوياً هنا وهناك.

نعم، مع الزمن، نتعرف على أبطال لنا، بلغات شتى، نختار أبطالاً لنا، بمقاييس شتى، نبحث عن أبطال لنا، بمعايير مختلفة، نركب أبطالاً لنا، بتصورات شتى، ونقيم حوارات، سجلات، مناظرات، مع أبطال لنا ولغيرنا، لنعرف أبطالنا الأقرب إلينا أكثر، كما هم أبطال سوانا، أبطال يعنوننا، بمقدار شغفنا بالحياة التي نتوسلها.

ونعترف بيننا وبين أنفسنا، مناجاة، أو في صمت، ارتحالات البطل، واختلافه في المعنى، من تاريخ إلى آخر، ومن حالة نفسية إلى أخرى، وداخل اللغة عينها.

لهذا، فإن الاعتراف بفعل البطل الاستثنائي يضعه في ماضٍ مباشر أو ما هو أكثر أسطورية منه. في الإلياذة، على سبيل المثال، يخبرنا هوميروس أن رجال عصره لم يعد لديهم القوة نفسها مثل مقاتلي حرب طروادة. في اليونان القديمة، كان الأفراد الذين

تعرّضوا للعبادة البطولية من مؤسسي المدينة والملوك وأسلاف أسطوريين إلى حد ما، وبعضهم لا يقومون بالضرورة بعمل استثنائي، ولكن جميعهم ماتوا وشهدوا على «حقبة مظلمة وغابرة».

هذا الحنين إلى العصر البطولي يذكرنا بأن البطل ينشر إيماءة في عالم الذاكرة. سواء كان مصدره عالم الخيال أو التاريخ الحقيقي، فقد أعاد تصميمه خيالننا. توضح شخصيات رولاند وآرثر هذه المسامية الشديدة بين الواقع والخيال. إن واقعهم التاريخي مشهود بشكل ضعيف، لكن وجودهم الأسطوري هائل..

في العصور اليونانية، البطل محفور في مساحة وسيطة بين الآلهة والرجال. تدشن الثورة مفهوم البطل الذي يستمر حتى اليوم.⁽¹⁾

وهذا يمضي بنا لأن نأخذ في الحسبان مقولة حيّة، وهي أن الأبطال تنوع هائل، كما هي مراحل التاريخ، أن هناك أبطالاً تكيّفوا مع بيئاتهم، وارتقوا إلى مستوى الأبطال، ومن هناك انطلقوا، ليكون لدينا أبطال آخرون، وهم يسهمون في تسليط الضوء على المخيال الجماعي الذي كان وراء ظهورهم، وفي الزمان والمكان، ولو أن هذا الزمان لا يشار إليه على طريقة المؤرخ، إنما وحده الباحث من يحسن الوقوف على هذا وذاك، ويحسن خيار الفعل في إبراز هذا أو ذاك بالمقابل.

(عندما نتحدث عن الأبطال خلال العصور القديمة، نفكر على الفور في الأبطال الأسطوريين، الذين لم يكونوا موجودين بالضرورة. مع مرور الوقت، تم إعادة تعريف سبب البطل، يمكننا الآن وصف البطل بأنه شخص قام بشيء غير عادي في حياته، ساعد في رفاهية البشرية أو شخص اقترح أفكاراً جديدة للعالم من أجل تحسينها. ومع ذلك، لا يوجد فرق كبير بين الأبطال الذين ينتمون إلى العصور القديمة وأبطال أيامنا بسبب خصائصهم، ولا سيما تلك الماكرة والذكاء فيها (المكر والذكاء من خصائص البطل الذي يعود في أغلب الأحيان)

بمرور الوقت، تغير مفهوم الأبطال بشكل كبير. في الواقع، لقد تطورت الأبطال كثيراً. وفقاً للثقافات، يمكن للبطل أن يكون ديمي ديو، أو شخصية أسطورية، أو سوبرمان أو مجرد شخص شجاع، وقد فعل الكثير من أجل شعبه.

(1) Tourret, Marc: Qu'est-ce qu'un héros ? www.cairn.info.

توريه، مارك: ما هو البطل؟

غالباً ما يكون البطل القديم بطلاً له قرابة مباشرة مع إله مثل هرقل، أو أسطوري يساعده إله مثل يولييسيس. يمكن أن يكون البطل القديم بطلاً خالصاً، أو خالداً، أو ببساطة إنساناً ذا قوة كبيرة أو مأكرة أو أيا كان.⁽¹⁾

ولدينا نماذج من البطل، تصل ما بين الشرق والغرب، وفي هياكل مختلفة، ولجعل الفكرة أكثر قابلية لأن تجد طريقها إلى النور مقروءة بتوسع أكثر، هناك روبن هود، حيث سيشغل مساحة لافتة في الكتاب، من خلال المقارنة بين عليكي بطي، وبينه، رغم الفاصل الزمني بينهما، وما يمكن أن يقال في روبن هود، وعنصر التخيل اللافت في صنعه، إلا أنه في جوهر تكوينه، يشكل نموذجاً مغريباً لطرحها بجوار عليكي بطي الذي يعتبر شخصية حقيقية من لحم ودم.

وتحديداً عندما نجد هذا الانشغال الكبير به، ورؤيته في حقول فن وأدب: (جعل الأدب والفيلم روبن هود من أكثر الشخصيات الخيالية شعبية. مغامرات هذا المتمرّد في غابة شيرودود الإنجليزية، المنتدبة من قبل أعضاء فرقته ومستعدة دائماً للسخرية من شريف نوتينغهام أثناء مغازلة سيدته المحبوبة ماريان، أوجدت له مكاناً في الخيال الجماعي.

حلم المقاومة للسلطة

يرتبط نجاح الأسطورة بالطريقة التي يتعرف بها الأشخاص على الشخصية. أي نوع من قطاع الطرق يمثل في القصص؟ ويرى المؤرخ إريك هوبزباوم أن روبن يجسد المثل الأعلى لقطاع الطرق الخاصين بالفلاحين الأحرار، وهي حالة مشابهة لحالة القوزاق في روسيا أو الهايدوك في المجر والبلقان.

يقول جيمس هولت، حول ما تقدم (إن قصص المحظورين تم تصويرها في سياق المساكن الأرستقراطية وعكس استياء طبقة النبلاء أكثر من استياء الفلاحين، ومن هنا كانت صداقة روبن مع الفارس السيّر ريتشارد في لي، الذي ساعده على استعادة التركة التي تمت مصادرتها منها بشكل غير عادل. يربط باحثون آخرون عقلية روبن هود مع الأخويات والشركات الحرفية الصغيرة في المدن الصغيرة، أو بشكل أعم، مع الطبقة الوسطى من عامة الناس والفلاحين المحاصرين بين تراجع الإقطاع

(1) Comment la notion de «héros» s'est-elle progressivement transformée depuis l'Antiquité ? sites.google.com.

كيف تغيرت فكرة «البطل» تدريجياً منذ العصور القديمة؟

والرأسمالية الناشئة. أخيراً، استنتج المؤرخون المعاصرون مثل ستيفن نايت أنه لا يمكن أن يُنسب إلى سياق اجتماعي واحد، ولكنه كان دائماً يجسد حلم المقاومة للسلطة.⁽¹⁾

أقول ذلك، وأشدّد على نقطة اعتبرها غاية في الأهمية، وهي أنه من الظلم الكبير، يتشكل ضعف وخور وكذلك وهنٌ في نفوس الكثيرين، إنما في الوقت نفسه، تتشكل عزيمة وقوة مضادة بالمقابل، وهو ما نتلمسه في انتفاضات الشعوب وثوراتها وتمرداتها ضد أعتى القوى الطغيانية، وبرز أبطال في قلب هذه المجاهبات ومساراتها.

وحين أقول ذلك، فإن ما يثير قواي النفسية إلى تثبيت نقطة في غاية الأهمية بالمقابل، وهي: أن ليس من شيء، أي شيء يشدني إلى عليكي بطي، جهة القرابة العائلية، أو العشائرية المباشرة أو الجيرة، بمقدار ما أن هناك أكثر من شيء يشدني إليه، أو يبقيه في دائرة اهتماماتي الفكرية والنفسية، ويفرض ظله على تفكيري:

في الحالة الأولى، إبعاداً لأي شبهة كلام، أو حديث، عما يجعل الكتابة عنه، مهما كانت مصداقيته، على أنه كيل المديح العائلي- العشائرية، لفرد من أفراد العائلة- العشيرة، وهو ما ينزع عن الكتابة هاجسها المعرفي، وهو ما نتلمسه، ودون حساب، في أوساطنا الثقافية، من جهة من يقومون ويقعدون إجمالاً على مثل هذه «الجرعات» ذات الصبغة الجانبية، وبطريقتهم في نسف كل قيمة اعتبارية لكتابة كهذه، يعرفون أنفسهم إنسانياً.

وهو ما تناهى إلى مسمعي، وقيل لي، من أكثر من جهة، بنوع من الاستفسار، عن نوعية القرابة التي تصل ما بيننا، وأنا أخرج كتاباً عن «حاجو آغا» في ألف صفحة. وهو ما يصعب على عقل مهلهل، ومؤطر كثيراً، استيعابه، أو مصداقة سجله التاريخي المثير.

بينما في الحالة الثانية، فتمة ما يبقيني في الساحة الأوسع لما هو ثقافي، ودون أن أبرئ ذمتي، بالقول عن أن كل كلمة أسطرّها خالية من أي ميل اعتباري جانبي. ثمة ما يجعل ما عليكي بطي أكبر من حدود «آل أوصمان/ أوصمين» أو «هفيركان» في مجموعها، وليكون له رصيد ثقافي، نفسي وقومي كردي، تعبيراً عن أن اللباس الذي خرج به عليكي بطي، لا يحمل أي شارة أو علامة مما ذكرت، في العموم، إنما هي دمغة الكردية فيه حصراً، ولأن حياة عليكي بطي، وهي في بنائها التاريخي،

(1) Julio Rubén, Julio- Valdés Miyares, Valdés: Robin des boi Julio a-t-il vraiment existé ? nationalgeographic.fr.

روبين، خوليو- ميارييس، فالديس: هل كان روبين هود موجوداً حقاً؟

الأسطوري، الفولكلوري الغني، يعجّل بمثل هذه المتابعة، وكذلك، بمساءلة أكثر من تاريخ، في أكثر من شخصية، كان عليكي بطي حاملها، وأن ما أثرته في مؤلفات لي في هذا المضمار، ربما ينير ساحة القول أكثر هنا، حيث تعرضت لرموز تاريخية، ثقافية وشعبية: من قاسم مقداد، إلى نورالدين زازا، إلى جكرخوين، فمحمد اوزون، وحاجو آغا... الخ. إنها وجوه متداخلة بعمق هنا .

أحسب أن من له مثل هذا الرصيد الذي لا ينفد من البطولة النوعية، جدير بتناوله في أكثر من كتاب، وهذا يمنح عليكي بطي مثل هذه المكانة، رغم أنه تعرّض لغبن كبير، جرّاء هذا الإهمال، وهو أهل لأن يطرح عليه أكثر من سؤال، ويجد هذا السؤال صدها في الجهات الأربع، كردستانياً. وبما ينير ساحة الكرد قبل غيرهم !

أذكر أنه في بداية كتابه الجامع بين التأليف والإعداد «عائلة جميل باشا الدياربكري والنضال القومي الكردي»، وكما سنتوقف عنده، في أكثر من مقام وفصل، يشير مالميسانج/ مالميسانز إلى واقعة طريفة وموجعة، جاء فيها :

في بداية عملي هذا، أَرغب أن أبدأ بقصة قصيرة عثرتُ عليها بين طيات الملاحظات الشخصية لـ «أسعد سزائي جميل اوغلو»: يلتقي قطُّ بأسد في الغابة:

يتساءل الأسد :

-أنت من نسلي، فلماذا بقيت صغيراً هكذا ؟

يجيب القط:

-من نير ظلم بني البشر.

الأسد :

-من هم بني «بنو» البشر ؟

القط:

-أذهب معي لأعرفك عليهم.

رويداً رويداً يقتربون من نهاية الغابة، حيث رأوا هناك رجلاً قد أسقط شجرة كبيرة ومنشغلاً بتقطيعها بفأسه.

يرى الرجل الأسد أمامه.

لما نادى القط ها هو بني «هم بنو» البشر، نادى الرجل الأسد وقال:

إيه، يا ملك الحيوانات. يتحدثون عن قوتك العظيمة، ليس باستطاعتي القيام بالتقطيع، هل تمد لي يد العون. مدّ الأسد بغرور كبير مخالفه للشجرة وأراد تقطيع فروعها. انتهز هذا الرجل الفرصة وضرب بفأسه رأس الأسد. فحاول الأسد الفرار وهو مغمور بدمائه.

القط:

- قف، إلى أين تفر؟

الأسد:

- استطعت أنت أن تحافظ على نفسك بهذا القدر تحت ظلم بني البشر، وهذا كثير جداً. لو كنت مكانك لما استطعت أن أحافظ على نفسي حتى بقدرك أنت؟

ينهي السيد أسعد قصته بإضافة هذه العبارة:

«نحن أيضاً، كوننا استطعنا أن نحافظ على بقائنا بهذا القدر رغم أنف ظلم بعض البؤر، فهذا كثير. ص11».

نعم، إن المتمتع بوجودان نقي، أو ضمير حي، وحده، من يكون على بيّنة من هذه المظالم التي عاشها الكردي، على أيدي أعدائه، ولبني عثمان، ومن ثم أخلافهم الأتراك في السلطة، القدح المملّى في هذا الطغيان، وهو يسأل نفسه كما يتساءل: كيف أمكنه «أي هذا الكردي» أن يعيش ويصل إلى عتبة القرن الحادي والعشرين، وما يراه راهناً، يدفع به إلى القول متأسفاً جداً، ومتوجعاً جداً: ألا ما أشبه اليوم بالأمس. وكيف أمكن للكردي أن يصمدوا في الحالة هذه، وهم في مرمى الأعداء، وهم في مرمى بعضهم بعضاً، وبالوكالة عن الأعداء، ولا بد أن ظهور أبطال في مثل هذا الخضم التاريخي الملتهب، متنوعة عليكم بطي، يشكل علامة كبرى على هذا التحدي.

ولم أجد ما يستجيب لذائقتي: التاريخية، الأسطورية والفولكلورية في مختتم هذا التقديم، أفضل من اقتباس مؤرخ التاريخ الجديد لوغوف، وهو في الأصل لفولتير، وهو يدشن به مشروع «التاريخ الجديد»:

(من بحث التاريخ الجديد للوغوف، فقرة: فولتير ومشروع «التاريخ الجديد»:

كتب فولتير سنة 1744 في مؤلفه تحت عنوان: «تأملات جديدة حول التاريخ» ما يلي: «قد يحدث قريباً للكتابة التاريخية ما حدث للفيزياء. لقد أدت الاكتشافات الجديدة إلى التخلي عن الأنظمة القديمة. ويمكن أن نتعرف على الجنس البشري من

خلال هذه الجزئيات الهامة التي تعتمد عليها الفلسفة الطبيعية اليوم»....». إنه من المستحسن أن توجد أرشيفات لكل شيء حتى يتسنى استعمالها كلما دعت الحاجة إلى ذلك، فأنا أنظر اليوم إلى المجلدات الضخمة وكأنها قواميس. ولكن بعد مطالعة ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف وصف لوقائع حربية، وبعد التمعن في محتوى مئات المؤلفات، وجدتني غير مطلع أكثر من ذي قبل. فأنا لا أعرف الفرنسيين والمسلمين من خلال معركة شارل مارتال أكثر مما أعرف المغول والأتراك من خلال انتصار تيمورلنك على بيازيد. أود أن أعرف على قوى بلد ما قبل الحرب لأتبين ما أسهمت به هذه الحرب في تزايدها أو في نقصانها. هل كانت إسبانيا قبل احتلال العالم الجديد أكثر ثراءً من اليوم؟ هل كان عدد سكانها في عهد شارل الخامس أكثر مما هو عليه في عهد فيليب الرابع؟ لماذا كان عدد سكان مدينة أمستردام لا يتعدى 20 ألف نسمة منذ 200 سنة؟ ولماذا يبلغ عدد سكانها اليوم 240 ألفاً؟ وكيف يمكن أن نعرف ذلك بصورة إيجابية؟ بكم يفوق عدد سكان انكلترا اليوم عدد سكانها في عهد هنري الثامن؟ وهل صحيح ما يروى في الرسائل الفارسية أن عدد سكان الأرض قد تقلص قياساً بما كان عليه منذ ألفي سنة؟....» هذه هي بعض المواضيع التي تستجيب لحب الاطلاع عند الناس عندما يريدون النظر في كتب التاريخ بوصفهم مواطنين وبوصفهم فلاسفة. لن يكفي الإنسان بمثل هذه المعطيات، بل سيبحث في العيب الأساسي والفضائل السائدة لأي أمة من الأمم، ويتساءل عن سبب قوتها أو ضعفها في البحر؟ وكيف وإلى أي مدى استطاعت أن تحقق تزايداً في ثرواتها منذ قرن من الزمن؟ إن سجلات الصادرات يمكن أن تنبئ بذلك. ويريد المرء أن يعرف كيف نشأ الفنون والصناعات، ويتابع انتقالها من وإلى هذا البلد أو ذاك. وفي النهاية، تشكل التحولات التي تمر بها عادات الناس وتقاليدهم، والتي تعرفها أيضاً القوانين، موضوعه الكبير. بذلك يمكن أن نعرف تاريخ البشر أحسن من معرفة جزء ضئيل من التاريخ الذي يتمحور حول حياة الملوك والبلابات. وبكل أسف أطالع حوليات فرنسا، فألاحظ أن مؤرخينا يصمتون عن كل هذه الجزئيات، ولا أحد منهم كان شعاره: «أنا إنسان، وكل ما هو إنساني ليس بغريب عني»⁽¹⁾.

لماذا هذا الاقتباس الطويل نسبياً؟

(1) لوغوف، جاك «إشراف»: التاريخ الجديد، ترجمة وتقديم: د. محمد الطاهر المنصوري، مراجعة: د. عبد الحميد هنية، منشورات المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2007، ص 100.

لأن فيه ما يطرح موضوع التاريخ، وقد أصبح أكثر تحرراً من مفهومه الضيق، أصبح أكثر انفتاحاً على علوم عصره، وعلى أناس عالمه، وسماع أصواتهم، أتى كانت مواقعهم، كما هو المقروء في الاقتباس.

ولأن الذي يطرحه متورنا فولتير، ومن خلال لوغوف، يعزّز ثقنتنا بالتاريخ، وهو أنه لم يعد محتكراً هنا وهناك، حتى من جهة الضليعين فيه، وفي عصر بات يفصح بعضه بعضاً، ويستعجل بموته، ليولد جديد من خارجه، مما يسمح للذين حرّموا من سماع أصواتهم وهم يتكلمون، أن يركّزوا عليها، ليكونوا أكثر تعبيراً عما في نفوسهم من مشاعر. ولأن فيه ما يحفّز قوى النفس لأن تكون أكثر ثقة بذاتها، وهي تسمي رموزها، كما هو مشروع لها.

أليس الذي أريد الكتابة في أمره، وهو ملهم الكتابة، أعني به الباعث على تدوينها، أعني به الوجود الفعلي الذي كان، والذي يريد أن يكون بطريقة أخرى، منتسب باقتدار إلى هذا الفضاء الثقافي المركّب والبديع ؟

أن أكتب عنه، عما أعرفه، أو أحاول معرفته، وما تمكنت من الاطلاع على الذي يقربني من تلك الصورة التي تخيلتها، منذ الطفولة البعدة، والتي امتلأت مشاعر وأحاسيس، وإلى هذه اللحظة وأنا أكتب هذه العبارة، هو أن أسطر ما هو تاريخ وليس بتاريخ، ما جعله أسطورة، وهو في كيان أسطوري خاص، ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، هو أن ألتقط تلك الصورة من عالم تاريخ كان، حيث كان في وسط مجتمعي، وفي بيئة مسماة، يتذكرها من كانوا هناك ذات يوم، رغم أنها لم تعد كانت ذات يوم، مثلما أنهم لم يعودوا كما كانوا ذات يوم، وقد أصبحوا ودائع أرشيفية تاريخية، ونفسية، وأن أمنحها قالباً آخر، دون أن أسيء إلى جوهرها ككائن حي، له حرمة، قيمته، شيمته، ومكانته، كما لو أنني أراه بكلتا عيني، وأسمع صوته الذي كان يتردد في الجوار، رغم أنني لم أراه يوماً «كيف لي أن أراه وبينه وبينني ما يستحيل رؤيته زمنياً ؟» وأنا أتابعه في حركاته، في جلوسه وقيامه، في صحوه ونومه، وفي أحاديثه مع من حوله، في هدوئه وانفعاله، في نظرته الخاصة المعبرة عن غضب معين، وفي انكفائه على نفسه، وحدهم الذين كتبوا عنه، أو من سَطَرُوا كتابات في ضوء ما سمعوه، أو خبروه في حياتهم، هم من يشكلون مرجعية تاريخية ومعرفية لي، حتى بالنسبة إلى أهله: أحفاده، ممن أعرف البعض منهم، وممن أتواصل مع البعض منهم، ومن لهم قرابة فعلية من شجرة العائلة ذاتها «أحفاد حاجو آغا». أن أكتب عنه كما لو أنني الوحيد الذي أقدمه في كتاب من نوع آخر، كما كان رجلاً آخر، وإلا لما كان باسمه الذي تعدى حدود مدياد وتوابعها،

أي عليكي بطي، وأن أستشرف العالم الممتد الآخر الذي له فيه قرابة ونسب: أسطورياً، كما تردّد حوله في طيّات الأغاني وهي تترنّم بأصوات لها مواقعها الاعتبارية والمختلفة، وأنا أتأمل هيئته وكيف تتماوج صورة حية من نوع مغاير لتلك التي تأرشفّت تاريخياً، والتموجية مختلفة من كائن لآخر، كما هو التصور الموجي للبحر أو أكثر، فعلى قدر العمر والسعة، يكون تعريف الموج بنفسه، أو بروزه عالياً، مشكلاً هضبات، تقعرات، تجويفات، رشقات مفاجئة، انبساطات، امتدادات، قمم ماء مرهوبة الجانب، وارتباطاً بأصله المائي «أي الموج». وأنا أحاول ملازمة ما هو نابض جسداً من لحم ودم، وهو يتلوّن، كما يتغير هيئة، تبعاً للصوت المغنى، أو للخيال ونوعية مقامه ومصدره طبعاً.

في هذا الصدد، يحضرني هنا «من الذاكرة» ما قاله ذات يوم رسول حمزاتوف عن اللغات مشبّهاً إياها بالنجوم، وهو (كل النجوم جميلة، فدعوني أنظر إلى نجمتي). ربما أمكن القول (الأبطال يملؤون الأرض، فلندع لكل مقيم على الأرض هذه، أن يحدد علاقة خاصة له ببطله، بأبطاله)، وما يكون موقع البطل، بالاعتبار الإنساني وحدوده.

هذا ما ينطبق على الشخصيات التي نتعرف عليها، أو تكون بيننا أو أواصر قريى ما. ويكون هناك تنوع في المواقف من الشخصية الواحدة عينا.

وما كتبته عن الشخصيات التي ألفت حولها كتباً، انطلقت من تصورات خاصة في التعامل معها. ذلك ما ينطبق على هذا الكتاب، وأنا أتعرض لعلليكي بطي زماناً ومكاناً وثقافة!

هذا يصلني لأن أرثّب الصيغ الثلاث:

التاريخ هو ما نحاول التأكد منه، والتعرف إليه من خلال مدوناته، وثائقه، أو أرشيفه، ومساءلة ما لم يدوّن باسمه.

وأن نتحرى الدقة في الكتابة، كما هو حقها، وفي معرفة الأصدق فيه، وما هو أبعد من حدود «الرواية الأدق» كذلك.

الأسطورة، هي أن تأخذ من التاريخ، وتدعه وشأنه، وقد أضافت إلى المنتسب إليه ما يجعله لافتاً للنظر، كما هو مفهوم الخارق، أو الاستثنائي، أو الفريد من نوعه.

الفولكلوري، هو أن يعرف في بعض ما هو تاريخي وأسطوري، ليتعهد المغني بالباقي، ولكل مغنٍ أساليبه في تكوينه بطريقة تبقيه هو وما لا يكون هو، حيث تتدخل المشاعر

والأحاسيس، وطريقة الأداء، ليقف المستمع في حدود، وقد أبانت عن أثر كائنها العميق، لا بل صار المستمع نفسه كائناً آخر، فما نسمعه يضيف إلينا ما هو جديد .

ومن المؤكد، وأنا أعيش الخمس الأول من القرن الحادي والعشرين، أنني شهدت أبطالاً وتعرفت إلى أبطال، وسمعت بأبطال من هم حولي، وعلى مبعدة عني، من هم أستمهدوا، ومن ظلوا أحياء، أو ساءت صحتهم الجسمية، لكنهم اكتسبوا صفة بطولية، إبار الغزو الداعشي الرهيب، بطولة جمعت بين الصغير والكبير، الرجل والمرأة، وأعيت في بنيتها، سدة هؤلاء الغزاة القتلة، ومن وراءهم، إفصاحاً عن أن الحياة تسمي دائماً أبطالاً جدداً، ومجرمين جدداً.

في الحالة هذه، يكون الحديث عن البطل، حديثاً عن بطل خاص، كما قلت، وتأكيداً على أن شعباً بلا أبطال، لا يمكنه أن يتنفس في التاريخ، ولا أن يصرح باسمه شعباً، وعلى قدر ما تكون أغانيه تنوعاً واختلافات، وجماليات.

لعله رهاني الأكبر، كما أنه موضوعي الذي «يكتبي» إن جاز التعبير، فأنا هنا على قناعة راسخة نسبياً، على أن الذي نكتب عنه أحياناً، ونعيش معه لزمن طويل، يصبح هو الكاتب، ونحن الموضوع، تحديداً، حين يمنح ذلك الباع الطويل في الاستمرارية، كما لو أن الذي يكتب عنه، يرغب في أن يكسب أو يمنح ذلك الباع في الاستمرارية.

لا أعينني هنا، أنني الوحيد في الميدان الذي يملكه هذا الشعور، إلى درجة الافتتان بالآخر، ونسيان حالة الوعي التي يجب أن تبقى دائماً موجودة، تجنباً لأي شطح تصوفي، أو نسيان أنه المفتت هو كائن حي، وعلى الآخر أن يحافظ على هذه الأمانة، وهذه المصادقية، وهي مسئولية أخلاقية قبل كل شيء، وإنما هناك آخرون، وبلغات شتى، وهم يكتبون عن رموز، تسمي أبطالاً، وفي حقول شتى، تبعاً لمتغيرات الزمان والمكان، كما قلت، وأن هناك، ربما من يقرأ عن عليكي بطي بالذات، أو يصغي، وملؤه خشوع وشجن وتأثر، إلى أغان تبقيه نزيل حياة تتعدى حدود الزمان النسبي، من يكتب عنه، من زاوية معينة، وربما أكثر في النطاق ذاته، وما في ذلك من وجوب تحرري المزيد من الدقة والتروي بالمقابل.

وما الذي يلزمني بالكتابة عنه، في الوقت الذي أكون على يقين تام «جداً جداً» أن الذي سيثيره هذا الكتاب، من استفزاز، وردود أفعال في الوسط الكردي، ذي المسحة الثقافية، كعاداته، أكثر مما أثاره كتابي «دولة حاجو آغا الكردي»، وبدءاً من عنوانه «الزعيم عليكي بطي: بطلاً تاريخياً، أسطورياً، وشعبياً»، وبشكل معتاد، بالنسبة للذين مازالوا يعيشون المناخات القبلية لتلك الفترة «قبل أكثر من قرن»، كما لو أن مجرد

تناول شخصية كهذه، وهي حاضرة بقوة «بغض النظر، عما يقال فيها من قبل أعداء الكرد، وذلك مألوف طبعاً» كما لو أن ذلك كاف لتأكيد علاقة ذاتية لا صلة لها لا بالتاريخ ولا بالثقافة، وما في ذلك من شبهة، دون السؤال عما يقدمه كتاب يتعدى الألف صفحة، وكيف جرى تأليف، وما هي نوعية مصادره...الخ.

سأوضح هنا نقطة ذات علاقة بموضوعنا هنا، وهي التالية:

كيف يمكن لي، كباحث وكرد، أن ألتزم الصمت، وأنا أعيش هذا الغمر من الكتابات التي تشوّه الكردي أمماً وأباً، تاريخاً وجغرافية، حيث يجري تصوير كل رموزه، ودون استثناء إجمالاً، في مختلف الدول التي تقاسمت أرض الكردي ووطنه إجمالاً، على أنهم، على أقل تقدير، مخدوعون بتلك القوى «الامبريالية» وسدّج، وبدائيون، وقبليون، ودون نسيان تهمة «الخيانة والعمالة»...الخ؟

بمعنى آخر: كيف يمكنني التعامل مع الكرد في تاريخهم المتقطع والملاحق من تواريخ الأنظمة التي تستبد بهم، ويجري تهميشه، لا بل ورفضه، خشية المطالبة بإنزاله في جغرافية تعنيه.

أي حين أرى، من خلال نوعية التعامل السياسي معه، على أن الكردي إجمالاً متهم حتى تثبت إدانته، وأن المستبد به تاريخياً، على عموم الأصعدة طبعاً، حتى وهو يرتكب مجازر جماعية في حقّه، غير مذنب حتى تثبت براءته ؟!

ألا يتوجب علي في الحالة هذه، ليس التعصب لصالح هذا أو ذاك، وتمجيد الكردي، كما هو المتداول تحزيباً هنا وهناك، وعن جهل بالتاريخ الفعلي، وإنما من خلال قراءة التاريخ في نصوصه وخلفيات النصوص هذه، وما الذي أريد ويراد منها، في مخاطبة الكردي نفسه ؟

كيف ألتمس في جل الكتابات التي تتناول الكردي «كما في النموذج التركي، وهو ما سنتعرض له» تلك الآلة الضخمة من الأكاذيب المعتمدة على أعلى مستوى «من البيت التركي، والبيت الكردي المترّك، إلى المدرسة، فالشارع، والمؤسسة، والجامعة...الخ» تبرز التركي الإنسان الذي لا نظير له كونياً، كما هو محتوى «طوبى لمن يقول أنا تركي» وأخجل من البحث في تاريخي، أو الكتابة عن أولئك الذي حملوا من الكردية الكثير في قلبهم، ورأسهم ودمهم، على الأقل بالتأكيد على أنهم ليسوا كما يُكتب عنهم، إشعاراً لهؤلاء الكتبة والساسة المزيّفين للتاريخ والجغرافية معاً، أن هناك من يكتب في يكتب عن الكرد، تعميقاً لوجدانية التواصل؟

كيف لي أن أغض الطرف، عما يتردد بلسان كاتب تركي معاصر، وهو يمدح «تركيا للأتراك ولمن يعلنون عن أنفسهم أتراكاً» ويمدح أتاتورك على سياسته، ويربط الكرد بالسياسة الخارجية لمن نالوا منهم، كما في حال الانكليز، كما يكتب متين آيدوغان، وهو ما سنتناوله لاحقاً:

(إن القبول والإعلان بأن جميع العناصر التي تعيش في الأناضول وتشكيل الأمة التركية هم أفراد متساوون وأحرار مرتبطون ببعضهم بعضاً من خلال رابطة المواطنة ليس فعلاً سياسياً يتم طرحه على أنه «متطلب اليوم günün gereği olarak». وخاصة فصل الأتراك والكرد، ذلك مستحيل بسبب التكوين الثقافي والتاريخي والجغرافية التي يعيشون فيها. إن قرارات الكمالية حول الموضوع صادقة، وهي تستند إلى الحقائق العلمية والاجتماعية.

فقد عرّف مصطفى كمال الأمة التركية هكذا «تأسست جمهورية تركيا لشعب تركيا تسمى الأمة التركية». ويتم تحديد تعريف «شعب تركيا» عمداً من الأمة ويتضمن عناصر من خلفيات عرقية مختلفة.

إنها نتيجة طبيعية وهي أن العامل المحدد يعطي الأمة اسمها ولغتها. والشيء المهم هو أن أفراد الأمة متساوون في كل شيء، وأن هذه المساواة تتحقق في جميع وحدات الدولة والمجتمع.

سمّى الفرنجة الأمة الفرنسية. ومع ذلك، بخلاف فرانك فرنسا، النورمان، الباسك، بروتون، البروفنس، الكورسيكيون... الخ، يتكون من خليط من العديد من البنى والأصناف العرقية... الأمة الإيطالية، من ناحية أخرى، كانت تتألف من الرومان، الجرمانيين، الأتروسكان واليونانيين إلى جانب الإيطاليين.

ترتكز الأمة التركية على بنية عرقية أكثر ثراءً من هذه. إذا عادت إلى جذورها التاريخية، من خلال السومريين والحثيين والليديين والأيونيين والتوحد مع جميع أنواع القبائل التركية والشركس والألبان والكرد واللاز... الخ، تم تشكيلها. ومع ذلك، فإن الأتراك هم الذين أعطوا اسمهم للأمة التركية، وهو العنصر الرئيس بلا شك).

أين يجد الكردي موقعه تجاه مقولة تاريخية موجهة كهذه؟ أليس الصمت دليل موافقة، وأن الموافقة تعني الانسلاخ عن الكردية، أي قبول الانصهار في بوتقة «التتريك» هنا؟ إن محاولت القيام به في كتابي الأول، وما أحاول القيام به، ليس

فَتَحَّ جبهة مع «الأعداء» وإنما النظر في تاريخ يجري التلاعب بحقائقه، وحتى باسمه حرفياً، أي ما يجعل من الكرد أنفسهم دون اسمهم، دون تاريخهم وموطنهم.

أقول ذلك، ليس لأنني أطيب خاطر أياً كان، أو أسترضيه بـ «صواب» ما أقوم به، وآمل ألا يكون ذلك استعراضاً، إنما ما أقوم بتلمسه من خلال قراءة ملموسة لوقائع ملموسة ليس إلا.

ولكم رأي من أمثلة أو حكايات تروى في سياقات تنفخ في رماد بارد، لإقرار حقيقة نفسية، كما الحال مع عليكي بطي، وعدم النظر في عموم التاريخ الشخصي وموقعه في الساحة السياسية التركية، دون النظر في طبيعة العلاقات التي كانت تقوم بين القبائل حينذاك وصراعتهم.

وأشدد هنا، وفي كل مكان، على عدم القبول بصوب أي طرف ضد الآخر، إذا كان الصراع بينهما من منظور تثبيت زعامة جانبية، وهو صراع يفيد العدو المشترك، سوى أنني أشدد على وجه نظري هنا، وتالياً، عن أن ليس من مسوغ، ولا بأي شكل، لمن ينخرط في صف الدولة، وهي تحارب طرفاً كردياً، كيف لا، وهو يسهم في إلحاق الهزيمة به، وينسبه كذلك، في الوقت الذي كانت الدولة تعتبر الجميع كردياً كما رأينا في موقف أتاتورك في مثال حي في الكتاب؟!

لهذا، فأنا أكتب عنه، أعني عن عليكي بطي، أكتب عنه زعيماً كردياً، وكما هو العنوان المثبت بالخط العريض طبعاً، وبيننا مسافة تتطلبها الكتابة، ولدي أسبابي التي تحفز داخلي إرادة أسلوب معين، ويمثل أمامي سؤال يتكرر وبالخط العريض «ما هو البطل اليوم؟»

إنه عنوان لمآح لمقال، قصير، ولكنه غاية في الكثافة، كما لو أن كاتبته «وقبل ثماني سنوات من الآن»، وهي باحثة وطبيبة وأكاديمية، ومهتمة بالأساطير، وهي أمانيه لوريلينييه، تعيش هذا الهاجس، مع معايير تذوقية من نوع آخر، وموقع ثقافي من نوع آخر بالمقابل:

(يتطور الأبطال وفقاً لعصرنا: نتطلع بشكل متزايد إلى أن المثل الأعلى للمحارب، المدافع عن شعبه، يفسح المجال لأبطال اللاعنف. قبل عشر سنوات، أعجبنا رجال الإطفاء في 11 أيلول 2001. في أيار 2011، كانوا متطوعين لتبريد المفاعلات النووية في فوكوشيما أو البحث عن ضحايا تسونامي على السواحل.

ما هو أصل «البطل»؟ Herôs في اليونانية تعني demi-god. لكن Heros باللغة اللاتينية تعني «رجلاً أو امرأة ذات قيمة كبيرة» وقد احتفظنا بهذا المعنى في

مجتمعاتنا أو في خيالنا. البطل هو رجل أو امرأة، وليس فرداً لديه قوى خارقة رائعة كما هو الحال في بعض أفلام هوليوود التي يعتبر منها فيلم: المنتقمون Avengers الأخير نموذجاً حزيناً. إنما البطل هو الذي يظهر فجأة، في مواقف معينة، شجاعة وقيمة.

وفي الأساطير، إنه بيسيته Psychée، وبيرسيفال، وإيليشا، وهو يوليسيس. في القصص، هذه الأساطير الصغيرة للطفولة، هانسيل وجريتل يواجهان الفقر والترك جنباً إلى جنب.

هل تعتقد أن هذه المغامرات ليس لها شيء مشترك معك؟ ومع ذلك، فإن هؤلاء الأبطال هم جوانب مختلفة منك: تبحث عن الحب مثل بيسيته Psychea «بسيته: تعني النفس أيضاً، م من إبراهيم محمود»، أو تدافع عن فكرة أو تقاوم شياطينك الداخلية مثل بيرسيفال، وتظهر براعتك مثل إيليشا، وحياتك رحلة مليئة بالتجارب، ومن مثل يوليسيس... فينتمي البطل إلى الصور النمطية الموجودة في اللاوعي لدينا والتي كشف عنها عالم النفس كارل يونغ، إنه جزء منا.

الأسطوريون مدربون حديثون جيدون ليصبحوا أبطال حياتنا. وهذا ما نخبرنا به جوزيف كامبل، المتخصص الأمريكي الشهير في علم الأساطير. وفي جميع القصص الأسطورية، يمر البطل بمراحل: رحيل، تجارب لإيجاد إكسبير «إكسبير حياة. المترجم»، ثم عودة. يشارك البطل هذا الإكسبير بالفعل مع الآخرين، إنه ليس فردياً أبداً.

وأعظم الأبطال هم أولئك الذين ينفذون الأرواح، ويبتكرون فكرة، ويدافعون عن طريقة حياة إنسانية مثل أونغ سان سو كي الحائزة على جائزة نوبل. ولكن إذا لم تكن أبطالاً بهذا المعنى الكبير للكلمة، فإننا ما زلنا نواصل البحث على المستوى الشخصي لتحقيق أهدافنا، والتغيير على المستوى النفسي أو الروحي، والعطاء في المقابل.

يبدأ هذا السعي دائماً بالشعور بعدم الرضا عن حياتنا الحالية: يمكن أن يكون تغيير المهنة، واكتشاف حب جديد، وتجسيد مشروع، واتخاذ قرار لحل أزمة شخصية. نستمع إلى هذا الصوت الصغير، هذه الدعوة الداخلية لإيجاد الإكسبير الذي نفتقر إليه، للخروج من متاهة مخاوفنا ومشاكلنا⁽¹⁾

(1)Amanieux, Laureline: Qu'est-ce qu'un héros aujourd'hui ? www.agoravox.fr.

أعني بذلك، حين لا نعود أبطالاً، إنما أناساً عاديين، حيث لا يُسْفَك المزيد من الدماء، ويكون لدينا بطلٌ لأنه يُنزل في الأعداء قتلاً، إنما البطل الذي يوقف سَفْكَ الدماء أكثر، ويقلل من وتيرة العداوة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وبذلك يكون الحد الأقصى مما يندرج في سَلَم البطولة في عالم اليوم.

أعني بذلك، أنني على يقين كامل مما أقول هنا، وهو أن داخل كل منا، هناك مشروع ولادة بطل ما، ولكن الظروف خارجاً، قد تكون عائقاً أمامه، وقد ينقلب مشروع البطل هذا إلى مشروع ولادة مجرم، في ظروف معينة، يؤذي مجتمعه، من خلال قدرات خاصة، لم تجد من يهذبها، ويمهد لها مجتمعياً، أعني بذلك، تلك الطاقات والقدرات التي يجب أن تراعى من قبل جهات معنية، وليس أناساً عاديين، وهي تحيط بأصحابها دعماً ودعاية لها «حتى بالنسبة لرجل مثل عليكي بطي، وحاجو آغا هنا، وفي الكتاب الأول» أكان في مقدورهما أن يصبحا على ما هما عليه، لولا محيطهما الاجتماعي، من خلال من احتضنوهما، ومن التفوا حولهما، مهما جرى أو يجري الحديث عن تلك القدرات الخاصة لدى كلٍّ منهما.

نعم، يحتاج كل مجتمع، وتبعاً لموقعه الثقافي، إلى أبطال دوريين، وليس ما يتردد في مباريات، أو تصنيفات ألعاب معينة، إنما أبطال يخرجون من داخل المجتمع، إنما ينتظرهم المجتمع على غير ميعاد، مثلاً يحتاج أشخاص معينون، إلى مجتمع، من هذا النوع، يُسميهم أبطالاً، ليحسنوا الاستمرار، ويفعلوا التنوع والإبداع داخله.

لا بد من إطلاق العفريت في الحالة هذه من قمقمه، حتى يمكن رؤيته، ومتابعته.

يعمل التاريخ بالطريقة هذه، إذ لا يمكن أن ننظر إليه حيادياً، وليس من تاريخ، دون بأيدي بعيداً عن السنة ناطقة من زوايا معينة بعلامات معينة. وهناك تاريخ طويل لغابة الأيدي هذه، والتمييز بين ناعمها وخشنها، بين كونها ذات مخالب، واعتبارها مقلّمة، وليس من إمكانية لدخول الغابة، ليس دون التسلح بالمعرفة فحسب، فهذه بدهاة طبعاً، وإنما بتلك الجرأة الخاصة التي تتطلبها معرفة تتناسب وعملية دخول الغابة، وإحصاء قواها، وإطلاق أسماء عليها، وتوقع الأسوأ في ذلك: المعاناة، والمكابدة، وحتى فقدان الحياة، وهناك من سنتعرف

أمانيه، لوريلىنيه: ما هو البطل اليوم؟

عليهم في هذا الكتاب، عاشوا مغامرة دخول الغابة، خاصة في موضوع كهذا، يهدّد كل من يتناوله بمكوناته الرئيسية، وكيف يجري التعقيم عليه هنا وهناك، وليس بمستغرب أن يكون ثمن كلمة معينة، تذاع في الهواء الطلق، حياة قائلها أو كاتبها، مثلما نجد من يدفع حياته ثمناً تعبيراً عن حرية تتجاوزها، وتعني جماعة، شعباً. نعم، الحرية حالة كيفية، ولكنها تقدّر كمياً أحياناً، عندما تتعلق بالمسافة التي يتم قطعها، والذين يتم التواصل معها، والزمن الذي يستغرقه كل ذلك، وما يتحقق منها واقعاً.

وهذا يوجّهنا صوب تاريخ أنسيّ فيه الكثير عن عمد، وسلب منه الكثير عن عمد، وحوّر، كما زيّف فيه الكثير عن عمد، وهدّد باسمه، وبسبب الحديث عنه، كثيرون، لإبقاء حقيقته مغيبّة.

المجتمع مفهوم «لبنّي» وخضّه تاريخياً، يولّد «زبدّة» منشودة، هي بطولاته ! ذلك يعني أنه لكي نبلغ النبع، قد يتوجب علينا صعود جبل التاريخ كثيراً.

وفي هذا الكتاب، ربما يجد القارئ نفسه وسط دغل كبير، أو في متاهة أحياناً، أو على مسافة بعيدة أحياناً من الموضوع الموسوم هنا تحديداً، ويتساءل: لماذا كل هذا الحديث؟ لماذا لا يُسمى «البطل» ويجري الحديث عنه دون كل هذا الكلام الذي قد يبعدنا عنه؟

ذلك صحيح، إنما، هنا يُطرح السؤال بالمقابل: لماذا جرى، ولا زال يجري التكتّم على عليكي بطي، وما يكونه حقيقة، كما كان الحال مع حاجو آغا؟ لماذا لا نجد له حضوراً في تاريخنا الكردي نفسه، دعك من الآخرين، وهؤلاء، وبغض النظر عن طبيعة كتاباتهم عن عليكي بطي، قد كتبوا عنه، وعلى أكثر من مستوى، ليؤكّدوا بأكثر من طريقة، أن هناك رجلاً، هو رجل تاريخ، وهو ليس عادياً، وأقلق دولة بكاملها وأكثر، لزمان محسوب هنا؟ ويفصلنا عنه قرن ونيف، وهو بمفهومه الكمي والنوعي يطرح نفسه علينا. ويتطلب منا أخذه بعين الاعتبار، قبل أن ندخل إلى منته قبل أن نطأ العتبة، أو نطرق الباب، هكذا بسهولة. أيجوز ذلك؟

عالم الاجتماع العراقي الكبير علي الوردي، كتب في مستهل تأريخه الكبير حول العراق، ما يلي (بداية: عند دراستي للمجتمع العراقي- وهو الموضوع الذي أولعت به زمناً غير قصير- أدركت أنني لا أستطيع أن أفهم المجتمع في وضعه الراهن ما لم أفهم الأحداث التي مرت به في عهوده الماضية، فكل حدث من تلك

الأحداث لا بد أن يكون له شيء من التأثير قليلاً أو كثيراً في سلوك الناس حالياً وفي تفكيرهم... ثم: إني لست مؤرخاً إنما أعتمد فيما أكتبه على المؤرخين..⁽¹⁾

هكذا ظهر له موضوعه: أن يكتب عن حاضر عراقه، لا بد أن يعرف ما كان عليه ماضيه، ومن بداية معينة، مهما كان غموضها، أو إشكالها، وباعتماد من كتبوا فيه وعنه.

أي مهمة بالغة الصعوبة تنتظرني، وأنا بصدد تاريخ، لم يشب عن الطوق، كما أحيط من أكثر من جهة في محيطنا، ومن قبل الذي مارسوا تفريقاً للکرد ولوطنهم كردستان، بعبارة لافتة، هي:

«انتبه! خطر الموت، توتر عالٍ» وبئس من يتحدث عن ثمن المعرفة السهل في وضع كهذا!

يحضرني هنا اسم المفكر التركي الكبير، وصديق الكرد الشهير اسماعيل بشكجي، الذي أمضى سنوات طوالاً من عمره الشبابي «أكثر من 17» سنة مجتمعة، في السجون التركية، لأنه لم يدخل غابة التاريخ التركية فحسب، وإنما سمى فيها الأيدي ذات المخالب، والمملوطة بدماء شعوب وأمم، وأضاءها من الداخل أيضاً، ولهذا سيكون له حضور لافت في هذا الكتاب.

سأذكر بمثال آخر، ومن خلال بشكجي نفسه، يخص باحثاً بريطانياً، وليس من منطقتنا، حيث خصص بشكجي عنه مقالاً، وهو ديزموند فرنانديز، ماذا يقول بشكجي؟

(في هذه المقالة، سأحاول تقديم بعض المعلومات القليلة عن الكاتب الباحث ديزموند فرنانديز. ديزموند فرنانديز لديه دراسات حول الإبادة الجماعية الأرمنية والإبادة الجماعية الكردية. لكنني لا أرى أن القارئ الكردي، القارئ التركي يعرف ويعرف ديزموند فرنانديز جيداً. هل يعرف القارئ الأرمني ديزموند فرنانديز، لست متأكداً من ذلك.

في كانون الأول 2013، نشر بييري كتاب ديزموند فرنانديز «الإبادة الجماعية للکرد والأرمن: إقرار الرقابة والحرمان Kürt ve Ermeni Soykırımları: Sansür

(1) الوردي، د. علي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج1، من بداية العهد العثماني حتى منتصف القرن التاسع عشر، دار الكتاب الإسلامي، ط1، 2005، ص 5-6.

ve inkardan ikrara». قام علي تويغان بترجمة هذا الكتاب، الذي نشره منتدى التعاون الاقتصادي لدول آسيا والمحيط الهادئ مرتين في السويد وستوكهولم في عامي 2007 و 2008، باللغة الإنجليزية. 410 صفحة.

وليعرف به: ديزموند فرنانديز مواطن بريطاني. يعيش في لندن. يكتب كتبه ومقالاته باللغة الإنجليزية. لديه العديد من الأعمال والمقالات حول الإبادة الجماعية الكردية والإبادة الجماعية الأرمنية.

وما هو لافت: من الواضح أن كتابات وكتب وأعمال ديزموند فرنانديز والموقف الذي أظهره أزعج الإدارة التركية. اتصلت السفارة في لندن شخصياً بمدير جامعة دي مونتفورد في بيدفورد، وجعلت ديسمود فرنانديز ملتحقاً بالجامعة. وانتهى تدريس ديزموند فرنانديز في الجامعة بهذه الطريقة.⁽¹⁾

لا أعتقد أن كتابة كهذه تمر دون تعليق: أنى لتركيا، وفي أيامنا هذه، أن تصل إلى بريطانيا، وتؤثر في سياسة بريطانيا التعليمية/ الجامعية عينها، وإلحاق الأذى ببطل معرفة تاريخي، بالطريقة هذه؟ لأنه دخل غابتها وأضاءها كثيراً.

لهذا، سوف نعبر أكثر من مرحلة تاريخية، أكثر من رقعة جغرافية، كما هي الخريطة الجغرافية المعروضة أمامنا: خريطة العالم، المنطقة، ثم تتم الإشارة إلى الإحداثيات المطلوبة.

ثمة صفحات يُنظر في أمرها، تفصلنا عنها عهود وعقود من الزمن، لا بد من تقليبها، للربط بين ما كان وما هو كائن.

يقال تبعاً لحكاية كردية، عن بيت تعرض لسرقات متتالية، وكان رجل البيت الطاعن في السن، يقول مكرراً: إذا أردتم أن تعثروا على سارق الثور «آلة عملكم ورزقكم الوحيدة في فلاحه الأرض» عليكم أن تعثروا على سارق الديك.

ألا يتردد أيضاً: من مستصغر الشرر يأتي الخطر؟

نعم، إذا كان لنا أن نعرف ما يحيط بموضوعنا، وبنوع من الوضوح المطلوب وتسمية ملابساته بدقة أكثر، لا بد من عودة إلى الوراء، حيث يمكننا تسمية بداية، لا تخفي منزلقتها الخطير وتأثيرها الكبير في تاريخ الكرد.

(1)Beşikci, İsmail: Desmond Fernandeswww.nerinaazad.org, 24.09.2016.

بشكجي، إسماعيل: ديزموند فرنانديز.

والعبارة التي أثبتتها هنا، كما سنرى: إذا أردنا أن نعرف ماذا يجري الآن، فعلياً بمعرفة ما جرى في جالديران قبل خمسة قرون، وهي مسافة تفي بالغرض نسبياً، ليعرف كرد اليوم أنفسهم، من خلال معرفة كرد الأمس، وقد وضعوا، ومن خلال «أولي أمرهم» اللبنة الكبرى لفجائهم.

لا بل ما هو قريب منا تاريخياً، وبما يخدم فكرة الكتاب هنا، وهو أن الخط الفاصل بين كل من نصيبين- قامشلي، أن عبارة «سرخت- بنخت» التي توحى بسهولة في المعنى، إنما تقدم جغرافية لم يدخر من دشنوها في التمزيق السايكس- بيكوي، جهداً، في إبعاد الكرد: أهلاً ومعارف عن بعضهم بعضاً، وأن هذه الـ«نصيبين» التي تكون على «مرمى حجر» كما يقال، أو بالعكس، شغلت الكرد في الطرفين، أو عليهما بالكثير من الأوجاع والهموم والمنغصات، بتفعيل من متقاسمي جغرافيتهم.

إنه الخط الحديدي «خط سكة القطار الحديدي» ودلالته الثقيلة الوطء، حيث شق مساحات شاسعة في خدمة الإمبراطورية العثمانية أساساً، والمصلحة الاستعمارية «الألمانية» واصلت بين جهات جغرافية، ليلحق بها المكان وأهله بتعدد ألسنتهم بهذه المصلحة، إلى بغداد، فالحجاز، وعمل فيه على مراحل، ومنذ أواخر القرن التاسع عشر رابطاً بين آسيا وأوروبا، لتتلاقى هنا مصالح استعمارية متضاربة، وتعبيراً عن نفوذها الجغرافي- السياسي.

إنما من حيث التحديد المكاني- الجغرافي، كردياً، أصبح حدوداً «سكينية» رغم سهولة تجاوزه، لكنه ضوعف في تمثينه وتحويله إلى خط مميت، حيث جرى تلغيمه في الجانب التركي لاحقاً، إشعاراً سياسياً وصارخاً بدلالة الخط وتحديه لإرادة المكان، عنف القوة...

وأن القابل للطرح هنا، هو أنه ليس مبالغة إن قلت، كيف أن «سرخت» يعرف من قبل بطي، و«بنخت»، من قبل حاجو، مهما تحدثنا عن حميمية العلاقة بينهما، فالتاريخ المختلف على الجهتين، فجر في ذكره كل منهما ثقافة متجاوبة معها، وعلى مدى عقود من الزمن، لتكون هذه الـ«رمية حجر» بحاجة إلى مغالبة أزمنة، بغية تسوية ما خلفه الخط الفاصل والملموم واقعاً، بأكثر من معنى، وتعمل ذاكرة منهما في السياق الذي يرفده تاريخ ما تلا «لوزان»، وما صنعت لوزان، وليس «سيفر»، وهذا ما ينبغي تبينه، وإن كان مسار كتابتي هو التحرك «عكس السائد»: كيفية اللحمة بينهما ما أمكن، دون ذلك، أعتبرني، كما يشرع لثقافة هذا الخط

الفاصل والمهدّد للطرفين واقعاً، وهي لحمّة لست من يقرّر مصيرها، إنما التاريخ الذي يقدّمها هكذا كثيراً.

وفي الوقت نفسه، فإن الإعلان عن «سرخت- بنخت» يفتح صفحة جديدة في التاريخ، ويكون نفيّاً ورفضاً للوزان، وتأكيداً لسيفر، لأن التسمية لا تخلو من سخرية هنا، حيث الخط الحديدي الذي يعبر عن طارئته هو المسمى هنا. أما الأهم هنا، وبالنسبة لـ «بنخت» فيحضر في البال حاجو الثالث، الذي يغيّر في مفهوم «بريّة ماردين» بالذات، حيث لم تعد بريّة، وقد توافد إليها من نزحوا إليها من «سرخت» وهي الأرض ذاتها، ليحيلوها دياراً عامراً وحقولاً وأراض زراعية مع الزمن، والأهم من ذلك، أن هذه البرية لم تعد تسمية جغرافية اعتبارية، إنما دخلت التاريخ السياسي للمنطقة، مع دخول حاجو آغا إليها، وأبان عن أهميتها، وتحديدًا، بعد انهيار الانتفاضة الكردية للشيخ سعيد سنة 1925، وليتابع حاجو من هنا ما كان يجب أن يستمر في «سرخت» عبر تقوية علاقاته مع الفرنسيين، والإعلان عن «خويبون» ومن ثم الدعوة إلى بناء كيان سياسي مستقل، أو نظام حكم ذاتي، يضم الكرد وغيرهم في منطقة انتشارهم، كما هو المقروء في نشرة فرنسية ترجع إلى «22 شباط 1930» وسواها، وربما كان ذلك أول تعبير صريح بهذا الجانب كردياً في هذه المنطقة، كما لو أن التخطيط لبناء مدينة قامشلي مع الكابتن الفرنسي «تريي» ترافق مع التخطيط لمثل هذا المشروع الآخر: السياسي: كيان سياسي مستقل في الجزيرة، إلى درجة أن وجهاء كرد، وربما إلى يومنا هذا، اعتبروا ما يقوم به حاجو آغا تجاهلاً لهم، وحتى اعتباره «محتلاً» لتلك البرية التي سكنوها قبله، وهو ما يتجاوب مع توجهات النظام العروبي إلى الآن⁽¹⁾.

ليكون أول من يطرح تصوراً كهذا، ويشدد عليه، بمجرد انتقاله إلى هذه الجهة. ولعلّي مشدّد على قول أن قراءة مستجدات «سيفر» وبالنسبة إلى وضع الكرد، أهم مما صار عليه الكرد في «لوزان»، فهذه كانت الابنة غير الشرعية لسيفر، في الوقت الذي ظهر فيه أولو الكرد مشهّرين ذكورتهم في بعضهم بعضاً، وفي خدمة من أدخل «سيفر» في المخدع الخلفي لتلك الأهواء، وهي خطط، والتي عرف بها سمسرة تركة الإمبراطورية العثمانية قبل كل شيء، ومن كانوا أكثر قابلية للتقرب

(1) يمكن الرجوع إلى هذه النقطة في كتابي «دولة حاجو آغا الكردية» منشورات نوده م، 2018، صص 707-709.

منهم، لإقصاء الكرد عن أي «فجوة» في التاريخ، مهما قدم من تبريرات حول مصير الكرد، في نطاق «لعبة الأمم الكبرى» المستمرة إلى الآن.

غير أن الشيء الذي أراه مهماً بخصوص «سرخت- بنخت» وما إذا كانا يمثلان ثنائية تحمل تناقضاً داخلياً، أم إنها مجرد تسمية إجرائية، كردية عامة، أم أبعد من ذلك.

من جهتي، لا أدري تحديداً، من كان وراء هاتين التسميتين المقابلتين، ومنذ متى، سوى أن هذا الخط الفاصل لا يعني إيجاباً للكرد، وقد أصبح حداً، والحد تلغى، والتلغيم تذكير بجغرافية أصبحت مهلكة ومهددة لأهلها الأصلايين أساساً.

أما الذي يمكن قوله، هو أن «بنخت» الذي شكّل ذات يوم «قبل ما يقارب القرن» برية يقل فيها التواجد البشري لجهة «سرخت» بمفهومه العمراني «نصيبين مشرقاً ومغرباً»، وأن بنخت في بنيتها شكّل ملاذاً مفتوحاً «أرضاً بكرّاً» إن جاز التوصيف، لمن أرادوا هدوءاً، أو طلبوا أماناً، حيث شهد «بنخت» على امتداد مئات الكيلومترات توترات وصراعات دامية.

وأن أخبار الصراعات القائمة فيما بين العشائر ذاتها، بين بعض منها والدولة، وتراجيديات كبرى كما في حال الإبادة الجماعية للسريان والأرمن، تناقلتها البرية هذه، وهي تحمل تأثيرات تلك الصراعات ومن خاضوها، ولهذا، فإنه ربما يسهل الحديث عن عائلات نازحة، وهي بتلك الذاكرات المدمّاة، أو الانشطارية، ذاكرات أهلية منقسمة على بعضها بعضاً، وتركت تأثيرها في نفوس المقيمين، ثم خضعت لتحويرات وتغييرات وإضافات وتشذيبات مع الزمن، مع تنامي أعداد العائلات النازحة، أو الهاربة من بطش الاتحاديين وغيرهم، وهي تنسب نفسها إلى قرى في «سرخت» وليس شمال كردستان، وكل مجموعة قرى داخلية في خانة عشائرية معينة، وليجري انشطار عشائري قليلاً أو كثيراً، تبعاً لصلات كل منها بالدولة «التركية» بالذات، وتمت تغذية ذاكرات «البنختيين» إن جاز التعبير من خلال موقعهم وانتماءاتهم العشائرية هناك في «سرخت» ونوعية القوى على الأرض، أكثر من كونها كردية متميزة.

وربما برز النزيف البشري في النزوح العائلي أكثر، ليس إلى نقاط قريبة من «سرخت» فحسب، وإنما أبعد بكثير، حتى في دمشق وسواها، وليكون للصراعات «السرختية» صدها أو تردداتها في الداخل «البنختي»، وربما أمكن اعتبار تداعيات

هزيمة انتفاضة سعيد بيران سنة 1925، البداية التي شهدت تنامياً في عملية النزوح، هرباً من عمليات القتل والترحيل والاعتقال الجماعية المنظمة من قبل مهندس التتريك الأكبر مصطفى كمال باشا، وأن يصبح حاجو آغا هنا «بنختياً» وأن يبقى عليكي بطي «سرختياً» فإنما هو حصيلة نهاية عليكي بطي، إنما الأكثر إبرازاً لحدث الانشطار، ما تلا هزيمة سعيد بيران، ف «جمهورية أتاتورك» عنت شيئين لا ثالث لهما: أن تصبح تركيا، فتسلم، أو ترفض التتريك، وفي الحالة هذه إما أن تتوقع أسوأ العواقب، أو تمضي بعيداً، بحيث لا تطالك آلة العنف الأتاتورية. ونال كل كردي نصيبه منها تبعاً لموقعه أو صلته بالنظام التركي الجديد، وهو بنسبه الجديد المدشن بقرار أتاتورك مباشرة. وقد اختلف الناس، كما تخالفوا فيما بينهم من ذلك التاريخ، على وقع ارتباطاتهم العشائرية ومواقعهم فيها.

ولعل هناك نسيان أمر معين في كل هذه «المعمعة» التاريخية أو الكتابية، لدى الذين يرون أنفسهم أقرب إلى هذا أو ذاك، أو يعبرون عن رفضهم للآخرين، أو يتحفظون على كل شيء يتردد تاريخياً، حتى مع الوثائق المقدمة، نسيان يتمثل في غياب مفهوم القوة اللاحقة دوراً لا يمكن تجاهله «دور البطولة». القوة هي التي تقرّر مصير كبريات الحقائق، وتفرضها على الذين من حولها، وترسم خطوط تحركات الحق كثيراً هنا وهناك. فكل الدول التي تشكلت تاريخياً، وعلى أعلى مستوى، كانت القوة عرابتها الرئيسة. هكذا يقول تاريخ دول المنطقة، وربما هكذا يمكن الحديث في الصلات بين العشائر في المنطقة، مع فارق من يبذل كامل قواه في مواجهة القوة الطاغية، لمنح قوته مشروعية بقاء أو استبقاء، وشرعنة حضور. وهفيركا أو هفيران، تاريخياً، كانت قوتها هي التي منحت لها هذا الامتداد الجغرافي، وضمناً قائمة الخطوط التي تسمي تحركات زعمائها، من اوصمان إلى حاجو الثالث. وهي قوة لم تتوقف، وربما تظهر ذات يوم، بأشكال مختلفة، كما هي هيئات الحقيقة، وهذا يتوقف على الذين يمكنهم درّس مسيرة القوة هذه داخل هفيران وخارجها، للمقارنة بينهما، بالنسبة لعلليكي بطي وحاجو الثالث، كمثال حي هنا، وموقع الشخصية الفاعلة في التاريخ سلباً أو إيجاباً، وفي جغرافية معينة.

والملاحظة التي تؤخذ بعين الاعتبار هنا، وكما سيتضح لاحقاً، وفق تصوري البحثي، هو أنه من الظلم بمكان وزمان كذلك، إجراء أي مقارنة بين كل من عليكي وحاجو، كما لو أن كلاهما صورة طبق الأصل عن الآخر، أو يعيشان في المكان والزمان نفسيهما. إذ إن جغرافية عليكي من السهل تسميتها: هفيركية، من السهل

الاهتداء، من السهل الحديث عما يُشبه الوشم على الجسد، وفي سيماء وجه كل من منتمٍ إلى هفيرا/هفيراكان، كما لو أننا إزاء ذاكرة الجسد الحية والمرئية، وتحدياتها في الجوار، وعلى مستوى الدولة. إن قراءة سردية حياة عليك تستحضر مثل هذه الجغرافية بكل حمولتها البيئية، الاجتماعية، السياسية، النفسية، والتاريخية، من السهل الحديث عن مجتمع هفيرا والقول بالإشارة: هو ذلك، كما سنرى. ذلك غير ممكن، ولا بأي شكل، بالنسبة إلى حاجوآغا: حاجو الثالث، وهو الذي خرج من الجغرافية تلك، لأسباب مختلفة: سياسية، تاريخية، قبل كل شيء، وفي صحبته، أو كانت حمولته من القوة البشرية: أفراد من عائلته، إنما حضور زخم من الإيزيديين والسرّيان، ليستقرّوا في جغرافية تطلبت الكثير لتجد طريقاً لها إلى التاريخ المختلف، لتتجسّد، لتصبح برّية ماردين حضريتها كثيراً، لنكون إزاء جزر هفيريكية متناثرة وفي محيط ديموغرافي، واثنى وديني مختلف، ونظام سياسي مختلف، إنتما لا تخفي قوتها وقدرتها على حيازة أمكنة وزمان فعال في «بنخت» بمهارة، ليؤسس حاجو هذا لذاكرة مكانية هفيريكية، وليس محمية هفيريكية، كما كان الحال في مدياد، أو مزيزخ وحدودها. حيث كانت شخصية حاجو الثالث بانتظاره، ومن حوله من هم مرتبطون به، وهو بدوره لا ينفصل عنهم، وخصوصاً الإيزيديون، بينما كانت أصول شخصيته هناك في مزيزخ. أي كان هناك حاجو، وأصبح هنا حاجو آخر بعلامات سياسية فارقة، وهي علامات صار لها اسم وكيونة سياسية وحتى كاريزمية في رسم الكثير مما عرفت به خريطة المنطقة «في الجزيرة السورية العليا» وأشير إلى دهائه وارتباطه بحسّ الكردية المتجاوزة لحدود المنطقة على أعلى مستوى حتى رحيله النهائي، وهذا ما لا يجب تجاهله⁽¹⁾، وقد

(1) للتوسع في هذه النقطة، وحول شخصية حاجو «الثالث» هنا، يمكن قراءة ما كتبه المؤرخ

الكردى الكبير الدكتور كمال مظهر أحمد في مقاله الموسوم بـ:

Haco axayê Hevêrkî û serhildana Agrî, www.bernamegeh.org

حاجو آغا هفيريكي وانتفاضة آكري، تاريخ النشر 4-9/2019.

ويشار إلى أنني لم أجد اسم الكاتب مرفقاً بالمقال، وهو منشور أساساً، قبل ذلك سبع سنوات، بتاريخ 12 أيار 2012، وللمترجم نفسه إلى الكردية «الكرمانجية» أي ضيا آفجي، وفي موقع

أفستا، كما نوّه إليه في ذيل المقال، حيث العنوان التالي:

Haco Axayê Hevrêkî- Serbazekî bê nav yê Serhildana Agrî

حاجو آغا هفيريكي، قائد مجهول في انتفاضة آكري.

وهناك فرق آخر، وهو أن الصورة المنشورة والمرفقة في الأقدم هذه تضم وجوهاً عسكرية، بينما في الأحدث فهي تضم وجوهاً عسكرية.

حل في بيئة تضاريسية مغايرة لتلك التي خرج منها: من بيئة جبلية حيث كانت حرب «العصابات» والإغارات المباشرة على مواقع الدولة وأعوانها، ومن ثم التواري عن الأنظار ممكنة، ولأن الفترة الزمنية التي أعقبت مقتل عليك، وهي مميزة بتصاعد وتيرة قمع الدولة وهي محملة بشارة الاتحاد والترقي الطورانية ورمزها الأكثر طغياناً: مصطفى كمال، فكانت بيئة «بنخت» وهي سهلة، وكتعبير سياسي-ثقافي، أكثر تجاوباً مع ممارسة أنشطة سياسية، ظهرت إلى سطح الأحداث، حتى وإن لم تتحقق عملياً، كما في المطالبة بكيان سياسي كردي أو مشترك، من نمط الألوية السورية المتشكلة تالياً «لواء العلويين، حلب... الخ» وهو ما نجد أثراً بارزاً له في الوثائق الرسمية لكل من بريطانيا وفرنسا وتركيا، وهو ما يجب أن يُراعى بالمقابل، وما تعنيه القوة الموضوعية ذات الصلة بالظروف المحيطة، والقوة الذاتية، بمفهومها الفردي وكيفية تأثيرها في الظروف وتلويين التاريخ نفسه بها. ذلك لا يقال لعليك، فقي بقي مشدوداً إلى المكان عينه، وإن كان يتحرك جهة النفوذ خارجاً «سرختياً». نعم، هو نفسه، من كانت شخصيته الكاريزمية في انتظاره، إنما بمعايير أخرى، وفي ظل تحديات أخرى، وهو وسط مجتمعه الهفيريكي إجمالاً، وهو مجتمع متمسك إلى حد ما، رغم التحدي الداخلي: في مواجهة جلبي، المسمار الأخطر في النعش الهفيريكي، ناحية انقسامه، فكان عليك الاسم الصاعد.

سوى أنه، بالنسبة إلي، أعيش الجهتين معاً، وهذا الخط الفاصل، كما هو النخاع الشوكي للجسم الذي يسند يميناً ويساراً، عالياً وسافلاً. أكثر من ذلك، ربما يتلمس القارئ في صفحات مختلفة نوعية الشغف المعرفي الذي يتخلل كتابتي، وحتى مختاراتي واستشهاداتي، ومن ثم صهرها جميعاً في وحدة الفكرة الشاغلة لعموم الكتاب. وربما أمكنني الاعتراف ببعض مما هو نفسي وتاريخي، وهو أنني حيث اطلعت على هفيريكا تاريخاً ومجتمعاً وثقافة ومواقف مختلفة، بدت لي كما لو أن الذي عشته مديداً، أي على مدى عقود طويلة من الزمن، كان استمراراً لتلك العلاقات التي عرفت أو تكونت هناك، وهي علامة فارقة، ربما تثير حساسية معينة، سوى أنني، وأنا أقرأ الجغرافية «الهفيريكية»، وأشدد على هذه العبارة، وبشهادة ألد أعداء الكرد: عثمانياً، ومن ثم أتاتوركياً، يتبين لي مثل هذا التداخل، في الانفتاح الاجتماعي، والارتقاء في الحياة، وفي مثل هذا النقابل أو المكاشفة، تتكشف الأمثلة في الكتاب، كما يتسع أفق الرؤية تاريخياً.

وما أكثر من كتب في هذا الشأن، وهو من حيث المحتوى شئون هذه الأمم وشجون الكرد تالياً.

لهذا السبب، ربما يجد القارئ أيضاً نفسه أمام صفحات كتبها آخرون، نقلاً، أو ترجمة عن لغات عدة هنا: كردية، تركية، وفرنسية، دون تعليق، فقط لإنارة فكرة الكتاب، وقد يتعرض إجراء كهذا لأكثر من تعليق، وسؤال من نوع: وما موقعي أنا في الحالة هذه، في الكتاب؟

أوضح بسهولة: إن كل ما يرد في الكتاب، يؤدي مهمته لتوضيح فكرته، وهذا يعني، أن وراء مقالات، أو فقرات، أو نصوص كاملة: فكرية، أو ذات طابع أدبي، وهي مترجمة، يتشكل نسيج بحثي واحد، إذ يشار إلى كل منها، باسمها، وموقعها، وتاريخها أحياناً، نسيج يتلبس الكتاب !

في مقابلة حديثة نسبياً أجريت مع الباحث الكردي روهاث ألاكوم، يقول عن مثقفيه الكرد ممن اشتغلوا في هذا المجال، أو المنحدر التاريخي الصعب (إنني أرى المثقفين الكرد كمصباح قاد الشعب عبر التاريخ وأضاء الناس. لقد أصبحوا محاميي الشعب من خلال التفوق في أفكارهم ومعرفتهم وشجاعتهم المدنية. كانت أعظم نقاط قوتهم هي الكلمات والورق والقلم).⁽¹⁾

(1)Alakom, Rohat: Kürtlerin haklı olduğunu bütün dünya biliyor, www.gazeteduvar.com.tr, 17 Eki, 2019.

ألاكوم، روهاث: يعرف العالم أن الكرد على حق. ربما في سياق المساجلة حول الوجود الكرد، كان قول الدكتور عبدالفتاح البوتاني، في تقديمه لكتاب نذير جيو المعروف: سلاطين هفيران، ص 17: (ومن الجدير بالذكر والانتباه والتفكير أيضاً، أن الحكومة التركية وضعت - بعد قمعها لحركة سنة 1925 - في أول قافلة مرسلة إلى المنفى أولئك الذين وقفوا إلى جانبها أثناء الحركة والذين لم يؤيدوا الشيخ سعيد بيران، فقال أحدهم: لو عرفت أن الأتراك سيفعلون هذا لما كنت تركت جندياً تركياً واقفاً على رجليه. ويروى أيضاً أن أحدهم أوصى أن يدفن في كردستان، وأن يكون قبره عند نقطة التقاء طرق سبع قرى، حتى يبصق الناس الذين يمرون من هناك على قبره.

الحقيقة الأخرى، أن المسؤولين والمؤرخين الاتراك ينظرون إلى كل الوقائع والحركات التحررية الكردية على أنها من تدبير زعماء العشائر الجهلة الذين انخدعوا بوعود بريطانيا (الذهبية) وبسبب نظرهم هذه، فإنهم استعانوا دائماً باستغلال المشاعر الدينية لدى الشعب الكردي إستغلالاً سيئاً، لأن هذه المشاعر ذات تأثير كبير عليهم، ولهذا اعلنوا أن الشيخ سعيد بيران وعلي بطي عميلان لبريطانيا، بدون أي دليل، فقط لحرمان الحركات الوطنية الكردية من أي دعم، علماً أن الوثائق التاريخية تشير إلى معارضة الكرد لبريطانيا في العراق وتركيا وفرنسا في سوريا).

إنما للأسف الشديد، فإنه إزاء وعي التاريخ، ومسئولية التاريخ أخلاقياً، ورغم تبين هذا الحماس الأخلاقي في الكتابة عما هو تاريخي، نلاحظ فجوات داخل هذا الوعي. خذ مثلاً سَداد أولوغانا Sedat Ulugana، الباحث الكردي المعروف، يتجاهل هذه النقطة، عندما نقرأ مقاله:

ديرسيم أو تاريخ تدمير المنطقة الكردية من قبل الدولة التركية
Dersim ou l'histoire de la destruction d'une région kurde par l'Etat turc,
kurdistan-au-feminin.fr, 13.05.2020

حيث إنه يلفت نظرنا بقوة رؤيته إلى التاريخ المتعلق بموضوعه، ولكن سردية التاريخ الكردية ناقصة عنده، حين يقول مثلاً (من انتفاضة بدليس في عام 1914 حتى عام 1938، سعت الدولة جاهدة لتجريد جميع الثورات والمقاومة الكردية من شخصية سياسية في «تمويه قضائي (déguisement judiciaire)»).

أي ليس من أثر لانتماضة أو حركة علي بطي، والتي يشدد عليها الكتاب الترك أنفسهم. وحتى في مقاله اللافت، والمكتوب: العشائر الكردية في الحرب العالمية الأولى:
Di Şerê Cihanê yê Yekemîn de eşîrên kurd, 20,1,2020

حين يتحدث عن تركيبة الكتائب الحميدية وموقعها، ومن ذلك قوله:
(في ولاية ديار بكر، كتيبة في جزيرة، وكتيبة في سيويرك، وكتيبة في ويرانشار، وكتيبتان في ماردين).

حيث لا ذكر لهفيركان، جهة عدم المشاركة في أي منها، وكما سنرى تالياً، كان دافع السلطان عبدالحميد، من وراء ذلك، ربط الكرد بسلطته، في مختلف مناطقهم، ولم يطل المقام بكتائبه في ولاية ديار بكر، أولاً، كما تمت مقاومتها من قبل هفيركان، حيث انضم إليها من كانوا مع الدولة وقتذاك، واستمروا في التبعية إليها حتى فيما بعد.. والباحث، لم يشر إلى هذه النقطة، والتي تقلل من فاعلية التاريخ وجغرافيته بالمقابل).

ذلك يقلل أيضاً من طبيعة قراءة التاريخ ومفهومها لديه !
وبصدد الدقة التاريخية، ينظر، في الكثير من النقاط الواردة في المؤلف المسحي والميداني «مات الأولاد... مجزرة روبوسكي والمسألة الكردية» للكاتبة والصحفية الهولندية فريديكا خيردينك. مثلاً عندما نتحدث عن كلمة «كردستان»:

(تعتبر كلمة كردستان من الكلمات القليلة في تركيا التي تثير مشاعر قوية كهذه. في السنوات الماضية تحداني الكثير من الأتراك بأن أحدد كردستان على الخريطة. لايمكنك ذلك! يقولونها بلهجة المنتصر. لأنه لا توجد كردستان على الإطلاق).

عندما تلفظ الرئيس عبدالله غول هذه الكلمة في آذار 2009، غضب الشعب التركي. الكلمة ك! ومن قبل الرئيس! غول نفسه كان هادئاً. ذكر هذه الكلمة بحضور صحفيين خلال زيارته للعراق؛ أول زيارة لرئيس تركي منذ 33 عاماً. تسمى المنطقة الشمالية شبه المستقلة من العراق رسمياً «إقليم كردستان» وهكذا استخدمها الرئيس أيضاً. لكن ماهي «كردستان» بالضبط؟ أهي مجرد أسطورة تدور في مخيلة الكرد؟ كلا، بالتأكيد لا. فمن المعروف أن أتاتورك نفسه استخدم المصطلح قبل إنشاء الجمهورية. كما أنه في مرحلة الإمبراطورية

وعلى قدر صعوبة الموضوع، تصعب مهمة الكاتب الباحث، ومدى حاجته إلى الشجاعة الموازية لموضوعه، حيث إن كلاً من الكلمات والورق والقلم، ثالوث ناري، إنما ثمة دماً هو زيت، دم الكاتب الباحث. لا أتحدث عن دمي المسفوك في الكتاب. ذلك متروك للقارئ.

ولعل الناظر في هذا الكتاب، وهو يتنقل بين صفحاته، ويتحرى طريقة وضع كلماته، والمساحة الورقية التي استغرقتها الكلمات تلك، وبأي حالة «نفسية» كان القلم يتنفس، يلاحظ شيئاً، أجدني ملزماً بالتركيز عليه، اعتقاداً معرفياً مني، أنه ربما يغفل عنه، أو يقلل من مكانته، لأسباب أكثر من كونها نفسية طبعاً بالمقابل، وهي ما يصل بين كل من حاجو آغا «حاجو الثالث، وعليكي بطي»، بين علي بطي وحاجو آغا أو حاجو الثالث، كما هي متابعتي للمسار التاريخي والشخصي لكل منهما، في حدود المستطاع معرفياً، ولست مقدماً أحدهما على الآخر، أو مفاضلاً بينهما: أيهما أكثر حمولة اعتبارية، وأيهما يستحق النظر في أمره من الموقع الذي تسنمه اسمه وفعله التاريخيان. وهو ما ينبغي من جهتي إيضاحه، وأنا أتذكر ما أورده نذير جبو في كتابه «سلاطين هفيركان» بهذا الخصوص، من خلال عبارة مجهولة، أي لا يعرف قائلها، إنما يجري التفكير فيها (يقال إن ميزة حاجو في مجال السياسة والتكتيك كانت أقوى من ميزة علي في مجال الحرب والجرأة).⁽¹⁾

العثمانية، كانت كردستان هي الأسم الشائع للمناطق الكردية التي كانت تقع، عدا الجزء الإيراني، ضمن حدود الإمبراطورية. وفي منتصف القرن التاسع عشر، كانت كردستان هي الأسم الرسمي لمحافظة ديار بكر الحالية.)

وفي هذا المثال (لقد تلازم التفاخر بالهوية التركية الجديدة مع عملية قمع مورست ضد كل من ليس تركياً. فكان الكرد هم المجموعة غير التركية الأكبر التي عانت من هذا القمع. حيث تم منع اللغة الكردية في المدارس وإغلاق المدارس الدينية. الأمر الذي يعني عملياً حرمان الكرد من التعليم لعدم وجود مدارس أخرى في تلك المناطق. أما الجيل الجديد من الكرد الذي تمكن من دخول المدارس، فقد تم تحويلهم منذ اليوم الأول إلى أتراك. كما تم منع الكردية في المحاكم، مما جعل الكرد غير قادرين على الدفاع عن أنفسهم)... الخ

«ملاحظة: أشير هنا إلى أن المقتطفات المتعلقة بكتاب الباحثة الهولندية، أرسلها إلي مشكوراً الصديق والمترجم الأرمني كيفورك خاتون وانيس، من بلجيكا، وقد اخترت منها هذين الاقتباسين...»

(1) جبو، نذير: سلاطين هفيركان «صفحة من تاريخ الكرد» ج1، ترجمه من التركية الأستاذ الدكتور خليل علي مراد، مراجعة وتقديم الأستاذ الدكتور: عبدالفتاح البوتاني، إصدارات جامعة دهوك، مركز الأبحاث العلمية والدراسات الكردية، دهوك، 2012، ص 118.

ذلك يتجاوب مع ميول مختلفة، وربما تزكيات جانبية. والأمر يتعدى هذه المحاولة المقدرة في التفريق بينهما، ففي كل منهما ساحة حربه، وميدان قوله، أو بالعكس، مع اختلاف في الظروف أو في المستجدات، وإن كان هناك من يقول، كما سنرى، أن عليكي بطي استغرقتة الحرب والمناورات الحربية، مثلما أن حاجو آغا استغرقتة السياسة والمناورات السياسية أكثر.

هذا ما يمكن تبينه ظاهرياً، سوى أنهما في العمق خاضا الحالتين، وهما تؤام الموقف المجابه للتحديات، وأكثر من ذلك، أرى في كل منهما ما يصله بالآخر، إلى جانب أنهما معاً من صلب واحد أساساً، ففي قلب عليك/عليكي بطي، يصعب علي متابعتة، دون تخيل أن ظل حاجو الثاني وما قبل حاجو في عملية التحدي كان يفارقه، لقد كان الحاضر الغائب، دون نسيان، ولو للحظة واحدة، أن عليك، كان يتحرك، أو يقدر الأمور، دون أخذ موقع حاجو الثالث في الحساب، ليس لأنه هو ذاته، كان يتصرف هكذا، كما هو تحليلي الشخصي للعلاقة هذه، وإنما لحظة مد النظر إلى وسطه الاجتماعي، إلى ما كان الناس من حوله، ومن كانوا يعرفون هفيركان، يأخذون بهذا الحساب الاعتباري لوزن كل منهما، بحضور الآخر، حتى وهو غائب عنه، وهذا ما يمكن النظر فيه بالنسبة لحاجو الثالث بعد مقتل عليك/عليكي بطي، جهة الرصيد القيمي: البطولي له. ذلك ينطبق على حاجو بعد مقتل ابن عمه، الذي أصبح رمزاً من رموز هفيركان بالنسبة إليه، وهو ما يمكن التعامل معه في مسار مرگب: بين شخص حاضر فاعل واقعاً، وآخر غائب، لكنه حاضر باسمه، في تاريخه. أليس هو درس التاريخ الذي يعلمنا ويعلمنا بذلك.

وإذا كان الكتاب عن عليكي بطي، وهو كذلك بالتأكيد، فهو أكثر من شخصية مفردة هنا تاريخياً.

ملاحظة من المؤلف: في هاتين الخريطين اللتين نقلتهما عن كتاب لويس ديلمان:

Louis Dillemann: Les Français en Haute-Djezireh (1919-1939)

Outre-Mers. Revue d'histoire Année 1979 242-243 pp. 33-58

الفرنسيون في الجزيرة العليا (1919-1939)

ما وراء البحار. مراجعة التاريخ عام 1979 242-243 ص. 33-58

يمكن الربط بين ما أثرته في مقدمتي المتعلقة تلك، بالكتاب، وخاصة القوة في التاريخ والجغرافية، حيث إن تموضع أسماء المدن ومناطق انتشار القبائل، ومن ثم أسماء القرى كذلك فيهما، يشير إلى هذا الجانب، لحظة قراءة تاريخ كل من هفيركان، وعبر عليك وحاجو هنا:

ما أريد قوله في محصلة هذا التقديم: لن تكون عليكي بطي، إلا إذا تحلّيت بجانب من شجاعته.

آمل أن تحمل كتابتي هذه، كما كان الحال مع حاجو آغا، بصمة من هذه المغامرة الأثيرة !

ولكي يحمل الكتاب علامته الفارقة أخلاقياً واجتماعياً، لا بد من توجيه الشكر إلى كل من أسهم في رفدي بالمعلومات أو المصادر أو الوثائق والصور ذات الصلة بموضوعي هذا، وأخص بالذكر الأخ بطي بطي الذي كنا نتحدث كثيراً بهذا الخصوص، وكذلك الأخ بهزاد بطي، ولوقّع اسم الأخ الباحث مدني فرحو الاعتبار النفسي والثقافي الذي لا يمكن تجاهله، في التنبه إلى ما يمكن النظر فيه «كما هو المنظور إليه في الملحق»، وليس في وسعي نسيان جهود الصديق ألغزير عبدالغني ليلي من لندن، حول كيفية الاستفادة من مصادر انترنتية، وهو الخبير في هذا المضمار، ولزميل العمل البحثي معي، في مركز بشكجي للدراسات الكردية، جامعة دهبوك، والمترجم القدير عن التركية ولات توفيق، كامل التقدير، حول كيفية التعامل مع النص التركي. ومن المؤكد أن الدعم النفسي، إلى جانب استفسارات ذات صلة بالموضوع، من قبل كل من أحمد حاجو، زيور حاجو، وكاميران حاجو، يحتفظ بقيمته هنا .

ولكم استاثر باهتمامي، بهذا الصدد، ما قاله الصديق الباحث والشاعر هوشنك بروكا، حول هذه العلاقة المركّبة، أي بالنسبة إلى استثنائية المجتمع الهفيريكي، وحتى ما يشبه الطابع «المدني» الذي يضم أدياناً، إنما في العمق علاقات مصيرية تشد الجميع إلى بعضهم بعضاً، ناحية الوحدة في العلاقات، والمشاركات في كل شاردة وواردة تتعرض لها المنطقة عامة، وهفيريكا خاصة، وما يخص وضع حاجو في «نزوله» إلى «بنخت» أمر مختلف.

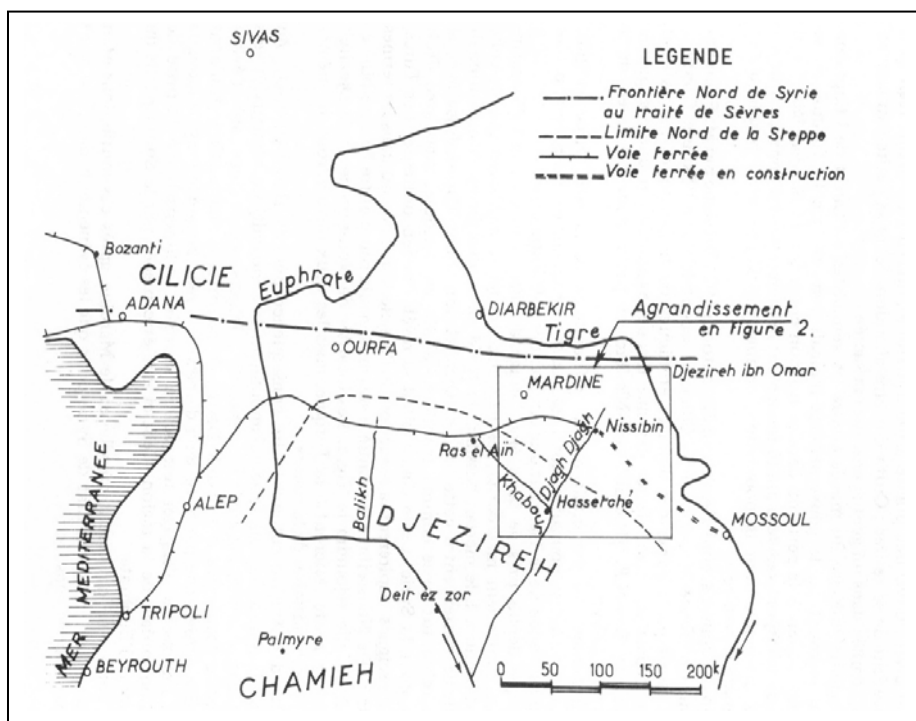
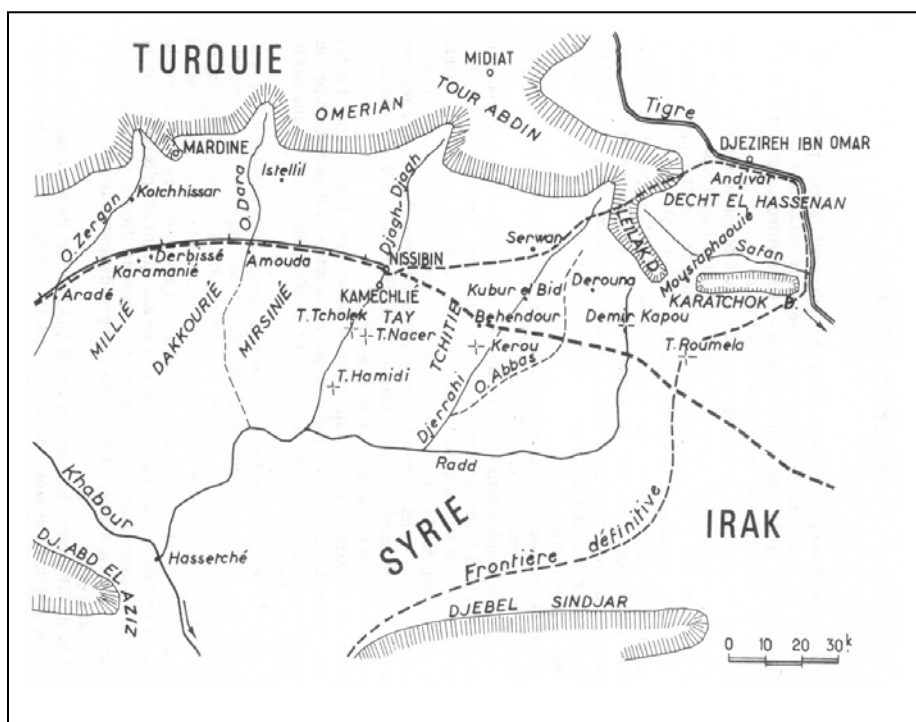
وأظن أن بعضاً من مرارة التجربة هذه، عاناها أفراد من أسرة بطي، على وقع الضغوط عليهم، وحتى إخراجهم القسري من «سرخت» إلى «بنخت» في خمسينيات القرن الماضي، وما في ذلك من تغيير في المواقف، كما أسمعني ذلك الأستاذ بطي بطي، بتسجيل صوتي..

... إن كل هؤلاء الأصدقاء والمعارف أفادوني ولو بملاحظات عابرة، لإنجاز هذا الكتاب.

وثمة ملاحظة لها علاقة بطريقة كتابة أسماء أمكنة وأشخاص، فقد حاولت

توحيدها، مثلاً، مفردة «الكرد- كردستان»، في مصادر معينة، نقرأهما هكذا «الكُرد- كُردستان»، إنما أبقيتهما كما هما في الحالة الأولى، وهذا ينطبق قبل كل شيء على عليكي بطي، الذي يأتي كتابةً عموماً بهذا الرسم، إلا لحظة وروده في مصدر معين، أو وضعية معينة، بغية التوضيح، وكذلك بالنسبة لأسرة عثمان، التي تقرأ أحياناً «أوصمان/ أوصمين» وهي الاسم عينه في السياق، وكذلك بالنسبة لستانبول، لاستانبول، فقد وحدتهما في رسم محدد: ستانبول، الصيغة السائدة تركياً، وأسماء أمكنة أخرى، وأشخاص آخرين، لا يُخفى على أي لبيب معرفتها. وكذلك بالنسبة إلى طبيعة هذه الأسماء واختلاف أسلوب كتابتها، وتهجئتها من لغة إلى أخرى، لا بل ومن جهة جغرافية إلى أخرى، وقد حاولت توحيدها قدر المستطاع هنا، بينما كانت في «الكتاب الأول» مرسومة بصيغ مختلفة، كما في حال «خربوط، ساروخان، صاروخان، تبليس... الخ» وهي واحدة، وربما يجد القارئ نفسه، اختلافاً ما في كتابة الاسم الواحد نفسه أحياناً هنا وهناك، حيث لم أنتبه إليه، أو أبقيته لضرورة معينة، أو حتى لم أتمكن من معرفة أصله...

وملاحظة أخرى، ذات علاقة بنصوص أو اقتباسات أو وثائق معينة، فقد أبقيتها كما هي، لأنها تفيد القارئ والباحث من خلال أسلوب الكتابة، ومن يكون الكاتب بالمقابل...



الفصل الأول

الفصل الأول

عن التاريخ الذي لا بد أن يعاين

«الواقع أن الكرد، لم يكونوا هم الذين اتخذوا من سقوط نينوى بداية العصر، إنما كان المجلس الفارسي للايرانولوزي»، هو الذي قرر أن يسمّى سنة 612 ق. م بهذا الاسم.. إني أرى أن اسم «ماد» قد طوى وحل محله اسم «كُرد» بصورة تعيد إلى الذاكرة ما تم في فرنسا، حين طفى اسم «فره نك» على «غال» .

هذا وبعد أن توارى اسم «ماد»، فنحن لا نعلم بالضبط متى بدى بالتمييز بين الاسم الخاص بالـ «الكُرد» كما كان وبين اسم السكان «الكرمانج» سكّنة المدن والقرى... فالكرد الذين دعوا أنفسهم كرداً، أطلقوا على السكان اسم «كرمانج».. والزاوا يطلقون على أنفسهم اسم «كُرد» يدعون «الكرمانج» باسم «كرداسي».. وفي إقليم «سوران» و«موكري» يعرف القرويون اليوم، بأنهم «كرمانج».. وثمة من يعتبرون أن إطلاق اسم «كرمانج» هو على القاطنين في الغرب والشمال.... وفي مموزين «1693» لأحمد خاني نقرأ «كرمانجي بويه شبهي بورجان»..

توفيق وهبي بك: الآثار الكاملة، ج1

«ليس التأريخ الكردي غير مدروس وحسب، بل وإن قسماً كبيراً من المواد القليلة المدونة عنه قد خصص لتشويهه وليس لدراسته».

د . كمال مظهر أحمد: كردستان في سنوات الحرب العالمية الأولى

«في آذار 1974، منع الكاتب من الدفاع عن أطروحته الجامعية للدكتوراه «الحياة الثقافية للكرد في ظل الإسلام»، لأن فيها إشارة كردستانية، والاكتفاء بجلسة ضيقة وحذف الكثير منها..»

د . حسن كريم الجاف: موسوعة إيران السياسي «من التاريخ الأسطوري حتى نهاية الدولة الطاهرية».

«في أنقرة، العاصمة التركية، وبتاريخ 1-6/ 2020، تعرّض فتى كردي، لخمس طعنات سكّين، من أتراك طورانيين، وأمام الملأ، وأردوه قتيلاً، لأنه كان يستمع إلى أغان كردية».

وكالات أنباء مختلفة

التأسيس لتاريخ عنف آخر

من وجهة نظري، تكون مسألة ولادة أي دولة، وظهورها ضمن حدود سياسية لها، لحظة التعرف على محتواها السياسي والاجتماعي والثقافي بالمقابل، من المسائل الرئيسية في دراسة التاريخ الاجتماعي- السياسي لها. وهذا يسمح لنا بالتعرف على مفهوم الشخصية في إطارها القانوني، حيث السلطة تكون ملحوظة، والموقف من الخاضعين ممن يُسمون بالرعاية، في دولة الرجل الأوحده والمُعظم، والذين يقعون على مسافة أبعد، ممن لا ينتمون إلى جسمها «القراي» سياسياً، حال الشعوب التي أخضعت بلغة القوة للدولة العثمانية، وصيرورتها إلى أن توصلت في العصر الحديث، في ثلاثينيات القرن العشرين لتصبح «الجمهورية التركية» حقيقة سياسية فارضة نفسها، في بحر مسفوك من دماء الشعوب الأخرى، والمتواجدة في المكان أصلاً: الأرمن، فالكرد، وليكون الكرد تاريخياً أعقد مشكلة تؤرق العثمانيين، والأتراك إلى يومنا هذا، جهة الاعتراف بوجودهم التاريخي في ذات الجغرافية التي احتلها العثمانيون، وتمزقت حديثاً، ثم لتكون «الجمهورية التركية» الإمبراطورية العثمانية، وليصبح الكرد، في الحد الأقصى داخلين في ذمة هذه الدولة، رغم عدم إيفاء العبارة للمعنى، في ظل مساعي المحو والإنكار بصيغ شتى، وليكون ذلك بالتالي تدشيناً لعصر مواز آخر من المجابهة للدولة، وما يترتب على ذلك من عنف دموي، ومن انتفاضات كردية، برموزها القوية، باعتبارهم أبطالاً لها.

وأرى أن هناك فكرة مغرية، ومشروعة في بنيتها، لوضع جدول زمني «كرونولوجي» للدولة العثمانية، وهي في خطوطها العريضة طبعاً، وهي اللائحة التي تسمح للقارئ بتكوين فكرة عن بنية هذه الدولة واللاحقة بها، ومحلها: تركيا:

1481 - 1512: فترة حكم بايزيد الثاني الذي أقال شقيقه دجيم الذي لجأ إلى فرنسا ثم في نابولي وقد توفي عام 1495، أقام السلام مع المجريين والبندقية ومماليك مصر وبلاد فارس.

آذار 1512: يجبر تمرد الإنكشاري بايزيد الثاني على التنازل عن العرش لصالح ابنه سليم، الذي حكم باسم سليم يافوز (الرهيب) ler Yavouz حتى وفاته عام 1520.

23 آب 1514: سحق الأتراك في معركة جالديران الجيش الفارسي للشاه الصفوي إسماعيل، وهو شيعي. وتم الاستيلاء على تبريز في 5 أيلول.

- 1515: تصبح عموم كردستان تحت سيطرة العثمانيين.
- 1516: احتلال الجزائر، التي أصبحت الأكثر رعباً من قواعد القرصنة البربرية.
- 24 آب 1516: سحق جيش المماليك المصري في معركة مرج دابق بالقرب من حلب التي تم الاستيلاء عليها، وكذلك حماة وحمص ودمشق والقدس وغزة.
- 22 كانون الثاني 1517: تم القضاء على القوات المملوكية كلياً خلال معركة جبل المقطم. وتم أسر السيد المملوكي تومان بك وإعدامه في نيسان. وتخضع مصر للسلطان العثماني، واعترف بسليم بصفته حامي المدن المقدسة مكة والمدينة. ويسمى نفسه الآن «ال خليفة وأمير المؤمنين وقائدهم».
- 1520 – 1566: عهد سليمان الملقب من قبل الأتراك بالمنتصر، القاهرة. وهو يتوافق مع أوج الإمبراطورية العثمانية، التي تأسست في ثلاث قارات، ثم برزت كقوة رئيسة للعالم القديم.
- 1521: الاستيلاء على بلغراد.
- 1522: حصار رودس والاستيلاء عليها.
- 28 آب 1526: الانتصار في معركة موهاجس، لتصبح المجر تحت الحكم العثماني.
- أيلول – تشرين الأول 1529: حصار فيينا.
- 1533: غزو أذربيجان.
- 1534: السيطرة على بغداد. ويصبح العالم العربي تحت السيطرة التركية.
- 1536: توقيع الاستسلام الفرنسي-العثماني.
- 1538: غزو عدن واليمن.
- 5 أيلول 1566: توفي سليمان خلال حملته الثالثة عشر ضد المجر، التي تميزت بالمقاومة واحتلال زيجيد «مدينة مجرية كبيرة». في ذلك الوقت، امتدت الإمبراطورية العثمانية من الحدود النمساوية إلى الخليج الفارسي، من شواطئ البحر الأسود إلى الحدود الجزائرية المغربية، من جبال أرمينيا إلى سواحل المحيط الهندي
- 1566 – 1574: عهد سليم الثاني.
- 1570: استيلاء العثمانيين على قبرص حتى الآن البندقية.

6 تشرين الأول 1571: الأسطول الدوري المقدس بقيادة دون خوان من النمسا يفوز بالنصر البحري الكبير لليبانتو.

1574-1595: عهد مراد الثالث.

1576-1590: تسمح الحروب ضد بلاد فارس بعد وفاة شاه طهماسب، للعثمانيين باستعادة جورجيا ومناطق شيراز وتبريز.

1595-1604: فترة حكم محمد الثالث، يليها حكم أحمد الأول (1604-1617)، ويعجز أصحاب السيادة عن مواجهة ضغوط الإنكشارية وتأثيرات الحریم. فتعم الفوضى والفساد في الإمبراطورية.

1618-1622: عهد عثمان الثاني، خلعه الإنكشاريون واغتالوه. لم يشهد عهد مصطفى الأول (1622-1623) ومراد الرابع (1623-1640) أي تحسن. وقد تم القضاء على محاولة بدء السنوات الأخيرة من عهد مراد من قبل خليفته، شقيقه إبراهيم الأول، الذي اغتيل في عام 1648. وعند وفاته، أصبح طفل يبلغ من العمر سبع سنوات، محمد الرابع، سلطاناً. ويتبع الوزراء الكبار بعضهم بعضاً ولا تزال الإنكشارية غير منضبطة. فتتفك الإمبراطورية.

أيلول 1656: والدة محمد الرابع تتادي محمد كيوبرولو Keuprülü الذي، على الرغم من عمره الـ75 عاماً، يعيد الوضع في خمس سنوات باستخدامه بطريقة قوية. وعندما توفي سنة (1661) خلفه ابنه أحمد. وعندما توفي في عام 1676، كان أحد الأقارب، قره مصطفى باشا، الذي واصل العمل الذي تم القيام به. وتم إعدامه بعد فشل حصار فيينا، ولكن مصطفى كيوبرولو حكم حتى 1691، وعندما تم استبداله بحسين كيوبرولو كان آخر أفراد الأسرة، نعمان، وزيراً كبيراً في بداية القرن الثامن عشر. وهذه السلالة من الخدم العظماء للدولة العثمانية ستضع نهاية للفوضى وتستعيد لفترة من الوقت قوة الإمبراطورية، والسلطين الذين حكموا بعد خلع محمد الرابع من قبل الإنكشاريين في عام 1687، وهم سليمان الثاني (1687-1691) أحمد الثاني (1691-1695) ومصطفى الثاني (1695-1703)، جميعهم كانوا ضعفاء.

1645-1669: حرب كانديا، التي اختتمها غزو الأتراك لجزيرة كريت.

آب 1664: انتصار نمساوي للقديس غوتهارد ضد العثمانيين الذين ما زالوا يهددون وسط أوروبا.

أيلول- تشرين الأول 1683: فشل حصار فيينا، الذي انتهى بتحقيق النصر على كاهلنبرج Kahlenberg.

1687: هزيمة تركية في موهاجس قبل الإمبراطوريات.

1697: الأمير يوجين من سافوي يسحق الأتراك في زينتا.

1699: سلام كارلويتز يعيد المجر إلى هابسبورغ.

1703 - 1730: فترة حكم أحمد الثاني. الفترة المعروفة باسم «الزنبق».

1718: معاهدة باسارويتز التي تشهد تراجعاً عثمانياً جديداً في أوروبا الوسطى والبلقان.

1730 - 1754: فترة حكم محمود الأول، يليه حكم عثمان الثالث حتى 1757.

1739: في سلام بلغراد، ألغى العثمانيون بنود باسارويتز. وبرز التهديد الروسي أيضاً. وتتنعش الدولة العثمانية مؤقتاً.

1757 - 1773: فترة حكم مصطفى الثالث، يليه حكم عبد الحميد الأول، من 1773 إلى 1789. وتعلل إضافة الهزائم والمعارضة بحل الإمبراطورية وتفاقم حالة «الرجل المريض».

1768 - 1774: الحرب الروسية التركية، التي عُرفت في تشرين الأول 1770 بانتصار البحرية الروسية على تشمي، بالقرب من سميرنا، وأبرمت بمعاهدة كوتشوك-كيناردجي التي أعطت لروسيا آزوف، كيرش، فم الدينير ومناطق كوبان و تيريك.

1782: ضمت كاثرين الثانية من روسيا شبه جزيرة القرم وقامت برحلة انتصار هناك عام 1786.

1789 - 1807: فترة حكم سليم الثالث.

1788-1791: الحرب النمساوية - التركية. الإمبراطور ليوبولد الثاني يوقع السلام لسفيتشوف، حتى عام 1878، ولم تتغير الحدود بين الإمبراطوريتين هابسبورغ والعثمانية.

1788 - 1792: حرب مع روسيا، انتهت بسلام جاسي الذي يمنح القيصر الساحل بين دنيستر وبوج.

1798 - 1802: الحرب الفرنسية العثمانية بعد الحملة التي قادها بوناپرت إلى مصر وسوريا .

1804: انتفاضة صربيا، التي اعترفت باستقلال ذاتي في عام 1812.

1805: يتولى الألباني محمد علي الحكومة المصرية .

1807: تم إسقاط سليم الثالث بواسطة تمرد عسكري جديد وحل محله مصطفى الرابع، الذي أعاد سلفه .

تموز 1808: قدوم محمود الثاني. مصطفى بايراكتار، رئيس الوزراء، وقد اغتيل في تشرين الثاني 1809 خلال التمرد الإنكشاري بتشجيع من العلماء .

1807 - 1812: انتهاء الحرب الروسية - التركية جديدة، بسلام بوخارست التي أعطت بيسارابيا (مولدوفا الحالية) لروسيا .

كانون الثاني 1822: أعلنت جمعية إبيداوروس استقلال اليونان، وتلتها مذابح شيو في نيسان .

1826: معاهدة أكرمان الروسية - التركية التي مُنح بموجبها نيكولاس الأول حق الحماية على صربيا ووالاشيا ومولدوفا .

حزيران 1826: تم سحق ثورة الإنكشارية الأخيرة، ويزاح النظام القديم ليحل محله جيش منظم على الطراز الأوربي .

تشرين الأول 1827: تدمير الأسطول التركي المصري في نافارين من قبل الأسراب الفرنسية والإنجليزية والروسية. تدخل الفرنسيون في موريا عام 1828.

1829: معاهدة أدريانوبل، الموقعة تحت التهديد الروسي، تلزم السلطان بالاعتراف باستقلال اليونان، الذي أكدته مؤتمر لندن في شباط 1830.

1830: صربيا معترف بها كإمارة مستقلة، وكذلك مولدوفا ووالاشيا .

1832 - 1833: الحرب بين محمد علي باشا والسلطان. تقدمت القوات المصرية إلى قونية، ومعاهدة كوتاهية في أيار 1833 أعطت سوريا وكيليسيا لباشا مصر. وفي 8 تموز 1833، حصل القيصر نيكولاس الأول - الذي جاء، بناء على دعوة السلطان «لحماية سلامة الإمبراطورية» ضد التهديد المصري - من خلال التوقيع على معاهدة اونكيار- سكيليسي، سيتم إغلاق مضيق الدردنيل في وجه جميع السفن الحربية الأجنبية .

نيسان 1839: سحق القوات العثمانية المنخرطة في سوريا بالقرب من عينتاب في (حزيران).

1839 - 1861: عهد عبد المجيد . بداية عصر التنظيمات (الإصلاحات).

3 تشرين الثاني 1839: قراءة الميثاق الإمبراطوري لجول هان. ويتم الإعلان عن الرعايا العثمانيين على قدم المساواة، مهما كان دينهم وجنسياتهم. كما يتم إصلاح العدالة، وقمع إدارة الضرائب، والخدمة العسكرية المنظمة في كامل الإمبراطورية - ما يحدد قانوناً لعام 1843.

تموز 1840: بموجب اتفاقية لندن التي فرضتها انكلترا والسلطات على فرنسا المترددة، طلب بالمرستون من محمد علي إخلاء سوريا ضد الاعتراف بقوتها الوراثية على مصر.

1845: مشروع الإصلاح التربوي.

1847: بدأ استبدال الحق العلماني تدريجياً بالشرعية القرآنية.

1853 - 1856: الحرب الروسية- التركية الجديدة التي تدخلت فيها فرنسا وانكلترا عام 1854 (حرب القرم). انتهى الصراع بمعاهدة باريس التي حيدت البحر الأسود وأكدت استقلال صربيا وإمارات الدانوب التي اتحدت قريباً لتشكيل رومانيا .

1861 - 1876: عهد السلطان عبد العزيز، وحل محله ابن أخيه مراد الخامس الذي حكم لبضعة أشهر فقط (شباط - آب 1876).

1868: المدرسة الابتدائية إجبارية من سن السادسة. إنشاء مدرسة جالاتا سراي الثانوية وكليات ثانوية في عواصم المقاطعات وجامعة في القسطنطينية.

23 كانون الأول 1876: صدور دستور من قبل السلطان عبد الحميد الثاني الذي اعتلى العرش في آب السابق. تم تعليق البرلمان من جلسته الثانية في شباط 1878.

1877 - 1878: الحرب الروسية -التركية الجديدة. الاستيلاء على بليفنا . معاهدة سان ستيفانو (آذار 1878) التي خلقت بلغاريا الكبرى.

حزيران 1878: تنازل تركيا عن قبرص إلى انكلترا.

13 حزيران 1878: فرض مؤتمر انكلترا برلين، التي لم ترغب في أن تسحق روسيا الإمبراطورية العثمانية. صربيا ورومانيا مستقلتان تماماً. تتولى النمسا-المجر إدارة البوسنة والهرسك لمدة ثلاثين عاماً، تم تقطيع بلغاريا الكبرى في سان ستيفانو.

فتحتفظ تركيا بمقدونيا وكما تحتفظ بالسيطرة على شرق رومانيا . وتقال اليونان
ثيساليا وجزءاً من الإمبراطورية. وتؤدي «مسألة الشرق» التي طُرحت منذ بداية القرن
إلى الإظهار التدريجي لتداعي لإمبراطورية العثمانية، التي كانت بقاياها موضوع
الطموحات المتناقضة لروسيا (التي استولت على قارص ويطوم وأردهان في شرق
الأناضول والتي تستهدف المضيق) والنمسا-المجر (التي تريد سالونيكاً).

1881: إدانة الوزير الإصلاحى الكبير مدحت باشا .

كانون الأول 1881: إنشاء الدين العام العثماني في الاتجاه الأنجلو فرنسي مما
يضع المالية للإمبراطورية تحت السيطرة الأجنبية.

1894-1895: إنشاء وتطوير لجنة الاتحاد والتقدم، التي يعتبر أعضاؤها معادين
للحماية الغربية ويعتزمون تحديث البلاد .

1894 - 1896: مذابح ارتكبت ضد الأرمن وضد كريتيين متمردين، مما أدى إلى
الحرب اليونانية- التركية.

1897: الانتصار على اليونان، يجب على تركيا إعادة ثيساليا إلى اليونان تحت
ضغط من السلطات والاعتراف بأن أميراً يونانياً يحكم جزيرة كريت.

1899: ثورة مقدونيا ومذابح المنستير وتدخل «الحرس الأوربي».

1903: اتفاقية إنشاء خط سكة حديد يصل قونية إلى بغداد، بين أضنة وحلب.
في عام 1893، وصلت السكة الحديدية إلى أنجورا، ثم قونية في عام 1896. لذلك،
مكن هذا الامتياز الأخير من إكمال بناء - بفضل تدخل العاصمة الألمانية والمهندسين
- في بغداد الشهيرة (سكة حديد بغداد أو «ثلاثة ب»: برلين، بيزنطة، بغداد، والتي تم
التخطيط بالفعل لتمديدتها إلى البصرة). بالتوازي مع تحقيق هذا المشروع العظيم،
يتطور التأثير الألماني في الإمبراطورية العثمانية على المستوى الاقتصادي والتجاري،
ولكن أيضاً على المستوى السياسي، وفي برلين يتم تشكيل معظم الضباط الشباب في
الجيش التركي..⁽¹⁾.

(1) ينظر في «في قلب الدولة العثمانية» Au 66pigo de l'empire ottoman، موقع www.clio.fr الإلكتروني. باللغة الفرنسية.

وينظر ما يقوله جورج قرم في كتابه: تعدد الأديان وأنظمة الحكم «دراسة سوسيولوجية وقانونية
مقارنة» دار الفارابي، بيروت، ط4، 2011 (لقد توطد النظام الطائفي على نحو لم يسبق له مثيل
في ظل العثمانيين.. ثم: وكان نظام «الملل» هذا يوافق الفلسفة الأساسية للدولة العثمانية، حيث

طبعاً، وبالنسبة إلى أي باحث، فإن لائحة العناوين الرقمية وعداداتها الكشفية، وما تفصح عنه، جهة الشخصية التي تنصدر واجهة الدولة العثمانية المتشكلة، أو امبراطوريتها، وامتداداتها القارية، لا تفوت هكذا دون التوقف عندها، أي دون السؤال عن نشأة كل إضافة رقمية إلى تاريخ كان، وكيف ظهر التاريخ هذا إلى الوجود، أي قوى تاريخية، سياسية، اجتماعية، نفسية، ثقافية وحتى لاشعورية، لا يتنبه إليها، لأنها صادرة عن عالم عميق في النفس، وحده المعني بما وراء القول الملفوظ، والسلوك المعمول، وصلة القرابة بين القول والفعل، وآلية عمل هذه القرابة على الأرض، كانت وراء المضاف ومدى فاعليته، واقتراحه عن سلفه، فلا تعود الأرقام مجردات مدرسية، فهي أساساً ولدت في الخارج، في الطبيعة، في سيستم شديد ومركب، وحده القادر على لعب دور المرأة شديدة الدقة والمكاشفة لما يمثله الرقم بالنسبة للشخص الواحد، أو الجماعة الواحدة، أو على مستوى الأمة، في الزمان والمكان، ووجهة القائم في هذا المضمار، مع قوى فاعلة. وكيف حل شخص محل آخر، أو حتى تاريخ لاحق على سابق، وتلك التوترات التي لا تخفى في المسافة الزمنية الفاصلة، إذ إن التاريخ مذ وجد تاريخ من عرق، دم، وجع، معاناة، نكد، هزيمة، انتصار، أمل، يأس، صبر، غلبة، موت، وحياة... الخ، وأن هؤلاء الذين يأتون في التسلسل الرقمي، يُمنحون درجات أو مراتب اعتبارية، حيث يُتغنّى بهم، أو يشار إليهم، تبعاً لعلاقة اجتماعية، سياسية واعتقادية معينة، وحقيقة كونه قائداً، بطلاً، رمزاً دينياً، أو دنيوياً، محل تقدير جماعي معين.

وبين التميز بالقوة بالنسبة للعثمانيين، والانتصار على قوى عسكرية لها تاريخها في المنطقة «الفرس الصفويون» وكذلك اليونان، ومن ثم الممالك في الجوار الأبعد قليلاً، وأبعد من هذا وذاك، قارياً: الانتصارات المتلاحقة للعثمانيين على جيوش أوربية، كما يتضح من الجدول السالف، والدخول في مواجهات عسكرية أوربية والانتصار فيها، تتشكل صورة مقربة لهذا الكيان الأمبراطورية وطرق الدهاء السياسي والمكر الاستراتيجي في القضاء على الخصوم، وحتى الذهنية الرعوية، أو السلطوية التي كانت تدار ويجري تفعيلها جهة «الباب العالي» وأساليب التخلص من الخصوم وهي كثيرة.

سوى أن الخطوط العريضة هذه، تتطلب توضيحاً مفصلياً بالمفهوم السلطوي، لأن ذلك من شأنه إفادتنا فيما نحن عليه.

كانت السلطة المركزية تكفي بالسيطرة العسكرية على حدود الإمبراطورية، وتمنح تفويضاً بسائر السلطات... الخ. (ص 315).

أعني بذلك،، التعرف على كيفية إدارة السلطة والحكم داخل النطاق العثماني الرئيس، فنجد أنه:

من بين مائتي وزير كبير، لم يكن موت ستة وسبعين منهم موتاً طبيعياً. ولقد تم قتل ثلث عموم السلاطين بالمقابل.

وبالفعل فإن عثمان، الزعيم القبلي الذي أخذت سلالة تركية اسمه، يحلم بالسيطرة على العالم. فلهذه شهرة مأساوية بقتل عمه البالغ من العمر تسعين عاماً بسهم أراد منعه من الاستيلاء على قلعة. أنشأ ابنه أورهان (1326-1359) فيلق الإنكشارية، وهي ميليشيا سرعان ما ملأت أعمالها أوروبا بالرعب والخوف. كان واحداً من أغرب الجيوش المعروفة في التاريخ العسكري. حيث كان يتشكل من فتيان مسيحيين تعرضوا للنهب في حملات الحرب أو نُقلوا قسراً من أسر يونانية أو أرمنية.

وكان تكوين المحارب قد بدأ بالفعل في سن العاشرة. وكان الطعام ممتازاً. وكان من المهم جداً أن يصبح وعاء اللحوم شعاراً للفوج وأن القائد والعقيد أخذ لقب «Chorbadji» («تاجر حساء»). ومع هذا الحارس المدلل للجنود المحترفين، تجاوز السلاطين الأوائل في القوة العسكرية جميع الأمم الأخرى.

بانتصار Amselfeld بالقرب من كوسوفو Polje «حقل كوسوفو (الصربية: Косово поље، هو حقل كارست كبير (polje)، سهل يقع في الجزء الشرقي من كوسوفو (كوسوفو المناسبة). ومن المعروف في الغالب لكونها ساحة معركة كوسوفو (1389) بين الجيشين الصربي والعثماني، والعديد من المعارك الأخرى. الويكيبديا الانكليزية. المترجم». حيث تم القضاء على الدولة الصربية في عام 1389، جعل مراد تركيا قوة عالمية. أثناء القتال، فوقع مراد تحت خنجر الصرب. بدأ ابنه بايزيد الأول حكمه بخنق شقيقه، وبالتالي قدم العرف الفظيع المتمثل في أن كل تتويج كان مصحوباً بقتل شقيق أو قتل أحد الوالدين. قام محمد الثالث (1595-1603) بإقامة رؤوس أخوته السبعة عشر أمام عرشه ذي الأربعة أعمدة. وكانت الدلافين محبوسة في «قفص الأمراء cage aux princes» حيث قضوا نصف حياتهم في كثير من الأحيان، وعندما وصلوا إلى السلطة في نهاية المطاف، لم يتمكنوا من تحمل المسؤولية، المتدهورة بالكحول والنساء. وكان الغزاة العثمانيين العظماء هم الهدف الوحيد المتمثل في ضم الأراضي الواسعة إلى إمبراطوريتهم، وهي إفساد الشعوب واستغلالها. وغالباً ما يطلق على دولة الأتراك «بروسيا الشرق». وإذا كان يمكن للمرء أن يعلق تسمية

«القوة الوحشية» بالقوة البروسية، فإن الرعايا الأتراك كانوا في وقت أبكر بكثير وبكفاءة أكبر من البروسيا أكثر من رعايا هوهينزوليرن.

كان إسكي - سيراجليو، الذي نشأ اليوم في عدد لا يحصى من الأماكن التي تنثور حوله في زعزعة القلق الزائف، على حد تعبير سليمان القانوني (1520-1566)، مركز العالم. لقد أنشأ أسياذ المنطقة الممتدة من بودابست إلى بلاد فارس وتونس هنا عالماً لهم، وعالماً متألقاً، و«قصة الألف ليلة وليلة» مع كل الجحيم وجميع السماوات. العالم الذي كان يحمي في وقت أعظم روعة ألف امرأة أجمل من بين جميع الشعوب، وعشرين ألف من الحاشية الذين وصفت أوامرهم في خمسين مجلداً.

كل غضب كلوديوس، كاليجولا، نيرو، دوميتيان، حيث كان مخمور سلطة ألكساندر وقيصر مقرأً له هنا. وهذا يعني أن عبوس الطاغية قد يسبب وفاة مئات الآلاف من الرجال. وهنا كان على سفراء الدول الأوربية الركوع أمام السلطان بعد أن انتظروا بكل تواضع لساعات وقام حراسه بتفتيشهم. وفي أيامها المجيدة، لم ترسل تركيا سفراء إلى دول أجنبية. كانت ستانبول، السلطان السراغليو، مركز العالم. وساد الرعب. كما هو الحال في قلعة الأميرة توراندوت الأسطورية، وقد تم تنفيذ عمليات الإعدام في قاعات القصر.

لكن يمكن للوزراء الذين قطعوا رأساً أو اتهموا بتهمة الخنق أمام أعينهم أن يتم القبض عليهم خلال عبور باب معين وإعدامهم في الحال. وقبل كل شيء، كان هناك مزاج متقلب من السيد الأعظم، الذي كانت تهيمن عليه في بعض الأحيان الإرادة الإجماعية وغير المرنة لقوات الإنكشارية.

وفي الفناء الأول للقصر كانت الخطة تابعة لقوات الإنكشارية التي قام الجنود بمقتضاها بقص رؤوس كبار الشخصيات التي أزعجت الجيش التركي. وعبر البوابة الرئيسية («Bab i Humajun»)، لا يزال بإمكاننا رؤية المنافذ التي نتعرض فيها للرؤوس العامة، مثبتة على الخطافات. من الإله إلى السقوط في العدم، كانت هناك خطوة واحدة فقط، حيث كانت هناك خطوة واحدة فقط لعبد بدون قدرة على أن يصيح «الوزير الأكبر» إذا، للحظة، لقد سُرَّ السلطان.

كان السلاطين الأوائل أباطرة عسكريين مثل حكام آشور. كانوا رؤساء جنرالاتهم. البعض منهم، مثل مراد الأول، بايزيد الأول، وسليمان الثاني، ماتوا في ساحة المعركة. وعلى الرغم من أن أفعالهم كانت قاسية، غالباً ما تكون بربرية غير

إنسانية، إلا أنهم ظلوا، رغم فخرهم الذي لا حدود له، يحملون قليلاً من المسؤولية والعظمة. كانوا شخصيات حيوية. ولكن سرعان ما اهتز البيت العثماني بكل أشكال الجنون. وفي حين تم إضعاف هابسبورغ، وويلتز باخس، وهوهينزوليرن بسبب القرابة، فقد تدهور السلاطين بسبب الفجور الجامح. كل شعب لديه «رفض» جلي. بين العثمانيين، يجد المرء نفسه على عرش الناس، الحمقى، المجرمين، الفاسقين مثل إيفان الرهيب، فيليب الثاني، البابا ألكساندر السادس، لويس الخامس عشر، فريدريك وليم الأول والثاني. فليس من المستغرب أن تصبح الإنكشارية، المنظمة ببراعة، دولة أكثر فأكثر في الدولة، قادرة على إحداث تأثير لا مثيل له. سمحوا للسلاطين أن يتخبطوا ويهربوا، والباشوات يتعرضون لخداع الدولة والحكام لامتناسص نقمة المحافظات، إنما ويل للسلطان أو الوزير الأكبر الذي يجروء على تقليص امتياز أحد الانكشاريين! بحلول صباح اليوم التالي، يكون رأسه المقطوع يزين شريحة من «باب أنا هوماجون». وبهذا انتهى السلاطين واثنان وعشرون وزيراً كبيراً. وكانت تركيا قد انهارت بالفعل قبل مائة عام، تحت طغيان الإنكشارية، لو أن محمود الثاني لم ينجح عام 1828 في تصفية 40 ألف من هؤلاء الصلبة المتمردة من قبل باشا حسين، في سوق خيول القسطنطينية.

كانت كل الوسائل جيدة لإعادة تشكيل تركيا بالأساس العملاق الذي كانت عليه من قبل ومعاملة القوى الأخرى بنفس الوحشية التي دعمتها لعدة قرون. كل ألماني عاش في تركيا خلال الحرب لم يصبح تركياً، كما يريد السيد جاك إقناعنا، لا، لأنه كان عليه فقط أن ينظر إلى القناع المنافق للجندي، للاستماع إلى ما قاله الناس، ولاحظ كيف سرقنا طوال الوقت، لفهم أنه بالنسبة «للشباب الترك»، كنا مجرد وسيلة للوصول إلى هدفهم، عنصر من عناصر الفاتورة التي أراد السادة طلعت وإنفر تأسيسها لأنفسهم والنقر عليها.

في عام 1528، أرسل الإمبراطور فرديناند السفير المجري هابرداناكز إلى ستانبول. عندما سأل، باسم الإمبراطور، واستعادة بعض المواقع على نهر الدانوب، كان يصمت لمدة تسعة أشهر. وأرسل القيصر الروسي فاسيلي إيفانوفيتش سفيرين إلى مقر سليمان الثاني في بلغراد. لا أحد منها عاد.

في عام 1572، بعد الهزيمة التركية في معركة ليبانتو (1571)، جاء سفير البندقية إلى ستانبول للتوصل إلى سلام مع السلطان، تلقى إجابة «تركية»، تم عرضه على

الجلد المدبوغ من البندقية براغادينو، المدافع عن قبرص، الذي كان كياناً حياً! في عام 1632، قام الأتراك بنهب سفينة فرنسية. حيث أرسل السفير مترجماً شفويًا لخطاب شكوى إلى السلطان. ماذا فعل مراد الرابع الذي اشتهر بكونه أحد أفضل السلاطين؟ في زمانه كان يعاني من خبل للأسف. بطبيعة الحال، لم يعد بإمكان القادة الأتراك العظام تحمل مثل هذه الأعمال الوحشية ضد القوى الأخرى لمدة مائتي عام. لكن عندما أتاحت لهم الفرصة، لم يضعوا ثقلهم في حالة سكر دموية....

وليس الشعب التركي شعباً متحضراً بالمعنى الواسع للكلمة. فلا تزال لغته على مستوى المصطلح الأفريقي، لكنها اللغة التي لا تضاهى في تدريب المجندين. فبالكاد نستطيع التحدث عن الأدب. وما تم إنشاؤه في هذا المجال هو تقليد مشكوك فيه جزئياً مأخوذ من الكنز الأدبي الفارسي والعالمي العظيم. علاوة على ذلك، استخدم الكتاب الأتراك ما يسمى لغة الرجال المصطنعة، غير المفهومة من خلال تكليفه بالتركية البسيطة. لم يكن هناك أبداً العمارة التركية. لقد تركنا ببساطة في أنقاض ما ورثنا في العصور القديمة. ويعود تاريخ أكثر المباني إبان عصر ما قبل تركيا (آيا صوفيا، الجامع الأموي)، وقد بناه المهندسون المعماريون المسيحيون في خدمة السلاطين. وعلى الأراضي التركية لم يكن هناك مجال للعلم. فيعرف التركي كيف يقلد، وهذا فقط بطريقة سطحية للغاية، لكن في أي مجال فكري يمكن أن يكون حقاً مبدعاً.

لكن تركيا لديها حروب وحروب ومزيد من الحروب. فكان مجال عمل أفندي على جانب التوازن من خلال السلطة، والخوف، والغضب المدمر وليس على جانب الفكرة، من الروح. إنه لأمر مخز بالنسبة لألمانيا أن تكون حليفة عصاة من المجرمين، على النمط الأوربي المتهالك، الذين كانوا ينتظرون فقط اللحظة المناسبة لتنفيذ أكبر مذبحه في كل العصور⁽¹⁾.

(1) ينظر أيضاً في «مقتطفات من تاريخ تركيا» Extraits de l'histoire de la Turquie ، موقع www.imprescriptible.fr الإلكتروني. باللغة الفرنسية.

يضاف إلى ذلك، ما سعى السلاطين العثمانيون، عبر الشبق السلطوي والزعاماتي «العالي» إلى اغتصاب ألقاب ورُتب من الشعوب التي احتلوها والثقافات التي تعنيها، ونهبوها بدلالاتها، وأسقطوها على أنفسهم، وهو ما يمكن التعرف إليه مما أورده الدكتور إبراهيم خليل أحمد، في كتابه: تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني 1516-1916م، جامعة الموصل، الموصل، 2005، وهو يتحدث عن لقب «ال خليفة»، يقول: كانت الخلافة إحدى الأسس التي ارتكزت إليها فلسفة

هنا، كما أرى، توجد نقاط كثيرة، تحتاج إلى إضاءتها، ولعل من أهمها، تلك النقطة التي تخص مسألة التعامل مع السلطة، وسيكولوجية ممثليها، بدءاً بالقائم في الهرم الأعلى منها، نزولاً إلى أدنى رتبة في السلم الاجتماعي العسكري- المدني، وآلية استخدام القوة اعتماداً على السلطة عينها. إذ تكشف هذه الآلية عن أن القوة بمقدار ما تبطش بالآخرين، ممن يقيمون خارج «محمية» السلطة المعتبرة، وما يترتب على هذه العلاقة من رفض لهم، وتأثيرهم، أو الحط من قيمتهم، كما لو أن السلطة تبرّر لهم، ومن موقع القوة، كما أسلفت، إصدار أحكام قطعية من هذا النوع، وما في ذلك من تعرية مسلكية لبنية النظام السياسي القائم بالذات، وما يجعل من العمى القيمي ركيزة نافذة الأثر حتى على مستوى السلطة وبطانتها، كما رأينا في إطار تصفية

الحكم العثماني. فقد عد العثمانيون دولتهم استمراراً للدولة العربية الإسلامية التي سقطت سنة 1258 م. ص 63.. ثمة من يشير إلى الخلافة العثمانية «المؤرخ دوسون» دون ذكر المصدر، وغيره، ص 64... ولا مصدر دقيقاً بتنازل الخليفة العباسي المتوكل عن الخلافة ص 64. ومن خلال مصادر كثيرة، ابن إياس وغيره ص 65... وأول نص رسمي ورد فيه لقب الخليفة هو معاهدة كوجد كينارجي التي وقعت سنة 1774 بين السلطان العثماني عبد الحميد الأول «1774-1789» وإمبراطورة روسيا كاترينا الثانية... إن لقب خليفة، سرعان ما بدأ يحتل أهمية كبيرة عند السلاطين العثمانيين في القرن الثامن عشر وذلك حين بدت علامات تدهور الدولة وانحطاطها. ص 66..

وحتى بالنسبة لمفردة الزعيم، وتلك الدلالات السلطوية، والفخرية، والوجاهية التي تتطوي عليها، بدورها تم احتكارها من خلال التابعين لهم في دولتهم. وللإضاءة، ربما كان النظر في كتاب أحمد صدقي شقيرات: الزعامات المحلية والعشائرية «من وثيقة المهمة العثمانية رقم 59/ 3 «لسنة 966هـ = 1559م، أريد، الأردن، ط1، 2008، مفيداً في تتبع هذا الموضوع، كما في مبحث الصراعات في الفصل الثاني (قضية ولاية العهد والأزمة الداخلية العثمانية) 1521-1562م، صص 61-84.. وبالنسبة لمفهوم الزعامة ودلالاتها أرضياً وسياسياً بعد ذلك: أصحاب الزعامة: وهذا المصطلح من المصطلحات العثمانية متعددة الاستعمالات في المجالات الإدارية والمالية والإقطاعية والعسكرية، ويعني «رؤساء الإقطاعات من رتبة زعامت»، من الكلمة العربية «زعامة»: من «زعم» وتعني: الشريف، الرئاسة، كثير المال، كثير الدروع، في المجال الرسمي تعني «زعامت»: أرض زراعية تقطع للمحاربين. ص 94.. وصلة الأرض بالسلطة: يعتبر أعيان الزعامات المحلية والعشائرية في بلاد الشام والتي تكشف عنهم وثيقة المهمة العثمانية، بمثابة قيادة المجتمع المحلي والفاعلين فيه في ذلك الزمن، وتأتي هذه الزعامات بناء على توازنات متعددة، وطبقاً لمعايير ومنجزات اجتماعية مختلفة.. ص 180).

ينظر حول ذلك، مبحث شفيق محسن: المسألة الشرقية: الامتيازات الأجنبية وتأثيرها في الإمبراطورية العثمانية، في مجلة «الاجتهاد» ع 44، المصدر السابق، صص 153-175.

الخصوم الداخليين، أو ما يتوقع منهم أن يكونوا خطراً على الحامل الرئيس للسلطة. وإزاء هذه النقطة بالمقابل، لا يبدو أن المحتوى الأخلاقي بمنفصل عن طغيان مفهوم القوة المركزية، أو على مسافة مرئية، ما يعطي نفساً للناظر، وهو يتحدث عن فض السلطات، أو الفصل في ما بينها، ففي النظام الأحادي سياسياً تكون التنفيذية هي المرجع، لا بل، من خلال المتابعة، تكون يد الحاكم/ السلطان هنا هي محط الأنظار أكثر من صوته، جرّاء البطش المآذار، وبذلك تصبح الجغرافية محكومة بلغة العنف، وتجري تصفيات معينة، من خلال السلطة القائمة، ومن يمثلها، وحدود البلاد هي حدود حاكمة: سلطانية لا ينظر إليها بعيداً عن السطوة والطريقة الإدارية لها والقائم على دوام العنف.

وعندما نقرأ ما تكتبه إحدى الباحثات «الحدوديات» في هذا المضمار، وفي نص طويل نسبياً:

(تنشأ مسألة الحدود الإقليمية بين الإمبراطورية العثمانية وبلاد فارس من عام 1514م، عندما هزمت معركة السلطان السلطان سليم الأول الشاه إسماعيل الصفوي. تجمع الزعماء الكرد الرئيسون للالتزام السنّي بالسلطان سليم، الذي قبل الحفاظ على خمس إمارات وراثية كردية، وخلق ست عشرة إمارة مستقلة أخرى ذات أهمية غير متكافئة، أطلق عليها اسم «الحكومات الكردية Kürt Hükümleri».

في إطار الاتفاقات الجماعية، التي تعتبر حماية للحدود، فإن إمارات واتحادات القبائل الكردية، وأدوات تنفيذ الطموحات الإقليمية للسيادة التركية أو الفارسية، كانت في صراع شبه دائم بين الأشقاء ولكن هؤلاء يظلون مخلصين لسيادة كل منهم.. هذه، منذ ما يقرب من ثلاثة قرون، تشارك في الحروب، لكنها تفشل في رسم حدود مستقرة.

وعلى طول اتفاقيات الحدود التي ترسم الحدود من حيث المناطق، فإن معاهدة زوهاب في عام 1639 ستكون بمثابة أساس لمعاهدات الحدود المستقبلية. فتحفظ بلاد فارس بحدودها في القوقاز مع مدينة يريفان في أرمينيا، بينما ستبقى بغداد وبلاد ما بين النهرين تحت الحكم العثماني.

في ضوء الحرب، في 21 أيلول 1911، في طهران، سيعمل ممثلو البلدين، بمساعدة مستشارين بريطانيين وروس، على أساس معاهدة أرضروم لعام 1847 وإقامة حل وسط على الحدود. ستستمر المفاوضات في القسطنطينية وستؤدي إلى

بروتوكول 1913-1914 الذي سيأخذ، في سياق الحدود الجديدة، في الاعتبار المصالح البريطانية في منطقة نفوذها بنقل جزء من أراضي بلاد فارس إلى الإمبراطورية العثمانية في منطقة خانتين النفطية، للسماح لبريطانيا بالحصول على موافقة الباب العالي تعترف بحقوق الأنجلو فارسية وتوسيع نطاقها لتشمل الأراضي العثمانية. وستمول العاصمة البريطانية بناء خط سكة حديد بغداد - البصرة، وستتولى بريطانيا العظمى السيطرة على الملاحة في دجلة في هذه المنطقة. وستفقد بلاد فارس سيادتها على حوالي 90 كم من الحدود المشتركة مع الإمبراطورية العثمانية، فضلاً عن حقها في الإبحار في مياه شط العرب، الموضوعة بالكامل تحت السيادة العثمانية⁽¹⁾.

نلاحظ جانب القوة في رسم الحدود، وما يكون عليه وضع المقيمين داخلها، وباسم النظام السلطاني الذي يحكم.

وفي بنية الحدود المرسومة أو المتشكّلة، يكون القرار الأول والأخير لمرجعية واحدة، تتمثل في القوة، وهي التي تطرح القانون الذي يتناسب ونوعيتها، ومن يمكنهم كتابته، أو السهر عليه وتنفيذه، ومن يكون المعنيون به، أي ما يجعل من ناحية المكان: الجغرافية، التعبير الأمثل عن الحراك السلطوي الضارب لهذه القوة، وهي على قدر وساعتها، إنما أيضاً على قدر ثرائها أو غناها، تعزّز فاعلية هذه القوة وتشخيصها، وتزيد في الرأسمال الاعتباري للقيمين عليها، ولأن تاريخاً طويلاً من علاقات القوة وتأمينها شغلت أذهان الناس على مدى قرون طوال، باتت القوة أقرب إلى المفهوم القدسي، أكثر من أي مفهوم آخر، فالقوة تشرع للحق، كما أنها تطرح صورة محددة للحقيقة: حقيقة البشر وخلافهم خارجاً، وكيف يكون الموقع الاعتباري لكل منهم، وهي جغرافية من نوع آخر، مواز لتلك الجغرافية/ التضاريس بكل حملتها المادي: ما على الأرض وما هو في جوفها، وهي جغرافية القوة الممدوحة، ووساعة الحدود، تضيف على ذوي السلطة اعتباراً متعالياً، كما لو أنهم في تمكّنهم من السلطة، وفي «قضائهم» على أعدائهم، إنما أتوا شرعنة وجود وسيادة وتحديد مصائر الآخرين، حيث إن مفاهيم من نوع: الخيانة، العمالة، البطولة، القوة الفعلية، الضعف، الإيمان، الصدق، الكذب، المناورة، السلم، الحرب الجهادية، والاعتقاد... الخ، تعرّف من خلال بصمة السلطة القائمة، وبمقدار وساعة الحدود السياسية المرسومة، والتي تخص

(1) ماميلى، سهيلة غديري: التاريخ المضطرب للحدود الشرقية لتركيا L'histoire mouvementée des pigones orientales de la Turquie، موقع www.cairn.info الإلكتروني، باللغة الفرنسية.

السلطة وأمنها وإيديولوجيتها، لا يعود ينظر في تلك الممارسات الدموية التي ترتكب في الداخل، وعلى أعلى مستوى: من تصفيات، واعتقالات، وأعمال تعذيب وإهانات، وأجهزة إيديولوجية مرافقة، نظراً لأن لعبة الأمم التي تبرّر في استمراريته من خلال القوة السالفة الذكر، تكتسب مناعة لها رصيدها الاعتباري عبر مصالح مشتركة، كما هو الحال في طريقة التعامل مع الكرد، وهم مجزأون، أو مقسمون، وهم يخضعون حتى اللحظة للنفي والقمع هنا وهناك، ولتركيا دور استثنائي في إدارة جانب من هذه اللعبة الدولية الطابع بالتأكيد، وكل مغاير له، منبوذ أو في وضع المطارد.

ولربط اليوم بالأمس، وتبين وحدة المؤازرة، وربما سطوع اسمها المشترك، في تركيا الأحداث نجد أنه (في حين كانت تركيا من بين أكثر 15 دولة عرضة للخطر خلال سنوات ثلاث، أدى فشل محاولة الانقلاب في عام 2016 إلى تزايد مؤخر في ترتيب البلاد.

وقد قُتل أكثر من 270 شخصاً، بينهم 179 مدنياً، على أيدي فصائل القوات المسلحة التركية، إبان الانقلاب الفاشل الذي حدث في 15 تموز 2016.

وفي السنوات التي أعقبت ذلك، كان الآلاف من الأتراك المتهمين بعلاقات مع حركة غولن، ممن أتهموا بمحاولة الانقلاب ضحية عمليات التطهير أو اعتقالهم أو إعادتهم إلى تركيا اعتماداً على التسليم القانوني أو غير القانوني. وفي هذا الشهر، أظهر مقال نشرته صحف دولية بالاشتراك مع شبكة من «المواقع السوداء sites noirs» في تركيا حيث سيتم تعذيب المشتبه بهم.

وسمى مشروع الإنذار المبكر عوامل الخطر الأخرى، بما في ذلك غياب حرية تنقل للرجال، وعدد كبير من السكان، وتاريخ من القتل الجماعي، و «أسلوب النظام للديمقراطية type de régime de démocratie»، في إشارة إلى مزيج الديمقراطية والدكتاتورية.

وتقتصر الحركات في تركيا على عدد كبير من اللاجئين السوريين الذين تتم استضافتهم في البلاد، في حين أن الآلاف من المدعى عليهم الأتراك في الدعاوى القضائية منذ الانقلاب يخضعون عملياً لحظر السفر⁽¹⁾.

(1) فالي، الكسندر ديل: التطهير العرقي للكرد في سوريا: إستراتيجية أردوغان الإمبريالية الجديدة: Nettoyage ethnique des Kurdes en Syrie: la stratégie néo-impérialiste d'Erdogan موقع 75pignes75-au-feminin.fr الإلكتروني، اللغة الفرنسية.

وهذا يفتح الكتاب ويوجزه في صفحة مفتوحة واحدة، من خلال عدة نقاط هي مواقع قوى متناظرة، وحيث إن الأسماء على وجه العموم، هي التي تتغير، بينما القوة المؤاذرة سلطوياً، فتكاد تكون هي نفسها، ويكون التلاعب بالمكان محكوماً بطبيعة الظروف، فيكون منفرجاً أو منغلماً على نفسه، معطى حركة انتقال فيه دون مراقبة تذكر، أو بالعكس من ذلك، لا شيء يخرج عن نطاق الرصد والمتابعة، تبعاً للقوة وخاصيتها في الزمان والمكان، كما هو الحال بالنسبة إلى تركيا، وكما الحال في طريقة تعامل رئيس تركيا اليوم، ومنذ سنوات في إدارة دفة السلطة، وفي التعامل مع المستجد السوري المأساوي، وتلك الطرق المختلفة في التدخل، واعتماد قوى بالوكالة، أو تحت إمرتها، تعزيزاً لموقعها داخلياً وخارجياً.

أما عن «أهداف حرب أردوغان والجيش التركي» فنراها في التالي:

(منذ بداية الأزمة السورية، يتمثل هدف سلطة أنقرة في تثبيت «المنطقة الأمنية» المستقبلية في شمال سوريا كجزء من 3.6 مليون لاجئ سوري تستضيفهم في تركيا والذين يتواجدون المزيد من الدعم الضعيف من قبل الشعب التركي والناخبين من أردوغان. وأذكر أنه بين عامي 2016 و 2018، قامت تركيا أردوغان بهجومين في الشمال السوري. وتهدف خطة الرئيس التركي وجنرالاته، بالطبع، إلى الاستفادة من القضاء على قوات حماية الشعب الكردية / قوات الدفاع والأمن الكردية ونفي مئات الآلاف من المدنيين الكرد لتوسيع «عمقها الاستراتيجي *profondeur stratégique*» في شمال البلاد. وسوريا، مستعمرة تركية سابقة. تتوافق إستراتيجية التوسع هذه مع رؤية غير تقليدية حقيقية للعثمانيين الجدد واضحة للعيان في العراق، أو في قبرص، أو في الجزر اليونانية لبحر إيجه أو في البلقان، حيث يؤكد السلطان الجديد الخليفة أردوغان في كل مكان، إذ حكم الباب العالي *la Sublime Porte*. وكان هدف أنقرة في البداية هو التركيز على منطقة حدودية بين بلدي كري سبي:تل أبيض وسري كانيه: رأس العين، على بعد 120 كم. وفي نهاية المطاف، يخطط أردوغان للسيطرة على قطاع شاسع شمال سوريا على عمق 32 كم ومن الفرات (الغرب) إلى حدود العراق. وهكذا فإن إستراتيجية أنقرة و «أهدافها الحربية» في سوريا تجمع بين الدوافع الإثنية القومية والأمنية والإمبريالية الجديدة والاقتصادية (النفطية) وحتى الدينية، ناهيك عن الدوافع «القومية الإسلامية». ويتكون التابعون السوريون العرب الذين يقاتلون إلى جانب الجيش التركي كجزء من الجيش الوطني السوري من المتمردين الإسلاميين السابقين الذين قاتلوا النظام السوري ولجأوا إلى الشمال. والغرب تحت الحماية

التركية بعد الاضطراب إلى مغادرة مناطق المتمردين التي سيطرت عليها دمشق وحلفاؤها الروس والإيرانيون منذ عام 2016 في الغرب وفي جنوب البلاد على وجه الخصوص.

الكسندر ديل فالي: التطهير العرقي للكرد في سوريا: إستراتيجية أردوغان الإمبريالية الجديدة..⁽¹⁾.

(1) المصدر نفسه.

في هذا الإطار، أذكر بما كتبه الكاتب والصحفي حمد الحناكي، في صحيفة «الحياة» اللندنية، بتاريخ 9 كانون الأول 2017، وتحت عنوان «قيامه أرطغرل».. وحلم الخلافة»، تأكيداً على هذا التوجه، حيث كلام الأمس لا يقوله أو يكرره اليوم، وإنما يحاول اليوم، أن يتقمص كلام الأمس، وكأنه هو نفسه، بكل مناخاته الاجتماعية، والسياسية، ونظراً لخصوصية المقال، وقيمتها من الناحية التاريخية، كما هو، مع تعليق الكاتب وتوضيحه لمحتواه ونقده له بالمقابل:

(لا تملك حقيقة إلا أن تتأمل بإعجاب ما يفعله الأتراك في تمجيد دولتهم، ماضياً كان أم حاضراً! إذ إن لغة الخطاب التركية تشبه نظيرتها الإيرانية، كما تجمعهما المطامع والطموحات السياسية في ما هو أبعد من محيطهم الجغرافي).

ومن يعتقد أن تركيا بريئة كبراء الذئب من دم يوسف فهو واهم، الفارق الأساس بينها وإيران هو أنهما تعالجان أمورهما بالكتمان، والكتمان هنا تعبير مجازي، أقصد فيه أنهم يعملون من خلف الكواليس، بينما إيران كما يعرف الجميع تعلن تدخلاتها، بل وتتباهى بها.

المسلسل التركي «قيامه أرطغرل» وقيله «وادي الذئاب» هما نموذجان واضحا معبران عن طموحات وتطلعات الأمة التركية، كما يرون أنفسهم، وسبق لي أن كتبت مقالة عن «وادي الذئاب»، الذي يتحدث فيه السيناريو عن المؤامرات على تركيا في الحاضر من جميع الدول الكبرى، وكيف يستطيع الأتراك من خلال «عبقريتهم» و«شجاعتهم» أن يفسدوا جميع المؤامرات التي تستهدف لجم هذه الدولة العملاقة، كما يصورون أنفسهم.

مسلسل «قيامه أرطغرل» جانب مماثل، لكنه يتغنى بالعثمانيين، من خلال والد عثمان المؤسس، وهو «أرطغرل»، المسمى المسلسل باسمه، فهو شجاع عادل ذكي وسيم محبوب من النساء، وهلم جراً، والهدف معروف، من خلال دغدغة مشاعر المسلمين وتحديد في العالم العربي في نوع من الاستعمار الثقافي تمهيداً لاستعمار فعلي.

الأتراك يجيدون اللعبة الإعلامية والمناورات السياسية أكثر من الإيرانيين، الذين يتفوقون بالشعارات السياسية، وكنت أتمنى على العرب، وهم يملكون المادة، أن يستخدموا هذا السلاح الفتاك، فالأفلام والمسلسلات تحدث أثراً لا يوصف في عقول المشاهدين، فمن منا لم يتطلع بإعجاب إلى شخصية صلاح الدين في ذلك الفيلم العظيم «صلاح الدين» الذي مثل دوره أحمد مظهر من إخراج يوسف شاهين؟

من الجميل أن نمجد الإسلام، أو يمجد المسيحيون ديانتهم، أو حتى اليهود ديانتهم، لكن على ألا يكون ذلك من خلال إبراز أشخاص محسوبين على دول أو تيارات معينة، فيصبح العثمانيون

هنا هم الإسلام، بينما غيرهم غير جديرين به. أكرر هنا شكوك ذكرتها من قبل عن أصحاب المطامع السياسية، الذين يمتطون ناصية الأيديولوجيا الدينية أو المذهبية لـ«بث» مآربهم الأخرى.

وعودةً إلى المسلسل، فلا أعرف، هل أبكي أم أضحك على تناقضات تحدث فيه، مثل أن يتقاتل الأتراك المسلمون بينهم ويمارسون، أو بالأصح الأشرار منهم، كل الموبقات التي لا تتصورها، ثم يذهب أحدهم بعدها للصلاة وبراءة «الحمل الوديع» في عينيه! أما المرأة فتخاطب زوجها بـ«سيدي» وتساعده في خلع ملابسه وتكاد أن تفرش الأرض له ورداً، ومع ذلك لا تسلم من نظرات تقدح بالشرر إن ارتكبت ما يسميه هفوة.

أعتقد أن الأتراك وقعوا بين سندانين، فهم من جهة يطعمون في الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، ومن جهة أخرى يستخدمون الإسلاميين ورقة يسامون بها الأوروبيين، بل إن أردوغان وكثير من مسانديه يعتمدون بعلاقتهم مع بعض الدول والأحزاب غير التركية على ورقة الإسلام، وسبق للرئيس التركي أن زار موقع تصوير المسلسل، كما رافقه ممثلون في زيارة له إلى الكويت.

ونقلاً عن «تركيا برس»، أكد الرئيس التركي رجب طيب أردوغان أهمية المسلسل التاريخي التركي «قيامه أرطغرل» (ديريليش بالتركية)، مبيناً أن المسلسل يحظى في الآونة الأخيرة باهتمام وإعجاب الجميع صغاراً وكباراً، وأن أفراد أسرته أيضاً يتابعونه من كُتب. جاء ذلك خلال مقابلة أجرتها قناة «تي آر تي» الحكومية التركية، قبيل بدء عرض «المسلسل»، الذي حقق نسبة مشاهدة عالية، في ظل روعة الإنتاج والخيال السينمائي العالي في الدراما التاريخية. وقال: «إن الشعب التركي، بجميع فئاته، بات يشاهد مسلسل «قيامه أرطغرل» بإعجاب واهتمام في الآونة الأخيرة»، واصفاً المسلسل بأنه بمثابة ردّ هام على أولئك الذين يستخفون بقدرات تركيا وشعبها.

وأوضح الرئيس التركي أن الفريق المشارك في إعداد المسلسل التاريخي سيقدم خلال الفترة المقبلة على إنجاز أعمال جديدة ومتتالية، وأضاف: «حفيد الذي يبلغ من العمر 13 عاماً، لا يكتفي بمشاهدة المسلسل في موعده، بل يشاهد الإعادة أيضاً، وكذلك بقية أحفادي». هنا يحضرني ما أثاره كاتبنا القدير موسى عنتر، في كتابه ذي الطابع القصصي «شجرة دلي» وما فيه من فائدة وطرافة:

Anter, Mûsa: Çınara min, Ram, Istanbul, ç3, 2013.

عنتر، موسى: شجرة دلي، رام، ستانبول، ط3، 2013. ومن ذلك:

أي نعم، الكرد أميون، سوى أن لهم ثقافة ترجع إلى الأسلاف والأجداد. ص11.
تاريخ العالم قسمان، قسم يخص الأمية: الجهل، والآخر يخص القراءة والكتابة. ص 13.
وفي حكاية له: قيل أنه كان لدى إبراهيم آغا غلام اسمه رشو، ولدت زوجته، وأنجبت ولداً، فبشّروه، فرد: وما علاقتي به لتبشروني به. بشّروا بيت الآغا، أنه ولد لهم غلام. هكذا هي صلتنا بالكرد: نحن الكرد في تركيا مثل هؤلاء الشغالين في المطاعم، مثل رشو. وقد تركنا ما سبق. ص17.

إن ما يستحق التنويه إليه، هو أن توسيع ساحة الكتابة هنا، واستشراء أمداء بعيدة ومحاولة التنقيب فيها تاريخياً وثقافياً كذلك، وفي موضوع، ربما لا يتطلب لدى البعض أو حتى نسبة كبيرة من الباحثين في التاريخ، وليس القراء العاديين طبعاً، مثل هذا التوسع الفائض، ومن ثم التطرق إلى ما هو تاريخي راهن، له سيستامه الاجتماعي- السياسي وحتى الأخلاقي المختلف، وأن البحث في سيرة حياة شخصية، تبعد عنا قرابة قرن ونصف، يوجب على النظر في الحدود القرية منها، حتى لا يتشتت وعي القارئ، ويفقد الاتصال بإحداثيات البحث بالذات. وهو ما يؤكد جانباً من مشروعية الاعتراض، سوى أن أياً كان، وهو يتابع ما يجري في تركيا، وكيف يتم التعامل مع الأحداث، مع الكرد، ومن هم خصوم النظام، وتسييس الدين، يحتّم علينا «علي» هنا، مثل هذا الإجراء المشروع، إذ إن إضاءة نقاط محورية في الماضي العثماني، تسهّل استيعاب مستجدات الراهن كثيراً، وهو ما يمنح القارئ العادي نفسه فكرة مركّبة، وهي أن شخصية لها هذا الحضور، تستحق مثل هذه الحدود البحثية المفتوحة.

وهي الشخصية التي لا تعطى اهتماماً، ويخصّص فضاء كتابة، من خلال نسبها «اعتبارها كردية هنا» والتحرك في هذا النطاق المضروب عليها، ذلك خفّض من قيمتها، وإساءة إلى طرق تحركاتها وخطوط اتصالها بالعالم الخارجي، إنما لزوم المتابعة لمختلف القوى التي يمكن التوقف عندها، باعتبارها مشاركة في ولادة بطل كهذا.

لنتوقف عند هذا القول لأحد الكتاب الكرد المعروفين:

(قبل كل شيء، علينا أن نقول أن كردستان، بدءاً من 1071، عاشت تحت التهديد وخطر الزوال).

في مقال له: أنظر إلى هذه التواريخ المكدومة العقل، وقد دخلت تاريخ الأمم... لماذا الترك تبهوا وهم يقولون عن أنه ليس من أصدقاء للأتراك. لماذا تستقبحون أمم العالم. هناك في العالم اليوم 170 أمة/ شعب، تُرى من قال لها أن تصبح أعداء للأتراك، أليس يتوجب أن نفكر لأنفسنا هنا. ص 31.

في مختتم حكاية أخرى، يقول: لا صديق للأتراك. نعم، إنهم يصدقون والله، وهذا حصاد أعمالكم. ص 54.

حول الموقف السلبي بالنسبة إلى الأتراك من الكرد ولغة هؤلاء، وما فعله الأتراك باللغة الكردية والثقافة الكردية: فليغن إبراهيم تاتليسييس في الإذاعة والتلفاز أغنية «دون بيت Bê mal» و«مدلّل البرية Delalê beriyê»، ولننظر من سيستمع إلى الأغاني التركية 9 ص 127.... الخ

إن تاريخ سنة 1071 من أجل الكرد كثير الأهمية. ففي ذلك التاريخ، اقتحمت عشائر الأتراك، للمرة الأولى بوابات الأناضول، مواطن المدينيات، وقدمت واستقرت فيها. في ذلك التاريخ كان أهل المكان من البيزنطيين «الروم» والكرد، خسروا أمام الأتراك في ملاذكورت، وكانت هزيمة ذلك التاريخ، سواء بالنسبة إلى الكرد أو البيزنطيين، قد شكّلت مأساة لا نهاية لها تماماً. كانت سنة 1071، بالنسبة إلى البيزنطيين بداية زوال، عندما دخل الأتراك القسطنطينية، سنة 1453، وحيث إن الإمبراطورية البيزنطية لم يعد في مقدورها المواجهة، وقد خرجت من ميدان التاريخ وتلاشت.

في الجانب الآخر، ومن أجل الكرد، شكل انتصار معركة ملاذكورت، بداية حياة بائسة، ممزقة ومسحوقة. وبدءاً من ذلك التاريخ وتالياً، كان الكرد، في كل خطوة يواجهون تحديات وقوى خارجية، ليتمكنوا من حماية أنفسهم. في المرة الأولى، في زمن يافوز «الرهيب» السلطان سليم، ارتبطت كردستان بالدولة العثمانية، والسلطان سليم من خلال الوعود، الأقوال والمعاهدات ربط الأمراء الكرد بالدولة العثمانية «الباب العالي»، وحارب الصفويين الذين كانوا شديدي القوة حينذاك، بالمشاركة مع الكرد. وعلى خلفية من الوعود والمعاهدات، ساند الكرد بدورهم السلطان سليم، وحاربوا معه ضد الجيوش الإيرانية في محيط بحيرة وان، حيث وقعت معركة جالديران. وبناء على وعود السلطان سليم ومعاهداته، سيكون في مقدور الكرد بناء «حكومة كردية»، ويصبحون فيما بينهم، وهم يديرون شؤونهم مستقلين ذاتياً...⁽¹⁾.

(1) اوزون، محمد: بداية الأدبيات الكردية، اتهاكي، ط4، 2007، ص7

Uzun, MehmedL Destpêka Edebiyata kurdî, Ithaki, Istanbul, ç4, 2007.

ولتعميق أثر هذا الجرح التاريخي المزمّن، أشير إلى ما أورده مالميسانج، في كتابه: بدرخانيو جزيرة بوتان ومحاضر اجتماعات الجمعية العائلية البدرخانية، ترجمة: شكور مصطفى، وزارة الثقافة، أربيل، 1998، حول علاقة كهذه، تخص كبير البدرخانيين، أو مؤسس الإمارة البدرخانية، مع الباب العالي (قبل الثورات بأعوام عدة وقف الأمير بدرخان العام 1838 إلى جانب العثمانيين في هجوم شنوه على أمير كردي آخر وهو الأمير سعيد، ويحرز إسقاط قلعته، ويمنح مقابل هذا، كما يذكر مولتته، ضمن لواء من الجنود الاحتياط «رتبة عميد عسكري موجودة الاسم معدومة الجسم»، ويقبل تنصيبه حاكماً على بعض الأقضية..

ثم: وفي العالم 1839، إبّان الحرب التي دارت قرب نيزيب بين جيش ابراهيم بك محمد القوالي وبين العثمانيين «يخرج الأمير بدرخان بما يقرب من مئة ألف مقاتل» من قواته العسكرية لإسناد العثمانيين بناء على طلبهم، مضحياً بثلاثين أو أربعين باسلاً من بواصل الكرد، ويعود مشيعاً بالهزيمة وفي حالة بائسة، ص 41).

وليس مستغرباً أن يفتتح المفكر التركي العتيد اسماعيل بشكجي، كتابه: النظام في الأناضول الشرقية «الأسس الاجتماعية- الاقتصادية والبنى القومية»، ترجمة: شكور مصطفى، دار آراس، أربيل، ط1، 2000، ج1، وفي الاستهلال، بعبارة لجان جاك روسو «إن أول إنسان وضع حدوداً لأرض قائلاً إن هذه الأرض لي ووجد من الناس السذج من يعتقد بهذا الكلام. بات أو مؤسس حقيقي للمجتمع المدني. وإن أول من اقتلع أوتاد سياج حدود هذه الأرض وقال لأبناء جنسه إياكم أن تتسوا عدم الاستماع إلى قول هذا الدخيل وإن الأرض لا تخص أحداً بعينه وأن ثمارها ملك شائع للجميع، كان بالإمكان أن يحمي الإنسانية من معظم الجرائم والحروب والتجاوزات والبؤس والإهمال والموت المحتّم»

وعن إسهام الكرد في انتصارات العثمانيين: وكذا نجد في أواسط القرن الرابع عشر قبيلتي القره قويونلو «الخروف الأسود» والآق قويونلو «الخروف الأبيض» التركمانيتين في الأناضول الشرقية قد أكسبهما الكرد الذين دخلوا في تركيب بنيتهما القوة والاقتدار. ص 102... هناك عشائر كردية مرتبطة بدولة الخروف الأبيض. إننا نصادف على سبيل المثال، أمثال كوهرلو وعنتر وكلهر ولك. ص 103... إن الغزوات الشديدة للأتراك لم تفلح في هدم النظام العشائري لدى الكرد ص 104.

و إن السلطان ياوز استمال أمراء العشائر الكردية نحوه أفاد من إدريس بدليسي بمقياس واسع ص 109... إن إدريس بدليسي هو من كتّاب الديوان للآق قويونلو «الخروف الأبيض»، انخرط بعد معركة جالديران في خدمة العثمانيين... لقد قدم إدريس بدليسي خدمة كبيرة في الاستيلاء على ديار بكر وأنحاء الشرق. لقد التقى هذا الشخص أمراء الكرد السنة واستمالهم إلى صف العثمانيين. وبهذا أطاع الدولة أمراء خمس وعشرين منطقة. ص 110.

وما يظهر مدى تماهي الكرد مع غازي موطنه، وكيفية تقديم الخدمات له، حيث إن المؤرخ الكبير فاضل بيات، يتقدم إلينا بمثال حي، وقد تفاعلت عبره قبائل وألسنة ومذاهب السنة، سوى أنها تمثل هجنة غير مسبوقة، رغم أنها من حيث التشكيل ترتد إلى ماض لا يخفى: عربي- إسلامي، أمويّ الطبعة، طوع أمر سلطة الغازي «ياووز سليم»، حيث نقرأ (ومما يجدر ذكره أن إدريس البدليسي الذي يعود له الفضل في انضواء الكثير من العشائر المحلية في جنوب شرق الأناضول وشمال العراق إلى الدولة العثمانية، كان يرافق السلطان سليم في حملته إلى بلاد الشام ومصر. وكعادته قام باستمالة العشائر في بلاد الشام وإقناعها بالخضوع للدولة العثمانية وبعد جهوده في هذا المجال التحقت العشائر العربية في جنوب بلاد الشام بإرادتها بالدولة العثمانية. وفي هذا الصدد قدم عدد من شيوخ العشائر العربية في بلاد الشام رسالة إلى السلطان سليم الأول يعلنون فيها طاعتهم وولاءهم للدولة العثمانية....)

ينظر كتابه: دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني «رؤية جديدة في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية»، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2003، ص 68.

وللمزيد مما تقدم، والتأكيد عليه، فقد ذكر الباحث الكردي سداد أولوغانا، في كتابه الأخير:

Ulugana , Sedat: Mîrektiya Bitlîsê di êwra Evdal Xan de «1618-1664» Nûbihar, Istanbul, ç1, 2018.

أنه في سنة 1514، تلاقى الجيشان: العثماني والصفوي في سهل أبخي «Çıldêran» Ebexê. وكان نصف الجيش العثماني من عساكر الأمراء الكرد، ففي ساحة الحرب، كان هناك المير شرف، المير هيزان، المير داوود، المير بالوي 80pignes80n80 بك، المير هسكيف ملك خليل، مي ريوتان بكر بك، مير ساسون محمد بك، مير عقيل قاسم بك، مير زركان محمد بك، مير جزيري مير شاه علي وأبناء مير سارم ممن يُسمون بـ سليمان ناصر وقاسم بك الذين وقفوا جانب مولانا إدريس بدليسي. وحيث إن إدريس بدليسي كان يتحدث في ذلك، عن دور العساكر الكرد، خاصة دور عساكر مير شرف، باعتباره مهماً جداً. إذ كان يقول عن أن بطولة عساكر روجكيان والأمراء الكرد، إن لم توجد، لهُزم الجيش العثماني. حيث إن هذا الجيش الذي كان أغلبه من الكرد، غلب الجيش الصفوي... وبعد 1514، يرتبط الأمراء الكرد بالعثمانيين ص 19.

وما يشير إلى مكتبة عfdال خان الكبرى أو العشيرة في الوقت نفسه «في عهده» في جغرافيا كردستان ربما المكتبة الأكثر تنوعاً وغنى ص 33.

وبالتالي، ما يُعرف هو أنه في الربع الأول من القرن السابع عشر، ساءت أوضاع الأمراء الكرد، حيث إن الحروب الصفوية-العثمانية، خربت جغرافية كردستان. فالإمارات الكردية كانت تحت وطأة الديون، وخربت قلاع كردستان ص 41.

ليتساءل كردي اليوم: كيف سلّم الكرد أعناقهم أعناقهم وما يملكونه لأعدائهم ؟ في الجانب الآخر، بخصوص طريقة تعامل السلطان سليم الأول مع الكرد حينذاك، وكانوا الفاعلين في نصره على أعدائهم الفرس أنفسهم، والممهدّين له ليكون غالباً عليهم، ومنزلاً فيهم المصائب، وهو ما يجب توضيحه، من خلال ما يفصح عنه وديع جويده، في كتابه الشهير: الحركة القومية الكردية «نشأتها وتطورها»، قدم له: مارتن فان بروينس، ترجمة: مجموعة من المترجمين، إشراف وتدقيق: غازي برّو، دار آراس- الفارابي، أربيل- بيروت، ط1، 2013، في اقتباس، ربما يكون طويلاً، ولكنه مهم جداً لأهل التاريخ، ومن يتعظون من درس التاريخ، ويربطون بين كل حلقة في سلسلته الهائلة التكوين (بعد معركة جالديران، اتّبع العثمانيون بقيادة السلطان سليم الأول طريقة تعامل مع الكرد مناقضة جداً لتلك الطريقة التي اتبعها الفرس بقيادة الشاه اسماعيل الذي- وفقاً للمصادر التاريخية- أقدم أثناء تراجعه عن المناطق الكردية إلى تدمير المدن والأرياف الكردية بطريقة ممنهجة، وألقى القبض على أحد عشر قائداً كردياً ونفاهم إلى أذربيجان. على العكس من ذلك عمد السلطان التركي إلى إظهار الاحترام للكرد، وانتهج في التعامل معهم سياسة بُعد النظر، إلى حد الوثوق بالزعيم الكردي إدريس البدليسي، وتكليفه إدارة شؤون إقليم كردستان، بما يشبه إدارة حكم ذاتي، ضمن الإمبراطورية العثمانية، وقد تأكّد ذلك في الفرمان الذي أصدره السلطان العثماني عام 921 هـ/ 1515 م.... وفيما بعد «في الربع الأخير من هذه الصفحة» يتابع قائلاً: سياسة الود والصداقة التي انتهجها السلطان سليم الأول تجاه الكرد، وبعد تيقّن العثمانيين أن الفرس ما عادوا يشكّلون عليهم سرعان ما تحولت إلى نقيضها، إذ أقدم العثمانيون بين عامي 1650- 1730 م، على إلغاء الأغلب الأعم من بنود اتفاقية الحكم الذاتي في منطقة ديار بكر- وان، واكتملت عملية تصفية هاتين الإمارتين الكرديتين خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ص 66).

تلك سياسة علّامة فهّامة تخبر الكرد، أنهم، إلى يومنا هذا، كما لو أنهم هم هم، وأن زمانهم الذي كان، هو زمانهم الذي يقيم فيه أصغر جيل منهم، وهم ينتقلون من اللدغ مراراً وتكراراً. ففي الحالة الأولى، بالنسبة للشاه الصفوي، لم ينتقم من الكرد، إلا لأنه عرف أن سبب انتصار العثمانيين على جيشه، كان مردّه إسهام الكرد في القسم الأكبر من الجيش العثماني، وأن هؤلاء إذا واتتهم الفرصة ربما ينقلبون عليه، وهو مسلّح بوعي تاريخي جهتهم، في تحولاتهم، وبالمقابل، فإن السلطان العثماني الأنف ذكره، رفع من شأن الكرم، ليس اعتباطاً، لأنهم كانوا أساس نصره على الفرس، ولاحقاً، وبعد أن قويت شوكة السلطان العثماني من بعده، كان قد حفظ درس سلفه عن ظهر قلب، وهو ألا يطلق سراح الكرد، ولهذا، استعاد درس الشاه الفارسي، ولم يعد بحاجة إلى الكرد، وقد تم تقسيم كردستان، فتغدى بهم قبل أن يتعشوا فيه.

إنما، هناك ما يفيد أكثر، لإثارة هذه النقطة التي ألفت بظلالها على كامل التاريخ الكردي، والإنسان الكردي تالياً، أي واقعة معركة جالديران، وتلك الذهنية التي عرف بها «متور» زمانه، وفارس ميدانه، ولحساب غيره: إدريس بدليسي: البدليسي، كما يؤرّخ له في كتاب سافراستيان، أرشاك: الكرد وكردستان، ترجمة الدكتور: أحمد محمود خليل، مطبعة سردم، السليمانية، ط2، 2008، حيث يسترسل، وبدقة لافتة، في سرد حيثيات جالديران، قبلها وما بعدها، وإظهار أن الذي غلب أجنبياً على أجنبي، وليحكمه أجنبي دون أجنبي، أو ليحل أجنبي محل أجنبي، هو الكردي نفسه، وليس أي كردي من عامة الكرد، وأن الذي دشّن جرحاً تاريخياً كبيراً، لم يلتزم إلى يومنا هذا، هو هذا الكردي نفسه، وأن الذي علّم أجنبياً، وليس أي أجنبي عادي هنا، إنما غاز، ومحتل، ومتعسف، وقادم إليه بصفة السيد والمسيطر، وكيف يستبد به، وقد أحيط به علماً، من خلاله، وقد أطلّعه، كما هو مقدّر على «كلمة سرّ قوته وضعفه» أي الكردي نفسه، وإلى يومنا هذا أيضاً: الفرس، ثم العثمانيون، ثم الفرس من هنا والعثمانيون من هناك، ثم كالمطحون بين حجري رحي، ثم الفرس والترك والعرب في الدول التي أصبح يعرف بها دون اسمه، دون تاريخه، ودون جغرافيته، لتحل عليه واقعه جرّمه الذاتية.

وهو ما يمكن متابعتها من خلال سافراستيان، بدءاً من فصل «عن النفوذ العثماني في كردستان. ص79»، لن ندخل في التقديم والتأخير، أو التعليق، إنما أدع القارئ يتابع ما هو مسلسل في كتابه، وكيف جاء الكردي بدبّ الآخر إلى كرمه، حيث يتحرك شريط الفيلم ذو الكاميرا الواسعة وسّع جغرافية الكردي المدماة:

وقد خلع السلطان سليم الأول «1512-1520» والده من الحكم، واستلم السلطة. ص79. ومن قصره الشتوي في أماسيا، بتركيا الآسيوية، طلب السلطان سليم الأول من الشاه اسماعيل أن يتخلّى عن مذهبه الشيعي، ويعيد الأراضي التي كانت تعود إلى الأتراك، فرد عليه الشاه بلهجة عنيفة غاضبة، ونتيجة لذلك نشبت معارك حربية بين الفريقين، في سهل جالديران، قرب مدينة قارص، بين عامي «1514-1516م» وفي النهاية حلت الهزيمة بالفرس تماماً، وفر الشاه اسماعيل تاركاً عرشه وخزائنه غنيمة بين يدي السلطان العثماني.

إن الانتصار العثماني في جالديران، كان نقطة تحول هامة في التاريخ الحديث للقبائل الكردية، فقد اتضح للعثمانيين التوزع الجغرافي لتلك القبائل، والتقسيمات الفرعية، وأسماء المناطق القبلية والزعماء أيضاً. ص80.

طبعاً ما يمكن قوله، أي بالنسبة إلى الوارد في كتاب سافراستيان، هو أنه، كلما تقاسمت قوى الكرد ومواطنهم، زادوا ضعفاً وتباعداً في الرؤى والموقف، بسبب السياسات المحلية الممارسة في كل جانب. وأصبح كرد كل جهة في مقام الغريب نسبياً مع الزمن.. ليس هذا فقط، وإنما أصبح من يرحل أو يرحل عن موطنه أو دياره يصبح غريباً مع الزمن عليه/ عليها، وتزداد الخلافات بين أقسامه/ أقسامه. وفي كتابنا هذا، مهما أفصحنا عن وحدة كردستان، ووحدة الوجود الكردي، لا يمكن تجاهل مغايرة كل طرف للآخر، مثلاً، عندما نتحدث عن بنختي وسرختي، حيث إنه من الصعب إن لم يكن مستحيلاً النظر في طرفيهما على أنهما الخاصة اليميني والأخرى اليسرى للجسد الكردي نفسه، كما هو تاريخ الحساسيات القائمة. حتى بالنسبة لموضوعة هفيران، فإن من الصعب تجاهل هذا الاختلاف، ولن أقول الخلاف، لعمق الدلالة طبعاً، حين يصبح بنختي باسم حاجو، بأكثر من معنى، وسرختي باسم بطي، بأكثر من معنى، وقد تكفل الزمن بكل ما يحمل داخل جسمه من دسم الوقائع الثقيل الهضم، من التباعد النفسي، فلا يعود الخط الفاصل هو العمود الفقري، أو النخاع الشوكي الذي يصل ما بين جنبي الجسم، إنما القفص الصدري من جهة، والظهر غير المرئي بتعبير مقابل، بالنسبة لكل جانب، من جهة ثانية. تصوروا، ماذا يقول سافراستيان، عما يخص المعركة جالديران وتبعاتها: العقار للأعداء، والسلم للكرد تاريخياً:

ويعود الفضل في ذلك إلى رجل الدولة الشيخ إدريس، إن هذا الرجل الكردي، كان من مدينة بدليس، وكان سابقاً
«هناك دائماً، ودون استثناء وراء انتصار الأعداء على الكرد، فاعل جوهري سهل هذا الانتصار بمغة كردية»

سكرتير يعقوب خان، أحد مدعي العرش الفارسي، وخلال وجوده في جالديران قدّم ملا إدريس خدمات جليلة للسلطان سليم الأول، وقدّم له نصائح هامة في شئون كردستان وأرمينيا، وفي عام «1515م» أرسله السلطان سليم من أماسيا، مزوداً بوسائل الإطراء والهدايا، إلى الزعماء الكرد في كوتيوم وزاغروس، لإبعادهم عن التحالف مع الفرس، ولكسبهم إلى جانب الدولة العثمانية.

واستجاب تسعة زعماء «بگوت» كرد لطلب السلطان، وأعلنوا ولاءهم للعثمانيين، أما القبائل الأربع عشرة الباقية في معاقل زاغروس وطوروس النائية فتوصل الشيخ إدريس مع زعمائها إلى معاهدات باسم السلطان، فبعث لهم السلطان جميعاً فرمانات «مراسيم» إمبراطورية، يعترف فيها بالزعماء الكرد على أنهم «بكلريك»، لهم سلطاتهم المبدجة وحقوقهم المتوارثة غير القابلة للتحويل، ولهم امتيازاتهم وملكياتهم لقلاعهم وحصونهم وأراضيهم بالكامل، ومنحوا لقب الحكومات الكردية المستولة قانونياً فقط عن جزية سنوية اسمية، وتجنيد عدد محدد من المسلحين والخيالة أثناء الحروب.

وفضّل هؤلاء الـ «بكلربك» الكرد التسعة أن يُسموا أنفسهم «دره بك»، وكانوا إمبراطورية ضمن إمبراطورية ضمن إمبراطورية، وقد وضعوا تحت القيادة العسكرية العليا لـ «بكلربك» في الأناضول، القائد العام للجيش في آسيا العثمانية. إن خطة الشيخ إدريس بخصوص إعادة التنظيم ساعدت بصورة رئيسة على حماي الحدود ضد غزوات مستقبلية من قبل الفرس، وكانت الحدود بين نهري دياي والزاب، محروسة من قبل الحكمداريات الكردية «الحكومات شبه المستقلة». ص 81.

وكان الشيخ إدريس يدرك أن عواطف السكان الأصليين في أرمينيا الكبرى منحازة تاريخياً إلى الفرس، وكي يحافظ على أمن وسلامة المواقع الاستراتيجية في وادي نهر أراكس، أغري هو وحلفاؤه القبائل الكردية الكبيرة في ديار بكر وطوروس بالهجرة إلى وان وقارص، والمناطق الأرمينية الأخرى، ووعدوهم بإقطاعات عسكرية وبالقاب ووظائف إدارية، وهكذا مارس الأتراك ما سبق أن مارسه الفرس لقرون عديدة، أي تشتيت القبائل الكردية، لتحقيق مصالحهم العسكرية. ص 82.

وتوصلت القبائل الكردية إلى اتفاق مع السلطان العثماني دون أية معارضة على الإطلاق، وتم ذلك بجهود الشيخ إدريس، ذلك الزعيم الكردي المثقف والموثوق به، الذي استطاع أن يقنع الزعماء القبليين، ذوي العقول الحسيفة المتزنة، بالمكاسب التي سيجنونها من تحالفهم وتواصلهم المباشر مع الامبراطورية العثمانية. ص 82.

ويبدو أن هذا الأمل تحقق خلال قرنين، بالرغم من الحروب الطويلة المتوالية والمدمرة بين تركيا وفارس خلال الأعوام «1514-1516م»، و«1534-1556م»، و«1587-1628م»، و«1636-1638م»، و«1724-1732م»، ونتيجة لذلك دمرت الأقاليم الحدودية جزئياً، وجُند الشباب الكرد الذين كانوا غالباً ينخرطون بشغف في الجيوش العثمانية، ليشاركوا في حروب الترك ضد الدول الأوروبية». ص 83.

طبعاً، يجب أن نأخذ في الحسبان دائماً، ما يفعله الزمن السياسي للكرد، وفي بوصلته الخارجية، من تبديد قوى الكرد وضربها ببعضها بعضاً. ولنتابع تالياً:

ولأجيال عديدة استطاع كثيرون من الكرد، ولا سيما الذين كانوا يسكنون المعازل الجبلية التي يتعذر الوصول إليها، أن يستفيدوا من الاتفاقيات الموقعة مع الدولة العثمانية، دون أن يتعرضوا لأية مسؤوليات، إنهم يتمتعون بحكمهم الذاتي السابق بشكل غير منقوص، وغالباً دون دفع الجزية أو تقديم الجنود. وكان طبيعياً أن يمتنعوا عن دفع الجزية، لأنه بغض النظر عن الجنس والدين والسلطة، فإن كل من كان يحاول أن يسيطر عليهم قادماً من الغرب كان يُعدُ رومياً، ومثل هذا يجب أن يقاوم بلا هوادة. وما كانت تلك القبائل المعزولة في أودية معينة تعلم أن هؤلاء الترك كانوا قادمين في الأصل من آسيا الوسطى، بالرغم من قدومهم حديثاً من الغرب. ص 83.

وكانت توجد أسباب أخرى دفعت الزعماء القبليين إلى عدم تنفيذ الاتفاقية التي وقعوا عليها، فبيلاد فارس كانت جارا قريباً آخر للوطن الكردي، وعلى الرغم من الفوضى السياسية التي كانت سائدة فيها، كان يمكنها أن تكون عدواً مربعاً إذا استخف بها كثيراً، والأكثر من هذا أن

القسطنطينية، عاصمة الإمبراطورية العثمانية، كانت بعيدة جداً، ومنذ حكم سليمان القانوني «1520-1566م» كانت الإمبراطورية نفسها متورطة بشكل معقد في أوروبا. ص 83.

وفضلاً عن هذا فإن حضارة الأتراك فشلت في التأثير على الكرد، وصحيح أن الكرد كانوا أميين، وكانوا، لأغراض عملية، منقطعين عن العالم الخارجي حتى الوقت الحالي، إلا أن الزعيم الكردي البسيط ملاحظ حاذق، ومتسائل ذكي، وهو يتميز بإدراك حاد، وبحكمة دقيقة في الشؤون المتعلقة بالكرد، ومن ثم فهو لم يفشل في ملاحظة أن الفاتحين الأتراك لا يمتلكون لغة أدبية، وأنهم ليس لهم تراث أدبي، وأنهم استعاروا من الأبجدية العربية ومن المفردات الفارسية والعربية الكثير، في حين كان الكردي نفسه يتمتع ليس فقط بالحكايات الملحمية لبني جنسه، وإنما وبالملاحم التي توجد في الشعر العربي والفارسي أيضاً ص 84.

ومع هذا كانت الجيوش العثمانية تحرز انتصارات مدوية في أنحاء العالم، وخلال كثير من الأعوام القرنين السادس عشر والسابع عشر، كانت أوروبا ترتعد من وقع أقدام الجيوش العثمانية. أما بلاد العجم «تعرف بلغات الشعوب المجاورة باسم، فارس» فكانت قريبة من الدولة العثمانية، واستطاعت الملاحظة على نفسها واتباع سياسات عملية متحولة بحسب الظروف. وجدير بالذكر أن الفرس أنفسهم تأثروا بالتقدم العثماني في أوروبا، وقامت البعثات الأوروبية والرحالة الأوروبيون بزيارة فارس بأعداد متزايدة، لتقديم ولأهم واحترامهم لمقام الشاه الرفيع، ولم يستطيعوا أن يقدموا له مساعدة عملية ضد الأتراك.

وعلى النقيض من ذلك كانت عدة بعثات تبشيرية أوروبية تبحث عن مساعدة فارسية، لشن حملة صليبية جديدة ضد الترك، وأن المئات من المخطوطات الأرمينية، والمذكرات الشخصية المسجلة يوماً بيوم طوال تلك القرون، تظهر التأثير العميق الذي تركه الانتصارات العثمانية في الغرب على عقول الشعوب الشرقية. ص 85.

وعندما اعتلى الشاه عباس الثاني «1585-1628م» المعروف بنشاطه، عرش بلاد فارس، أعد محاولة جديدة في مقاومة الترك، وكان يحتاج إلى مؤازرة جميع الشعوب المقيمة بين الخليج الفارسي والقوقاز، ولم يستطع أن يتجاهل الهيبة التي كانت تتمتع بها أئمة الإمبراطورية العثمانية في نظر جزء كبير من القبائل الكردية القوية، لذلك شجع الأمير شرف الدين بدليسي، وهو مؤرخ كردي، وسليل أسرة شرف خان الحاكم في بدليس، ليكتب باللغة الفارسية تاريخ القبائل الكردية وسلالاتهم، وكان هدفه من وراء ذلك بالطبع إثارة الحمية المتوارثة للكرد، وليذكرهم باتحادهم القديم مع الفرس والشرق، ويصرف انتباههم عن تأييد الإمبراطورية العثمانية. ص 85.

لكن السرور الذي جلبته هذه الخطوة للقبائل الكردية، رافقته أعمال عسكرية قاسية، رأى الشاه نفسه مجبراً على اتخاذها ضد بعض تلك القبائل، ولولا الدعم الفعال الذي قدمته فرق الفرسان الكردية الكبيرة ما كان الشاه عباس ليتمكن من الإطاحة بالجيش الأوزبكي الذي هدّد بلاد فارس في القسم الشمالي الشرقي، قادماً من آسيا الوسطى. ص 86.

ومع هذا ففي اللحظة التي أخضع فيها الشاه عباس ألوّز بك انقلب إلى الكرد حلفاء الأمس، وكافأ الملك الكردي أردان على ما قدّم له من خدمات ضد الأوزبك، بأن طالبه بالاعتراف بالسيادة الفارسية، وأمر باعتقاله سنة «1613م» وأعدمه. ص 86.

نعم، أدخل الكردي الآخر، وهو طامح وطامع في كل شيء فيه: ماله ودمه وعرضه، من بابه العريض، ليُطرد من شباكه الضيق. بطولات تسجل باسم الآخر، ودماء تسفك كرمى الآخر، وأوسمة وألقاب تزيد في خزي الكردي، إلى يومنا هذا، حيث ينبري إدريس هذا، وكذهنية كردية علامة زمانه، دليل الغريب لاجتياحه، وقد فتح له باب روحه وماله وغيرهما، وقد أعلمه بما هو عليه في تقلباته: أن يكون مع هذا أو ذاك، ليعرف من قبل الاثنين، أن ليس له وجه، كي يعرف به، ولهذا لازالت هويته تبحث عنه، وهو غريب عنها، لأنه يعرف بنفسه من خلال غازيه، وهذا الغازي، وقد أدرك ما عليه سيكولوجية الكردي، أخذه من نقطة ضعفه الكبرى.

حيث يجد الكردي نفسه بعدوه، كما لو أنه يعيش علاقة مازوخية، وحيث يجد الكردي نفسه على كرده، مستبداً به، معاوناً لعدوه عليه، أو واشياً به، أو هما معاً، وما في ذلك من سادية مرعبة ورهيبية تاريخياً.

وفي واقعة مسجلة وهي أكثر إيلاماً، وأحدث تاريخاً، يوردها مالميسانج «تأليف وإعداد» في كتابه: عائلة جميل باشا الدياريكري والنضال القومي الكردي، الترجمة من التركية: فيض الله برايم خان- دلشا يوسف، المراجعة اللغوية والتقديم: فدان آدم، وزارة الثقافة- إقليم كردستان، مؤسسة بير، ط2، 2007، ما يعزّز موقف عدو الكرد من الكرد، وكيف يحسبها معهم في الريح والخسارة والتاريخيين معاً، أي كيفية إبقاء الكرد في وضعية «الخسران المبين» وإظهار حقيقة موقفه تجاههم، ومن خلالهم إجمالاً، وهي:

(يذكر عبد الملك فلات، لحظة التقاء خطيب بك بـ «مصطفى كمال باشا» بعد سنوات طويلة: عند زيارة خطيب بك حازرولي، لعمي المرحوم شيخ علي رضا فلات، تحدث معه عن مسألة طلبه للعفو التاريخي كالآتي:

بعد انتهاء انتفاضة شيخ سعيد، قامت الحكومة الجمهورية بنفي جميع الشيوخ، الآغوات والباشوات الذين خرجوا ضد شيخ سعيد، حينها تم نفينا أيضاً. لقد آلمني ذلك وشعرت بالمهانة. عند قدوم أتاتورك إلى ديار بكر كقائد للفيلق السابع للجيش، استقبلناه في قصرنا. كنا أصدقاء مقربين لبعضنا. حزمت أمري للسفر إلى أنقرة، لكي أجد حلاً لمعاملته السيئة تجاهنا، مهما كلفني الأمر. استطعت الحصول على إجازة للسفر إلى أنقرة عن طريق معاري. تم قبول حضوري إلى سراي «جانكايا». أدخلني الحاجب للداخل. كان أتاتورك جالساً على الطاولة، واضعاً يده تحت ذقنه ونظره للأسفل. بعد ذلك رفع رأسه وقال لي: «نعم خطيب بك أنا أسمعك». قلت له «يا حضرة الباشا، أنتم تعرفون إننا من أقرب أصدقائكم وكنا إلى جانبكم حاربنا ضد أتباع شيخ سعيد. نحن قتلنا منهم وهم أيضاً قتلوا منا رجالاً والآن تضعوننا في كفة واحدة معهم وترسلوننا إلى المنفى... إن قتلنا أهون من ذلك علينا. لكن وضعكم لنا في كفة واحدة مع هؤلاء العصاة يجعل الموت أهون لنا». رفع الباشا رأسه وقال لي: «يا خطيب بك، عند خيانه إنسان ما لعرقه، هل سيفعل الحسن مع الآخرين؟ هيا اذهب وابقى حيث أنت». بعد ذلك اليوم أوصيت أفراد عائلتي باستمرار قائلاً: إياكم أن تكونوا ناقصي الكرامة مثلنا، خذوا العبرة منا... (ص 72).

ويمكن سرد هذه الواقعة الجالديرانية نقلاً عن مكان آخر، أكثر حضوراً بالدلالات، وبغية تنوير هذه الواقعة، مراراً وتكراراً، مع طرح جديد في كل مرة، ومن باب إضاءة الملفز:

(طُرحت نهاية معركة جالديران مسألة الموقف الذي يشغله الكرد، فقد قاتل عدد من الأمراء الكرد إلى جانب السطان، والبعض الآخر إلى جانب الشاه، إلا أنه لم يكن لدى العثمانيين ولا الصفويين ضمانات على وفاء هؤلاء لهم، بل إن الأمراء الكرد الذين شاركوا في معركة جالديران لم يكونوا على موضع ثقة العثمانيين ولا الصفويين. والبرهان الساطع على ذلك هو مثال عشيرة عشيرة بازوكي. فقد كان خالد بك بازوكي يدعم الشاه قبل معركة جالديران وكان يخدم عنده وفقد ذراعه في إحدى المعارك وأمر الشاه الذي اعترف بجميله بصب ذراع له من ذهب ووضع تحت إدارته مناطق خنيس وملازكرد، وموش. ولكن سرعان ما طلب خالد بك بازوكي بالسلطنة وراح يصك عملته النقدية، وكانوا يتلون اسمه في خطبة الجمعة، ولم يعد يحسب لأحد حساباً. وفي نهاية المطاف قلب ظهر المجن على القزلباش واعترف بسلطة سليم الأول وشارك إلى جانبه في معركة جالديران، ومع ذلك فقد أعدموا خالد بك بازوكي، بناء على أمر سلطاني بعد إحراز النصر مباشرة، وفور عودته من ساحة القتال...الخ).

وفي الوقت الذي ينوّه في الصفحة السابقة، إلى أصول الصفويين بالذات (ربما ينحدرون من أصل كردي من أتباع الأخوة الشيعية الصوفية)...

ينظر، في كتاب م.س. لازاريف وآخرون: تاريخ كردستان، ترجمة: د. عبيد حاجي، منشورات سبيري، أربيل، ط1، 2006، ص 81.

مجدداً أقول: علينا هنا ألا نلوم العدو، وبوصفه عدواً، عندما نوَقِّر حجة النيل منا، وفي وضع كهذا الذي تقدم.

وفي مكان آخر، من المصدر نفسه، ما يشير إلى علاقة أخرى(ففي عام 1578 استؤنفت الحرب العثمانية- الصفوية بعد أن حاولت القوات العثمانية الهجوم على شرق جورجيا، وقاد شرف خان بدليسي صاحب كتاب «شرف نامه» مؤخرة الجيش التركي، وأوقف حمزة مرزا ولي عهد العرش الإيراني الزحف العثماني، وأحرز نصرين باهرين على الأتراك في أذربيجان. لقد كان الكرد في طليعة قوات السلطان خلال معركة وقعت بالغرب من تشلدر في 9 آب 1578. وأضيفت إلى أسماء الأمراء الكرد الذين ضحوا بحياتهم في الحروب الإيرانية- التركية عدداً آخر من أسماء الأمراء وهم الأمير محمد حاكم الجزيرة وسروخان ونجله حاكم حزو «صاصون» والأمير حيدر بك أمير ترجيل، وبايزيد بك نجل أمير هكاري. وجرى الانعطاف في مجرى العمليات العسكرية الإيرانية- التركية بفضل وحدات الأمراء المرد. ودفع الكرد بحياة أفضل مقاتليهم ثمناً لانتصارات العثمانيين...ص 83).

وأحدث موضوع حول ذلك، هو كتاب الباحث مراد جوان: الكرد بين العثمانيين والصفويين في معركة جالديران:

Murad Ciwan'ın 'Çaldıran Savaşı'nda Osmanlılar, Safeviler ve Kürtler, www.nerinaazad.org

وقد صدر سنة 2015، ومن خلال ما تعرّض له مفكرنا إسماعيل بشكجي، وهو غير متوافر لدي، في مقاله، بالعنوان ذاته تقريباً:

Osmanlılar ve Acemler Arasında Kürdler

نظراً للأهمية الكبرى للكتاب، كما يبدو، ومن خلال المدوّن عنه في المقال، ما يضيء موضوعنا بالذات، ويزيده عمقاً أثّر لنقرأ من خلال بشكجي:

من المهم دراسة وضع الكرد المحاصرين بين الإمبراطورية العثمانية والإمبراطورية الإيرانية. ففي التأريخ التركي، يتم التشكيك في وجهات النظر الراسخة حول معركة جالديران. للمراجعة جانب مهم يهز وجهات النظر الراسخة. ومن خلال تقييم المسافر البندقية، جيوفاني ماريا أنجيلولوا، لا يخلو من الاهتمام. يقول المسافر الفينييسي: «إذا لم يتحرك الكرد، فلن يجرؤ التركي المهيب (يافوز: سلطان سليم) على مهاجمة شاه إسماعيل». ص 7.

كل هذا يدل على أن معظم كردستان تحت سيطرة الصفويين. الإدارة الصفوية وشاه إسماعيل لا يعاملان الكرد على الإطلاق. فمثلاً، دعا كرديّ زعماء القبائل إلى القصر، واعتقلهم ووضعهم في السجن. اعتاد نفي بعض زعماء القبائل إلى أركان مختلفة من إيران. تم تعيين حكامها وأشي عشر إماماً في كردستان من المركز. وأجبر الكرد زعماء القبائل الكردية على أن يصبحوا شيعة. وسيحاول حظر السنة. ولم يكن هذا الموقف موضع ترحيب بين الكرد أو بين القبائل الكردية. وقد تسبّب موقف شاه إسماعيل والصفويين في حدوث اضطرابات بين الكرد. وبدأ البحث عن العلاجات بين الكرد للتخلص من شاه إسماعيل والصفويين.

في مواجهة موقف شاه إسماعيل، وُلد الصفويون، الذين طلبوا المساعدة من العثمانيين، كفكرٍ جديّ بين القبائل الكردية. وبهذه الطريقة أدخلت القبائل الكردية إدريس بدليسي، ولم تدع العثمانيين للحرب ضد الشاه إسماعيل. كان إدريس بدليسي بيروقراطياً خدم أوزون حسن وسرايا خلال فترة حكام الخروف الأبيض. كما خدم والد إدريس بدليسي أيضاً شعب الخروف الأبيض. في هذا الصدد، كان على دراية بالإدارة الإيرانية. تم إرسال التقارير بشكل متكرر إلى القصر.

ويذكر مراد جوان أيضاً أن هذه العلاقات بدأت في عهد شاه علي (1392-1429)، (ص 78) حفيد الشيخ صفي الدين (1334-1392)، مؤسس الطائفة.

ويقول الكاتب مراد جوان هذا أن الصفوية، التي تأسست على أنها طائفة كردية سنية، صوفية، تحولت فيما بعد إلى شيعة. ويشدد على أن إيران أصبحت إدارة الشاه الإمام الاثني عشر، (ص 95-100، 119-127).

بعد معركة جالديران، طور علاقاته مع الكرد العثمانيين في هذا الإطار. إن موقف العثمانيين تجاه الكرد والقبائل الكردية أكثر إيجابية. كان الشاه إسماعيل يرسل أشي عشر إماماً من المركز إلى كردستان. يمنح العثمانيون كردستان الحكم الذاتي لمناطق مختلفة مع ولايات مختلفة. يدير كردستان الكردية بشكل غير مباشر مع الحكام. لكن الكرد منقسمون بين الإمبراطورية العثمانية والإمبراطورية الإيرانية.

ويشدد الباحث مراد سيوان على أن معركة جالديران وقعت في 23 آب 1514 وأنها انطلقت في 20 نيسان 1514. في 20 نيسان 1514، لاحظ أن الكتب التي تم تسجيل حمر الرؤوس عليها، ص 53، يشير الأمر بقتل القزلباش Kizilbash إلى أنه قد يبقى بعد 20 نيسان 1514. ص 53

ويؤكد أنه بين 20 نيسان 1514 و 23 آب 1514، في مثل هذه الفترة الزمنية القصيرة، لم يكن من الممكن قتل 40.000 شخص يعيشون في مناطق مختلفة. علاوة على ذلك، يذكر أن

Çemişgezek، منطقة Dersim الشاسعة، كانت تحت سيطرة الصفويين في ذلك الوقت، وأن العثمانيين لم يتمكنوا من تنفيذ المذابح المتعلقة بـ Kızılbaş هنا. ص 125-127... الخ
لقد أردت نقل هذه المقتطفات وتلك الفقرة أيضاً، للنظر فيها تاريخياً، بعين العقل، ولطرح مقولة تترتب عليها وعلى مثيلاتها قبلها وبعدها تالياً، وهي أن أعداء الكرد، على وجه الإجمال يعرفون الكرد، أكثر مما يعرف الكرد أنفسهم، ولهذا ينتقلون من هزيمة إلى أخرى.
بالتوازي مع وقائع من هذا النوع، لازال هناك من يقيم اتفاقيات، أو علاقات استراتيجية مع عدوه التاريخي، وينسى أنه كان المعني بصنوف الولايات النازلة فيه، وأنه يتربص به، ليكرر صنوف الولايات هذه..

ينظر حديثاً، مثلاً ما يورده مترجم صدام حسين الكردي سامان عبدالمجيد، في كتابه: سنوات صدام، إعداد وتحرير كريستيان شينو وجورج مالبرونو، ترجمة: مدني قصري، المؤسسة العربية، بيروت، ط1، 2005. ص 240 من القطع الكبير، مع صور في النهاية.
وهو من أبوين كرديين «تولد السلیمانیة 1945م»، ما يقرّبنا من هذا الموقع المثير على صعيد التقبل، ولكنه الطبيعي جداً على مستوى الواقع، حيث يقول في الفصل الرابع 4 «المعركة الأولى» ما يصدمنا بأفراد عاملين في حاشية صدام وهم من الكرد (كان مازن الزهاوي المترجم عن الانجليزية، وكان قائد أمن الرئيس صباح ميرزا: ثلاثة من الكرد ص.49).

وما يجدر التنويه إليه، هو ما سبق «جالديران» حيث توجد دراسات وأبحاث ومقالات، لا تخفي سجاليتها، في ضوء القضية الكردية ومستجداتها دولياً وإقليمياً، وفي تركيا بالذات، وما يخص تاريخ الكرد وموقعهم التاريخي والجغرافي في المنطقة، وبالنسبة إلى المعركة الفاصلة بين العثمانيين والبيزنطيين «ملاذكرت» المؤسسة: طورانياً، كما رأينا، ومدى مشاركة الكرد فيها، وكيفية محاولة إنكار وجودهم أصلاً، فكيف بقبول مشاركة كردية في هذه المعركة التي تُعتبر تركية «خالصة» لتعزيز تواجد الترك تاريخياً.

ولي أن أشير إلى مقال الباحث التركي الكبير فائق بولوت «مواليد قارص 1950»، والذي نشر العديد من الكتب عن الكرد ذات أهمية في التاريخ التركي الحديث والمعاصر، وعلى تماس مباشر بما يدور في أروقة السياسة التركية الرسمية، والثقافة المتداولة، تأكيداً على أنه من سابع المستحيلات تجاهل وطأته، كما في هذه العناوين:

الكرد في الصحافة التركية Türk Basınında Kürtler

الدبلوماسية لدى الكرد «مجلدان» (2 cilt) Kürtlerde Diplomasi

ثلاث تمردات في مثلث ضيق: الصراعات العرقية في كردستان

Dar Üçgende Üç İsyân: Kürdistan'da Etnik Çatışmalar

تاريخ اللغة الكردية Kürt Dilinin Tarihçesi

ديرسيم: تقرير قيادة الدرك العام (1932)

Dersim: Jandarma Umum Kumandanlığı Raporu (1932)

انتفاضات الكرد في نظر الدولة Devletın Gözüyle Kürt İsyanları

مثلاً، مما يمكن قراءته على غلاف الكتاب الأخير هذا، هو التالي، وهو لافت:

يغطي هذا الكتاب إعلان الجمهورية في السنوات التي تلت الشغب والقتل مع أعمال الشغب في تركيا .
Kitabın yazılmasında Harp Tarihi Arşivi'nde mevcut belgelerden ve bu konuda yazılmış

özel eserlerden faydalanılmıştır. (Önsözden)

أي: في كتابة الكتاب، تم استخدام الوثائق المتاحة في أرشيف محفوظات الأرشيف والأعمال الخاصة
المكتوبة حول هذا الموضوع. (المقدمة)

أما عن المثال العائد إلى بولوت، فهو يتمثل في كتابته عن المعركة الموسومة آنفاً:

Faik Bulut:Malazgirt Savaşı ve Kürtlerin tartışmalı rolü Faik Bulut, www.7sabah.com.tr,

22 Ağu 19.

أي: معركة ملاذكرت، ودور الكرد المثير للجدل فيها «22 آب 2019»

هناك الكثير مما يمكن التعرض له، وهو متروك للمعنيين به، حيث يتضمن عشرات الإشارات
التاريخية القديمة، ومن ثم الحديثة، ومن باحث ومؤرخ مخضرم طبعاً، إزاء لعبة «شد الحبل»
التاريخية، في الوسط التركي نفسه، والكرد في موقع الطريدة إجمالاً:

هناك قضيتان مثيرتان للجدل: دور الكرد في حربين، ملاذكرت (البيزنطية والسلجوقية) بتاريخ
1071 و جالديران (العثمانية- الصفوية) في 1514. وبمناسبة ذكرى معركة ملاذكرت، التي من
المقرر الاحتفال بها في 26 آب.

من ناحية أخرى، فإن أولئك الذين يمثلون الجانب القومي، يشددون على قضية التركية / قوة
السيف التركي في توطين المنطقة وأسلمتها. الجانب الأيسر لا يهتم كثيراً بهذه التفاصيل.
المهتمون لا يؤيدون التدقيق في هذه التفاصيل. كان الاستثناء الوحيد الذي استطعت قراءته هو
مقال 9 أيلول 2012، المنشور في صحيفة Radikal من عائشة هور Ayşe Hür. في الجزء
الكردى، نظرة عامة هي: مساعدة الكرد لجيش السلاجقة مهدت الطريق للنصر في جالديران.
على سبيل المثال، قال يشار كمال، في ندوة عُقدت في كانون الثاني 2007، «تركيا تسعى إلى
السلام»، قال في عنوان الحدث. «التركية لها صديق آخر غير التركية. كان الكرد أصدقاء مع
الأتراك منذ ملاذكرت». تسود وجهة نظر مماثلة في بيان محامي عبد الله أوجلان في 18 آب:
«يعكس الكتاب التاريخيون الشوفينيون حرب ألب أرسلان 1071 ملاذكرت على أنها حرب تركية
خالصة. حتى لو تم اختزال هذه الحرب إلى دولة واحدة فقط، يمكن أن تكون حرباً كردية أكثر
من التركية. في ذلك الوقت، كان للكرد أربع أو خمس إمارات في المنطقة، وكان عدد الجنود الذين
أعطوهم لألب أرسلان ثلاثة إلى أربعة أضعاف عدد الأتراك». وفي خطاب قديم، أكد صلاح
الدين دمرتاش على النقطة نفسها، جهة الأخوة الكردية- التركية. ومن الضروري أخذ مثل هذه
التفسيرات ليس كلفة تاريخ خالصة، بل كنهج دبلوماسي لشرح سياسات السلام بلغة التاريخ.

وما يشد إلى المعترك في المراجع:

دعونا نذكر أسماء المؤرخين المهمين وأعمالهم في معركة ملاذكرت: الكامل في التاريخ لابن الأثير،
الفهرست لابن النديم، والاعتبار، لأسامة منقذ. وحرب ملاذت حسب المصادر الإسلامية،
لعثمان توران...

نائب MHD من الفترة والرئيس السابق للجمعية التاريخية التركية. يوسف حلاج أوغلو Halaçoğlu اختلف مع كلمات أحمد داود أوغلو، رئيس الوزراء في ذلك الوقت، الذي قال إن هناك أكراداً في ملاذكرت. أدلى ببيان ينكر وجود الكرد بأرائه التركية: «لم يكن هناك سوى غنائم في جيش دولة السلاجقة العظمى. هؤلاء كانوا مسيحيين. بخلاف ذلك، لم يكن هناك جنود من أي عناصر أخرى. عندما جاء آلب أرسلان إلى الأناضول، كانت هذه الأراضي تحت سيطرة بيزنطة. وما يشكل رداً:

لا يقول حلاج أوغلو الحقيقة عندما يقول «لا توجد وثائق وسجلات ومعلومات حول وجود الكرد في جيش آلب أرسلان». فيما يلي معلومات التاريخ التي تنفي ذلك. على سبيل المثال، أعتقد أن ملا يحيى، الذي كان مفتياً في منطقة موش في ذلك الوقت، ذهب شخصياً إلى آلب أرسلان على طريق «دعم آلب أرسلان للجهاد، صلى من أجل انتصاره» ومرسوم الخليفة العباسي في بغداد حول ذلك.

وما يعود بنا إلى معمعة التاريخ:

أين ومتى كان أول لقاء بين السلاجقة والكرد

أولاً: وفقاً للفتوحات التركية الإسلامية والخطابات الرسمية، فإن معركة ملاذكرت «تمت لترك وأسلمة بغزو الأناضول».

في الواقع، كان آلب أرسلان، الذي تبني تفسيراً محافظاً جداً للحنفية، أكثر لطفاً لأتباعه، نظامامولك، بينما أقتع أتباعه، وأقتع السادة والقبائل الكردية في أذربيجان-كارس-وان-ديار بكر للانضمام إليه. ومع ذلك، إذا لم تحسب معنويات جنوده قبل الحرب كخطاب مضطرب من والده، لم يكن آلب أرسلان يدعو إلى «الجهاد». الخليفة العباسي هو الذي فعل ذلك. أصدر فتوى قبل معركة ملاذكرت. أراد أن يصلي كل المسلمين من أجل الجهاد ضد الجيش البيزنطي. علماً أنه لا يوجد تركي ولا نموذج إسلامي في هذه الحرب. إلى جانب ذلك، كانت هناك اشتباكات خطيرة بين السلاجقة التركمان وغير المسلمين من قبائل أوغوز المهاجرة (السلاجقة السكك التركيين الأوغوز كانوا من التركمان، وأولئك الذين لم يقبلوا بالإسلام أطلق عليهم اسم الشامانية والعلوية..

وما يشكل مأساة كردية، وموقع الكرد كأهل للمأساة، ومأساة لأنفسهم، وعدم رؤيتها مقارنة بـ «أعدائهم»

دعونا نختم، دعنا نربط القضية: في معركة ملاذكرت، كان هناك كرد بين عناصر عرقية أخرى. وقد تم إرسال الجنود من أصل كردي إلى ساحة المعركة، سواء كان يطلق عليهم كردياً أو تم جمعهم تحت اسم الشدادي ومروان... الخ. في الواقع، إن جيوش كلتا الإمارات ليست مجرد جنود كرد. وشملت تلك من أصول أرمنية وجورجية وفارسية وعربية. هناك مناقشات حول ما إذا كانوا في المقدمة أو الخلف. في رأيي، كان وجود الكرد مهماً، ولكن ليس بالدقة والقرار كما ادعى الشعب الكردي. والأهم من ذلك أن السادة الكرد في ملاذكرت لم يشاركوا في الحرب على أساس التطوع... إنما ووفقاً للاتفاق، تم إلحاق السادة الكرد في الطبقة الدنيا بالسلاجقة، والسلاجقة في الطبقة العليا. وبعبارة أخرى، كانت الأخوة الدينية هي العرض الفاخر للعمل).

صاحب هذا القول، وهو محمد اوزون، لا يخفي الجغرافية الواسعة، والتي تثير أطماع الأعداء فيها، وفي المتن، يكون الكرد بقوة حضورهم عدداً، وتاريخاً، مجالاً حيوياً لإيجاد الطرق المختلفة للتغلب عليهم، لا بل وجعلهم تابعين لهم، وما ينجم عن مثل هذه الهزات الداخلية، من انشقاقات وخلافات، ومن ثم انقسامات قاعدية، ومجابهات بينية بالمقابل، وكل ذلك يصعب المهمة الرئيسة والمنتظرة لأي كان، وهو في موقع الزعيم، القائد، أو المنتظر اسمه بطلاً، وخصوصية هذا البطل، على صعيد، يضفي على اسمه وقاراً واقتداراً، ويكسبه نجومية في سماء الجسارة والتحدي للأعداء، ومن ثم، اكتساب بُعد لا يخفى من الكاريزمية لاستقطاب النفوس، وتفعيل العزيمة داخلها كردياً، وعلى صعيد آخر، يعاني الأمرين في المجابهة، مع من يتواطئون مع الأعداء، أو يمنحونهم أصواتهم أو يسهّلون أمر دخولهم، وحتى إشراكهم في مقدراتهم اليومية، ومن ثم إفقارهم من موقع الهيمنة طبعاً، وما يسهم في إضعاف الجميع عملياً، وبلبلتهم، وصعوبة التجابه، حيث إن كل قطرة دم تسفك هنا تشكل عنصر دعم وإسناد لمجموع الأعداء، والزيادة المضطردة في أطماعهم، ليزيدوا في قمعهم لهم تالياً، وهذا من شأنه إيلاام الزعيم، أو البطل، وليكون بين نارين مهلكتين: الأعداء خارجاً وأخوة الدم الأعداء المتحولين داخلياً.

ولنلاحظ هذا الوارد في متن هذا القول:

(منذ القرن التاسع عشر، أثارت الإمبراطورية العثمانية شهوة القوى العظمى. حيث توجد في بريطانيا شبكة من المحميات هناك على الطريق الهندي، ويحتل الروس حدود القوقاز بهدف الوصول إلى القسطنطينية وساحل البحر الأبيض المتوسط. تقوم كل دولة بتطوير شبكة من التأثيرات داخل الإمبراطورية: يقوم الألمان ببناء وتشغيل السكك الحديدية، والإنجليز يتحكمون في النقل النهري والهواف، ويمولّ الفرنسيون الطرق، ويسيطرون على الموانئ والغاز ويحتفظون تحت البنك العثماني الإمبراطوري وإدارة الدين العام التركي. ومع ذلك، على الرغم من أن فرنسا لديها العديد من محطات التوقف البحرية في بلاد الشام، إلا أن نفوذها يستمر في الانحسار في مواجهة النشاط الألماني. وفي آب 1914، ربطت اتفاقية سرية برلين والقسطنطينية في حال فتحت روسيا الأعمال العدائية. عند اندلاع النزاع، أغلق السلطان محمد الخامس المضيق، وحشد الجيش التركي وأعلن الحرب المقدسة، بتحريض من الألمان الذين كانوا يأملون في انتفاضة السكان المسلمين في المستعمرات الفرنسية والإنجليزية. في عام 1915 و 1916، إذ هزم الجيش التركي في القوقاز ضد

الروس، دافع عن نفسه منتصراً ضد دول الوفاق خلال عملية غاليلولي، بأوامر من الجنرال الألماني فون ساندرز. والأتراك، الذين أحبطوا جميع محاولات الهبوط والعمليات البرية، تسبّبوا في مائة وخمسين ألف قتيل وتدمير عدة سفن حربية في معسكر الائتلاف/ الوفاق⁽¹⁾.

إنها ساحة قارية واسعة وساخنة، حيث إن أبعد نقطة عن المركز «الباب العالي» لا تنفصل عن أقرب نقطة. بالعكس، إن التركيز على أبعد نقطة، بالمفهوم السياسي، ربما يعرفنا بمكانة أقرب نقطة، ومن يشغل كلا منهما، وكيف، ووفق أي معيار ثقافي.

قوى قارية، وقوى إقليمية، وقوى محلية، تجري حواراً غير ودّي، والحرب هي العرابة الأولى في اللعبة، ويكون الحديث عن ظهور أو بروز أي شخصية بمفهوم «البطل/ الزعيم» على صلة وثيقة بمثل هذه التحولات والتجاذبات. فعليكي بطي، كما سنرى، محمول الحروب والدسائس التي أشعلها ونسج الباب العالي خيوطها، ومن كانوا متواطئين معه، حيث سمحت له جغرافيته المحلية: الهفركية، ونباهته، وقابليته على التقاط الإشارات بمنحهاها السياسي حينذاك، على طلاق عليكي بطي الإنسان العادي، أو المغمور شأنه في ذلك شأن آلاف مؤلفة من أمثاله، ومن يفاعه شبابه، ليكون عليكي بطي الذي يشار إليه بالبنان، ويحسب له كثيراً، وما يترتب على ذلك من خروج إلى عراء المجابهات ومخاطرها، في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، وعلى صعيد محلي، سوى أن مجريات أحداث الحرب العالمية الأولى، ومخاضاتها السياسية، وما يخص «سفر برلك/ السوقيات» حيث مات مئات الألوف فيها، وهلك الكثيرون جوعاً وعطشاً ونفياً وتغذياً... الخ، ربما شكّلت الخميرة الرئيسة والمضاعفة، المجيزة لعليكي بطي ليصبح تحت الأضواء بالنسبة لدولة الاتحاد والترقي وأبعد.

ف لدينا شبكة عيون تتجسس، ولدينا شبكة موازية من الإعلاميين والمتخصصين

(1) الإمبراطورية العثمانية والحرب العالمية الأولى في مجموعات ECPAD، L'Empire ottoman et la première guerre mondiale dans les collections de l'ECPAD، موقع centenaire.org، باللغة الفرنسية.

أشير هنا إلى فيلم «عرّاف الماء The Water Diviner»، من إخراج راسل كرو وبطولته، لعام 2014، حيث يجري عن معركة غاليلولي المروعة والمفصلية، وفيها تقابلت، كما تشابكت المصالح والأطماع للدول الكبرى: روسيا، انكلترا، فرنسا وإيطاليا، عند مضيق الدردنيل، انتصرت فيها القوات التركية، بعد أن تكبدت عشرات الألوف من الضحايا، ويظهر أن توقيت هذا الفيلم تزامن مع سنة وقوع تلك الحرب وفضائعتها.

بمراقبة أي تغير، حيث الامبراطورية المضعفة، أصبحت أكثر من سوق مفتوحة، لتسريب إشاعات، وتسلسل وجوه إلى الدخول، والاحتكاك بالأهالي، ومن ثم السعي إلى تحريكهم، في هذا الاتجاه أو ذاك، تعبيراً عن شبكة مصالحهم المتضاربة، وهي مفاعيل قوى مستجدة هنا.

وربما أمكن التوقف لبعض الوقت، ومنح هذه النقطة العميقة الأثر والرهبة الجانب، مما سلف القول فيه، وفي فسحة ورقية أوسع، لما في ذلك من تكوين فكرة أكثر تدفقاً، ولعلها تضيء ساحة الكتاب في مجمله عن الخلفية التاريخية لهذا العنف العثماني- التركي، وضحاياه من شعوب كثيرة، والشعب الكردي في الواجهة حتى اللحظة، وأنا أورد مقاطع من جملة مقالات كتبها الباحث المختص في الشأن العثماني- التركي: إتيان كوبو، حيث يسهل الرجوع إليها، وبالفرنسية طبعاً.

أشير هنا بداية إلى الأصل الأسطوري والمزعوم للأتراك، حيث إن «إرغنون» كما هو ملاحظ من العنوان، تمثل الوجه الأكثر إرهاباً في السياسة التركية الرسمية ومجتمعها، وحتى واجهة ثقافتها الرسمية، وهي تهدد كل مخالف لها :

أرغنون، أسطورة ولادة الأتراك

«Ergenekon»، اسم أسطوري للغاية، وهو اسم أسطوري يحظى بشعبية كبيرة في السياسة

«Ergenekon», un nom mythique très prisé en politique (1997)

طبعاً لا بد أن هذا الأصل المركب، جاء تلبية لذائقة التتريك وسعيها إلى مد جذورها إلى ما وراء التاريخ، حالها في ذلك، حال كل الدول التي توظف شبكة من الأعوان ممن لا يفتقرون إلى خيال جماعي ميسس ووضع يوتوبيا «قومية» ماضية حتى قبل ظهور أي فكرة عن القوميات، تعزيزاً لفكرة التمايز عن كل القوميات الأخرى والتعالي عليها، حيث تتقابل الأرض والسماء، وما يعنيه وصلّ محلّق بالخيال الرهيب، لاحتكار كل شيء، استناداً إلى زعامة كونية موجهة بدورها :

جنوب بحيرة بايكال، وإنما على أراضي منغوليا الحالية، يتلقى نهر أورخون، رافد نهر سيلينجا، الذي يتدفق إلى البحيرة. على ضفاف نهر أورخون تم تطوير ثقافة تركت آثارها في القرنين السابع والثامن، بما في ذلك اللوحات التي حفلت بنصوص محفورة بالتركية والصينية القديمة. وهي أقدم الأعمال في اللغة التركية، مؤرخة من

قبل المتخصصين في أوائل القرن الثامن. وهذه النصوص، معقدة إلى أبعد حد، وجميلة للغاية، وهي تحكي قصة «الأترك السماويين» (Göktürk)، وهي منظمة سياسية يرأسها «kaghan» (خان أو kagan). بالضبط أكثر من إمبراطورية، كان الأتراك السماويون يمدّون سيطرتهم على منطقة التدخل العسكري، والغارات، وتمتد من جبال خانغاي (المكان المفترض للغابات الأسطورية في أوتوكين) إلى غرب الصين، بين سيبيريا والتبت، وفي أوقات معينة من بحر آرال إلى سور الصين العظيم.

ويتحدث محتوى النقوش من أورخون Orkhon الحالي تماماً. عن الفتوحات، ولكن أكثر من الأخطار التي حصلت في النهاية أفضل من الأتراك السماويين. الأخطر من ذلك ليس الهزيمة العسكرية، ولكن الهلاك والتهميش ونسيان الفضائل التركية وثقافة السهوب. يمكن أن تكون النصوص مفيدة بقوة في الهوية والخطاب القومي، والذي يمكن أن يقدم لهما العصور القديمة والأسلوب الملحمي بالمزيد من الكفاءة. ومنذ عام 1931، تتم دراسة هذه النصوص في الفصل في تركيا. عبر ترجمتها إلى التركية الحديثة، كان معنى بعض الكلمات القديمة مضللاً، وتم إدخال كلمات مثل «الأمة» و «الإمبراطورية» من أجل استنتاج وجود «الأمة التركية» بالمعنى الحديث للدولة القومية، بشكل مستمر منذ القرن الثامن.

ويبدأ استخدام الموضوعات الأسطورية أو التاريخية من آسيا العليا بأسطورة إرغينيكون. يشير هذا المصطلح إلى المكان الأسطوري الذي سيكون مكان منشأ الأتراك السماويين، والذي يقع في مكان ما بجبال خانغاي حيث يقع مصدر أورخون. وتشبه الأسطورة رومولوس وريموس «في أصل روما. المترجم»: كان جد الأتراك السماويين طفلاً، وهو الناجي الوحيد من مجموعة من الأتراك الأوائل، الذين هُجروا في هذا المكان في أرغنكون، الذي كان قد تم جمعه وتغذيته من قبل الذئب. لقد تكوّن «الشعب التركي» مرة واحدة من ولادة جديدة هي معجزة، وأنشأ هناك الحضارة الأولى النار المستأنسة، واكتشف فن التزوير l'art de forger. ومن هذا المكان في إرغينكون، كان من الممكن أن ينتشر الأتراك السماويون، بما في ذلك «إمبراطورية الأتراك السماويين» التي كانت ستسيطر على جزء كبير من آسيا الداخلية. النار، والحديد، والصياغة، والذئب هي مكونات الأسطورة. وفي بداية الجمهورية (1923)، كان الذئب أو الذئب la louve ou le loup (لا يوجد أي نوع من الجنس باللغة التركية) بمثابة رمز للنظام الجديد، وأشار إلى أسطورة أرغنكون من خلال استحضار «الوطن الأصلي» لآسيا الوسطى، وساعد على تأصيل الجمهورية في الماضي öztürk.

«التركية الأصلية». وحظر أتاتورك أي تعبير في عموم تركيا، حيث كان الأخير يعيش تهميشاً ويتطرف بذلك. ثم توقفت صورة الذئب عن كونها رمزاً رسمياً يصادره اليمين المتطرف، وتستخدمه المجالات المتطرفة.

ويبدو ذلك، في عام 1931، على غلاف المجلة التركية أتسيس Atsız. ثم، في عام 1938، على غلاف المجلة العنصرية Ergenekon، من إخراج رضا أوغوز توركان، الذي كان شعاره «السباق التركي فوق كل شيء آخر، فوق كل الأجناس، السباق التركي!». ويحمل الذئب الرمادي (bozkurt) اسماً، في عام 1939، لمنشور يشارك فيه العالم التركي حسين ناميك أوركون، لاجئ الباشكير عبد القادر إنان، بانتوركويسيت نجدت سانكار. يستخدم الشعار العنصري نفسه مثل Ergenekon. يستمر دمية الذئب، والشعار نفسه، في تزيين أغلفة Gök-Boru، حيث يجد المرء، إلى جانب البانتكورك، أسماء عبد القادر إنان والمؤرخ زكي فيليدي توغان، يظهر الحيوان أربع مرات في العدد الأول، مرتبطاً بعبارة من لوحات أورخون، بالأحرف الأصلية، واثنين من ضياء كوكالب. في عام 1962، لا يزال الذئب يظهر على غلاف مجلة Orkun، وفي الصفحات الداخلية، عنوان العمود Orkundun sesleri («أصوات Orkun»)، يقدم هذا الاستعراض المزيج نفسه من النصوص التي كتبها بانتوريكيستس (أتيسيز، سانكار) والمؤرخون (F. Tevetoglu) والإشارات إلى ضياء كوكالب. ويزين الذئب الرمادي غطاء (Türkeli، 1969)، وهو عضو قومي للغاية بين اللاجئين الكازاخستانيين من Salihli. وتستخدم مجلة Ötüken، بدورها، رمز الذئب في عام 1971، تحت شعار «جميع الأتراك في جيش واحد!». نجد الذئب الرمادي في الصفحات الداخلية لمجلة كورولتاي، المرتبطة بشعار «قد حمى الله الأتراك!». وأخيراً، اليوم [1994]، يطلق «المثاليين» (ülküçüler) على أنفسهم تعبير «ذئاب رمادية»، ويتم عرض دمية الحيوان في اجتماعات MHP (أقصى اليمين).

وما ينسكن في ثنانيا «روح أرغنون» حيث تنتشر في الدولة، من تداعيات:

وبسبب هذه العملية، فإن الأسماء الثلاثة الصحيحة Orkun (أو Orhun) و Ötüken و Ergenekon، تستحضر اليوم ما لا يقل في التشدد عن القومية التركية واليمين المتطرف مثلما حدث في الماضي القديم. ومع ذلك، فإنه منذ بداية تسعينيات القرن العشرين انتشرت هذه الرموز والعبارات خارج أقصى اليمين، في الأوساط القومية الأكثر اعتدالاً، وحتى في الدوائر الحكومية، على سبيل المثال، فقد تحدث حسن جلال غوزيل، رئيس حزب النهضة (Yeniden Dogus Partisi) عن حاجة

تركيا إلى النهضة و «Ergenekon الثانية»، منذ ربيع عام 1993، كانت هناك محاولة لاستعادة مهرجان نهر النيروز الإيراني - الكردي (21 آذار)، الذي تحاول السلطات اجتيازه إلى مهرجان تركي حقاً، وهو Ergenekon bayramı. وأخيراً، فإن أحد مظاهر هذا الظاهرة الأخيرة هي قيام وزارة الثقافة التركية بنشر ألبومات الشباب، بطريقة مثالية للغاية، عن أصول الأتراك في آسيا الوسطى.

وعلى الرغم من الاستخدام السياسي لنصوص أرخون/ أرغنون، فإن هذه الحقيقة الثقافية في الماضي هي جزء من سلسلة الأحداث أو الحقب التي يتم فيها التعرف على الكمالية اليوم والتي سيطر عليها أنصار التوليف التركي الإسلامي. ففي كتب التاريخ، يمكن للمرء أن يجد أمثلة على الارتباط، بل والارتباك، بين ملحمة مصطفى كمال أتاتورك وصورة الأتراك السماوية في إرغينكون.

وتم العثور على أبرز حالة للتقارب بين أسطورة أرغنون والجمهورية الكمالية في كتاب مدرسي للكليات (1987)، وقد أعيد إصداره على الأقل حتى عام 1995)، ويبدو أن الوثيقة التي أدرجت في نهاية الدرس حول الأتراك السماويين ليست سوى خطاب يتناقض مع المفارقة التاريخية، وليس سوى خطاب الذكرى العاشرة للجمهورية الذي أعلنه أتاتورك في 29 تشرين الأول 1933، والذي يجب على التلاميذ حفظه عن ظهر قلب.. ما قد يبدو للوهلة الأولى خطأ من جانب مصممي الكتاب المدرسي، وهو النهج الذي يجعل من أتاتورك ضمناً للورث المساوي والمباشر للرموز العظماء للأتراك السماويين. وجملة أتاتورك الشهيرة التي تنهي هذا الخطاب: «سعيد من يقول» أنا تركي «!..». يصبح المعادل الحديث لـ «يا تركي، ارتجف وعد إلى نفسك!» Steles من أرخون». وهكذا، يضئ العصران التاريخيان بعضهما بعضاً، ووقت أتاتورك هو انتعاش يسمح به الفضائل الجوهرية للأتراك. فيمثل التقاطع بين العقدين التاريخيين التمثيل المجازي للنجاح، وهو الحفاظ على القيم التركية، على الرغم من الوقت الذي تقضيه، والتجول الجغرافي والاتصالات المتعددة مع الثقافات الأخرى. وعلى العكس من ذلك، يمثل تزواج العهدين طابعاً عصرياً متقدماً في المجتمعات التركية في الماضي، ولأنهم يتمتعون بنفس الصفات التي يتمتع بها اليوم، فيمكنهم أن ينتجوا التأثيرات نفسها: حيث يُنظر إليهم على أنهم مجتمعات علمانية، متسامحة وديمقراطية، إذ يتساوى الرجال والنساء، كمجتمعات منظمة، مدركة للذات، حيث يمكن للمرء أن يميز شعوراً وطنياً.

ولا بد أن هذا التحليق بالخيال الاستثنائي، على خلفية من انتصار «ملاذ كرت» أي «ملاذ الذئب» حيث الذئب طوطم العثمانيين: الأتراك، وهو سماوي المنبت، كما

يلاحظ، يجد مرجعيته في كل ما هو متفرد، سماوي معتبر، وما يقربنا من صورة الحاضر في بنية الإيديولوجيا التركية الأردوغانية تحديداً، حين يتحدث كوبو عن جانب مرفق بما تقدم ومتمم له في آن، تحت اسم لاف بالمقابل «وحدات خاصة وتفرد الله» Unités 99pigones et unicité de Dieu ولا بد أن المتضمن المتوقع معروف، حيث نجد أنفسنا إزاء صيحة «تكبير» - وقد - أصبحت مهنة الإيمان شعاراً للإسلام السياسي. ماذا في هذا التكبير ذي المرجعية السماوي المؤبدة، كما يظهر؟

Tekbir: التكبير، الكلمة التي شكلها اتحاد اثنين من المرادفات تعني «فريدة» (tek) و «واحد» (bir)، هي بالمعنى الدقيق للكلمة مهنة إيمان الإسلام، وتعلن في شكل مختصرة تفرد الله.. إنه مرتبط بمهنة الإيمان المعروفة الأخرى، والتي صيغت دائماً باللغة العربية، الله أكبر، «الله أكبر»، وهو الذي ينطق بالله في تركيا. لقد جعل تطور الإسلام السياسي هذه المهن من الشعارات الدينية شعارات سياسية. وفي تركيا، لطالما كانت تعبيرات عن المعارضة في ظل الكمالية، متهمة بأنها نظام «ملحد» من المفترض أن يقمع الحرية الدينية. وخلال مظاهرات الاحتجاج، عندما ينطق أحد القادة بكلمة «tekbir»، يستجيب الحشد ب: الله أكبر «Allahüekber». وغالباً ما يرافق كلام الشعار إيماءة، ويمتد المؤشر إلى السماء، وهو علامة على التفرد. وفي الصورة الخيالية وفهرس التمثيلات السياسية، هناك صورة نمطية للإسلاميين بالضرورة ملتحين ويرتدون ملابس في جلاب، يميلون إلى المؤشر بإعلان التكبير.

ولأنه من الآن فصاعداً، انعكس الموقف، إذ إن «قوات الأمن» هي التي تتطرق بهذه الكلمات، وتصبح كلمات القوة، القوة الأكثر وحشية. علامات التحذير لم تفشل. طوال العقد الأخير من القرن العشرين، وكلما زاد الإسلام السياسي قوة، تضاعف الجيش والشرطة في التدرج لإثبات أن العلمانية ليست إلحاداً، استدعت الصحافة لتصوير السياسيين والجنود من جميع الرتب ورجال الشرطة في موقف صلاة. لم يحدث من قبل أن قدمت الصحافة المطابقة، حسب علمي، أدنى اعتراض على مثل هذه التشوهات في علمانية مؤسسات الدولة. أصبحت صور الجنود، الشرطة في الصلاة، من الصور النمطية المفترض أن تطمئن المسلمين المآذرين. ومع ذلك، فإن هذه المناورة عززت قناعتهم بعيداً عن نقلهم إلى العلمانية: الأمة التركية مسلمة بلا شك.

وهكذا، فإنه عندما نأتي إلى عملية «غصن الزيتون» لعام 2018 ضد عفرين، يتم تجديد/تلقين الطقوس 99pig est 99pigon le. وقد أبلغ موقع yenidenhaber.com في 22 شباط عن حفل مماثل لقونية، في فناء مديرية الأمن،

رحيل PÖH إلى سوريا: فيتم نطق tekbir بحضور عائلات وأطفال المدارس. تكرر الشرطة ذلك مرة أخرى عن طريق ركوب الحافلات. عند نوافذ المدارس في الدورة، يلوح الأطفال «والدموع في أعينهم» بأعلام.

ذلك يقودنا إلى التاريخ الجاري اختزاله وفصاله في لحظة محتسبة بالمفهوم «العثماني- التركي» الخاص:

يرسم نص اليمين بالتاريخ، وثلاثة أبطال أترك، أحدهم غير مسمى - لكنه موجود في «أماكن خطاب» أخرى.

الأول هو السلطان الشاب محمد فاتح (المنتصر، الفاتح)، الذي استولى على القسطنطينية وأنهى الإمبراطورية البيزنطية في عام 1453. وهذا الانتصار الضئيل أطلق عليه اسم فتح Fetih، وهو مصطلح يشكل امتداداً لـ «بيت الإسلام»، وبالتالي النصر قبل كل شيء الدينية. محمد الفاتح، في عالم تمثيل القوة الحالية وايدولوجية «التوليف الإسلامي التركي»، هو البطل بامتياز، لأنه أزال القفل الأخير الذي لا ينتمي إلى الأتراك حتى الآن، في حين أن تراقيا وبلغاريا وصربيا كانت بالفعل عثمانية منذ القرن الرابع عشر، لأنه أظهر الجرأة العسكرية بمناورات مذهلة، أخيراً، لأنه نجح حيث فشل العرب باستمرار. إن أخذ القسطنطينية هو الاحتفال التاريخي المفضل لدى أردوغان، الذي أعطاه بعداً مذهلاً، متجاوزاً إحياء ذكرى الجمهورية. حفل عيد ميلاد Fetih، في 27 أيار، هو تاريخي وديني، ولكن من المفترض أيضاً أن نحتفل بالتسامح، ما يسمى بالجودة الأبدية للأتراك، لأن السلطان كان سيحترم السكان المسيحيين في المدينة... بينما تحويل آيا صوفيا إلى مسجد. هذا هو كل ما تركه تركي معتدل في الاعتبار عند نطق اسم السلطان، يقيم تركي ديني أيضاً مطالبة، وهي العودة إلى عبادة آيا صوفيا المسلمة، العلمانية وتحويلها إلى متحف من قبل أتاتورك. باختصار، فإن شخصية محمد الفاتح تغذي النرجسية التركية بقوة، لأنه «فتح وأغلق عصور التاريخ» من خلال وضع نهاية للعصور الوسطى، كما يتطلب التقليد التاريخي الغربي الغربي.

البطل الثاني، الأقل شهرة خارج تركيا، هو السلجوقي كاغان آلب أرسلان، الفائز في 1071 من الإمبراطورية البيزنطية في معركة ملاذكرت في شرق الأناضول. إنه الشخص الذي «جعل الأناضول أرض الأتراك». تم استخدام صورته من قبل الكمالية في التعليم المدرسي، حتى أنه كان يعامل كسلف، مذيع أتاتورك. العدو المهزوم هو في الواقع «نفسه» كما في عام 1922: إنه الإغريق. من المفترض أن تكون صفات آلب

أرسلانكاغان هي نفس أتاتورك: الشجاعة العسكرية، الجرأة، والشهامة تجاه العدو المهزوم. ولكن في السنوات الأخيرة، يتمتع آلب أرسلان بشعبية كبيرة مع أردوغان، الذي شعر أنه كان هناك مكماً مفيداً لعبادة محمد الفاتح، لأن كل من الأبطال تم تصويره في نهاية أحد الأناضول. بين ملاذكرت هذه والقسطنطينية، وبين التاريخين 1071 و 1453، يتم تقديم السكان الأصليين - الذين لم يتم ذكرهم مطلقاً - مرة واحدة في السرد التاريخي - والتركم والإسلام التدريجي اللذين لم يتم استكاملهما إلا في القرن 20 من الإبادة الجماعية، في القتل الجماعي، والتهجير الجماعي والاعتقال الجماعي...

البطل الثالث لم تتم تسميته، إنه أتاتورك. إنه حاضر بذكر النشيد الوطني، رمز ولادة الجمهورية، بديلاً عن صورة الدليل. ومع ذلك، فإن صورته المادية موجودة، بشكل كبير، خلال بعض هذه الاحتفالات، ويتم الاستيلاء على عشرين في اليوم الذي يحتفل فيه أردوغان في تشانكالي بالذكرى السنوية لمعركة الدردنيل (1915)، وهو النصر الذي كان من المتوقع أن يكون وفقاً لأسطورة الكماليسيت بسبب الجنرال مصطفى كمال، مستقبل أتاتورك. يتم وضع هذا البطل الثالث على الموقد الخلفي لأنه في هذه التصريحات الجديدة للتاريخ، لم يعد يُنظر إليه على أنه الأول في الكل، ولكن كمجرد تابع للآخرين، حيث قام بحماية تركيا ثم تطهيرها قوى مختلفة، انكلترا، فرنسا، إيطاليا، اليونان. هذه هي النقطة المشتركة بين الأبطال الثلاثة: هزموا الكفار gavur.

وفي ضوء ذلك يكون الباحث كوبو قد مضى بنا إلى فكرة القومية التركية، بدءاً من لحظة «ملاذكرت» طبعاً: ملاذكرت، القصة التي استولت عليها القومية alazgirt،

l'histoire captée par le 101pigones101n101

تتم إعادة تقييم التاريخ بجميع أشكاله من الخطاب: في السياسة والمدرسة. ولكن يجب تقديم أتاتورك كنهاية للتاريخ: وقد تمت مقاطعة السرد التاريخي عند وفاته في عام 1938. وعلى العكس من ذلك، يجب تقديم كل التاريخ التركي باعتباره غائباً طويلاً، وهي قصة مباشرة تؤدي بالضرورة إلى أتاتورك وإلى الجمهورية.

وكانت الأناضول جسراً مهماً جداً لعبور الشعوب. فغالباً ما تغيرت هذه الأرض بين يدي التاريخ. ومع ذلك، يمكن أن تظل الأناضول وطناً أبدياً للأتراك، وهي دولة شجاعة وبطولية.

ولزيادة الوعي بأهمية انتصار ملاذكرت، الذي نريد أن نقدره من زوايا مختلفة، هناك الدور الحاسم الذي لعبه الجيش التركي وقادته في نجاح هذه المعركة.

لقد قال مؤرخ إنجليزي: «التاريخ هو قصة الأبطال والعظماء». هذه الأطروحة صحيحة بشكل خاص في التاريخ التركي. يظهر التاريخ أنه عندما يكون هناك قادة عظماء على رأس الأمة التركية، فليس هناك عائق يمنعهم من العبور، وهي مهمة لا يمكنهم تحقيقها، وهو هدف هي لا تستطيع الوصول. المارشال غازي مصطفى كمال هو أحدث مثال.

ولتأتي الخطوة التالية والمرفقة بما تقدم، في التركيز على الجغرافية الموهوبة إلهياً لبني عثمان، طبعاً هي جغرافية مأخوذة بالقوة، والأترك تالياً، وجعلها طابو، محفوظاً في اللوح الخاص بذلك، واستناداً إلى الأحداث عهداً بالسلطة في تركيا، كما هو معلوم: الاحتفال بـ «الوطن الأزلي للأترك» خطاب أردوغان في ملاذكرت في 26 آب 2017 Discours d'Erdogan à Malazgirt، وما يرد في إشارة كوبو بقوله عن أن: [هذه الوثيقة تكملة للدراسات المتعلقة بذكرى معركة ملاذكرت على susam- .[sokak.fr

<http://www.susam-sokak.fr/2019/01/malazgirt-1.html>

ماذا نقرأ فيها؟ ثمة الكثير، وهنا ما يفصح عن المشدّد عليه:

حول ملاذكرت، 26 آب 2017، وبعد ساعة من الخطب والعروض التقديمية المتنوعة تحت أشعة الشمس الحارقة، يعطي سيد الاحتفالات الكلمة لـ «الصوت القوي للمضطهدين، والصوت الحر لمن لا صوت لهم، وأمل الملايين من الناس الذين يستمدون قوتهم من أمتنا، ضامن وحدتنا، من الوفاق لدينا، من الأخوة لدينا». يستيقظ أردوغان بابتسامة دون أن يضطر إلى نطق اسمه، لأنه يعترف بنفسه في هذه الرسالة، يلجأ إلى الجنرال ويبتسم له، ويهنئه الجنرال.

إليك جوهر كلمته التي أخذت في ملاحظات من الفيديو المنشور على يوتيوب. تختلف النسخة التي تنشرها الصحافة التركية اختلافاً كبيراً، لأنه خلال معظم حديثه، تحدّث أردوغان دون الرجوع إلى ملاحظاته.

«من ملاذكرت، أحييكم أيها الإخوة المنتشرون في جميع أنحاء العالم! دشّن نصر أمتنا هذا مستقبلاً جديداً. بعد أربع سنوات فقط من ملاذكرت، تم إعلان ولاية السلاجقة في الأناضول في هذا السياق الجغرافي. يا الله بسم الله! الله أكبر! قال جنود آلب أرسلان يوم الجمعة المبارك [من 1071]. آلب أرسلان، يهرع على رأس جيشه، ويمسك في يده اليمنى العلم الأحمر والراية الخضراء باليسرى، جعل

الأناضول وطننا الأبدى. بعدها، من العدو إلى النصر، وصل [الأتراك] المجيدون والمرموقون إلى قلب أوروبا! بهذا الانتصار اكتسبت أمتنا وطناً جديداً ومستقبلاً جديداً! «بعد خمس سنوات فقط، كان الأتراك في إزنيق [غرب الأناضول] وأعلنوا دولة السلجوق في الأناضول. وبعد قرنين فقط بدأ نمو الشجرة العثمانية الضخمة التي تجمعنا في ظلها.

«الأناضول! يا الأناضول، الوطن السماوي، الذي امتلأت أرضه بالدم والمعاناة، الأناضول ماضينا... الأناضول، أروع الإرث الذي سنتركه لأطفالنا. منذ سنة أنت معنا. وستظل أنت أمل الأخوين الأتراك والمسلمين Türk soyadaslar, Türk dindaslar).

[في هذه اللحظة يتم نشر علم عملاق أفقياً من المسرح، ويغطي الجمهور وينتقل من الكتفين إلى الكتفين ببطء نحو القاع]

«عارٌ على من لا يبكي، على الضمير الذي لا يرتجف من أجلك. منذ قرن مضى، من جميع الجهات، تعرضنا للاعتداء. لكن ردنا على معركة جاناقله، الدردنيل 1915، إلى دولومبينار [حرب التحرير، آب 1922]، و 15 تموز [أثناء محاولة الانقلاب في عام 2016]: العالم اندهل، لقد أظهرت الأمة التركية مدى وجودها في المنزل، وقد أدهشت العالم أجمع. هذه الأراضي (الأناضول)، يجب ألا ننسى أبداً! أولئك الذين لا يتعلمون التاريخ سوف يضطرون إلى النظر فيه! يجب أن نكرم انتصار ملاذكرك الذي كان مهماً لسوء الحظ، لأن البعض يود منا أن نعود إلى الأيام الخوالي! ولكن اليوم الأمة في ملاذكرك! هذا هو السبب في أننا سنحتل من الآن فصاعداً بهذا النصر، وسيتميز مستقبلنا بهذه التواريخ: 2023 [الذكرى المئوية للجمهورية]، 2053 [الذكرى المئوية السادسة للاستيلاء على القسطنطينية]، 2071 [الألفية الثالثة لملاذكرك].

«نحن كثيرون، لكننا أمة واحدة، لدينا علم واحد، وطن واحد، دولة واحدة. نحن 80 مليوناً، جميعاً معاً الأتراك والكرد واللاز، الشركس، الجورجيون، العجرب، الألبان. «واحد: أمة واحدة! لن ننقسم، نحن متحدون مثل اللحم والعظام، مثل الظفر والإصبع.

«اثنان: علم واحد. لونه هو دماء الشهداء. الهلال يرمز إلى الاستقلال، يمثل النجم شهداءنا. لن يطفو العلم الآخر إلى جانبه!

«ثلاثة: وطن واحد، وطن واحد 700000 كيلومتر مربع. لا أحد يستطيع تقسيمها .
لقد جعلنا جودي وكوبيلي وبيستلر قبراً للإرهابيين، وسنستمر حتى نهاية الإرهاب.
«أربعة: أسس الأتراك ست عشرة ولاية ونحن واحدة منها، لا يوجد سوى
جمهورية تركيا الجمهورية ولا شيء غير ذلك. وزراءنا هنا. الدولة والشعب واحد .
أريدك أن تكرر بعدي: نحن متحدون (بير)، نحن عظماء (iri)، نحن إخوة (kardes)،
نحن أتراك!»

وما يؤكد هذا التوجه القومي التركي التصفوي للآخرين، والكرد في الواجهة،
وحيث يكون أتاتورك معظماً وهو يظهر في صورة مركبة «رأسية» يحيط العلم برأسه
ويغطي كتفيه، وبلونه الأحمر النجمي، تعبيراً عن قابلية سفك الدماء، في سبيله،
والنظر في الأعلى، حيث تكون السماء الجاري احتكارها، انطلاقاً من فكرة/ أسطورة
الأصل التركي المستحدث والمختلق طبعاً، وما يبقى الدماء قابلة لأن تسفك من
الجهتين، من جهة المعنيين بالرمز التركي، ومن جهة الجارية تسميتهم أعداء لتركيا :

ففي عام 1998، خلال معرض أقامه الجيش في بيوغلو لتبرير القمع ضد الكرد،
تم توزيع نشرة بعنوان «كيف تقوم المنظمة الانفصالية الإرهابية بخداع شعبنا؟
Comment l'organisation 104pigones104n terroriste trompe-t-elle notre
104pigon» تضمنت خريطة لأوراسيا مصممة على إثبات أن الكرد كانوا في الحقيقة
أتراكاً من آسيا الوسطى.

ومن ثم ما يخص هذه الأرضية المؤلفة من جهتها طبعاً أيضاً: «الجنسية التركية،
منطقة الأناضول» : Citoyenneté turque, territoire anatolien

ف: القومية التركية وخطابها يتحددان بقوة من خلال التاريخ الجديد . إذ من الآن
فصاعداً، يتم خلط تاريخ الأتراك الجديد مع تاريخ أوراسيا، بينما كان يخلط بين
تاريخ الإسلام أو التاريخ العثماني. وتأتي هذه المستجدات في الحياة الفكرية التركية
في الوقت المناسب لتغذي شعور المجد، والعظمة، وذلك بفضل ضخامة المشهد حيث
يتكشف تاريخ الأتراك، وقوة الهوية التركية التي كشفت عنها نصوص أورخون، أو
أرغنون، أو أرخون.... أيضاً، فإن المنطقة المرجعية للقومية التركية ستكون الآن في
آسيا .

ولكن كيف نفهم كلمة «تركية»؟ وفقاً للسياق التاريخي، ووفقاً للمعايير التي تم
تطبيقها لتبادل عام 1923، فإن كلمة «تركي» فقط تعني «مسلم»! يمكننا إذن أن نعتبر

تركيا الجديدة كدولة مسلمة من العرق التركي. احتفظت كلمة «تركي» وكلمة «أمة» (القومية) بمعناها الديني «millet»، على الرغم من أن الجمهورية علمانية.

لكن هذا غير مقبول في خطاب الدولة التي بنيت كعلمانية. فأحد الآثار المترتبة على هذه العملية هو أن المسلمين غير الناطقين باللغة التركية والمندمجين في السكان الأتراك يجب أن يقبلوا أن يطلقوا على أنفسهم اسم «تركي». وبعبارة أخرى، فإن السكان متجانسون من الناحية الدينية أو تقريباً (إذا لم يعتبر المرء أن أتباع الديانات غير المتجانسة يمثلون ديانة أخرى)، لكن من الضروري، في خطاب الدولة، تعريف «الأتراك» على أساس غير الديني. هذا هو السبب في أن الهوية الإسلامية قد تم تغطيتها من قبل البولندية أكثر قبولا، العرقية أو العرقية البولندية.

وهكذا، تُفرض مهمتان على منظري تركيا الجديدة: إنشاء «سباق تركي» على الأقل في الخطاب، ولإثبات أن هذا «العرق» موجود في الأناضول أمام جميع الشعوب الأخرى (اليونان والأرمن) لإضفاء الشرعية على وجود تركيا الأناضولية ضد المزاعم السلبية. ثم يتم تعبئة التاريخ وعلم الآثار والأنثروبولوجيا واللغويات من قبل الدولة. الرواية «الآسيوية» الموجودة بالفعل مضللة: يجب أن تعمل على إضفاء الشرعية على الوجود التركي في الأناضول، لذلك يأخذ وظيفة الأناضول.

هذا هو معنى «أطروحة التاريخ التركي» التي أرادها مصطفى كمال نفسه. وهو يتألف من حساب تاريخي جديد، وفقاً له لأن الأتراك في آسيا الوسطى قد طوروا أول حضارة عالمية. بسبب أزمة المناخ، هاجروا إلى ضواحي أوراسيا حوالي 7000 قبل الميلاد، وكان من الممكن أن يتسببوا في كل مكان في «ثورة العصر الحجري الحديث» وولادة الحضارات. والثقافة الحثية، التي ازدهرت في الأناضول في الألف الثاني قبل الميلاد، قد تم إلقاء الضوء عليها للتو. في منطق «أطروحة» أتاتورك، يمكن أن تكون هذه الحضارة الرائعة من أصل تركي. كان الأتراك، من خلال الحثيين، هم أسياد اليونان/ الإغريق.

وتم إنشاء هذه «الأطروحة» في التاريخ الرسمي في 1931-1932، في شكل كتب مدرسية جديدة للتاريخ لا يزال محتواها يلهم التدريس المعاصر. وهذه هي قصة «معجزة تركية». حيث التفوق والسوابق للأتراك مطلقة. تركيا الأناضولية شرعية: الأتراك لم يأتوا عام 1071، مع السلاجقة، ولكن في الألفية السابعة قبل الميلاد!

إن الوظيفة النهائية لهذه النظريات هي دائماً الأناضول وتصبح أكثر دقة على مر الأزمنة: من الضروري إثبات تجانس سكان الأناضول وبالتالي التركية للكرد. فمنذ

ثلاثينيات القرن العشرين، كانت أطروحات التاريخ موجهة نحو هذه الغاية، فهي تجد وظيفتها حتى اليوم. كان إسماعيل بيشكجي هو الذي لفت الانتباه إلى هذه الوظيفة «الأناضولية» من الأطروحات التاريخية، ودفع ثمنها باهظاً للغاية» 7. «لنتذكر رؤية الأناضول الرسمية لكتاب عام 1929: تركيا هي التي تتألف من الأرض حيث يتم تكوين الأتراك فقط. وتتمثل السياسة اللاحقة في إعادة تأكيدها، مع إنكار وجود الحقيقة الكردية.

لقد تحولت خريطة تركيا إلى صورة ثم رمزاً وطنياً، كما هي حال ماريان في فرنسا. غالباً ما ترتبط هذه الصورة بالعلم لتشكيل رمز رسمي شبه. يظهر في قراءة الكتيبات حوالي عام 1985. إنها تربة الارتباط (الوطن) / الأمة.



ومن ناحية أخرى، فإن أرض الأناضول مقدسة بواسطة الدم. في روايات المدرسة عن المعارك، لا يستحضر المرء الدم الذي يتدفق أثناء الفتوحات (فاتح، ملاذ كرت). فقط الدم الذي كان يتدفق في تشاناكالي (الدردنيل)، حيث كان الموتى كثيرين للغاية، يتم استحضاره. إن العدد الكبير للخسائر ليس مخزياً: لقد تم استحضارها بشكل واضح، وربما مبالغ فيها. دمهم هو الثمن المدفوع للحفاظ على الوطن. هذا الثمن الباهظ ينطوي على واجب الاعتراف بتضحيات الأجداد، والوعي بمسؤولية الاضطرار إلى الحفاظ على هذا البلد من مخاطر معينة.

على المستوى الرمزي، يتخلل الدم التربة، والتربة مقدسة، وقد أعطى الدم لوناً للعلم. علاوة على ذلك، فإن كلمة الشهيد محفوظة لموتى معركتين فقط، إحداها تشاناكالي: التسلسل الهرمي ليس موضع شك. الأناضول هي الأرض المقدسة الوحيدة، والوحيدة التي تستحق التضحية، هي أرض المواطنة الحصرية.

لكن ليس كل الأناضول! الأناضول بكل ما فيها من جغرافيا بالتأكيد، ولكن ليس كل الإرث التاريخي للأناضول الماضية. في الواقع، لم يتم تدريس الفترات المسيحية من تاريخ الأناضول: بيزنطة، أرمينيا، الممالك الفرنجة. هذا الغموض يعزز التصور للهوية التركية على أنها هوية إسلامية.

علاوة على ذلك، فإن التكرار الآخر لكلمة «الشهيد» هو معركة بدر، التي قابل فيها محمد، القريشيين، وهكذا فإن المحاربين المقدسين، الذين سقطوا كشهداء، هم أولئك الذين دافعوا عن الإسلام، وهؤلاء الذين دافعوا عن الأناضول. وهذا يتفق مع رؤية التوليف التركي الإسلامي، ومفهوم الملة millet: كل من الأمة والمجتمع الديني.

ليصل بنا كوبو، بنباهته وفطنته اللافتتين إلى نتيجة مرعبة نعيش سخونتها الخائقة تاريخياً حتى ساعة كتابة هذه الكلمة، وما يترتب عليها من انغلاق أفق مستقبلي يعلم بالمغايرة تاريخياً؛ وهكذا، فإن الأناضول ليست «بلد الجنس التركي»، إنها أرض الملة التركية المسلمة التي ما زلنا نستخدم فيها السياسة الثقافية في الثلاثينيات لمحاولة محو الآخر الكردي⁽¹⁾.

(1) يراجع حول ذلك، موقع www.susam-sokak.fr، الإلكتروني، ومن خلال تلك العناوين الواردة اسماً في المتن.

وربما كان فيما أفصح عنه الباحث الكردي حميد بوزارسلان، وهو من «كردستان الشمالية» أي «تركيا» والمقيم في باريس، منذ سنوات طوال، والمشهود له بغزارة الإنتاج، وإنما بشفافية الرؤية الفكرية، في حوار معه يرجع إلى «15 حزيران 2006» وبالفرنسية، تحت عنوان: التخلي عن فرضية التفرد الكردي، مقابلة مع حميد بوزارسلان.

Rompre avec l'hypothèse d'une singularité kurde. Entretien avec Hamit Bozarslan

وفي موقع journals.openedition.org الإلكتروني، حول سؤال سؤال لمقابله الفرنسي، وهو: كيف ترى الدراسات الكردية في الجامعات في تركيا؟ يمكن أن نتحدث عن افتتاح، من الخطوات الأولى؟ فكان هذا الرد:

بعض الخطوات الأولى صغيرة جداً. ليس من حيث دراسات الدكتوراه، أعتقد أنه من الصعب للغاية اليوم القيام بأطروحة دكتوراه عن الكرد، ولكن بمجرد حصولك على أطروحة الدكتوراه وبمجرد الانتهاء من الدراسة في مكانه في المؤسسة، يمكن للمرء أن يفتح نفسه أمام الدراسات الكردية وهذا يحدث بشرعية نسبية. سوف أذكر حالة نسيم شيكر في جامعة الشرق الأوسط التقنية Ortadoğu Teknik Üniversitesi (أنقرة) أو قضية مسعود يفين. هناك آخرون: نزان أوستونداغ... الخ. من وجهة النظر هذه، لم نعد نواجه خطاب الهيمنة، أي نظام الهيمنة. لا يزال النظام قادراً على التحكم في مستوى الدكتوراه ولكن على الأرجح ليس المستوى الذي يتجاوزه. على الرغم من ذلك، حتى على مستوى الدكتوراه، أعتقد أن كل شيء لا يتم التحكم فيه لأن هناك أطروحات، مرة أخرى، عن القومية التركية، عن عام 1910، 1920، والتي هي من ثراء رائع والذي يسمح لنا بإنتاج خطاب تاريخي جديد، لتحدي الخطاب التاريخي الحالي وتصور سجلات التفسيرات الأخرى، لتقديم أنظمة أخرى للتفسير. في هذا السياق، يوجد طلاب

ربما في هذا المعترك التاريخي الكبير، نلاحظ مدى التداخل والتفاعل بين الاستعمار بمفهومه التقليدي، حيث برز بنو عثمان في كيان سياسي، اعتماداً على القوة الضاربة، مدوخين الجهات الأربع للعالم من حولهم، وما بعد الاستعمار، كما هي حقبة ما بعد القرن الحادي والعشرين، أو النيوكولونيالية، وإشهار حقيقة لها طعم المفارقة الشديدة المرارة، وهي أنه رغم البعد الكوكبي المضاء للعالم، والتحول الهائل في وسائل الاتصال، وفي الإعلام، والثقافة الكوكبية، إلى جانب العسكرية التي نتبينها هنا وهناك، إلا أن الشيء الأوكد في الموضوع، وفي إطار تركيا، أكثر من أي دولة أخرى في المنطقة، بعد الأزمة السورية خصوصاً «2011» هو ذلك الشبق الأكثر كولونيالية، حيث تجري دماؤه الساخنة في عروق الجسد التركي السياسي، كما لو أن شيئاً لم يتغير البتة، وما يدعونا إليه هذا المسار الخطي المتعظم، من مكاشفة قبح القيم السائدة عالمياً، ومن لدن القوى المتنفذة، والتي لعبت دوراً كبيراً في إجراء تقسيمات كوكبية، وتضيق شعوب.

ولعل الذي سنتعرف إليه لاحقاً، يضيء هذه الرقعة الجغرافية المتورمة من كوكبنا أكثر فأكثر، وبالمقابل، ربما يسمح كل ذلك بمعرفة المزيد من طريقة تكوين التاريخ،

الدكتوراه الذين يجروون أيضاً على دمج المسألة الكردية بطريقة أو بأخرى، أو المجتمع الكردي، بطريقة أو بأخرى، في دراسات الدكتوراه الخاصة بهم. بالنسبة للباقي، لست متفائلاً للغاية بالنسبة لتركيا لأنني أعتقد أنه لا تزال هناك عقبات. تتابع أكثر مني ظهور هذا الخطاب القومي الجديد الذي يعتبر الأتراك طبقة عرقية مضطهدة من قبل الكنوز العرقية الأرمنية واليهودية واليونانية. سوف ينتشر هذا الخطاب القومي الاشتراكي أو القومي والاشتراكي، كما أخشى، لا تزال جامعات المحافظات متشددة ومتحكمة تماماً. على العموم، لا أقول إنني متفائل للغاية، لكن على أي حال، فيما يتعلق بست أو سبع جامعات في تركيا، أعتقد أن هناك، نعم، هناك شيء ما يحدث. في جامعة البوسفور، توجد الآن دراسات حول العلاقات بين الأعراق في تركيا، يبدو لي شيئاً جديداً.

ما يعبر عن هذا الفضاء الضيق في الخطاب السياسي التركي عموماً، والجامعي: الأكاديمي منه خصوصاً.

ولتأكيد ذلك أيضاً، يقول مفكرنا التركي إسماعيل بشكجي في كتابه: المثقف، المنظمة والقضية الكردية، والمترجم إلى الكردية، من قبل ولات توفيق:

ره وشه نبيره ك، ريكرهه ك وپرسا كُردان، منشورات جامعة دهوك، مركز بشكجي للدراسات الإنسانية، دهوك، 2020، وفي الصفحة 29:

يتم تجاهل القضية الكردية في تركيا، من قبل الجامعات، الأحزاب السياسية، إلى جانب المؤسسات والمنظمات الحقوقية الإنسانية، حيث لا صلة لها، وفي الواجهة سيستام «نظام» السياسة الرسمية للدولة التركية...الخ.

وأي جغرافية دامية أو مدمّاة، وراءه، وهي تتعرض للتقطيع والتحوير والاختزال والتقسيم هنا وهناك.

السؤال الكردي- الكردي المؤجل

لعله العنوان الأكثر سخونة، في مستهل الكتاب هذا، والذي يضع الكرد في مواجهة حقيقتهم المرة تاريخياً، قبل كل شيء، وهو الوجه المقابل للوجه المستبد بهم، من قبل مختلف القوى التي سعت، ولاتزال إلى ابتزازهم، أو استغلالهم، أو إبقائهم في وضعية «حيص- بيص» أو حتى الدفع بهم إلى عمليات انتحارية، في توجهات تزيد في إضعافهم، وتقلل من مكانتهم، وما يقلل في المقابل من فاعلية رموزهم، بما أنهم مختلفون فيما بينهم، كما يشهد تاريخهم.

وربما كان هذا التكرار في أسئلة كهذه: من هم الكرد؟ من أين جاؤوا؟ ما حقيقة أصولهم بين دعاوى الآخرين، ودعاوهم بالمقابل؟ ما هي العلاقة بين عددهم والمساحة الجغرافية التي ينسبون لها إلى أنفسهم؟ لماذا فشل الكرد في إقامة كيان قومي خاص بهم؟... الخ، أسئلة لازلنا نسمع بها، ونقرأها من لدن كتّاب أجانب وحتى كرد، إلى يومنا هذا، وما في ذلك من مفارقة تثير الاستغراب أحياناً كثيرة. إذ لماذا تكرر أسئلة كهذه؟ هل الذاكرة الخاصة بتلقي المعلومات عن الكرد مثقوبة، أو سريعة المحو، ليتم تكرار مثل هذه الأسئلة، وفي الوقت لا يجد الكثيرون، ممّن يتابعون موضوعاً كهذا: سماعاً أو قراءة، ما يدعو إلى التساؤل.

ربما، كان لذلك، علاقة مباشرة، بما يقوله الكرد أنفسهم، قبل سواهم، عن أنفسهم، بأنهم أكبر قومية، بحضورها العددي في العالم، لم تتل حقوقها السياسية، وحين تسمي جغرافية لها، أعني بها كردستان، وتحدد مساحة واسعة، مقارنة بدول كثيرة في العالم «أكثر من 500 ألف كم²، وحتى بالنسبة لنسبة معلومة من الكتّاب الأجانب، مع فارق التوجهات. إذ في الوقت، الذي يمكن الحديث عن الدور الأكبر لما هو استعماري في تشييت الكرد وجغرافيتهم، إلا أن رفّع راية المظلومية هذه، إلى هذه اللحظة، يحيلهم إلى واجهة المسألة التاريخية، أكثر من مختلف القوى التي تكاثفت تاريخياً، أو توحدت، ولاتزال تتلاقى للحيلولة دون منحهم ذلك الكيان المعلوم به، وهو أنهم في تسميتهم لجغرافيتهم، وعددهم اللافت، لا يخلو من استغراب: كيف لهذا العدد الكبير، وفي مساحة جغرافية معلومة، كهذه، تاريخياً، يفشل في بناء كيان سياسي مستقل؟

هذا السؤال يحمل جواباً لا أظنه يرضي الكرد كثيراً، في تضاعيفه، وهو أن العلة الأولى تكمن فيهم بالذات، حيث لا يجتمعون على خلاف، ولا يفتشقون إلا وهم على خلاف، أو نظيره، وأنهم فيما يسمونه أسلافهم، أو رموزهم من الأبطال، لحظة تقريبهم المسكوبي، يظهر تخاصمهم.

أي حين نجري مقارنة، بين الحديث عن الأعداء، وهم يتخاصمون، ويصفون بعضهم بعضاً، لكنهم إزاء أعدائهم الآخرين، يتلاحمون، وينسي تغلبهم عليهم تخاصمهم الداخلي ذاك، أي إن الخارج يبرئ الداخل، وفي حال الكرد، حين نتحدث عنهم، ومن خلال حضورهم في التاريخ، فما أكثرهم حضوراً في تخاصماتهم، وحتى تصفياتهم الداخلية، وهشاشة صفوفهم تجاه أعدائهم الذين يتريصون بهم، ولا يُعتد بأي غلبة لهم، وهم في ضعفهم الداخلي، وعدم انتصارهم الموحد بالتالي، فليس من ثبرة لتخاصماتهم الداخلية، وهم يعاضدون أعدائهم على بعضهم بعضاً أكثر.

أي ما يجعلهم محسوبين على الخارج، مستثمرين، لا مستثمرين، أكثر من تفرغهم للداخل، وهو ما يؤرق تلك النسبة المحدودة منهم، وهي تكابد، وتعيش هواجس هذا «الداء» الدوري.

في ضوء ذلك، لا ينفع التنظير كثيراً، حين يطوح به وهو يتحرك على أرض زلقة، وفي مناخ لا يخفي كابوسية أجوائه، ويبقي هؤلاء الخلل في التاريخ، في مقام «صيحة يوحنا المعدان» في البرية، أي وهو يواجه بالعراء، والمخاطر، وتقل رؤيته للماء، وهو على مرمى أمتار منه.

ليكون الخروج إلى الداخل، إن جاز التعبير، أمضى، ناحية المكاشفة بما هو متراكم فيه.

لذلك، فإن هناك ضرورة تاريخية، اجتماعية، سياسية، عقلية، ونقدية، لما تقدم ذكره:

تاريخية، لأن معرفة الأمس تعيننا على معرفة الجاري راهناً، وأوجه الاختلاف بينهما، أو إن ما يجري اليوم، يحفز على مكاشفة ما كان يجري بالأمس، وصلات الوصل بينهما:

اجتماعية، لأن التاريخ هو تاريخ مجتمعات بشرية، والمجتمع هو الذي يمنح التاريخ اسمه، وطابعه العبادي، إن جاز التعبير، والعيادي «عيادة نفوس مريضة وخلافها».

سياسية، وما في ذلك من متعاليات الشئون الدنيوية، وتمازجاتها الدينية، وكيف يمارس أولو أمرها تلك السياسة في مسلكيات الأفراد، وجمهرتهم أو بعثرتهم، وصنّع رموز لهم.

عقلية، لأن ما يعاين، وما يفصح عنه، مرجعه العقل، وهو في منشأه متفاعل مع الوسط الحي.

نقدية، فلا شيء جدير في أن يُسمى شيئاً، إن لم يترك أثراً له أو منه، فيما يقال ويجري العمل به واقعاً، أي في العلاقة بين الصواب والخطأ، بين الحقيقة ونقيضها الزيف، وتداخلتهما ويظهر أن النظر في تجارب التاريخ، ورغم الكم الهائل من العناوين الذي يكون التاريخ حاملها والمتقدم بها واضحة كذلك، وفاعلها كاسم، إلا أن زاوية المكاشفة التاريخية الفعلية، كدروس مستخلصة من وقائعه، تتراءى في ضوء المتاح، وما هو معاش راهناً، أقرب إلى الزاوية الحادة كثيراً، حيث العنف يمارس طابعه الافتتاني والسيادي في التحكيم والتلغيم بصيغ شتى غالباً.

إن ما قام به رموز الاتحاد والترقي، وهم متعلمون، وعلمانيون نسبياً، من فظاعات، ضد جملة الشعوب التي أخضعت لسلطة الباب العالي، وفي سنوات الحرب العالمية الأولى، لا بل وهم يفتتحوها بالمجابهة الطاغية، مثل الأرمن والكرد، يوحد كل الإيديولوجيات الشمولية، ويفضح كل محتوى معرّف به في خطاب أولئك، وقد كانوا نقلة وبرزخ اتصال تتركيبين في الأصل بين العثمانية المتفسخة، والتتريكية المعمدة بالأوليائية المقدسة «جعل القومية التركية» اللوح المحفوظ الذي منه وفيه كان النص الأزلي لبني الأترك الذي ابتدعهم أتاتورك كثيراً:

(أصبحت الحرب كذلك مسرحاً لهندسة ديموغرافية وإقليمية واسعة أدت إلى إبادة الأرمن في العام 1915... عدد ضحايا حرب الإبادة الدقيق لا يزال مجهولاً... إبادة موجودة من الأساس في الاستراتيجية الاتحادية... تمت العمليات بسرعة مذهلة... بحسب التقديرات العثمانية، التي هي دون العدد الحقيقي بالتأكيد، كان حوالي 20 بالمائة من سكان تركيا في حدودها الحالية من غير المسلمين. وفي العام 1924، انخفض هذا العدد ليلبغ 2 بالمائة، وليصير 1 بالمائة في نهاية القرن العشرين... الخ)⁽¹⁾.

(1) بوزارسلان: قراءة في تاريخ العنف في الشرق الأوسط «من نهاية السلطنة إلى تنظيم القاعدة»، ترجمة: هدى مقتنص، مراجعة: المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2015، صص 52-55.

ذلك يقول الكثير، جهة مساحات العنف الخفية «في رؤوس من فرخوها» والقليل، جرّاء فظاعة ما جرى ارتكابه من قبح الأعمال، وما تم تثبيته في أرشيف البغضاء التركي طبعاً.

وفي متن هذه العلاقة، يبرز عمق الهوة الواسعة، بين المفهوم الطبيعي للإنسان، وهو ينتمي إلى قانونها، والمفهوم الثقافي الذي يشكّله ويفصله لنفسه، ومن ينتمي إليهم، في الحد من إظهار ما هو طبيعي، كما هو المعهود في مختلف الإيديولوجيات العقائدية المدمرة والمهلكة لأهلها تالياً.

ثانية، نسمع إلى ما يقوله بوزارسلان، وهو يكاد يضع صورة بانورامية لما قبل قرن، وهو في هذا المضمار يسلّط الضوء على الحضور الكردي الجغرافية وكيفية إقصائه سياسياً:

(طوال القرن العشرين، تم تحديد المسألة الكردية من خلال خاصيتين متكاملتين، والتي تمت إعادة تعريفها بالتأكيد من خلال العمليات الجارية، لكنها لا تزال تحافظ على كل حيويتها اليوم. الأول، الذي سنذكره هنا فقط، يتعلق بآليات الاندماج والاستبعاد التي وضعتها الدول الحديثة، والتي حرمت الجالية الكردية من نفس حقوق الأغلبية العربية أو الفارسية أو التركية، قد تحولت إما إلى عنصر ديموغرافي لاستيعاب «جسد الأمة»، أو إلى تهديد أمني، حتى بيولوجي، من أجل «بقاء» هذه الأمة نفسها. بمعنى ما، فإن «القضية الكردية» برمتها، التي يتم الدفاع عنها أو التعبير عنها سلمياً باللجوء إلى الكفاح المسلح، تتمثل في رفض هذا الوضع من أجل جعل المجموعة الكردية تقبل كموضوع في حد ذاته، مستعدة وقادرة على تحمل مصيرك بأن تقرر لنفسك وضعك القانوني والإداري والسياسي (الاستقلالية، الفدرالية، الاستقلال). إن رفض الولايات، الذي لا يزال مرتبطاً برؤية عضوية للمجتمع، للاعتراف بالكرد كجماعة «يحق لها القانون» يشكل السبب الرئيسي ليس فقط لاستساخ المسألة الكردية على المدى الطويل، وإنما كذلك الاستبعاد الذي وقعت فيه العديد من الفئات العرقية والطائفية الأخرى، ناهيك عن جماعات المعارضة.

السمة الثانية للمسألة الكردية مرتبطة بتقسيم الكرد عبر الحدود بين الدول. ومن المسلم به أن المساحة الجغرافية الكردية كانت مشتركة بالفعل بين بلاد فارس والإمبراطورية العثمانية منذ بداية القرن السادس عشر، ولكن الحدود المرسومة في ذلك الوقت لم تكن ضيقة على الإطلاق ولم تمنع الولاء المزدوج في ستانبول وطهران من الإمارات أو القبائل الكردية الواقعة بين الإمبراطوريتين. أسفر إنشاء حدود جديدة

في أعقاب الحرب العالمية الأولى عن عواقب أكثر خطورة بكثير على بقاء الجماعة: فقد عسّكرة بشدة، مما أدى إلى كسر الاستمرارية المكانية لكردستان، والتي كان كل جزء منها واقعاً «غير ساحلي» من الآن فصاعداً. وهكذا أصبح الكرد معتمدين على العديد من العواصم «المتروبولات» التي تشعر بالغيرة من سيادتها، والانقسامات الإدارية الجديدة، واللغات الرسمية وأنظمة التعليم المتميزة التي فرضها المركز، و «الثقافات السياسية» المتميزة للغاية. وقد تعزز هذا «التكامل» القسري من خلال إقامة تعاون إقليمي بين الدول. مع استثناءات نادرة مثل بداية ثورة أرارات في تركيا (1930) أو في المرحلة الثانية من ثورة بارزاني (1974-1975)، عمل «النظام الفرعي» الإقليمي كجهاز أمني يهدف صراحة إلى قمع أي تحدٍّ كردي. علاوة على ذلك، فإن هذين الاستثناءين لم يدم طويلاً: على الرغم من المساعدة التي قدمتها طهران في بدايتها، فقد سحقت تركيا أول هذه الثورات في النهاية، بالتعاون النشط أو غير المباشر من الاتحاد السوفيتي الكبير، حيث تكون بريطانيا السلطة الإلزامية في العراق والسلطات الفرنسية في سوريا، في الحالة الأولى. وبعد أربع سنوات، وقعت تركيا وإيران والعراق (وأفغانستان) على ميثاق سعد أباد لإضفاء الطابع الرسمي على تعاونهم العسكري. أما ثورة البرزاني فقد توقفت بعد انسحاب المساعدات العسكرية من إيران، قبل أن تستأنف بعد ذلك ببضعة أشهر.

لذلك، كان أحد أهداف النضالات التي خاضها الممثلون الكرد طوال القرن العشرين تعديل منطق الحدود، ليس بالضرورة لإلغائها، بل لجعلها سلسلة. ليس هناك شك في أن تكلفة تحدي هذه الحواجز العسكرية كانت باهظة الثمن، لكن في النهاية فشلت الدول في تحويلها بشكل دائم إلى «سقطات سيادة» تحدد «مناطق العنف» الخاصة بها. تم قمع المعاملات الاقتصادية منذ عشرينيات القرن الماضي مع استمرار أنشطة التهريب وتنمية عشرات الضمائر لعشرات الآلاف من العائلات التي تنتمي إلى التوكسيت أو المخروط («الشمال» و «الجنوب» من «الخط»). مشترك. كما قامت معظم الثورات الكردية في القرن العشرين (1925، 1930، 1946، 1961-1975) بتعبئة الكرد عبر الحدود، في بعض الأحيان عمليات نقل عفوي عسكرية حقيقية كما كان الحال في جمهورية مهاباد ذات الحكم الذاتي المعلنه في عام 1946 في إيران⁽¹⁾.

(1) مقدمة حميد بوزارسلان ملف الكرد قوة صاعدة في الشرق الأوسط

Les Kurdes: puissance montante au Moyen-Orient ?

وفي موقع journals.openedition.org الإلكتروني، باللغة الفرنسية.

لا يتحدث، أو لا يظهر في خطاب بوزارسلان أنه يتحدث بلغة الموالة لنسبته الكردي، وإنما يقدم صورة لا تخفي صواب خريبتها السياسية في السنوات المفصلية، والحاسمة قبل كل شيء، إبان الحرب العالمية الأولى، وما أعقبها من أحداث ومن مناورات دراماتيكية، وإخراج ملفّات دولية، بين مجموعة دول تجمعها مصالح: من سايكس-بيكو، إلى «سيفر» ومن ثم «لوزان»، وربما اتفاقيات أخرى، لم تزل سرية إلى هذا اليوم، بين الدول اللاعبة بمصائر الشعوب، ليكون مقتل الكرد، بالمفهوم السياسي، أو الحقوقي للكرد، وتحديد مصيرهم شعباً دون اسمه المعلوم.

وأحسب أن جملة من النقاط التي يقدمها الباحث في الشأن الكردي، جوردي تيجيل، والمعروف بعمق اهتمامه في هذا الجانب، ومن خلال بحثه المكثف «في أصول السؤال الكردي» ما ينبّه الذاكرة التاريخية للكرد بمعانٍ كثيرة:

حين يقول عن أنه (لم يكن أكثر من عام 1920 كان الكرد على وشك الحصول على دولة. بعد ثلاث سنوات، تم رفع هذا الاحتمال. كيف نفسر هذه القضية، عندما يكون مبدأ القوميات ضرورياً والشرق الأوسط العثماني هو هدف الانقسام إلى ولايات تُدعى لتصبح دولاً جديدة؟ كيف يمكننا أن نفهم فشل النخب القومية الكردية عندما يبدو السياق الدولي، الذي اتسم بتفتيت الإمبراطورية العثمانية والبحث عن حلفاء محليين من قبل القوى الغربية، موافقاً للغاية؟)

وهو السؤال الجواب الذي يسائل الوجدان الأوربي، وطبيعة القوة المعتمدة دولياً. إنما دون أن ينسى ما يجب التذكير به، وهو العائد من جهة المسؤولية إلى ما هو كردي (إذا كانت النخب القومية الكردية لا تزال تميل اليوم إلى وضع المسؤولية الكاملة عن هذه الفرصة الضائعة على القوى الأوروبية ووعودها المكسورة، فإن الواقع أكثر تعقيداً. النظر في العوامل الخارجية (المصالح المتباينة للقوى الغربية، والانتصارات العسكرية للمتمردين الأتراك) والداخلية (الانقسامات داخل اللجان الكردية)، وكذلك المسارات التاريخية السابقة (الإبادة الجماعية الأرمنية، والانقسامات القبلية والدينية الخاصة بـ المجتمع الكردي) يسمح لنا بإعادة بناء أصول «المسألة الكردية».

ذلك بات معهوداً من قبل السياسي الكردي، والأكاديمي الكردي، وحتى الإنسان الكردي العامي، جرّاء التكرار، وهو ما يبقى موضوع الكرد وكيفية ظهورهم في تاريخ تليد، وتقطع سبل التاريخ بهم، ومسئوليتهم في ذلك، حين يضع عنواناً فرعياً، وهو: الكرد في عصر الإمبراطوريات، فيقول (يشكل الكرد «مجموعة» - بتعددية دينية واجتماعية ولغوية داخلية - معترف بها بشكل مؤكد منذ بداية التأريخ العربي (القرن

التاسع إلى العاشر). في الواقع، أفادت مصادر فارسية وعربية من العصور الوسطى أن الجماعات الكردية الرئيسية كانت متناثرة بين إيران وبلاد الرافدين العليا، من الشرق إلى الغرب، وبين جورجيا ومنطقة خوزستان الإيرانية، من الشمال إلى الجنوب. إذا كانوا يشتركون في هذه الأراضي الشاسعة مع السكان الآخرين - الأتراك والعرب والفرس والأرمن - على مر القرون، تبقى الحقيقة أن الإشارة إلى «أرض الكرد» (أرض الكرد) أو «کردستان» منتشرة أكثر فأكثر على الخرائط الجغرافية للمنطقة كما في النصوص القديمة، وبعد ذلك في المصادر العثمانية. وهكذا، في القرن الثاني عشر، أقر الإمبراطور السلجوقي سنجار (1084-1157) بالدور الناشئ للكرد داخل مملكته من خلال إنشاء منطقة إدارية تسمى «کردستان».

وما يعمق النقاط وهي على حروفها، ويزيد في إيقاظ الكرد من غفلتهم التاريخ، ومحلمهم من الإعراب فيه (وهكذا نرى تشكيل الإمارات التي على رأسها سلالات كردية، والتي ستترك أسماء لامعة في التاريخ، مثل صلاح الدين الأيوبي. في عام 1514، دفعت الصراعات الإقليمية بين العثمانيين والصفويين أول من أسس تحالفاً سياسياً عسكرياً مع ستة عشر إمارة كردية. في مقابل المساعدة العسكرية التي يتلقونها، يعترف العثمانيون بشرعية السلالات الكردية والاستقلال المحدود للأراضي التي يسيطرون عليها. ومن وجهة نظر اجتماعية واقتصادية، تقع كردستان أيضاً في «بين: وسط»، حيث إن العالمين الريفي والحضري مترابطان بشكل وثيق. في السهول، تعد الزراعة المصدر الرئيس للثروة للسكان المستقرين (القبليين وغير القبليين)، وأحياناً على اتصال مع الأرمن في الشمال والعرب في الجنوب. في الجبال، كانت تربية الحيوانات هي النشاط الأساسي لقرون. ومع ذلك، فإن القبائل الكردية «البدو وشبه البدو تعيش في تكافل مع مدن مزدهرة مثل الموصل».

وميكانيزم الكرد من منظور الهوية، وموقع الأشخاص المعبرين على حلبة الصراعات السياسية (في ظل الدولة العثمانية، الهوية الكردية أو بالأحرى الهويات الكردية ليست مهددة بشكل مباشر. من المسلم به أن ستانبول تقمع بشدة الأمراء الكرد المتمردين والثورات التي يقودها الشيوخ الصوفية. لكن هذا لا يظهر رغبة في قمع الكرد على أنهم «جماعة» عرقية. بالنسبة للسلطان، إنها مسألة خنق أي دافع غير عادي مثل أي ظهور لسلطة منافسة أمام السلطة المركزية.

وبالتالي، تم القضاء على جميع الإمارات الكردية شيئاً فشيئاً خلال القرن التاسع عشر، في حين تم نفي معظم الأعيان الكرد في مقاطعات أخرى من الإمبراطورية أو

في الخارج. أطاحت الحملة الرئيسية الأخيرة «للعزو الداخلي» لكردستان بدرخان بك عام 1847.

ومع ذلك، تسبَّب فراغ السلطة الذي خلفته السلالات الكردية المتساقطة في حدوث فوضى في نهاية القرن التاسع عشر، مما دفع السلطان إلى الاعتماد مرة أخرى على اتحادات قبلية كردية كبيرة - مثل إبراهيم باشا المُلِّي - ولكن في تبادل الولاء له. من هذا المنطلق، أنشأ السلطان عبد الحميد الثاني أفواج الحميدية - أفواج القبائل من الفرسان الخفيفة - التي يمنحها وضعاً مميزاً (التسلح، الإعفاء الضريبي، الحصانة شبه القضائية). كانت أفواج الحميدية بدورها تحمي الإمبراطورية «الأورطغرلية» من الأخطار الخارجية (النفوذ الروسي على الحدود الشمالية للإمبراطورية) والأخطار الداخلية (القوميين الأرمن).

وهناك ما هو أكثر تخريباً لكردستان، إلى جانب أعداد الضحايا بالنسبة للمشاركين في الجيوش العثمانية طوعية، أو غصباً، إذ (خلال الحرب العالمية الأولى، غرقت كردستان في خضمَّ الحرب، وامتد مسرح العمليات الحربية من صاري قاميش في الشمال إلى خانقين في الجنوب، وإلى أرزنجان في الغرب، ومن الصعب تحديد أعداد الجنود الكرد الذين شاركوا في الحرب، فالتقديرات متفاوتة بشكل كبير، ويذكر محمد زكي أن أحد عشر جيشاً «فرقة» كان موجوداً في ألعزيز «مأمرية ألعزيز»، وكان اثنا عشر جيشاً في الموصل مؤلفاً بشكل كلي من الكرد، وكان أغلبية ضباط وجنود الجيش التاسع في أرضروم والجيش العاشر في سيواس هم من الكرد، كما شاركوا أيضاً في 135 سرية من سرايا الفرسان الاحتياط، وفي وحدات حرس الحدود والدرك «الجندرية»، ويقدر محمد زكي أن عدد الإصابات بين المقاتلين الكرد بلغ ثلاثمائة إصابة، وهذات يدل ضمناً على أن أكثر من نصف مليون مقاتل كردي شارك في الحرب، وهذا - حسبما يبدو - رقم عال..⁽¹⁾.

يعني ما تقدم، أن الكرد كانوا يقتلون في الحالتين: حين يحاربون الدولة العثمانية، وحين يحاربون في صفوفها، بغض النظر عن اختلاف الحالتين، إنما هو الحديث عن مركزية كردستان ساحة للحرب، ودون نسيان ما كانت الذاكرة الدينية «السنية الجمعية» تمارسه من دور تحريضي، ومن تجييش للوعي الجمعي وحتى القطيعي،

(1) أولسون، روبرت: تاريخ الكفاح القومي الكردي 1880-1925، ترجمة: د. أحمد محمود الخليل، دار الفارابي، بيروت - دار آراس، أربيل، ط1، 2013، ص37.

في نفوس هؤلاء الذين كانوا ينخرطون في الجيش العثماني، وحتى فيما بعد، في الحرب إلى جانب أتاتورك، من باب التأثير بخطبه الرثائه أو وعوده المعسولة، ولطالما دفع الكرد نتيجة هذه الخدع الكثير فالكثير.

وفي الوقت نفسه، فإن هذه «البرمجة» النفسية، يمكن الوقوف عليها مطوّلاً، وهي نشطة، مرهوبة الجانب، وذات عمر طويل، منذ أيام جالديران، وتالياً، كما لو أن الكرد، من خلال ممثليهم السياسيين وجنودهم، أو من يعملون في مقام حرس الحدود، أو حراس المدن والقرى لأعدائهم ضد بني جلدتهم كذلك، يفتقدون تلك الذاكرة السياسية الموجهة، وذات التنبية العالي في حالات الخطورة هذه، أي وهي مثقوبة ومنكوبة في بنيتها، أي كما لو أنها تعرضت منذ لحظة اللقاء الأول بالأعداء خارجاً، ولدوافع مختلفة، تجاوزوا مع رغباتهم في أنفسهم، لا بل وفي أموالهم وأملاكهم، وهيئوا لهم السبل الكفيلة لكي يصلوا إلى كل مدينة وبلدة وقرية، إلى كل سهل وذروة جبل، ووادٍ ومنخفض، إلى كل غابة ونهر ونبع ماء، ويعرفوهم على دخالهم بأساليب أو طرق شتى.

من جانبها، تبقى العائلات القديمة لوجهاء كردستان قريبة من السلطة. يشغل المفكرون الذين يأتون منها مناصب إدارية في الإدارة العثمانية. تم اقتلاعهم من كردستان في العقود الأخيرة، وهم أقرب إلى نخب العاصمة من بقية السكان الكرد الذين يعيشون في ضواحي الإمبراطورية. لذا، على الرغم من مناقشاتهم حول مبدأ الحكم الذاتي، فإنهم لا يزالون مرتبطين بشكل كبير بالإطار السياسي والاجتماعي العثماني.

بالإضافة إلى ذلك، أبحر العديد من المثقفين الكرد بين الدوائر المقربة من لجنة الاتحاد والتقدم (ضياء كوكالب وإسماعيل حقي بابازند) والليبراليون العثمانيون (شريف باشا) والإسلاميون (سعيد نورسي وأحمد نعيم بابازند) والجمعيات الكردية، الدفاع أحياناً عن مواقف غامضة ومتناقضة.

تشكلت الدائرة الكردية الأولى حول صحيفة كردستان (1898) وعائلة بدرخان. هذه الصحيفة ثنائية اللغة (الكردية-العثمانية)، التي نشرها في القاهرة مقدار مدحت بدرخان، تدافع عن المعارضة التركية الشابة ضد استبداد السلطان بينما تدعو في الوقت نفسه إلى إيقاظ الكرد في مواجهة التحديات التي تفرضها الحداثة.)

وما يزيد في إضاءة ساحة الموقع الكردي، وكيفية تداول اسمه من قبل القوى المتنفذة تالياً (بعد «ثورة» شباب الأتراك عام 1908، التي شهدت وصول لجنة الاتحاد

والتقدم إلى السلطة، أسس بعض الكرد البارزين Kürt Teavün ve Terakki Cemiyeti («جمعية التعاون والترقي الكردية») وأنشأوا جهازاً صحفياً.. وأهداف الجمعية معتدلة: دعم الحركة الدستورية، وضمان تقدم وتعليم كرد ستانبول، وترسيخ العلاقات الجيدة مع الشعوب العثمانية الأخرى، وفي النهاية، بذل كل الجهود الممكنة لإنقاذ الإمبراطورية العثمانية.

بشكل عام، خلال الفترة «النقابية» (1908-1918)، ظل المثقفون والأعيان وزعماء القبائل والزعماء الدينيون الكرد قبل الحرب متمسكين بمثل الوحدة العثمانية التي تضمنها مؤسسة الخلافة. يمكن بسهولة تفسير هذا الولاء للإطار العثماني من قبل الجنسيات الأخرى للإمبراطورية. يرجع ذلك في المقام الأول إلى فكرة دينية: ينتمي الكرد والمسلمون السنة في الغالب إلى «المجتمع المهيمن» (الدخن أنا الحكيم)، بنفس الطريقة التي ينتمي بها الخليفة السلطان، وكذلك غالبية الأتراك والعرب وخلافاً للمسيحيين واليهود⁽¹⁾.

ورغم تمييز الكرد بالوعي الاجتماعي والتاريخي وإدراكهم لمستوى مكانتهم الرفيع، إلا أنهم في نظرهم إلى العالم، وتحت وطأة الدين، بالكاد ترددهم مؤثرات الصورة الملتقطة عن طريق الآخرين ممن آذاروا سبلاً شتى في الاستتار بقواهم الحية، لا بل وحتى بتسويق مشاعرهم وتصوراتهم عما وراء الغيب، بالمفهوم الإسلامي، وتحديداً، فكرة الجنة، وما كان سبباً فاعلاً في الحد من مطالبهم القومية، وقد نحيت جانباً في نسبة كبيرة منها.

ولعل الذي يقوله الباحث الكردي الكبير الراحل جمال نبز، يرينا مأساة العلاقة هذه (لقد لعب الكرد دوراً مؤثراً في تاريخ الشرق الأوسط، إن في مرحلة ما قبل الإسلام، أو بعد الانتشار الإسلامي أيضاً في القرن السابع الميلادي. وبعد انتشار الإسلام، نجد أن قسماً من الكرد، من الكرد المسلمين، يُنظر إليهم، بشكل خجول، ومحدود جداً وسط الشعوب الأخرى، وكان لهم دور ومشاركة في بناء أرستقراطيات العرب، الفرس، والترك. حيث يمكننا أن نشير إلى بعض منهم هنا: بناء الأرستقراطية العربية من جهة الثائر الكردي أبو مسلم الخراساني سنة 750 م. صلاح الدين «1137-1193»، والهجوم المركّز على فلسطين وفتحها، ضد الصليبيين في القرن

(1) تيجل، جوردي: أصول «السؤال الكردي» «question kurde» Aux 118pigone de la، موقع journals.openedition.org الإلكتروني، باللغة الفرنسية.

الثاني عشر، وبناء الأرسقراطية الصفوية «1551 أو 1552-1736» في مستهل القرن السادس عشر من جهة اسماعيل شاه الصفوي، ابن شيخ صايف الكردي، رائد طريقة الدراويش، وبناء الامبراطورية العثمانية، حيث إن أغلب الإمارات الكردية المستقلة قد دُعِمَتها...⁽¹⁾.

لا بد أن سؤالاً يطرح نفسه هنا، وهو: ما الذي كان يخرجهم إلى العالم، صحبة «أخوتهم» من المسلمين، لا بل صحبة مَنْ اعتقدوهم في مجموعهم المختلف شركاء المكان الواحد، ليصدموهم، وينتكسوا، وهم منجرحون نفسياً ؟

ليس لأن الأعداء أكثر قوى منهم، وإنما لأنهم يتميزون بسرعة الإسجابة لهم، حيث يقتنعون بأقوالهم ووعودهم، أكثر من بنية الظروف التي يشار إليها كثيراً، الأمر الذي يبقِيهم في حل من المسألة عن حقيقة أخطائهم وانتكاساتهم كذلك.

ومن ناحية ثانية، فإن التركيز المطلوب والنوعي طبعاً، على هذه الأسماء، يدخل أحياناً في نطاق تبرير سهولة الانخداع بالوعود تلك، وبالمقابل، تغطية السذاجة التاريخية النوعية التي يتوارثونها من جيل إلى آخر، وينسب مختلفة من مكان إلى آخر، وأنهم، من ناحية ثالثة، لا يعودون أهلاً لأن يعرفوا بأنفسهم مدركي متغيرات التاريخ، أو مباحثات الأزمنة، وليس ما بات لازمة «تعويذة» على ألسنة الكثيرين منهم، بأنه سوء طالعهم التاريخي، أو حكم القدر فيهم، كما لو أن ليس للقدر من شغل مضاد، هو الكرْد.

فالكرْد يُنظر إليهم غالباً، في نطاق الانتكاسات، والانجرافات الكاوية، والرغبات المحطمة، أو الآمال المجهضة، وتلك البطولات التي تكون محل فخر، إنما بالمقابل، لا تسفر عما هو مأمول، جهة التطلع إلى الحلم المتداوم، في أن يتحقق كيان سياسي قائم بذاته، له حدوده، ومخافره الحدودية، وعناصر حرسها، ونقاط مراقبتها، وبواباتها، وعلمها المرفوع دون اعتراض من أحد، ومؤسساتها الفاعلة والقائمة بأعمالها دون مراقبة من أحد، وصور أبطال هذا الكيان الفعلي، ورموزه، ولغته القائمة بذاتها، وعلاقاتها التي تمتد إلى الخارج، دون تقييد حدودي جانبي.

في ضوء ذلك، يمكن النظر إلى الكرْد وتاريخهم المقروء أو المقرر في أدبياتهم، على أنه تاريخ مأساة، حتى بالنسبة إلى أولئك الذين شكّلوا رموز مقاومة، أو انتفاضة، أو

(1) Nebez Jemal: Kurd «Dîrok û kultura Wan», Avesta, Istanbul, 2007.

نيز، جمال: الكرْد «تاريخ وان وثقافتها»، آفستا، ستانبول، 2007، ص 57.

تحديات كبرى، ومصيرية، وزعامات فعلية، فإنهم من الصعب النظر إليهم كردياً، دون الشعور بانقباض نفسي، ودون معاناة وجدانية، عن مدى الحيف لما عاشوه وبذلوا الغالي والنفيس، لتحقيق ذلك الحلم الكردي، كما يُكتب عنه في الأدب والفكر، ويعرّف به فنياً، وهم مشهود لهم بالقوة والعزيمة، إنما أفصحت نهاية كل منهم، على وجه العموم، عن حالة من الانتكاسة التاريخية، والحداد النفسي الجماعي الطويل المدى، كما هو وضع قادة الكرد وزعمائهم في الزمن الأكثر اضطراباً ومجابهات دامية، في القرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين، وفي الجهات الأربع، وقد حلوا أكثر من مغيزات لخيالات أدبية وفنية، في أصوات المغنين، وكذلك في الحكايات الشعبية، وقد أطلق سراح كل منها من وضعية الموت، ليجري تأبيدها، ومنحها أرشيفاً روحياً مغايراً تجاوباً مع هذا/ ذاك الحلم المجهض، كما هو المحسوس والمقدّر بالتأكيد لدى عليكي بطي، وهو الحامل الرئيس لهذا الكتاب وفيه بالمقابل.

ومن المؤكد، وكما سنرى تالياً، وفي صفحات متلاحمة، ومتلاحقة، أن أي جماعة بشرية، مهما كان وضعها العددي، وموقعها الاجتماعي، وبيئتها، ومستواها الثقافي، لا بد أن تشعر شعوراً حياً يتعدى أي متحول زمني، يشار إليه بالحدث وتوقيت ظهوره، ناحية الرموز التي يتم تداولها منذ الصغر، وتكرارها أحياناً في مناسبات مختلفة، تكون دورية، لتعزيز العلاقات بها، وأبطال هم بمثابة العمود الفقري لذلك الجسد الجماعي الذي تنتمي إليه الجماعة في كليتها، بغض النظر عن أي انقسام داخلي أحياناً، بوصفها منصات لإعلاء شأن الهوية الخاصة بها، ومن ثم الدفع بها إلى الأمام، أكثر تماسكاً ورونقاً، وهي بمقام نفسي وثقافي يعززها في الوجود، وهذا ما يمكن البحث فيه من خلال حراك الأرشيف الذي تعمل على بنائه أو تخصيص مكان له، ليكون ليس مرجعاً لأهل البحث والنظر التاريخيين، وإنما عامل جذب واستقطاب، وخميرة فاعلة في تفعيل أثر زمان خاص بهذه الجماعة، ومكان لا يبلى أو يُخترق لها، وتسمية من هم قيّمون على هذا «اللوح الجماعي المحروس»، وداخل تأتي أسماء أبطال، وزعامات، أو قيادات، وصورها، ووقائعها، شاهد إثبات على وحدة مصير ودوام أثر.

ومما يستحق التنويه إليه، بالنسبة إلى هذا البطل الذي يلتقي فيه الزعيم بمفهومه التاريخي المقدّر، أو أن يكون الزعيم بطلاً، وهو متعدد الأبعاد، لا بد من تثبيت التالي، وهو أن (البطل يكون ذلك الإنسان الذي يضع نفسه في خدمة الحرية.

وهنا ينشأ مباشرة السؤال الملغز الذي يجب علينا الآن أن نطرحه على أنفسنا، ونحلّه في الوقت في كل زمان ومكان. ألا وهو الفعل التاريخي والإنجاز الخاص للبطل.⁽¹⁾

هذا البطل الذي يعوّل عليه من قبل الجماعة البشرية، ويكون له مقامه، ونطاق عمله، وحتى إشراقاته ومصدر إلهام لمن يعتبرونه بوصلة قيادة معينة لهم، وربما البطل في التاريخ البشري، حيث يُنظر إليه من خلال عظيم المآثر التي حملت بصمته، كان هو مدارها وإطارها، ليس بالأمر الهين، وهو في درجات، وحتى مفهوم عمري معين أحياناً، أي ما يفقد فاعلية حضوره في وضعية معينة، وكما يقال بأنه «يفقد رصيده/ يستهلكه» وينتهي زمن صلاحيته، وهي بطولية جانبية، أو جزئية، أو لها واقع شعاراتي وإيديولوجي، بطل في نطاق معلوم، ربما يكون رمز إجرام، ومبعث كراهية، وإثارة بغضاء، لجماعته تجاه الجماعات الأخرى، وهي أمم وشعوب، كما هو وضع كل الأنظمة التي تكون لها «ورشات» معدة لهذا الغرض، وهي تساوم على رموز كهذه، رموز، من حيث الدقة: قاتلة، منفرة، بما أنها حاملة أوصاف، تعمل على تجديد الأحقاد تجاه الآخرين وهم بأوصاف مركبة وليس كما هم في واقعهم، وهو الذي ما ينتهي نظام حكمه، أو من «يعرف» به، حتى ينحصر نطاق أثره، أو تطوى صفحته، لا بل ويجري ذمه، ما أن يستعاد اسمه، في واقع محسوس «بالنسبة لدولة بني عثمان، أو تركيا الحديثة التشكل»، من المستحيل بمكان النظر إلى الذي قرّر لهم أن يكونوا أبطالاً، ويهتدى بهم، وهم محل تقدير، وحتى تقديس على مستوى «الأمة» لدى أي شعب لاقى أهوالاً جرّاء ممارساتهم الكيدية والتصفية.

تُرى، ما الذي يمكن أن يشعر به المرء خارج هذه الدائرة المحروسة، بالنسبة لصولة قوله مريعة الأثر، معمّتها «طوبى لمن يقول أنا تركي»⁽²⁾ وهل العالم كله يأتي

(1) كامبل، جوزيف: البطل بألف وجه «البطل في الأساطير والأديان والحكايات الشعبية والتحليل النفسي والأدب»، ترجمة: حسن صقر، دار الكلمة، دمشق، ط1، 2003، ص28.

(2) في كتاب اسماعيل بيشيكجي: النظام في الأناضول الشرقية «الأسس الاجتماعية-الاقتصادية والبنى القومية»، ترجمة: شكور مصطفى، دار آراس، أربيل، ط1، 2000، ج2، ط2001، نقرأ حول ذلك، عن احتقار الأتراك في عهد الامبراطورية العثمانية، هناك أمثلة كثيرة ص215- ومن ذلك: المدينة بمثابة السجن للتركي- ليس التركي إلا حطّاباً- لا تقوم للتركي جمعية- أعطي التركي الإمارة، قتل أباه أولاً ص216... وكان كثير من الشباب الذين كانوا أتراكاً أصلاً يتباهون بالعروبية والأرناؤوطية والكرودية، ولم يكن فرد يتبنى الترك، أو يتباهى بشرف الانتماء إليهم أصلاً... وكان الشخص الذي يقال له أنت «تركي» يبدأ يتضايق ويشعر باستفزاز. ص217... وعلى خلفية الحرب الأولى، وبتأثير من أتاتورك، جرى تثمين المفردة لتجاوز المرحلة السابقة:

العثمانية. ص 218... إن الشعور بالتمايز تمتد جذوره إلى مراحل بشرية سحيقة تعبّر عن نفسها. ص 219... وجرى تالياً احتقار الكردي، من خلال الإحالة إلى أحمد آراس: تعبّر كلمة «كرمانج» عن معنى دال على طبقة أو فئة معينة تستند إلى علاقات الملكية. فلقد اتخذ ما آذارته زمرة من العنصريين والفاشيين من الاضطهاد المقيت في الأناضول الشرقية فيما مضى شكل حملات عدوانية للتعبير، وبخاصة من الناحية النفسية عن الاحتقار لسكانها، فاستخدمت مفهوم «كرمانج» الدال على العنصر الكردي بمعنى محقر وحاط من شأن الغير، خاطب كل من احتقر من دونه شأنًا بهذه الكلمة وسمّاه بهذا الاسم. ص 224... وحتى من قبل أهل المدن على أهل القرى: في كركوك، أربيل، في السليمانية، وتفسير ذلك من جهتين: الشعور الطبقي المتبلور لدى أهل المدن المتمثل في التجار والحرفيين الذين يشكلون شبه طبقة برجوازية أو برجوازية صغيرة... وكذا «الطورون» والميره كيون «الآغوات ذوو النسب الموثق» أصحاب الشجرات «والأصلاء» إنما يطلقون على عامة الشعب «الكرمانج» أيضاً. أما الشيوخ السادات «المدعين بانتهاء نسبهم إلى النبي محمد» «ص» بمن فيهم الشيوخ من غيرهم والشيوخ والآغوات غير الأصلاء إنما يُسمّون من هم خارج نطاق زمرهم «الكرمانج» أيضاً. كما أن زمرة من الاستغلايين من عناصر الدولة أيضاً، يطلقون على كل واحد عدا من تتركوا حسب اعتقادهم حتى «الكرمانج»، بل إنهم يضيفون باستمرار، لاحقة «و» كما يفعل أردوست نفسه، إلى نهاية الكلمة فيلفظونها «كورمانجو»: هل في تركية إقطاع؟ مجلة أنت العدد 139، ص 12... الكرودة: إعلان التفوق على الغير، وهي تهمة أعداء الكرد للكرد الذين يدعون إلى صون هويتهم والتشديد على تراثهم وفولكلورهم كالأخرين... ص 231...

ولعل هذا عائد إلى ألعيب سياسة العثمانيين في بعثرة النسب الكردي، بجعله نسباً فئوياً، أو عشائرياً إجمالاً، وليس كردياً، بمفهومه الجمعي الحديث.

وهو ما يرجع بنا إلى ما توقف عنده بشكجي في الجزء الأول من كتابه هذا: إن العشيرة شكل أسبق من فكرة الدولة بزمان طويل هنا هو الغالب، فإن عبارة «عشيرتنا» و«عشيرة فلان» إنما تعبّر عن الانتماء بصورة أفضل، وإن المواطن في حكامي على سبيل المثال، التي تمتاز بقوة التنظيم الاجتماعي والسياسي المتمثل في شكل العشيرة لا يقول: «إنه من تركية» أو «من جقورأوا» أو «من بيت الشباب» أو «من القرية الفلانية» أو غير ذلك، بل يقول: «إنه من عشيرة الأرتوشي» أو «من عشيرة بنيانيش» أو «من عشيرة مانبوران»، وكما يظهر أن التيار القومي الذي يزيل كل الفروق ويمارس وظيفة موحدة لم يتطور بعد، لأن التيارات القومية لا تكتسب المعنى والتكثف «إلا أن القرويين وأهل بيتي لم يوافقوا على اقترائنا»... ص 164.

وهذا ما نجده كذلك في كتابه الأهم والأشهر: كردستان مستعمرة دولية، ترجمة: زهير عبد الملك، APEC، السويد، 1998، ومن ذلك، هذه المقتطفات، جهة تعامل الحكومات التركية مع الكرد:

- فالكرد لم يقبلوا في أي مكان بصفتهم كرداً، فهم أتراك في تركيا، وإيرانيون في إيران، وعرب في سورية... وعلى ذلك، لم تستعمر كردستان، وإنما جرى تقسيم الأمة الكردية وكل ما يمت بصلة إلى الكرد وكردستان... ص 17.

في الدرجة الأدنى؟ ألا يكون هذا الشعار، وكل من له سهم معين، في التعبير الأول عنه، وفي إظهاره، وفي اعتماده، وفي الترويج له، وفي كيل المديح له، وفي وضع قصائد أو أشعار تعلي مقداره، ومن وضع نصوصاً ذات توجه عقائدي: إيديولوجي، تربوي يعبد طريقاً عريضاً وطويلاً، يصل ما بين العائلة والمؤسسة التي تشكلت أساساً على خلفية من الفكرة النظرية بداية، ومن يعمل على ترادده في المرئي والسموع، وعلى أعلى مستوى، حال تركيا وسياستها المتغذية بالعنف الإكراهي، ألا يكون شعاراً ضد الطبيعة، وضد ما هو بشري، لأن ليس من حجة علمية، تقول بأن التركي من نطفة دون غيرها كونياً؟

أن يكون البطل بطل جماعة تعيش أوهام شعار كهذا، أو مزاعم توصيفات استثنائية، وما يترتب عليها من مشاحنات والاستمرار في سفك الدماء، وبطل جماعة يسهم في تنقية الطبيعة، وتفعيل روابط إنسانية بين البشر، أي محاربة كل شعار كهذا، وما يماثله من شعارات أخرى، هي تعبير عن الإيديولوجيات الشمولية المهلكة. تُرى

من شعارات الكمالية: تحريم الكردي من كل ما يصله بلغته وأرضه وقوميته وثقافته. ص 57..
يستطيع الكرد في تركيا التمتع بالحرّيات العامة وبالمساواة شريطة إنكارهم لهويتهم القومية. ص 57.

- وثمة مرتدون عن كرديتهم: ثمة أشخاص من أبوين كرديين لكنهم تخلوا عن هويتهم القومية وعن كرديتهم ويشعرون بكونهم أتراكاً. ص 68.
والصحفيون والمنقطفون الأتراك مولعون بمشاهدة مناظر الأطفال الفقراء الحفاة من ذوي البطون المتورمة والرؤوس الحليقة والأنوف التي يسيل منها المخاط. فهم لا يكفون لحظة عن التقاط صور هؤلاء الأطفال. «والأفطع»: وتنتاري الصحف ويتنافس الصحفيون فيما بينهم على إعداد تحقيقات صحفية عن الفقر في كردستان. إنهم يتاجرون بمظاهر البؤس والفقر في كل زمان ومكان. ص 93.

وثمة الشيوخ الخادمون للدولة: كان يعيش في منطقة الجزيرة شخص يدعى شيخ صيدا، وكان الشيخ يوعظ أتباعه بشيء واحد دائماً: المهم أن يكون المرء مسلماً ويتصرف بطريقة أخوية، أما الإصرار على انتمائه لمجموعة قومية فهو مما يتعارض مع الإسلام. ص 143.
طبعاً، مما يؤسف له، أنه في الكثير من الحالات، نجد من يعتبر «أعداء» الكرد هم المسؤولون عن بث الروح القبلية في نفوس الكرد، وتعزيز الصلّات القبلية، وعلى أعلى مستوى أكاديمياً وسياسياً، ذلك صحيح، سوى أن المرء في الموضوع، هو الاعتراف بما لا يجب إنكاره، وهو أن ما نلاحظه في الممارسات السياسية التحزبية الكردية، وعلى مستوى عال، لا يكون لهؤلاء الأعداء من دور، ومسئولية، إنما الكرد أنفسهم. في إقليم كردستان العراق، ما الذي يلزم الكردي بأن يعرف بعشيرته أو قبيلته في هويته الذاتية، وفي اللوحات التي تحمل مثل هذه الألقاب؟

ما الذي يشد غاندي، البطل الهندي الذي يستحيل النظر فيه، وعلى مستوى عالمي، دون الشعور بالفخر الإنساني، بصفته بطلاً للحرية في عمومها، وأتاتورك «الاسم المركّب» والرهيب «أبو الأتراك»: بطرياركية غيبية، أو متعالية «ترانسندانالية»، الذي لا يجري تفعيل أثره، أو الشعور بعلاقة حرية قائمة، إلا من لدن أتباعه، ومن ينتمون إلى عالمه العقائدي، في رموز موازية، وثمة تاريخ طويل، يفصح عن أن البطولة هنا، لا يؤمن جانبها، أو يطمأن إليها .

في منحنيات علاقة شائكة كهذه، تتشكل خطوط هذا الكتاب، وهو كتاب يُسمّى الحرية لأي كان، وبها كان مبرر الاشتغال عليه، والتحرك في جهات مختلفة، سعياً إلى هذه الحرية وهي تتكلم بلغات متجاوزة ومتحابة معاً .

أستعيد السؤال العنوان والسالف ذكره: لماذا البطل، لماذا عليك بطي؟ أستعيده، لأعيده إلى مكانه، وقد ازداد معنى اجتماعياً وثقافياً، وقد اختلف دلالة، وقد أصبح أكثر حمولة معرفة تاريخية، جهة الإضاءات هنا، ليس من باب التكرار، وإنما لأذكر في السياق، ما انطلقت منه في كتابي المأتي على ذكره، أي الكتاب التوأم لهذا الكتاب، كما هو الاسم التوأم في الزعامة والمقام التاريخيين، مع اختلاف المسار والموقع والقوة والنفوذ: حاجو- عليك، رغم أن هناك ربما من لا يعلم أنهما ينتميان إلى الدارة النسبية عينها «ابنا عمومة»، حيث العنوان لا يفصح عن ذلك وهو مقصود، تجنباً لأي منصة دعائية، وللتمييز المطلوب بينهما: حاجو آغا هناك، وعليكي بطي هنا، وكان العنوان الفرعي الابتدائي الذي استهلكت به الكتاب: لماذا دولة حاجو آغا الكردية ؟ وهنا: كما ورد العنوان، مع فارق آخر في العنوان والاعتبار الدلالي، لكن الذي يفصح عنه كل عنوان فرعي مستهل به يحصر نطاق فعله المعرفي والثقافي، كما أنه يحدد ساحة نفوذه القيمية: دولة هناك، والبطل هنا . وربما يطرح أحدهم سؤالاً، أليس هناك الفرق كبير بين إسناد حاجو إلى الدولة، وما تعنيه الكلمة من حضور كيان سياسي ومؤسساتي، ومن ثم حدود معتبرة لهذا الكيان، وفي حال عليك بطي، كان إسناده إلى مفهوم «البطولة»؟ ربما يكون بطلاً في نطاق دولة، أو رقعة جغرافية معينة محكومة بقوة سلطوية مغايرة، وفي هذا يكمن تفاوت يؤخذ به؟ ذلك صحيح من ناحية التقابل تماماً، ولكن إمعان النظر في العنوانين، ومن خلال المثار طيهما، يلغي هذا التفاوت، لحظة مكاشفة تاريخ عليك بطي، وما كان عليه شأنًا واقتداراً، وأنه لعب الدور الكبير، والذي لا يُفعل عنه هنا، كما أنه لم يكن في وضعية الغفل من التسمية والترقية في كتاب «دولة حاجو آغا الكردية»، حيث إن حاجو لاحق على عليك جهة

الظهور بالدور الذي عُرف به، وليس سنة التولد، فبينهما عدة سنوات، والمسافة الفاصلة بينهما ليست فراغاً، إنما تفاعلات عائلية ووجدانية وتقديرية بالمقابل، ولهذا، كان أن راهنتُ على عنوان من هذا النمط المفتوح والعميق القاع «البطل» والذي يصلُّه أساساً بالزعيم، والزعيم لا يمكن أن يشار إليه إلا ضمن وضعية سيادية معينة، زعيم جماعة صغيرة أو كبيرة، وتصورٌ مقام رفيع، له حضور نفسي مؤكَّد، وهو لم يكن مطروحاً تزكية، إنما بناء على فعل منجَز، وهو درامي مقدَّر في وسطه.

وأجد في المدوّن هناك بداية- مع إضافة- ضرورة تعزيزية لهذا الوجه التاريخي الآخر: الزعيم:

(ليس من كردي ولديه وعي مبسّط بالكردية، إلا ويعرّف ولو بالاسم، من يكون حاجو آغا، وحين يتجه سؤال ما إلى ما هو تأريخي، ربما تسمّع معلومات ذات صلة، إما على مستوى المدونات التاريخية، ففي ذلك يتطلب حضور المهتم، أما حين يؤتى على ذكر عبارة كهذه، وهي عنوان للكتاب أصلاً «دولة حاجو آغا الكردية»، فإن الذي يمكن أن يعقُب القول، هو أكثر من قول، أو تعليق أو حتى سؤال في الحال: أو كان لحاجو آغا دولة ودولة كردية؟ أين، وكيف؟

لحاجو آغا كشخصية تاريخية وفولكلورية أيضاً مقام في التاريخ السياسي والشعبي، وما أكبر الفرق بينهما للوهلة الأولى، إذ إن الأول يُتطرّق إليه من خلال مسمّيات مكانية، وبألسنة أشخاص عاصروه أو ما زالوا أحياء، أو من خلال خلف لهم، واعتماداً على كتابات أو وثائق وهي تعرضه في صور شتى على مستوى الوعي التاريخي، والممارسة السياسية، وما يكون عليه قُرباً من خاصية الكردية أو بُعداً عنها بالمقابل، ليصبح ذلك كلامَ الكتب. لسان تاريخ ما، ويكون مدعاة لتفاسير وتحاليل ومناقشات، وبالتالي لانقسامات، وتجاذبات بين: موالين وأنصار ومعارضين وحتى مخاصمين لهذه الفكرة أو تلك والدائرة عنه.

لكن كلام الشعبي غير الأول، فثمة الصوت الناطق على طريقته وهو المغنّي: الملحون من ناحية، وهو المتداول على ألسنة الناس مما كانوا على قرب منه، أو لهم صلة به، وبأفراد عائلته من ناحية أخرى، فتتشكل لدينا هنا ملازم أقوال مختلفة وتباينات.⁽¹⁾

(1) محمود، إبراهيم: دولة حاجو آغا الكردية «دراسة في تاريخ سياسي: وشخصي» دار الزمان، دون تحديد المكان، ط1، 2018، ص 35.

حديث عن الاسم، يمكن له أن يأخذ مكانه نفسه هنا، ولكنه لن يكون بذات المردود الدلالي، لاختلاف العنوانين، وما يردُّ طيّ كل عنوان، وحيث إن كل شخصية تطرح نفسها في مرجعيات كتابية وشفاهية بصورة مختلفة، والأهم من ذلك، هو أن لخصوصيات الزمان والمكان، ذلك الاعتبار الذي يستحيل تجاهل دوره في رسم المحتوى الثقافي هنا وهناك.

ولكي أكون «أو هكذا أتصورني» أكثر حرصاً على حساباتي التاريخية والثقافية وحتى النقدية، في تحرّي معالم كل شخصية متعددة حدود الاسم العادي، وتلك التفاعلات المتداخلة بين هذه المعالم، وأكون أكثر يقظة، لمحتوى كل عبارة جديدة تضاف إلى سابقتها، ومن أين يؤتى بها، ومدى مصداقيتها، سوى من ناحيتي، جرّاء عملية تفسير أو تأويل، أو مساءلة، أو تعليق، أو نقد مباشر كذلك، وأكون أكثر دراية مع تعقيدات كل اسم وهو متجذر في نفوس ورؤوس كثيرة: أهلاً وأصدقاء ومعارف وغرباء، أو منائين وموالين، أصحاب معرفة معينة، واثماتان نفسية جديدة بالاعتبار، وهم يدلون بدلوههم، أو يفصحون عن وجهة نظرهم في هذا الجانب أو ذاك، على صعيد المتابعة لسردية كل منهما، لكي أراعي كل هذه الاعتبارات: الحسابات المحسوسة، ومكاشفاتها الفكرية، وتلك التحركات التي تشاهد في اتجاهين يأخذان تنوع الزوايا بعين الاعتبار، وأكون على دراية معلومة بكل خطوة أخطوها، كما يتطلب العمل البحثي التوثيقي، ومن ثم التأريخي، والحكائي والضارب جذوره في الذاكرة الشعبية، متداخلاً مع أسماء أخرى، كما سيُعلم عنه تالياً، فإن الذي أشدّد عليه، هو أنني سأأذار نوعاً من الرياضة متعددة المقامات، في مسافات تتجاوب ونوعية الفكرة المطروحة: ماراتونياً، أو ضمن مسافات قصيرة، عند الزوم، والوقفات المطلوبة، وحتى سبّر ما يطرح من تصورات، والتبحر في ذلك، بما يتناسب والمشكل أو الالتباس القائم، وما أكثرها من التباسات، ما أكبرها من كرة ثلج في رقعة جغرافية تزيد في ضخامة الكرة مع كل «دحرجة» صورة أو فكرة، أو اعتماد وثيقة معينة، أو رأي معين، أو بيان معين ومصدره، حيث يكون حساب من يمكن أن يكونوا مرافقي كتابة كل جملة، ومشاهدي حركة تُسمى من جهة المعنى به: عليكي بطي، واستدعاء ما أثير من نقاط مختلفة في الكتاب الموسوم آنفاً، ومن ثم طرحه في نسيج معرّف وتقويمي، كما يتطلبه موقع «الزعيم» هنا، أو كما يبحث الزعيم الذي يتشكل في الزمان والمكان عن موقع له، وهذا غير مستقر.

يتطلب القيام بهذا الحراك الثقافى والبحثي الطابع المزيـد من التفتيـبات في العلاقات القائمة بين هذا وذاك، ولزوم التركيز على متغيـرات الزمان والمكان، إذ إن عليكي بطي الذي تتحصـر دائـرة نشاطاته في رقعة جغرافية «عثمانية» ثم «تركية» وقبل أن تصبـح تركيا هذه «تركيا الرسمية» بعد نهايته المساوية سنة 1919، يكون المرجع الأكبر، هو ما أثير عنه في النطاق الجغرافي السالف ذكره، وحساسية البحث ووعورة مسالكه، ناحية ما سطره أعداؤه في دولة ناصبته العداء كثيرة، وألّبت عليه الكثيرين، أو حرّضتهم عليه، سلاحاً من بين أفتك الأسلحة في التفريق بين أفراد العائلة الواحدة، أو الدين الواحد، أو العشيرة الواحدة، وتالياً: القومية الواحدة، ومن يكون هؤلاء الذين كانوا يُكَلِّفون بكتابة ذلك، وخاصة نظرتهم الاستراتيجية إلى المستقبل، عندما يُرْفَع الستار عن المحجَّب عنه، أو تحرّر ساحة أرشيفه بصور معينة، والقليل من خاصيات هذه السيرة الشخصية تسرّبت إلى الخارج «في الأرشيف الانكليزي- الفرنسي»، وضمن مسارات محدودة، لتبقى الذاكرة الأهلية، هي المصدر الأثمن في هذا النطاق، وهي نفسها ليست واحدة، جهة أن تكون منتمية إلى لغة أخرى: عثمانية- تركية، ممن شكّلوا شهود عيان المرحلة التي برز فيها عليكي بطي، وإنما مجدداً، من زوايا اعتبارية معينة، غالباً لا تتجاوز تلك الذهنية العقائدية أو الثنكائية التي أخضعوا لها، وأجيزَ لهم لأن يتنفسوا، وأن يجدوا كل شيء من خلالها، وهي لا بد أن تتعرض للمحو أو التفتك، أو التلاشي مع الزمن، جرّاء عدم الاستعمال، أو الانتقال بسياقات شتى إلى آخرين، ربما لا يكونون أمناء عليها، أو يطعمونها بما لديهم من انطباعات وتصورات تخدم تطلعاتهم، وحتى هواجسهم ومخاوفهم، وما يريدون التعبير عنه لاشعورياً، وميكانيزم تعرض كل معلومة إلى مؤثرات جانبية وميلان إثرها ..

بينما الجانب المقابل، ففيه ما فيه من تمايزات وحتى تباينات كذلك، أي الانقسام الأهلي، إن جاز التوصيف، وهو بعائده المخيف والصادم وغير المستقر، ذلك جرّاء حالة اللااستقرار في ميزان القوى الموجودة على الأرض، ومتغيـراتها القيمة طبعاً، حتى بالنسبة للعائلة ذاتها تلك التي ينتمي إليها عليكي بطي، يبقى للاختلاف لونه وشكله وحجمه، فكيف بالقبيلة وحدودها، والذين يسمعون باسمه ويتعقبون تحركاته، لأغراض أمنية، باسمهم، أو بتكليف معين، لصالح جهات أبعد، وهي مساحة جغرافية تشهد لنا تنوع هائل في تضاريسها النفسية، ومنحدراتها الاجتماعية، وحتى منزلقاتها في المد والصد، وهي حدود مفتوحة ضمن جزر وأرخبيلات ومناطق غابية

يصعب التوغل فيها، لاكتشاف تلك اللقطات التي تشكّل وجهاً أكمل له، أو ما يجري ترميمه في وجه الرجل أو سيرته، أو صدى اسمه المتردد بإيقاعات متفاوتة، جهة المشغولين بنشاطه، وهو ما وصلنا حتى الآن بشكل متواتر، يستحيل الأخذ به، كما لو أنها صورة طبق الأصل عما عاينه أول مشاهد، أو أول راوية، وانتقل بالتواتر، عبر أشخاص هم ثقة، حيث لا يطعن في مصداقيتهم، وفي وضع شديد الحساسية كهذا الشاغل لنا .

وحيث إن الذاكرة (ليست مجرد آلة تسجيل، وإنما تعمل بشكل مستمر على إعادة تشكيل الماضي. إنها تخترع أكثر مما تستعيد. إنها ديناميكية وتتغذى من خيالنا ومن شخصيتنا ومن أهوائنا ومن جراحتنا...و: صحيح أن الناس، عندما يشيخون، يميلون إلى تجميد بعض الذكريات على شكل حكايات راسخة يحفظونها عن ظهر قلب ويستعيدونها كلمة كلمة، وفي هذه الحالة يغدو الناس روائيين إلى حد ما⁽¹⁾).

ذلك هو الدرس الأكثر دراماتيكية، والذي يعلّمنا ما لم نعلم، وهو أن وراء الذاكرة، ذاكرة حيّة، وليست بالمطلق، ما وراءها، وأن أخذ هذا الجانب الخطير في الحسبان، نبقى مسافة مكاشفة واستشراف لما يشغلنا، تضمن بلورة فكرة أفضل، وهي العملية التي تؤكد مركزيتها هنا، نظير الشخصية المحورية، ورماماتها التي تتوزع في أمداء واسعة شاسعة !

أي ما يجعلنا نشدد على سياسات الذاكرة، مهما كان حاملها بسيطاً، طالما أن الذي يتكلم، ويأتي، ولو بتفوهه حرفاً، ينقل معلومة معينة، يتلقفها سواها، ويدونها في سجله أو كتاب له، وربما يصبح موضوع بحث آخر وآخر وهكذا .

ومن المؤكد أن الجهود التي تتطلبها عملية الوصل والفصل بين الحالتين ليست بالأمر اليسير، لاختلاف مكوناتهما، كما أسلفت، وبصورة خاصة، في الظروف التي تعان من خلال وقائع حية انتقلت إلينا من مصادر تاريخية وغيرها .

إن أرض مزيزخ أو زاخران، أو عموم مدياد، وهي بمؤثراتها التاريخية والاجتماعية، ومواقع الناس فيها، وهم بقواهم الحية، وحتى وهم يحملون ذاكرات أجدادهم، والعلامات الفارقة لجغرافية المكان، وهي الرقعة الجغرافية التي شهدت ولادة عليكي بطي، نشأته، ترعرعه ونهايته المأسوية، وإنما ما ترتب عليها من مباشرة تاريخ بطولي طبعاً، نهاية أضاعت البداية بالذات، وغيّرت في بنية كل لحظة زمنية

(1) غرينيه، روجيه: قصر الكتب، ترجمة: زياد خاشوق، دار المدى، بغداد، ط1، 2018، ص86.

تنفسها على مر السنين، وكل قول تفوه به، أو عمل قام به كذلك، ومن هم الذين احتك بهم، سواء إن كانوا معروفين، أو من عامة الناس، أو مجهولين، حيث كل ذلك يكتسب تلويناً من نوع آخر، كما هو الممكن استشراف أفقه المستقبل إلى الآن وفيما بعد، ليست هي الأرض التي قدم إليها حاجو آغا، في محيط تربه سبي «القبور البيض»، والقرى المتناثرة في محيطها، وتحركاته في جهات ثلاث، حيث الجهة الرابعة «تركيا» أغلقت في وجهه، أو كانت خطراً عليه، الأرض الجديدة عليه، بمناخها النسبي، والذين تواجدوا فيها، وما عاشته من مستجدات، وهناك تابع مسيرة حياته، هنا تحرك في دائرة جغرافية أوسع، وتمازجت لغته مع لغات أخرى، وكان للفرنسيين حضور مؤثر فيها، ومن ثم لتكون خاتمة حياته المساوية، جهة حقيقة وفاته ما إذا كانت طبيعية حقاً أم، وهو يوارى الثرى في «دو كرى Du girê».

حاجو عبر الورق «بنختياً» ولو بلغات مختلفة أكثر، من عليكي بطي وهو عبر الألسن هنا وهناك «سرختياً»، رواية من نمط خاص، مُجازة بعلامات فارقة، في المأثور الأمني سلطوياً: رواية تركية رسمية بامتياز «رواية الشقي العاصي» أو تارة غناء كذلك، حيث الصوت من ناحية التأثير يمنح المستمع الكثير من المتعة وإثارة المشاعر، لينكشف نوع الصوت المسموع عادياً أو صحبة آلة موسيقية، ومن يكون المتكلم هنا، وطبيعة رنة صوته، وفي الحالات كافة، يكون في مقدور المهتم بصلات القول الملفوظ بالصوت أن يتعرف إلى جوانب فاعلة في حياة عليكي بطي، وموقع المتكلم من كل ذلك، وهو منحى آخر من مناحي حفظ التاريخ والذي لا يستقر في صدر واحد، إنما يكون متنقلاً، وهو ذو باع طويل فيما يعرف به من مآثرة تاريخية، تخص الشفاهة تسبق أي تاريخ مدون، سواء بعمره الحي، أو بما تمكّن من نقله إلينا، وما أثاره هو نفسه «أي الصوت» في بنية الكتابة بالذات، حيث النبذة وطبقات الصوت، أو نوعية الأداء، وخصوصية المكان، أو المجلس عناصر فاعلة في تحميل النسيج الحي لهذا الاسم سماكة، ورونقاً، واعتباراً تاريخياً واجتماعياً، وقيمة رمزية يتم استنطاقها بوسائل مبتدعة بالمقابل.

وفي حقيقة مركبة كهذه، تأخذ الرواية الشفاهية مداها، مترافقة مع النص المكتوب، وهو متعدد اللغات هنا وهناك.

ولعل استعادة البداية المتعلقة بالحاضنة الاجتماعية: القبلية، كما هو مأثور ذلك الزمان، لهفيريكان، ليس بالمفهوم الحرفي، وإنما تبعاً للحالة القائمة هنا، وإضاءة لعالمها، وفي ضوء المستجد من القراءات والمعارف كذلك، تكون أكثر قدرة في تمتين الروابط، ومن ثم تعميق الأثر التاريخي لكل منهما، وحتى بالنسبة لإرادة الكتابة والقراءة معاً.

ملحق

ربما يتساءل البعض، أو أكثر من البعض، ما جدوى نشر مثل هذا المقال، والمترجم عن الكردية، هنا، في هذا المقام ؟

سؤال يجد طريقه إلى واعية القارئ، سوى أن تدقيقاً في المحتوى، وما تردد سابقاً، وما سيثار لاحقاً، عبارة عن صراعات على المواقع، على الخرائط ومرجعياتها الجغرافية وتصاميمها، ومن هم الذي قاموا بذلك.

أكثر من ذلك، إن في بنية هذا المقال الذي ترجمته عن الكردية، وهو للباحث الكردي عارف زيرفان، والمقيم في السويد منذ عقود من الزمن، ما يعبر عن عمق التاريخ، وعمق المكافحة التاريخية للباحث، بعيداً عن أي لغة إنشائية، فلا يكون هناك، لا كرمانجو، ولا كردو، وغير ذلك من النعوت الباعثة على الاستخفاف، إنما الكرد- الكردي، كما هو الفاعل الرئيس في مجمل الدراسات التي تركّز عليهم- عليه، ونفيه مما هو تاريخي، حيث تكون اللصوصية- الشقاوة قادمة من الخارج، وهي تلبس الكردي بالإكراه من موقع القوة.

Arif,Zêrevan: Kartûşa dîrokî: «Curdistan – Diarbeck» (1682), Nefel.Com

زيرفان، عارف: زخرفة تاريخية «كردستان- دياربكر» 1682

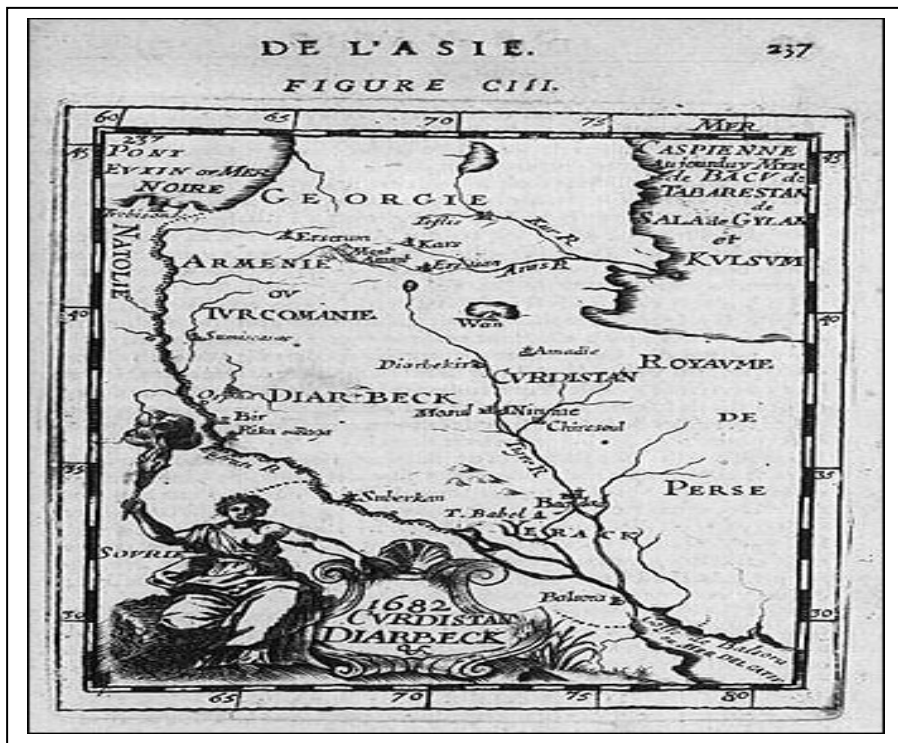
السويد (11-3/ 2012)، خريطة. من أجل الشعوب المضطّهدة، مثل الكرد، مثل وثيقة وطن أو قومية أيضاً. في الأسفل، هناك إحدى خرائط كردستان التي نشرت قبل 330 سنة، وذلك سنة 1683، يجري التعريف بها،، وسنة النشر هذه حيث يجري التعريف، سنة شهيرة، إذ إن القوات العثمانية زحفت صوب أبواب مدينة فيينا، وهذا الحدث داخل التاريخ، حيث يُعرّف بأنه «الحصار الثاني حول فيينا» 1683.

وكما يُعرّف في زماننا، في أيامنا هذه، حيث إن الذي يعيشه الشعب الكرد، عبر أسماء الخرائط، والعواصم، والحدود، والأعلام، عبارة عن محن ثقيلة عليه. إن كلمات كردستان، الخرائط، الحدود، العواصم والأعلام، قد جرى حظرها على الكرد منذ سنين طوال. نعم، سوى أن هذه الخريطة الفرنسية، حيث إننا نعرّف بها حالياً، وإن كانت مرسومة على ورق كذلك، فإنها وطن له عاصمته، حدوده، وعلمه، مثل وثيقة أصلية، قدّمت إلى التاريخ الكردي. إنما لأن القوى التي أخضعت كردستان تحت تأثيرها على مدى مئات السنين، لازالت تتكرر لها، ولا ترتاح أبداً. لخريطة كهذه، وهي بإحداثيات، بصور، وزخرفة.

إن رسام الخريطة، والمهندس الفرنسي «آلان مانيسون مألّيت» 1706-1630» أحد أولئك الأشخاص ممن اهتموا بجغرافية العالم وتاريخه¹». إن كتابه ذاك، أو دراسته التي تتألف من خمسة مجلدات، بداية، نُشرت باللغة الفرنسية سنة 1683، وتالياً باللغة الألمانية 1719²»، وفي الطبعة الألمانية، وفي الصفحة التي نُشرت فيها خريطة كردستان وديار بكر، وردت فيها في أعلى الصفحة بالعنوان التالي «بلاد كردستان وديار بكر»، وأسفل الصفحة، ضمن الخريطة، بدلاً من سنة 1682، كتب تاريخ 1684 خطأً. وفي الطبعة الأصلية الفرنسية، السنة هذه 1682. ويقدم مانيسون مألّيت في كتابه، ما يتعلق بكل من كردستان وديار بكر معلومات موجزة أيضاً يتضح إذًا، عن أن آلان مانيسون مألّيت استقى معلوماته من رحلات الفرنسي جان بابتيست تافيرنيه «1605-1689» والذي سافر إلى كردستان سنة 1655.

يتضمن هذا العمل التاريخي لـ آلان مانيسون مألّيت بعض الخرائط أيضاً. لقد تم نشر العديد منها «مع الرسوم المتحركة». إحدى هذه الخرائط تلفت انتباهنا كثيراً. وآلان مانيسون مألّيت بدوره أعطاها اسماً: «كردستان- ديار بكر 1682 Kurdistan-Diarbeck». كما في شكلها الحالي، كردستان - ديار بكر. يظهر الباحث آلان مانيسون مألّيت في هذه الخريطة كردستان وديار بكر على أنهما اثنان معاً ومعرفة تلك السنوات وقد رسم حدودهما كذلك. في هذه الخريطة يتركز الانتباه على الاهتمام على كردستان وديار بكر والنظر فيهما. وقد برزت مساحة الأرض في هذه الخريطة، وهي تمتد من البحر الأسود إلى الخليج الفارسي. في وسط هذه الأرض الشاسعة، تقع كردستان وديار بكر بأحرف كبيرة. وبما أن حدود دول المنطقة غير مرسومة في الخريطة كما يجب، يمكن القول أن هناك اختلافاً نسبياً ما بين حجم الأسماء التي تظهرها الخريطة ومساحة الأرض معاً.

يمكن اعتبار الخرائط أيضاً أنواعاً من الصور الأخرى، مثل المشاهد والصور الشخصية والصور الحضرية. لهذا السبب، فقد تم عمل الخرائط القديمة بعناية واهتمام كبيرين. وقد طُرح العديد منها في المعارض كمنتجات وعناصر عرض. في هذه المقالة، لا أريد أن أتطرق إلى هذه الخريطة، إنما أريد التركيز على زخرفة الخريطة *kartûşa nexşeyê* التي تقع أسفل الخريطة، على الجانب الأيسر كزينة مزخرفة *xemleke ornamentûk*. تشرح/ تفسّر الزخرفة محتوى الخرائط بفن واضح. بفضل الزخرفة، يتقارب رسم الخريطة والفن كثيراً.



خريطة باسم «کردستان وديار بكر» رسمها آلان مانيسون ماليت في عام 1682

كلمة cartouche كلمة قديمة جداً، تُستخدم في اللغات الأوروبية منذ قرون (...cartouch, cartouche). إنها زخرفة تزيينية تم استخدامها بشكل متزايد في العصور القديمة كإطارات صور وحول الأمراء والملوك، تم تزيينها. تم استخدامها لاحقاً في الخرائط القديمة كإشارات ورموز فيها. في هذه الزخرفات، يتم وضع أسماء الخرائط بمساعدة زخارف مختلفة بشكل فني بحيث تلفت الخريطة انتباه المشاهدين أكثر. يمكن أيضاً اعتبار الزخرفات هويات فنية للخرائط. غالباً ما استخدمت الزخرفة كسلاح وقوة دعائية في العصور القديمة. حيث إن كل دولة وقوة ومؤسسة، من خلال الزخرفات، تريد التعبير عن وجودها بطريقة فنية أو التعريف بها. باختصار، في الوسع القول أن الزخرفات يمكن اعتبارها أعمالاً فنية، مجموعة من الخرائط.

إن إنشاء خريطة كردستان وديار بكر هذه مثيرة للاهتمام. ماذا تريد أن تقول زخرفة خريطة كردستان ؟ ما هو التأثير الذي يظهره تأثير مشاعر الشخص الذي رسم هذه الخريطة ورغباته، من خلال رسم هذه الخريطة والزخرفة ؟ الخريطة ؟ أم أنها مجرد مصادفة ؟

في الزخرفة كما يُلاحظ، هناك جانبان، يلتفتان النظر. الأول يتمثل في المرأة الأمازونية، والثاني يتمثل في الإرادة التي تظهر كردستان وديار³».

يوجد هنا أيضاً الرقم 1682. لقد أراد آلان مانيسون ماليت، عن طريق الزخرفة، القول على أن خريطة كردستان وديار بكر صمّمت في عام 1682. فتظهر هذه الخريطة، التي وضعت منذ قرون، من ناحيتها وكذلك من ناحية زخرفتها، أشياء كثيرة لنا كمشاهدين وقرّاء. لقد شهدت كردستان وديار بكر تقاربهما في السنوات الأخيرة، أو جمعهما الكاتب وربط ما بين مصيرهما المشترك.

يحتوي الجزء الأول من هذه الزخرفة وثيقة وداخلها نقش مكتوب «كردستان - ديار بكر 1682». تظهر هذه الوثيقة الزخرفية، التي كُتبت فيها كردستان وديار بكر، على شكل زهرة أو باقة أو إناء. هناك كردستان وديار بكر وهما موجودتان وسط الزخرفة. وفقاً لأولاً أهرنسفارد Ulla Ehrensvärd، يمكن اعتبار هذا القسم أيضاً «زخرفة اسم الخريطة» «وزخرفة العنوان» (بطاقة العنوان)⁴». جميع الزوايا الأربع من هذا المستند أو هذا المستند مطوية بقالب مثل الملفات **makaran**. وقد استخدم هذا النمط على نطاق واسع في فن الديكور لعدة قرون. وفي منتصف كل من المنافذ المذكورة أعلاه توجد زخرفة تشبه الزهرة، مثل الحلزونات **salyangozan**. يوجد على الجانب الأيمن نحو الأسفل من أرجل الزخرفة أعلى وأسفل يميناً. نرى هنا أن جسم الزخرفة في هذا الارتفاع، وعلى اليمين يوجد أيضاً بعض الفروع المتشعبة. ليتضح في الحال أن هذه هي الجغرافية هي جغرافية كردستان وديار بكر، وهي تمثل هذه المناطق.

هناك امرأة في الجزء الثاني من الزخرفة. كما نرى في زخرفة الخريطة، انتقلت هذه المرأة المتعثرة إلى تكوين الخريطة ورسمت الزخرفة. جلب المؤلف أو رسام الخريطة أيضاً عاملاً بشرياً لمحتوى الزخرفة. هذه السيدة بيدها اليسرى، مع كف يدها وقد أطبقت على جوهرة كردستان - ديار بكر، مثل طفلها، حتى لا يشكّل الحادث كارثة، لن تضيع! أسندت جانبها هذا الجانب إلى كردستان. ومن المثير للاهتمام، كما نرى، أن هذه السيدة فتحت صدرها ووثبها الأيسر. امرأة مكشوفة في نصف صدرها. حيث إنه من جهة توأم الشدين، الشدي الواقع جهة اليمين (في الخريطة على اليسار) غير مرئي، سوى أن الشدي جهة اليسار مرئي. يمكن رؤية العناصر الزخرفية في هذه الخريطة التاريخية التي تظهر الجانب الأيسر من هذه السيدة لكردستان وديار بكر! إن مثل هذه العلاقات الوثيقة والطيبة والعطوف تدهشنا حقاً. بادئ ذي بدء، تبدو امرأة بكامل قوامها، مهيوبة ومرهوبة الجانب كامرأة تكافح.

لديها شعلة في يدها اليمنى أيضاً. في الزخرفة، ترفع هذه الأمازونية شعلة بيدها اليمنى بحماس كبير وترفعها إلى السماء، مثل العلم «الراية»، تشع ناراها بألسنتها. وبحسب أولا إهرنسفارد، فإن هذه المرأة رفعت الشعلة قبل 330 عاماً وأردت أن تقول: «انظر، هناك بلد يسمى كردستان وديار بكر على الجانب الآخر من النهر»⁵. إذا قارنا اسم عمل المؤلف «وصف العالم واسم هذه الخريطة، فإن الغرض من إعداد هذه الخريطة يضيء رويداً رويداً.

تُعرف الأمازونية في الأساطير اليونانية الكلاسيكية باسم النساء المحاربات والمقاتلات. ولا يظهر ثدياها غالباً في الصور بصورة صحيحة، ولكن الصورة الموجودة على اليسار ستبدو هنا. وقد استندت يده الأخرى، يدها اليسرى، إلى الشكل الزخرفي الذي ذكرناه أعلاه. هذه السيدة، كما ترون هنا، أصبحت حاكم هذا البلد المسمى كردستان ديار بكر. دخلت هذه الخريطة، مثل الفرنسية جان دارك هنا، قلب امرأة تكافح وتعمل كصديقة كردية. باختصار، كما نرى، فإن اليد اليسرى واليمنى لهذه السيدة المناضلة تحقق بعض المهام «الواجبات» والمهام المختلفة التي تستحق العناء حقاً. إن وجود هذه المرأة ووضعها في هذه الخريطة، مثل الأمازونية، من ناحية أخرى، يرمز إلى قوة المرأة وشرفها وكرامتها ووجودها القوي.



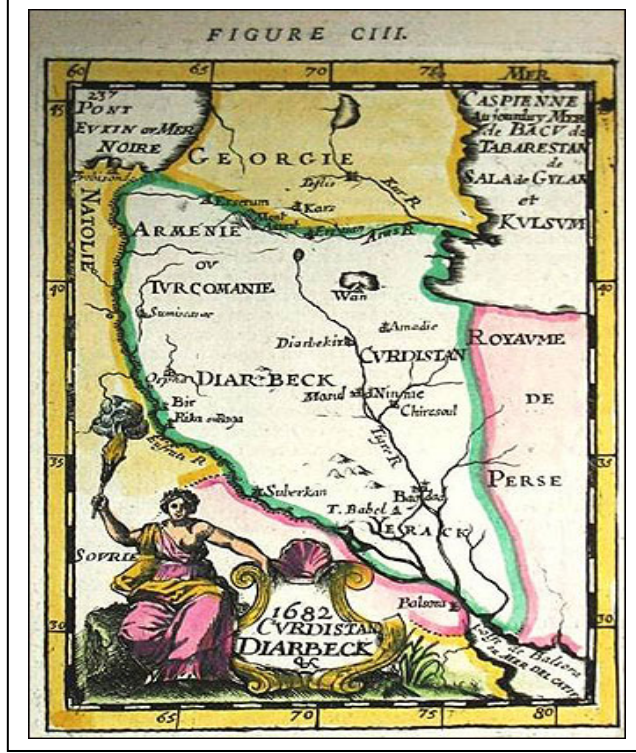
زخرفة الخريطة، عرّض عن قرب

هناك أيضاً بعض الإصدارات من هذه الخريطة الملونة التي تم رسمها وتوزيعها لاحقاً. فمن غير المعروف في هذا الوقت ما سيفعله بعد تركه للمنصب. فوفقاً لدراسة الخريطة أولاً أهرنسفارد، وضعت معلومات ومعارف رسامي الخريطة في القرن الثامن عشر وأرادوا بيعها عند الباب «6». ليس فقط محتوى هذه الخريطة والزخرفة لها فحسب، وإنما أيضاً ألوان هذه الخريطة والزخرفة في هذه النسخ تلفت أنظارنا. عندما ينظر المرء إلى الخريطة بأكملها، يرى أن الألوان الأخضر والأحمر والأصفر هي الألوان السائدة، والألوان التي اختارها الكرد كألوان أساسية لعلمهم الوطني. نُشرت هذه الخريطة بالأبيض والأسود في الكتاب الأصلي. لقد رأيت النسخة الألمانية في المكتبة الملكية (Kungliga Biblioteket) والتي تعتبر مكتبة السويد الوطنية، حيث تم نشر هذه الخريطة بالأبيض والأسود كذلك. ويبدو أن النسخ التالية لهذه الخريطة أو المنشورات الأخرى التي لا نعرف أنها قد تم إعدادها وتوزيعها بطريقة ملونة. سواء كانت أصلية أو قابلة للتكرار، أياً كان الفن، فقد تم رسمها بعناية بحيث تكون قلوب الوطنيين والوطنيين الكرد مبهجة للغاية.

هنا أود أن ألفت نظر القراء إلى نقطة. كما قلنا أعلاه، توجد امرأة على زخرفة الخريطة مثل الأمازونة التي أظهرت ثديها الأيسر بوضوح. ولكن في النسخة التي وجدناها على الإنترنت، نجد هذا الثدي من هذه الأمازونة مخفياً أو أن بعض الناس قد لفوا عن قصد هذا الجزء من الجسم. وكما هو معروف، فإنه بعد ظهور الإنترنت، أصبحت أسواق الإنترنت تحظى بشعبية متزايدة. وكان هناك بالمقابل سوق كبير للتحف والأثرية. وأعتقد أن الشركات الكبيرة التي تبيع القطع الأثرية من أجل العثور على عملاء مسلمين جدد كمثال على هذه الخريطة، أخفت عمداً صدر هذه السيدة لاحقاً. وعندما ألقيت نظرة سريعة على هذه التحفة الأثرية لدى باعته، رأيت أن خريطة كردستان هذه، على سبيل المثال، كانت بسعر 190 دولاراً وتم بيعها في موقع آخر مقابل 45 يورو»7.

ويذكر آلان مانيسون ماليت أيضاً كردستان وديار بكر في فقرتين في كتابه. هنا لا تعرف ديار بكر بأنها مدينة، بل أكثر من ذلك، كهدية. كردستان وديار بكر هما كلمتان معروفتان تستخدمان في كثير من الأحيان بالتبادل في اللغة الكردية الحديثة. تعتبر ديار بكر قلب كردستان بين الكرد. كيف يعرف الوطنيون الكرد اليوم أن ينظروا إلى ديار بكر أو يعتبرونها عاصمتهم غير الرسمية. وقد تم تصميم تركيبة هذه الزخرفة بطريقة منهجية بحيث يعلم المرء أن حاملة الشعلة هذه تجلس على أريكة، ويسارها،

برزت كردستان وديار بكر وهما تتشأن لنفسيهما عرشهما ومستقبلهما، وتظهرهما للعالم. أولئك الذين ينظرون عن كُتب إلى تكوين هذه الزخرفة، ينسون فجأة الزمن السابق على 330 عاماً، إذ يجدون أنفسهم في الوقت الحاضر. كردستان مرة أخرى، ديار بكر مرة أخرى. على الفور، أحد خطوط الأغنية، الذي يتحدث عن كردستان وديار بكر، ممن يراهنون على لغة القراء ولسانهم وعشاق هذه الخريطة: «ديار بكر هي ملاذي»...



إصدار الخريطة التي لُوئت باليد لاحقاً

لقد رفعت هذه الزخرفة حقاً اسم كردستان وديار بكر. وقد وهبت مكاناً عظيماً وشرفاً للوطن الكردي. وأظهرت هذه الخريطة وهذا الباحث الذي يدعى آلان مانيسون ماليت، الذي رسم هذه الخريطة منذ قرون، هنا بشكل رمزي، تعاوناً كبيراً ودعماً للكرد على الورق. إن هذه الزخرفة الرائعة، هذه الخريطة التاريخية مزينة بشكل جيد والخريطة ملونة أكثر. هذه الخريطة (بالطبع مع زخرفتها) قد تجاوزت نطاق الخريطة، وأصبحت الآن عملاً فنياً، حيث يمكن النظر في الجدول. ويرى الباحث السويدي البروفيسور أولا أهرنسفارد، المتخصص في الخرائط، أن الزخرفة

هي فن»8». وربما تكون خريطة كردستان هذه أول خريطة في التاريخ يتم إعدادها وتوزيعها مع خريطتها الخاصة. وكما ترون، فإنه من المستحيل إخفاء إعجابنا واندهاشنا بهذه اللوحة الجميلة. ولا يزال الناس مذهولين. ففي تاريخ العلاقات الثقافية والتاريخية الكردية الفرنسية، أعتقد أن هذه الخريطة، وحتى خريطتها، ذات مغزى وذات معنى. ومن المؤسف أن تاريخ هذه العلاقات الكردية الفرنسية المتعددة الأوجه، المثيرة للاهتمام والخفية لم تتم دراستها أو كتابتها بعد. وتشكل هذه القرابة والصدافة الخرائطية واحدة من صفحات تاريخ هذه العلاقات الخفية والغموض التي بقي لقرون في الزوايا المظلمة.

1- آلان مانيسون- ماللي: وصف العالم، باريس، 1683، المجلد 1-5، المعلومات المتعلقة بكردستان وديار بكر في المجلد الثاني، في الصفحة 236، والخريطة بدورها منشورة في الصفحة 237.

2- آلان مانيسون- ماللي: وصف خريطة العالم كاملة، فرانكفورت، 1719، المجلد 1-5، وخريطة كردستان وديار بكر في المجلد الثاني، ما بين الصفحتين 228-229، منشورة كصفحة غير مرقمة، أو لا وجود للرقم الدال على الصفحة التي وضعت فيها الخريطة.

3- تستخدم النقوش الصغيرة أيضاً كزخرفة في التصميم الجرافيكي كعناصر زخرفية. المزيد في الكتب في أعلى الأقسام، في أسفل الصفحات. تم استخدام هذه المنتجات لتحفيز القراء مع مجموعة متنوعة من الزخارف. في نهاية هذه المقالة، على سبيل المثال، هناك مقطع فيديو تم نشره في غلاف كتاب آلان مانيسون- ماللي.

4- مقابلة المؤلف مع أولا أهرنسفارد، في 2-3 / 2012.

5- مقابلة المؤلف مع أولا أهرنسفارد، المعطيات ذاتها، ستوكهولم.

6- مقابلة المؤلف مع أولا أهرنسفارد، المعطيات ذاتها

7- تلقيت شخصياً نسخة بقيمة 190 دولاراً أمريكياً لإحدى شركات الإنترنت هذه قبل عام.

8- أولا أهرنسفارد: زخرفات الخريطة في فن المحفوظات، الأرشيف الوطني للأرشيف الوطني والأرشيف الوطني، 200*

دفع بي باحثاً عارف زيرفان، إلى التذكير، بمثال آخر، في هذا السياق:

أولاً، من خلال مقال منشور تحت هذا العنوان:

Komplo ve ihanet kıskacında Kürtlerin kaderi, www.basnews.com

أي: مصير الكرد في مؤامرات التواطئات والخيانة

وهو معهود في الأدبيات الثقافية التركية بدمغتها الكمالية إجمالاً، وثمة ما يستحق النظر أو القراءة:

قال الفينييسي جيوفاني ماريو أنجيليلو، الذي كان في القصر العثماني، «لن يجرؤ التركي العظيم أبداً على مهاجمة شاه إسماعيل، إذا لم يتصل بالكرد» مباشرة بعد حرب 1514، وما كان بين العثمانيين و 23 إمارة كردية، بجهود الزعيم القبلي الكردي إدريس بدليس.

وما يدخل في سياق الاهتمام بتاريخ المدن والأمكنة وتردداتها الكردية:

نُشرت سبعة مجلدات لأحمد رفعت، عام 1881.. تحت عنوان تاريخ اللغات في جغرافية «کردستان - العثمانية، أرمينيا، الجزيرة، العراق العربي، العجم» Lugât-ı Tarihiyye ve Coğrafiyye'sinde 'Kürdistan-ı Osmanî: Ermenistan, El-Cezire, Irak-ı Arab ve Acemistan ... وعندما قمنا بتجسيد ذلك مع خرائط الفترة، تم استخدام «کردستان» كاسم منطقة جغرافية بدلاً من اسم دولة في الخرائط التي أعدها كل من العثمانيين والأوروبيين.

وما يخص معارضة الإمارات الكردية للعثمانيين

Kürt Mîrlerinin Osmanlı'ya karşı çıkışı

إذ وفقاً لاستخدامها في الإمبراطورية العثمانية، تعني «کردستان» الأماكن الخاضعة لسيطرة الإمارات الكردية جنباً إلى جنب مع محافظة ديار بكر والسناجق المجاورة. على الرغم من أنها كانت مقاطعة الإمبراطورية، إلا أن کردستان خدمت السكان المحليين من خلال وجود أنظمة إدارية مستقلة على مستويات مختلفة.

ما يفيد هنا، هو طرح اسم کردستان كمناطق جغرافية، لا بد أنها تضم منتمين إليها وهم كرد.

وهناك مثال آخر، وهو يخص بطبيعة السياسة التصفوية التي يعتمد عليها الساعون إلى محو أي أثر للكرد تاريخياً وجغرافياً، كما الحال في تركيا، ومن ذلك، ويصدد ما تم ذكره، ما أورده مالميسانز «مالميسانج» في بعض الكتابات» في كتابه السالف الذكر:

عائلة جميل باشا الدياربكري، الواقعة التالية، وبعد إعلان «جمهورية» أتاتورك بسنوات، ومساعي التريك لكل الاثنيات فيها :

في زيارة للموسيقي جلال عزيز فخري، من ديار بكر إلى ستانبول بهدف غناء الأغاني الشعبية التي جمعها زار سراي: قصر دولما بخجة، وتم استقبله بحفاوة هناك. بعد رده على سؤال مخلصنا «مصطفى كمال» حول أحوال أهالينا في ديار بكر... أوجز خطابه قائلاً:

أنا أنتسب لعائلة تركية بطلة، لكن مع الأسف يسمون هناك بـ «ديار بكر»، لكنها في الأصل كانت «ديار ترك» وبكر تعرف على ذلك المكان فيما بعد. نحن نعرف جيداً ديارنا الأصلية. إن ديارنا هي السراي الخاص لـ «أوغوز ترك» ونحن أطفال هذه الديار العظيمة...

إن الدياربكرين، الوانيين، الأرضرومين، الترابزونيين، الستانبوليين، التراقيين والمقدونيين جميعهم أبناء عرق واحد، وهم شرايين نفس الجوهر.

إن عملنا الجديد هو هذا على هذه الشرايين أن تسمع وتعرف بعضها البعض.

يقول مالميسانز معلقاً وموضحاً: الجانب المدهش الآخر في الأمر هو هذا: حسب ما كتبه شيخموس ديكن «كما ورد في الهامش، في كتابه: ديار بكر، المدينة التي تشي بسرّها للأسوار، ستانبول 2002، ص 163-164»، أنه في نفس اليوم الذي تحدث فيه كمال مصطفى حديثه السابق، يزوره المغني الدياربكري «جلال كوزلس» ليسمعه بعض الأغاني للسمر.. في ذلك الحين يعطي كمال باشا أمر أخذ قياس رأسه. نعم «يايماة من كمال باشا يقوم أحد الواقفين بجانبه بأخذ قياس رأس جلال بك. لم يفهم جلال بك ما يجري واستمر بالسمر بعدما تلقى الشخص أمر الوقوف من كمال باشا.

سبب رواية هذا الحدث، هو إككاس المفاهيم والمبادئ التي كان يحملها مصطفى كمال في سنوات «1930». بالطبع هناك أحداث أخرى أيضاً غير هذا الحدث تعكس أفكاره ومفاهيمه. من المعروف أنه في بدايات «1930»، بدأ بحثاً واسعاً من أجل إيجاد الفروقات العرقية بين الشعوب التي تعيش في تركيا وذلك من خلال تثبيت قياس الجمجمة التركية لتمييزها من الأعراق الأخرى.

على سبيل المثال، أعدت «عفت إينان» ابنة مصطفى كمال باشا بالتبني، وبأمر منه بحثاً تاريخياً خاصاً حول المميزات الانتروبولوجية للشعب التركي. حيث عملت على البحث في «64000» هيكل عظمي لنساء ورجال وبمساعدة وزارة الصحة في

الأناضول والهدف من ذلك، تثبيت التدرّج التاريخي بين السكان المتواجدين على أرض الأناضول حالياً وأجدادهم، لكي يثبتوا بأن الأناضول كانت أرض الترك منذ غابر الأزمان وذلك بالسبل الانتروبولوجية الفيزيائية. تم إجراء هذا الاستفتاء الانتروبولوجي من قبل كوادر الحكومة في عام 1937...ص92.

..الخ.

طبعاً، هذا الإجراء المسحي، والفورمولوجي المسيّس، رد على دراسات ذات صلة بطبيعة الكردي، شكلاً، وتفكيراً. كما في حال باسيلي نيكيتين، في كتابه المعروف: الكرد، الفصل الأول، صص30-57، ويصدد قياس الجمجمة، ينظر في المصدر نفسه، ص53...

الفصل الثاني

عليكي بطي في نسيجه الحي والمختلف عليه

«الأحداث تعني للبعض المجد في حين أنها تعني للبعض الآخر المذلة. الاحتفال من جهة تقابله الكراهية من الجهة الأخرى. وهكذا تخزن في أرشيف الذاكرة الجماعية جروح حقيقية ورمزية».

بول ريكور: الذاكرة، التاريخ، النسيان

«إن استخدام مفهوم الشخصية يعني التفكير في الفرد على مستوى العالم وفقاً لنهج معقد بالضرورة يشير إلى شبكة واسعة من القرارات المتشابكة. يدمج الفرد تأثيرات مختلفة على مدار حياته. يهدف هذا المفهوم إلى تحديد التنوع والديمومة الموجودة معاً في الشخص، حتى عندما تؤثر التغييرات عليه. تشير وحدة وخصوصية كل واحد إلى مفهوم آخر، وهو مفهوم الهوية».

باتريك يونيه: تعريف الشخصية

اليد والباب

كيف يمكن طرّق باب عليكي بطي، وهو بابٌ كبير، وصلب وسميك وعال، ولا يفتّح بسهولة؟

أقولها منذ البدء، للتوقف عند حقيقة، أكاد أوّمن بها إلى أبعد حد، وهي أنه من السهل بمكان تعريف عليكي بطي في سطور، أو مجموعة صفحات، وهناك أصوات مسجلة تتحدث عنه، وربما هناك آخرون يشيرون إليه، أو يروّون أو يتحدثون عنه بصور مختلفة، لم تدوّن كلماتهم، وهناك كتب تشير إليه، وتقدّم معلومات لا بأس بها، تقي بالغرض، بالنسبة لمن يتحفّز للحديث عنده، وتقديم نبذة عن حياته: أين ولد، وكيف كانت نشأته، وفي أي وسط اجتماعي، ومن ثم بيئي، ومن كانوا صحبته، أو يصاحب من طفولة وشباباً، وما الذي تعلّمه من الحياة؟ وبم تميّز، وكيف كانت نهايته؟... الخ، هذا إلى جانب مقالات، وما أكثرها من مقالات متفاوتة الطول، وأبحاث بالمقابل بالتركية، كما الحال في نماذج منها طي الكتاب هذا، تتقارب وتتباعد أحياناً في بعض من نقاطها وخاصية كل منها... إنها أسئلة كثيرة، كما هو المعتاد، وهنا إجابات مختلفة، كثيرة نسبياً بالمقابل، تضيء ساحته، كما هو المعتاد كذلك، ويمكن أن

نقطع برأي هذا أو ذاك، أو نكتفي بإيراد مجموعة الآراء فيه، وهي بين أيدينا، أو يمكن تحديدها، وبالتالي، لنقول بلغة معبّرة عن نوع من الانتشاء: هذا هو عليكي بطي ؟ كيف يمكن ذلك، بمثل هذه البساطة ؟

نعم، لدينا مصادر، وأناس أحياء في حوزتهم معلومات تشجّع على الإصغاء إليها أو الاهتمام بها، ولكننا، ونحن في القرن الحادي والعشرين، أو في مهب القرن الحادي والعشرين، وفي عالم هائل من المؤثرات، ومن الأفكار الجديدة عن مفاهيم كثيرة، وفي واجهتها: الزعيم، أو البطل وخلافه، وما أكثر مسمذيات البطل، أو حقوله: من بطل النص المسرحي، إلى بطل فيلم سينمائي، وحتى بطل إعلامي، وكذلك بطل التلفزيوني... الخ، أي باعتباره نجماً إعلامياً وغيره، وما في ذلك من تأثير على صلب ما نحن فيه، وهو ما ينبغي علينا مراعاته، للحفاظ على مسارنا البحثي، والذي يتمحور واقعاً حول هذا الاسم المقيم هنا وهناك باسمه: عليكي بطي!

يتطلب النظر فيه، عزماً نفسياً مضاعفاً، وبقظة مضاعفة، حتى يتسنى لسردية الكتابة عنه، أن يؤتى أكلها، وأن يتشكل لدى القارئ تصور ما، وليس قناعة، أن هناك ما كان يعرفه عنه، وهناك ما لم يكن يعرفه، كما يكشف عنه الكتاب، وهناك ما ينبغي معرفته أكثر، جرّاء هذا الطرق المركّز، ليُفتح، وهو بثقل وزنه النوعي، وجمالية واجهته، وما يعطينا إياه من فكرة تخص العالم الرابض وراء الباب الكبير المؤثر بكل مكوناته والمثير للخيال، ونوعية ذلك العالم، أعني به جغرافيته البشرية وطبائعه الزمانية- المكانية، وكيف كانوا يتعامل المقيمون وسط الجغرافية تلك، مع بعضهم بعضاً، أكثر بكثير مما هو مسموع عنه، أو مقروء باسمه، وما إذا كان في مستوى اسمه حقاً، وماذا يعني مطابقته لاسمه، أم أن هناك أموراً أخرى يجب إبرازها ؟

تبعاً لأحد الفلاسفة الألمان، وهو هيدجر، وفي عبارة دالّة له، وهي أن «الكلام يتكلّم» وهذا يعني أن الذي يتكلّمه الكلام، يرتد إلى شخص معين، وفي وضعية معينة، ومن يتكلّم «عليكي بطي» إن جاز التعبير، يقول كلامه ما عليه تفكيره، و«عليكي بطي» ككلام يتكلّم، وكتاريخ يقول كلاماً يعنيه بمعان شتى، إنما ما كانه وما لم يكنه، وما أريد أن يكونه، ولم يحصل ذلك، وما أراداه هو وما يصرّهُ... الخ.

ولا بد أن القارئ هنا، قد يتساءل عن مغزى هذا الاسترسال في الكلام أحياناً، وهو محقّ، حين ينطلق من تلك النقاط التي ألفها في بيئته، ومن خلال ثقافة معينة، نقاط محكومة بنوع من القطعية في التقويم أو التقدير. ولكن شخصية تطرح نفسها

على من حولها، وقد مضى على موتها زمن لا يمكن تجاهله، في البُعد عنا، واسمها يتردد على ألسنة الناس، وأن هؤلاء الذين نشير إليهم، هم على غاية التنوع، يصبح القول الممكن تعزيزه مسلياً، وهو: لا، لا استرسال في الكلام، مقارنة مع المساحة المغطاة له، وهي تمتد على مدى مئات الصفحات، ليس استرسالاً من الذاكرة الحفظية فقط، وإنما ارتكازاً إلى قائمة من المعلومات التي لا تخفى توثيقيتها، والصور التي تلعب عامل إسناد لتلك المعلومات أحياناً، وتهيب بقارئها لأن ينشط قوى خياله، ويمنح نفسه حضور قوة أكثر، على الأقل، ليعيش نوع من الغبطة الذاتية، وقد اكتشف في عملية بحثه المختصرة ما كان يجهله، وهو ما يدفع به إلى مساءلة المزيد، ومن ثم مواجهة المعنيين بهذا الموضوع، وليصبح في عملية البحث هنا قارئاً، نعم، إنما ناقداً على طريقته، وهو ما يبقيه على تواصل مباشر بالمستجدات، وطلب المزيد.

وكل شخصية لها صفة الزعامة، مهما كانت بساطتها، أو محدوديتها أحياناً، إنما تبقى معقدة، أي ذات ثراء متعدد الجوانب، دون ذلك، كيف يمكن لها أن تكون مادة فولكلورية، أسطورية وتاريخية في آن، ولكل حقل كما رأينا جمالية اكتشاف ما، وتفاعل ما طبعاً.

في الحديث عن عليكي بطي، وما قيل فيه أو تردد حوله، من داخل قبيلته «هفيركان» نفسها، إلى جوارها الجغرافي، وفي الإطار الأوسع، حيث تنتشر مدن وبلدات وقرى، ويكون نظام دولة، وأكثر من حدود الدولة نفسها، كما في حال الانكليز، يبرز النسيج التاريخي له، وهو مشدود إلى كم هائل من المفارقات، لحظة النظر في التوصيفات عنه، أو ما جرى تقديمه من خلاله، وكما سنرى في تلك الأمثلة الشفاهية والكتابية ذات الصلة المباشرة به، أنه رجل عادي، وأكثر من كونه عادياً، بصفته من آل أوصمان، وينتمي إلى قبيلة هفيركان، إنما في الداخل، ثمة الصراع العائلي ذاته، إنما كذلك هناك من يقبل به رجلاً جسوراً، ويقدم له «تعظيم سلام» كما يقال، ومن يحاول تجاهله، لأكثر من سبب ذاتي وعشائري، ومن ينشر دعايات مضادة عنه، للتقليل من حقيقة ما يعرف به، ومن يعرفه خصماً لدوداً للدولة، فيكون مافوق النسب القبائلي نفسه، أي ما يجعله كردياً ممثلاً للكثير من المقومات التي تعرف به «كردياً» وليس مجرد الخارج من نطاق عشيرة أو قبيلة، ومن يعرف به «عميلاً انكليزياً» ومن يرفض هذا التوصيف له، ومن يجعله إنساناً منفتحاً على الآخرين، أقرب إلى الجانب المديني، من خلال تفعيل علاقات اجتماعية تتجاوز الترسيمات الدينية، كما عرفت هفيركان» بذلك... الخ، إن هذه اللائحة المحسوسة، أو الأبعد من

المحسوسة في المقروء والمسموع بالمقابل، من التوصيفات أو العلامات الفارقة والمتناقضة، تجعل منه شخصية درامية، وحدث مركّب، إلى حد كبير.

ماذا تعني الشخصية الدرامية ؟

(الدراما (من الدراما اللاتينية، المستعارة من اليونانية القديمة δρᾶμα / دراما، والتي تعني «العمل (المسرحي)، واللعب») تعين أي عمل مناظر خلابة. وبالتالي يمكن أن تعين، بالمعنى الواسع، أي عمل درامي⁽¹⁾).

يتحدد هذا المفهوم من خلال ما نعيشه يومياً، وما نتابعه أحياناً من أفلام ومن مسلسلات في بيوتنا، عندما نتعيش داخل الفيلم الواحد أو المسلسل الواحد، العديد من الشخصيات، من رجال ونساء، من كبار وصغار، وتتوغل أدوارها، بين أن تكون مميزة بفعل الخير، أو بفعل الشر، بين أن تكون عنيفة أو هادئة، بين أن تكون انطوائية، أو انبساطية، بين أن تكون ممثلة حباً للجوار، ومتفانية، وأن تكون مثقلة بالكراهية، وأنانية... الخ، وهنا نكون إزاء عالم درامي. وعلى قدر ما تكون الأحداث جامعة بين أوجه مختلفة من العنف والشر، وبالمقابل، السكينة والخير، بمقدار ما تكون الدرجة الدرامية عالية، وبمقدار ما تكون الدراما كثيفة، ولافتة، وليست رخوة، كما في المسلسلات التي تدور حول قضايا اجتماعية كبيرة، بلغة سطحية، تفقد الواقع ثراءه أو حيويته، وهو ما نمثله فيما بيننا، ولكل منا حقيقته الدرامية، وأن البشر ما كان لهم أن يكونوا بشراً، وتعرف الأرض بهم، لولا تلك اللحظة الدرامية، من خلال الحديث عن الخطأ المرتكب من قبل أول أبوين بشريين في جنة الفردوس، وهما يعصيان خالقهما، بتناول الثمرة المحرمة، وطردهما من الجنة.

«تذكروا جيداً، مفردة «العصيان» هنا، وهي تعني الشقاوة، كيف أنها ستلاحق كل من يتمرد على أمر ما، مهما كان طغيانه، وتعسفه، كما في حال عليكي بطي، وكل كردي يقول «لا» لظالمه، أو الساعي إلى «تزييف التاريخ!» وعالم البشر عالم طراد أو مطاردات، عالم تحذيرات، وتقويمات، عالم من يجسد الخير في نفسه، لأسباب كثيرة، أو بالعكس. وإزاء ما تقدم، يسهل التعريف بعليكي بطي على أنه من الشخصيات الدرامية العالية الأثر، أو من الطراز العالي، فيما تردد حوله.

ولاحظوا كيف تقصص البطولة عن نفسها في المناخ الدرامي، لتعلق بالذاكرة أكثر،

بداية:

(1) fr.wikipedia.org

هناك الخالق، بالمفهوم الديني، وهو لامرئي ومطلق، إنما المعزَّز بآثاره المسماة دينياً، وهناك الثالوث الحي: الإنساني، الحيواني، والنباتي، وثمة تصور للجماة أيضاً، لتسريع الحركة.

مثلاً: ما صلة كل من الشيطان «اللامرئي»، بالحيّة المرئية، بالشجرة الاستثنائية، وثمرتها المحرّمة، بكل من آدم وحواء، وما جرى أمام أعينهما لاحقاً من قتل قابيل لهاييل؟

هنا تتفجر أسئلة وتقتصر عنها الإجابات، ليمارس الخيال دوره إلى ما لانهائية.

ويقال ما صلة عليكى بطي بهذا المثال الأعظم كونياً لدينا .

المبدأ المشترك واحد، رغم حسية المثل، وقربه التاريخي منا، إلا أنه، وهو البشري، قد أثار من التعليقات والظنون، والتوليقات والتأويلات والتكهنات، الكثير الكثير، ونحن لا نتحدث عن رواية السلطة التي تحاول احتكار الحقيقة لنفسها، إنما ما يميظ اللثام عنها، في كتابات قريبة منها، غمزاً ولمزاً، وكتابات أخف وطأة في تجريد معارض السلطة، أو خصمها من كل قيمة، دعك مما يقوله العامة، أو من يُعتَبَرُونَ كُتَّاباً وحكواتيون ولهم مآربهم ومذاهبهم ومضاربهم في ذلك.

ليبقى الحديث في مثل هذه الأقوال المتعارضة أمراً واقعياً، مقارنة له بآخرين، من وجوه معروفة في ثقافات كثيرة، تشكّل رموزاً حيّة بالنسبة لأهلها، أي ما يجعلها حقيقة تاريخية، وأن تسليط الضوء على أي منها، لا يعني التخلص من تلك التي لا يصادق عليها الواقع «واقع معين» وتكذيب من وجّهوا إليه تهماً، أو ناصبوا له العداء وأشهرها الخصومة حتى داخل عائلته بالذات، كما سنلاحظ ذلك، وفي صفحات تترى، إنما إبراز حقيقة أخرى، حيث يستحيل إلزام من هم حولنا في أن يفكروا كما نفكر، أو يعتقدون كما نعتقد في أمور الحياة والموت، الصالح والطالح، وأن يجسدوا مواقف وسلوكيات كتلك التي نحاول القيام بها في واقعنا، والحقيقة التي ستشغل الكتاب هذا من ألفه إلى يائه، هي أنه: بمقدار ما تحمل شخصية ما كمّاً كبيراً من المتناقضات، من جهة المحيطين بها، وضمن مساحات واسعة، تكون أكثر عمقاً وتميّزاً بالثراء.

وحين أشدّد على نقطة كهذه، فلأهميتها التاريخية والنفسية والاجتماعية، خصوصاً وأن هناك فقراً «فعلياً» في مثل هذه الدراسات المتعلقة بعليكي بطي بالذات، وهو الاسم الذي يعيننا أمره، كما يشغلنا بصورته وعظيم أعماله في مواجهة أعداء الكرد، وما في ذلك من إضاءة أكثر لهذه الرقعة الجغرافية، بمزيد من ضبط النفس،

ومن التوسع في الزمان والمكان، ولو بصورة عمقية، وفي أكثر الفترات التاريخية سخونة وكلف ضحايا «الحرب العالمية الأولى» وحتى اللحظة التي وضعت فيها هذه الحرب أوزارها، واجتمع الأعداء الخصوم، والمنتصرون فيهم قبل كل شيء «بريطانيا - فرنسا» طبعاً، سنة 1919، كما سنتوقف مطولاً نسياً عند هذه النقطة، وكيف أن توقف هدير مدافع هذه الحرب، كان يعني النعي الأصعب للحلم الكردي، من خلال يافطة سايكس-بيكو، الاتفاقية التي باتت كردستان فيها الضحية الجغرافية الكبرى على مذابح هؤلاء المنتصرين وحتى ممن ذاقوا طعم الهزيمة المرة، سوى أنهم كوفئوا، لأكثر من دافع سياسي واستراتيجي، ممن تقاسموا كردستان، كما تقاسموا الكرد فيما بينهم، وليكون نعي «لوزان» النعي النهائي لذلك الحلم، وفي إثر ذلك، يبدأ معترك تاريخ آخر، وهدير مدافع من نوع آخر، وموت من نوع آخر، ومفاجئات دامية ومميتة من نوع آخر، واستعداد لحالات قتل جماعية وفردية من نوع آخر، واستعداد فردي وجماعي للتهجير والاعتقالات من نوع آخر، وربما شعور بمرارة الوعود، وغنف الوضع المستجد الذي وجد الكرد أنفسهم فيه، وهم ينتقلون من الحرب مع الأعداء إلى الحرب ضدهم، وقد أصبحوا موزعين في دول، حيث الحدود المصطنعة مزقتهم، ودون أن يتركوا داخل هذه الحدود، لحظة مجابهة أي طرف منهم لعدوه الفعلي والرسمي، ليجد من يناصره أو يسنده في الطرف الحدودي الآخر، لا بل ومن يدعم هذه العدو، وهو العدو الأخطر هنا، حيث كان المخطط الأكبر لتقسيم كردستان، وما في هذه اللعبة الجهنمية من ذهنية حديدية وتدميرية نافذة الأثر، وعلينا أن نمارس لعبتنا مع اللعبة القائمة كتابة متابعة تاريخية، تفسيرية، استيطاقية، استقصائية، مقارنة، أو تحليلية.

يكون هذا الجانب الحي والمؤثر، كما أنه المؤلم مستحقاً متابعة من نوع مختلف، يلتقي فيه النفسي، الاجتماعي، السياسي، التاريخي، الاقتصادي، العقلي والتربوي، وكيف اهتزت الأرض تحت الأرض عائلات بالجملة، وفيما بين أفراد أو رؤساء هذه العائلات، جرأ تلك الذهنية الاستعدادية المتسلطة منذ قرون، بغية إحكام المزيد من السيطرة عليهم.

وفي المسافة الفاصلة والهائلة التكوين، بين أن يكون عليكي بطي، كما هو معروف في نطاق العائلة، وليس الأسرة «مالاً» بالمعنى الواسع للكلمة، وعليكي بطي، كما بات موضوعاً يلهم العديد من كتاب التاريخ، أو المعنيين بالفولكلور، أو خاصية البطولة ذاتها، ويمكن للباحث في هذا الشأن، أن ينطلق إلى دائرة علاقاته، اعتماداً على أرشيفات قائمة، تحتفظ بهذا التاريخ الذي شكّل ذات يوم مجتمع أناس أحياء، يتخاصمون ويتحابون، يفرحون ويحزنون، يتسامرون وينقطعون إلى أعمالهم، هي

أرشيقات الدول التي لعبت دوراً كبيراً في التفريق بين شعوب مختلفة، أو جماعات قائمة في المكان الواحد نفسه، لا بل ودكّ الإسفين حتى داخل العائلة الواحدة عينها، وما تجاوب مع مثل هذه الغوايات المعدية والمهلكة، وفي نصوص الذين ينشغلون بالاجتماع، والتأريخ والحكايات...الخ، ليتبين له، وتبعاً لدرجة قابليته للمتابعة، ومستوى ثقافته، ذلك الفرق الكبير جداً بين الاسمين، لا بل وبين الوجهين، ولكل وجه وجوه، كلعبة الدمية الروسية، رغم أنهما واحد، إنما وحده فعل التغيير، وطرق التأثير بالمتغيرات، ونوع التلقّي هو الذي أظهر لنا مثل هذه المسافة الهائلة بين الحالتين، وهي عملية نفسية، واجتماعية وفكرية، لا يمكن لأي كان حيازتها أو التعرف بها، وكما يعتقد أحدهم، وهم يجرون تقويماً ارتجالياً أو بمزاجية طاغية لهذا أو ذاك، ممن يكون لهم ذبوع صيت، إذ من السهل، أو الجائر القول، أنه كان هناك أشخاص من هم أكبر حجماً منه، أطول منه، أثقل منه: وزناً، وربما قوة بدنية أو عضلية، وربما حضوراً بعلاقات معينة، وبالعشرات وأكثر، سوى أن المسألة لم تكن يوماً من النوع الذي أتيت على ذكره، إنما تلك الإرادة التي تتشكل في الداخل، وهي التي تتكفل برسم صورة شخصية من نوع آخر لهذا أو ذاك، وفي إطار مجموعة من الظروف الصعبة، أو التحديات المحفوفة بالمخاطر، هي امتحانها الصعب في هذا الجانب.

يعني أن (ليس الإنسان في كليته سوى مركّب من الأفكار والقوى والإمكانات. ولا يصبح كائناً متميزاً ومحددّاً بوضوح إلا تبعاً لحوافز وعلاقات الحياة وتغييراتها. إن اعتباره رجل سياسة واقتصاد أو عضواً في أسرة وممثلاً لمهنة، تكوين مبنٍ لهذا الغرض إن صح التعبير. وفي كل واحدة من هذه الحالات، تتحدد مادة حياته بفكرة خاصة، وتُسبّك في شكل خاص. ذلك أن حياته المستقلة نسبياً هي الحقيقة التي تتغذى من مصدر طاقة مشترك، لكن يصعب تصنيفه)⁽¹⁾.

وهذا المركّب يسمح للباحث الفعلي وليس لسواه أن يتروى كثيراً وهو يعاين وضعاً معيناً، أو ينقّب في «أركيولوجيا» شخصية، وما فيها من مماثلة آثارية، حيث إن شخصية أي منا تشبه الطبقات الجيولوجية المنضدة فوق بعضها بعضاً، والمتداخلة في آن، وأن أي فعل حفري «أركيولوجي، كما ذكرنا» يزيد في مؤانسة الأثر العضوي، ويضيء، بصورة أعمق، تلك العلاقة القائمة بين العمر الذي بلغته الشخصية تلك، وذلك العمر الذي يجري السؤال عنه في زمن سالف، وحيث إن كلاً من البيئة

(1) زيمل، جورج: الفرد والمجتمع «المشكلات الأساسية للسوسيولوجيا»، ترجمة وتقديم: د. حسن أحجيج، دار رؤية، القاهرة، 2017، ص 192.

الاجتماعية والطبيعية تسهمان في إثراء جوانب الشخصية التي تحمل دمغتهما، شخصية تسمي في عليكي بطي، أكثر من عليكي بطي اعتبارياً.

وهنا يكون اختلاف بطي عن حاجو، فالأول يجمع بين القاع الاجتماعي «عمقه» ومؤثرات السلطة وما يتوازى معها في تصورات المفاعلين معها سلباً وإيجاباً: اجتماعياً وسياسياً، والثاني يجمع بين السقف الأعلى للسياسي، وما يصله بالقاع الاجتماعي وهو محدود، على وقع المؤثرات السياسية، فالدراسة هنا فاعلة، بينما الرواية هناك فاعلة أكثر، وفي ضوء ذلك نجد لا استقرارية زئبق المتخيلات في ميزان التاريخ البلوري، حتى في أغان متداولة ومتغايرة.

يكون السؤال المرتقب والمأمول هو سؤال الكتابة، كما أنه سؤال الذاكرة الشفاهية، وفي حالتنا يولى جانب الشفاهة الاعتبار الخاص واللافت هنا، من خلال ما تردد حول عليكي بطي بالذات، (وأن نتذكر شيئاً معيناً لا يعني فقط استقبال صورة من الماضي وتلقيها، بل كذلك البحث عنها، أي «عمل» شيء ما. الفعل «تذكر» يضيف شيئاً إلى الاسم «ذكرى»⁽¹⁾.

ولكي نوسع حدود البحث، ونحافظ على توازننا في التقصي والمكاشفة، ينبغي التأكيد على مآثرة الربط بين كل من الذاكرة الشفاهية التي ستشغل مساحة لافتة في الكتاب، ثم تجد طريقها مكتوبة إلى القارئ، كما لو أنها لم تكن يوماً فعل ذاكرة أو تذكر، وعملية الكتابة التي تتقدم في خطوط معينة داخل شبكة الكتاب المعرفية، دون أن تعلن طلاقها عن ماض لها، وكانت وليدة الذاكرة تلك، إنما تبقى هنا مقروءة ومقررة ومنقولة كذلك من الورق إلى الورق.

هذا جدير بالمتابعة، لأن في ذلك متعة التغذي بما هو منتظر، أو حتى مشتهى معرفياً، ولا ضير في ذلك، لأن أياً منا، وهو في مقام الكاتب، يعيش مثل هذه المتعة، رغم ألم المعيشة، هي متعة البحث عن شخصية مرفقة بالشخصية الرئيسة في الكتاب بالذات، كما لو أن هذه الشخصية وقد جرى إحيائها بصيغة معينة، وفي زمان ومكان معينين «كوني في دهوك، وفي لحظة مجابهة فيروس كورونا، والإقامة الجبرية صحياً في البيت»، وتداعيات الحالة، ومخيال الفعل الثقافي، ومدى تأثيره في كل محاولة كتابية من فقرة إلى أخرى، وهي تمثل وضعاً نفسياً صحياً، أي إنه، حتى وإن

(1) ريكور، بول: الذاكرة، التاريخ، النسيان، ترجمة وتقديم وتعليق: د. جورج زينات، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط1، 2009، ص 102.

بدأت الشخصية التي تشغل اهتمام كاتب ما، منبودة، بغیضة، أو لا تطاق، فلأن هناك إقامة علاقة طويلة الأمد، موقع عليها ضمناً معها، وهي تتطوي على ضرب من صداقة معرفية، حيث يستحيل الدخول إلى عالمها، دون معرفة «جواز المرور» أو «كلمة السر» الضامنة لفعل العبور ولقاء الشخصية التدريجي، دون نسبة معينة، ومقدرة من هذه الصداقة، أو هذا التوادد الذي يسهل فعل الكتابة، مقابل فعل الانفتاح، فكيف الحال، مع شخصية لها موقع اعتباري، ولها باع طويل في ذلك، وهي العلاقة التي لا تقتصر على مجرد الاسم الشخصي للكاتب، وإنما تبث مؤثراتها في وسطه، جهة المقيمين حوله. ذلك يحفزني، جرأ هذه الحمولة الحسية والذهنية، البسيطة والمركبة معاً، على إيراد ما أفصح عنه أحد الكتاب، بخصوص أسطوره الشخصية، في علاقة كهذا:

(ولكن الآن أقول لنفسی: لماذا لا؟ لماذا يجب علينا أن نحرم من العیش أسطورة، بطريقتنا الخاصة؟)

أن نكون بطلاً وفقاً لمعاييرنا الخاصة، من وجهة نظرنا؟ لماذا تحط من شأن ما نقوم به؟ لدي طموحاتي، وسوف أتغلب أيضاً على العقبات التي تحول دون الوصول إليهم. وسأبذل قصارى جهدي للوصول إلى هناك، وسوف أكون فخوراً به وأتحدث عنه مع أطفالتي الذين سيخبرونه بدوره لأطفالهم ثم لأحفادهم وما إلى ذلك. سيكون إرثي - على نطاق صغير، ربما، ولكن ما الذي يهم؟ لا يتطلب الأمر سوى شخص واحد يؤمن بنا حتى يكون له معنى بعد كل شيء.

لذا، ما الذي يمكن أن نتعلمه من هذه القراءة؟

يمكن للجميع أن يعيشوا «أسطورة شخصية» خاصة بهم

«إن إمكانية رؤية حلمك يتحقق هي التي تجعل الحياة مثيرة للاهتمام»: وكيف يمكنك الحصول على هذه الإمكانية لرؤية حلمك متحققاً ببساطة عن طريق الحفاظ على الإرادة لتحقيق ذلك.

لنعتبر:

لقد حلمت منذ أن كنت صغيراً. اليوم، يتم توفير حياة مليئة بالراحة لي، وهي وظيفة تضمن لي الهدوء، وأنا أفكر في هذا الحلم من وقت لآخر، مع الحنين فقط. لكنني لا أريد أن أعيش في ندم. لذلك دعونا نكون مجانين⁽¹⁾.

(1) Schimpf, Anne-Sophie: ccomplir sa Légende Personnelle, ...Feb 29, 2016, medium.com

أن تكون بطلاً، تلك رغبة، وقد لا تتحقق، وأن تكون بطلاً، كما تكون من أعمال معينة، وقد يحدث ذلك، إنما تبقى البطولة مديدة، لا سقف لها، ليعيش البطل ديمومته دائماً، كما لو أن البطل هو المنجز الاستثنائي في الواقع، وما يثبته في الذاكرة الكتابية، ليلحق الواقع به، تقديرًا له.

وأن تكون بطلاً، تلك قضية إرادة، وهي إرادة معرفة ومصادقة المجهول وتحديّه، وهنا ما أكثر ما يختلف الناس، أو ينقسمون على أنفسهم، وما يتأخرون عن حلمهم، أملهم، وعدهم الذاتي، آتيهم الذي يتوجهون إليه، وجودهم الذي يتعدى الموجود داخلهم، بذرتهم بغابتها الكبرى داخله.

هوذا بيت القصيد، أو هنا حط الجمال، وتحديدًا بالنسبة للعبارة الأخيرة والتي تنتهي بمفردة «مجانين» تلك في الاقتباس الأخير. هؤلاء الذين يشير إليهم الكاتب، من المؤكد أنهم ليسوا مجانين لحالة نفسية وما فيها من فقدان سوية نفسية، وإنما مجاني تاريخ، وقد عبروا تاريخهم الشخصي إلى النقطة الزمنية التي لا يعود الكثيرون يبصرونهم، جرّاء حسهم المضاعف بخاصية الزمن، ولا بد أن كل متمرد على جهاز سلطوي، أو تآثر على نظام سياسي، أو منتفض ضد أي وجه مستبد، أن يحمل داخله رمزاً حياً من رموز الجنون الخاص، والذي يمنحه مثل هذا التجاوز، ليقف في موقع استشرافٍ وينظر من عل إلى ما حوله.

أو ليس الذي جسّده عليكي بطي فيما عرف به، وفيما يمكّننا من مفاتحته النفسية، في عملية سبر قرائية، يقابل هذا الموقع؟ لحظة الربط بين جملة الأوصاف والألقاب التي أحيط/ حمل بها !

هنا أتحدث عن جنون استبصاري، جنون يمثّل في العقل الاجتماعي ما لم يبلغ بعد، وهو الحد الذي يمكن تبينه في النصاب المعرفي المعروف به عالياً، وحيث يحتاج الآخرون إلى سنوات طوال ليدركوا المسافة النوعية المقطوعة هنا .

ومن المؤكد أن كل مغامر، كل خارج على جماعته، ومن موقع الشعور بمسئولية مضاعفة، والشعور المضاعف بذلك الوجد المجتمعي، وضمن نطاق معين، يتميز بعلامة جنون معينة، بما أن الجنون في أصله، يعني الاختفاء، أوحالة عدم الرؤية للجسم الموسوم هنا، لأن الذين يتهمون الآخر بالجنون، وفي مثل هذه الحالة، إنما

ينطلقون من معايير معتادة، أو ألفوها فيما بينهما، بنوع من التقليد، في طرق أحاديثهم المتداولة، وفي أحكامهم وحتى حياتهم وموتهم كذلك.

يكون الجنون كعلامة اجتماعية، وربما وفق توجه سياسي، ومصدر اتهامي، سلاحاً ماضياً بآثره للفصل بين الشخص الذي ينبري مفارقاً بذكائه الوقاد، أو نباهة حسه، وعلى مستوى طبيعة المجابهة، معبراً للمجتمع البشري بكامله، من وضعية اجتماعية وثقافية وسياسية إلى أخرى. فالذين يقومون بأعمال عظيمة، أو استثنائية في الفكر والأدب والسياسة والفن، لا يمكنهم أن يحققوا ذلك دون «قبعة الإخفاء» هذه، ودون هذه الطاقة الخلاقة بين جنبيهم.

وهذا الجنون النوعي، والذي أصبح معترفاً به في مجتمعات الغرب، بعد مكابدات استمرت قروناً، ومن خلال أدوات سبر وضعية كذلك، لا ينظر إلى من يقوم بسلوكيات «غرائبية» طالما أنها تمهد لظهور ذهنية من نوع آخر، أو موهبة ينظر في نوعية ثمارها الفنية أو الأدبية أو الفكرية وحتى العلمية، كما لو أن استثنائية حملته في الذكاء، هي التي تدفع به لأن ينفصل عن الجماعة ليس حباً في العزلة الراضية لما هو اجتماعي، وإنما لأن مجتمعاً من نوع آخر يريض داخله، كما أنه يحتاج في وضعه ذاك إلى مكان مقتضع، والخلود إلى الذات، وهي تعيش تأملها الداخلي، وتعيش تجربتها الفعلية مع الفكرة الطارئة والمنتظرة للحظة «الولادة» وإعلان نبأ الإبداع أو الابتكار الجديد، بالعكس، ثمة من يثمن في الحال وجود بذرة جنون تتبين من خلال ميكانيزم مراقبة من داخل العائلة، وفي المدرسة وعبر مؤسسات معدة لهذا الغرض، بمعنى أنه بمقدار ما يشهد مجتمع ما، زيادة نوعية لمثل هذا النمط من المجانين، تكون شارة خير ووعد بمستقبل أفضل، خلاف الجاري في مجتمعاتنا والتي تتبني غالباً على الخوف من الجديد، أو مفهوم المحدث «كل محدثة بدعة...» إلى آخر الحديث المتداول هنا وهناك، في مجتمع يرى في التقليد سلامة الطوية، وسكينة ضامنة لبقاء ما هو قطيعي، حيث المستقبل مشدود إلى الماضي وفي الماضي يكون السلف، رغم أن التاريخ يشهد أن ليس من تجميد لفعل الزمن، سوى أن الذين يجري توجيه تهمة الجنون إليهم، لتسهيل عملية محاكمتهم، وإبعاد «الجمهور» عنهم، من قبل من يتحسسون منه، على مستوى سلطوي، وحتى داخل المجتمع الرعوي الذي درّب وهذب كثيراً في هذا المضمار، ليمارس رقابة على كل مغاير له، وربما محاكم له، قبل أن تتصرف السلطة القائمة، جرّاء جرثومة الخوف المتغذية في النفوس.

أكان عليكي بطي مجنوناً، وكذلك حاجو آغا؟ نعم، استناداً إلى ما تم ذكره وتوضيحه، كانا كذلك. وهكذا فإنه ليس من رمز كردي، من قائد سياسي كردي فعلي، هو زعيم جيهاث وساحات، وزعيم مجابهات كتابة نضالية، إلا ويكون فيه خميرة معينة، أو عقارٍ ما، من هذا الجنون الخاص، حيث القائمة طويلة، ولكل من يمكن ذكره نسبة جنون معينة، كما هو الممكن تعقبه ليس في مواقف أعداء الكرد، وإنما حتى من الوسط الكردي، إشعاراً بمخاوف نفسية.

لا أدل على ما تقدّم من وجهة، ومن استشراف ساحة الآخر ومخاطره ولعبة مجاهله، أكثر مما يفصح عنه ميشيل فوكو بقوله (إن الأساس في كل هذا هو معرفة ما إذا كان الجنون حقيقياً وكذلك معرفة درجته. فكلما كان الجنون عميقاً، كانت الإرادة بريئة).¹5».

يعني ذلك أن الجنون هنا، هو الوجه الأبرز لما هو عقلي ضد العقل المستبد بنفسه وبغيره، وهو الجسد الحي والذي يعرف بقواه الحية مجتمعة، ضد اختزاله، وهو المناضل والممتلىء بالحرية ضد نظام يتمترس وراء القضبان ويفجر عنفاً.

ربما بناء عليه، يجيز لنا هذا المسار المضيء ما نحن مقبلون إليه، وهو في كيفية إغاثة تاريخ محكوم عليه بالصمت المخزي، أو بالإقامة سطوراً خرساء، في عتمة محرمة من الإضاءة، وإطلاق سراح المعنى المقموع أو المحظور، ليكون في مقدور الجنون الإدلاء بصوته المرنان والمجلجل كذلك، وتحرير العاقل الطاغية من هستيريا عدوانيته وكرهه للعالم.

طرقات على باب التاريخ الأصم

يبدو أننا سنواجه هنا صعوبة كبيرة في تتبع المرجعية النسبة لـ «هفيركان» الخيمة الكبرى بمفهومها القبلي، كما كان التحديد النسيبي في زمانه: من تكون هفيركان؟ ما هذا الاسم من حيث الدلالة؟ من الذي أطلق هذا الاسم، وفي أي زمان ومكان، حيث إن هذا التحديد له قيمته في معرفة بنية الاسم، أو شكله، أو صوغ الحروف التي تشكّله؟

طبعاً ليس الذي أتحدث فيه يخص هفيركان، إنما مجمل أسماء القبائل والعشائر، جهة الأصول، وأبعادها اللغوية، وتوزع انتشارها أو مناطقها، وما يخص

(1) فوكو، ميشيل: تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، ترجمة: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 2006، ص 162.

الظروف التي لعبت أكثر من دور في تكوين هذه الأسماء، أو تعرضها لتغيرات تبعاً للوسط الطبيعي والاجتماعي للمكان الأهل بالسكان وصفتهم.

يعني ذلك أننا إزاء مكاشفة أرشيفية لهذا الاسم، وما خرّجه الاسم هذا من قوى بشرية، أو أفراد متواجدون ضمن نطاق عائلي، عشائري، وقبلي، وثمة روابط تشدهم إلى بعضهم بعضاً، إن من جهة الدم الواحد، كما يقال، أو أخوة الدم، كما في مفهوم الحمولة، حيث تتشكل خيمة كبرى، وهي تضم أقساماً، تتناغم تحتها لغات ومذاهب، في وحدة مصيرية.

عند هذه النقطة أتوقف، متعرضاً لمفهوم «الأرشفة» وبنيتها اللغوية، وطابعه الزماني- المكاني، جهة قضية شديدة الخطورة، مثل السؤال عمّن تكونه «هفيركان» وهو السؤال الذي يعينها بالضبط، وإنما غيرها.

إن عالم اليوم الواسع والشاسع بمدينياته الكبرى والصغرى، ووسائل اتصال، وأجهزته العلمية المتقدمة، ومخابره، حافل بالأرشفيات: إن كل ما يحيط بنا، جرى وكما يجري ترتيبه، وفق أسس معرفية علمية غاية في الدقة، أرشفياً، لأنه على قدر التكوين المعرفي وتنوع أبعاده، وثرائه المعلوماتي، يأتي الأرشفة بالمقابل، متعدد الألوان، متنوعاً في مكوناته ومغذيته. لهذا أمكن القول عن أن الأرشفة قد أصبح في مقام الخطر الذي يهدد العالم، وهو يطرح عليه أسئلته الملحاحة، وهو ينقب في خفايا موضوعه، بناء على علاقات وإحداثيات، من صلب النتائج العلمية، بغية الارتقاء بأي بحث إلى مستوى جدير بتسميته بحثاً، في ضوء الثورات العلمية المتواصلة اليوم، بعيداً عن تلك المعتقدات التي ترتبط بأفكار خاصة، وسلطوية.

بالطريقة هذه، يصبح الأرشفة منقذاً للاسم المطروح للنقاش، محرراً إياه من وهم الزمان والمكان، والذين حجّروا عليه بدواعي معينة، ويفتح آفاقاً صوب الأفضل والأكثر موثوقية. وبالطريقة هذه، نكون قد منحنا الاسم المطروح للنقاش أي اسم: شخصي، مكاني، زمني، اسم عشيرة أو قبيلة، لنقاش ساري المفعول في اتجاهات شتى، ولنكون أكثر سكيناً جهة النتائج المحققة، وما في ذلك من ركيعة ثقافية محررة من الوصايات، أي يتحقق ما هو إنساني هنا.

لكن الأرشفة ونحن نتحدث فيه وعنه، لا يعني أنه طوع ألسنتنا، لغاتنا، لهجاتنا، إشاراتنا، لوائحننا الاسمية، رغباتنا، متاحفنا التي نتباهى بها، أرصدتنا الثقافية طي الكتب والسجلات والنصب والمنحوتات والأشرطة، وأروقة ذاكرتنا، وكل ما له صلة

بأنشطتنا، إنما يضاهي تلك الحقيقة التي وإن سُميت تبقى ذات استقلالية، طالما أننا لا نكف عن البحث وإعادة البحث في الموضوع ذاته، وفي كل مرة نزعج أحياناً أو كثيراً، أننا حصلنا كفايتنا، فثمة جوع كدافع خاص لا ينقلب شبعاً كما هو المتوخى، وهو حال العطش، حال الرغبة في الآخر لذّة، وهذا يستشرف بنا عالم الوجود وما يتفعل داخلنا كموجودين. إن كل أرشيف هو حقيقة ما وما يتعدها.

وبين المسمى واللامسمى تكون مغامرة البحث، يكون الأرشيف الذي لا ينفك يفتن المعنى به.

وعلى مستوى المتابعة التاريخية والأدبية والفنية والعلمية.. الخ، ثمة نداءات الأرشيف، طبقات منضدة، أبعاد متقابلة، وجوه للأرشيف، ألوان في غاية التنوع، تبرز الاسم وما يستبطنه، كما الأركيولوجيا، واستحالة التقدير الذي يطمئنا بصدد العمق الفعلي لما ينبغي الحفر فيه وفي أي اتجاه، وإمكان الكشف عن هذا الذي ينطوي عليه الأرشيف، أي يُعزى إليه فيما يخص مجتمعاً، تاريخياً، علماً، فناً.

الأرشيف، في نشأته وتربته الزمانية- المكانية، ينتمي إلى عالمنا بأهميته النافذة في حيواتنا، ويتعاضد دوره وخطره من خلال ما يترجم سلوكياتنا ويشير إليها في كتاباتنا وأجهزتنا السمعية والبصرية ومواقع التواصل الاجتماعي، والحدود التي لم تعد تحتفظ بتلك الميزة من الغموض والخوف، استناداً إلى وفرة التقانة وأهليتها في تقديم الكثير مما ننشده.

غير أننا في هذا المقام غير المستقر بالذات، لا يمكننا ادعاء التمكن من معرفة ما نريد أن نعرف، فالعالم بقدر ما يتنامى شفافية وانفتاحاً بقدر ما يزداد انغلاقاً وعمّة وقابلية للتواري عن الأنظار.

الأرشيف كائن حدّاثي جداً، مولود في اقتداره منذ عدة عقود، رغم عراقية نسبه واقعاً، يتخطى المعنى به، إنه جامع الخيرات والشُرور معاً، بين مرثياته ولامرثياته !

ربما بالطريقة هذه، يسعى كل منا، أي كان، إلى الحصول على قصب السبق في الوارد الأرشيفي، وبالمقابل إلى تأكيد ثراه الأرشيفي من خلال وسائل/ أساليب مختلفة، على المستوى الشخصي والاجتماعي والسياسي، سوى أن الأرشيف لا ينحصر كمفهوم في النطاق الذي يعرف به وهو في حالة من «الأسر» أو «الرهن» أو «الحيازة» إذ عندها يمكن تبرئته ذاتياً مما يُنسب إليه، إذ إن أعظم أرشيف، هو ذاك الذي يفتح أمام كل المعنيين به من أهل المعرفة وحتى ذوي الفضول، أما بالنسبة لأهل

الكتابة والفن والعلم، إذ جاز التعبير، فإن الجائز قوله هو أن لا شيء يمنح الأرشييف قيمته، حضوره العظيم، أهليته لأن يُحتفى به، جواز مروره إلى مختلف الألسن واللغات والتجلي السمعي البصري، أكثر من استعداده للتجاوب مع الأسئلة، وما في ذلك من صلة بالنص المحرّر من الدوغماتيات، ما في ذلك من ارتحال الكاتب بذاته، وفكره، وإبداعه، إلى نصوص بينها غاية الاختلاف، تأكيداً على تعدّيه لمحلّيته، وانشغاره بما هو إنساني، ولا شيء في هذا المضمار يمكن من تعميق أثره أكثر من رؤية كل الطرق في المتابعة النقدية والتاريخية سالكة إليه.

والكاتب، أو الفنان، هو أرشييف مركّب، ويبقى لأرشييفه الذي صيّر كاتِباً أو فناناً، الرهان المغربي للباحث لكي يؤكّد قدرته على تسمية أثره، وبالتالي على تأكيد اسمه ناقداً أو باحثاً، والذي يشار إلى مناقب مجتمعه أو الذين ينتمي إليهم. الأرشييف بالصيغة هذه هو وما ليس هو في كل مرة، فإن نورشف هو أن نعمل في كل محاولة تسمية إلى إبراز عقد جديد يعمّق عالم الأرشييف الذي يتحرك به وداخله الكاتب والباحث والفنان.

فكيف يكون الوضع حين يكون الموضوع ذا نسب تاريخي محكوم بقوى أسهمت في غموضه؟

ولا بد أنني في هذه المحاولة، محاولة البحث في الأرشييف، ومحاولة الخروج منه، لأنظر في أمره، ومحاولة أخذ العلم بحقيقة أنني في كل ما أقوم به متحرك في فضاء الأرشييف بالتأكيد، حتى بالنسبة إلي، عندما أسطر عبارة معينة، لا على التحديد، فأنا في الحالة هذه، أكون مشغولاً بغواية الأرشييف، وتأكيد عمل أرشفة، ولهذا أكون داخلاً في مغامرة الأرشييف، حيث يتعدد بمقدار ما يتنوع الآخر، جهة المسمّى، وجهة المسمّى، وما يمكن أن يقيم في حالة الغموض، والذي يتطلب المزيد من التحري الأرشييفي، ولهذا نكون أكثر الآخر بأكثر من معنى: الآخر بأرشييفه، والآخر في أرشييفه، والآخر الذي يُعتد به للاهتمام به أكثر، والآخر الذي أكونه أنا بالمقابل حيث أختلف عن كوني اسم العلم الثلاثي والمنتمي إلى جهة جغرافية واجتماعية معينة، ولا أزعّم أنها جديدة كلياً، بنصها العربي، إلا أن الذي أستطيع تأكّيده، هو أن هذه المحاولة تسمّي باباً معرفياً بالكاد تم أو يتم طريقه في مجتمعاتنا لما تتطلبه عملية «الطرق» ومن ثم فتحه، الولوج إلى عالم لا يُسمح بدخوله ببسر، فكيف بإمكان الإقامة فيه بصورة دورية؟

وما تمكنتُ من كتابته في نطاق هذه المحاولة الأرشيفية النسب، وما أحاول إثارتته في النقطة البحثية هنا، هو جملة موضوعات لها علامة فارقة تاريخية: كودية، وهي علامات تنصبّ على اسم قبيلة مركّبة بمؤثراتها الاجتماعية والثقافية والسياسية في بدء زمانها الخاص، ومن هم الذين تخرّجوا في «جامعتها» إن جاز التعبير، وماذا حملوا معهم من «شهادات» معرفية، أو اعتبارية، وماذا أضافوا إليها بالمقابل، من خلال انشغالي بها، وأنا أعرف بمثل هذا المسعى المعرفي، تعزيزاً لمقولة معرفية لا يستهان بها جهة المصاعب التي تتخللها، وآية ذلك أن الأرشيف شاهد عيان تاريخي المقام، وأنه على قدر المتواجد أو المؤقّم أو المسجّل فيه أو باسمه يعرفنا بما كان بأكثر من معنى، وتحديدًا، بالنسبة للباحث الكردي وهو في تجربته الجديدة تاريخياً، مع نفسه كباحث ومؤرخ، ومع تاريخه الذي ينطلق في التعامل معه من وازع له دفعة يختلط فيها السياسي والاجتماعي والقومي أحياناً أكثر من الفاعل المعرفي والذي يُري كينونة الباحث هنا ومدى تمايزها أو استقلاليتها، في المعترك اليومي والثقافي معاً.

إن من أولى أولويات المقاربة لموضوع ما هو في سؤال أصله «وما الأصل هنا ؟» والأصل يأخذنا إلى الأرشيف، كما سنرى، والأصل هو ما يضعنا في التاريخ، والتاريخ ليس كل ما يمثلنا كأمة، كشعب، أو كاسم «تاريخ»، فهناك الذاكرة، والذاكرة ذاتها دون اسمها، لأن ثمة ما يبقى خارجها، ما يمحي، ما يتستر عليه بذرائع شتى، وثمة الزمان الهائل الذي يكون حركة ومعان.. وكل ذلك أرشيف. فماذا وصلنا من هذا الأرشيف ؟ لا بل ماذا استلفنا منه ومنحناه علامته الفارقة «علامتنا الاعتبارية»: أرشيف كردي بوعي ينميّه دائماً، ووعي هو ذاته يبقى قيد المسألة الذاتية والنمو، فالوعي المغيّر لا يكون إلا بقدر ما يتغير ضمناً؟

وهذا الوعي هو الذي يكون مرتكزنا، بمقدار ما يكون عرضة للتغير في ضوء المستجدات.

ما الذي يثيره فينا اسم «هفيركان» الاسم الذي يصعب الوقوف على معناه بسهولة، شأن أسماء كثيرة كردياً ؟

هناك أصوات تنادي، أعني بها تتكلم، وهي في موقع النسابة، ممن يدلون بدلوهم في هذا المضمار العائد إلى الأصول تاريخياً، أو «جينالوجيا» الاسم: من أين جاء، كيف جاء، آلية استمراره في التقلات والتحويلات؟ ولكل صوت توقعه في النطاق الثقافي، والثقافة ليست حيادية، والثقافة ليست مطلقة، مهما تردّد عن أنها كذلك، والثقافة

يتكلمها كما يمارسها أناس أحياء، وبينهم علاقات، وهذه العلاقات لا تتحرك وفق منحنيات واحدة، إنما هندسية، وبأشكال مختلف، وصور، أو تقطيعات كذلك، ولكل صوت بدوره أرشيف اسمه المعلق، ومرجعياته الفكرية والعقائدية التي لا تُغفل هنا، ودون ذلك يستحيل طرح أي فكرة، مهما كانت محدوديتها دون التعريف بها، أو السؤال عن مصدرها، ومغزاها بالمقابل، فالذي يتكلم في موضوع معين، يصبح هذا الموضوع متجنساً بكلامه، كما لو أنه ينتسب إليه، ويكون حامله، ولا يكون وحيداً، لحظة التعرض لطبيعة صوته المسموع، أو وقد جرى تسطيره، إنما من يكون هو نفسه وما إذا كان متكلاً وهو مجرد نفسه عن أي تأثير قاعدي له صلة مباشرة بالموضوع عينه: من يتكلم في نسب عشيرة أو قبيلة، هل يكون متحرراً حقاً من غواية العشيرة، أو القبيلة، أي يزعم أنه يتكلم خارج لباسها وهوائها، ترايبها، وفضائها المحصور؟ تلك هي أسئلة نسبية، أو عائدة إلى أرشيف كل صوت، ولدينا أصوات تلو أصوات، وهي تثير أصواتاً معها، لاحقاً، كما الآن بسرّيان فعلها الاجتماعي والتاريخي، وهي ليست يقينية، فهناك سواها، وهذا ما يبقى باب الحوار مفتوحاً.

لنصغ إلى صوت شاعرنا جكرخوين «1903-1984»، والذي ترك خلفه كتابات نثرية «تاريخ كردستان» مثلاً، إنما ما أثاره في مذكراته، أو سيرته الحياتية، وسخونة المشاهد التي تخص جغرافيا أرشيفية مختلفة لعشائر وقبائل وتداعياتها.

ماذا يقول شاعرنا بصدد هفيركان؟

(كان رؤساء الهفيركيين منذ القدم أسرة علي رمو، وأسرة خليل سليمان وكانت هذه أسرة محترمة حيث كانوا يطالبون بالسيادة)، ويتابع مكملاً (لكن أسرة «حاجو» أو أسرة «عثمان» أو أوصمين بتهجئتها الدارجة، كما الحال هنا أحياناً. توضيح من ا. محمود) قد صاروا رؤساء الهفيركيين منذ قرون، وهم لا يتفقون على أصل عائلتهم. فبعضهم يقولون إنهم من أهل قرية «باتي»، وبعضهم يقولون: إنهم من عرب «الطي»، كما أن بعضهم يقولون إنهم من أتراك ماردین، من أسرة قاسم باشا. لكن من أي مكان كانوا فإنهم قد صاروا رؤساء الهفيركيين ويقولون عنهم: «سلاطين الهفيركيين». وهم صاروا قسمين أيضاً: أسرة حاجو، وأسرة جلبي، وأسرة حاجو هفيركيون دوماً، وأسرة جلبي دكشوريون.⁽¹⁾

(1) جكرخوين: سيرة حياتي، ترجمة: جوان أيو- ديلان شوقي، مراجعة وتدقيق الأستاذ رضوان إسماعيل، دار بافت للطباعة والنشر، د.ت، ولا تحديد المكان، ص 46.

أشير هنا إلى أنني استخدمت عبارة «شاعرنا جكرخوين» ليس للتقليل من أهميته طبعاً، وإنما لأنه في الأساس شاعر، ومقصدي من التحديد، هو تحديد مفهوم الكتابة التي تتخذ صفة التأريخ، وما الذي يمكنه أن يقال في هذا الصدد، ما الذي يغير في مفهوم الاسم بالذات «من شاعر إلى كاتب بصفة مؤرخ بنسبة ما»، وما يمكن أن يطرح من أسئلة حول هذا الجانب: وفق أي علاقة آزار جكرخوين الكتابة؟ أكان في تناوله مخلصاً لذاكرة الزمان- المكان، ولحقيقة تأريخية، أم إنه فيما اعتمده من تحديد مواقع أسماء أشخاص وقبائل وصراعات، أدخل تصورته الفكرية الخاصة ومعتقد الشخص؟

هناك الكثير الذي أثرته في كتابي ذاك، وسوف يبقى قيد الاستعمال أو الاستعادة عند الضرورة، إنما يخضع كتاب: سيرة حياتي نفسه للمساءلة عن طبيعته، وكيف كتب، وهو ينتمي إلى أصول حزبية مركبة: شيوعيته بداية، وهي لم تفارق تصوراتها، وعلاقاتها بالعالم الذي أقام فيه، وكتب عنه، حتى آخر لحظة من حياته، وهو يودّع الدنيا في السويد» مثلاً، ديوانه «السلام» والذي اصطبغ بالكثير مما هو شعاراتي، شيوعي، وهناك نسبته الحزبي «الحزب التقدمي في سوريا» والخلفية الإيديولوجية لهذا الحزب، وانعكاس مؤثراته في بنية سيرته، على وقع خلافات قائمة، وهي تؤخذ بعين الاعتبار، وكون الكتاب السيّري نشر بعد وفاته بثلاثة عشر عاماً، فيكون في معرض المساءلة عما إذا كان بقي كما هو، أم أنه تعرض للنظر الآخر من قبل المعنيين «ابنه الأكبر كيو: كسرى، هو الذي أشرف عليه، وكما أشير إليه باسمه، والذي ودّع الدنيا هو الآخر هذا العام 2020، والكتاب المطبوع كان تحت إشرافه، كما يقول اسمه». إنثال إزاء أرشيف من نوع آخر!

ما الذي أراد أن يقوله جكرخوين، وما الذي لم يرد أن يقوله؟ وهو ما يمكننا مكاشفته تحليلياً:

وينظر كذلك، في النسخة الكردية:

Cigerxwîn: Jîngariya min, APEC, Sweden, 1995, r: 37

وثمة بعض التعديلات الطفيفة في النص المترجم، من خلال مراجعة النص الأصلي، سوى أنني اعتمدت على النص المترجم، كما كان الحال في كتاب: دولة حاجو آغا الكردية، حيث لم يكن كتاب: سيرة حياتي، بنسخته الكردية متوفراً لدي، ولهذا، فسوف يكون اعتمادي على النسخة المترجمة، من خلال ما اقتبست منه هنا، وإضافة أو تعديل ما أجده متجاوباً مع أساس النص الأصلي، مراعاة للدقة، إلى جانب مكانة النص الأصلي، والفارق بينه وبين النص المترجم.

بداية، نحن لا نحمل جكرخوين عبئاً، وهو شاعر له حضوره الكبير كردياً، ومكانته، إنما حين يكون العبء متجاوزاً نطاق الذات الشخصية، ويسمّي جهات، أطرافاً، ويتطلب تحقيقاً في الدافع المعرفي وطبيعته، وهو يسطر كلماته، لا يعود النظر في الكلمات، كما هو الحال مع الأذن التي تصغي إلى الشعر «شعره» بصوته أو صوت غيره، وجانبه الحماسي، القومي، الإنساني، وخلاف ذلك، وما يثيره من خيالات ومشاعر، وهنا تكف الإذن عن الإصغاء، حيث يكون الدور للعقل، وهو في قواه الفكرية، وقد التقى فيها ما هو تأريخي، وما هو اجتماعي وبحثي، ومسألة طريقة التناول ومداهما المعرفي. وعلينا ألا نعدم أثر عشيرته «هساري» المخاصمة لهفيركان !

نعم، أنا مع جكرخوين، حين يعدد الأقوال التي تتحدث عن أصول هفيركان، أو عن نسب هفيركان، حيث تأتي مختلفة، وهذا لا ينطبق على هفيركان وحدها، وليس من عشيرة أو قبيلة استثناء من حقيقة خلافية أو خلافية كهذه، وفي بنية كل منها، وبالنسبة للكرد بصورة خاصة، إذا راعينا المآسي التي تعرضوا لها تاريخياً، وإذا أخذنا في الحسبان موطنهم الذي قيل فيه الكثير، بوصفه ساحات معارك للغزاة، وفي الوقت نفسه، مسارح مختلفة، تشهد انتقالاتهم القسرية، أو حالات التهجير أو الترحيل التي كانوا يتعرضون لها على مر التاريخ، وبصورة أخص، جرّاء تعرضهم لمكائد أعدائهم، أو حين يمارسون فيهم انتقاماً، كونهم ينتفضون عليهم، أو يسهمون في معارك جانبية لصالح هذا الطرف أو ذاك، وما يترتب على كل ذلك في المحصلة من انتقامات قتلاً وتعذيباً وترحيلاً، وحتى توزيعاً وتقسيماً لإضعافهم باضطراد، إلى اليوم.⁽¹⁾

ما يمكن تثبيته هنا، هو أن قوة بشرية محسوبة، حين تكون بين مجموعة قوى بشرية أخرى، لا تنتمي إلى خانيتها النسبية، وإنما تتعامل معها بمنطق الإكراه، والغصب والتعالي أو المنطق السلطوي، وتتحين الفرص للنيل منها، وحين تنال منها، فإن أول ما تقدم عليه، هو كيفية إضعافها بتشتيتها في المكان، فلا تعود قوة بشرية تُذكر، وثانياً، تعتمد إلى الفصل بينها واللغة التي تتكلمها أو الثقافة التي تشكّل سجل أسلافها وهويتها، وثالثاً، تطلق السراح لكتبتها، ومن هم في خدمتها، ومن يوالونها

(1) ينظر على سبيل المثال، للتوضيح، ما أثاره المفكر وعالم الاجتماع التركي: إسماعيل بشكجي في كتابه: التوطين القسري للكرد، ترجمه عن الكردية وقدّم له وعلّق عليه: إبراهيم محمود، مركز بشكجي للدراسات الجامعية، دهوك، 2018، فصل: التوطين القسري للكرد: كيف واجهوا ظاهرة التوطين القسري ؟ ص 120، وما بعد ..

كذلك في أن يسطّروا في مدوناتهم، ما يخص هذه القوة المغلوبة، بتحويل أو تشوية تاريخها بدءاً من اسمها .

أكان الكرد استثناء؟ كلا، طبعاً، ربما كانوا في واجهة هذه القوى التي جرى التركيز عليها في السياق المذكور، وما يزيد طين المأساة بلة فظاعة، هو أن الكرد وجراء الاستبداد الطويل بهم، برز من بينهم من يكتبون في تاريخهم، على منوال أعدائهم، أو يؤرّخون لتاريخها القبائلي، تجاوباً مع رغبات أعدائهم بصورة ما، وبلغتهم أحياناً، ولغايات جانبية كذلك.

ذلك يفصح عن العميق والخفي، أو هكذا أقرأ تاريخ الأشخاص وهم يتناولون سير غيرهم، أو حيوات بشر معينين، أو تأريخ جماعة بشرية، فلتكن عشيرة أو قبيلة، وأنقّب في الأرضية الفكرية التي تشكل مداماً لتصوراته وأفكاره، لا بل ولمشاعره وهو واجسه: من يكون الكاتب، أين يكون، مع من يكون، كيف يكون في موقعه المادي، الاجتماعي، النفسي؟... الخ.

وجكرخوين لا يختلف عن آخرين في نطاق هذه المساءلات المركّزة على طريقة تفكيره، وبنيته الثقافية ومرجعيتها، إذ إنه يعرض هذه المواقف، ومن ثم يقول ما يعزّز الشك في النظام الفكري الذي اعتمده كتابةً: ما يهم هو أن هؤلاء... أي ممن دُعّموا سيطرة زعاماتية على هفيركان. وهي نقطة تحفّز على الرجوع إلى الورا، والتدقيق الكاشف في المواقف مجدداً.

ما علاقة جكرخوين بهذه المواقف المختلفة؟ وكيف يمكن تفسير النهاية التي انتهى إليها في تحديد من تكون هفيركان؟ لا يبقى السؤال الأخير عالقاً، إنما يجري تحويله وتوجيهه إلى جكرخوين الشاعر، ربما، وكيف انزلق شعرياً، وربما تتأغم مع ما هو معتقدي، وربما مع هواه الذاتي، وهو إمكان الشك في «هوية» هفيركان. أي إنه لم يبد أي وجهة نظر في تلك المواقف، ومن مثلوها وأين؟ خصوصاً إذا راعينا موقع هفيركان بين العشائر والقبائل المجاورة لها، وتلك الصراعات التي كانت تقوم فيما بينها، لا وبين أفراد القبيلة عينها، وانعكاس ذلك على مكانتها، يضاف إلى ذلك وجود السقف السياسي الأكبر، وهو الأكثر خطورة ومدعاة للتفكير فيه: سقف الدولة، وطبيعة نظامها، وصلتها بثقافة متداولة كهذه، وكيف أنها من خلال أجهزتها الإيديولوجية لا تدخر جهداً في الدفع بأفكار وتوجهات تجعل من كل قبيلة، أو عشيرة خارج سياقها الكردي، أو ما لا تريد الدولة لها أن يكون، في إطار عمليات التذويب أو الصهر بطرق شتى، وبوتائر زمانية- مكانية متسارعة !

جكرخوين، ربما لم يكلّف نفسه عناء البحث، وكما يقتضي البحث، النظر في هذه التقسيمات، ومن هم قائلوها، ليكون في الإمكان الوقوف على حقيقة المصدر، وبالتالي، الإمضاء على القول، وأرشفته في قيمته أو أهميته طبعاً.

إن العبارة الأخيرة له «ما يهم» تفضي بنا إلى جانب آخر، وهي أن هناك قوة معينة، وربما عنف سيطرة وراء عملية السيادة أو الزعامة. وإذا كان لدى جكرخوين حجته في أن ذلك ينطبق على قبائل أخرى، فإن هذه الحجة لا تؤتي أكلها جهة قيمتها، عندما تركها، وفي نفسه، ربما، راحة منها، حيث أبقى الاسم معلقاً، ودون إسناد يستحق الذكر.

من جهة أخرى، ربما كان في وعي/ ذهن جكرخوين أسماء كتاب تصرفوا بالطريقة هذه، أقول ربما، كما في حال شرف خان بدليسي «1543-1603» وكتابه الذائع الصيت «شرفنامه» أو «كتاب شرف» كتابه هو لا غيره، وهو مصنفٌ مثير ببناء ومغزاه، وهو يتناول فيه أنساب العشائر والقبائل الكردية، مؤرخاً لا يخفي موقعه الاعتباري، أو كونه من «الأشراف».

ويوجد الكثير مما يمكن قوله في هذا المنحى:

هناك إجراء تأريخي، تقليدي، متّبع سار عليه صاحب «شرفنامه» لتحديد نسبه القبلي طبعاً:

(شرف بن شمس الدين بن شرف بن شمس الدين بن حاجي محمد بن ابراهيم بن شمس الدين بن شرف بن شمس الدين بن شرف بن ضياء الدين بن مجد الدين، والمعروف بـ «شرفخان البدليسي»)⁽¹⁾.

سلاسل النسب تؤخذ بعين الاعتبار، حيث يعرف ذلك عموم المؤرخين أو النسّابة، تجاوزاً مع ثقافة معتمدة حينذاك. ودون أن ننسى دلالة الملحق «التشريفي» أي «خان»

(1) استفتت في نقل هذه المعلومة من كتاب «شرفخان البدليسي ومنهجه التاريخي من خلال كتابه شرفنامه»، لمصطفى أحمد محمد النجار «أطروحة جامعية لنيل شهادة الدكتوراه»، كلية الآداب، جامعة دهوك، 2006، ص 20-24، مخطوط له نسخة منه في مركز بشكجي للدراسات الجامعية، دهوك، ص 18، حيث أعمل فيه. وينظر أيضاً إلى الاختلاف، لا بل والأخطاء المتعلقة بتاريخ لها صلة بحياة شرفخان وأعماله وعدم دقتها، في «الموسوعة الكبرى لمشاهير الكرد عبر التاريخ» للدكتور محمد علي الصويركي، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط1، 2008، م2، صص 312-316، وينظر كذلك في كتاب «مشاهير الكرد وكردستان»، لمحمد أمين زكي، منشورات بنكي زين، السلیمانية، 2005...

والذي شكّل في عهده وساماً مقدّماً من أولي أمر السلطة أو من المعني المباشر بها «في بلاد فارس»، كما هو المعهود بالنسبة لألقاب سلطانية، من نوع: بك، باشا، بكربك...الخ.

شرف خان الذي بذل جهداً كبيراً، وهو ما يشدد عليه برينسن «أي شرفنامه» (إن هذا السّفَر عمل يتسم بالمعرفة القصوى، ويبدو أن المؤلف «الذي قد سافر كثيراً» قد أمضى عمره يجمع المعلومات التي ضمها الكتاب بين دفتيه. وتقدم مرويّاته المفصلة صورة حية عن النشاطات السياسية للحكام الكرد وتعاملاتهم مع الدول القوية بهم.⁽¹⁾

إنما كيف جاء بناء كتاب شرف خان؟ هل حقاً أنه أرخ للكرد لصالح الكرد، أو ما يرضي خصومهم أكثر؟

نلاحظ، من ناحية الدلالة، بنية كلامه التالي وهو لا يخرج عن نطاق التعريف الأخلاقي بالكرد، وما هم فيه أو عليه على صعيد التباذات والمناوشات واقعاً وقولاً، وحصاد معنى صادم كهذا في (شقاق الكرد: وقد جبل الكرد على التناظر والشقاق..... ويؤكد من خلال كتاب تاريخي مؤلف بالتركية، ودلالة المرجع هذا: في الوقائع العثمانية بالعودة إلى شخص قبيح المنظر صيرَ وجيهاً لهم لمقابلة الرسول فكان قوله أن لا يوفق الله هذا الشعب للاتفاق بينهم... وليرد عليه المترجم في الهامش...وهو يفند الرواية هذه ويعتبرها من الروايات الخيالية...)⁽²⁾.

أعتقد أن أي باحث آخر، باحث غير كردي، حين يستوقف مثل هذا القول، سوف يتساءل بصورة ما: ما الذي دفع بشرف خان، ليفصح عن «حقيقة» قاسية موجهة كهذه، لا بد أنه يرضي بها أعداء بني جلدته قبل كل شيء؟

أن يقرأ أحدهم ما ورد في الكتاب منذ بدايته، لا يعني مجرد كلام عابر، وإنما، كما لو أنه يريد نقل معلومة، على طريقة «أهل الدار أدرى بدارهم» إلى من يُعنى بشأن الكرد: خذ علماً بهم، إنهم هكذا. وهي عقوبة قدرية نسبية فظيعة.

(1) بروينسن، مارتن فان: الآغا والشيخ والدولة «البنى الاجتماعية والسياسية لكرْدستان»، ج1، ترجمة: أمجد حسين، معهد الدراسات الاستراتيجية، بغداد - أربيل - بيروت، ط1، 2007، ص 36، والوارد في الكتاب هو «الشرفنامه»، وفي الصفحة ذاتها، وفي بعض الأحيان تأتي العبارة بصيغة أخرى، أي «شرفنامه». ص348، مثلاً.

(2) البديليسي، الأمير شرف خان: شرفنامه، ترجمة: محمد جميل الملا أحمد الروزياني، دار المدى، دمشق، ط3، 2007، ص43-44-50.

ولا بد أن الذي يتابع مجريات وقائع التسيب في الكتاب أن يلقي مثل هذه المشاهد، جهة التسيب، كما في:

(نسب أسرة شنبو: لا تحتجب عن ضمائر نقاد الكلام ولا عن خواطر ذوي الآراء المشعة صورة القصة الآتية التي هي: إن نسب أمراء حكاري الأجلاء يرتقي إلى الخلفاء العباسيين. بيد أنه لما لم تضبط سلسلة نسبهم، ولم يعلم بمن من الخلفاء تنتهي، عطفنا عنان اليراع الجواد عن الخوض في البحث في ارتباط هذه الأسرة الكريمة بأولئك الخلفاء العظام..ص213... إن ذوي الفضائل الأعلام في البلاغة، ومدبجي آيات الفصاحة هم الذين يلمون بهذه الدقائق، ويقفون على مذل هذه الحقائق وهي إن حكام «صاصون» يمتون بصلة النسب إلى ملوك الفرس الأكاسرة. ص335... مثلهم حكام كليس: لا يغرب عن بال النبهاء الواقفين على تراجم الأسر الهاشمية، ولا يخفى على ضمائر الملمين بأسرار الأسر القريشية، أن سلسلة نسب حكام كليس = كلس، كما يزعمون هم أنفسهم، تنتهي بأحد أولاد العباس رضي الله عنه..ص367.... وفي نسب أمراء زرقية: لا يخفى على ضمائر الماهرين في البلاغة، وخواطر المؤرخين الفصحاء، صورة القصة التالية، وهي: إن نسب أمراء زرقية ينتهي إلى القبائل العربية في الشام، فقد قيل إن رجلاً يدعى الشيخ حسن...الخ ص387.. بصدد الأمراء السويدية نسبهم يرتقي إلى آل برمك = البرامكة ص403... ونسب الأمراء السليمانية يرتقي إلى مروان الحمار آخر ملوك بني أمية..ص415... وبالنسبة لحكام سهران «سوران»: لا تخفى حقائق الروايات الآتية على أصحاب الأذهان المشعة إشعاع الشمس، وهي أن نسب حكام «سهران- سوران» يرتقي إلى رجل يدعى «كلوس- الأثرم» من سلالة أحد عظماء العرب في بغداد..ص427... وأن نسب أمراء دنبلي: يستفاد من تقارير الرواة الثقات المقبولة أن نسب أمراء دنبلي ينتهي إلى الرجل المسمى عيسى من العرب النازحين من الشام..ص487...⁽¹⁾.

كما أسلفت، فإن مثل هذه المقتطفات التي تتوزع في نقاط مختلفة من الكتاب تمضي بنا إلى مكاشفة ذهنية التفكير لدى مؤرخنا الكردي، والذي سمّي هنا وهناك بأنه «هيرودوت» الكرد، تعظيماً له، أو إعلاء من شأنه، دون انتباه إلى الفارق الكبير بين الذي سمّي هنا وهناك أي هيرودوت، بأنه «أبو التاريخ»، والذي يسمى بـ «هيرودوت الكرد»، سوى أن ابن هيرا: الإلهة المعتبرة لدى اليونان، وهو ما يعنيه اسم هيرودوت،

(1) المصدر نفسه، وقد وردت أرقام الصفحات في المتن من باب الإيجاز.

وحامل اللقب/ الوسام الفارسي: شرف خان، يتباعدان من هذا الموقع الاعتباري، في علاقة كل منهما ببني جلدته، وهو يضع في حسابانه التاريخ الآتي وما يمكن قوله في كل منهما .

وربما أمكن التتويه إلى جانب آخر في هذا المضمار، وهو مرتبط بفرد من أفراد أسرة بدليسي من الأمراء، أعني بذلك: إدريس بدليسي «1452-1520» أي سلف شرف خان، وما قيل فيه هذه المرة، بعد الصعقة الأولى للجسد الكردي جهة تمزيقه أو تفريقه بين كل من الفرس والعثمانيين (وقد كان الوسيط بين السلطان سليم والكرد، عبر علاقاته معهم ومعاهدات مع الأمراء الكرد، هو الشيخ إدريس بدليسي، والذي كان بمثابة «العالم الكردي الأول بالتاريخ في الدولة العثمانية، وبالنسبة إلى إدريس بدليسي، من ناحية كان بمثابة الخبير السياسي للسلطان سليم، حول كردستان والتي ربطها بالإمبراطورية العثمانية، ومن ناحية أخرى، كان بمثابة مؤرخ السلطان» حيث كتب للمرة الأولى تاريخ العثمانيين. في الهامش، يشار إلى كتابه هذا: الجنان الثماني⁽¹⁾).

وإذ أشدّد عليه، وأن يردّ اسمه في أكثر من مكان، وأعاود الحديث عنه، اقتباس معلومة عنه، أو مكاشفة معلومة في تاريخه ومسلكه، فلاهمية الاسم والواقعة كردياً .

لهذا أقول في ضوء ذلك: هناك الفرس، وهنا العثمانيون، فهل علينا إظهار مشاعر الفرح، والتباهي بمثل هذه الألقاب أو الانخراط في لعبة التبعية للآخر، بوصفه الأقوى، وإشهار عبادة القوة: قوة الغريب، قوة الخصم، ونسيان قوة الذات ؟

يذكرني هذا الجانب بما ورد في كتاب فلسفي- نفسي، وهو (لا يمكن إيجاد تاريخ «جيد»، دون بعض التنظير الفلسفي حول التاريخ، ولا إيجاد فلسفة «جيدة» دون مقارنة تاريخية وتاريخية شديدة المتانة⁽²⁾).

إيجاد تاريخ جيد، باعتماد فلسفة جيدة، حيث التاريخ يكون المحور، ولكن التبصير الفلسفي، وهو الإمكانية الأقدر للوقوف على حقيقة هذا التاريخ، كي يؤخذ به تاريخاً، وكي يحرر تاريخاً جيد التدوين، بغض النظر عن محتواه طبعاً .

(1) اوزون، محمد: بداية الأدبيات الكردية، المصدر المذكور، ص 7.

(2) يراجع كتاب جاك دريدا- اليزابيت رودينيسكو: ماذا عن غد «محاورة»، ترجمه عن الفرنسية: سلمان حرفوش، قدم له: د. فيصل دراج، دار كنعان، دمشق، ط1، 2008، ص326.

إزاء ذلك، هل يفكر مؤرخونا حين يتناولون واقعة تاريخية، سواء بالنسبة إليهم: كردية، أو لغيرهم، بمثل هذا التروي المطلوب فلسفياً، حيث تراعى الأبعاد التكتيكية والاستراتيجية. وأرى مدى افتقار أغليبيتهم إلى هذه الاستراتيجية.

وفي العودة إلى جكرخوين، لا أصنّفه مؤرخاً، خصوصاً وأنه مشغوب بسيرة حياة، وليسيرة حياة مذاق نفسي آخر، كما أن للسيرة جهة المفهوم، توجه معرفي مختلف، أما أن يعتمد على أنه يتضمن ما هو تأريخي، ففي ذلك إساءة إلى التاريخ.

وعلى الصعيد الكردي، يظهر أن الكرد من خلال المعنيين بهم سدنة سلطة، أو ساسة أو كتّاب تأريخ، بمقدار ما يشددون على التاريخ، ويقولونه من عندهم ما يشاؤون أحياناً كثيرة، استناداً إلى واقع معرفي ونفسي بائس، وينشغلون به، في النطاق «الأكاديمي» وخارجه، في الكتب والصحافة، والإعلام، ما أبعدهم عن حرفية التاريخ، ومفهوم الأرشيف الذي يتطلب أول ما يتطلب ذهنية منفتحة ومستشرفة لآفاق بعيدة، وحوارية في الأصل، وهم جرّاء ذلك مستبدّون أنفسهم.

فحوى الكلام هنا، جهة المأثور اليومي هو التالي: يعني ما تقدم أن المعبر عنه بعائده أو مردوده القبائلي الضيق، وفي حمى الذهنية المستلفة منه، يوفر لنا مجالاً حياً، ومضاء من جهاته الأربع. لماذا؟ بغية التعرف على كيفية الاستيلاء على ذهب كردستان، ومقصدي من هذا المعدن الأصفر النفيس والباعث على الفتنة كثيراً، هو أنه يخص إمكاناتها الطبيعية، أو مواردها البشرية بالتوازي، عندما يؤخذ بعين الاعتبار أن المستجندات العاصفة التي عاشها الكرد أو بوغوتوا بها في عمق تاريخهم الطويل والمتقطع بالمقابل، كانت تدفع بهم لأن يظهروا عائمين على سطح الأحداث، جرّاء ذهنية افتتاتية قبائلية تحرّك فيهم تلك الفيروسات الكامنة، لتعشش في خلاياهم الحيوية باضطراب، وهي تستبقي تلك الخاصية القبيلة المعزولة عن غيرها، مرجعية احتماء لهم، أو تعمل لغاياتها الجزئية، أكثر مما يربطها ذلك بالقبيلة المتاخمة، وكأنني بأي حديث، أو قول عارض نفسه، يرتبط بكردستان، وهو في محتواه مؤلم بالتأكيد، يمضي بالقارئ في الحال إلى تبين ما هو قائم بشرياً فيه، وما يترتب عليه هو ما لا يرضاه الكرد في أعماق سريرتهم، أي حيث يستمر الكرد في وجود لا يملكون فيه حتى أنفسهم، بوصفه وجوداً مصاداً وهم مشمولون بآلية المصادرة التاريخية هذه، وليس أن يكونوا في مستوى المتردد بلسانهم، وهو أن يكونوا مستقلين، ومشغولين بالصيغ الضامنة لوجود يحمل اسمهم، ويعلي شأنهم، وهو ما يدقّع بنا أكثر إلى الفضاء الرحب بآليات العنف المبتكرة من جهتهم وفي أنفسهم كحصيلة

تأريخية لما يفكرون فيه، ويظهرون من خلاله، إذا أمعن النظر في حقيقة المسماة تاريخياً بـ «الخيانات الكردية» داخل الوحدة القبلية، وفي بنية الإمارات الكردية ذات الصيت تاريخياً كذلك، وقد «تبرّجت» للمستبد بها كثيراً، وهو الداء المزمّن الذي يستفحل حتى الآن، عندما ينبري أي كاتب يشغل نفسه بحثياً في الخميرة التي تؤثر في عجينة الأحزاب الكردية، وما يُسمى بـ «برامجها» السياسية، ونطاق عملها، أو حدود اشتغالها الفعلية زماناً ومكاناً، وكيف تمضي «شعائرها» الحزبية القائمة، فيما بين أعضائها، وداخل بطانتها، أي حين يكون رصيد السلب، أو النفي السلبي للواقع متجاوزاً لما هو إيجابي وفي الظروف المتاحة كذلك، حيث التلويح المستمر بما هو شعاراتي مؤجل، أي: عامل الوحدة الكردية في مفهوم «الشعب - القومية - الأمة...»...

أكان جكرخوين الشاعر، وهو يكتب سطوراً موهورة بمثل هذه الحالة، متفيساً خارج هذه الدائرة الخائقة ؟

لنتوقف عند مثال آخر، وهو معلوم باسمه: مكانة ثقافة واعتبار قيمة بالمقابل، وهو مارتن فان بروينسن، المؤرخ والأنثروبولوجي الهولندي، حين يتحدث عن نسب عموم زعماء بوتان من البدرخانين، وما يترتب عليه من أقوال ضمنية، تقودنا إلى توقع ما يمكن أن يتكلمه بصدد الفروع العشائرية والقبائلية المنتمية إلى الإمارة هذه:

(كانت إمارة بوتان على امتداد عدد كبير من القرون، تحكمها عادة تحدّرها من خالد بن الوليد أحد أشهر قادة النبي العسكريين).⁽¹⁾

(1) بروينسن، مارتن فان: الآغا والشيخ والدولة «البنى الاجتماعية والسياسية لكردستان» المصدر السالف ذكره، ص 383.

ولكي يكون القول أكثر وضوحاً، أثبت هنا بالمقابل، ما أتيت على ذكره في كتاب: دولة حاجو آغا الكردية، أسفل هذا الهامش، وتحت رقم «99»، وقد وردت عبارة لافتة، وهي متممة لما سبق، وبلسان بروينسن (إن ما يلي «أي بخصوص الحديث عن بدرخان بك وسقوط إمارته»، قائم على أساس من معلومات شفوية جمعت في بوتان في ربيع وصيف العام 1976). ذلك يتطلب مكاشفة نفسية وعقلية وتحليلية لمثل هذا الإجراء، إذ إن الفاصل الزمني بين هذا العمل وسقوط الإمارة المذكورة، يتعدى المائة عام، ولنا، كما أنه علينا النظر في طبيعة مسافة زمنية كهذه، وطبيعة المعلومات ذات الصلة من جهة أخرى، حسبنا أن نشير هنا إلى مدى تأثره بوديع جويده، في مصدره المذكور، حول هذه النقطة، مستنداً هذه المرة، لا إلى رواية شفهائية، وإنما إلى رواية بدليسي في «شرف نامه، ص 169».

وأضيف هنا، أن الأنثروبولوجي إذا كان يخلص لرواية الآخر المنقولة، إلا أن مهمته لا تتوقف عند هذه النقطة، إنما تتجاوزها، وهو يقدم ما هو معرفي يعرف بشخصيته وموقفه مما يسمع.

لا بد أن الذي يثير مخيال باحث ما نسبياً، هو هذا الربط بين مكانة إمارة بوتان، وأصول الذين اشتهروا فيها، وأفصحوا عن أنفسهم، جهة الأصول هذه، أي كونهم، وبلسانهم، أنهم ينتمون إلى أصول عربية، واستناداً إلى هذه النقطة، يمكن النظر في بنية المتكلم نسبياً.. أي ما يخفف عبء مسئولية القول عن بروينسن، وإن كان يبقيه في مواجهة السؤال عما يمكن الاستفسار عن حقيقته، أعني بذلك، سؤال: ما الذي يدفع بهم لأن يشدوا الرحال إلى خانة نسب لأكردية؟

في العدد الأول من جريدته ذات الصيت القومي الكردي «كردستان» يعرف مقدار مدحت بدرخان بنسبه، حيث يقول:

(يا علماء وأمرء وأغاوات الكرد!)

أنتم جميعاً تعلمون أصلي ونسلي، فجدّي هو خالد بن الوليد رضي الله عنه ((كل أمرء وشيوخ الكرد، بل المسلمين، يعلنون انحذارهم من أشراف العرب لأسباب دينية وسياسية - المترجم))، وعشيرتنا (بوطان) وشهرة نسبنا (عزيزان: آريزان). أنا أعمل في سبيل الله، أسست هذه الجريدة، وصرفت من أجلها كثيراً من المال، أعاني من الضيق بسببها، وهدفي هو خير الكرد، فأرفعوا أنتم أيضاً أياديكم، علّموا الكرد، علّموا أولادكم العلم والأدب، وعلّموهم الصنائع (المهن)، يجب أن يكون المسلمون متعلّمين، يجب أن يتعلّموا دينهم...

الآن، أمل من علماء الكرد أن يقرأوا جريدتي هذه لأمرء وأغاوات الكرمانج (الكرد)، وازرعوا في عقولهم ما أمر به الله تعالى وحضرة الرسول، عليه السلام بصدد تعلّم العلم...⁽¹⁾.

حول ذلك، من المفيد الرجوع إلى كتاب إ. إيفنز- برتشارد: الأناسة المجتمعية «ديانة البدائيين في نظريات الأناسيين»، ترجمة: حسن قبيسي، دار الحداثة، بيروت، ط1، 1986، كما في قول المؤلف (إن فهم عقلية شعب من الشعوب لا يسعه إلا أن يولّد التعاطف تجاهه، بل أنه قد يخلق أحياناً نوعاً من التفاني في سبيل قضيته ومصالحته. وهذا أمر يفيد منه الأوروبيون والأهالي على السواء. ص 140).

(1) ينظر مقدمة مقدار مدحت بدرخان لجريدة كردستان، ترجمة: جان كُرد، موقع بانكي ولات، 23 نيسان، 2010.

ويمكن الرجوع إلى المصدر، في كتاب

Felat Dilgeş: Rojnamaeya kurdî ya Herî pêşîn: Kurdistan, Nûbihar, Stenbol, ç2, 2017, r:23.

فلات دلگش: الصحيفة الكردية الأولى: كردستان، نوبهار، ستانبول، ط2، 2017.

واللافت أن الكاتب لا يتطرق إلى تصريح من هذا النوع، لا من قريب، ولا من بعيد، ينظر في الصفحة نفسها، وبعدها، من باب التأكد..

طبعاً، بالتوازي مع هذا القول بالنسبة لمقداد بدرخان، نجد لدى صالح بدرخان، في: مذكراتي، ترجمة: روشن بدرخان، الناشر دلاور زنكي، دمشق، ط1، 1991، ما يعزّز هذه الواقعة النسبية وهو يتحدث عن طفولته، وكما رأينا في مكان آخر أيضاً (والدي محمود عزت وجدت صالح بن عبدالله خان.. وأمي ليلي «لا إلى» ابنة بدرخان بن عبدالله خان. عائلتنا من سلالة آريزان أمراء بوطان في كردستان ص13.. ثم: يروى أن السلالة الآريزية تنحدر من نسل خالد بن الوليد. لا يوجد بين أيدينا أي وثيقة تثبت ذلك، وليس لنا أي دليل بذلك.. وفي سجل عثماني يقال أن سلالة بدرخان تنسب إلى خالد بن الوليد.. وفي شرفنامه، جاء عن أن أول أمير حكم الجزيرة المعروفة باسم «آريزان» كان أمير اسمه سليمان بن خالد واشتهرت أيام حكمه بالعدل والرخاء. ترك عند وفاته ثلاثة أبناء: عبدالعزیز، مير حاجي بدر، ومير عبدالصديق ص14... بعد ذلك يقول عن أن خالد بن الوليد بعدما أتم فتح «ديار بكر التي كانت تسمى آمد» حين ذاك وضع حفيده عبدالعزیز بن سليمان والياً هناك فتشعبت منه بطون آريزان. وإن وجود ضريح سليمان بن خالد في ديار بكر يقرب هذا الادعاء للتصديق.... والحاصل أن بدرخان هو آخر حكام الجزيرة بينما كان يعلن الحرب على العثمانيين ليكسب الحرية والاستقلال وأضاع المعركة بسبب خيانة أحد المنتمين للعشيرة وكان اسمه «عزالدين شير» ص15... الخ)، ليس من اعتراض على هذا النسب/التنسيب، خاصة وأن العثمانيين ذكروا في مذكراته، أي هم من أوردوا هذه الواقعة في سجل أرشيفي لهم، ربما لأنهم هم من أفصحوا عن ذلك، رغم أن المتردد عن خالد بن الوليد، غير صحيح إطلاقاً، كونه لم يخلف ولداً، كما هو معروف...

وفي الوقت الذي برع فيه العثمانيون أنفسهم في ابتداع ألقاب ومقامات تقرّبهم مما هو ألوهي، وهم بذلك يعرفوننا على الخلفية الشعائرية لطريقة تعاملهم مع أنفسهم، وفيما بينهم والآخرين.

ففي كتابة تاريخ الترك، يمكن تلمس هذه الهجنة المكوّنة من عراقية بداواتية شامانية لا تروّض ورغبة في حداثة نافذة في المجتمع المدني، حيث يمكن مراجعة كتاب يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: عدنان محمود سلمان، مراجعة وتنقيح: د. محمود الأنصاري، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، استانبول، 1988، في تعزيز فكرة الشامانية المؤصّلة في بنية التاريخ التركي الأولى، صص 17-19، وأن اعتبار (الإمبراطور التركي المسمى «خاقان» مؤلّهاً ومقدساً، هو ليس إلهاً تاماً، ولكنه «شبيه الإله» ص20)، وكذلك كتاب و. بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة: د. أحمد السعيد سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1996، بصدد الشامانية السالفة، صص 26-28، ومعنى مفردة «الترك» التي تنحصر في مجرد مفهوم «القوة والاقتدار»، بل ربما «القوم»، وخلافهما، ص44، إلى جانب الكتاب المهم: المدخل إلى التاريخ التركي، ليلماز أوزتونا، ترجمة: أرشد الهرمزي، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط1، 2005، جهة عدم التأكد من ربط «الترك» بالقوة أو دقة

التسمية، ص14... الخ، ويمكن التوسع في قراءة ثلاثة أبحاث منشورة بالتسلسل في مجلة «الاجتهاد»، بيروت، ع 41-42، 1999، على التوالي: ظهور الدولة العثمانية في الدراسات التاريخية، صص9-56، و: تكون الدولة العثمانية، صص57-79، وهذان للباحث جمال كفادار، والثالث مهم جداً، حيث سنتعرض له تالياً، لخليل إينالجي «أو إينالجيكي»: الدولة والرعايا، صص82-126.

وحتى الآن نتلمس مثل هذه المفارقة، وحتى الأمس القريب كان التركي دالاً على بدائية مرفوضة، طارئة على المدنية، تكاد تفتقد التاريخ الجدير بالتقدير، خلاف العثمانية ذات القرون العديدة من أمجاد «الفتح» وسطوة الذاكرة الاستثنائية، كما يمكن متابعة ذلك في مؤلفات مختلفة، كما أشار إلى ذلك فؤاد حمزة في كتابه: وصف تركيا الكمالية 1943-1945، تحقيق وتدقيق: د. محمد نورالدين، دار الجديد، بيروت، ط1، 2013، بقوله (أما العنصر التركي فإنه لم يكن العنصر الأكثر حظوة في عيون السلاطين، وكانت لفظة التركي ترد إلى معنى يدل على الصغار والاحتقار، فقد كانت تعني «القروي» أو «الفلاح الجلف القاسي» أو «البدوي الجاهل» أو «الأعرابي» أو الشخص الذي لا يتمسك بالدين وبقواعد الأخلاق، وكأن القوانين الشرعية كانت تنظر إليه كنظرها إلى أهل الذمة... ص44)، وما يشير إليه حميد بوزرسلان لاحقاً، من تصور مغاير، في كتابه: تاريخ تركيا المعاصر، ترجمة: حسين عمر، دار كلمة، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2009، عبر اعتبار الهوية التركية ضامة كل الحضارات الأناضولية والميزوبوتامية «الحيثية والسومرية»، وأن لغات العالم لم تكن سوى مشتقات بسيطة، محرّفة بالضرورة، عن لغة «الشمس التركية»... ص56. وربما جازت إحالة القارئ المهتم إلى تأمل أصل أو محتوى مؤلف «ه.أ. غيبون: 1880-1934» الأميركي: تكون الإمبراطورية العثمانية، والتي استعرض فكرته جمال كفادار في بحثه الأول والمذكور سالفاً، وتركيزه على البعد الخرافي في كتابة تاريخ الدولة العثمانية وشقاوة من هم وراءها، ومن ثم سلب القيمة التاريخية المعززة لها وتنسيبها إلى الأوربيين، عبر البوابة البوسفورية البيزنطية، صص15-19.

وللمزيد، ينظر كذلك في: البلاد العربية في الوثائق العثمانية «النصف الأول من القرن 10هـ- 16م»، إعداد وترجمة ودراسة: فاضل بيات، تقديم: خالد أرن، ستانبول، 2010، ص 4-6، وما جاء به ساطع ساطع الحصري، في كتابه: البلاد العربية والدولة العثمانية، المصدر السابق، بصورة معمّقة للفكرة، رغم أقدمية الأخير طبعاً، في مفتتح رسالة من محمد الفاتح إثر فتح القسطنطينية إلى «شريف مكة المكرمة» بهذه المناسبة، يبشّره بالفتح، ويطلب الدعاء، ويرسل هدايا من الغنائم، من ذلك بداية الألقاب التالية: مطلع لوازم العز والتمكين، مظهر مآثر الملك والدين، فلذة أكباد الرسول، زبدة أحفاد البتول، أمير المسلمين وولي المؤمنين، خلاصة أولاد شفيح المذنبين، وهو السيد الشريف... فالأموال من مقر عزتك الشريفة أن يبشش بقدوم هذه المسرة العظمى والموهبة الكبرى مع سكان الحرمين الشريفين، والعلماء والسادات المهتدين، والزهاد والعباد الصالحين، والمشايخ والأمجاد الواصلين، والأئمة الأخيار المتقين، والصغار والكبار أجمعين... وبعثنا مع المشار إليه هدية

اقتباس، اعتمدته في العديد من دراساتي، وأورده كذلك، لخطورة نتائجه:

حيث لا يتطلب تصريح كهذا أي تفسير جانبي، رغم أنه في الإمكان القول أن الذين يشتغلون على خط نسب آخر، يستهدفون شيئاً آخر، وهو أن يكون لهم حضور آخر، أن يسلّموا، وأن يذاع لهم صيتهم وفق معايير أخرى. لكن ذلك يبقى عقدة المشكل قائمة، ويبقى كل من يجد له تبريراً، في خانة المسائلة بالمقابل، أي ما يخص البعد الذرائعي في ذلك، وهو بُعد، ما أبعد عن المرجو جغرافياً بمفهومه الكردي بعمق.

وفي العودة إلى هفيركان التي كانت تتبع الإمارة هذه، نجد بروينسن، يتحدث عن هفيركان وهي في تنوعها، ولا يشير إلى أي نسب جانبي، أو شارة معينة، تلمح بوجود نسب آخر، تمت تسميته، كما تحدث جكرخوين:

(إن الهفيركان اتحاد قبائلي كبير يتكون «حسب ما يشاع» من أربع وعشرين قبيلة، بعضها مسلم، وبعضها يزيدي، وكان هناك أيضاً عدد من المسيحيين المرتبطين بالقبيلة ارتباطاً دائماً. وكانت الهفيركان تنتمي إلى إمارة بوتان. وحينما كانت هذه لا تزال قائمة كان النظام سائداً، حسب ما يقال. فلم تكن هناك نزاعات ضمن القبيلة الواحدة، ولا بين القبائل على وجه مؤكد. وكان للهفيركان زعيم عام تابع لأمير بوتان. وحين هُزم هذا الأخير على يد العثمانيين ونفي «1847» تفككت الإمارة، كما تفكك العديد من القبائل بعد أن فرقت الصراعات على الزعامة.⁽¹⁾

لكم خاصة ألفي فلوري من الذهب الخالص التام الوزن والعيار المأخوذ من تلك الغنيمة. وسبعة آلاف فلوري آخر للفقراء، منها ألفان للسادات والنقباء، وألف للخدام المخصوصة للحرمين، والباقي للمتمكنين المحتاجين في مكة المعظمة والمدينة المنورة، زادهما الله شرفاً.. ص 27.

طبعاً يبقى التنويه إلى الطريقة التي خطط لها السلطان العثماني وحاشيته المقربة لأنفسهم ولقوادهم، ومن خلال ألقاب ورتب وإقطاعات أرضية وغيرها، ضرورياً، لاستدامة السلطة. نجد صورة عن ذلك مثلاً، في كتاب ساطع الحصري الشهير: البلاد العربية والدولة العثمانية، طبعة موسّعة، دار العلم الملايين، بيروت، ط3، 1965. في هذا الكتاب، يقدم لنا معلومات مفيدة في المضمار، حين يقول (كان العثمانيون، عندما يستولون على قطر من الأقطار، يحصون القرى الموجودة فيه، ثم يقسمونها إلى مقاطعات، بعضها صغيرة وبعضها كبيرة. ويمنحون المقاطعات الصغيرة إلى الجنود المحاربين، والكبيرة إلى القواد الأمراء، وذلك بعد أن يخصصوا طائفة من المقاطعات الكبيرة إلى السلطان... وقد كان السلطان العثماني يتمتع بسلطات مطلقة، لا يحدّها أي حد. ص 29-32). الخ

(1) بروينسن، مارتن فان، المصدر المذكور، ص 230.

هذا الاتحاد القبائلي كان مؤلفاً في عموم كردستان، ويمكن أن نتلمس فيه تكويناً ذا طابع مدني، إنما دون مؤسسات، بالمفهوم الحرّفي للكلمة، بما أن هناك مجموعة من العشائر، ولكل منها زعيمها أساساً، تتنازل عن سيادتها الذاتية، بغية أن تكون أكثر تمتعاً بالقوة جرّاء عملية التوحد في نطاق جغرافي، وله هيئته بالمقابل، ولا بد أنه يتطلب وعياً لافتاً كي يكون في مقدور أي عشيرة بمفردها أن تعترف بزعامة فرد آخر، يكون هو الزعيم الأكبر، دون تجريد زعيم كل عشيرة من خاصيته الزعاماتية المحلية، وهو حساب يستحق الدراسة، إنما محتوى هذا الاتحاد يكون لصالح قوى الجميع هنا. والناظر في اتحاد قبائلي كهذا، لا بد أن يلاحظ أمراً آخر، وهو أنه في مضمونه يسير في طريق التحول إلى كيان سياسي معتبر: أي كيان الدولة، حين يوضع دستور، تراعى فيه مكانة جميع أفراد الاتحاد، وبالتالي، فإن هذا النسيج الجغرافي، والقبائلي المشترك يذكّر بعملية التطور التي تقود نحو إعلان دولة، في مناطق مختلفة في العالم. ومن الطبيعي أن الذي حفّز الاتحاد لأن يكون اتحاداً، أي حامله الأوحد: القوة التي تسمذي الجميع، حين تلحق الهزيمة بالهرم الأكبر، كما في حال هزيمة إمارة بوتان، أي زوال القوة، أن يحصل التفكك، وتسعى كل عشيرة إلى تأكيد وجودها بذاتها، أو عبر البحث عن شراكة اتحادية من نوع آخر، خوفاً من أن تصبح فريسة لغزو خارجي تعجز عن صدّه. أي إن الانتساب إلى الحامل الحي للقوة، وعي بتاريخ القوة، ورهان عليها، مع تزايد الضغوط على القوى المحدودة، وربما أمكن النظر في كيفية خروج شطر من القبيلة نفسها، أو خروج عشيرة من الاتحاد، تقديراً معيناً، بأن هناك خطراً يهدّد الاتحاد، وحين تلحق به الهزيمة، سوف تعقبه انتقامات من القوى المحيطية، ولهذا تتسحب منه، نشداناً للأمان المقدّر.

هذا ما نتلمسه على مستوى أعلى، كما في حال دولة الأيوبيين، في شخص صلاح الدين الأيوبي، إذ (ب وفاة السلطان، انفرط عقد الاتحاد الذي أقامه السلطان بين الأقاليم الإسلامية في مصر والشام والجزيرة، ونحت تلك الإقاليم منحاً مستقلاً، رافقها حدوث اضطرابات داخلية بسبب طموح الأمراء في توسيع مناطق نفوذهم، وكان الملك الأفضل طرفاً بارزاً في تلك الخلافات ودخل في صراع سياسي مع أخوته وعمه الملك العادل).⁽¹⁾

(1) الدوسكي، شفيان ظاهر عبد الله: الملك الأفضل «علي بن صلاح الدين الأيوبي»، دار الزمان، «دمشق، 2012»، ص 107.

وهذا المثال يقدم لنا درساً عالي المستوى، عن الحراك السياسي داخل جسم الدولة الواحدة، والذهنية الفكرية التي تنتشط داخلها، جهة العلاقات الاجتماعية، والنظر إلى فكرة الزعامة، لحظة استسهال فكرة الزعامة بالذات، دون أخذها بعين الاعتبار الرئيس، وهو أن الزعامة ليست بالصهوة السهلة الامتطاء، إنما هي صهوة حصان برّي، حرون، يتطلب ضبط حركته المزيد من الحنكة والمران والدهاء وحتى المسيرة في بعض الأحيان بالمقابل.

ولأحد الباحثين في الشأن الكردي رأي جدير بالثبوت، وهو يحقق في آلية العمل بالسلطة لدى الكرد، وكيف تتشكل العلاقات الجانبية، أو تكون طبيعة تعاملهم مع عدو خارجي، ومع بعضهم بعضاً في ظله (إما عدم الرضوخ لأي سلطة حكومية تريد أن تحكمهم بالقوة ورفعهم لواء العصيان عليها، وإما الانضمام إلى حاكم قوي فيكونون جنداً له يحارب به، وفي كلتا الحالتين يجنون على أنفسهم. والتاريخ مملوء بهذه الحوادث... ومن ثم ما يترتب على قراءته في تاريخ هذا التشرذم الكردي- الكردي، أو الافتتات الكردي: وإذا قرأنا تاريخ إمارات الكرد نجد أن الحروب بين الأسرة الواحدة كانت تبلغ حد الوحشية، كما في حال الأمراء الجليليين والفتن التي سادت فترة حكمهم وهي 120 سنة).⁽¹⁾

هذا التجمهر والتبعثر، مفهوم جدلي مركّب، انشطاري سلباً، أو ميكروبي مؤذٍ، لا يبدو أنه يستساغ لدى الكرد تاريخياً، إلا في النطاق الأكثر سلبية، وما فيه من عدم تماسك إرادة المسؤولية، خلاف الكثير من القوى المحيطة بهم، وهي تتماسك، في الوضع المشابه لهم.

ولعل المفيد في هذا المضمار، أو المعتبرك الساخن، إمكان الرجوع إلى كتاب الباحث الكردي زرار صديق توفيق «كردستان في العهد الجلائري»، إذ إن الكتاب في محتواه يكشف كيفية تسيير علاقات القوة المتكافئة والسهلة الإيقاع فيما بينها، السهلة التصارع لهذا السبب بالمقابل ففيما يخص الربط بين عائدات القوة العددية والنوعية للكرد وانقسامها النوعي (كان الكرد خلال العصور الإسلامية «أمة مشهورة»، فهم «خلائق لا تحصى وأمم لا تحصر»، وكان أولادهم وحفدهم يتكاثرون بإطراد بفعل

(1) الديمولوجي، صديق: إمارة بهدينان الكردية أو إمارة العمادية «يبحث عن حياة الكرد التاريخية والسياسية في بهدينان وما يتعلق بهم من أخبار وحوادث»، تقديم ومراجعة الدكتور عبدالفتاح بوتاني، آراس، «أربيل ط2، 1999»، ص 10-33.

«الحكمة الإلهية»، فلولا «سيف الفتنة بينهم يستحصد قائمهم وبنه نائمهم»، ولولا «حدوث التقاتل والتناحر الدائم بينهم»، لفاضوا على البلاد، بحيث لم تجد «خيلاً تكفيها في الركوب»...⁽¹⁾.

ومن ثم ما يتعلق بموضوعنا في ضوء هذه الوقائع «صراعات الأخوة الجلائريين»، فإن المناطق الكردية الواقعة على طريق بغداد- تبريز صارت ميداناً لجانب منها وساهم الأمراء الكرد في بعضها، ففي سنة 782هـ/ 1380م نشب خلاف حاد بين سارو عادل «عادل آغا» أكبر أمير بالدولة الجلائرية، وصاحب اليد الطولى في بلاد السلطان حسين وبين جماعة من الأمراء لتضارب مصالحهم الشخصية، وتمرد الأمراء على السلطان حسين لوقوفه إلى جانب سارو عادل، وأظهروا نيتهم في خلعه، وتنصيب أخيه بايزيد بن الشيخ اويس سلطاناً ولما كشفت مؤامراتهم وعلموا بنوايا السلطان حسين في الانتقام منهم... الخ.⁽²⁾.

والناظر في التجابه بين القوى المتصارعة، وغير المتكافئة، ومن ثم تعرضها لقوى أكبر منها، وتأثير الأخيرة في تلك، أي بصدد ميزان القوى، يمكنه تتبع توجهات الكرد، في مشاعرهم، وهواجسهم، ورهاناتهم، في ضوء تجارب سالفه، حيث

(تحول عدد من القبائل الكردية في بعض الأماكن إلى «ضد القومية الكردية» إن جاز التعبير وأن الظاهرة هذه غالباً ما تشاهد في الأماكن التي تقع بعيدة أو على الحدود القومية للشعب الكردي).⁽³⁾.

(1) توفيق، د. زرار صديق: كردستان في العهد الجلائري «737-814هـ/ 1337-1441م»، منشورات مركز الدراسات الكردية وحفظ الوثائق، جامعة دهوك، «دهوك»، 2009، ص 29.

(2) المصدر نفسه، ص 110.

(3) بابان، نزار: كردستان: جنة الله وجحيم أمّة، مراجعة وتدقيق: خضر أبو العينين، الأهلية، «عمّان»، 2010، ص 21.

ذلك ما يذكّرني بمقال ذي طابع حكائي لموسى عنتر، أورده لأهميته، وعنوانه: بعد الآن، لن يستطيع العدو دفعنا لأن نأكل لحم بعضنا بعضاً، ونصّه:

على مدى مئات السنين، كان عمل أعداء الكرد يتلخص في دك الإسفين فيما بينهم. لقد جوعونا بحيث قسموا كل عشيرة إلى اثنتين، أو ثلاث عشائر. مثال، في كردستان، تأتي عشيرة أومريان من حيث العدد بعد برزان، كانت تحكم تسعين قرية، كانت مساحة تواجدها أكبر من لوكسمبرغ. سوى أن الحكومة العثمانية، ومن ثم «الجمهورية التركية» آذارت تشطييراً في هذه العشيرة، وحولتها إلى أعداء لبعضها بعضاً.

ليكون هناك محمودكي وعثمانكي، وهم مع أغواتهم كانوا أبناء عمومة، إنما كانوا معادين لبعضهم بعضاً. كما في حال عائلة أوصمان، عائلة سليمان، عائلة اسماعيل، وعائلة طاهر. لأجد أن علّة حكومتنا الحالية تتبع من هذه النقطة. فالکرد تنبّهوا، حيث لم يعودوا يتبعون الملالي، لم يعودوا يتبعون العشائر كذلك. لقد توحّدوا، أصبحوا شعباً. والعداوة التي ما بينهم تحولت إلى أخوة.

سابقاً، حين كنت أتأمل وضع الشعب الكردي، فأذكر هذه الحكاية. الحكاية تردّ بالشكل التالي: يقال أنه في مدينة ما، ظهرت فئران ضخمة «جراييع»، مهدّدة إياها. لم تستثن شيئاً: الزروع، البساتين. وقد عجز حاكم المدينة عن القضاء عليها.

يتوجه إليه صويّة، قائلاً له «أستطيع القضاء على هذه الفئران».

يرد عليه الحاكم «هيا انصرف، كيف ستقضي عليها؟» «يرد الصويّة» يا رجل، أنا لا أطلب منك نقوداً. ما أطلبه منك فقط، هو أن تصنع لي قفصاً حديدياً كبيراً. وعلى القرويين أن يأتوا بالفئران حيّة، يبيعونك إياها. وسوف نضعها كما هي، حيّة في القفص «فيتم صنع قفص بشبابيك صغيرة، ويضع الصويّة فيها ألف فأراً، ويغلق عليها باب القفص».

تمضي أيام معدودات، فتجوع الفئران، فتبدأ بافتراس بعضها بعضاً. في البداية، تُفتّرس الفئران الصغيرة، فالكبيرة ومن ثم المريضة، وشيئاً فشيئاً يتناقص عدد الفئران.

في بعض الأحيان، كان الصويّة، يرمي إليها بعض فئات الطعام، فتلتهمه الفئران وهو في الهواء. إلا أنه بعض فترة، لم تعد الفئران تأكل الطعام القادم من الخارج، سوى أن الصويّة حين يقتل فأراً في الخارج، ويرميه إلى داخل القفص، بينها، تثبّ إليها مجتمعة وتلتهمه.

وأدرك الصويّة أن الفئران قد تعلّمت التهام بعضها بعضاً، فيفتح باب القفص، وكان قد بقي من ألف فأر، ما بين 40-50 فأراً، سوى أنها اكتسبت طبيعة القطط، وقد دخلت دفعة واحدة إلى المدينة. ولم تهرب منها الفئران الموجودة، حيث حسبت أنها فئران بدورها، إلا أنها في طبيعتها تحولت إلى قطط.

بالطريقة هذه باشرت بقتل الفئران في المدينة، وقضت عليها كلياً.

بمقدار ما أنظر إلى وضع الكرد تاريخياً، منذ أيام الخلفاء الأمويين، العباسيين، السلجوقيين والعثمانيين، أجد أن هذه الدسياسة تمارس في الكرد، حيث علّمونا كيف نأكل لحوم بعضنا بعضاً. ولهذا، وكما أسلفنا القول بداية، فإن علّة الترك، العرب، والفرس، هي في هذه، وهي أننا لم نعد نأكل لحم بعضنا بعضاً.

18-24 نيسان 1992.

المقال منشور في كتابه بالكردية «شجرة دلي»، آرام، ستانبول، ط3، 2013، ص 21-22، والتعليق الذي يمكنني طرحه هو: لقد كتب الكاتب الكردي الكبير موسى عنتر، مقاله هذا، مع مقالات أخرى، في فترة زمنية، توفّع من خلالها أن الكرد - حقاً - لم يعودوا كرد أيام زمان، وفي كردستان الشمالية بالذات، لو أنه عاش الآن، وأمعن في الخراب الذي تعرّضت له هذه، هل كان سيكتب مقالاً بهذا الشكل؟

وبالنسبة إلى محمودكي-عثمانكي، يورد بروينسن، في مصدره، ج1: المعلومة المفيدة التالية:

ذلك معهود، ليس لأنه يستحق الثناء، أو القبول بما يجري كردياً، وإنما ما هو ممكن توقعه، في ضوء لعبة علاقات القوة في حلبتها، وتداخلاتها، على المسرح السياسي المحلي، الإقليمي والدولي، وكيفية تلقي الكرد، عبر زعمائهم لهذه المؤثرات.

ففي المتغيرات السياسية على الأرض، لا بدءاً من الماضي بعيداً، وسبّر الكامن وراءها، جهة هذا الانتقال من حالة إلى أخرى، بالنسبة إلى جماعة أو أخرى عشائرياً، إذ إن الذي يعلمنا به تاريخ الوطن الكردي، إن جاز التعبير، هو أن ليس من ثبات في العلاقة بين وجود أي جماعة، مقارنة بغيرها، أي ليس من وجود انتقال قطيعي جماعي، طالما أن هناك سلسلة من التوزعات العشائرية أو القبائلية على مواقع/ رُفَع جغرافية، أو فلتسمّها تضاريسية، ناحية طبيعة الأرض، ومزاياها بالمقابل، لا بد أنها تستمد حضوراً لها في أنظار الآخرين، وحتى فيما بينها، من خلال هذه التوزعات، وحتى فيما بينها، وفي بعض الأحيان، كما رأينا، وسنرى متشابهاً كهذه الحالة تالياً، انفصلاً لجزء أو شطر من هذه الجماعة أو تلك، تبعاً لطبيعة تعامل الزعيم مع جماعته، وما إذا كانت الزعامة التي يحملها يمثلها في عيون أتباعه التمثيل الجاذب.

وبالتالي، فإن القرب أو البعد من أو عن مركز قوة أكبر، قوة المركز «الباب العالي» أو «السلطة المركزية» له اعتباره الاستراتيجي، وربما كان هناك نوع من المناعة القائمة على الاستشعار عن بعد لدى أي جماعة أكثر من سواها، أو، كما قلت، بعض أفراد منها، أو بالنسبة للزعيم ذاته في عملية الانتقال، حفاظاً على سلامة جماعته من عقاب جماعي ما، أو خسارة تكون نتيجتها فوق الاحتمال، وفي الوقت الذي تخبرنا الذاكرة الكردية في مثل هذه المتغيرات ذاكرة الخسارة، ذاكرة المكابدات الكبرى، ذاكرة المناوشات الجانبية، ذاكرة الإغارات المفاجئة، وذاكرة الحداد الذي لا يتوقف هنا وهناك.

يجري إسقاط وحدة العشيرة القائمة على التاريخ، بل يصار إلى اختراع أسلاف مشتركين. واستعانة برونودو، وهو يقدم وصفاً لهذه العملية بالنسبة إلى عشيرتين هما أنمانكان ومحمودكان اللتين تشكلان معاً قبيلة أومريان القاطنة في جبال طور عابدين، وكان بعض من رواته الكهول لا يزالون يتذكرون بأن محمود وأتمان كانا زعيمين لا تجمعهما أية صلة قرابة، إنما سُمّي أتباعهما باسميهما. ثم انتقل أحد أبناء أتمان الأصغر، وكان منشقاً، للعيش مع عشيرة محمودكان التي نصّبته فيوقت لاحق، نظراً لبسالته العسكرية، قائداً لها، وهكذا صار لكلا الجماعتين قائد من العائلة نفسها «عائلة عثمان: أوصمان. وفي الأخير تمت المصالحة بين فرعي العائلة واندمجت الجماعتان. وفي وقت لاحق ادعى الكثير من الناس بأن محمود وأتمان كانا شقيقين، وأنهما السلفان اللذان سمّيت باسمهما العشيرتان.. ص120.

وفي هذا الإطار، تكون الزعامة كمحتوى اجتماعي، سياسي، ثقافي، مأخوذة في الهوية الذاتية بالمقابل، عرضة لمثل هذه التلوينات، ومن ذلك: المؤثر الديني الذي يعاين هنا كفاعل ظلّي ملاصق بالكردية غالباً منذ أصبح الإسلام فاعلاً بنيوياً، وربما حتى هذه اللحظة، في تسيير مشاعره، وتلوين أحاسيسه، وحتى قطبنة أفكاره «كونها قطباً» أو تبعاً للعبارة هذه، في «تقطيب» انجراحاته «كنوع من المؤاساة، والتنفس في حاضنة غيبية، تخفيفاً لوطأة موجعة، إثر هزيمة، أو صدمة جانبية: من ترحيل، أو بعثرة للجماعة العشائرية الواحدة، أو اعتقالات جماعية وسواها.

وعندما نقرأ قولاً كهذا (يظهر تولّي الشيوخ مركز القيادة الوطنية بين الكرد ليس التبجيل الكبير الذي كان يحاط به الشيوخ بسبب شخصيتهم الدينية فحسب، بل يشير كذلك إلى أنه بعد الإطاحة بالأمراء الكرد العظام لم يكن يوجد زعماء دنيويون للكرد قادرين على امتلاك ما يكفي من القوة والسمعة لملء المقاعد الفارغة للسلطة. ويدل استعداد الكرد لقبول الشيوخ بوصفهم قادة على مدى الحاجة إلى ملء فراغ القوة الذي تركه اختفاء الأمراء. كما أنه يكشف عن الفراغ النفسي الذي أحدثه في العقل القومي الكردي. ومنذ استسلام بدرخان للعثمانيين عام 1847، كان غياب شخصية بارزة تجسد كل الأفكار المتعلقة بصفات الرجولة في مجتمع قبلي، أمراً غير طبيعي وغير مفهوم للكرد⁽¹⁾، لا علينا إلا أن ننبت موقعنا الفكري جهة المكاشفة التاريخية في عمق التحولات، وقراءة المتغير النوعي فيه، كما لو أن التسبيح الأغلب باسم ما هو دنيوي محض، حين تتأكد خسارته على الأرض، يباشر التسبيح في ظل المتعالي «الديني» دورته المناظرة لما هو طبيعي في النفوس، وهو ما يسهل علينا تبيّنه في ظهور أجيال متلاحقة من الشيوخ. في الخمس الأخير من القرن التاسع عشر، بدءاً من الشيخ عبيد الله النهري في كردستان الشرقية، وبلغت أوجها مع الشيخ سعيد في كردستان الشمالية، في الربع الأول من القرن العشرين، وهي التي ترينا ذلك الطابع التثويري لانتفاضاتها، ومآسيها بالمقابل. وهي نقطة بداية مختلفة في طبيعة مؤثراتها وحاملها العصبي المأخوذ بقوة مغايرة: مواجهة الكردي لعدوه، وبينهما ثمة دين واحد، هو الإسلام، وهي حالة نوعية في تاريخ الانتفاضات أو الثورات الكردية، في كوامنها وظواهرها وميكانيزمها أيضاً.

ويمكن لنا أن نتلمس في هذا الدائر بصفة دينية، مع تعزيز وعي ذي طابع قومي، طالما أن هناك دعوة إلى التمايز عن الجسم السياسي المركزي، وهو ليس بالأمر

(1) وديع جويده: في مصدره المذكور، ص 197.

السهل حصوله أو اعتماده، كرصيد مدفوع الأجر نفسياً، لدى الآخذين به، كما لو أن هناك قوى تمارس أدواراً لها، ليست متكافئة، إنما تتربص ببعضها بعضاً، وهي تظهر أو تختفي، تناسباً مع المتغيرات، إذ إنه (حتى فترة قتال قصيرة، بغض النظر عن النتائج، تكفي لإحداث تأثير قوي على تماسك قوة قبلية أو انضباطها. وما لم يسيطر على هذه القوة سيطرة صارمة يؤدي النجاح عملياً النتائج ذاتها مثل نتائج النكسة. وينتهي الاندحار بالتدمير الواسع وتشتت العدو، ويتدهور النصر غالباً إلى انغماس في ممارسة النهب والسلب والتجاوزات. إن المحاربين القبليين المثلثين بالغنائم والمرهقين بدنياً وعقلياً بثروتهم التي حصلوا عليها حديثاً يميلون إلى الانسلاخ والعودة إلى بيوتهم في أول فرصة. وهكذا في الحرب القبلية تكون قوة الوحدة القبلية المسلحة في حالة تدفق مستمر. وحتى عندما تكون القوة القبلية ناجحة قد تكون أعداد أولئك الذين يتخلون عن الصراع كبيرة بقدر أعداد الملتحقين الجدد بالقوة الذين تجتذبهم إمكانية تحقيق الثراء السريع)⁽¹⁾.

هذا التفاعل الصعب بالمفهوم السياسي، بين الديني «الغيبى» مرجعاً، والسياسي العملي «دنيو»، يعزز علاقات من نوع آخر، حتى بالنسبة للفرد الواحد داخل جماعته، وإن كان هذا الطرح متحفظاً عليه في حينه، نظراً للطابع السياسي لما هو جمعي، ليس في مقدور أي فرد كان، خصوصاً من له موقع اعتباري عادي، في أن يفكر بانسحاب معين من خانة هذا العقد المضروب على الجماعة بنطاق قوته، إيقاع مختلف على وتر طويل مشدود ومركّب على آلة وجدان الكردي.

ولعل الناظر في الطابع الهرمي داخل العشيرة/ القبيلة/ الحمولة بالذات، وهي التي تبلغ ذروة العلاقات في الحيز الجغرافي- السياسي، وتفصح عن بداية مغايرة..

(1) المصدر نفسه، ص 229.

هنا، يجري تفعيل أثر التغير في المكان والزمان، وما يترتب عليه من تغير بنيوي في المقيمين في المكان. ولا أكثر من أمكنة الكرد، وهم في حلهم وترحالهم الاضطرابيين، جرّاء الحروب والخصومات خصوصاً، ويصدق قول نيكيتين في إضاءة هذا الجانب الحيوي، وهو يدقق في مواقع أون مواطن العشائر الكردية بين الدول الأربع وهناك الاتحاد السوفيتي (إن أسماء وأحياناً مواطن هذه العشائر وأعرافها وتقاليدها تغيرت خلال الحقب والقرون تغيرات كثيرة...)، ينظر في كتابه: باسيلي نيكيتين: الكرد «دراسة سوسيولوجية وتاريخية»، تقديم: لويس ماسينيون، نقله من الفرنسية وعلق عليه: د. نوري طالباني، سبيريز، دهوك، ط1، 2008، ص 234.

يصبح ما قبل من جهة داخلاً في سرديات التاريخ، ومن جهة ثانية، معزّزاً بخيالات الحكواتي، على طريقة «كان يا ما كان» وما في ذلك من مؤساسة نفسية وجماعية معينة كذلك.

إننا في الوضع هذا، نتحرك في حقول من القوة، وقد أسهبنّا في تسمية مواقعها، داخل حقل باسمه، ليسهل علينا الحوار مع خاصية كل قوة، وكيف أنها «القوة» لا تكون مجردة، وليست وهباً، وإنما ذات علاقة بإرادة معينة، زعاماتية، تستمد روافدها في النشأة والانبثاق والتدفق، تبعاً لحامل شخصي، من نوع قيادي بارز طبعاً، وكرهان قوى متقابلة، وهو ما يمكننا من النظر فيه مجدداً، ونحن نتفاعل مع كتابة بروينسن مجدداً، بمفهومها الهفيريكاني، إن جاز التوصيف:

(ما يتركز على مفهوم الاتحاد القبائلي، وما يضاف إلى العشيرة أو القبيلة من الخارج، وإزاحة المفهوم الأصلي لها، حيث لا تعود تلك المنتمية إلى قرابة الدم، أو العصبية بمفهوم العائلي، إنما تكون مفتوحة في وضعية زمكانية: إن الهفيريكان اتحاد قبائلي كبير يتكون «حسب ما يشاع» من أربع وعشرين عشيرة، بعضها مسلم، وبعضها يزيدي، وهناك أيضاً عدد من المسيحيين المرتبطين بالقبيلة ارتباطاً دائماً، وكانت الهفيريكان تنتمي إلى إمارة بوتان).⁽¹⁾

في هذا الثالوث البنيوي الدنيوي رغم توشيحاته الدينية: المسلم- المسيحي- الإيزيدي تبرز عمارة سياسية لافتة هنا:

أولاً، يغدو من الصعب، النظر في ظهور ثالوث كهذا، وقبل قرن ونصف، دون إبداء علامة التعجب، وما في ذلك من إرهابات بحس المدنية، ومن ثم الشعور بوحدة المصير، في الفسحة الجغرافية التي تضم إليها الجميع، وبنوع من البساطة الطبيعية، أي خلو العلاقات الاجتماعية من التعقيدات القانونية وبنودها الفرعية، والاجتماعية في الحيز المؤسسات وبيروقراطيتها المكاتبية، وما يترتب على كل ذلك من التزام قانوني مراقب في الخفاء طبعاً.

ثانياً، ما في هذا الثالوث المفتوح والمرئي من مرونة التفاعل المباشر بين أعضاء/ أفراد الثالوث، وكيفية تفاعلهم مع بعضهم بعضاً، رغم وجود ذاكرة خاصة بكل جماعة مميزة دينياً، لا يغفل الأثر البوصلي «البوصلة التي توجه دفة علاقة، كما هي حال السفينة، مثلاً، وفي مسار اجتماعي، وحتى معتقد موصول عبر شعيرات نفسية

(1) بروينسن، مارتن فان: في مصدره المذكور، ص 230.

وثقافية بغيب مختلف، عن ذاكرة الجماعة الأخرى، وإلى حد كبير جداً: كيف يمكن الربط بين ذاكرة كل من المسيحي-الإيزيدي-المسلم، دون الاخذ بعين الاعتبار لتلك الإرادة الجماعية المشتركة التي تلغي الحدود، بمقدار ما تبقىها حفاظاً على خصوصية قائمة؟

ثالثاً، وما يتفق عنه الثالث من حس الفكاهة الاجتماعية ولسعتها الجانبية، وتقبل الآخر، في مجلس عام، أو مناقشات عامة، ربما أمكن النظر فيها، وبمفهوم هذا الزمان، على أن الذي كان، قارب في بعده القيمي، يوتوبيا اجتماعية لا تضاهى.

رابعاً، وهذا يطرح تحدياً ممثلاً في الزعيم الذي لا بد أن يكون له دين يعرف به، إنما هو دين لا يسوق من خلاله، أو أنه يمهر علاقاته مع الآخرين، ويعطيه اعتباراً، أو منزلة مميزة من خلاله، أي حيث ينبغي عليه أن يكون الديني لنفسه، والديني للآخرين، وربما أن يكون لديه أكثر من الاعتراف بالآخرين الذين منحوه ثقتهم، أو أودعوا لديه يقيناً عائداً إليهم، وسلطة، لا بد من الحرص عليها، والتعامل معهم من خلالها، ليشعروا بتلك الكرامة الجماعية الخاصة، ومن ثم، ليكون في ذلك الحافز الائتماني الذي يدفع بهم لأن يبقوا منفتحين، أي يكون لديه إيمان مرفق بإيمانهم، في مزيج قيمي خاص.

فنحن في الحالة هذه، نكون في مواجهة القوة، وكيفية ظهورها وهي بكامل قوامها الاجتماعي، السياسي والأخلاقي، بمقدار ما نعيشها، وهي تتنفس جنبينا، وبمقدار ما يكون لدينا ذلك الشعور الفائق الاعتبار، جرأ التفكير في مسلكها، وكيف تتجسد في شخص معين، لا يعود أي شخص، ويحافظ على كل شخص، فهو الحارس- المحروس معيناً. إنها عملية غاية في التعقيد، أي في التركيب والتحليل، في الانطواء «لا بد من وجود سر قوة كامن في ذات الزعيم، ليكون محل هيبة، أو حساب لدى المحيطين به، سرّاً يُسبر، أو تتم محاولة التقرب منه، أو التسلل إلى نطاقه لفك رمزه، طالما أنه من جهة الحضور، يضمن سلامة الجميع وأمنهم، وحتى تلك السعادة التي تتمي فيهم شعوراً متواصلاً بالانتماء المكاني - الزماني» بالتأكيد، وفي الانبساط، فالزعامة فعل كشف ومكاشفة وانكشاف للآخر، والزعيم المحتجب يخضع لتحويلات في مخيال الشخص الذي يخضع له مع الزمن، وربما تتشكل في نفسه إرادة مضادة، ذات رصيد معتبر من الكراهية، وحتى فعل العصيان والبلبل، حين ينفلق على نفسه، أو يضع مسافة لغمية بينه وبين الذين منحوه صلاحية استعمال سلطة قوة، هي في منبتها وسريان فعلها، قوتهم المعنوية، وفي ذلك يتمظهر أماننا تاريخ حافل بنقاط

الجذب والطرْد عملياً، كما هو وضع أي عشيرة أو اتحاد قبائلي، من النوع الذي أشير إليه سالفاً:

وهو ما يمكن متابعته، وتحريّ محرّكه القيمي والرمزي الخاص به في سؤال التحول في وعبر الاسم وموقعه قوةً، أو ما ينوع في بنية القوة هذه، وهي قوة تُرى بالعين المجردة في شخص يكون الزعيم، تتم متابعته مباشرة في أقواله وأفعاله (كانت العائلة الحاكمة الأولى التي حكمت اتحاد هفركان القبائلي هي عائلة شيخا، التي لا يجري تذكر الشيء الكثير عنها بالإضافة إلى اسمها، وسرعان ما استبدلت بعائلة علي رمو. وكان علي رمو رأس فخذ الأريبان الذي استطاع بما كان يمتلكه من «ميراني»: الرجولة، البأس، قد أخضع الأفخاذ الأخرى، تلو الآخر، لسيطرته. وبالتالي فقد سلالته سلطتها لصالح عائلة أخرى هي عائلة عثمان، وهي من فخذ الأليكان، ولم يمض على وفاة عثمان نفسه بعض الوقت حتى شرعت العائلة بلعب دور يتجاوز الفخذ الذي كانت تنتمي إليه، فكان حسن أول من مدّ سيطرته لتشمل بعضاً من الفروع المجاورة. ومضى وقت طويل دون أن يكون هناك حاكم أعلى للهفريكان ككل. وقسمت السلطة بين عائلة علي رمو وعائلة عثمان. ولم تستطع عائلة عثمان مطلقاً أن تتخلص بصورة كاملة من وصمة العار التي لحقت بها لكونها حديثة نعمة، حتى حين تمكنت من بسط كامل السيطرة على الاتحاد القبائلي: فإن عائلة علي رمو لا تزال تتمتع باحترام أوسع على النطاق العام. ومما له دلالة أن أفراداً من أسرة عثمان يدعمون الآن أسرة علي رمو، والعكس ليس صحيحاً. وتتدخل عائلة علي رمو أحياناً للتوسط حينما تنشأ نزاعات بين فرعي عائلة عثمان.⁽¹⁾

(1) المصدر نفسه، ص 231.

ثمة ملاحظة هنا، وهي ضرورة جداً، تخص عبارة «الملا: ملا عثمان، ملا رمو...»، كما وردت في كتاب بروينسن، وعن طريق الترجمة إلى العربية، حيث لم أنتبه إليها، ونبتت من أصدقاء، من آل حاجو، أنه لا يوجد في تاريخهم العائلي، وبهذه التسمية «ملا» إنما في الأصل «مالا» وهي تعني «آل- أسرة- عائلة» بالمعنى الأوسع للكلمة، كما في الحديث عن العائلة- الأسرة البدرخانية، فاختلط الاسم على مترجم النص إلى العربية، حيث تتقابل مفردتا «Mella-Mala»، والفارق بين في الكتابة، وحتى في التهجئة «الفونيتيك»، وهذا ما يجدر أخذ العلم به، لأهمية المفهوم في كل منهما، وأنا أعدّل في الاسم «من ملا» إلى «مالا» أو «آل- عائلة- أسرة» ولو أن «آل» أوسع دلالة، وأكثر حضوراً في القيمة.

وتبقى إشارة بروينسن مفيدة، مجدداً، في مصدره نفسه، ج1:

هذا ما يمكن التعرض له، طالما أن هناك رابطاً بنيوياً، يصعد وينخفض في «زئبق» علاقاته الاجتماعية- السياسية، في حيز التاريخ الذي يوفّر سردية كاملة، مهما ظهرت فيها انقطاعات، أو حالات غموض في العلاقات التي تنبئ بأن هناك انعطافة في علاقة معينة ضمن شبكة واسعة من العلاقات، كانت سبباً أو أكثر لظهور وجه زعيم آخر، بمناقب أخرى، وما يكون عليه حضور قوته، وجماعته على الأرض، وفهم ميكانيزم التغيير في عموم الجسد المجتمعي للاتحاد القبائلي، إذ (عندما تتوسع أسرة ما وتخرج عن حدود القرابة الرحمية لتشمل نطاقاً أكثر سعة، فإنها تتحول بالطبع إلى عشيرة. إن الوشائج العاطفية والعادية التي توثق وتشد بين أفراد الأسرة الواحدة تضعف مع اتساع نطاق الأسرة لتحل محلها روابط الطقوس والتقاليد والمصالح المشتركة.)، وبالتالي، فإن طرق اكتساب السلطة من قبل رئيس العشيرة تختلف باختلاف الظروف، إلا أنه يمكن ردها لأسباب محددة منها على وجه الخصوص عن طريق الوراثة أو الانتخابات من قبل العشيرة، أو نصبه من قبل السلطات.⁽¹⁾

هذا/ ذلك يبقينا في حاضرننا القائم بداهةً على الفعل ورد الفعل، أي عندما تتعرض جماعة بشرية «مثال العشيرة أو القبيلة» إلى ضغوطات معينة، فيكون الطارئ الأول مكانياً، كما هو الموعود في تاريخ المحن الكردية، إن جاز التوصيف، ويكون في الانتظار: الترحيل والتهجير، أو الانتقال إلى مكان آخر طلباً للأمان النفسي والطبيعي،

يبدو أن المصطلحات الدارجة في الاستعمال الأنثروبولوجي القياس، «القبيلة» و«العشيرة» و«الحمولة»، لا تتناسب والواقع الاجتماعي في كردستان... فأغلب المصطلحات تستخدم في مناطق معينة فقط، بينما يفضل استخدام مصطلحات مستعارة أخرى في مناطق أخرى. ص140.

من بين ملاحظاته على مصطلحات قائمة:

1- إنه لأمر لافت للنظر أن جميع المصطلحات المستعملة تقريباً هي كلمات أجنبية ولا تنتمي إلى أصول كردية، إلا تلك التي تشير إلى أصغر الوحدات حجماً «هوز- بابيك» Bavik، بالتسمية المتداولة في أوساطنا، ملاحظة من إبراهيم محمود، «- مال» ص147. بابيك عبارة عن حمولة سطحية إلى حد ما، يمكن تعزيزها بموالين لا رابطة تضمهم. وعلى العموم فإن مصطلح «بابيك» يستخدم على مستوى ما دون القرابة ص147. يرد مصطلح «مال» بمعنى «البيت» قريباً من مصطلح «بابيك» وهو يشير إلى حمولة خلصة «أي إن الموالين غير مشمولين» ولا يطلق هذا الاسم إلا على حمولات تتحدر من أشخاص أقوياء جداً. ص147.

(1) نيكيتين، باسيلي: في مصدره المذكور، ص 193- 204.

وهذا ينعكس على الفضاء الاجتماعي والثقافي لها، ويصبح الحديث شفاهة أو كتابة عنها، من خلال المكان الجديد، ومن هم في ذلك المكان، مهما كانت صفتهم النسبية، وبصورة أخص، عندما يكون الجوار غربياً على الجماعة، ضمن آلية تغيرات في الترجمة الذاتية لهذه الجماعة، وحتى إطلاق أقوال، أو اختلاق روايات عنها، كما لو أنها وقائع، تبعاً لمكانة الجماعة، أو مدى تماسكها «لحمتها»، كما يقال، والقوى المحيطة بها، وللكرد في هذا المضمار، أكثر من تصنيف لمثل هذه الحكايات وصنوف الإشاعات، وحتى التلفيقات وربطها بهم.

نيكيتين، في هذا الاستشراف الجغرافي- التاريخي، يُعلمنا بما هو مسلّم بها تاريخياً، وفي قوله تنبيه وتوجيه إلى حقيقة، يعتقد أنها غائبة كثيراً عن أذهان الباحثين في هذا الموضوع، أي بخصوص الأصول المفترضة للشعب الكردي (غالباً ما يطرح البحث عن أصول أي شعب كان مشكلة مستعصية، وبخاصة في مثل حالة الشعب الكردي، لأن الشواهد التاريخية تعوزها الديمومة، ويتعذر التثبت منها في بعض الحالات)⁽¹⁾.

ذلك رصد تاريخي لهذه المتحولات الاجتماعية، وزيادة ملحوظة في أفق الغيرية القائمة بين أفراد الثلاث المذكور، ضمن الاتحاد المذكور «الهفيريكاني». ويقصد بـ «الغيرية» حس الآخر النابض في جسد النظير، وهو شعور ربما لا يتوافر إلا في تلك الحالات التي تتأصل سوية اجتماعية معينة، أي حين يكون الأمان المعطى في الداخل، يبقى الحارس الوفي للجميع إجمالاً، والدافع إلى استمرارية ثبات القوة المادية والمعنوية في الكيان العام والحي للاتحاد، وبناء عليه، يكون ذلك الدفع الحيوي لجملة من المشتركات الفاعلة في ثبات هذه القوة المسمّاة. ولا بد أن هفيركان اكتسبت خصوصية قاعدية لها، واعترافاً ضمنياً بها حتى من ألد خصومها في هذا الجانب.

(1) المصدر نفسه، ص 30.

تعليقاً على هذا القول، وربما توضيحاً له أيضاً نقرأ في الهامش¹، ما أشير إليه في المتن ص 31: قول لعالم الأجناس إبيتار في كتاب له: «إني لأشعر بالحنق كلما فكرت بعلماء الآثار الذين استخرجوا من التربة القديمة لآسيا الغربية كل هذه الآثار الرائعة، لأنهم كانوا غير مكترثين بالبقايا الإنسانية التي عثروا عليها. إن استنكارنا لا يعبر بما فيه الكفاية عن هذا الهدم العلمي الذي ارتكبه رجال أطلقوا على أنفسهم «رجال العلم».... وما يشكّل علامة دامغة على المكانة الاقتصادية للكرد: لقد كانت القسطنطينية وحدها تستورد سنوياً من كردستان ما لا يقل عن مليون ونصف مليون رأس غنم أو بقر تصدر إليها مشياً على الأقدام من كردستان. ص 106.

هنا نجد أنفسنا في مواجهة جدل الثبات والحركة، وهو جدل متحصّل على سلسلة التغيرات المكانية- الزمانية، التي عاشها الكرد في تاريخهم الطويل، وما يستتقي التاريخ هذا ضمن مفهوم انتروبولوجي وثقافي خاص بالمقابل، ولهذا، فإن الفكرة الاجتماعية للسكان الكرد في الامبراطورية العثمانية وخارج حدوده كانت تتسم بحفاظها على رواسب العلاقات العشائرية والتي لم تنحصر فقط في السكان الرحل وشبه الرحل فحسب بل والسكان الحضر وفي مناطق محددة أيضاً، وبالتالي فإن مصطلح «عشيرة» يجب فهمه هنا بمعنى أكثر شمولاً⁽¹⁾.

إن فكرة الثبات والحركة، قائمة في بنیان الجماعة العشائرية، وبشكل متفاوت، وبوتائر خاضعة لآلية الضبط الاجتماعي داخلها، والمتغيرات المحيطية، وهي طابعة نفوذ علامتها في الذاكرة الجماعية الكردية، إلى جانب أنه ينبغي التأكيد على نقطة رئيسية وفاعلة في هذا البعد «الفيزيائي- الاجتماعي» المركّب، وهي أن الثبات والحركة، شائيان نسبياً، حيث إنهما لا يحافظان على موقعهما وتناظرهما حرفياً، إنما يرتبطان بقوة الجذب والطرْد، والمتغيرات المستجدة أو الطارئة طبعاً، ليكون تاريخ آخر غير ما كان، فيصبح أحياناً ما كان ثباتاً حركة، وما كان حركة ثباتاً، فكم من جماعة عرفت استقراراً في المكان، واعتبرت حضرية، لتصبح بعد حين رحالة بين أمكنة، شتاتية قسراً، كما هو وضع الإمارات الكردية، أو من استقروا في قرى معينة، سوى أنهم أخضعوا لعنف الترحيل وتغيير المكان، خوفاً من بطش النظام.

أهي بانوراما ؟

وثمة صورة بانورامية أخرى، تتداخل مع ما أتينا على ذكره، تخص قبيلة دوركان/ دوركان، حيث يقول بروينسن فيها، واستناداً إلى مشاهداته الحية، والجلوس إلى المعنيين بأمورها (من بين أول المستوطنين كانت العائلة المتسيدة لقبيلة دوركان، وكانت يومذاك قبيلة رحالة تنتمي إلى اتحاد هفركان القبائلي. ومنذ ذلك الحين استوطن أغلب عوام هذه القبيلة في مناطق تقع على مسافات أبعد باتجاه الشمال، بالقرب من مراعيهم الصيفية، ولكنهم لا يزالون يرسلون إلى زعمائهم الهدية التقليدية، المكونة من أغنام، في الأعياد السنوية، واستقر بعضهم بصورة منفردة في الجزيرة بصفة فلاحين. وكان أول من استوطن من هذه العائلة عباس، ولا بد أن هذا

(1) جليل، جليلي: من تاريخ الإمارات في الإمبراطورية العثمانية، دار الأهالي، دمشق، 1987، ص

حدث حوالي العام 1850، وفي حياته كان أول تسجيل للأراضي. وكانت له أرض واسعة جداً مسجلة بأسماء أكبر ثلاثة من أبنائه «أصغرهم شويس، لم يكن مولوداً بعد»... ومن الطبيعي أن عباس لم يكن وحيداً حينما استوطن هناك. لم يفعل أي زعيم قبلي كردي ذلك مطلقاً. إذ كان معه بعض أقاربه الأبعدين، وحاشية، ورعيان لقطعانه الكبيرة، وفلاحون تابعون من أصول متنوعة جداً. وهذه نسبة كبيرة «ربما الأغلبية» من مجموعة الفلاحين هذه مسيحيين يعاقبة «سريانا» من جبال طور عابدين، وليس واضحاً ما إذا كان هؤلاء اليعاقبة من سكان ذلك السهل أصلاً قبل أن يقيم عباس فيه... ويبدو ألا أحد من الدوركيين أنفسهم، في ذلك الوقت، قد بدأ بممارسة الزراعة، لأن هذه كانت، في نظر أغلب البدو، عملاً يحط من قدرهم.... وحينما توفي عباس خلفه ابنه البكر محمد. بيد أن العائلة كانت في تلك المرحلة قد تبنت بعضاً من أساليب رجال القبائل العرب، فرسخ محمد لنفسه اسماً عظيماً بين الزعماء العرب- وهؤلاء منافسون على السلطة والمكانة أخطر من الكرد الآخرين آنذاك- من خلال إقامة ولائم لم تشهد المنطقة مثيلاً لها في البذخ على امتداد سنين عديدة. فكانت تذبح في كل يوم مئات الخراف، وكانت دماؤها تسيل جداول حقيقية في تلك الحفلات التي كان يدعى إليها كل رجالات منطقة الجزيرة العظام.... وحتى يومنا الحاضر لا يحتاج أفراد سلالته سوى أن يذكروا اسمه لكي يقف كل زعيم قبلي عربي على قدميه ويبيدي لهم أعظم الاحترام..⁽¹⁾.

يختلف المكان بوصفه مفهوماً نهرياً لدى المقيم فيه زمانياً، ليأتي الفضاء الاجتماعي مختلفاً تالياً، بما أن المكان ليس خلواً من البشر الآخرين، أو حتى إذا افترضنا أنه مكان متميز بمساحة جغرافية واسعة، سوى أن مجرد الإقامة فيه، وتوجد مسافة فاصلة بينه وبين المكان الأول، كاف، لأن نقدر جملة من التغيرات النفسية والاجتماعية، وترتيب حسابات من نوع آخر مع الجوار وأبعد، كما هو الملحوظ في هذه العلاقات التي تشكلت بالنسبة لدوركان مع الجوار كما في حال العرب، ومن جهة الولائم التي تحتل موقعاً متقدماً في سيستام العلاقات الاجتماعية، لكسب الصيت، وفي مجتمع له طابع رعوي، تكون الوليمة اللحمية بطابعها الاستعراضية، أي ما يظهر الكرم جلياً علامة اقتدار وانفتاح وجود بالنسبة إلى الآخرين، وفي البعد الضيافة، إن جاز التوصيف، وأكثر من ذلك، حين تصبح العملية هذه في بنيتها رسالة موجهة وبالعين المجردة هذه المرة، إلى الذين يمنحون درجات

(1) بروينسن، مارتن فان: المصدر المذكور، ص 221.

معينة بخاصيتها القبلية، والزعاماتية المرافقة، كحال العرب، إلى تأكيد نوع من التشارك في القيم القائمة وتعزيزها .

فالمتمصرّف في ثروته العينية، وهي لحماية، حين يقتطع في كل مرة، وتبعاً للمناسبات الدورية، أو حتى بالنسبة لزعيم القبيلة ذاتها، إذا رغب في ذلك، إنما ينشد ما هو مطلوب في الحالة هذه، وهو أن يعترف به بوصفه جديراً بالإقامة في المكان الجديد من ناحية، وأهلاً لإقامة علاقة معه، وكون الكرم هنا تعزيزاً لقيمة مطلوبة لتفعيل أثرها الاجتماعي.

وهو ما نتلمسه، كما سنرى، ولو بمفهوم مختلف «سياسياً» في مسلك عليكي بطي بالذات، على صعيد علاقاته الاجتماعية مع الآخرين، من موقع «الجود».

ولعل ذلك، من ناحية النشأة، يترجم في سياق التعبير المباشر عن الجوع والتصدي له «كعدو مهلك وخفي»، وإشعار بضمان الأمان «تأمين على الحياة»، جهة الشبع بالمقابل، وعلى المستوى المعتقدي «نقل إيديولوجيا القبيلة الرحالة أو التي تعيش حياة حضرية، ودون أن تقطع حبلها الوجودي المشيمي بحياة البداوة صحبة الخيمة وقطعان الغنم، والفضاء الواسع للبرية» تبث إيديولوجيا خاصة بها، وهي السعي إلى تأكيد مكانة لها، تتال من خلالها اعترافاً يتناسب وما تشتهيه في القيمة، وهي واجهة إعلامية لها، وليكون الضيف شخصاً مركباً، عدا عن كونه زائراً من قبيلة مجاورة، راوية واقعة، وناسر خبر له محتوى إعلامي/ دعائي.

وفي ذلك، يمكن الحديث عن الرصد المتبادل بين القبائل أو العشائر، والتنافس كذلك، وما في ذلك من تراتبيات اعتبارية.

ولعل نذير جبّو في كتابه الرئيس، بالنسبة إلى موضوعنا، وكونه مخصصاً عن «هفيركان» يتطلب أكثر من متابعة بنوية له، خصوصاً وأنه يشكل سجلاً تاريخياً، واجتماعياً، وكذلك فولكلورياً، إلى جانب البعد النسبي/النسائي فيه، ولهذا فإن هذه المتابعة سوف تستغرق مساحة ورقية تقابل المعطى الثقافي عن هفيركان، بدءاً بطريقة التقديم له⁽¹⁾.

في البداية، هناك ما يلفت النظر، لحظة الحديث عن نوع من البطاقة الذاتية للمؤلف، حيث يعرف المؤلف بنفسه على أنه ينتمي إلى اتحاد عشائر هفيركان ص 21.

(1) جبّو، نذير: سلاطين هفيركان «صفحة من تاريخ الكرد»، المصدر المذكور، وجرّاء تكرار الاستشهاد بالكتاب، أو الاقتباس منه، لأهميته، كما تقدّم ذكره في المتن، سوف تردّ أرقام الصفحات في المتن، تجاوزاً للتكرار الثقيل الوطأة في الهامش.

هذا الاعتراف المعرفي طبعاً، وفي حدود نسبية يؤخذ به، من خلال قراءة الكتاب من ألفه إلى يائه، للوقوف على طريقة تناوله لموضوع الشائك والشيّق في آن، ومن ناحية أخرى لمعرفة نوعية المسافة التي أبقاها قائمة بينه وبين ما يبحث فيه: مكاناً وزماناً، والأشخاص الذين يعرفون بحضور اعتباري بين صفحتي الغلاف، وفي النقاط الأكثر حساسية، والذهنية الفاعلة في الكتابة. إنها ملاحظة محسوبة، بما أن جبو ينتمي إلى هفيركان، وهل أن كتابته عنها، جاءت بعيداً عن أي تأثير بهذا الانتساب المذكور أم لا؟

في الجانب الآخر، وهو الخفي- ربما- في بنية العبارة، ويتمثل في كونه منتمياً إلى الاتحاد المذكور، وهو إقرار بواقعة قائمة، يقرّها هو نفسه «طبعاً لا بد أن هناك من يشهد على دقة كلامه» ولكنه تقرير من نوع لم يفكر فيه، إذ إنه في الوقت الذي أفصح عن انتمائه هذا، كأني به أراد أن يقول على طريقة «أهل مكة أدرى بشعابها»، أي إن الذي سوف يضمّنه كتابه هذا هو كلام صريح، فصيح، كلام حقيقة، وهذا ما يجب التنبّه إليه من قبل من يتأثر بمسّهل قول كهذا، يصادفه لحظة فتح الكتاب، سوى أن ذلك، بالنسبة للباحث المتعمق في خطاب القول، ربما يزيد في تركيز النظر، وفي مسألة أشمل لما يقال، على خلفية واقعة قولية كهذه، إذ ربما يمرّر ما ليس دقيقاً، ويصادق إليه، بسبب انتمائه ذاك.

إن قول التوسير المعروف للمعني به، وهو أن ليس من قراءة بريئة، أو كل قراءة هي آثمة، يفصح عن أن مدى تأثير هذه العلاقة في تلوين رؤية الشخص: الكاتب، في مشاعره، في انفعالاته، وفي أحكامه، حيث إن مفردة «البراءة/ الإثم» لا تؤخذ في صيغتها الاتهامية، وإنما في خاصيتها المعرفية والتي تحيلنا على عالم اللاشعور، وتلك الثقافة المغيبة في عمق النفس، والتي تبث مؤثراتها عبر حركية المشاعر والأفكار والتصورات، دون أن يعلم بها، إلا من خلال قراءة الآخر.

إن كل إثم هنا، بحثياً، يحفز على المزيد من مكاشفة الوقائع و«الثبوتيات» والمزيد من الأدلة التي يوقّرها الواقع، للمصادقة عليها تاريخياً، وكسب حسن سلوك ما .

هذا ما ينبغي التصدي له، وفي مسألة حساسة ودقيقة للغاية، حيث تتم عملياً استعادة تراث جماعة متنوعة في تكويناتها الاجتماعية، الدينية والثقافية، وعملية الاستعادة لا تتم من خلال الاعتماد على كتب معينة، إنما أشخاص كانوا أحياء، حيث يسهل التعريف بهم، وفي أمس القريب، كانت أصواتهم تُسمع، ويُنبّه إليهم، وهم يفصحون عن مجتمع معين يعينهم، ولهم مواقفهم من ناحية، وهم ينتمون إليه، وقد

صار في بعض ملحوظ منه، تراثاً، ينظر في مبناه ومعناه، من ناحية أخرى، خصوصاً وأن هناك مسافة زمانية فاصلة بين الكاتب ومن يكتب عنهم، أو يظهر أسماء فاعلة، بوجهيها السلبي والإيجابي، وهي متداخلة مع بعضها بعضاً، وكيفية التعامل مع كل شخصية في نصه، وهي مغايرة للأخرى، دون المساس بمكانتها، كشخصية اعتبارية بين أهلها وأناسها، بين غريبها وأليفها، أو متداولها ووحشيتها، أو واضحها وغامضها، ولها موقعها المعروف في زمانها ومكانها، وهذا ما يجب الاهتمام به، طالما أن الكاتب يريد إقامة علاقة تتميز بالشفافية المعيارية ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، بمصادر كتابية «كانت شفاهية حتى الأمس القريب جداً» وشفاهية هناك من هم أحياء ممن تسند إليه الشفاهة تلك، ويحرص الباحث على أن تأتي كتابته مميزة بتوازيها التاريخي، أو ما يريد لها أن تكون نزيلة تاريخ حي، في مهبط مجتمع عامر بالحجج والمسوغات هنا وهناك، وتكون مهمته الكبرى والخطيرة بالمقابل، في كيفية استتقاق كلام الراوية، أو ما هو مكتوب بين صفحة كتاب وأخرى، وكيف تسلسلت أفكارها، كيف وردت من ناحية المنطق الذي اعتمده كاتبها هنا وهناك كذلك، وما يتطلب كل ذلك من شجاعة المواجهة للحقيقة التي قد تمسه في الصميم، وتوجهه، وقد حدد انتسابه، ولكنها الحقيقة بصورة ما⁽¹⁾.

لتكون الكتابة هنا: استشراف عالم رحب من على حافة مسننة تتطلب يقظة دائمة!

وليس من ضير، فيما بعد، حين يفصح جبو عن صلته النفسية بالتالي (لعل أكثر الحكايات التي تركت أثراً في نفسي هي حكاية حاجو الثاني، أحد قادة عشيرة

(1) في كتابه: نظام الخطاب «لميشيل فوكو، ترجمة: د. محمد سبيلا، دار التنوير، بيروت، 2007، يتحدث الكاتب موسعاً إلى حد ما، عن مفهوم «الخطاب» المركب، بالنسبة لأي نص، مبيّناً فيه ما هو غامض، وما ليس سهلاً الأخذ به واعتماده نصاً مكشوف العلامات، رغم ادعاء كاتبه أنه يتوخى الوضوح في بحثه، ليقول عن (إرادة الحقيقة هي الشيء الذي قلماً يتحدث عنه. ص 16)، وهي بمثابة خط الرجعة الذي يتوجب على كل كاتب تركه لنفسه، وهو يتحدث أو يكتب وملؤه يقين أنه يقول الحقيقة وليس سوى الحقيقة، وهذا وهم طبعاً، أي إن الحقيقة لا تقع في الماضي، ولا تقيم في الحاضر، أو ستكون في الغد، وإنما هي جامعة لبشر كثيرين، ولأزمنة شتى، وهي شارة أخرى تبقّيها نسبية من جهة، وتعزّز في روح كل منا، لزوم مراعاة الآخر، وشراكمته في قول الحقيقة أو إثرها التاريخي، من جهة أخرى... الخ. وذلك صحيح أيضاً، إذا علمنا أن الكلمة الواحدة، مهما كانت جدتها تحمل تاريخاً طويلاً من الأيدي التي سطرّها بطرق معينة، والألسنة التي تداولتها، أو الأصوات التي تهجّتها...

هفيركان.ص21)، أي ما يتعلق بالبعد المأسوي لشخصية حاجو الثانية، أي كيف جرى قتله/ اغتياله، وجملة الملابس التي تحيط بمشهد القتل المؤثر هذا، وتردد صدهاء في الجوار. لكنه من ناحية القيمة التاريخية، لا يشكل وثيقة معتمدة، إنما شهادة قولية، تؤخذ في نطاق معين، له إطار وجداني في المحصلة، وبالنسبة للبعض الآخر، في المنحى البحثي، تحفيزاً لمكاشفة أعمق للمدوّن باسمه، جرّاء فعل التأثير الوجداني هنا. نلاحظ مثلاً، وقبل التوقف عند نسب هفيركان وهويتها، إن جاز التعبير، حين يقول (حاجو الثاني، استلم زعامة عشيرة هفيركان من والده. وكان أكبر منافسيه من الأقارب هو جمو)، وما يلي في تعليق على هذا الربط من لدن المؤلف طبعاً

Cimo) الذي ينتسب إلى العائلة نفسها «في الهامش 1: يخالف د. بنكي حاجو رواية المؤلف ويذكر أن جمو ليست له أية قرابة مع آل عثمان وبطبيعة الحال معال حاجو، وكان يرأس عشيرة صغيرة فقط وتعامل مع الدولة التركية». وكان الاثنان في نزاع وقتال مستمر.. وفي المعركة الأخيرة تمكن جمو الذي كان يحظى بدعم من القوات الحكومية، من أسر حاجو بعد أن نصب كميناً له، ولم يكتفي جمو بأسره بل أنه ذبح حاجو الذي كان مربوط اليدين..ص22)، نلاحظ كيف انبرت معلومة تقتقر إلى الدقة، أي ليست تاريخية، ولسان أقرب المقربين إلى حاجو بالذات، أي الراحل الدكتور بنكي حاجو، وهو ينفي أي صلة قرابة لجمو بعائلته. وليطرح سؤال كهذا: لماذا تكلم هكذا، وهو ينتمي إلى اتحاد هفيركان؟

يعيد تصريحاً ذاتياً جهة العلاقة بالانتماء القائم، من خلال علاقات شخصية لها وزنها الاعتباري في تدوين الأثر، بقوله (كما تحدثت مع بعض أفراد أسرة آل عثمان والمعروفة باسم مالا «آل» حاجو، وهي الأسرة التي تتولى رئاسة اتحاد عشائر هفيركان، ويطلق عليهم في المنطقة اسم «سلاطين هفيركان»..... ويظهر أنه تلقى معلومات عن هفيركان من مصادر مقربة منها، مثال: علي بطي حفيد علي بطي، وخاله ابراهيم بيزاري.ص23...الخ).

لنُبّق المكتوب هنا لبعض الوقت، لتفهّم المنشود، ولنتابع ما أورده بخصوص تسمية «هفيركان». ماذا نجد؟ (الهفيركيون و[أسرة] آل عثمان في التاريخ: لا توجد لدينا معلومات دقيقة عن معنى اسم هفيركي Hevêrkî ومن أين جاء. فهناك من يقول أنها مشتقة من كلمة Havîr، أو صنع العجين Havîr kir، وهناك من يقول أنها مشتقة من كلمة Hevurî، أي التيس، وهو ذكر الماعز الذي اكتمل للتو عامه الأول. وأن هذه

الكلمة، أي Hevurî، قد تحولت مع مر الزمن إلى Hevuriya، ثم إلى Hevrkiye. أما المؤرخ الكردي محمد أمين زكي فيقول أن هذه التسمية جاءت من إيزيدية Havrî (ص45)⁽¹⁾.

من الملاحظ، وفي ضوء القراءة المرافقة، والتي ثبتت أسماء مصادرها في الهامش، إلى جانب إشارات من عند المؤلف إلى أشخاص أحياء، وكونه في محيط اتحاد هفيركان، أنه اعتمد على هذه الأقوال، دون أن نزع من جهتها، أن ذلك غير صحيح، أو ليس فيما ذهب إليه رصيد من الصواب التاريخي، ولكنه، يرتبط بما هو متداول، وهو لم يذهب أبعد من حدود ما استلفه من سواء، أي لم يقدم ما هو جديد، يفيد في إضاءة تسمية «هفيركان» وهو الذي شغل نفسه كثيراً في هذا المضمار الصعب، بحيث يُتوقع منه أن يكون لديه المزيد، أكثر بكثير مما أخذه أو اقتبسه من كتاب آخرين. أعني بذلك أن القيمة المعرفية للباحث في التاريخ، أو اللاعب دور الناقد له بالمقابل، يتوجب

(1) للتنويه فقط، وفي إطار علاقة شخصية، أثبت ملاحظة هنا، وهي أن الأستاذ فرهاد حاجو والمقيم في السويد، أعلمني، ونحن نتحدث على الفاير عن موضوعات تاريخية مختلفة تعيننا معاً، وأشار إلى أن من معاني هفيركان نسبة إلى جده حاجو: هفيرك بتاريخ 11-10/ 2017 «رفاق الطريق الواحد يعني أن هناك توقع المزيد !

أرى أنه من المفيد قراءة هذه الفقرات ذات التالفة المرجعية، والتي تضيء مرتكز جبو بصدد هفيركان،:

هاواركا: هويركا «1800 أسرة نصفها مسلمون والنصف الآخر نصارى يتكلمون الكرمانجية ويظهر أن هناك صلة بين الهاواركيين وبين «هاوري» الإيزيدية.

في كتاب محمد زكي بك: خلاصة تاريخ كرد وكردستان من أقدم العصور التاريخية حتى الآن، ترجمة: محمد علي عوني، الجمعية الكردية اللبنانية، بيروت، ط2، 2003، ج1، ص 352.

وما ورد في كتاب مارك سايكس: القبائل الكردية في الامبراطورية العثمانية، ترجمة: أ. د. خليل علي مراد- تقديم ومراجعة وتعليق: أ. د. عبدالفتاح علي بوتاني، دار الزمان، دمشق، ط1، 2007، نقرأ (هه فيركا: 1800 أسرة. نصفهم مسيحيون ونصفهم مسلمون يتكلمون الكرمانجية، وأشك في وجود نوع من العلاقة بينهم وبين هه ويرى الإيزيدية.. ص81).

وكذلك ما ورد في كتاب محمد علي بك إبراهيم باشا: أمير أمراء كردستان إبراهيم باشا المّلي «1845-1908»، دراسة وتحقيق: أ. د. عبدالفتاح علي البوتاني- علي صالح الميراني، منشورات الأكاديمية الكردية، أربيل، 2009، ص 23، حيث نقرأ (من العشائر الكردية في المنطقة: هاروكية- هاويركان-هفيركان): كرد انضم إليهم بعض عناصر سريانية وإيزيدية، منطقتهم قبور البيض «تربه سبي» وما حولها الواقعة شرقي القامشلي على طريق ديريك، وهم نحو «900» بيت ثلثهم مسلمون سنة والثلثان الباقيان نصارى سريان يعاقبة وقليلهم إيزيدية وكان رئيسهم بلا منازع حاجو آغا وابنه حسن آغا. ... الخ

عليه أن يكون ذهنياً حاملاً لأكثر من رصيد معلوماتي، توثيقي، مهور بجهد الآثاري الذي يقيم علاقاته بين جهات شتى، ويوحى بوجود المزيد من المعلومات لديه، أكثر من كل هؤلاء الذين التقى بهم، أو نقل عنهم، ودون ذلك، لا يمكن تحقيقه معادلة التاريخ الحية، وتأكيد شخصيته ذات الدمغة التاريخية، بما أن المعرفة بطابعها التأليفي حصيله تراكمات، تفتح على المزيد من المعارف النظري- العملية !

يمكن أن نجد أكثر من وضع مشابه لـ «هفيركان» حيث إنه كلما تنوعت التسميات، واختلفت الآراء والمواقف، دل ذلك على عمق تاريخية الاسم المطروح للنقاش، أو للوقوف على معناه الفعلي، من خلال إجراء مسح لغوي، نصي، تاريخي، ثقافي مقارن، خصوصاً وأن كردستان التي تردّد وكما يتردد الآن عن أنها أكثر من كونها ساحة معارك، أكثر من خطوط متقاطعة للأمم وجماعات، لمثلي أمم ومبشرين، وهيئات دبلوماسية، وبعثات متعددة المهام، حيث اقترن الحصاد المعرفي لما هو في الأعماق، في الخرائب والأطلال المتبقية، والمباني الأثرية وسواها، وحصاد الحروب وعنفها، شهدت، كما تشهد الآن أنها محط لقاءات لمن ذكرت، وانفجار تحديات وحالات هجرة وانتقال إلى أمكنة أخرى، حيث يتم اصطحاب صور ثلاثية الأبعاد للجهات التي شهدت وتشهد هذا النزوح/النزيف البشري، بما يتناسب وعراقة التسمية.

مثال ذلك، ما يقال عن «كوران» (كوران: عند البعض: جبان، ص 126، ومن يعتبر الكوران من أصل يهودي «راولنسن»، ص 130.. احتمال مجيء الكوران من عبدة النار، ص 138.. عند سون الاوراميون ليسوا كرداً خلاف ريج، ص 142... كوسه من لا لحيه له، ص 147.. الكوران: القوي)⁽¹⁾.

طبعاً، لا بد أن هناك من يدلي بدلوه في مسألة كهذه، أكثر من كونها لغوية، وهي تتوقف على عاتق الانتروبولوجي، إلى جانب اللغوي المتخصص في موضوعات كهذه، وحتى المعني بما هو جغرافي وسياسي، بما أن المطروح يرتبط بشعب كامل، حيث شكّلت آراء كثيرة، لا تخفي خلفيات إيديولوجية، أي تخدم مصالح الجهات التي تقف وراء ظهور أو نشر مثل هذه الكتابات، وما فيها من بلبلة، أو إساءة إلى الجانب الأخلاقي في الموضوع بالذات، وعلى قدر مكانة الاسم أو تبعاً لحساسيته وصلات قرياه بالذين يستمرون في الوجود، ومواقعهم وعلاقاتهم بالعالم الخارجي، والأنظمة المتقاسمة للكرد.

(1) وهبي بك، توفيق: الآثار الكاملة «سرجمي برهمي»: إعداد رفيق صالح، بنكي زين، السليمانية 2006، ج 1. والكاتب الكردي الكبير الراحل وهبي بك، عاش بين عامي 1890-1984.

وفي مثال «بارزان/ برّزان، لدينا مثال من نوع مختلف هذه المرة، إن في إطاره المكاني، أو في محتواه البشري بالمقابل، كما في (بارزان والبارزانيون: معنى بارزان: على ما أخال النسبة إلى عشيرة برازي، أو أنه اسم جدهم الأعلى ومعناه حامل الحق أو عارف الحق أو مقلوبة من «بارسان» أي الدراويش أو برزان أي أخوان الصفا ص46... أعدم عبدالسلام البارزاني في زمن سليمان نظيف والي الموصل دون حق، مع أن سليمان نظيف بك كان من أعاضم رجال الكرد وابن سعيد بك المؤرخ الشهير وصاحب كتاب «مرآة العيون»...⁽¹⁾.

وفي مثال ثالث كذلك، حيث يتعمق أثر المسمى هنا (حلبجة هي ألبحه في الوثائق الكردية لحكومة كردستان الجنوبية في عهد الشيخ محمود ثم طراً عليه التعريب في عهد الحكومة العراقية فصار يكتب «حلبجة»....⁽²⁾.

ومن المؤكد، وكما لا يخفى على أي كان، يمكن قراءة هذه التغيرات القائمة، بناء على توجيهات سلطوية، كما في المدن والبلدان وحتى القرى الكردية. وما في الإجراءات هذه ليس من نفي الذاكرة المكانية فحسب، وإنما من إلغاء الاعتراف بأي أثر لجماعة بشرية، أو أشية يمثلها الكرد، أو التقليل من حضورها، بشكل مخزٍ ومخجلٍ بوعي مقصود.

لا بل وتفصيل تسمية أحدث على تسمية أقدم، رغم أن الأحداث ناحية المحتوى اللغوي، لا يتجاوب مع السياسية الثقافية العنصرية الطابع لهذا النظام أو ذاك، كما في حال «ديار بكر» مقابل «آمد» أو «جزيرة عمر» مقابل «بوتان»..

وهذا يذكر بمرارة فائقة بما شدد عليه أتاتورك، من خلال سياسته الأحادية الجانب والحدية القطعية، قائلًا (إن أردت أن تجعل شعباً تائهاً فأتلف تاريخه وتراثه...⁽³⁾).

(1) جياووك، معروف: مأساة بارزان المظلومة، منشورات آراس، أربيل، ط2، 2001، ط1، 1954، ص 49.

(2) يوسف، عبدالرقيب: حدود كردستان الجنوبية تاريخياً وجغرافياً خلال خمسة آلاف عام وما ترتب على إلحاقها بالعراق، منشورات وزارة الثقافة والإعلام في إقليم كردستان، السليمانية، ط1، 2005، ص 5.

(3) في المصدر نفسه، ص 3.

في التأكيد على هذه النقطة وتعزيزها، يقول المفكر التركي الكبير اسماعيل بشكجي عن تركيا الدولة، أنه (لا زالت الدولة تعتبر هذه الحروف X,Q,W في الألفباء الكردية مشكلة لديها.

ومن باب الطرافة والمفارقة الكبرى في كيفية استحداث أسماء أو تسميات، وترسيخها في الأذهان، باعتبارها مبتدأ حقيقة المسمى، يمكن الإتيان على ذكر مثال بعيد وقريب في آن، جهة التركيز على أن لعبة تحوير أسماء الأمكنة، الأشخاص، المواقع وغيرها، من صلب الثقافة الرسمية لأنظمة قائمة، أو أخرى تعمل بالوكالة، بحيث تصبح مع مضي الزمان، وتتالي السنين والقرون كما لو أنها هي الأساس، وما عداها زيف واختلاق. جهة السؤال عن «طبرستان» في أدبيات التاريخ العربي-الإسلامي، وفي بعض تخريجات ياقوت الحموي (في معجمه يقول «ياقوت الحموي» في خبر مؤسّط ليس علينا تصديقه، ولكن يجب إيرادها لأنه يستشرف ما وراء الاسم.

وهذا مؤسّر على أنهم لا يعرفون الكردية... فإذا أطلق اسم سياسي كردي، أو كاتب كردي، أو مثقف كردي على حي، أو شارع أو حديقة، فإن الوالي أو القائمقام، يستطيع بسهولة إلغاء هذا القرار، أو أن يجري إبعاد الكلمات التي تضم حروف X,Q,W، كما في حال استعمال اسم معين.

إن مسوِّغ هذه المضايقات عامة، هو زعم، أن هذه الأسماء السالفة الذكر معادية للثقافة التركية...الخ.

ينظر، في كتابه: رسالة إلى اليونسكو، ترجمة وتقديم: إبراهيم محمود، منشورات مركز بشكجي للدراسات الإنسانية، جامعة دهوك، دهوك، ط1، 1، 2017، ص23.

وينظر أيضاً، في كتاب مالميسانج «م. طيفون»: في مصافحة يد بيضاء: اسماعيل بشكجي كردولوجياً، ترجمة وتقديم: إبراهيم محمود، منشورات مركز بشكجي للدراسات الإنسانية، جامعة دهوك، دهوك، ط1، 1، 2017، صص26-41...الخ.

في هذا المنحى، ومن باب مكاشفة ما هو تاريخي، لقد تابعت مقطع فيديو حياً، ومن قبل كاتب ظهر أنه يجيد العثمانية والتركية، وهو يقرأ في كتاب عثمانلي، عن مثال من هذا النوع، ويتمثل في مدينة كركوك، مثلاً، حيث يُتصارَع عليها، وخاصة من قبل الأتراك، ومحاولة إقصاء العنصر الكردي منها، والتقليل من شأنه:

حيث يتم تسليط الضوء، كما قلت، على كتاب مهم وحساس جداً، عن مدينة كركوك، كما يقول هو نفسه، في موقع المكتبة الوقفية العثمانية، عنوان الكتاب: قاموس الإعلام العثماني، لمؤلفه شمس الدين سامي فراشيدي، سنة 1306 هـ. مطبعة وهران، عدد المجلدات ستة مجلدات. الجزء الأول طبع في ستانبول 1889، ج2، 1889، ج3، 1891، ج4، 1893، ج 1896، ج6، 1898. بالعثمانية.

كركوك في الجزء الخامس: اسم كركوك، إنها تقع جنوب شرق مدينة الموصل الكردستانية، وفيها تلة صفراء كبيرة، قرب وادي أدهم... أهالي كركوك 30 ألف نسمة، و36 جامع ومسجد و7 مدارس، و15 تكية وزاوية وحجرة، وفيها جوامع وكنائس وكنيس لليهود.. المهم: أن هناك ثلاثة أرباع أهالي مدينة كركوك من الكرد، والبقية مختلطون، وهي إحصائية من من قبل العثمانيين، وتعتبر مدينة قديمة، واسمها القديم كركوره، وشمالها منطقة نفطية...

فهو يشير إلى أن أحد أكاسرة الفرس أراد التخلص من عدد كثير من الجناة في دولته، وطلب المشورة لإيجاد الطريقة الناجعة، فتم تحديد موضع خال بعيد في بلده، هو موضع جبلي، فحمل الجناة إلى هناك وحبسوا فيه.. وبعد حول تفقدتهم فإذا بهم في سوء حال. فسئلوا عما يطلبون، والموضع كان كثير الشجر.. فقالوا: طبرها طبرها! أي نريد فؤوساً فؤوساً لقطع الشجر وبناء بيوت لهم. وبعد حول آخر كانوا عمروا لأنفسهم بيوتاً.

فسئلوا عما يريدون.. فقالوا: زنان زنان، أي نريد نساء. فتحقق لهم طلبهم من قبل الكسرى.. (فطبرزان) تعني: الفؤوس والنساء. ثم عربت فقيل: طبرستان¹.. لكن: طبرستان تعني الآن: وطن أو أرض الطبريين، مثلها في ذلك مثل عريستان أو كردستان أو أفغانستان أو باكستان.. الخ.. ويعني ذلك حرفياً أن طبرستان هي أرض الفؤوس.. وفي اللغة الكردية المتداولة عندنا ما تزال كلمة (طبر) دارجة رغم قدمها، لكن في الريف.. وأصلها تفر، أي tevr أو tevir وحرف (v) غير موجود في العربية كما هو معروف. وهي تعني بالتحديد: الفأس المشقوقة أو ذات الحدين وتستخدم لقطع الشجر وكسلاح بالمقابل.

ثم لعب التحوير والتجيير عربياً دوراً فيها فكانت - طبر)، أما (زنان) فهي جمع (زن) وهي في الكردية عندنا تعني الزوجة وتقابل (jin) لكن حرف (j) كسالفه (v) غير موجود في العربية الفصحى، فكان لابد من زحزحته وجعله (ز).. وهكذا تخضع الكلمتان في جمعهما السوء المعنى والدلالة، فيتغير الأصل المؤسطر نفسه وهو: فؤوس ونساء، وليغدو في مجاله العربي: أرض الفؤوس.. وببساطة مثيرة للسخرية تحل الأرض محل النساء، أم أن في الموضوع مجازاً. إذ أن الأرض ذاتها مخصبة وتفاجتنا بغطائها².

ربما يتأكد في مثل هذا المثال، وخلافه، لحظة الرجوع إلى أقدم الثقافات في التاريخ، تلك المدونة في الرقيم، أو في الألواح الطينية، والأدبيات الاستعمارية، تلك التي تمثل الفكرة الأكثر تعالياً واستبداداً لأنظمة شمولية، تسعى ما وسعها الجهد، إلى إجراء تغييرات بنوية، في المكون الثقافي لشعب آخر، شعوب أخرى، جماعات محدودة

(2) الحموي، ياقوت: معجم البلدان - دار صادر - بيروت - م4 - د.ت - ص 13-16، وقد أوردته في كتابي: صائد الوهم «منظومة السراب: الطبري وتفسيره»، دار كتابات، بيروت، ط1، 2003، ص 13.

في إمكاناتها، لغايات تتناسب وتطلعاتها إلى النيل منها، ومن ثم احتوائها داخل عباؤها الحديدية المسننة، وما يلي هذا الإجراء من تعزيز مقولة أن الاستعمار ترافق مع البشرية منذ فجر تطلعاتها الأولى إلى الاستقامة والمشى على «قائمتين» واستغلال الآخر!

ذلك يضعنا في مواجهة صورة الحدث الدامي، أو حدث الصورة الجاري تشويهها، وكيف يجري العمل على قدم وساق في هذا المضمار، وما في ذلك من لزوم المزيد من التروي، إزاء تسميات تتموقع في حدود نظام مستبد من هذا القبيل.

وفي الوسع المضي قدماً في هذا المضمار، حيث يسهل الصدام بأمثلة كثيرة، لها صلة مباشرة بنشأة الكرد، بتاريخ الكرد، بأصول الكرد الزمانية والمكانية، بلغة الكرد وثقافتهم، وهذه الكثرة الكاثرة تترجم في الحال ذلك الثراء المعجمي، ومن ثم القاموسي، والتشعب في الثقافة والتمازج اللغوية مع لغات شعوب أخرى في منطقة تتعدى حدودها أي رقم يمكن ذكره تأكيداً مساحاً لها، وقدم التاريخ، وهو ما تعرضنا له مطولاً، نسبياً، في كتاب «دولة حاجو آغا الكردية» بالنسبة إلى «هفيركان: الجغرافية والتاريخ»، لما بينهما من وشائج قرى، أي بين المحفوظ في الذاكرة الأرضية، طيها، والقائم في الذاكرة التاريخية، والذين يتناوبون على حملها أو توارثها، أو التعديل أو التغيير فيها زماناً ومكاناً تبعاً للمستجدات.

ذلك يعلمنا بالمقابل، بمدى التخطيط الدقيق، والذهنية الماكرة للذين يعمل أعداء الكرد عليهم، أي ممن يعملون في هذا المنحى تحديداً، إزاء حرب استراتيجية شعواء، حرب لا تقتصر على ما هو جبهاتي، ولا في نطاق معين: مادياً، إنما تتعدد جنسياتها ومستجداتها وكذلك أهدافها، تبعاً لمن يخطط لها، ويعتمدها لأمر ما، على طريقة «اكذب اكذب حتى يصدقوك» بالنسبة لهؤلاء الأعداء، وهو ما لم يتحقق من خلال ميكانيزم المجابهة والتعرية لمثل هذه الأساليب في التزوير والتلفيق وتوظيف مرتزقين بالجملة والمفرد في ذلك. وهو ما يحتم علينا، على الأقل، الوقوف على «حقيقة» معمولة كهذه، وعدم الاستخفاف بأي كلمة نقولها في هذا الصدد، حتى لا نتخذ حجة أحياناً على المعنيين بالكرد من الكرد، لنكون إزاء مجابهات خنادقية من نوع آخر.

ومن ذلك بالمقابل، ما يورده جيو على لسان جكرخوين في كتابه «الفولكلور الكردي» وهو التالي (مثلاً أن عشيرة اوامريا Omeriya ينتسبون إلى الميتانيين، وأن مركزهم الحالي في متينا Metina، فإن تسمية هفيركان جاءت من هويرين Hewren).

إن هيوورف Hewrve والميتانيين كانوا قبل أربعة آلاف عام من الآن اتحاد عشائري ينتسب إلى السوباريين الذين أقاموا إحدى الدول الكبيرة في الشرق الأوسط امتدت من مصر وفلسطين من جهة إلى خيزه من جهة أخرى، وأقامت علاقات ودّية مع مصر. ص 47).

من وجهة نظري، يبدو هذا الكلام، على صعيد التقدير الأولي مبهجاً للروح، جرّاء شق طريق يمضي بنا القهقري إلى آلاف السنين، ويكشف لنا عن توضع شاسع، رحب المدى جغرافياً، سوى أن دين الحقيقة هنا مكلف إن تم تجاهله، وهو الذي يخص مرجعية مثل هذه التقسيمات، من جهة شاعرنا جكرخوين: من هو قائله؟ أين قاله؟ في أي سياق أثار مثل هذه المسألة العويصة والخطرة بتداعياتها؟ تجاه أي مسألة تحدث في ذلك؟ يبدو أن ليس من جواب يطمئن فيما تقدّم.

أي ما يضع جكرخوين نفسه، قبل المستشهد به في خانة السؤال عما استشهد به هو نفسه، ليس للطنن فيما جاء به، وإنما بغية التوثيق، والدفع به إلى نطاق التأريخ، أي باعتباره أثراً تاريخياً، وهو ما يتطلب جهداً بما يتناسب ومكانته. وليس في «نص جكرخوين» ما يدعم هذه المقولة، بالعكس، إنه بطريقته هذه يصبح محل تعليقات من لهم صلة، ولو أولية بعلم التاريخ وقواعده في الكتابة، فما بالك بالذين يستقصون كتابات من هذا النمط، ليجعلوا منها مرتكزاً للنيل من الثقافة التي تغذي منها مخياله أولاً، ومن ثم السخرية من الذين يعتدون به، باعتبارهم ليس شاعرهم حصراً، وإنما كاتبهم، مؤرخهم، والمنظر لهم في هذا الشأن، وهو ما يقلل من الرصيد الاعتباري للغة كتابة كهذه، في الرواق الأكاديمي للتاريخ.

في نقطة تالية، ومؤثّرة بمحتواها يتحدث جبّو عن الجهة التي قدمت منها هفيريكان (ولا توجد معلومات قاطعة حول المكان الذي جاءت منه أسرة آل عثمان، الأسرة الأخيرة التي تزعمت الهفيريكانيين، وحسب قول جاجان أنهم جاؤوا من أطراف مدينة تبريز، ويقول البعض أنهم جاؤوا من منطقة عابدين... ويقول البعض الآخر أنهم جاؤوا من سنجار «شنكال» وجبل عبدالعزیز...إلا أن هناك اتفاقاً على أن أول مكان استقروا فيه هو قرية زاخران Zaxuran، ثم استقروا فيما بعد في مزيزخ التي كانت قرية سريانية قديمة. ومزيزخ هي أول قرية تقع على يسار الطريق عند الذهاب من مدياد إلى كربوران... ويقال أن أصحاب القرية الأصليين هم أسرة «آل شفقاتا» الإيزيدية، ويعيشون في القرية حالياً. ص 45... ويكتب جميل حاجو في مذكراته عن كيفية استقرار أسرة آل عثمان في مزيزخ قائلاً: ظهر خلاف بين أهالي القرية الذين

كان قسم منهم من الإيزيدية والقسم الآخر من المسيحيين، ولم يجدوا حلاً لذلك. وفي النهاية اتفقوا فيما بينهم على دعوة جدنا الأول عثمان سلو المقيم في قرية زاخوران ليكون حكماً فيما بينهم. وكان عثمان سلو يتمتع بنفوذ واحترام كبيرين في العشيرة، ولهذا أرادوا مجيئه إلى مزيزخ لحل المشكلة الموجودة فيما بينهم.. فحلها.. وأصروا على أن يعيش بينهم... وقد وافق.. واستقر في قرية مزيزخ..ص46).

يتقابل اسم المكان مع اسم القبيلة «هفيركان» من ناحية الغموض، وحتى بصدد البت في حقيقة الاسم الذي له اعتباره، هناك ما يدعو إلى السؤال والاستفسار، كما في «حاجو- بطي»، ولا بد أن ليس في ذلك من استغراب، حيث إن أسماء كثيرة كهذه، تخضع لتقديرات أو تحليلات، في الوقت الذي يُعَدُّ فيه من هو متخصص نوعاً ما في مسائل كهذه، إلا أن قدوم الشخص الذي يقود «شعبه: أفراد أهله أو قبيلته» من جهة إلى أخرى، ويكون محل ترحاب، من الطبيعي أن يأتي فعل الترحال في الواجهة، كما لو أن القادم من الخارج، لديه معرفة أكثر بالمكان وأهله، ولديه خبرات أكثر ليكون من خلالها أهلاً لأن يرحَّب به، ويمنَح شراف الزعامة، أو القيادة لأهل المكان أنفسهم. لكأن الرواية في بنيتها تتستر على سر أو بعض سر فيها، لتبقى شاغلة أذهان أهل الاختصاص، ومن يليهم في البحث.

وبذلك، فإنه طالما أن الاسم «هفيركا- هفيركان..» يطرح نفسه بغموض أصله، معناه، ودلالته، فإنه يصبح عرضة مستمرة للنقاشات، وحتى السجلات بين الآخذين بعقدة اللغة، أو فقهاء، وما في ذلك من منزلق خطير، وصعوبة بالغة، في كيفية الاهتمام إلى المعتبر الأصل في الاسم، من جهة الحروف وتهجئتها، جهة الكردية كلغة غير موحدة، تبعاً لجهات الاسم «عندما نتذكر هنا اللهجات الكردية، وهي متداولة كلغات، وحتى بالنسبة للواحدة منها، من مكان لآخر».

فيمكنني هنا، مثلاً، في ضوء المتروك عن هفيركان بأنها اتحاد قبائلي، وما قيل عن أن هناك من سعى إلى التوحيد بين هذه القبائل، فأكتب: لعلها من «Havgirtin: الرابطة» أو «Hevrêkan: الطريق المشترك».. الخ، أي ما يشير إلى التشارك في مصير موحد..

فالجهاز تعلّم، وهي تحرّك استفسارات مختلفة، والجهات مفاتيح حية لتحرّي أثر انتقالات الكرد ومواقعهم، رغم أن هناك ما يشجّع المعنى بالموضوع بالرهان على الشرق، حيث الحضارات تعبر عن نفسها منذ عصور مغلّة في القدم، تقع مواطنها

أو مواقعها في الجهة تلك، جهة الشروق، وما في ذلك من سهوب وجبال، والقادم من هناك متخماً بظلالها ..

لماذا سؤال الجهة؟ لأنه سؤال جغرافي، ولا علم موثوقية بالتاريخ، إن لم يصادق على المعطى الجغرافي ويؤكدّه.

وربما لأن الكرد جغرافيون، بأكثر من معنى، وإن لم يفكروا في ذلك، كما يتطلب وضعهم كذلك، والذين يستهدفونهم هم مهندسو مساحات، ومساحو جهات، وفي هذا التعقّب يكونون مهرة تاريخ، مهما أشير إلى انعدام التكافؤ بين الطرفين، أي كون الكرد مغبونين، مظلومين إجمالاً، محكومين من قبل الآخرين، فلا يجدون في أنفسهم تلك المقدرة، والزمن الكافي ليستطيعوا الرد على خصومهم، وأعدائهم، ومن ثم لينتقلوا من حالة الانطواء الجغرافي، إلى الامتداد التاريخي المتوخى، ومن ثم التحرك دون خوف من أي مطاردة. تلك حيلة خرساء في عالم الصراعات التي يشهدها التاريخ، وكما يعيشها الكرد، دون أن يخضعوها لمنطقها الزماني- المكاني.

وكما يعلم أهل التاريخ، وخاصة في التاريخ المستجد بمناهجه، كثيراً ما تكون الجغرافية حاضنة تاريخ، وهذا في مقام القابلة والعرّاب معاً لها ⁽¹⁾، وربما- أيضاً- كان امتحان الكرد في الجغرافية، ومكابدتهم جرّاءها، لم يمنحهم فرصة كافية لكتابة تاريخهم.

وفي هذا المنحى، يلاحظ، وكما سنلاحظ كذلك، أن ليس من فقررة تخص هفيركان، أو فرعاً داخل الفقرة هذه، كما في حال تحديد المعنى والاطمئنان إليه، والجهة التي قدمت منها، ومكوناتها الفعلية، ليبقى الباب مفتوحاً على مصراعيه.

(1) مثلاً، يقول د. محمد عبد الكريم الواقي، في كتابه: منهج البحث في التاريخ والتدوين التاريخي عند العرب، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ط3، 2008 (الجغرافية هي من أكثر العلوم ارتباطاً بعلم التاريخ. فإذا كان التاريخ يدرس الأحداث والأفعال الإنسانية الخاصة بالأمم والأفراد عبر الزمن، فإن الجغرافية تدرس الحيز الجغرافي الذي تقع فيه نشاطات هذا الإنسان عبر العصور. ص71).

كذلك، ما يقوله جورج قرم، في كتابه: تاريخ الشرق الأوسط من الأزمنة القديمة إلى اليوم، شركة المطبوعات، بيروت، ط1، 2010 (الجغرافية والتاريخ.. هما اللذان يسمحان أساساً، بشكل أفضل بكثير من المقاربة المعتمدة على الانتروبولوجيا الدينية، بفهم هوية هذه الشعوب. ص27) ... الخ

وفي النص المركب الأنف الذكر، هناك قول عن قول، وقول آخر كان حصيلة معايشة وشهادة عيان، بالنسبة لجميل حاجو في مذكراته، أي كيفية انتقال السلطة إلى الجد الأول، لعله البدء المفترض لظهورهم منبتاً عائلياً في التاريخ.

ويمكن التنويه - هنا - إلى ملاحظة تتمم ما بدأنا به، وهي تخص كلاً من «زاحوران/ زاخُران - مزيزخ»، ودلالة الاسم، أو اللعبة الاشتقاقية، إلى جانب المخارج الصوتية، ومصدر كل كلمة.

وفي كل مرحلة انتقال، نجد أنفسنا في مواجهة فعل قوة، وجلاء أمرها، كما في الانتقال من زاحوران إلى مزيزخ، وهناك يكون الاستقرار الذي يفضي إلى معايشة حياة من نوع آخر، وبالمقابل، إلى بلورة شخصية أكثر تميزاً بالنضج، حيث إن دعوة الجد الأول إلى قرية/ رقعة جغرافية أخرى، لا تتم إلا بناء على معرفة برجاجة الذكاء، والفتنة المعتبرة.

أي ما يجعل القادم من الخارج مرغوباً، مهما كان موقعه تقديرياً، فهو محسوب على الخارج.

فلدينا عالم غريب، مقارنة بالعالم الأول: هنا عالم الأهل المباشرين، وقد أصبحوا في مقام الغرياء، وهناك عالم الغرياء، وقد أصبحوا في مقام الأهل، دون ذلك يصعب علينا سر العلاقة التي تشد أهل القرية الثانية إلى الجد الأول.

لدينا مجموعة من الرهانات، يختار أحدها أحياناً، وتبعاً لموقعه الاجتماعي والثقافي، وخبراته الحياتية، ما يراه ليس أنسب إلى رؤاؤه وتطلعاته مما تقدم، وإنما إلى ما لا يراه الآخرون فيه، وهو نفسه من يرى ما يطمح إليه، وهنا يكون الإنسان المميز.

ربما كان الإنسان الأحادي التفكير يأخذ بمسألة الانتقال من القرية الأصل: قرية الطفولة، والأنداد، والأقرباء، وحتى المحيط المألوف بكائناته مجتمعة، إلى قرية تقع في المستقبل، في الغالب، ثم الفسحة الجغرافية التي تضمه إليها، بنوع من التناغم، أو الإعجاب، ومردود هذا الاحتضان، من إظهار القوى الكامنة في الداخل، وبناء شخصية أقوى وأمتن، ربما، كذلك، لئلا يخيب نظرة من دعوه، أو أظهرها له احتراماً، ورأوا فيه محط آمال معينة لهم، وعامل سكونية كذلك، وبالتالي، يكون مناشد نفسه لكي تمنحه المزيد من الطاقة الخفية، والمردودية في العطاء، ليكون الزعيم، بأكمل معنى له.

هذا الإنسان هو الطبيعة وقد أضيفت إليها القدرات الذاتية، وما فيها من براعة

خَلَقَ، وجلاء حضور في المعنى، وأعني بذلك، قبل كل شيء، تلك العاطفة التي شغلت إيريك فروم في كتب مختلفة له (وتوجد عاطفة واحدة تُشبع حاجة الإنسان إلى أن يوحد مع نفسه العالم، وأن يكتسب في الوقت ذاته الإحساس بالسلامة والفردية، وذلك هو الحب. إن الحب هو اتحاد المرء مع شخص، أو شيء، خارجه، على شرط إبقائه على انفصال ذاته وسلامتها).⁽¹⁾

يتخذ الحب كعاطفة انبثاقية صفة أوسع من مفهومها المعتاد: الحب الذي ينتظر ثمرته الآتية: اللذة، أو الشهوة، هنا لا يكون الحب كذلك، إنما هو القابلية للانفتاح على الآخرين، أي ما يقصي الأنانية، ويجعل من ديار الآخرين دياراً له، وهو يفقس فيه علاقات، ويبحث عن وجوه جديدة، ويتهياً في كل خطوة لما هو أكثر ثراء ورونقاً للمجتمع.

إنه الحب الذي يحمل في داخله، إن جَسَمناه، عالماً لا يني يقاوم في داخله كل أنواع الميكروبات المعدية التي تصيب المجتمع، في مختلف حقوله، والذين يعملون فيها بعاهات، حب لا يكاد يُلفظ حتى يصبح اسماً آخر في الجوهر، أي يتعدى معناه المألوف والمتداول، في شكله وحجمه ولونه وتنوع أطيافه، تجاوباً مع طموح الشخصية وهي بمظهرها القيادي، دون هذا المعنى في التوصيف، لا يمكن لنا الاقتراب من حافة القيادة، والتي يظهر من خلالها ذلك المتتهياً لأن يرمي بنفسه في الفراغ، ثم يبتعد عما هو حسي مباشر. أي حيث يبقى الحب المأخوذ به في الخلف، والذي يعرف به متقدماً إلى الأمام.

أليس الحب الموصوف هنا تعبئة روحية، وتطهير للروح في آنيته أو محلّيتها، وتربية مستدامة لهذه الروح المرشحة لكي تكون روح مغامر، روح زعيم، روح قيادي، ربما يكون التفكير في الموت، آخر ما يمكن التوقف عنده ؟

يتحدث أحد المهتمين بمفهوم القيادة قائلاً («القيادة هي إحدى أكثر الظواهر ملاحظة وأقلها فهماً»). والواقع أن هذه المفارقة قد طاردت منذ قرون بالفعل عدداً كبيراً من الباحثين الذين يحاولون فهم القيادة ومظهرها والعناصر التي تتكون منها. كل هذه الأعمال تجعل مما لا شك فيه القيادة واحدة من أكثر الظواهر تعقيداً التي واجهتها في البحث التنظيمي والنفسي، مدعومة بإسهامات من خلفيات علمية

(1) فروم، إيريك: المجتمع السوي، ترجمة: محمود منقذ الهاشمي، دار الحوار، اللاذقية، ط1، 2015، ص 122.

متعددة ومتنوعة: من الانتروبولوجيا إلى علوم الإدارة، بما في ذلك علم الأعراق وعلم الاجتماع وعلم النفس...⁽¹⁾.

كثير من المكونات تسهم في بلورة فكرة القيادة، وتبقى الفكرة هذه معقدة، لأنها تصل بأشخاص معينين، وهم ذوو كفاءة معينة، ويتواجدون في مواقع مختلفة، وموزعة في أنحاء مختلفة من العالم، فتكون لكل نوع منها، صفات خاصة به، ومن جهة أخرى، يبقى الحديث عما هو انتروبولوجي، إداري، اثني، اجتماعي ونفسي... الخ، مرتبطاً في الصميم، بذلك التعقيد الذي تتميز فكرة القيادة تلك، وأحسب هنا جيداً، أنه لولا هذا التنوع في المؤثرات، لسهل تفكيك مفهومها، وتحويلها إلى فاعل آلي، أو ميكانيكي بنسبة معينة، وأمكن تربية قادة وفق المطلب، ومن خلال جهاز تحكم، سوى أن القيادي الذي يشار إليه، لا يسبر له سرٌّ، وهو مسكون بقوى كثيرة، وينسب مختلفة، يعجز الباحث الحريص عن إقامة حوار دقيق معه. وبذلك يختلف القيادي عن الآخر، وحتى هو نفسه لا يبقى ثابتاً، وتبعاً لهذه المعادلة التربوية المؤثرة، يمكن التفريق بين الجد الأول لجميل حاجو، وهو يتحدث عنه بنوع من الزهو، وهذا يليق به، وحاجو الثاني في هيئته، بصفته قيادياً من نوع آخر في زمانه ومكانه، وتالياً، وهو ينطلق من حيث انتهى الآخرون، يكون عليكي بطي زعيماً، وزعيماً قيادياً مغايراً، كما تقتضي الظروف، وكما سنرى، وبدوره، يكون حاجو آغا، هو نفسه حامل الاسم نفسه ضمناً، إنما بصفات أخرى.

ذلك يدعم الدور الفردي الذاتي في عملية تأكيد سلطة الذات، ومدى قدرتها في التاريخ على جذب الأضواء، وتحديداً في الصيغة السالفة الذكر، إذ إن الطلب برجل من خارج الجماعة الأهلية، أو العشائرية، والثقة به بوصفه الأقدر على تحقيق السلام، ومن ثم فض النزاعات القائمة، أكثر من حالة انتقال إلى الخارج، وتحرر من وهم الداخل «باعتباره الأفضل»، وفي الجانب الآخر، يعلمنا هذا الانتقال، ولا بد أن في ذلك نزاعاً من المبايعة، أو التزكية، أو اتفاق ما من داخل العشيرة «من جهة مزيزخ» في النظر إلى «زاخران»، تعبيراً عن تقدير معين، عن شعور بحب يجد معنى له، صورة لمبتغاه، نظماً لمفهومه يطمئن الروح الجماعية، وانفتاح على الآخر، والأهم من ذلك، هو أهلية الجماعة هنا في انعقادها من فكرة الاعتماد على من هم في الداخل، ومن ثم التمهيد للدخول في علاقات اجتماعية أكثر من كونها قبلية ضيقة.

(1) Bensalem, Adib: 90 ANS DE THÉORIE SUR LE LEADERSHIP, economia.ma.

بنسالم، أديب: تسعون عاماً من النظرية حول القيادة.

النطق بالتاريخ أيضاً

ذلك يحفزّ فينا إرادة قول شيء آخر، وهو أن ذلك لا يمكن النظر إليه بعين البراءة. لا براءة مطلقة في التاريخ، ولا في أي شيء يمكننا النظر إليه، أو أخذه في الحسبان نظرة مثالية، إنما من منظور صراعي، حيث نجد أنفسنا إزاء مجموعة حيّة من التناقضات الحامية، بمثابة خيارات، والسعي إلى إحلال خيار محل آخر، دون تحية القوة جانباً. البراءة وهم كبير، يؤتى به من قبل من يتكتمون على حقيقة فاعلة في الواقع متغذية بجبرعات عنف معينة، كما هو المحرك الرئيس للتاريخ.

لنكون بهذا الصدد أقدر على فهم كل نقلة، أو خاصة سيادية ودلالاتها، ومن هم الذين يمثلونها «مثلاً، كيف تحقق الانتقال من جغرافية قرية «زاخران» لها فضاؤها الثقافي والاجتماعي، إلى جغرافية قرية «مزيزخ» مختلفة بصورة ما عن تلك الأولى بفضائها الثقافي والاجتماعي بالمقابل ؟ لا بد أن في الحركة هذه، دفعة حيوية لم تتوفر سابقاً.

وهي سياسة، أو لعبة سياسية، تتناسب والموقع الذي يشهد مثل هذا الاستبدال في فعل الانتقال (السياسة في كل مكان. لا يمكن للمرء أن يفلت منها باللجوء إلى عالم الفن للفن والفكر الخالص، أكثر من كونه موضوعياً غير موضوعي أو نظرية متعالية. المثقفون في عصرهم، في جموع من الرجال بقيادة سياسات التمثيل الجماعي التي تجسدها صناعة المعلومات أو وسائل الإعلام، لا يمكنهم مقاومتها إلا من خلال الطعن في الصور والحسابات الرسمية والمبررات المنبثقة من السلطة والتي يتم تداولها من قبل وسائل الإعلام القوية بشكل متزايد - وليس من قبل وسائل الإعلام حصراً، وإنما عبر تيارات الفكر بأكملها. والذين يحافظون ويحرصون على إجماع حول الأحداث الجارية من منظور مقبول⁽¹⁾.

سياسة علاقات، وسياسة تسويات، وسياسة مساجلات، وسياسة قوى متفاوتة، تكون الأكثر جدارة بتأكيد وجهة نظرها، وما فيها من حمولة مقولة استقطابية، هي الأقدر على حيازة الأكثر، أو فرض نظامها الرمزي، حتى وإن كانت أقل عدداً من البقية، لأن الدائر ليس مفهوماً كمياً، إنما نوعياً، وهو يستدعي هنا التكاثر والتماسك وأخلاقية المغامرة بالمقابل.

(1) القول لادوارد سعيد، ضمن ملف: حرب الأفكار: دور المثقفين «مقتطفات Guerre des idées: Le 2010le de l'intellectuel: extraits موقع www.monde-diplomatique.fr.

وإذا أردنا أن نمضي أكثر من ذلك، ورغبة في تسليط الضوء على أمثلة أخرى، مقابلة، وتتجاوز النطاق الجغرافي الكردي، حتى لا يُظن أن وضعاً صراعياً، عائلياً، أهلياً، عشائرياً، مجتمعياً، ينحصر في النطاق الكردي:

(بدأت بتدوين هذا التاريخ لحظة اندلاع الحرب، لاعتقادي بأنها ستكون حرباً عظمت وأجدر بالتدوين من كل الحروب التي دارت في الماضي. وقد قام اعتقادي هذا على حقيقة أن كلا الطرفين فيها كان في ذروة قوته واستعداده، ورأيت فوق ذلك أن العالم الهليني قد انقسم بين مؤيد لهذا الطرف أو ذاك بل حتى أولئك الذين لم يزجوا بأنفسهم في أتون الحرب منذ لحظة اندلاعها كانوا يجيلون النظر ويبحثون في الطرق التي سوف يسلكونها لاحقاً. وكانت تلك الحرب أعظم اضطراب يقع في تاريخ الهلينيين، وامتد أثره فشمّل جزءاً كبيراً من العالم غير الهليني، حتى ليتمكني القول: إنه شمل البشرية جمعاء.)⁽¹⁾

(الذي شجعتني فيما بعد على كتابة قصة هذه الأحداث هو تصوري بأنه سيكون من الجلي ملوك وأباطرة المستقبل أن القصّاص الذي سيستحقونه على أفعالهم الشريرة وآثامهم لا بد سيلحق بهم مثلما لحق بالشخصيات التي في صفحات التاريخ لتنتشر في كل الأزمان، وربما سيجعلهم هذا أقل استعداداً لانتهاك حرمة القوانين والشرائع وارتكاب الآثام والذنوب.)⁽²⁾

(إذا كانت الأعمال التي قام بها الفاتحون الأوائل، تؤكد إخلاصهم لقضية مشتركة تفوقت على أي اهتمام آخر بما في ذلك نزعة الاحتلال، فإن الأناية وكذلك الجشع سرعان ما استأثر بالقلوب بعد وقت قريب، وغمر رجال الصحراء ترف غير عادي انصبّ عليهم من كل ناحية، مما كان له أثره في إفساد النفوس أكثر من تهذيبها.)⁽³⁾

(عن الدولة الأموية: وعاد الفساد الاجتماعي القديم إلى حياة الدولة وكان أظهر ما فيه الأثرة الفردية والعصبية القبلية، فكأن العرى التي أوجدها الإسلام لربط أجزاء العالم الإسلامي ونقض العوامل الهدامة قد أخذت بالتفكك.... ولم ينقطع أهل

(1) ثيوسيديديس: تاريخ الحرب البيلوبونيسية، ترجمة: دينا الملاح- عمرو الملاح، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2003، ص 19.

(2) بروكوبيوس: التاريخ السري، ترجمه إلى الانكليزية وكتب مقدمته: جي.أ. وليامسون، ترجمه عن الانكليزية: علي زيتون، منشورات علاء الدين، دمشق، ط1، 2003، ص 42.

(3) فلوتن، ج. فان: السيطرة العربية والتشيع والمعتقدات «المهدية» في ظل خلافة بني أمية، ترجمة د. ابراهيم بيضون، دار النهضة العربية، بيروت، 1996، ص 25.

الشام عن انتظار مجيء سفياني يرفع عنهم مذلة الرضوخ لنير العباسيين، وكان أن ظهر ضمن نطاق الدين نفسه من النزعات المتنافرة ما لا يقل عن الأحزاب السياسية أثراً في تمزيق الأواصر⁽¹⁾.

(كانت الحصيلة المباشرة للانتصارات الإسلامية فورة من الاضطرابات والفوضى. انتصارات المدينة دفعت القبائل الحليفة إلى مهاجمة القبائل غير الحليفة لتعويض خسائرها. ص 99... اسلامياً: لم يكن ازدهار من نصيب جميع الأقاليم. ففي سورية، وما بين النهرين، ومصر، كان للفتح العربي تأثير سلبي في آفاق التنمية الاقتصادية طويلة الأمد. ص 111...

أحدثت الحرب الأهلية انقسامات دائمة في الأمة الإسلامية. من الآن فصاعداً بات المسلمون منقسمين حول صاحب الحق الشرعي في تولي الخلافة. ص 123.. «تأكيد ذلك»- بقيت الثقافة الدينية والشعرية لدى العشائر عنصراً أساسياً من عناصر الحياة الدبوية. ص 72..

أحدثت الحرب الأهلية انقسامات دائمة في الأمة الإسلامية «الحرب التي وقعت بين 656-661م»..

بين العرب، تواصلت صراعات طائفية مريرة. ص 131..⁽²⁾.

(كان سعيد باشا، الزعيم الكردي المقيم في دمشق، أميراً للحج، ولما شاخ، انتقلت هذه الإمارة إلى حفيده عبدالرحمن باشا اليوسف، بفضل توسط الشيخ أبي الهدى الصيادي، فصعب ذلك على عزة باشا العابد، وهو ابن دمشق، فتمكن بنفوزه لدى المراجع المختصة من نزع الإمارة من عبدالرحمن باشا اليوسف، بيلة حدائة سنه، والعهد بها إلى كبير آل العابد، فغضب الشيخ أبو الهدى، وأخذ يواصل مساعيه بحكمة ودهاء حتى استحصل إرادة سنيّة بإعادة الإمارة إلى عبدالرحمن باشا.. وأخيراً تم الاتفاق بين آل اليوسف وآل العابد، بفضل زفاف الغادة الحسناء الزهراء أخت عبدالرحمن باشا إلى زين الرجال محمد علي بك نجل عزة باشا العابد)⁽³⁾.

(1) د. فيليب حتى، د. أدوارد جرجي، د. جبرائيل جبور: تاريخ العرب، «طبعة مزيدة منقحة»، ط 5، ص 345-562.

(2) لابيدس، أيرام: تاريخ المجتمعات الإسلامية، ترجمة: فاضل جتكر، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 2، 2011. ج 1، ونظراً لوجود أكثر من اقتباس قصير، مختلف في صفحته، فقد تركت أرقامها في المتن للإيجاز.

(3) الحكيم، يوسف: سورية والعهد العثماني، دار النهار، بيروت، ط 2، 1980. ط 1، 196، ص 59.

(في الحديث عن البيوتات الدمشقية واستلامها لوظائف إدارية مختلفة بعد عام 1860: آل العجلاني، وعائلة العمرين، وآل الجيلاني، وعائلة الكزيري، وعائلة الأيوبي، وعائلة العظم، والعظمة، وآل اليوسف، وآل العابد، وبنو الأدلبي، وبنو مردم بك، وبوظو، وشمدن... «دون تحديد الاثنية. ملاحظة من الكاتب هنا» - والمدن في الشرق كانت دائماً نقاط ارتكاز للحكام»⁽¹⁾.

هنا، مجدداً، يستفاد من المصدر المتوفر لدينا، وهو يخص بروينسن، ج1، بصدد طبيعة العلاقات بين القبائل، ومفهوم الصراع، وحتى النهب talan هذا الذي يشير إلى «سيستام» اجتماعي، تاريخي، وبيئي، بين جماعات عشائرية مختلفة، وليست الكردية فيها استثناء، حيث إن تأكيد أي موقع زعاماتي في الداخل، لا بد من تأكيد الهيبة هذه خارجاً، إما بشن حرب جانبية «غزو ما» أو الانتصار في الحرب، ورد العدو الخارجي، أو فرض سلطة الزعيم من الداخل على الخارج، ومن ثم الربط بين استمرارية الزعيم، ومقدرته على ضمان تدفق الغذاء أو الطعام، وفي بيئة قد تكون قاسية، لأفراد العشيرة/القبيلة، وكيف أن علاقة القوة المتحوّلة هذه لا تقدّر وتفهّم بسهولة، جهة من ينتمي أصلاً إلى جماعة عشيرة معينة، ومن يطلب انتساباً إليه، كما في مرده «الحمولة» ويتم قبول طلبه، تعبيراً عن وحدة، أو رغبة فيها، لضمان هيبة الجماعة المركبة ممن هم الأصل، ومن جاؤوا بالإضافة، ومع الزمن تلاحموا.

ماذا يقول بروينسن، في الفصل الثاني من كتابه ذاك؟

القبائل وزعماء القبائل والجماعات اللاقبلية، ص117.

هناك كرد قبليون وآخرون لا قبليون، وثمة غالبية للاقبليين في بعض المناطق. ص118. الزعامة والنزاعات مترابطتان ترابطاً وثيقاً. فعلي العموم، تحتاج النزاعات إلى تدخل سلطات تتمتع بالاعتراف الشعبي من أجل تسويتها. وتتأكد سلطة الزعيم وتزداد مع كل نزاع خطير ينجح في حله. ص180.

وفي عنوان فرعي: من يصبح الزعيم؟

هناك في كل قبيلة، عادة، عدد من المتنافسين على الزعامة، إذ لا توجد قاعدة فريدة تنظّم مسألة من يتوجب جعله زعيماً. فالبنية القرابية متساوقة من حيث إن جميع الأفراد، ضمن جيل واحد، يحتلون بنوياً مواقع متماثلة. ص182. إن زعامة الحمولة أو القبيلة يجري توارثها، عموماً. ضمن العائلة نفسها، بيد أنه لا توجد قاعدة ثابتة للخلافة. ص183.

في منطقة الجزيرة الشمالية:

من بين أول المستوطنين كانت العائلة المتسيدة لقبيلة دوريكان، وكانت يومذاك قبيلة رحالة تنتمي إلى اتحاد هفركان القبائلي. ص219.... الخ.

(1) د. وجيه كوثراني: السلطة والمجتمع والعمل السياسي «من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام»، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1988، ص 93-103.

(مديح أيام زمان العثمانية: وأجزم بأن هذا الانقلاب الذي حصل في الدولة العثمانية كان بدء الهزات التي استمرت منذ 1908 ولا تزال تحول دون الاستقرار في الشرق الأدنى ص5...)

حيث كان التثقل سهلاً بين جميع البلاد، ودون تفتيش ص39..

في عهد الحكومة العثمانية الأخير، قبل الحرب العالمية الأولى: كانت الليرة الذهبية=100 قرشاً و 5 مجيديات، وهذه فضية= الواحدة 20 قرشاً، والمجيدي نصف وأرباعاً أربعاً. والقرش الصاغ من نيكل عليها 40 بارة، ينقسم إلى نصفين قرش= 20 بارة.. وأربع قطع، الواحدة 10 بارات، وهذه تسمى «متليك وهي من متاليك الافرنسية: أي معدني، والمتليك خمس نحاسات أو عشرة نصف نحاسة وكل عشرة= «بشلك»، وهي نحاس أسود، والأبومية= عشرة نحاسات، والصغيرة خمس نحاسات.. والورقية لم تعرف إلا بعد الحرب.. وإذا كانت الليرة العثمانية الذهبية = 30 ليرة سورية فالأبومية تعادل 60 قرشاً سورياً والنحاسية قرشاً سورياً ونصفه.. ورغم ذلك كانت قيمة النقد بالنسبة لقيم الأشياء هي أكثر مما هي عليه اليوم.. ص56....⁽¹⁾... الخ

ما الذي أريد من هذه الأمثلة، كما هو المنشود بحثياً من ناحيتي؟

أولاً، كان الحديث يتركز على الصراعات القائمة بين أطراف، يبدو أنها تحتاج إلى بعض الوقت، للتمكن من تهدئة سورتها، أو تخفيف عنفها، دون نسيان الضحايا، وظهور من يستلم دفعة السلطة.

ثانياً، وفي بنية الصراعات هذه، يسهل القول عن أنها مستمرة، دائمة، وبصيص شتى، ظاهرة وخفية، وهي في مختلف الحالات تعبير عن رغبات مكبوتة، أو استجابة لنوايا ظهرت إلى السطح، أو مصالح فردية أو جماعية معينة، لا بد أنها تتطلب زماناً معيناً، حتى تكف في أن تكون ظاهرة، بما أن إرضاء لها قد تم.

ثالثاً، لا بد أن في كل بحث عمّن يحكم، أو يديره، أو يكون الزعيم، بالمعنى المباشر للكلمة، تبريراً معيناً للسلوك المعتمد، ودون ذلك سوف يبقى العنف، والدامي منه ضمناً، قائماً، بصفته الحاجة التي لم تعد السكوت، فلا بد من إشباعها هنا.

رابعاً، وفي الأمثلة المذكورة، تتنوع الأزمنة والأمكنة، سوى أن هناك قاسماً مشتركاً يصل ما بينها، وهي أنها تعبر عن ذلك التصادم بين مصالح الناس، والخلافات التي

(1) مذكرات خالد العظم، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ط3، 2003. م1، ص 5-39-56.

تستوجبها، وأن هذه التصادمات، قد تكون المحرّك للرئيس حتى في مجال الكتابة ذات الطابع الأدبي، أو اللجوء إلى نسج أقوال، توحى بالحيادية، ولكنها إفصاح عن رؤية معتقديّة ما .

خامساً، في بنية كل خصومة: فردية «داخلية» أو جماعية، أو بين أطراف مختلفة، تبقى السياسة وآلية العمل بها، في واجهة العلاقات التي تلفت الأنظار، وتلك الأنماط من التفكير المصاحبة لها، ومدى قدرتها على إقناع الآخرين.

هناك مشاعر خفية، دوافع تتقابل أو تتداخل أو تتشابك فيما بينها، هواجس نفسية، وتصورات، مخاوف تطرح نفسها في بنية العلاقات، جهة السياسة التي يتم اعتمادها في نطاق العلاقات المتوترة، على مستوى نظام قائم بذاته، أو جماعة محدودة زماناً ومكاناً. وهي علاقات تحمل في ظاهرها، كما في باطنها صوراً من القيم التي تلون فيها، وما فيها من تضارب، أو ما تظهرها من أشكال سلوكية، قد تكون مقرّزة أو منفّرة، وتترتب عليها ردود أفعال، في واقعها اليومي، وهو ما يمكننا إيجاده على مستوى عام، وليس حصر المثار في فسحة جغرافية- بشرية معينة وحدها. مثال ذلك (إن التفاهات في الحياة المهنية والشخصية يمكن أن تقودنا إلى الكذب أو الغش أو تعديل الواقع الذي نريد أن نقدمه للآخرين. في المواقف الخطيرة، لا يوجد احتمال أن يفرض محاورك القليل من الحظ. فكيف تعرف إذا كان يقول الحقيقة أم يكذب؟

بالفعل فإنه في اليونان القديمة، كان أرسطو قد فهم بالفعل أن الإنسان حيوان اجتماعي. فهو يعيش في المجتمع، لكنه لن يتردد في خيانة شعبه إذا اعتقد أنه من الضروري القيام بذلك للحصول على شيء لم يكن ليحصل عليه بخلاف ذلك. وقد أدرك أسلافنا أن الكذب ينتج زيادة في مستويات التوتر وجفاف الفم. بين الهنود، كان المشتبه بهم يعضون الأرز ويبصقونه. واستخدم الصينيون دقيق الأرز. إذا وصلوا إلى هناك، تم تطهيرهم. خلاف ذلك، كانت أيامهم معدودة... من الواضح أن نقص اللعب منع بصدق محتويات الفم. في المسلسل التلفزيوني: كذّبي Lie-To-Me، يقوم كال ليتمان، المتخصص في الكشف عن الكذب، بتسليم بيضة إلى ضابط أمن النقل الذي استولى عليها على الفور. هذه الممارسة التي استخدمتها القبائل في غرب إفريقيا القديمة كانت قائمة أيضاً على العصبيّة. كل من كسر البيضة كان مذنباً.⁽¹⁾

(1) Éric Goulard, Éric: 5 astuces simples pour détecter les mensonges

ذلك يهدّي من روعنا، لحظة مكاشفة مشهد عنفي لدى البعض منا، والشعور الأولي على أنه يقتصر علينا وحدنا، ولكنه العنف الذي يصل ما بين أول البشر وآخرهم، بوصفه محرّك الكثير من النزوعات أو الميول وحتى أكثرها تقديراً.

لا يخلو أي إجراء في ضوء ذلك من التفاف على العنف، من طي صفحته، والشعور بحالة نفسية أخرى، تبعاً لمن يمثّل الحالة هذه، في الشأن القيادي، قبل أي شأن آخر، وتلك الأساليب التي يمتزج فيها الدهاء السياسي بالمكر، الكلام المنمّق والذي يتطلب الاعتماد عليه، كونه يفيد كثيراً، في استرضاء من يسخطون سريعاً ثم لا يلبثون أن يهدأوا. إنه فعل الصدق ممّن لديه قدرات خاصة، تسمح لمن يمتلكها في اتخاذ المبادرة التي تكفل له التقدم، واستقطاب الآخرين أو جمهرتهم حوله. وهذا يذكّر بقول أحد المعنيين ببنية قوله الصدق هنا (الصدق هدية يمكن أن نقدمها للآخرين. كما أنه مصدر قوة وأداة لتبسيط الأمور. وعندما تعلم أنك ستحاول قول الحقيقة تحت أي ظرف من الظروف، فإنه لم يعد عليك الاستعداد للكثير. إن علمك أنك قلت الحقيقة في الماضي يعني أنك لست مضطراً إلى تذكر كل شيء. يمكننا بكل بساطة، وفي جميع الأوقات، أن نكون أنفسنا.

للذهاب إلى أبعد من ذلك..⁽¹⁾.

وكما أسلفت، ليس الكرد استثناء في التعامل السياسي مع بعضهم بعضاً، سوى أن وضعهم الاجتماعي، وكذلك السياسي التّبعي، ولأنهم لا يتمتعون بتلك الصفة التي تخفّف الضغط عليهم، ناحية اهتمامات الآخرين، وتعليقاتهم، وإظهار سلبيات قد تكون ذات طابع نوعي مؤبّد، مما يسمح بتكرار القول بأن الكرد خلّقوا انقساميين، وسيبقون انقساميين، وأن ليس من قوة قادرة على ضبطهم، سوى من يسمّونهم أعداءهم، كما تقول وقائع التاريخ كثيراً، كما لو أن حرمانهم من كيان سياسي يمثّلهم، لا يعني أن هناك عوائق خارجية تكون السبب الرئيس وراء ذلك، إنما هي عوائق بنيوية، فطرية من خلال تكرار مآسيهم تبقّيهم هكذا.

وفي الوقت نفسه، ومن خلال المقروء عنه وفي تاريخه، أن الكردي يسلمّ بأنه كغيره: حيوان اجتماعي- سياسي «بمعنى الحياة»، على طريقة أرسطو، ولكنه في

جولارد، إريك: خمس نصائح بسيطة لكشف الأكاذيب

(1) Harris, Sam: Dire la vérité fait du bien au cerveau et au moral

هاريس، سام، قول الحقيقة جيد للدماغ والمعنويات.

محتوى العبارة، لا يخفي تحسسه ووجعه العميق عندما يسمع بهذه العبارة، وهو يرى أنه في تاريخه، لطالما تم التعامل معه بعيداً جداً عما هو اجتماعي- سياسي، أي بوصفه «حيواناً» فقط، ودليله، حين يجرد من صفته إنساناً ذا حقوق، ويُعرض للتكيل والتشهير به. أوليس الكردي الذي يعارض أسلوب التعامل معه دون مستوى المستبد به، وينتفضض ضده على أنه «شقي، عاص، متمرّد، خارج عن القانون» قانون عدوه فيه «...»، كما لو أنه «حيوان ذبيحة، أضحية» تاريخية لعدوه ذاك؟

هي علامة فارقة، قد تجد من يرفع من مستواها الدلالي، والانتكاء عليها، ومن ثم تأكيدها كثيراً، نظراً لما يلحظه من تنوع كبير في أشكال التمزقات الكردية، ومن تخصصاتهم، أو من الكثرة القائمة في وقائع التاريخ التي تظهرهم دون أي كيان سياسي يشير إليهم، ومن ثم استعادة هذا المثال في التعبير والتشديد عليه هنا وهناك. في العودة إلى موضوع هفيركان، هناك خطوط عنف قائمة، خلافات اجتماعية في الداخل والخارج، إنما في الوقت نفسه ترىنا اللحظات الأكثر فاعلية أثر، ذلك القَدَم التاريخي لهفيركان وكيف أنها لم تحرم من سلطة تعنيها، لا بل وما يشبه الكيان السياسي الذي يحفظ لها حقوقاً في الاستقلالية والتعبير عن الذات بمعلّمها الاتحادي شبه المنؤسّساتي بالمقابل.

نجد هنا، مجدداً جبو وهو يعتمد على بروينسن في أهم النقاط التي تخص الجانب السيّري لهفيركان، غير أن المفيد هنا، بالنسبة إلى موضوعنا، ونحن نتحدث عن الزعامة، أو الحس القيادي المركز، أورد ما اقتبسه جبو من بروينسن (واعتباراً من القرن الثالث عشر بقي الهفيركان تابعين للأيوبيين لسنوات طويلة. ويفهم بأنهم أصبحوا تابعين لأمرأ بوتان بعد سقوط السلطنة الأيوبية في حزنكف عام 1524. ورغم أن إمارة بوتان، التي تقع مركزها في جزيرة، كانت تابعة للسلطنة العثمانية إلا أنها تمتعت بحكم شبه مستقل على مدى سنين. وفي عهد بدرخان بك «1818-1847». آخر أمرأ بوتان، أصبح قسم كبير من العشائر الكردية تابعاً للإمارة. وكان اتحاد عشائر هفيركان إحداها. وبالإضافة إلى وجود رئيس لكل عشيرة فقد كان للاتحاد ككل رئيس يمثل الاتحاد وتابع لأمر بوتان. ص 47).

هناك أكثر من سبعة قرون تسجّل لهفيركان وتوالي الأجيال فيها، ومن المؤسف عدم وجود تأريخ لهذه الحلقات التاريخية التي تعنيها عن قرب، أي بوصفها هفيركان، وكيف أننا نشهد حقبة من البقاء السياسي، وما تكون عليه كل حقبة، وأن هذا

الحضور في التاريخ، يشير إلى عراقية مكانية بالمقابل، وأرشيف خبرات، رغم التأسف، كما أسلفت، على عدم وجود كتابات مباشرة عن العلاقات التي كانت تتم بين أفراد هذا الاتحاد أو هفيركان، ومما كانت تتشكل بالفعل. ومن المؤكد أنه فيما لو توقّرت لدينا معلومات معينة عن هذا القدم التاريخي، لأمكننا التعرف إلى سلوكات اجتماعية، وذخر ثقافي من نوع آخر، هو الآخر كان يساعدنا في أن نمضي إلى الأبعد مما تقدم، أبعد من ظهور العثمانيين أنفسهم في المنطقة، أي معرفة القوى البشرية التي سكنت في المنطقة، ومن أين جاءت، أو من تكون القوى البشرية الأقدم في المنطقة، ولغتها.

لا بد أن معرفة جوانب معينة، وفاعلة مما ذكرت، كانت ستمكّننا من تحديد خاصيات أخرى في سلوكيات العامة، وأين تكون سكناهم، أو مواضعهم، ومن الذي يدير شئونهم، من موقع قيادي، أو زعاماتي.

إشارة جكرخوين التي تمضي بهفيركان إلى القرون الخوالي، مغرية، ولكنها وهي عالقة في الهواء، محبطة بالمقابل.

هناك شح في المواد التي تعيننا في التحرك تاريخياً.

في كتاب حول «جزيرة بوتان» نقرأ عن أنها (خضعت بامتداد التاريخ لحكم دول مختلفة، وتبعاً للمعلومات التي وصلتنا كتابياً. كان هناك قسم منها، وقبل 2300 ق. م، قد خضع لحكم الحوريين، واستمر حكم الحوريين في هذا الشطر منها حتى عام 1700 ق. م)⁽¹⁾.

وفي مكان آخر، نقرأ (في القرن السادس عشر، بعد هزيمة الصفويين، وظهر اتفاقية أمراء كردستان مع العثمانيين، كان هناك استقرار في عموم كردستان، خصوصاً في الجزيرة. بهذا الشكل، من ناحية توقفت الغزوات الخارجية، ومن ناحية أخرى، التوترات ما بين أمراء كردستان وعشائرها بشكل معقول نسبياً)⁽²⁾.

يعني ذلك أن هناك إمارات، وهناك قبائل وعشائر، أن هناك مدناً وأريافاً، وفي المدن توجد سلطات قائمة تتجسد في إمارات لها سيادة معينة، تمارس عبرها سلطتها وحكمها ضمن حدود جغرافية معينة، وضمناً، تخضع لكل منها قرى وبلدات وعشائر أو التحادات قبائلية، لها خصوصية معينة بدورها في إدارة شئون كل منها، وضمن علاقات منظّمة.

(1) Ergun, Zulkuf: Bajar- Edebiyat û Cizîra Botan, Nûbihar, Istanbul, Ç1, 2014, r: 79.

(2) Heman Jêder, r: 121.

ولا نعلم، كم هو عدد القبائل أو الاتحادات القبائلية التي كانت تخضع لهذه الإمارة «البوتانية» تماماً، إن ما نعلم به، هو أن هفيركان ربطت مصيرها ببوتان والأمراء الذين تعاقبوا على حكمها، ليس لأنها الأقرب إليها، إنما، ربما لعراقة معينة في تاريخها، أو لامتدادات ديموغرافية لها معها، تمتد في عمرها إلى زمن أقدم مما أشير إليه هنا، ليس هذا فقط، وإنما لأن بوتان تعتبر في الكثير من مناقبها دالة على هذا الحضور الكردي السيادي، والمجابهة والعناد والحرية، إلى جانب أن الكثير مما يمكن معرفته عن الكرد، والسلطة التي تمثلهم، والكتابات، قد تركّز حول هذه الجزيرة.

بغية توضيح نقاط سالفة، وإضاءة هذه النقطة ثانياً، وإبراز الأرضية السياسية التي أبقت هفيركان على تماس مباشر مع هذه الجزيرة، لا بد من وقفة معينة، تعيننا على تبين هذه النقطة في التالي:

(إبان حكم إمارة أزيان/ عزيزان، وتبعاً لبعض المصادر، كانت الجزيرة تعرف بـ «جزيرة الكرد» «ربما من هذا المنطلق تمت تسميتها عندما استولى عليها العرب المسلمون بـ «جزيرة عمر، نسبة إلى عمر بن الخطاب، وجرّاء مقاومة الكرد لهم. م من إبراهيم محمود». حيث إن سلطة عشيرة بوتى Botî، كانت تُسمّى بين الكرد على أنها جزيرة بوتان.. وإزاء هذه الحقيقة، نجد أن شرف خان بدليسي يربط أصل أمراء أزيان: عزيزان بخالد بن الوليد، وأن أول من يحكم هذه الإمارة كان ابنه سليمان بن الوليد. وبصدد هذا القول، يرى عبدالله وارلي أن «خالداً» أو «خالدا» اسم مكان، والذي يمتد من غرزان حتى نهر الزاب، ومن وان حتى بيسملي، والذين يزعمون بخصوص نسل خالد بن الوليد، هو من أصلاء المكان، وليس لأنه استعار اسمه من هذه المنطقة، عدا عن أنه وكما يقول بعض المؤرخين، ليس لأن لخالد بن الوليد أبناء أبداً.

من ناحية أخرى، فإن شرف خان الذي يربط أصل أزيان بخالد بن الوليد، يزعم في الوقت نفسه، أن هذا الشخص «سليمان» في البداية على دين الإيزيدية، وفيما بعد تحوّل إلى مذهب أهل السنة. وهنا يوجد تناقض بارز، حيث إن الإيزيدية وقتذاك كانوا في حساب الكرد، وما كانوا معترفاً بهم من جهة الإسلام.. لهذا، لا يمكن أن تتواجد في تلك الفترة عائلة مسلمة وأصلها عربي، تترك دينها الإسلامي، وتعتنق الإيزيدية، لهذا، فإن الزعم الثاني لشرف خان يفنّد زعمه الأول، بناء عليه، يظهر أن أصل هذه العائلة كردي، ولاحقاً دخلت الإسلام على مذهب أهل السنة.

وتبعاً لبعض المصادر، فإن أول أمير لأزيزان، لم يكن سليمان بن خالد، إنما ربما عزالدين بوتلي، لهذا، فإن شرف خان، وإن كان يحدّد أول حاكم لهذه الإمارة وهو سليمان بن الوليد، فإنه يمد بسلسلة نسب حكام الجزيرة، ويصل بها إلى الأمير عزالدين، بناء عليه، ربما جاء اسم أزيزان من اسم عزالدين، أي عبدالعزيز، وله صلة بهذا الأمير⁽¹⁾.

(1) Heman Jêder, r:r:85.

لعل ذلك يبرز من خلال ما تعرّض محمد أمين زكي له في «خلاصة تاريخ كرد وكرديستان من أقدم العصور التاريخية حتى الآن، ترجمة: محمد علي عوني، الجمعية الكردية اللبنانية، بيروت، ط2، 2003، ج1،...» ولاحقاً مترجمه، وهو يزيد موضوع التعقيب وضوحاً، حيث نقرأ جهة الإشارة إلى أن (هؤلاء الأمراء من ذرية سيدنا «خالد بن الوليد»، فيعلق بقوله) ولكن التاريخ الإسلامي العام لم يذكر شيئاً عن وجود «خالد» أو عن وجود ابن له يدعى «سليمان» في كردستان، كما أنه من المعروف على وجه التحقيق أن ذرية هذا البطل العربي الإسلامي قد انقرضت في صدر الإسلام، ولهذا كان من العسير الأخذ بمثل هذه الرواية)، ويأتي توضيح المترجم محمد علي عوني هكذا (المؤلف يسعى إلى إبراز أن خالد بن الوليد توفي كما دفن في حمص، وانتشار روايته في كردستان من باب تقدير الكرد له، والتاريخ ينص على انقطاع ذريته في صدر الإسلام. والمتواتر أن له أنجلاً ثلاثة سليمان وعبدالرحمن ومهاجر، وكان أولهم مع علي «ر» وقتل في حرب صفين، والثاني والياً على حمص ففسد له السم في دواء بأمر من معاوية... ويشير إلى مؤلف «أسد الغابة»، ج2، ص104 إلى انقراض ذريته.. ويشير المؤلف إلى التداخل بين خالد وانحدار عشائر الجزيرة وحواليها من الشعب «الخلدي- الكلدي» واعتباراً ذلك سبباً لهذا التسيب مع تقادم الزمان).

أي ما ينفي أي علاقة لخالد بن الوليد أو أحد أبنائه المزعومين بالنسب المذكور. ومن الواجب المعرف في هنا، لفت انتباه القارئ إلى من أفاض به مؤلفه التاريخي، بهذا النوع من السلاسل النسبية، بحيث يصعب وجود استثناء، أي شرف خان بدليسي، مثلاً، عندما يتحدث في كتابه: شرفنامه، ترجمة: محمد جميل الملا الروزياني، دار المدى، دمشق ط3، 2007، وفي الفصل الرابع، عن ذلك، أي «في ذكر حكام الجزيرة وهو في ثلاث شعب»، ومن ثم (تسبيهم إلى الصحابي خالد بن الوليد. ص245.. في الهامش: اعتباره ادعاء باطلاً، حيث انقرض نسل خالد، ومن خلال الإحالة أيضاً إلى «أسد الغابة» و«نهاية الأدب» ص277... الخ.

وينظر في هذا السياق كذلك، ما انبرى به الباحث المؤرخ الكردي المعروف جليلي جليل، وقد أدلى بدلوه هو الآخر في هذا النوع من التثبیت النسبي، ودون أن يتعرض تشريحاً أو تنقيحاً لهذه العلاقة المركبة، وهو يتحدث عن إمارة بوتان «بوتان» حين قال (كانت تحكم بوطان عائلة أميرية كردية من سلالة عزيزيان، ويعتبر أمين زكي وغيره من المؤلفين الكرد، استناداً إلى

لاحقاً، نجد متابعة لكيفية مواجهة «جزيرة الكرد» لكل الغزاة القادمين من الخارج، كما في حال التركمان، الذين حاولوا النيل من سكان الجزيرة والبقاء فيها، فلم يستطيعوا، إنما طُردوا منها، ومنذ أكثر من ستة قرون، مع خان شرف، وليس انتهاء بـ شاه علي بك، ضد الصفويين الذين عجزوا عن النيل من الكرد الجزيرة، بعد محاولات متكررة للسيطرة عليها، وما ترتب على هذا الموقف تالياً من وقوف الكثير من الأمراء إلى جانب العثمانيين ضد الصفويين... الخ⁽¹⁾.

أن تبحث عن القوة، عليك أن تجد من يجسدها، لتتال في ظله ما يمكنك لأن تصبح قوياً، إذا كان من جنسك، وإذا كان يتمتع بعراقة تاريخ، تفيد في التعرف إليه، بمقدار ما يكون هذا التاريخ مرجعاً لمن يجسد هذه القوة في السلطة، وفي ضوء ذلك ترتقي بوتان، جزيرة بوتان، جزيرة الكرد إلى مستوى الرمز، ونظراً لموقعها الاستراتيجي والثقافي والحضاري، كما لو أنها في بنيتها الجغرافية والتاريخية، تمثل النواة الأولى لفكرة مدينة أكبر، أو دولة بكل ما للكلمة من معنى، وأنها في هذا الجانب، على صعيد الزعامة، والقيادة، كانت توفر المرجعيات المختلفة، لمن يريد الارتقاء

«شرف- نامه»، إن كلمة عزيزيان ظهرت من اسم أحد مؤسسي السلالة وهو الأمير عبدالعزيز حفيد خالد من الجزيرة، ويؤكد كاميران علي بدرخان.. أن كلمة «عزيز» أصلها تسمية لقرية صغيرة وهي «أزيان» الواقعة بالقرب من مدينة الجزيرة، وهناك آراء أخرى عن أصل هذه السلالة، إحداهما تقول عن الأصل العربي لها واتصالها بالأسرة الهاشمية.) ينظر كتابه: من تاريخ الإمارات في الإمبراطورية العثمانية، دارالأهالي، دمشق، ط1، 1987، ص 74.

من الواجب هنا، لفت نظر القارئ إلى من أّ تخم مؤلفه التاريخي، كما سنرى، بهذا النوع من السلاسل النسبية، بحيث يصعب وجود استثناء، أي شرف خان بدليسي، مثلاً، حين يتحدث في كتابه: شرفنامه، ترجمة: محمد جميل الملا الروزياني، دار المدى، دمشق ط3، 2007، وفي

الفصل الرابع، عن ذلك، أي «في ذكر حكام الجزيرة وهو في ثلاث شعب»، ومن ثم (تسببهم إلى الصباحي خالد بن الوليد ص 245- في الهامش: اعتباره ادعاءً باطلاً، حيث انقراض نسل خالد، ومن خلال الإحالة أيضاً إلى «أسد الغابة» و«نهاية الأدب» ص 277) ولعل مارتن فان برونسن حين يتحدث عن إمارة بوتان والبدرخانيين ضمناً، في كتابه: الآغا والشيخ والدولة «البنى الاجتماعية والسياسية لكردستان» المصدر المذكور، ص 383 (كانت إمارة بوتان على امتداد عدد كبير من القرون، تحكمها عادة تحدّرها من خالد بن الوليد أحد أشهر قادة النبي العسكريين.)، يذكّر بهذا الجانب...

(1) Ergun, Zulkuf: Baja- Edebiyat û Cizîra Botan, rr:85-90.

بمقامه النفسي، ومن يرغب في أن يوسع حدوده الإدارية في نطاقها السياسي، لتكون من ثمن قبلة النظارة، كما يقال، وليس من شك، في أن الذين يتغنون ببوتان، إنما يستعيدون تاريخاً عريقاً موعلاً في القدم، يمضي بهم إلى ما وراء العهود السحيقة، إنما أيضاً يستشرف بهم ما كان عليهم أسلافهم الكرد الآخرون على المسار الجغرافي الأرضي الخصب والمائي الرئيس للحضارة، ومن ثم التحرك وفق خطوط مرئية نحو هذه الجهة أو تلك، ليلتقي كرده القدماء، من سومريين، ميثانيين، حوريين، وميديين... الخ، ومن جاؤوا بعد الميلاد، بالنسبة لسلسلة الإمارات الكردية، وما في هذا التحرك من انفتاح نفسي على التاريخ.

مقصد الكلام، أن الحديث عن هفيركان، يعني الحديث عن خبرات في الحكم، في القيادة، وفي الزعامة بالمقابل، إنما يعني بالمقابل، إمكان الاقتداء بمن يستحقون الاقتداء بهم، ومن ثم الاغتناء بتلك الخبرات لأجلهم وهم بين بني جلدتهم الكرد.

ولا بد من استعادة عبارة سألقة الذكر، وهي تتمثل في «سلاطين هفيركان»، إذ إن هذه التسمية تكاد تكون استثنائية، حيث إنها تستحق متابعة تاريخية لمغزى ظهورها، وحصرها في زعماء هفيركان، وحتى بالنسبة إلى جبو، يكتفي بهذه العبارة «ويطلق عليهم في المنطقة اسم: سلاطين هفيركان. ص22» أي من الذي أطلق عليهم هذا اللقب؟ هذا السؤال يطرح نفسه، لأن هذا اللقب يضعنا في مواجهة لقب خاص جداً على مستوى الزعامة، أي «السلطان العثماني»، حيث لا يمكن القبول بسلطانين في دولة واحدة، وليس من تكافؤ بينهم في القوة والنفوذ. وبالتالي، فإن الذي يحفز فينا المزيد من البحث هو التحرك في الاتجاه المعاكس للتاريخ السلطوي القائم، أي ما يجعل من اللقب تحدياً، إذ يمكن العثور على ألقاب سلطانية كهذه، تشمل من يرى فيهم السلطان العثماني أهلاً لأن ينالوها، بدءاً من الآغا، وانتهاءً بأمير الأمراء «بكلربك» أما لقب «السلطان» فلا يعقل أن سلطاناً يمنحه بسهولة لمن هو دونه مقاماً، ويكون بموازاة لقبه الأعظم. هذا يعني أنه لقب تحدّ، ووجد طريق من الصدور إلى الصدور، جرّاء مواجهة مستمرة من قبل هفيركان، وقوتها في المنطقة⁽¹⁾.

(1) نقرأ، مثلاً، في كتاب د. صلاح هروري: إمارة بوتان في عهد الأمير بدرخان 1821-1847 «دراسة تاريخية سياسية»، مؤسسة موكرياني، أربيل، ط1، 2000، ما يفصح عن هذا التوجه، وهو (أطلق على الأمير بدرخان خلال حكمه العديد من الألقاب، منها: أمير، بك، خان، ميرميران، باشا، فلقب الأمير، ورثه من الأمراء الذين حكموا الإمارة بدأ من مؤسس الأمارة، أما لقب خان فقد حمله أمراء من قبله، ويعتقد أحد الباحثين أن هذا اللقب جاء

في السياق نفسه، يورد جبو قولاً لضياء كوكالب، وهو المتخصص في علم الاجتماع، وبالكرد وعشائريهم، والذي زعم فيما بعد أنه تركي، وهو كردي الأصل، في نهاية قوله ترد هذه العبارة (أما المنطقة التي يقطنها الهفيركيون فهي حجرية جداً وأكثر وعورة، وأليكسر Alekeser

أراضٍ لا تتوفر فيها المياه. ص38). فهل هذا العنصر الأخير «قسوة الأرض» تفسير آخر، يزيد في صلابة هفيركان، ومنحهم قوة تحد مضاعفة. رغم أن الهفيركيين ينتشرون في رقعة جغرافية واسعة، ويربون أغناماً، ولديهم أراض زراعية، سوى أن هذه الصفة، لا بد أنها تبحث عن ميزة لا تتوافر في أي تجمع بشري آخر.

وفي الحالات كافة، فإن الهفيركان، تظهر من الاتحادات القبائلية المقربة من البدرخانين، ولا بد أن حضورها العددي، إلى جانب تركيبها الديموغرافية، ومن ثم بسالة أفرادها في الحروب إلى جانب الإمارة، ومن ثم في الدفاع عنها، ضد خصومها، كان وراء هذا الانتشار المكثف لها، وبالمقابل، هذا الصيت في السمعة والمكانة⁽¹⁾⁽¹⁾.

من علاقة الإمارة بإيران سابقاً، أما لقب بك، فيدل على تبعيتهم للدولة العثمانية، ولقب الأمير بـ «ميرمران».. ص49). ذلك اللقب الأعلى الذي يمكن أن يمنح لأي تابع متنفذ للسلطان، ومغزى ذلك، أنه في الأصل صاحب إمارة، والأمير، يكون الرتبة الطبيعية الأولى، ومنها تأتي رتب أخرى، على قدر الخدمات التي تقدم للسلطان.

(1) أنوه هنا إلى مثالين:

ما ورد في كتاب جميل حاجو هفيركي: مذكرات جميل حاجو هفيركي، تقديم ومراجعة: أ. د. عبدالفتاح البوتاني- علي صالح الميراني- فرهاد جميل حاجو هفيركي، مركز الأبحاث العلمية والدراسات الكردية، دهوك، 2012، ص 68 (إن علاقة عائلتنا بالبدرخانين تعود إلى عهود قديمة حيث إن عشيرتنا تابعة لإمارة بوتان واشترك جدنا حسن في انتفاضة الأمير يزدين شير ضد الدولة العثمانية بعد إبعاد الأمير بدرخان إلى ستانبول - أعتقد أن يزدين شير ليس من أبناء بدرخان بل من أقربائه، وقد يكون ابن عمه أو ابن أخيه. كان جدنا حسن قائداً بارزاً في جيش الأمير).

والمثال الثاني، حول ذلك، يمكن قراءة التالي، في كتاب جبو (قدم حاجو الثاني دعماً كبيراً لعودة البدرخانين مجدداً إلى كردستان وإقامتهم حكومة كردية مستقلة. ومرة أخرى أصبح الهفيركانيون بمثابة القوة الضاربة لبوتان. وقد انسحبت القوات العثمانية الموجودة في المنطقة أمام هجمات الهفيركان، وأصبحت المنطقة كلها تابعة للأمير بوتان عثمان باشا. ولم يحقق العثمانيون أية نتيجة من إرسال العسكر ضد جزيرة مرات عديدة، وقد وسع الأمير عثمان حدوده وأدخل ضمنها جوليرك وزاخو وعمادية وماردين ومدياد ونصيبين». ص 65)، ولا بد أن هذا الرصيد الاعتباري: التاريخي والاجتماعي، كان له فعله في لفت

الأنظار، وفي تجذير علاقة تعدت مجرد المكان الأول، إلى ما هو أبعد منه في «بنختي» بلسان حسن حاجو «حفيد حاجو الثاني»:

تسلّم حاجو إدارة هفيركان التي أدارها ثلاثة وعشرون من آبائه. وقد اتجه نظره إلى سنجق آشيت، إلا أن آل يوسف حسن الذين يتولون الرئاسة هناك كانوا عقبة في طريق تحقيق ما يريد. وكان يوسف حسن ينزل في «أزنافور» أيضاً، وتتبعه عدة قرى في الأطراف. وكان سنجق آشيت الذي اشتهر باسم سنجق خلف آغا يتألف من بضع عشائر باقية بين آشيت ونصيبين وهي محلمي وكاسيك وشابزيني. وفي يوم من الأيام قام حاجو مع مجموعة كبيرة من رجاله بمحاصرة أطراف تلمنار. وبالرغم من أن آل يوسف قاوموا بثبات إلا أنهم لم يتمكنوا من صد الهجوم بسبب التفوق العددي لدى الطرف المقابل. وقد تكبد الطرفان خسائر غير قليلة، وقام عسكر حاجو بنهب تلمنار، كما أصابوا يوسف بعدة جروح. ص 64. في هذه الأثناء نشبت الحرب العثمانية- الروسية 1877-1878م، وتعرض العثمانيون لخسائر كبيرة، وقد أطيقت الجيوش الروسية على أدرنه في الغرب وأرضروم في الشرق. ص 64.

في غضون ذلك أراد منفيان من أبناء بدرخان بك في ستانبول، وهما عثمان باشا وحسين كنعان باستغلال هذه الفرصة والذهاب إلى جزيرة «بوتان» مع القوات التي تحت إشرافهما وتحقيق الهدف الذي سعى إليه والدهمل. وبعد أن أجريا لقاءات سرية مع الضباط الكرد المعنيين بهذا الموضوع، اتجهوا في أول فرصة أتحت لهم إلى جزيرة في عام 1879، ومن هناك أعلنوا استقلالهم، وتم تنصيب عثمان باشا أميراً في احتفالات كبيرة جرت.

قدّم حاجو الثاني دعماً كبيراً لعودة البدرخانيين مجدداً إلى كردستان وإقامتهم حكومة كردية مستقلة. ومرة أخرى أصبح الهفيركانيون بمثابة القوة الضاربة لبوتان. وقد انسحبت القوات العثمانية الموجودة في المنطقة أمام هجمات الهفيركان. وأصبحت المنطقة كلها تابعة لأمير بوتان عثمان باشا. ولم «يحقق العثمانيون أية نتيجة من إرسال العسكر ضد جزيرة مرات عديدة. وقد وسع الأمير عثمان حدوده وأدخل ضمنها جوليرك وزاخو وعمادية وماردين ومدياد ونصيبين. ص 65.

يظهر من وجهة نظري، في ضوء ما تقدّم أن الهفيركانيين كانوا الداء التاريخي للدولة العثمانية وخليفتها التاريخية، فحاولت باستمرار بث التفرقة بين الأطراف الكردية، كما لجأت إلى الحيلة والمناورة، كما تصرفت مع الأمير عثمان باستدراجه إليها من جهة السلطان عبدالحميد، وسجنه في ستانبول، المصدر نفسه... ص 65.

وهكذا تصرف السلطان عبدالحميد مع عشائر المنطقة، إذ (كانت الأيام الصعبة ستبدأ لحاجو الثاني الذي ربط قدره بقدر حكومة بوتان. وكانت قوات الهفيركان ماتزال في حالة استعداد وتسيطر على كل منطقة هفيركان ودكشوري. وقد مارس السلطان عبدالحميد، المشهور بدعائه وشبكة استخباراته القوية، ضغوطاً عديدة على كردستان. ففي حين كان وكلاؤه يعملون بجد ونشاط في كردستان كانت قواته تقوم بالتحشد في المنطقة. ص 66).

وينظر أيضاً، ما يقوله بهذا الصدد، وقبل الآخر، سافراستيان، في كتابه: الكرد وكردستان، المصدر المذكور، وهو يذكرنا بمكانة ديار بكر للكرد، ومدى إصرار العثمانيين، ومن ثم الترك

على تجريدتها من خاصيتها الكردية هنا، وهي في موقعها الرمزي بدرخانياً، وبالنسبة لهفيران بالذات، وإلى يومنا هذا، العاصمة الحلم، والعاصمة الذاكرة المشبعة بالمكان الحي: تاريخياً كانت ديار بكر مركزاً لقيادة كردستان، وهو ما سعى إليه محمد رشيد باشا، الحاكم العثماني لديار بكر، بحشود عسكرية كاملة للسيطرة على التمردات الكردية... وقد أجبرت السلطات العثمانية الكرد والتركمان على دفع ضرائب سنوية وإمداد الجيش بالجنود، وفي سنة «1836 م» تحول محمد رشيد باشا إلى الشرق ليهاجم القبائل الكردية المقيمة على ضفاف دجلة، وطوال شهور عديدة حاول اقتحام جزيرة ابن عمر، حيث المركز الرئيس لعائلة بدرخان بك العظيمة، وقد كبد بدرخان بك الجيش التركي خسائر فادحة، وانسحب بعدئذ إلى جبل جودي.

وفي هذه الأثناء تعزز الجيش التركي بانضمام زعماء كرد آخرين إليها، وكانوا قد مُنحوا لقب «باشا»، فساعدوا الجيش كمرشدين وكحرس أمامي، ليحاربوا عشائريهم وأقاربهم، وذكر شاهد عيان أن بدرخان بك ما كان ليضطر للانسحاب إلى الجبال لو أن حليفه محمود خان بك، الذي كان يزحف من الشمال مع حوالي عشرين ألفاً من الكرد والآشوريين، أسرع بما فيه الكفاية في عبور نهر بوتان صو، بواسطة الجسر في خاشغار، قبل أن يتمكن جيش تركي آخر بقيادة حافظ باشا من نسف الجسر بنيران المدفعية...ص105.

إن عشائر جبل طوروس وعشائر الجنوب التي كان من المفترض أن تكون قد خضعت للترك خلال سنوات «1834-1839م» رفضت أن تزود الجيش العثماني بالجنود، وأن تدفع الضرائب. ص116.

تحدث بدرخان بك عثمان باشا ولي ديار بكر سنة 1844م ص117. عن طريق الحيلة استدراج العثمانيون محمود خان، وأهانوه حتى موته. ص120. وما كان للعثمانيين أن يتغلبوا على بدرخان بك، لولا انقلاب ابن أخيه عليه يزدان شير. ص121. ويصح هنا أكثر ما قاله أريك دافيس، في كتابه: مذكرات دولة «السياسة والتاريخ والهوية الجماعية في العراق الحديث»، ترجمة: حاتم عبدالهادي، المؤسسة العربية، ط1، 2008 (إن الذاكرة التاريخية مكون أساسي في إنشاء أساطير الأصل. ص55). لكنها الأساطير التي تبقى ذاكرة المكان وأهل المكان، كما لو أنهم لم يموتوا أبداً.

(1) طبعاً هناك عائلات أخرى متميزة، وكانت تابعة لإمارة بوتان، ولكنها في تغيير مواطنها، أصبحت في وضع آخر، كما في حال جميل باشا، إذ بحسب ما يقوله مالميسانج عائلة جميل باشا الدياربكري والنضال القومي الكردي، المصدر، وبلسان أحد متقدميها في المكانة محمد فريد جميل اوغلو، جهة المعلومات التي تناقلتها الأجيال المتلاحقة بحق العائلة منذ قدوم أجدادهم إلى ديار بكر، كالاتي: «يعود أصلنا إلى منطقة سلوبي، بمعنى آخر أننا بوتانيون. تقاثل أبناء العمومة في ما بينهم في صراع عائلي وقتلوا بعضهم بعضاً، قدموا إلى ديار بكر برجالهم واستقروا في 20-30 منزلاً في منطقة باشا، محلة خوجة أحمد. حينها كانت توجد نزاعات عشائرية في ديار بكر. قسم منهم كانوا يسيطرون على مناطق «داخل القلعة». كانت تقابلهم عشيرة كوراني برئاسة حسن باشا. وكانت سيطرتهم تمتد من حدود ديار بكر

ولعل النظر في التالي، ربما ينير ما كان سالفاً، كيف أن خيال كاتب ما، وهو ينكبّ على دراسة شخصية متنفذة، أو لها طابع كاريزمي، من خلال التأثير بها، أو التفاعل معها، سلباً أو إيجاباً، يمضي بهذه الحمولة النفسية والثقافية إلى أزمنة سالفة، سعيّاً إلى بلورة فكرة أكثر وضوحاً، والأكثر من ذلك ملء الفراغات القائمة خلال عملية البحث، بما توصل إليه من «حقائق» وما يعتبرها دامغة، أو فعلية، متجاوباً في بعض مما يفكر فيه بموقفه من الشخصية هذه، وأشدّد هنا، كما شددت، في عموم صفحات كتاب «دولة حاجو آغا الكردية» على أن الموقف من حاجو ومسلكه أو علاقته

إلى بالو، مادن وجرمك. في ذلك الوقت كان فقط للمشير المبعوث من قبل الحكومة حق دخول المدينة. أما الأمور المتبقية فكانت تدار بإدارة ذاتية. ص 15.

أي أصبحت عائلة مدنية، سوى أن عائلة أوصمان، في الأصل، حيث ينتمي إليها حاجو الأول، تنتمي إلى اتحاد قبائلي، وربما يكون لهذا الاختلاف في المواقع حساسيات جانبية، لا تغفل لحظة تحرّي مغذياتها، ومرجعياتها الاجتماعية، كما رأينا في كتاب «دولة حاجو آغا الكردية»، وكيف أن كلاً من حاجو جلادت بدرخان بالذات شكلاً «حلفاً» واحداً، على أكثر من صعيد، وترافق اسم حاجو كثيراً مع اسم جلادت حتى رحيله النهائي «بالنسبة إلى حاجو الثالث/ حاجو آغا» تعبيراً عن ماضٍ مشترك بين الطرفين: أمراء بدرخان وهفيركان، وضمناً آل أوصمان/ عثمان...

وهذا الحلف الآخر، يعزّز موقف الباحث في قضية أشمل وهي حضور هفيركان في المنطقة التي عرفت فيها، ولا بد أنه حضور ديموغرافي لافت، كما رأينا، وحضور جغرافي، ومن ثم ما يترتب عليه من حضور ثقافي وحكائي بالمقابل.

لا بد أن هذا الانتشار يشكّل تحدياً للاتحاد ذاته «اتحاد هفيركان» ويسمح أولاً، بالنسبة للذين كانوا يكتّون له العداء، أو الخصومة، من منطلق الغيرة أو الحسد، أو حساسيات جانبية، وخاصة السمعة التي تؤثر في رسم خطوط من هذا النوع، وما يدفع بقوى نفسية مختلفة لمن يسندها، ويجعلها أفعالاً على الأرض، وثانياً، بالنسبة للذين يقيمون خارج حدود هفيركان، وفي السلطة العليا: الدولة العثمانية بداية، حيث يتم النظر باستمرار في مثل هذه الحالات، لا بل والسعي إلى خرق الحدود التي تحيط بأي عشيرة، لإبقائها ضعيفة، وتابعة باستمرار للقوة الرسمية الوحيدة، فكيف الحال مع قوة هفيركان على الأرض، كيف الحال، إذا كان هناك من يتهيأ لفتح ثغرة أو ثغور كهذه للتسلل إلى الداخل؟

ربما من هذا المنطلق كان قول جبو في كتابه (يُعدّ اتحاد عشائر هفيركان أحد أكبر الاتحادات العشائرية في كردستان الشمالية أيضاً. ونعتقد أن اتحاد عشائر هفيركان هذا مثير للاهتمام إلى حد كبير، ويستحق الدراسة لأنه يعرض لنا بنية محلية ذات جوانب عديدة غير معروفة. إن الموضوع الأساسي الذي سنتناوله هذه الدراسة هو البنية الاجتماعية للاتحاد وإحدى الأسر التي تولّت القيادة فيه وهي أسرة آل عثمان المعروفة في المنطقة باسم «سلاطين هفيركان. ص 33).

بمن حوله، من مختلف المكونات الاجتماعية، وفرنسا في الصميم، وأبعد من حدود «سوريا» السياسية، حينذاك، وانعكاس هذه العلاقة على الجوار، وتحديدًا بالنسبة لعشائر المنطقة، على عموم الموقف منه، حتى وهو في دائرة تحركاته الأولى في «تركيا».

أذكر هنا ما قاله علي الوردي قبل عقود من الزمن، وهو أن (الإنسان ليس اجتماعياً بالطبع كما قال أرسطو، إنما هو في الواقع اجتماعي وغير اجتماعي في آن واحد. إنه يملك في شخصيته عنصر الحضور وعنصر الثورة معاً)⁽¹⁾.

وحكمة الاقتباس هنا، تتمثل في مدى الترابط بين كل من الاجتماعي ونقيضه، حيث إن الأول بمقدار ما يزداد عمقاً، بمقدار ما يبتعد الآخر، وينفصل عنه، وخلاف ذلك، في مجتمع مهياً لضروب من العنف، ومن ثم التفكك، لا يعود لهذا الاجتماعي من أصل يستحق الذكر، بالعكس، ينسحب الاجتماعي من الساحة، ويكون اللااجتماعي هو المسيطر.

وهذا ما تنبّهت إليه الأنظمة التي تستبد بالكرد، ولتركيا رصيد كبير، ولا زال، من هذا العنف الدموي، وبالمقابل، فإن الناظر في تاريخ الكرد، يتلمس تفاوتات في العلاقة مع هذا النظام أوداك، وتركيا، كما قلت، في الواجهة، جهة ضبط النفس، أو كيفية مجابهة أي عمل عدواني ضدهم، وتبقى الخريطة السياسية للعشائر والقبائل الكردية ماثلة للعيان، وهي في توزيعها الجغرافي، وهي في تعاطيها السياسي مع بعضها بعضاً ومن خلال دوام التفكير في ردود أفعال العدو القومي لهم، ومن ثم، نجد اختلافاً بنيوياً، ومفصلياً أحياناً، بين هذه العشيرة أو تلك، بين هذا الاتحاد القبائلي أوداك، حيث لكل منهما ذاكرة تاريخية وسياسية خاصة به، والعدو كثيراً ما يكون على دراية بمحتوى هذه السياسة أو تلك: في القول والفعل، ويمتلك الحنكة السياسية في كيفية الإيقاع بأي طرف، لاستمالته إليه، ولكي يؤلّبه على مقابله الكردي، ليس هذا فحسب، وإنما كيفية الكتابة للمستقبل البعيد، وليس القريب، كي تُعطى فكرة موجّهة، للأجيال القادمة عما كان عليه الكرد، فيتخذون تدابير، كذلك التي اتخذت سابقاً ضدهم، وبالمقابل، نجد في الكرد، من يتحركون، أو يتششطون هنا وهناك، لئلا يكونوا لقمة سائغة لعدوهم هذا أو ذاك، وما في المواجهة العملية من مواجهة نظرية، ولو على

(1) الوردي، د. علي: شخصية الفرد العراقي، بحث في نفسية الشعب العراقي على ضوء علم الاجتماع الحديث، منشورات دار ليلي، لندن، ط2، 2001، ط1، بغداد، 1951، ص44.

صعيد الأرضفة في الذاكرة الشفاهية بالذات، كما الحال هنا، وفي نماذج مختلفة، يعلم بها المهتمون بالشأن الكردي، بمقدار ما يحيطون علماً بتلك السبل التي أعتمدت ضدهم، للحيلولة دون تناول الوقائع إلا من خلال ما أثير من زاوية العدو.

الفعل ورد الفعل، جبهتان متحركتان، وساختان، تشهدان تراكمات من الجهات كافة، بمفاعيلها السياسية، الاجتماعية، التربوية، النفسية والثقافية، في مواجهة مصيرية، حيث يُستدعى التاريخ، ومن مواقع متغايرة، إزاء حرب ضروس من هذا النوع، في الإعلام، والرواق الأكاديمي، وحتى في أذهان متخصصين في التاريخ، إنما يكونون متخندقين، وما يجعل الكرد في حلهم وترحالهم القسريين كثيراً، جرّاء هذه الضغوط حاملين خنادقهم وبنادقهم معهم.

ولا شك أن توضيحاً كهذا، يفيد في لفت الأنظار إلى ما يدور ليس إلى ما وراء الكواليس، وإنما ما في الأذهان، أي حيث نكون في عهدة لعبة الأذهان ومعادلاتها، وقواها المتخيلة، تحت تأثير ما هو جار على الأرض، بمؤثرات متنوعة.

وهفيكان، في السياق الذي حاولت توسيع نطاقه، قائمة في هذا المضمار الواسع والمتشعب، والمتقلّ بداعيات ما كان.

أبصرُ معرفياً، فيما قالته حنه أرندت بتجلياتها السياسية، ما يخدم السياسة بباعها الفكري الطويل هنا، وكيف أنها تمتزج بكل ما لدينا من تطلعات، إرهابات، نوايا، هواجس، أفكار، حتى أحلام، وآمال وآلام، ومعايشات وجود (السياسة، كما ندركها، هي ضرورة قهرية للحياة الإنسانية، سواء تعلّق الأمر بالوجود الفردي أو الاجتماعي. فالإنسان لا يعيش مكتفياً بذاته، لكن معتمداً على الآخرين، بالنسبة لوجوده ذاته، يجب أن يكون ثمة قلق بشأن وجود الجميع، بدونه لا يمكن للحياة المشتركة أن تكون ممكنة. فمهمة السياسة وغايتها تتمثل في ضمان الحياة بالمعنى الواسع للكلمة..⁽¹⁾.

قد لا نجد إيضاحات لدى الذين خبروا الحياة على الطبيعة، وفيما بينهم، من خلال حسم السليم، في كيفية التمييز بين يسعى إلى النيل منهم، بوصف أي منهم ممثّل مجتمع، أو جماعة، ومن يحاول «اغتيال/ قتل» جماعة في شخص محدد، ولا بد أن الإطار العام لما هو عشائري في زمانه، أو الاتحاد القبائلي بصيغة أكثر تطوراً، كان

(1) أرندت، حنه: ما السياسة؟ ترجمة وتحقيق: د. زهير الخويلدي- أ. سلمى بالحاج مبروك، منشورات ضفاف- الاختلاف، الرباط، الدار البيضاء، ط1، 2014، ص 34.

من هذا النوع: تفخيخ القبيلة، أو إزاحة الشخص: الزعيم، القائل، طليعيّ جماعته، ترجمة طليعية لتاريخ قائم، والسياسة لا تتفصل عما كان يُتَّبَع، وما هو مُتَّبَع إلى الآن، إنما بمعايير مختلفة، حيث المعنيون بحياة تسمّى باسمائهم، وهم في الواجهة، وهي تتجاوزهم كثيراً.

ذلك يعني عدم الانصياع وراء تفكير أو تصور نمطي لفكرة البناء الاجتماعي- السياسي للقبيلة الواحدة، وأخص من ذلك: الاتحاد القبائلي، وما يذهب إليه بروينسن يدعم هذا الطرح بصدد الكرد وعالمهم العشائري، أو الكرد بتعبيره (فالكرد لا يتذكرون سلاسل أنسابهم بالدقة التي يتذكرها بها العديد من الشعوب القبلية وغيرهم، وهكذا، بالنسبة لأقارب أبعد من أبناء العمومة/ الخؤولة من الدرجة الثانية، على سبيل المثال، لا يشغل المرء نفسه بمشقة تقصّي علاقته الدقيقة بهم. ويغدو الولاء السياسي الفعلي للحمولة أهم من صلة القرابة الفعلية... ولاحقاً: يلحق بعض الناس أنفسهم بحمولة، ويعرّفون أنفسهم بصفاتهم أفراداً منها، من خلال السلوك المتناغم معها حينما تنشأ المناسبة، وبعد جيل أو جيلين تُقبل سلالتهم بصفاتهم أفراداً كاملين في الحمولة، وأنداك لا يكاد أحد يتذكر أصولهم الأجنبية..)⁽¹⁾.

(1) بروينسن، مارتن فان: المصدر المذكور، ج1، ص 119.

وربما أمكن القول هنا، كما لو أن هناك تناظراً انسجامياً، أو توافقاً في الرؤية الاجتماعية، ما بين بروينسن وإيغلتنون هذا الذي يعطي إشارة مهمة في هذا المنحى، حين يقول (وليس لكل القبائل نظام متماثل، إن البنية الكلاسيكية «التقليدية» تبدأ بالظهور مع الأسر الممتدة التي يكثر أفرادها، أو الوحدات الصغيرة، أو الفروع التي يرتبط أفرادها فيما بينهم بالقرابة السلالية أو التزاوج... ومن ثم لاحقاً: وفي القبائل الأضخم عدداً تصبح العلاقات أكثر تعقيداً، وحينما تتنافس فروع القبيلة على السيادة فقد تبقى النتيجة غير محسومة، وفي حالات كثيرة تتركز المنافسة بين فرعين متضادين، وإذا تطلع أحدهما إلى الزعامة بالتعاون مع الحكومة المركزية، فإن الفرع الآخر يستفيد من الكرد المعارضين للحكومة، وقد تنتزع الزعامة من الفرع الآخر في فرصة مناسبة).

حول ذلك، ينظر في كتاب ويليام إيغلتنون: القبائل الكردية، ترجمة: د. أحمد محمود خليل، كردستان، مؤسسة موكرياني، أربيل، 2006، ص 21.

وللتوسع، ينظر في كتاب بليو: آر. هـي «حاكم أربيل السياسي أيام الاحتلال الدابر»: سنتان في كردستان 1918-1920، نقله إلى العربية، حققه، وعلق عليه: فؤاد جميل، ج1 من الفصل الأول إلى الفصل الثاني عشر، بغداد، 1973. كما في قوله (وعلى الرغم من أن الكرد شعب من أشد الشعوب رجولة وفحولة، وأنهم يقطنون قسماً كبيراً من «الشرق الأوسط»، وأنهم

طبعاً، كان في مقدور رجل بحث مثل بروينسن، أن يضيف توضيحاً، أن عدم تذكر الكرد لسلاسل أنسابهم، كغيرهم، له تفسير تاريخي، وهو تعرضهم في أكثر من سياق، لوطأة الظروف التي يعيشونها سياسياً، إذ حتى الذاكرة لا تخلو من «قصص» مستمر للأعداء، ومحاولتهم إضعافها.

في تفكيك العلاقة بين الكلّي والجزئي، بالمفهوم الحسابي، حيث تظهر المجردات، كما تظهر الوقائع مجوّفة، ويحبّط الواقع نفسه، لأنه في مبتداه ومنتهاه، هو الذي يكون محل المكاشفة أو المتابعة أو التنقيب في حراكه، وهو متنوع إلى أبعد الحدود، بمقدار ما يكون فيه من بشر، وحتى من كائنات حيّة أخرى، ومن اختلاف تضاريس لا يخفى أثرها في الواقع، تتقلب العلاقة هذه إلى ما هو مؤثر، ومحمّل بشيفرة بلاغية عما يستفز أو يستقطب أو يستثير أو يستدعي المهم النافذ الأثر، والذي ينسكن بلغة الواقع بلاتناهي حروفه «رأسمال ألفبائه» يعلم بحقيقة هذا الواقع، فينفتح، مثابراً، مغامراً.

بين الحسابي والهندسي

في الكلّي والجزئي، لا يكون الفعل الحسابي قائماً، إنما هو الهندسي، حيث لا استثناء من شيء لأي شيء، حتى الفراغ، الذي كثيراً ما يوضّع جانباً يُعطى علامة، كما يُركّز عليها، تبعاً للموقف ودقّته، وهذا عين المطلوب، عند استشراف الحراك القبائلي الذي شغل أذهان عتاة المعنيين به، في بطانة السلطة العثمانية، وتلبية لتطلعاتها أو أيديولوجيتها القاهرة.

وإذا كنا قد توقفنا عند هذه النقطة، فإن الذي يدفع بنا إلى إثارة نقطة أخرى، ولعلها الأكثر أهمية، في ضوء ما ضمّنا السالف ذكره من معلومات، وبيان علاقات اجتماعية، سياسية وثقافية في الجسد القبائلي، هو في وجوب النظر في حيوات هذا الجسد، كتنظيم مجتمعي، وكيف تمارس العناصر المؤثرة داخله أدوارها، كالقوة

من الجنس الآري، من جنسنا سواء بسواء، فإن الناس في بلادنا لا يعرفون عنهم شيئاً تقريباً، ولا معدى عن أن يكون الكثيرون لم يسمّعوا باسمهم، قبل الحرب، أبداً. ص 51.)
إنما في الطرف الآخر حين يقول (في صلة الكردي بالقبيلة: إن كل كردي تقريباً، سكن المدينة أم حل في قرية، ليشير إلى نفسه باعتداده قبلياً، وإن لم يكن له قبيلة معترف بها. إن مراده من تلکم النسبة هو: إنه يقر العرف العشائري، وعادات القبيلة، ويأمل من الآخرين أن يعاملوه باعتداده مالکاً للحقوق العشائرية. ص 87).

ومحتواها الاجتماعي، السياسي، الرمزي والعائلي، وامتداداته «العائلة الأكثر نفوذاً تكون مسيطرة» وما يخص داخل العائلة، أو الأسرة بالذات، لحظة تناميها من الداخل، حيث الصغار يصبحون كباراً، وكيف يتقاسمون أدوار القوة أو يجسّدونها في أنفسهم مراتبياً، وعلى مستوى الأفراد ومقامهم الاجتماعي، وتلك العلاقات التي لا يشار إليها، وكما سنرى، وبشكل لافت، بين الرجال والنساء طبعاً، وهي النقطة التي تعتبر العمود الفقري للهيكليّة الأسرية وتحوّلها إلى مجتمع يتكاثر، أي بالنسبة لمجتمع اتحاد قبائلي هو هفيركان، في ضوء ما تعرّفنا إليه هنا وفي الكتاب الأول «هكذا أسمى»، أي «دولة حاجو آغا الكردية» أي عدم وجود أي أثر يُذكر للمرأة، أو النساء في هفيركان، رغم أن التنظيم المجتمعي له، بمكوناته الاثنية والمذهبية، يشير إلى وجود ظاهر، وانفتاح كذلك بين أفرادها، كما يُفترض، وإلا لما هناك شيء اسمه «كونفدرالية متّفق عليها» ومن نوع خاص في رقعة جغرافية معلومة بحدودها إلى حد ما. وبغية استشراف هفيركان من الداخل، والحراك الدال على القوة وما تفعّله في تغيير مواقع الأفراد ومن يمكن أن يكونوا، لا بد من مكاشفة ذات طابع سوسيولوجي، تزيد في رصيدنا المعرفي بهذا «الاتحاد القبائلي «الموسّع، أو الحمولة» أذكر بهذا الصدد، أن أقرب تشبيه لفكرة الحمولة، هو في انتقال شخص ما، من دولة إلى أخرى، والإقامة فيها، ومن ثم الحصول على جنسية تلك الدولة، فيصبح من رعاياها، هكذا تكون الحمولة، حيث ينتسب طرف، أو جماعة معينة إلى جماعة أكبر، لمصالح قد تكون مشتركة، أو شعوراً بالأمان والسلامة وطنينية الروح.

ولغرض إنارة هذا الجسد الكبير والضخم كيانياً وحضورَ ظل، أجدني محيلاً إلى بحث مفيد جداً، يعيننا على معرفة «الأضلاع الأكثر متانة، والأكثر تحملاً لمسئولية الحفاظ على الجسد»، وهذا البحث، يخص مجتمعاً سياسياً متقدماً «غريباً» فرنسياً، سوى أن التاريخ الذي «يفترشه» وأفق الكلام الذي يمتد في أكثر من جهة تاريخية، كما لو أنه يلقّم تاريخ كل جهة تقع في بقاع جغرافية نائية جداً، وتطبق عليها، ولو مع بعض التعديلات الطفيفة، وإيرادها هنا يري ذلك.

البحث طبعاً، لفرنسيس جودار، وهو «تعريف أعمار الحياة: مسألة علاقات بين الأجيال»، أي ما يضيء العلاقة بين الأجيال، لا بل وداخل الجيل الواحد نفسه، حيث السلطة ذات ماثرة، وفعل مؤثر في تلوين العلاقات الجيلية الواحدة «سنرى لاحقاً ذلك، بين كل من عليكي بطي وسرحان»، ومن ثم صعود نجم عليكي بطي، ليصبح هو الزعيم لهفيركان، أو خاطفاً للأضواء:

يكون السؤال الأول هنا مركزاً على مفهوم الحياة، بمردودها الاجتماعي الفعلي، وكيف يجري تحويل العمر من خاصيته البيولوجية «العضوية» إلى قيمة رمزية، اعتبارية غير مستقرة، تبعاً للمهام المنفذة من جهة الفرد القبلي هنا، وانتسابه إلى عائلة معينة لها حضورها الاجتماعي المعتبر: كيف يُسمّى العمر أهميته في مجتمع قبائلي «هفيريكاني» هنا ؟

ربما كان الذي أفضى به الباحث فرانسيس جودار، وهو من مواليد «1948» أكاديمي، وله دراسات معمقة في العلاقات بين الأجيال، ومجتمع الأسرة، والتفاعلات السكانية. الخ، معيناً لإنارة هذه الفكرة النابضة في أصل السؤال:

(نحن نطور هنا فكرة أنه لا يكفي النظر في التسلسل الزمني لقصص الحياة من وجهة نظر داخلية بحتة. وبعبارة أخرى، لا يمكن للمرء أن يلتزم بوجهة النظر الوحيدة للاقتصاد الداخلي أو التوليد الذاتي للممارسات الفردية (للقول أن المرء لا يستطيع التوقف عند هذا لا يعني أكثر من ذلك بأي حال من الأحوال أنه ليس من الضروري القيام بذلك أيضاً). سنقوم بتطوير ثلاث أفكار:

أ-تنظيم الحياة الفردية منتظم من خلال الأشكال الاجتماعية لتنظيم الوجود. فتظهر مفاهيم دورة الحياة وعمر الحياة.

ب-تعتمد أنماط الكشف عن الوجود على الفترات التاريخية التي يعرف خلالها الأفراد اللحظات المختلفة لدورة حياتهم ويظهر مفهوم الجيل هنا .

ج- وأخيراً، يتأثر تطور دورة الحياة بشدة العلاقات التي تتشكل بين الأجيال التي هي من أجل النضال من أجل احتلال الأماكن الاجتماعية، والانتقال، والتنشئة الاجتماعية).

في مجتمع هفيريكان، وكما رأينا في الكتاب الأول، وكما رأينا نجومية حاجو، بخاصيتها السياسية، وسنرى هنا بشكل أوضح جرّاء هذه المتابعة، يكون الفرد مجهول الاسم ومعلومه في آن. ذلك يتوقف على عطائه، جهة التحديات، والتي تضمن ارتقاءه إلى موقع متقدم في مجتمعه، حيث إن التراتبية القائمة مرنة، تسمح بهذا الانتقال، مثلما تهتئ لعملية حمول اسم ونسيانه عندما ينتهي رصيد قوته، لأسباب تخصه، وليس لأن كبر، أو مرض. إن المنجز الذي يغيّر في مقامه هو ما يفيد عموم القبيلة ويذيع صيتها قوة خارجاً، كما هو المثار أبستيمياً «كسمة علمية قائمة»، أي ما يربط العشيرة/القبيلة بشخص يكون علامة قوتها أو ضعفها .

وهناك سؤال العمر المقدّر، أو ما يفترض أنه كذلك، ومدى دقّته في التعريف
بمراتبية الشخص ونوعية الاعتراف به في المكانة:

(أصبح العمر أحد المكونات الأساسية للهوية، إلى جانب الجنس والخلفية
الاجتماعية والموقع، يعد هذا هو المعيار الفردي الأقوى).

وتالياً: يعتمد مفهوم دورة الحياة على صورة سلسلة من المراحل التي يمر بها
الأفراد تلقائياً وفقاً لمراحل التنشئة الاجتماعية التي تؤدي إلى النضج، ثم الشيخوخة
التي تؤدي إلى الموت. والمسار الفردي للوجود، في الواقع، تتخلله هذه العمليات، من
خلال المقاطع والتمزقات. لكن الخطر هو أننا لم نعد نفكر في الكشف عن الوجود إلا
وفقاً لمبادئ علم الاجتماع الوراثي التي تركز على مغامرات التنشئة الاجتماعية
الفردية.)

نعم، هنا يوجد تأريخ شفاهي للعمر، وما في المتن من إفصاح عن الهوية
وخاصيتها المكانية والزمانية، لكنه تأريخ عملي يلوّن في مفهومه، كما رأينا مع سلسلة
الذين برزوا في هفيران: أوصمان/ أوصمين «بالتهجئة الكردية الدارجة هنا»، حاجو
الأول، حسن، حاجو الثاني، عليكي بطي، علي بطي الثاني، حاجو الثالث، سرحان
الثاني... إذ لا توافق بين أعمارهم، وما له صلة بالعمر الذي يقدر كعنصر موجّه
لاستراتيجية القبيلة ونوعية علاقاتها بالخارج، فيكون العمر له كلمته هنا، ولدى
هفيران، للقوة النوعية شيفرتها الاجتماعية، وما يوازيها من اكتساب هيبية، وانتشار
أثرها تموجياً داخلاً وخارجاً بالمقابل.

أعني بذلك، أن مجتمع هفيران الذي يشهد له بالضخامة، يتميز بتعريف خاص
جهة نوعية القوة، ومن هو الأحق في أن يعرف بها، لا بل وأن تكون مسماة من خلاله،
طالما أن يستحقها، وثمة قبيلة كاملة تكتسب هذا الحضور النوعي سواء على صعيد
التلاحم الاجتماعي، والتضامن ومن ثم الارتباط بالزعيم وبجدارة، أو في النظر إلى
الخارج، وبنوع من التباهي كما هو العرف السائد، هذا الذي يشكل ذاكرة جامعة بين
عشائر وقبائل مختلفة كردياً.

وهذا يمضي بنا إلى السؤال الآخر، والذي يمنح العمر عمقاً وحراكاً داخلياً، أي
الطابع الصراعى المحرّض على التغيير، وهو الذي يعطي ميزة نوعية لهذه القبيلة أو
تلك، جهة التافس الجيلي، وما يحرّر الجيل، كمفهوم، من خانته العمرية، ليكون هو
نفسه تنوعاً، طالما أن القوة حين تجد مهبطاً لها، يكون لها صداها، وجمهورها إن جاز

التعبير، فنشهد اختلافات بين فرد وآخر، ربما يصعب الربط بينهما، جرّاء حمولة القوة المتحصّلة لدى كل منهما، كحال من ذكرتُ:

(تتخلل مراحل الوجود إيقاعات تاريخية خارجية عن تلك الخاصة بتطور الأفراد مثل، على سبيل المثال، التعريف الاجتماعي لعتبات العمر. لا تنشأ هذه التعريفات من مجرد فرض نظام ثقافي، وتخضع للأماكن والوظائف المخصصة لمختلف الأعمار.

لذلك يجب علينا أن نبحث عن القضايا الجديدة بين الأجيال التي يتم وضعها دون الاستسلام للتبسيط والطبيعة المثيرة للشفقة لأطروحة الحرب الإيديولوجية بين الأجيال التي تكرر مواضيع جديدة للتاريخ، أو العكس بالعكس، إلى أطروحة أن المصالحة بين ستمر الأجيال بتربية جيدة وحافز قوي لإشراك علاقة الاستماع بين الشباب والبالغين.)

والسؤال التالي هو الذي يربط العمر كقيمة زمنية، بالعمر كقيمة اجتماعية، وطابع الدينامية الفاعلة في الإغناء والإفقار:

(لا يفترض تعريف العلاقات بين الأجيال تقسيماً مسبقاً لأعمار الحياة. لا يمكن بأي حال من الأحوال اختزاله إلى معناه الديمغرافي الذي ينطوي على تعريف فجوة ثابتة مدتها خمس وعشرون سنة لتحديد جيلين بالنسبة لبعضهما بعضاً. باختصار، في هذا المنظور، لا نبدأ من تعريف مسبق لأعمار الحياة ثم تحديد العلاقات بين هذه الفئات العمرية، ولكننا نبدأ من تعريف العلاقات الاجتماعية التي تجمع بين مجموعات من الناس لحظات منفصلة في دورة حياتهم لفهم ديناميات البنية العمرية.)

والسؤال الذي يلي المقدم ذكره، هو عنصر الإضافة، عنصر التغيير والتغير من الجهتين، تبعاً لمأثورات الحدث، وتبعاً لأصداء الحدث، ومن هو الذي قام به، فله زمانه ومكانه: جنسه، أونوعه، وعمره، ونوعية مبادراته، كطفرة معتبرة:

(وجهة نظر أخرى هي أن كل جيل هو بدوره مدين ودائن تجاه الآخرين، وتنظيم هذه التدفقات من الدخل الاجتماعي هو في نهاية المطاف تنظيم العلاقات الاقتصادية بين الفئات العمرية. أخيراً، يمكن تناول العلاقات بين الأجيال من وجهة نظر التفاعلات العملية بين العوامل الاجتماعية.)

وإذا كان للمحركات فعلها في التغيير، في الإسراع بأمر معين، أو الإبطاء، فإن ذلك يستدعي عامل الصراع، وما يكسبه لوناً وحجماً وشكلاً، وحتى رائحة، ما يجعل المكان نفسه عتبه رؤية لها أفق وعمق مأخوذان بعين الاعتبار:

(فيما يتعلق بالصراعات حول احتلال الأماكن، نأخذ في الاعتبار التطورات النظرية لبيار بورديو. ستواجه التناقضات بين الأجيال في مجال اجتماعي معين أصحاب السلع أو المركز الاجتماعي (الثروة الاقتصادية، السلطة، رأس المال الرمزي) مع المتنافسين على هذه السلع أو الأماكن نفسها. وبحسب الحقول، فإن الصراعات بين الأجيال ستكون أكبر حيث ستتدخل تغييرات مهمة في تعريف المواقف وطرق الوصول إليها.)

وما يضيف إلى خاصية الصراع، صراعاً من نوع آخر، والذي يتراءى من جهتين: سلباً وإيجاباً، وحيث إن الصراع من طبعه، ومن نتائجه أنه دال على حراك حياتي، إنما يتوقف قيمةً على ما إذا كان نحو الأفضل أم لا:

(يمكن أن يكون تحديد اللحظات وطرائق الممرات بين لحظات الوجود المختلفة موضوعاً للصراعات بين أصحابها والمتنافسين. وهذا، حتى في المجتمعات حيث الطقوس القوية للغاية للمقاطع يمكن أن تقود المرء إلى الاعتقاد بأن اختيار لحظته لا يتغير من جيل إلى آخر وأن محتواه الرمزي العالي يحل الصراعات السياسية المناسبة المتعلقة باحتلال الأماكن.)

وهذا ما يفيدنا في الجانب المواجهة، ودور العمر، وكيفية تصريف القيمة الرمزية للعمر، ونوعيته كذلك:

(تختلف أهمية العمر في تحديد الوضع الاجتماعي والمراحل الجديدة في دورة الحياة حسب نوع المجتمع. هناك مجتمعات ترتبط فيها السلطة والثروة والوصول إلى الموارد ارتباطاً وثيقاً بالانتماء إلى فئة عمرية («مجتمعات محددة العمر»). بشكل عام، تنتمي السلطة إلى كبار السن حتى حد معين للسن (مبدأ الشيخوخة). في هذه المجتمعات، تعتبر معايير الانتقال من فئة عمرية إلى أخرى بالغة الأهمية.)

وما هو أوسع مما تقدّم وهو سؤال ذو طابع مديني، ولكنه لا يُعَدُّ فائدة، إن أُدرج في هذا المضمار، لأهميته، أي ناحية ما هو مسمى لدى باحثنا بـ «العلاقات بين الأجيال والعلاقات الطبقيّة»، حيث مفهوم الطبقة تقابل بالمراتبية القائمة:

(يمكن لتحليل العلاقات بين الأجيال أن يجعل من الممكن إعادة التفكير في عمليات التكاثر لكل طبقة اجتماعية، لا سيما من خلال إعادة إدخال البعد المتناقض والمتضارب لهذه العمليات، على عكس الصور واسعة الانتشار لانتقال التابع عبر الأجيال. لأنه إذا لم يتم إرسال التابع في الوقت المناسب، على سبيل المثال إذا تم نقله

بعد فوات الأوان، فهذا يعني أنه في الوقت الذي يكون فيه الجيل التالي في مرحلة في دورة حياته حيث يكون بالفعل «يصنع حياته»، لذلك لم يبق أحد ليمرر العصا.)

وما يشد بنا الرجال إلى عالم الرجال، إن جاز التعبير، حيث الأسماء الدالة ذكورية، ومن هنا كان اللقب المعزّز، وهو يتوارث، وهو ينبعث في نظيره مع فارق في الإضافة «حاجو الأول- الثاني- الثالث» و «بطي الأول- الثاني» وحتى بالنسبة لسرحان «الأول- الثاني...» تأكيد على الصراع المفعّل وتأكيد ما كان من خلال ما هو كائن/ حاضر:

(نتذكر الصراعات في عالم الفلاحين بين الآباء والأبناء. الأبناء يرفضون أكثر فأكثر السلطة التقديرية للآباء ونظام مقدم الرعاية الذي فرض عليهم حتى تقاعد الآباء.)

والسؤال الذي يصلنا بما هو معرفي وتاريخي كذلك، وفي مجتمع زراعي- رعوي معاً أيضاً، حيث الثقافة المتداولة متجاوبة مع تلك المستجدات التي تجد القبيلة فيها نفسها، وبها تكون، أو يُعَلَّم عنها ثقافياً (من الواضح تماماً أنه في الظروف التاريخية حيث تكون التغيرات الاجتماعية والتقنية والاقتصادية... سريعة جداً، فإن عمليات نقل المعرفة والتواصل الاجتماعي موضع تساؤل ومن ثم هناك منافسة على احتلال الأماكن. تصبح بعض المعارف المرتبطة بتاريخ أجيال معينة عفا عليها الزمن بسرعة، والجيل نفسه يرى الآن تغييرات في حياته حدثت على مدى عدد كبير من الأجيال.)

وثمة سؤال مختلف هنا، ولكنه يتكامل مع مجمل ما أشرنا إليه، وهو جانب التضامن، وهو موجود، وما يحرّر القرابة من تلك الهالة الستاتيكية «الجامدة» ويعرضها لهواء التاريخ والتطعيم بما ينمي فيها قدراتها الاجتماعية والثقافية:

(لقد تم تسليط الضوء على التضامن للتو، ولكن هناك أيضاً توترات بين الأجيال. تظهر في حالة يتفاقم فيها فك الارتباط في وقت لاحق والتفاوت بين سمات النضج المختلفة. ما هي العلاقات الجديدة التي يمكن تأسيسها بين الآباء وأطفالهم، البالغين بالفعل، لا يزالون أطفالاً، باختصار، الذين يعتبر عمرهم ونضجهم المعترف بهم اجتماعياً غير مؤكد إلى حد كبير؟ هنا تغير العلاقات بين الأجيال الاتجاه تحت التأثير المزدوج لتطور علاقات القرابة والأخلاق المرتبطة بها، والظروف الاقتصادية الجديدة التي تعدل طرق الدخول إلى الحياة العملية وتحدد وظائف جديدة مع العائلة.)

تعتمد إعادة توزيع أدوار الأجيال بقوة على تاريخ كل جيل. هناك كما في أماكن أخرى لا يمكننا التفكير في الأجيال المجردة.)

والسؤال الذي يشكل خاتمة الأسئلة السالفة، يطال ما يمكن أن يستفاد منه، ما يكون في مقام الدليل/ المرشد، حيث إن الاهتمامات القاعدية هنا، تصعد بمختلف المكونات العائلية وهي توحدنا، كما تصهر إراداتها، دون تذويبها كلياً، وإلا لما تلمسنا مثل هذه الصراعات «الدامية» والمقلقة بشكل دوري، وتلك التي تضيء ساحة الآتي نحو الأفضل:

(نحن نلمس هنا حقيقة أن الحديث عن العلاقات بين الأجيال هو أكثر من الحديث عن العلاقات بين المجموعات الموجودة في مواقع مختلفة في دورة الحياة. هذا يجب أن يؤخذ في الاعتبار حقيقة أن هذه الأجيال هي حاملات توارخ وأخلاقيات وتمثيلات مختلفة للعالم. هذا يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار، من ناحية، البعد السياسي للتأثيرات الاجتماعية لأعمار الحياة، ومن ناحية أخرى العواطف التاريخية الخاصة التي تتكشف فيها هذه العلاقات الاجتماعية.)⁽¹⁾

لعلها رحلة رمزية وتاريخية بين قرية النسب: زاخران، وقرية الحسب: مزيزخ، وما ستشاهده القرية الأخرى من تحولات، من صراعات، وتقلبات، وسرديات أحوال، أكثر مما تمكناً من مكاشفته في ذاكرة مزيزخ⁽²⁾.

(1) générationnels»,journals.openedition.org

جودار، فرانسيس تعريف أعمار الحياة «مسألة علاقات بين الأجيال»

(2) قرأت في «ويكيبيديا» الكردية ku.wikipedia.org، شذرات معلومات عن مزيزخ، أورد بعضاً منها:

Mizizex (Mizizah، والمعروفة أيضاً باسم Mizizah، في Doğançay التركية) هي قرية في منطقة مدياد في مقاطعة ماردين، تركيا.

تقع قرية مزيزه Mizizex على بعد 9 كم جنوب شرق مدياد و 18 كم من مور: مار غابرييل Mor Gabriel. المناطق المحيطة هي الحدائق والبساتين. وفي القرية قلعة وكنيسة. وقد بنيت كنيسة تسمى Mor Yuhannun pigones228n228٢٢٨ في القرن السادس.

ويعيش المسلمون والمسيحيون معاً في هذه القرية. والقرى المحيطة بمزيزخ إيزيدية. تتعارض الكنائس والمساجد مع بعضها بعضاً، إنما لا توجد مشاكل بين المسلمين والإيزيديين والمسيحيين.

يوجد اليوم في القرية 137 مقيماً، وهي تضم الآراميين والكرد.

هنا نتوقف، لنتحرك واسعاً ومفصلاً أكثر، أي لتكون نقطة نهاية/ ختام، وإنما بداية نحو نقطة أخرى، وهي تزيدينا اتصالاً وتعميق أثر اتصال مع هذا الاسم الذي شكّل عنواناً، وفي الوقت نفسه، ولهذا السبب، أصبح ميداناً متعدد الروابط: عليكي بطي: حضور زعامة وقيادة!

المنازل التي كانت تسكنها سابقاً العائلات الآرامية إما تستخدم في النهاية من قبل العائلات الكردية، أو تكون شاغرة وتتداعى. هناك 30 من أسرة آرامية تقيم اليوم في سوريا و 339 في ألمانيا و 30 في هولندا و 124 في السويد وواحدة في بلجيكا وأربع في ستانبول.

والتركيبة السكانية لـ Mizzex

عدد العائلات الآرامية التي تعيش في مزيزخ على النحو التالي:

1870 = 16 عائلة آرامية

1915 = 70 عائلة آرامية و 50 عائلة كردية

1960 = 90 عائلة آرامية

1970 = 212 عائلة آرامية

1978 = 78 عائلة آرامية

1979 = 75 عائلة آرامية

1980 = 42 عائلة آرامية

1985 = 37 عائلة آرامية

1987 = 35 عائلة آرامية

2006 = 6 عائلات آرامية

بقية المعلومات، ترد في الكتاب لاحقاً.

وليس من معلومات موثقة عن حقيقة الوارد هنا، كما هي طبيعة «ويكيبيديا»، ولكن الوارد يلفت النظر أيضاً، إذ يوجد تركيز أكثر على الجانب الديني المسيحي في القرية.

الفصل الثالث

حاجو الثاني، وانعطافة تاريخية كبرى

«باستثناء التفكير في أنه من الممكن إقامة عالم خالٍ من الحرب بين الرجال، يُنصح بقبول «بناء» الخصم: بالتأكيد لحماية نفسه وتحقيق الأهداف السياسية المحددة لتحقيق فائدة أكبر للمجتمع التي يرتكب الجندي حياته من أجلها، ولكن أيضاً لأنه، على الرغم من التناقض الذي قد يبدو، فإن معرفة الآخر هي في أساس مسار الاعتراف الذي، حتى لو لم يسمح بالوصول إلى الملعب في نهاية المطاف من الاعتراف المتبادل، يسمح على الأقل لحماية نفسها من خطر التدمير المدمر بشكل مأساوي»

De la nécessité de l'ennemi هيرفي ببيير: في ضرورة العدو

«الحرب، مثل الزواج، هي لقاء، والتعبير النهائي عن الحرية، ومظهر التزام نهائي وغير متوقع بالعلاقة، ونتائج قرار مدروس بعمق. هاتان العلاقتان، المتباعدتان جذريا في هدفهما، تلتقيان في المكان الحاسم الذي يحمله الآخر هناك. الحرب، مثل الزواج، هي مقامرة من جهة أخرى. وهنا الآخر ليست الزوجة بل العدو، فالرجل ليس الخطيب بل القائد العسكري، والخطوبة لا تهدف إلى تنمية الآخر بل تدميره. ومع ذلك، مثل الخطيب، سيسعى القائد العسكري إلى اكتساب معرفة كافية عن الآخر ونواياه قبل الالتزام بشكل نهائي إلى جانبه.»

Un pari sur l'autre نيكولاس دي شيلي: رهان على الآخر

مفصل حركي منبه

هناك رهبة في قراءة التاريخ الكردي، لعدة أسباب:

أولها، أنه في الكثير منه لا يتكلم الكردية، أي يأتي تمثيله في لغات أخرى، ومن مواقف تنتمي إلى تلك اللغات، وما في ذلك من انزياحات عن أهل الكردية، وعن الواقع الفعلي لهم.

ثانيها، أنه لا يدون إلا من زاوية من قديم من الخارج غالباً، وما في ذلك من خاصية القص واللصق، إن جاز التعبير، وهو إجراء، أقل ما يمكن القول أنه، يحيل الكردي كثيراً إلى الآخر «الغريب»، ويبقى في ذمة من يتحدث عنه، باسمه، وبطريقته الخاصة في مكاشفته.

ثالثها، أنه في الكثير منه يفقد تماسك معلّمه الداخلي، من الاختزال إلى التجزيء إلى التسطّيح، أو التهميش، والتلفيق والتحوير، وحيث يضاف إلى ذلك ما يبقى في عهدة الذاكرة الشفاهية، وهذه محكومة بالزمان والمكان، أو متغيرات الحالة الخاصة بحاملها، وما أصعبها من مهمة.

وهذه الرهبة تمثّل للعيان من خلال ما عبّر عنه جوناثان راندل، وهو يتحدث عن كردستان بأنها «أرض الألف ثورة والألف حسرة» تأكيداً على فاجعة الكرد بوجودهم، وفاجعتهم بوعود الآخرين لهم، أي حيث تكون ثورة، تكون انتكاسة.

ولعل المتابع لمحاولات التاريخ هذا، يلاحظ مقدار العنت التاريخي، إذا ما أُجيزَ لنا منَح التاريخ طابعاً من التشخيصية، ومن ثم الاستتطاق، لُسمعنا صوتاً خافتاً وسط أصوات صاخبة، دالة على غطرسة، وهو خفوت الدال على ما هو كردي مقارنة بالآخرين الذين يعبرون عن أنفسهم، داخل كيان سياسي يعينهم، لكن التاريخ بخفوته هذا، إنما يكاد يعرف الكردي في ألفه ويائه، جرّاء هذه المتغيّرات التي تشكّل فرصاً مؤاتية لشعوب شتى وهي تستقيم داخلها، إلا الكرد، وهم ينتقلون من تاريخ إلى تاريخ، كما لو أنه في المجلد ذاته، مع فارق تغيير الرقم الدال على اليوم والشهر والسنة.

وربما كان سرّيان فعل مآسي التاريخ في أنسجة الكردي، وفي قواه الحية، من جهات شتى، أفقده رشده الذي به يقيم علاقة معه، ويحسن الإقامة فيه، وهو يجيد لغته كغيره، بدلاً من أن ينشغل بانجراحاته المتجددة مصائب وخرائب تتري، أو وهو لا ينفك يعلق جراحاته تلك، أعني بها تلك التي يكون الآخرون سبباً لها، أو هو نفسه الفاعل فيها.

ولهذا، فنحن نتحدث عن صورة معينة، وهي أنها صورة ذات صلة بما هو تاريخي، وهي ليست جامدة بالتأكيد، وانتباهنا يتركز إجمالاً على صورة واحدة، سوى أن ليس هناك صورة واحدة كمفهوم، إنما ما لا يحصى منها، ولأشخاص، وربما لشخص واحد نفسه. إن السلطة هي ذاتها صورة متخيلة، وإن أرجعنا إلى واقع معين، وصورة عيانية بطريقة خاصة، وإن حفّزنا على التذكير بعدد هائل من السلط البشرية، فثمة سلطات، وليس سلطة واحدة، ونحن نتهجأها مفردة، سلطة تعادي أخرى، أو تتربص بها، أو متشابكة معها، أو تتخر داخلها أيضاً.

وفي بدء تكوين سلطة معينة، وكونها جديدة، لا يُستبعد أن يكون هناك حزم وضبط وحتى عنف، قد يظهر للبعض أنه قرين الاستبداد، أو تعبير عن ذات

متغطرسه، ولكنها من حيث المفهوم، صادمة، أو غريبة نظراً لجدتها، وأنها تتطلب وقتاً لكي يكون في مقدور المعنيين بها تقبلها، وبصورة خاصة حين ينظر إليها وقد فرضت من «فوق»، وأنها مستحدثة، ولكنها كسلطة، تتعامل مع الآخرين من عل، ليس من موقف السيطرة في ذاتها، إنما لأنها سلطة بالتحديد، بطابعها الاستشرافي، ويتطلب التفاعل معها، واعتبارها تعني من ينفرون من سلوكها بداية، بعضاً من الوقت، ليكون هناك تغيير في الحالة.

تلك الصورة التالية على الصورة الأولى للسلطة، وهي في داخلها، أي تعقبها بعد أن أدت الأولى وظيفتها كما يجب.

أتحدث في هذا الخضمّ المحلّق بالمأساة والمحمول بها معاً، مأساة أكبر كما أنها أكثر من حرب، وثمة استعداد للدخول فيما يشبه الحرب، في مجابهات تستنزف الروح، ويترك المجال للتاريخ كي يدوّن شهادته.

لأقلّها بصراحة هنا، أو ما يشبه الصراحة، عما ينتابني ويشغل تفكيري ووجداني، وأنا أتكلم بالطريقة هذه، ففي الصراحة ما يدفع بي إلى الدخول في جو عاصف، فوق هاوية عميقة، والصراحة، كما يقول أحدهم (طريقة في الكلام، وتحديد أكثر، إنها طريقة في قول الحقيقي، وثالثاً، هي طريقة في قول الحق، حيث تفتح الذات على نفسها خطراً بسبب قولها للحقيقة، ورابعاً، إن الصراحة هي طريقة للدخول في هذا الخطر المرتبط بقول الحق... الصراحة هي أخلاق قول الحق في فعلها المخاطر والحر، أو فعلها الذي يحمل المخاطر والحرية...)⁽¹⁾.

ولا بد أن هذا التمهيد الذي قد يشكّل ثقلًا على المتلقي، وفيه تشخيص لما هو مأساوي كردي المنشأ، شعوراً مني أنه شعور يتعدى الآن، أي يتمثل في التجربة الحياتية الطويلة نسبياً، وهي تستشرف كيف يقيم التاريخ حدّاده باسم الكرد عليهم.

في العنف القائم، يمكن لأشكال كثيرة من القسوة والتهديد والتعذيب الجسدي، والإهانات بأنواعها، أن ترينا طريقة حية من طرق التفاعل السلبي داخل أنظمة اجتماعية، وتعريفاً مكثفاً لتلك الحالات التي ينال أحدهم من الآخر، سواء أكان

(1) فوكو، ميشيل: حكم الذات وحكم الآخرين «دروس ألقيت في الكوليج دو فرانس 1982-1983»، ترجمة: الزاوي بغورة، مراجعة: محمد المعزوز، منشورات مؤمنون بلا حدود، الرباط، 2019، ص 99.

شخصاً أم طرفاً وما شابه ذلك، وهذا ليس ببعيد، أو بجديد، فتاريخنا البشري حافل بمثل هذه المشاهد .

وفي عمليات القتل المتبادلة، لا يتعرّف إلى السلطة إلا من زاوية ضيقة، أي بوصفها عدواناً، طالما أن أفراد المجموعة لا يجنحون بأنفسهم إلى دائرة وعي أوسع، ويتخلّى كل منهم عن بعض من عنفه الخاص بوضعيات اجتماعية: عشائرية، حتى يستتب الأمن، أي يكون هناك تفويض ما لشخص مخوّل بإدارة أمور الجماعة، ودون ذلك لا تكون السلطة سلطة، أي وهي تكتسب صفة أقرب إلى التجريد منه إلى التشخيص، وتلك هي البداية الأولى لمجتمع يبتعد عن الشخصية.

جبو، فيما يكتبه، يقرّبنا من وضع من هذا النوع (مع انتقال حكم العشيرة إلى حاجو الثاني ازداد نشاط «آل: أسرة عثمان» قوة. وبدأ حاجو أولاً بترك السلوك المستبد الذي كان يسير عليه آل عثمان، وقام بتغييرات كثيرة لأجل تنظيم العلاقات بين العشائر، ووضع حد لقضايا الثأر، والتوصل إلى تسويات للمشاكل. كما حدث تغيير في أمر آخر، إن هدف حاجو لم يكن زعامة عشيرة الهفيران فقط، فبعد أن أمسك بزمام الأمور في يده اتجه نحو عشيرة دكشوري، التي كانت عشيرة كبيرة ومعروفة بتأييدها للدولة، وفضلاً عن ذلك كان ضمن أهدافه إقامة دولة، إن سياسته المعتدلة والذكية في إدارة الأمور الداخلية جعلته يحصل على دعم قوي من قسم كبير من أعضاء الاتحاد «الهفيران». ولم يتردد في استخدام الشدة ضد بعض العشائر التي لم ترغب في الانضمام إلى ذلك الاتحاد . ص 63).

يستوقفنا هذا القول، لأنه فيه ما يشدنا إلى القاع الاجتماعي، إلى تلك العناصر التي تغذي العلاقات الاجتماعية، وتلوّنها، وتدفع بها إلى السيطرة على غيرها من العناصر التي نعيشها في الحالات العادية، وهو ما يخص التاريخ، تاريخ العادات التي تترجم أنماطاً حية من القيم المتوارثة، لا أظن أننا تعديناها، أو انتهينا من أمرها إلى هذا اليوم، تعلمنا بأشكال من عدم النظام المتوخى: نظام عدالة ما، أو توازن ما، لوجود خلل معين، قد يهدّد الجميع، على خلفية من فكرة كالثأر.

ولهذا يبدو لي أن جبو يتحدث عن حالة انتقالية، كما تقدّم، إلى مجتمع لا يعود ينظر إلى السلطة الممارسة وكأنها قائمة في خدمة من يطبقها، ومن جهة أخرى، فإن هذه الشدة التي تحضر وتغيب، ذات صلة بوضعية الاستقرار في الوسط الاجتماعي، لذلك لا غرابة أن تعتمد الشدة هذه بصورة دورية، طالما أن هناك تهديداً للأمن

الجماعة: المجتمع، وهنا ينبع جوهر القانون الذي يتركز على قاعدة علاقات اجتماعية توضع في واجهة اهتمامات المعنى بتنظيمها، بحيث تكون أوضح، فلا يكون هناك تعدد من شخص على آخر، وأي تعدد يتطلب حزمًا، أو شدة معينة، لأن ثمة ما ينذر بالخراب لمختلف أفراد الجميع، وما كان له أن يُسمى انتقالاً، إلا تعبيراً عن وعي من نوع آخر، ذي طابع قيادي هنا. وليس الحديث عما سمي بـ «قضايا الثأر» إلا إشارة موجعة إلى ما يتعرض له مجتمع كامل، لأن هناك عنفاً يزكي أياً كان لأن يكون قاتله وقتيله، أو الداخل فيه بصفة المسيطر، ولاحقاً، المعرض للتصفية، أي يُتَل أو يُنتقم منه.

حسبي أن أتوقف هنا لبعض الوقت، نظراً لأهمية الدائر حول «قضايا الثأر» أو الانتقام La vengeance :

يلعب زوجا الهيمنة/المقاومة دوراً مهماً في تطوير ظاهرة الثأر. يجب فهم الهيمنة من خلال بنية عائلية بالمعنى الواسع، الذي يحمل اسم العشيرة أو القبيلة، والذي يجمع عدة عشرات، حتى عدة مئات من الأشخاص المنتسبين أو المسؤولين أو العاملين. يمكنهم تعبئة المجموعات الحقيقية القادرة على تنظيم فعل الانتقام وضمان التواطؤ هرباً من الاعتقال. يمكنهم أيضاً تثبيط أي محاولة للتدخل من قبل الشرطة من خلال هروب منظم، على سبيل المثال، في قبيلة الكورسيكية.

وتوجد الحالة في ألبانيا العليا. يحدث الثأر هناك من قبيلة إلى أخرى ويؤدي إلى حروب حقيقية، عقبات أمام أي حركة من منطقة إلى أخرى. العشيرة هي أيضاً أداة للسيطرة: يمكنها أن تجبر الفرد المعين من الأسرة على أداء واجبه، بسفك الدم واحترام قانون الشرف في ألبانيا.

الثأر هو أيضاً أداة للسيطرة السياسية، سواء في قرية أو على مساحة أكبر بكثير. الهدف هو نفسه دائماً: القضاء على الخصم، وإطعام دوافع الثأر، والسماح بالانضمام إلى العشيرة.

للقضاء على خصم سياسي من خلال إجباره على الانسحاب من الساحة العامة، أثبت استخدام الثأر أنه فعال للغاية. لا يقتصر على الوقت، يؤدي إلى القضاء الجسدي على الخصم باسم الشرف.

لكن الثأر تغذيه مقاومة الهيمنة السياسية كذلك. إنه الشعور بالظلم والمعاملة غير المتكافئة التي غالباً ما تكون في أصل تطور هذا الشكل من العدالة الخاصة،

العدالة البدائية. سيطر الجنوبيون على كورسيكا، ثم قام الفرنسيون بزراعة هذا الشعور بالظلم والمقاومة المرتبطة به.

في اليونان وكريت، كانت الكنيسة الأرثوذكسية بمثابة أساس المقاومة ضد السلطة العثمانية. هنا مرة أخرى، جعلت المسافة من السلطة المركزية من الممكن، وخاصة في كريت، الحفاظ على هذا الشكل من العدالة التقليدية. في تركيا، التركمان الذين يستحضرونهم يشار كمال هم الذين حافظوا على هذا الشكل من العدالة التقليدية⁽¹⁾.

ونتلمس ذلك في جانب آخر، حيث يظهر ما هو جديد في محتوى هذا المفهوم «التأثر/الانتقام» وهو قديم ومركب:

ففي العديد من المجتمعات، كان الانتقام مؤسسياً، وفي العديد من الأشكال، تعرضت أداة التعويض عن الأخطاء.

وتعتمد المجتمعات الإقطاعية والأرستقراطية، من جانبها، بأشكال مختلفة، لفترة طويلة على مدونة الشرف التي أجبرت الأرستقراطي المهيمن على الانتقام من المواجهات.

هناك بلا شك في الأصل علاقة وثيقة بين الانتقام والعدالة، ونقص الأخير يبدو أنه يؤدي إلى تطور الأول. لاحظ أن كلمتي الانتقام والعدالة لهما علاقة اشتقاقية. فيأتي الانتقام من «vindicare» اللاتيني (للمطالبة بالعدالة) والعدالة من «judicare» (على سبيل المثال). الكلمتان اللاتينيتان مشتقتان من «dicere» والتي تأتي من «diçati» السنسكريتية (كما تظهر) ومن «deiknumi» اليونانية (للتوضيح، على سبيل المثال، «236pig»، القاعدة). بالإضافة إلى ذلك، تأتي «العدالة» من «القانون، القانون» اللاتيني. ونجد في أصل هاتين الكلمتين البذرة/العدالة، لكن علاقة cousinism هذه لا يجب أن تشجعنا على إرباكها، لأن نظام القرابة على أساس الانتقام يختم اختلافاً جذرياً بين منطق العقاب والعدالة والقانون والمؤسسة. وكما يشير ماريون كولاس- بليز، «يجب توخي الحذر لفصل الانتقام عن الاستياء والاستياء، فالأخير يشير إلى الرغبة في الانتقام». هذه الرغبة في الانتقام يتم التعبير عنها بأشكال متنوعة، كما هو معلوم للباحثين في أمره تراثياً وعشائرياً ومجتمعياً راهناً⁽²⁾.

(1) La vengeance , fr.wikipedia.org

التأثر/الانتقام، ويكيبيديا

(2) Pierre et Béatrix Marillaud: La vengeance et son discours, www.fabula.org

بيير وبيتريك ماريو: الانتقام/ الثأر وخطابه.

ولإضاءة هذه الفكرة الخطيرة والمثيرة معاً، يمكن قراءة المقال المعمق لجيرار بونيت، وبطابعه

التحليلي - النفسي: الانتقام من أجل البقاء، بالفرنسية: *venger pour survivre*

موقع www.cairn.info الإلكتروني، ومن المفيد إيراد بعض منه:

تاريخياً: في العديد من الأماكن، يمثل الانتقام، الذي لا يزال سائداً ويسود حول الإرهاب، أحد أكثر أشكال العنف البشري خوفاً. بالنسبة للتحليل النفسي، فإن الانحراف هو التنظيم النفسي الذي يوضح بشكل أوضح كيف ولدت هذه الرغبة في الانتقام في النفس البشرية. إن الانتقام موجود في كل مكان وبنى جزئياً في اللاوعي للموضوع.

في التكوين النفسي: ماذا يتكون هذا العنف الانتقامي، والذي يسميه فرويد هنا «رد فعل عداة قديم». للوهلة الأولى، المظاهرة في قطعة واحدة، مما يجعلها أكثر إثارة للإعجاب ولا يمكن إيقافها. لكن التحليل يسمح لنا بتفكيك العملية، وتحديد التروس الرئيسة وفتح العديد من طرق الوصول لجعلها تتطور. السمة الأولى واضحة في الحالة المذكورة. هذا العنف هو رد الموضوع على عنف آخر يعتبر نفسه ضحية له، «هو الذي بدأ»! كل المنحرفين يستشهدون به في دفاعهم: لقد تم إغواؤهم أو صدمتهم في مرحلة الطفولة. ومع ذلك، سواء كان ذلك صحيحاً أم لا، فإن المشكلة الحقيقية هي أنه لا يوجد مقياس مشترك بين ما يفعلونه وما فعله الآخرون بهم. هذا هو الحال مع الافتراغ الذي لم يكن سيئاً دائماً، والذي يؤدي مع ذلك إلى انتقام مدمر بشكل خاص على المدى الطويل.

وفي بعض خواصه: الانتقام من العنف له خاصية ثانية تتلخص في البعد الأول: له بُعد برّاق، وبالتالي نرجسي. إذا نشأت في أساس النفس، في سياق الإغواء الأول، فإنها تتشكل في المرة الثانية، في اللحظة التي يصبح فيها الشخص قادراً على قياس نفسه ضد الآخر وإنشاء علاقة من النوع المزدوج حيث تعكس ما يفترض أن يفعله الآخر به. حياة الزوجين تفسح المجال لهذه العملية بسهولة. نحن لسنا في انتقام «العين بالعين، والسن بالسن»، من التشريعات القديمة «البابلية»، التي تهدف إلى تعديل الانتقام بقانون، حتى لو كان بدائياً. في هذه الحالة، هو انتقام «أعمى»، حيث يستجيب العنف الذي لا هوادة فيه للعنف المفترض للآخر. من الواضح أنه مقياس للبقاء... الخ.

طبعاً في حال جمو، هناك أكثر من التباس، حول من يكون جهة علاقته بهيفيركان، والاختلاف في تحديد نسبته، هو الذي يضاعف من رعب الموقف من عملية الذبح، أي من خلال الأسلوب الذي لا يعبر عن حالة ندية «زعاماتية لها صيتها ومعترف بها «ووسط» متفرجين، وما في ذلك من تمثيل، وكأننا أمام مشهد «متلفز، وهذا مؤلم جداً.

بصدد ذلك، إن ما يقوله بروينسن، في مصدره المذكور، ج1، يلفت النظر، في فقرة «في حالات الثأر»:

(حينما يكون القاتل والضحية متباعدين اجتماعياً ففي الغالب لا يكون بالإمكان أخذ الثأر من المجرم الأصلي. فإذا قُتل زعيم قبلي على يد عبد لا قبلي مخضوع ولم يكن أمام أقارب الزعيم من خيار للثأر سوى قتل ذلك العبد، فإنهم بذلك سيحطون في الواقع من قدر

ربما ذلك يعني أن الحديث مفهوم الانتقام في الجماعة العشائرية، لا يؤخذ من زاوية واحدة، أو وفق تفسير اجتماعي معين، أو مكاشفة انتروبولوجية محددة، لأن في خانة المفهوم هذا، يلتقي الاجتماع، الثقافة، التاريخ، والبيئة معاً موسورياً.

وقد حاولت إضاءة هذا البعد الخطير في المجتمع، أي مجتمع، وبالنسبة إلى الكرد، بصفة خاصة، نظراً لتعقيد المفهوم الذي اعتبرته مركباً كما نوّهت، حال أي مؤثر استقطابي، بما أنه يتشعب في علاقاته: من يثار، ومن يثار ممن يثار، ومن يخاف من عمليات التآثر، وما يعنيه التآثر الذي يضع الجميع في وضعية استفار، وليس لتحديد علاقة بين شخصين، وإنما كل من يعينهم أمرهما.

ذلك يسمح لنا بتتبع الخيط الرفيع والدقيق الذي يظهر تشعبات الانتقام، وكيف أنه يطال الشخص: موضوع الانتقام/ التآثر، أهله، عصبته، جماعته، ومجتمعه، لحظة بروز قانون يتحرى فيه تنوع دلالاته، ومخارجه، إلى يومنا هذا، جهة بدائله....

وإذا كنّا نريد علماً أكثر بطبيعة العلاقات الاجتماعية بين أفراد العشائر داخلاً، وبين العشائر ذاتها، إن أردنا إضاءة لبنيتها القيمية، فربما المطلوب هو تدقيق النظر من هذه الزاوية، حين يتصرف طرف ما في تقييمه للطرف الآخر بأنه يهدده في سلطته، أو موقعه، أو لا يرى مناصاً من مواجهته، شعوراً منه بالتهديد، أو يتهياً لهذه الخطوة وفقاً لتقديره الخاص، ولعله في وضعه هذا، قد يعيش حالة لاسوية نفسياً، أو يكون مسكوناً بسطوة فكرة التآثر تجاوباً مع غايات أو أهداف تعنيه، كما تعنيه أفراد جماعته، داخل العشيرة وخارجها، إن توسّعنا في ذلك، حيث تأتي الدولة ودورها الكبير في ترسيخ «جماليات التآثر» في نفوس الأفراد تعبيراً عن رغبة منشودة، لإضعافهم هنا وهناك، عبر الاستعانة بقوة خارجية، وما يعنيه ذلك هذا الإجراء من تبعية، واعتبار إيذاء الطرف المتعبّر متعبداً أقرب ما يكون إلى الغاية، وليس لاستقرار الأمن أو السكينة.

الزعيم إلى مرتبة العبد. بيد أن فكرة أن يقوم عبد بقتل سيد بدافع من ذاته فقط إنما هي فكرة لا يسهل هضمها في نظر رجال القبيلة. فالشك سيساورهم في الحال في أن زعيماً آخر هو الذي دبّر جريمة القتل، وبالتالي سيكون هذا الزعيم هو الهدف الشرعي للانتقام. غير أن هذه حالة افتراضية جداً. فأنا لم أصادف، لا في الأدبيات ولا خلال عملي الميداني، حالة واحدة يقتل فيها زعيم قبلي على يد شخص ذي مكانة أدنى بدرجة كبيرة (ص154). في حال جمو، كما رأينا، هناك ما يخرج عن هذا التصنيف، من خلال تقويم مكانته، ومن جهة ثانية، حين يبرز جمو تابعاً لمن هو أقوى منه «الدولة» وبذلك تهتز مكانته أكثر، ولن يعود للزعامة أي قيمة اعتبارية، وهذه النقطة بدورها، تزيد من حمولة الكراهية تجاهه تاريخياً.

استنطاق الصراع

وكما رأينا سابقاً، فإن الصراعات العشائرية في المنطقة قامت على هذا الأساس: كيفية الدخول في عداوات متبادلة، والأنكى من ذلك: الاستعانة بالغريب: العدو، والذي يدفع هذا التدخل إلى مزيد من شحن الأحقاد والكراهيات أو المشاحنات.

هنا نجد أنفسنا أمام مستجد آخر من هذا النوع، كما يكتب جبو (ومثلما كان الدكشوريون في حالة صدام مستمر مع الهفيركان، فإنهم لم يكونوا تابعين في أي وقت للحكومة الكردية في بوتان. وقد دعموا بقوة الجيش العثماني في حربه ضد بدرخان بك. ولهذا السبب كان الهفيركانيون يكتّون بغضاً وغبضاً ضدهم. وفي عهد حاجو الثاني كان زعيم دكشوري هو يوسف حسن شمدین. وكان يوسف هذا يهاجم قرى هفیركان وينهبها، ولهذا السبب سار حاجو الثاني ضد يوسف حسن شمدین... ص64)، حيث يصف حسن حاجو حفيد حاجو الثاني عملية الإغارة على سنجق «آشيت»، كما تحدثنا عن ذلك لحظة الاستشهاد ببعض من أقوال جكرخوين، وفي العودة إلى جبو نقرأ (في ختام هذه المصادمات الشديدة تم إلحاق الهزيمة بيوسف الذي وقع في الأسر وهو جريح، إلا أن حاجو عفى عن يوسف، وبعد ذلك انسحب أفراد أسرة يوسف ووجهاء العشيرة إلى سوريا ص64).

هذه الحروب الصغيرة، والكبيرة في آن، هي التي تعري الكثير من العلاقات الاجتماعية ذات الصلة بالقيم السائدة، وهي لا تتوقف على مجرد جماعات مستقرة في بقعة جغرافية معينة، أو رحالة ضمن حيز جغرافي معين، بمقدار ما تدفع بأي باحث لأن ينظر إلى تداعياتها، كلما حصلت عملية غزو أو إغارة من هذا النوع، وموقعها في منظور القيم السلطوي.

وما من شأنه التوقف عند التالي:

أولاً، بالنسبة لعلاقة الإغارة والنهب، يكونان وجهين لعملة واحدة، في مجتمع رعوي- زراعي، حيث كل طرف مباح للآخر من هذه الناحية، ولا بد من وجود ثقافة تشرع لهذا الجانب، أي ما يجعل الإغارة تعبيراً عن مدى زعامة الشخص الذي يقود الهجوم، وأن النهب ليس أكثر من ثمرة لعملية الإغارة والغلبة، وإذا توسعنا في مفهوم الإغارة، نجد أن غزواً تمثله دولة معينة على أخرى، بدوافع مسجلة ومشرعة من قبل تلك الدولة، لا يخلو من نهب بالمقابل، مع فارق مميز، وهو أنه في عملية الإغارة ذات الطابع العشائري، يلعب الاقتصاد الرعوي دوراً في ذلك، وهو مرتبط بمكانة الزعيم

القبلي، وحلقات قوته ورصيدها التاريخي، وكيف يكون واقعاً، محط إعجاب وتقدير أتباعه على قدر تمكنه من السيطرة ونفوذه في محيطه، وتعبير باحث روسي مهتم بهذا الشأن، وكما أشرنا إلى ذلك سابقاً (لا تُعتبر أعمال السلب والقرصنة جرائم لدى الكرد، بل على العكس فإن ذلك حسب مفاهيمهم يليق تماماً بالرجل الشجاع، ولا يوجد شعب آخر لا يرتبط ذلك ارتباطاً وثيقاً بطبيعة ونمط حياته وعاداته بمثل هذا القدر)⁽¹⁾.

(1) ليرخ، ب.: دراسات حول الكرد وأسلافهم الخالدين الشماليين، ترجمة: د. عبيد حاجي، مكتبة خاني، حلب، دمشق، 1994، ص 22.

ينظر أيضاً ما ورد في كتاب ماكس فون أوبنهايم: من البحر المتوسط إلى الخليج «العراق والخليج»، ترجمة: محمود كبيبو، مراجعة وتقديم: ماجد شبر، الوراق، لندن، ط1، 2009، الطبعة الألمانية الأولى برلين 1900: (ممارسة السلب علناً واحترافه يعتبره كل بدوي حقاً طبيعياً له.. ص 124.. ينبغي على الشيخ الذي يحرص على سمعته القيام بغزوة أو غزوات كبيرة كل عام تدوم الواحدة منها في كثير من الأحيان أسابيع أو ربما أشهر.. ص 126.. يحرص البدو على المحافظة على حياة خصومهم ولذلك يحاولون التسلل إلى مقربة العدو من أجل مباغتته.. ص 126... الخ).

ينظر في مصدر أقدم، ونوعية الثقافة المسماة أو الفاعلة ومتخيلها النفسي والسياسي، لدى ماركو بولو قبل سبعة قرون في كتابه المعروف رحلات ماركو بولو، ترجمها إلى الانجليزية: وليم آذاردن- ترجمها إلى العربية: عبدالعزيز جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1995. ماركو بولو الإيطالي البندقي «1254-1324»، هوامش الكتاب ج1، كما في (ويسكن الأجزاء الجبلية جنس من الناس يُسمى بالكرد، بعضهم مسيحيون من النساطرة أو اليعاقبة، وبعضهم الآخر من المسلمين. وجميعهم قوم لا مبدأ لهم، صناعتهم سلب التجار.. ص 57... وضمن هذا الإطار وحديثه عن مدينة «توريس: تبريز»: والسكان المسلمون قوم اتصفوا بالخيانة والغدر والتجرد من المبادئ. وهم يعتقدون أن ملتهم ترى «كذا..» إن كل ما سرق أو نهب من أبناء الديانات الأخرى، فهو أخذ حلال، وأن السرقة ليست جريمة، بينما يعد كل من لقي مصرعه على يد النصاري شهيداً.. ص 65... وما ورد لدى واضع الهوامش، هنري كرديار: الهامش ه، ص 196، وبنية القول وخلفيته التاريخية: إن كردستان التي كانت تؤلف الجزء الشمالي من بلاد آشور القديمة، منطقة جبلية تقع إلى الشرق من نهر دجلة وراء أقاليم الموصل ونصيبين وماردين مباشرة وتتكلم أغلبية السكان بلهجة فارسية محرفة، وإن ماثلوا في عاداتهم وأحوالهم البدو الأعراب، كما يشبهونهم في مأثرة سلب القوافل التي ليست لها حراسة كافية، وينعتهم كارترايت بأنهم «شعب لص سراق إلى أقصى حد»، وتتفق جميع بيانات كل من أعرفه من الرحالة في وصفهم بأنهم نهابون محترفون، وهو وضع لمجتمعهم ينجم عن موقعهم المحلي، وذلك نظراً لأنه منطقة جبلية لا بد للرحالة بالضرورة من اختراقها في عبورهم من إقليم غني إلى آخر.

ثانياً، لا تكون الإغارة، إلا تأكيداً على أنماط سلوكية، تبقى النفس الجماعية مسخرة قواها خارج نطاق التهدة الطويلة الأمد ومن ثم الانصراف إلى ما يشد الجميع إلى بعضهم بعضاً.

ثالثاً، هناك الذاكرة المكانية، والتي تتلقى تعزيزات لسلوكيات كهذه، أو تُشجّع بما أنها تخدم الفضاء السلطوي عموماً، في الحدود التي تشعر فيها السلطة أنها لا تُمس، أو تتعرض عتبتها لأي اهتزاز أو اضطراب.

رابعاً، في الاقتصاد الرعوي والمتداخل مع الزراعي، لا يكون هناك استقرار، حيث إن التنقل «بقطعان المواشي» أو مع المواشي من أجل الرعي، يبقّي الصدام قائماً بين الجماعات، أو العشائر المقيمة في الجهة نفسها، وتحديداً، حيث ترسم كل منها حدودها لنفسها، وما في ذلك من تحد لبقية الجماعات، فتكون الإغارة على أي جماعة/ عشيرة متاخمة، من جهة، دفع أي عدوان خارجاً، ومن جهة ثانية، إشهار

وإذ يمكن المقارنة بين ما تقدّم ذكره، وما ورد في كتاب الشيخ رسول الكركوكي: دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء، ترجمة: موسى كاظم نورس، منشورات الشريف الرضي، قم، 1413 هـ، بدءاً من كلام المترجم:

ومن الغريب أن العشائر والقبائل عندما يعجزون عن دفع الضريبة تعتبرهم الحكومة متمردين وتوجه إليهم الحملات العسكرية لمعاقبتهم، فتقوم تلك الحملات بتشريدهم من ديارهم وتستولي فيما تستولي على مواشيهم وتعبرها من الغنائم الحربية، ولما كان مدار معيشة أولئك العشائر على هذه المواشي فإنهم بطبيعة الحال يلجأون إلى قطع الطرق والسلب والنهب لكي يعيشوا. ص 7... سنة 1735... ومن ث: لقد رأت الدولة العلية أن بلاداً كالعراق تقع على الحدود الإيرانية، وفيها من العشائر والبدو الأشقياء ما يستوجب أن يكون حاكمها ذا مراس وحكمة وشجاعة وصرامة ويد قوية وعقل راجح. ص 37...

وكذلك كتاب جون لويس بوركهارت: ملاحظات عن البدو والوهابيين «دونها إبان ترحاله إلى الشرق»، ترجمة: غاندي المهتار، الانتشار العربي، بيروت، ط1، 2005، وقوله (يسلب العربي أعداءه وأصدقاءه وجيرانه شرط ألا يكونوا داخل خيمته حيث سرقتهم عار. ص 60).

وأخيراً وليس آخراً، كتاب ماكس فون أوبنهايم: من البحر المتوسط إلى الخليج «العراق والخليج»، ترجمة: محمود كبيبو، مراجعة وتقديم: ماجد شبر، الوراق، لندن، ط1، 2009، الطبعة الألمانية الأولى برلين 1900 (ينبغي على الشيخ الذي يحرص على سمعته القيام بغزوة أو غزوات كبيرة كل عام تدوم الواحدة منها في كثير من الأحيان أسابيع أو ربما أشهر.. ص 126.... و: يحرص البدو على المحافظة على حياة خصومهم ولذلك يحاولون التسلل إلى مقربة العدو من أجل مباغتته.. ص 126). الخ

أعتقد أن ذلك تقدمت به، يعطينا فكرة واضحة إلى حد ما عن مفهوم السرقة، في الزمان والمكان المذكورين.

القوة، وإنذار أي جماعة/ عشيرة متاخمة بمحاولة التقرب من محميتها، وهذا يبقى الإغارة المفاجئة قائمة، حيث الممتلكات العينية «الملموسة» هي ثروة العشيرة «كالغنم أساساً» وهي معروضة للنهب أو السلب، وهي ليست كالتنقود لتخبأ، وهذا يبقى الحدود افتراضية، تابعة لمتحركات القوة بين العشائر، فيكون لنظام الأقوى مباشرة، أو من خلال فرض ضرائب أو «خوة» لإعلان السيطرة، وكمقابل مادي لحمايتها من أي عدوان خارجي، وليكون قانون السلب عرفياً، وليس له صبغة مؤسسية في مجتمع غير مستقر كلياً.

وللكرد طابعهم النجومي في عمليات الإغارة والانتقام المتبادل، كما يقول تاريخهم، بما أن الإغارة تعني هنا إلحاق الأذى بالآخر، وأن هذا الأذى قد يفجر أصنافاً من البغضاء أو الكراهية، ومن آثارها ممارسة عمليات عنف، تتسع ساحتها، كما يتعمق عنفها بالتالي.

وفيما يخص الموقف من هذه الأحداث، نأتي، بمثال عن «صراعات الأخوة الجلائريين»، حيث (إن المناطق الكردية الواقعة على طريق بغداد - تبريز صارت ميداناً لجانب منها وساهم الأمراء الكرد في بعضها، ففي سنة 782هـ/ 1380م نشب خلاف حاد بين سارو عادل «عادل آغا» أكبر أمير بالدولة الجلائرية، وصاحب اليد الطولى في بلاد السلطان حسين وبين جماعة من الأمراء لتضارب مصالحهم الشخصية، وتمرد الأمراء على السلطان حسين لوقوفه إلى جانب سارو عادل، وأظهروا نيتهم في خلع، وتصيب أخيه بايزيد بن الشيخ أويس سلطاناً ولما كشفت مؤامراتهم وعلموا بنوايا السلطان حسين في الانتقام منهم... الخ. ص 110).

والصراع المقابل، أو الموازي، حيث يكون، نظير سواه على السلطة المحلية، جهة القوة والإثارة (تعرضت الإمارة الخورشيديّة لصراعات داخلية عنيفة، راح ضحيتها عدد من أمراء ورؤساء اللر، فتولى الأمير عزالدين محمد بن الأمير عزالدين حسين وهو لا يزال صغير السن، مما أدى بآبن عمه الأكبر منه سنّاً بدرالدين مسعود بن فلك الدين حسن أن يخرج عن طاعته ويثور عليه، ولما تولى محمد خدابنده السلطة الإيلخانية سنة 703 هـ/ 1304م تدخل في الأمر وأصلح بينهما وقسم لرستان الصغرى عليهما، وفي وقت لاحق استطاع الأمير عزالدين محمد أن ينفرد بالسلطة. ص 126)⁽¹⁾.

(1) توفيق، د. زرار صديق: كردستان في العهد الجلائري «737-814هـ/ 1337-1441م»، منشورات مركز الدراسات الكردية وحفظ الوثائق، جامعة دهوك، «دهوك»، 2009، ص 126.

وفي مثال من نوع آخر (عاش كرد بانوك مدة طويلة في صراع مع حاكم ديار بكر، وفي عام 1782 قام الحاكم التركي وبالتعاون مع باشوات آخرين وعلى رأس جيش مؤلف من «45» ألف مقاتل بالهجوم على عشيرة بانوك، ولم تحقق معركة الأيام الثمانية النصر للأتراك. فهاجموهم مرة ثانية عام 1785 وبجيش جديد ولم يفلحوا في المرة الثانية، وفي عام 1789، استطاع الحاكم التركي عن طريق الخداع استدراج الزعيم الكردي إليه وقتله، ثم عينوا ابن زعيم العشيرة، ولم يكن هذا على حكمة وقوة والده واستطاع الأتراك أن يعززوا مواقعهم إلى حد كبير في هذه المنطقة. ص 27⁽¹⁾).

طبعاً هناك أمثلة كثيرة، مذكورة في كتابي «دولة حاجو آغا الكردية» وما أذكره هنا عبارة عن عينة، مما ينبغي التعرض له، في سياق هذه المجابهات الفردية أو الجماعية، بالنسبة للعشائر أو القبائل، والآثار السلبية لها في الحالتين.

ولتكون وضعية الانتقال، انعطافة اجتماعية، واستشراف أفق مستقبلي من نوع مغاير لما سبق بالتأكيد، رغم أنه لا يلغيه، إنما يستسخه بطريقة محوَّلة.

وذلك يمهّد لفتح صفحة جديدة، حالة الدخول في عقد مجتمعي، ليس بين أبناء العشيرة الواحدة أو الاتحاد الهفيركاني وإنما بين هؤلاء وعشائر أخرى، جهة التعريف بالشخصية المتزعمة لهذا الطرف أو ذاك، وهي في موقف الاعتدال.

ونضطر هنا إلى التوقف عند نقطة أخرى، ومعرفة واقعة سياسية وعسكرية تمثلت في هزيمة العثمانيين في حربهم مع الروس سنة 1878، ورضوخهم للشروط المفروضة عليهم في اتفاقية «سان ستيفانو» وغيرها.

ما يهم هو المترتب على هذه الواقعة، حيث ضعفت الدولة العثمانية، فما كان من منفيين من أبناء بدرخان بك في ستانبول، إلا واستحثا خطاهما، وتوجها إلى «جزيرة: بوتان» عاصمتها، ومن خلال تحالفات واتصالات مع آخرين «ضباطاً وغيرهم» تم انتهاز فرصة ليعلنوا استقلالهم سنة 1879، وتتصيب عثمان باشا أميراً في احتفالات صاخبة.

وعلى خلفية هذا المستجد، أعاد الهفيركانيون الأضواء إلى ما كانوا عليه، عندما كانت إمارة بوتان في قوتها، وهم يسندونها، وربما الآن بصورة أقوى، حيث إنهم أنفسهم، كما يظهر- برزوا في الواجهة علانية، وهو ما أثلج صدور البدرخانيين، وهو

(1) جليل، جليلي: من تاريخ الإمارات في الإمبراطورية العثمانية، المصدر المذكور، ص 127.

ما يمكن متابعته، لحظة التعرف على نشاط كل من الأخوين: جلادت وكاميران، بصورة رئيسة في سوريا، ومع حاجو آغا، وهم يحضرون لأكثر من عمل مشترك، ووجهتهم: بوتان، أو كيفية التمكن من السلطة التركية، كما تبين ذلك في ثورة آغري سنة 1927، والتي تراكمت مع تأسيس جمعية خوييون، وكان لآل حاجو آغا ثقل ملحوظ: عددي، ونوعي في المنطقة بوجود سلطة فرنسا المنتدبة، وهو يتصرف كسياسي هذه المرة وليس كزعيم عشيرة.

ولا بد أن في دعم حاجو الثاني للبدرخانين أكثر من دلالة، أي إنه كان ينشد إقامة أكثر من كيان سياسي كردي بالمفهوم المتداول حينذاك، دون نسيان الطابع الزعاماتي الموجود كتأريخ لا يمكن تجاهله، وربما بنوع من المزج (قدم حاجو الثاني دعماً كبيراً لعودة البدرخانين مجدداً إلى كردستان وإقامتهم حكومة كردية مستقلة. ومرة أخرى أصبح الهفيركانيون بمثابة القوة الضاربة لبوتان. وقد انسحبت القوات العثمانية الموجودة في المنطقة أمام هجمات الهفيران، وأصبحت المنطقة كلها تابعة للأمير بوتان عثمان باشا. ولم «يحقق العثمانيون أية نتيجة من إرسال العسكر ضد جزيرة مرات عديدة، وقد وسع الأمير عثمان حدوده وأدخل ضمنها جولميرك وزاخو وعمادية وماردين ومدياد ونصيبين». (ص 65).

بعض مما يقوله جبو، وبعض مما هو مقتبس، كما في الاقتباس الأخير «من محمد أمين زكي» في تاريخه، تأكيد على أن العلاقة تتأصل من خلال وجود كيان سياسي يطمح لأن يكون أكبر مما كان عليه سابقاً، وهو ما تبين آنفاً.

حكاية القوة

الهفيركانيون، من حيث العلاقة، بدؤوا في موقع القوة، وليس من السهولة بمكان، أن يشار إليهم، ومن خلال قادتهم، وهنا يكون حاجو الثاني في مركز متنفذ، والأمر الآخر، هو أن النظر إلى إمارة قوية بنفوذها، وسمعتها في الأوساط الكردية، وحتى بالنسبة للعثمانيين، ومن زاروا إمارتهم، فإنها خلّفت إرثاً كبيراً في الجانب الكردي، بالمفهومين السياسي، ومعه: الثقافي، وهي في قوتها لا تصافح يدأ معينة، في موقع قوة معينة، إلا حين تكون جديرة بأن تسمى، وأقرب إليها من قوى أخرى كانت تتبعها عشائرياً، وعلينا هنا أن نشدد على عامل الغيرة والحسد وحتى الكراهية التي تولّدها علاقة كهذه، بين العشائر المجاورة من ناحية، وعلى مستوى الدولة من ناحية أخرى، ومساعدتها مع رؤساء عشائر مجاورة للنيل منهم.

ولا أظن أن القاريء، أي قاريء، بحاجة إلى فطنة أو نباهة، ليكون في صورة المستجد، أي حين يكون مدركاً بنوعية الخطر أو التحدي والذي يتمثل في الداعم الأكبر: حاجو، خصوصاً وأن رقعة بوتان اتسعت من جهة، وأن العثمانيين قد ذاقوا مرارة الهزيمة مراراً من جهة أخرى، وحيث إن الهفيركانيين لعبوا دوراً استثنائياً في هذه المواجهة العسكرية معهم، فاستحقوا لقب العدو الاستثنائي بالمقابل، أي في كيفية النيل منهم، ومن زعيمهم بنصفه القبلي ونصفه السياسي، إن جاز التوصيف، ولعل هذا «العدو الاستثنائي» يكلف الهفيركانيين كثيراً في محاولة الدولة تمزيقهم وبث التفارقة داخلهم.

وليكون كل مقتدر، يمتلك «موهبة» الزعامة، من حاجو الثاني، مروراً بعليكي بطي، وصولاً إلى حاجو الثالث، في مقام التلميذ المسكون بالمؤثرات، والمعلم الذي يفعل سلطته المكتسبة بقوى ذاتية، لا مجرد تزكية عُرْفية، ومغامرة هذه المكاشفة.

ذلك يحفز على معرفة أوسع بأنشطة الهفيركانيين/ الهفيركيين، وميكانيزم السلطة ومواقعها، وكيفية تداولها لديهم، وكيف أن حاجو الثاني، ومن ثم عليكي بطي وبصورة لافتة: حاجو الثالث عززوا تأكيداً لوجودهم خارج نطاقهم القبلي، وحتى العائلي بالمعنى الضيق للكلمة، ولماذا صرّف بعض الباحثين الأنظار عن مقام هذه العائلة، كما في حال مالميسانج، حين تعرض في كتاب معدّ من قبله ومؤلف عن عائلة جميل باشا دياربكري، وقد كتب في مدخل كتابه ما يلي (كل من قام بالبحث والدراسة حول الحركة القومية الكردية، يعرف أن بعض العائلات الارستقراطية والإقطاعية الكردية كان لها دور بارز في هذه الحركة وبالتحديد في نهاية القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين). وفي الصفحة ذاتها يكتب التالي (ينبغي معرفة التاريخ الكردي المعاصر بصورة جيدة ومعرفة هذه العائلات أيضاً، أمثال البدرخانين، جميل باشا، ومن بعدهم البابانيين والنهريين).⁽¹⁾

لماذا لا نذكر هنا عائلة حاجو آغا؟ من خلال موقعها الاجتماعي والسياسي، رغم أن حاجو آغا يُذكر في مجمل الأنشطة ذات الصلة بالقضية الكردية على مدى أكثر من عقدين من الزمن، وفيما بعد في الدراسات التي تعرضت لهذه الحقبة «1919-1940» حيث توفي حاجو آغا الثالث..؟ من جهة المجابهة والسيطرة على الأرض والتأكيد على الوجود الكردي والدعوة إلى كيان كردي.. ألا يمكن القول أن حركة حاجو آغا كانت

(1) مالميسانج «تأليف وإعداد»: عائلة جميل باشا الديار بكري والنضال القومي الكردي، المصدر المذكور، ص 9.

أول حركة وآخر حركة ذات صبغة استتهازية ومقلقة للفرنسيين والسلطات المحلية في سوريا ٩»، وهو ما سنشدد عليه تالياً.

وهناك مثال آخر، جهة تجاهل هذه النقطة التاريخية وهي مهمة، بالنسبة إلى كتاب ضخّم، وقد بُذِلَ في سبيله جهد كبير، كما هو مقدّر، وأعني به كتاب الباحثة الكردية أصليخان يلدرم «كردستان والحدود في القرن العشرين» إذ بالكاد يوتى على ذكر هذه العلاقات المتنوعة بالنسبة لهفيركان مع إمارة بوتان، أو البدرخانين. طبعاً هناك مواضع، يُذكر فيها حاجو الثالث، كما يذكر، عليكي بطي قبل ذلك، إنما في سياقات أخرى، حيث المهم هنا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، خاصة وأنها من مواليد نصبيين، وشهدت أحداث المنطقة، أو سمعت بها وقرأت عنها بالتركية، ولعل النسب العشائري هنا له دور في تجاوز جملة من العلاقات الهفيركانية مع إمارة بوتان، نظراً لوجود حساسيات تاريخية، كما هو معلوم بين هفيركان وأومريان، وتلك الخصومة بل والنزاعات الجانبية بينهما... الخ⁽¹⁾.

لا شك أن ذلك يتطلب مزيداً من التمهّص والمتابعة إلى جانب الحفر المتشعب في المغيّب تاريخياً، كما لاحظنا حتى الآن، وكيف أن حضور هفيركان ومن خلال حاجو، يفصح عن تأثير مجسّم على الأرض ومعتبر حتى من قبل الأعداء بالذات، ولا بد أن العثمانيين يأخذون ذلك بعين الاعتبار، أي يقدّرون هذه المتغيرات، وسبل التعامل معها، ومن موقع سلطوي.

إن سلطة ذات امتداد امبراطوري شمل ثلاث قارات، وهي على قدر وساعتها، لا تنسى من يمسه بسوء، كما تصف هي، حيث إن ردها يتنوع تبعاً لنوعية الخطورة، وهي بوضعها المحيطي الهائل، وكما في التعامل مع الكرد تحديداً، أي رفض الاعتراف بالهزيمة، وهي سليلة أمجاد وفتوحات كما تعرّف بنفسها، وهذا ما يجب التعرف إليه في دراسة السلطة ونوعيتها، ومن ثم نوعية «الاعتداء» عليها، لأن الخيارات على قدر الإمكانيات ومردودها الاجتماعي والسياسي.

(1) أشير إلى أن كتاب أصليخان يلدرم: كردستان والحدود، قد ترجمته عن الكردية، ونشرته الأكاديمية الكردية، مراجعة وتدقيق: الأستاذ الدكتور عبدالفتاح علي بوتاني، أربيل، 2016. أصليخان من مواليد 1960، وتذكّر جيداً بتراجيديا الحدود الكردية الممزقة (إنني أعيش في نصبيين، وهي على الحدود التركية- السورية، لهذا حُمِلت الحدود العبء الأكبر العائد إلى تلك الوقائع والذكريات «نالت هي النصيب الأكبر منها»... ص31. أي ما يستوقف ذاكرتها الشخصية، ويعرضها لمساءلة مجريات وقائع من صلب موضوعنا.

ولعل طريقة تعامل السلطات العثمانية، ومن قبل الباب العالي مع الكرد، أكثر من غيرهم، انبنت تاريخياً على كيفية التسلل إلى الداخل الكردي، واعتماد سبل الترغيب والترهيب، أو الكلام المعسول، ودق الإسفين، إلى هذا اليوم، حيث يجري تعميق هذه الروابط البنيوية، إلى جانب «ترميم» ما تم استهلاكه كثيراً وإضافة جديد إليه ليكون أصح، كما في تعامل السلطان عبدالحميد، حيث (استخدم دهاءه ضد أمير بوتان، إذ أقام علاقات ودّية معه وكان يقول للأمير عثمان «إنه مستعد لقبول كل مطالب الباشا والاعتراف باستقلال كردستان». وعن طريق هذه الأقوال والوعود كسب ثقة الأمير عثمان. ثم وضع فيما بعد خطة مأكرة تم بموجها إلقاء القبض على عثمان باشا وأخيه ونقلهم إلى ستانبول، وبعد بقائهما في السجن لفترة أطلق سراحهما، ولكن مُنعا من مغادرة ستانبول مدى الحياة، ومع أن بعض المقاومة استمرت في بوتان التي بقيت بلا أمير، إلا أن المقاومة لم تتجح ودخلت المنطقة تحت السيطرة العثمانية في عام 1889 م. ص 66).

وهنا ما يفصح عن قضية في غاية الحساسية، والتي تدفع بي إلى القول، بأن الكرد من خلال متفذهبهم، أو ممثليهم، أو المعتبرين زعماءهم، كثيراً ما يفتتنون بقوى الآخر في السلطة «عثمانياً/تركياً، فارسياً وعربياً» إذ يستدرجهم إليه، وقد برز فيه عنصر أنوثي، يعيش في الاستجابة له مع نشوة غلمته النفسية، سوى أنه تجاه نظيره الكردي، ولو كان وإياه من صلب واحد إجمالاً، فتجرفته ذكورة مطاردة في مواجهة نظيرة ذكورة مطاردة أخرى، فتضعفان معاً، في معترك تاريخي طويل المدى !

طبعاً، تلك أساليب الأنظمة الحاكمة في التعامل مع رعاياها، والذين تشتم منهم رائحة تمرد أو عصيان أو مجابهة، وفي الحالة الكردية، يكون الوضع مختلفاً، على قدر التحدي والمطالب، يكون التصرف، وكما رأينا، فإن المتعلق بمفهوم بات شائعاً، وهو «الحيلة» أو «المكر» أو «الخداع»... الخ، يلفت النظر، كما لو أن المتوخى أو المتوقع هو أن تتم مكافأة هذا الذي ثار في وجه السلطان، أو «شق عصا طاعته»، إذ إن قولاً كهذا، ولو أنه يأتي في سياق التغطية التاريخية لسلطين هفيران، سوى أنه لا يخفي ملمحاً مؤثراً ومأسوفاً عليه من هذه الإشارة، أي ما كان يجب أن يحصل خلاف الجاري، إذ في بنية علاقات غير متكافئة بين طرفين، بحيث يصعب - حتى - التقابل بينهما، نظراً لأن الطرف المسيطر: وهو الذي يمثل السلطة يرفض الآخر من موقع القوة، لأن النظر يعني نوع من المساواة، وهذا يتطلب اعترافاً معيناً، ليتحقق فيما بعد نصاب التقابل أو التناظر، أي وجود طرفين بينهما تكافؤ ملموس بصورة ما،

وهذا ما لم يحصل على الإطلاق، في كل عصور التاريخ، من خلال علاقة الكرد بالأنظمة التي استبدت بهم، أو فرضت سلطانها عليهم تبعاً، حيث إنه لطالما كانت عبارات من نوع «الأخوة في الدين الواحد» قبل كل شيء، تلعب دور التتويم المغناطيسي في احتوائهم، وتقريغهم من كل قوة أو حضور، وهم يصدقونها، أو يرونها متجاوبة مع مشاعرهم أو رغباتهم التي لا تكون موحدة أساساً، إنما ينظر إليها في إطار التنافر الكردي داخلياً، وهذا يضيف على هذه العلاقات أكثر من صفة المأساة والمهزلة معاً، وهي خلطة تسمي الكرد كثيراً.

في الجانب الآخر، لوحظ تاريخياً، أن جل أفراد العائلة البدرخانية كان يجري نفيهم أو إبعادهم عن عاصمتهم الأم: بوتان، ولم يُنل منهم بطريقة تعسفية، أو تصفية، كما هو المعتاد فيما بعد على أيدي الأنظمة المعتبرة حديثة، في القرن العشرين وحتى الآن، من خلال إنزال مختلف العقوبات الصارمة، وارتكاب ممارسات دموية مريعة من قتل مباشر وإعدام... الخ، ولحظة ربطهم بآخرين من ذوي الإمارات، أو المناصب العالية، وهذا يدفع بالباحث إلى اعتماد تصور مختلف، أو مغاير أحياناً تجاه أسماء معينة كالبدرخانيين، كما رأينا، فالمتوقع فيما قام به الأخوان البدرخانيان، عثمان باشا بالذات، هو القتل المباشر، أو الإعدام، كون المسلك معادياً، أو اعتبارهما خائنين، لكن ذلك لم يتم، وهو ما يعاين عن قرب، أي ما يترتب عليه من ردود أفعال أخرى، تكون السلطة أكثر مقدرة في تطويق الموقف، من خلال الكرد أنفسهم، حيث السلطة تبرز في موقع «الأب الرحيم»، والذي يسامح «ابنه» العاق هنا على غلطة مرتكبة، وما يعنيه هذا الإجراء من كسب ود الآخرين ولزوم عدم الوقوع في خطأ مماثل، لعل لائحة الخدمات المقدمة من قبل البدرخانيين لها دورها في تلوين هذا الموقف.

أما عن هفيركان، وفي شخص حاجو الثاني، فالأمر مغاير، إذ إنه من خلال متابعتي، كان التعامل مختلفاً مع هفيركان، ومع الذين واجهوا العثمانيين، هل لأن طبيعة المواجهة مغايرة لتلك التي تجسدت في الحالة البدرخانية؟

إن للسلطة تقديراتها الخاصة، وهنا تستعاد اللحظة البدرخانية، ولو لبعض الوقت، حيث يشار إلى الخدمات الجليلة التي قدمها بدرخان بك للدولة العثمانية حتى وهو في منفاه الكرتي، وهو شعور لا صلة له بنبل الأخلاق السلطانية، إنما بطبيعة السلطة وتنوع أدائها الوظيفية أو أدوارها مع الذين يواجهونها، ولهم خدمات مسجلة لصالحها.

(قبل الثورات بأعوام عدة وقف الأمير بدرخان العام 1838 إلى جانب العثمانيين في هجوم شتوّه على أمير كردي آخر وهو الأمير سعيد، ويحرز إسقاط قلعته، ويتمنح مقابل هذا، كما يذكر مولتكه، ضمن لواء من الجنود الاحتياط «رتبة عميد عسكري موجودة الاسم معدومة الجسم»، ويقبل تنصيبه حاكماً على بعض الأقضية... وفي العالم 1839، إبّان الحرب التي دارت قرب نيزيڤ بين جيش ابراهيم بك محمد القوالي وبين العثمانيين «يخرج الأمير بدرخان بما يقرب من مئة ألف مقاتل» من قواته العسكرية لإسناد العثمانيين بناء على طلبهم، مضحياً بثلاثين أو أربعين باسلاً من بواسل الكُرد، ويعود مشيعاً بالهزيمة وفي حالة بائسة⁽¹⁾).

ويذكر أيضاً أنه (كان بدرخان نفسه يحمل لقب متسلّم «أي متحصل ضرائب» الأمر الذي يوحي بأنه كان جزءاً من الإدارة العثمانية... وقبل عام 1847م كان بدرخان مخلصاً للعثمانيين ويساعد الحكام المحليين في حكم الأراضي الكردية. ولهذا كان شخصية معروفة ومحترمة في الهيكل الإداري العثماني في الولاية. ولذا يجب عدم الاستغراب من أن بدرخان لم يُحكم بالموت، حتى بعد قمع انتفاضته، بل وضع على قائمة الذين يتقاضون الرواتب من الدولة العثمانية.... بعد نفي بدرخان إلى كريت في عام 1848م مع اثنين من إخوانه وثلاثة من أطفاله، كان أكبرهم حامد البالغ من العمر 11 عاماً. وقد أمضى بدرخان عشرة أعوام في كريت، وكان دوره فعالاً في التحكيم في النزاعات المحلية بين المسيحيين والمسلمين بالنيابة عن الحكومة المركزية. ومقابل خدماته مُنح بدرخان، إثر عودته إلى ستانبول لقب «باشا» بمرتبة أمير أمراء «مير ميران في عام 1858م... لهذا لا يجب النظر إليه كشخصية في التأريخ الكردي..»⁽²⁾).

أمثلة تاريخية، كان ممثلو الباب العالي، يقدرّون من خلالها مكانة البدرخانيين، وخدمات بدرخان بك للباب العالي، وهي التي توقّفت تالياً، أي بعد ظهور الاتحاد والترقي، وتنحيّتهم جداً، على خلفية من النزوع القومي العنصري الطوراني «التتريكي».

(1) مالميسانج: بدرخانيو جزيرة بوتان ومحاضر اجتماعات الجمعية العائلية البدرخانية، ترجمة: شكور مصطفى، وزارة الثقافة (أربيل، 1998)، ص 41.

(2) أوز أغلو، هاكان: أعيان الكُرد والدولة العثمانية «هويات متطورة... وولاءات متنافسة... حدود متحوّلة...»، ترجمه عن الانكليزية: د. خليل علي مراد، الأكاديمية الكردية (أربيل، 2016)، ص 117.

ومن ذلك التغيير الجذري لاسم البدرخانين وإحلال «جنار» محله، وما في ذلك من إجراء متخذ على مستوى الدولة عموماً (لقب جنار هذا وضعه أتاتورك لتضييع أسماء البدرخانين، فهو الذي قال لواصل جنار: إن أسرتكم مثلها كمثل شجرة جنار «الدلب» ذات فروع وأغصان كثيرة، سأجعل جميع ألقاب أسرتكم «جنار»، وكما يذكر موسى عنتر في مذكراته: إلا أن أولاد أخي الكبير طاهر ظلوا بأي شكل كانوا خارج نطاق لقب جنار. وأنهم قد تلقّبوا بدورهم بـ «قوتاي» وهكذا فإن لقب جمال وكنعان كوتاي: قوتاي جاء من هناك.⁽¹⁾

وهذا يعيدنا أيضاً إلى مدى مكر رموز الاتحاد والترقي في التخطيط لكيان سياسي تركي محض، ومن ثم البدء بتتريك كل ما هو داخل في نطاق الحدود السياسية التركية المرسومة، تجاوزاً مع سياستهم الطورانية، وما فيها من تعالٍ على الآخرين.

وفي الوقت نفسه، ما يدفع بالذي سعى أتاتورك إليه لاحقاً، لأن يخرج من باتوا أتراكاً، وهم يفتخرون بوصفهم أتراكاً، وليس أن يخلجوا كما في السابق، حيث إن مصطفى كمال نفسه سمّي «أتاتورك: أبو الأتراك»، ويلغي كل ثقافة مغايرة، أي بصفته نسبهم الأول والأخير؟! ليقطع الطريق على أي نسب آخر، محطماً كبرياء من أن يراه من نسب «رفيع» ورافعاً من شأن من يرى نفسه في مكانة ما دون عادية، ومن خلال مفهوم «التركي» وجعله قومية استثنائية هنا.

أقول ذلك، تعزيزاً لنوعية العلاقة، وموقف السلطة من كل ذلك، في حساباتها الاستراتيجية بينما في حال حاجو الثاني، أو عليكي بطي أو حاجو الثالث، فلم يحصل أن كان لهم خدمات تذكر، أو رصيد «يشفع» لهم، ولهذا السبب نجد هذه المواجهة السلطوية، عبر استمالة حلفاء كرد، من عشائر مجاورة لهفيكران أو داخلها، كما حصل في عملية مطاردة الهفيكرانيين، وإلى جانب الدكشوريين: الخصم التاريخي لهفيكران، والنيل من حاجو بالحيلة هذه المرة.

وهذه الحيلة، تضاف إلى حيل أخرى معتمدة فيما بين الكرد، ومن جهة الحكومات في المنطقة في التعامل مع خصومها، أو أعدائها كأشخاص، وكثيراً ما تتصل بمفهوم «الشرف» العائلي أو الاجتماعي، مثلاً: أسر امرأة ما، بغية تسليم المعني بها

(1) مالميسانج: بدرخانيو جزيرة بوتان ومحاضر اجتماعات الجمعية العائلية البدرخانية، المصدر المذكور، ص 178.

تسليم نفسه، نظراً لمعرفة الجهة الآسرة في الدولة وغيرها أن ذلك الإجراء فعّال، وهذا ما ترتّب على مواجهة مسلحة بين قوات حاجو الثاني، والدكشوريين، ممن كانوا متحالفين مع السلطة، وهي معركة «جبل مافا»، وفي الختام يستغيث الدكشوريون بالدولة تأكيداً لهذا الموقف المضاد للأوى منهم «هفيركان نموذجاً»، وهو ما انتظرتة كما يظهر، وبعد مجابهات ومطاردات شتى تتمكن من حاجو الثاني.

نقرأ هذه المقتطفات من جبو(لا يوجد في المنطقة من لا يعرف شيئاً عن معركة جبل مافا التي جرت بين حاجو من جهة والقوات الدكشورية وقوات الدولة من جهة ثانية.. ص 68.. ويروي طاعن في السن واقعتها وعمره «90 عاماً»: كان ذلك في أشهر ربيع عام 1896.. ص 68.. ووفقاً للأخبار التي وصلت زعيم عشيرة سيدان محمد جبو: جاء فيها عن أن القوات التي يقودها حاجو مطوقة من قبل الدكشوريين وقوات الدولة، وأنهم كانوا في وضع صعب جداً، وأن الوحدات العسكرية القادمة من ديار بكر وماردين تضيق الطوق عليهم، وأن قوات الهفيركان تشتتت، وكان حاجو والقوة القليلة التي بقيت معه يرفضون الاستسلام.. ص 69.. وبالحيلة، وبحسب مشورة أحد الدكشوريين استدريج حاجو إلى الجيش العثماني فسلم نفسه وقد أوحى أنهم يأسرون زوجته، وكان متسلمه عدوه اللدود زعيم دكشوري: جمو والقاتل أيضاً.. ص 70).

أي حيث يجري قتله ذبحاً سنة 1896 !

وقبل الانتقال إلى إضاءة هذه الواقعة، ثمة ما ينبغي إيراداً أيضاً، ليكون المشهد أكثر وضوحاً بتفاصيله.

من جهة، حين يعلم القائد العسكري العثماني أعداء حاجو الثاني من الدكشوريين، ولجمو بالذات (لقد قتل هذا الرجل أشخاصاً كثيرين منكم، ونهب قراكم، لذا فإنني أكلفكم أنتم بمعاقبته.. ص 70).

ثمة ذكاء عملي، سياسي، ومشبع بالتجارب الفالحة تاريخياً، من قبل القائد العثماني، أي ترك أمر الانتقام للطرف الكردي، ليس لأنه كان عاجزاً عن قتله هو وغيره، وإنما لأنه يريد إظهار مدى رأفته حتى بألد أعدائه، وأن الدولة عموماً أكثر رأفة من الكرد الذين ينالون من بعضهم بعضاً بالطريقة هذه، ولكي يزيد القتل بالتالي في عمق العداوة بينهم وينميها أكثر.

ذلك يخطط للمستقبل، من جهة، التخطيط لكيفية ترسيخ نفوذ السلطة، ومن جهة ثانية، الاستمرار في عملية دك الأسفين بين الكرد، لا بل وتحفيزهم لأن يعادوا

بعضهم بعضاً، وأن يصفوا بعضهم بعضاً، كما الحال هنا، ويبدو أن الذهنية القبلية أو الريفية المحدودة لدى هؤلاء الذين انتشوا، أو ينتشون بطريقة إيلام فظيعة كهذه للآخر، يفترقون إلى رؤية كشفية لتداعيات الموقف أولاً، ولهذا الآخر الغريب الذي لا يكف عن إيجاد الأدوات المؤثرة في تعميق عداوات كهذه، تجعل المستقبل نفسه، ملحقاً بما كان ثانياً، والذهنية العدائية والمرضية بدورها استمرار لما كان، وهو دون حدود، طالما أن هناك تفعيلاً متجدداً لتلك الذهنية، وهي تُعدي وتستعدي.

الذبح الذابح

ماذا يعني فعل الذبح، بمفهومه التاريخي والرمزي كذلك؟ ثمة تاريخ موجع، ومؤلم عند تصفّحه، ولكنه مؤرشف تاريخياً، حيث يضيء هذه الصفحة المدماة في عصور مختلفة.

وضروية إيراد هذه المعلومة، لأهميتها، على الأقل، نوع من تعميق الأثر، وإظهار مشهد العنف هنا، وما يترجمه عنف كهذا، وربما يكون شرّاً أنواع العنف «كما شهدناه ولازلنا نشهدناه في ممارسات تنظيم داعش الإرهابي، وآلية قطع الرأس الدالة على تلك السادية أو شهوة الدم المتفق من الجسم، وقد فصل الرأس عنه، تحت تأثير عقيدة عمياء، وهي في لاشعور المقدم على فعلة فظيعة كهذه، بإنزال تغيير جذري في الشخص المذبوح، تتأكد صورته في نفوس المعنيين به، أو من يجدون لوجودهم معنى وقابلية استمرار كذلك:

(يعني قطع الرأس فصله عن الجسد، ويمكن أن يحدث عرَضياً أو طوعياً (إعدام). وفي هذه الحالة الثانية، يتم إجراؤها عادة باستخدام «تقطيع الرأس» (سكين، سيف، فأس أو مقصلة). وبشكل عام، في حالات قطع الرأس بالسيف أو الفأس، يجب على الشخص المدان أن يضع رأسه أولاً على كتلة، يمكن أيضاً إجراء قطع الرأس على جثة رجل ميت.

في الكتابات المسيحية أو بطريقة أكثر أدبية، نتحدث أيضاً عن «فصل» (قطع الرقبة) أو حتى «انفصال» (فصل عضو عن أنسجته). بشكل أكثر تحديداً، يميز علماء الآثار المصطلحين، ويتحدثون عن التصفيق عند إزالة الرأس من الجثة، من قطع الرأس عندما يتم قطعه أثناء وجود الشخص على قيد الحياة.

قطع الرأس كعقوبة إعدام «مشرفة»

لقد تم استخدام قطع الرأس كعقوبة إعدام لآلاف السنين، ففي العصور القديمة، عرف العديد من المسيحيين هذه الشهادة بما في ذلك القديس يوحنا المعمدان أو القديس بولس أو القديس دينيس.

وتأتي العبارات الفرنسية «عقوبة الإعدام» أو «جريمة الإعدام» أو «عقوبة الإعدام» من رأس الجذر اللاتيني «الرأس tête»، في إشارة إلى العقوبة على الجرائم الخطيرة التي تتطوي على فقدان الرأس.

وقطع رأس بالسيف (أو الفأس، سلاح حرب آخر) كان طريقة «مشرفة» للموت من أجل الأرستقراطي الذي كان، من العصور الوسطى إلى القرن التاسع عشر، محارباً من المحتمل أن يموت بالسيف في المعركة، في حين أن الموت على المشنقة، أو الحرق أو بوسائل أخرى كان ينظر إليه على أنه «مهين» من قبل هذه الطبقة. وهكذا، ففي بريطانيا العظمى، مورس التعذيب المسمى «شنق وسحب وإيواء» لمدة خمسة قرون لمعاقبة الرجال المتهمين بجريمة الخيانة العظمى، التي تعتبر أكثر وحشية من القتل.

وفي فرنسا، في ظل النظام القديم Ancien Régime، كان قطع الرأس، المسمى «الانفصال»، امتيازاً محجوزاً للنبلاء لإعدامات الإعدام، على عكس إعدام عامة الناس (الانفصال بدلاً من الفأس..) يعتبر سيئ السمعة.

واختلفت القيمة الرمزية للقطع حسب الأزمنة والسياقات. عندما تبنته فرنسا الثورية، اعتبر أنه يعكس مساواة معينة (لأنه في ظل النظام القديم، تم قطع رأس النبلاء، ولكن كان هناك العديد من العذاب للمنطقة الثالثة). وبالتالي فإن المقصلة هي تقدم حيث من المفترض القضاء على المعاناة.

إنما في الوقت الحاضر، مع تراجع عقوبة الإعدام في الغرب، والطبيعة العلنية لعمليات الإعدام في البلدان التي لا تزال تُطبق فيها للاستعراض، وطبيعة الجريمة الحميدة أحياناً التي يُعاقب عليها، تُعتبر بالأحرى طريقة بربرية ومتعطشة للدماء.

فإذا تم قطع الرأس على جثة رجل ميت، يتم بعد ذلك عرض الرأس، لإثارة إعجاب السكان و / وإذلال الميت، حتى للحصول على الانتقام منه، أو حتى لإثبات الموت عند الموت⁽¹⁾.

(1) La decapitation :fr.wikipedia.org

قطع الرأس، ويكيبيديا، بالفرنسية»

ذلك يعيدنا إلى بدايات موعلة في التاريخ البشري، وفي أمكنة قصية راهناً، حيث تتداخل عوامل كثيرة في مشهديات من هذا النوع، بناء على عقائد معينة، في النظر إلى مفهوم الروح، وحالة الجسد بعد الموت، والحالة النفسية لمن يقدم على الذبح، أو قطع الرأس، ومن يقوم بذلك: باسمه، أم باسم طرف معين، أكان رسمياً، أم خارج النظام السياسي، وفي أي زمان ومكان.

ولعل النظر في أسلوب في التعامل مع الآخر، وقد أخضع لعملية قطع الرأس، يكشف عن أن مفهوم الماضي، بما فيه من طقوس وشعائر، أو بنية ذهنية، لم يمض كلياً، كما رأينا في الاقتباس، بمقدار ما يظهر، ويشكل عنصراً مندغماً في ثقافة المحرّض عليه، انتقاماً أم تهديداً، أم مجرد شعيرة طقوسية، أم بتكليف أو تحفيز من نظام سياسي، ليكون في ذلك تعميق لأثر الإرهاب أو الخوف الأكثر إثارة للرعب، وهو الأبقى بصداه في النفوس.

ولعل الدال على ما تقدّم أنه يظهر الموقف من الآخر، ومكانته، أو جبروته، وبالتالي يكون هذا الإجراء سعيّاً إلى كيفية محو هذه الصورة، وبث إعلام بذلك، ويكون الشخص نفسه، أي من يقوم بهذه العملية، مهيباً لذلك، كما لو أن قطع الرأس وحده يعيد إليه توازنه، وينشّط فيه مخيلاً بطولياً، والتصرف كما لو أنه اكتسب حضوراً نوعياً بين الناس.

والأمر الآخر، وهو يضئ مغزاه، وهو يظهر لنا مدى معرفة الكرد بأمره، تحت وطأة ذهنية قبلية وإقطاعية مستدامة.

مالذي يفصح عنه فعل قطع رأس الإنسان من قبل سواه: ذبحاً ؟ سؤال يتكرر جرّاء واقعة صادمة كهذه؟

كما قلت، وكما يمكنني أن أضيف هنا، ومن خلال متابعتي كذلك، أنه من المعلوم، لمن يهمه موضوع كهذا، عن أن الذبح أسلوب حيواني، أي ينعطف على الحيوان بالذات، ومستقلاً من مجتمع رعوي، ربما حين كان الحيوان، بحسب المكان وبيئته سلعة رمزية معتمدة، ويعني ذلك أن ذبح إنسان، ليس أكثر من إنزاله إلى مرتبة الحيوان، وما في ذلك من إهانة لا تقتصر عليه وحده، إنما على أهله بالمقابل، وكل من له صلة قرابة به، وبالمقابل، فإن لذلك صلة مباشرة بذخيرة الحقد المتعاظمة عند الذابح بالذات، كما لو أنه بوضع كهذا يتمكن من تهدئة نفسه المحتقنة، وبالتالي، يستطيع أن يهرب طرف الخصم أو أهل المذبوح بالذات.

لا يعود المذبوح ممتلكاً لصفة الإنسان في الحالة هذه، وقد فصل رأسه عن جسده، كما أن فعلاً كهذا يستجيب، كما تقدم، لميكانيزم العنف المكبوت والتاريخي لدى الفاعل، وتوهمه أنه بالطريقة هذه يمكن أن يعوّض عما كان يفقده. إنها استعادة تاريخ رحّالة، مؤقتاً، وتركه جانباً بعد ذلك.

لكن فعل الذبح في الوقت نفسه ترجمة ذاتية لدونية الذابح، لمجتمع يتواصل مع لغة الدم الخاصة، لأنه عندما يأتي على ذبح آخر، إنما يقيم علاقة حيوانية معه، وهو ما يتنافى مع كونه إنساناً سوياً، مهما تردد في ذلك من كبت أو ضغينة، والإيحاء بأن ما قام يعلي مكانته⁽¹⁾.

(1) من باب المفارقات الكبرى، والتي تظهر فظاعة عملية الذبح بالسكين أو الخنجر، أستعيد إلى الذاكرة العمل الموسوعي للباحث العراقي عبود الشالجي: موسوعة العذاب، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط2، 1999، وهو في سبعة مجلدات، حيث يندر وجود إجراء مماثل من هذا النوع «الذبح» فثمة إيذاء الناس، والشنم، مثلاً، في المجلد الأول، والضرب والصفع في المجلد الثاني، والحبس والقيد في المجلد الثالث، والتعذيب بالطعام، والرش على الملح، والسمل في المجلد الرابع، والقتل غدراً في المجلد الخامس، وكتم الأنفاس والإحراق والتعذيب بالماء المغلي في المجلد السادس في المجلد السادس، والقتل بالجوع والعطش والمثلة... الخ، في المجلد السابع... بينما يندر أو ينعدم ما أشير إليه في المتن.

ومن المفيد هنا النظر فيما أثاره الباحث الإيراني خافار، فرهاد خسرو، في كتابه: الأصوليون والعمليات الاستشهادية، ترجمة: جهيدة لاوند، معهد الدراسات الاستراتيجية، بيروت، بغداد، أربيل، ط1، 2007، كما في قوله (يعرض القتل كعمل ذبح مقدس «كما يذبح الخروف» ويمتد ليشمل عدو الإسلام. العدو كحيوان يحلل ذبحه، اللجوء إلى السلاح الأبيض، يهدف، من جهة، إلى تعزيز هذه الفكرة، ومن جهة أخرى، إلى التذكير بوقائع مسلمة لأبطال في الإسلام. ص 116).

ومن المؤكد أن الذي لجأ إليه جموع لا صلة له بما هو متردد في كتاب خافار، وأن فصل الرأس عن الجسد في الحالة الأولى ترجمة بليغة عن عدائية، لا بل عن عنف سافر، وعلى مستوى أرضي، بينما في حالة خافار، وهو يركّز على أصولي اليوم المتشدد، فهم يذبحون الآخرين من باب المثلة جوازاً لهم لترهيب «أعدائهم»، ولاعتقادهم أنهم بذلك يعبرون عن نظرتهم إلى المذبوح وأنه ليس في مستوى الإنسان الذي يركّزون عليه، إنما في مقام الحيوان، فيذبحونه، ويبعدون الرأس عن الجسد، لخلق المزيد من الرعب، ويدفن الجسد بدون رأس، أو مفصلاً عنه... الخ.

وربما تخيل ما يكون عليه التعامل، بخصوص العنف العائلي، بالنسبة للسلطين والشاهنشاهات، وهم يتربصون ببعضهم بعضاً. ينظر في كتاب نزار قازان: سلاطين بني عثمان: قاتل الأخوة وفتنة الانكشارية، دار الفكر، بيروت، ط1، 1992، وكذلك ما أتى

ويظهر أن جمو تميزّ بخاصية عداة تاريخية مضاعفة أكثر من الآخرين، ومنهم أحد قادة دكشوري وهو اسماعيل آغا الذي عارض قتله (إن رجلاً باسلاً مثل حاجو يجب ألا يقتل ص 71)، طبعاً، وكما يقول جيو، لوجود صداقة بين آل شمدين التي ينتمي إليها اسماعيل آغا، وبين آل حاجو، سوى أن جمو أصر على النيل منه، وفي المختّم يذبحه بالخنجر، إلى جانب اثنين من رفاقه، وهما من الإيزيديين (وقام جمو بوضع الرؤوس الثلاثة المذبوحة في خرج وألقاه على ظهر الحصان. إلى أين؟ لأجل أن يسمع الأصدقاء والأعداء بالنصر الذي حققه !!، وخصوصاً أعدائه الهفيران لتخويفهم سيما وأن معه قوة عسكرية كبيرة تدعمه.. ص 71).

طبعاً، في الإمكان معاناة هذه «المجزرة» في أبعادها الثقافية، وهي التي تشكل عرابة علاقات اجتماعية، ومن يجدون أنفسهم في ظلها، مأخوذون بها، ومسكونين بالوجود، باعتماد سياسة مريعة من هذا النوع، وهو الذي يعطي صورة مكبرة للثقافة هذه، ذات اتجاه وحيد، إذ إن الانخراط في مثل هذه اللعبة، والتي تقوم على فعل افتتاني، وما في متن العلاقة هذه، من تقابل بين سخونة وبرودة: سخونة الجاري النيل منه، ليس الاكتفاء بقتله بالرصاص، أو طعنه، حيث يكون هناك سفك دماء، من نقاط معينة من الجسم، وحتى من الرأس أحياناً، ويبقى الجسم في كليته، وإنما تصفيته بطريقة وحيدة دون أي من الطرق الأخرى: الذبح، أو قطع الرأس، وهنا يختفي سلوك

الدكتور حسن الضيقة على ذكره في كتابه: الدولة العثمانية «المجتمع والسلطة»، دار المنتخب العربي، بيروت، ط1، 1997، ص 75، وبالمقابل، فإن كتاب عبد الكريم رافق: العرب والعثمانيون 1516-1916، مكتبة أطلس، دمشق، 1974، يشير إلى اقتتال أخوي في البيت السلطاني، والتآمر الجانبي عليه، وصلة ذلك بالصراعات الحدودية: العثمانية والصفوية، حيث (ازدادت العلاقات العثمانية-الصفوية تآزماً، في مطلع عهد السلطان سليم الأول «1512-1520»، حين ثار عليه بعض أخوته الطامعين في الحكم. فلجأ أحمد، ابن أخيه الثائر، إلى الشاه اسماعيل، الذي استغل وجوده لتأليب المعارضة على السلطان سليم. ص 56)، وهذا يخص الآخر: المملوكي، إذ (مما زاد هذه العلاقات سوءاً إيواء المماليك للثائرين على السلاطين العثمانيين، مثل الأمير جم، ابن السلطان محمد الثاني، الذي ثار على أخيه بايزيد، حين خلف أباه في السلطنة في عام 1481 ص 59)، وفي مبحث جمال كفادار: تكون الدولة العثمانية، في مجلة «الاجتهاد»، المصدر السابق، ص 71، إذ كلها عوامل تسخن العلاقة وتفعّل العنف السلطوي على مستويات مختلفة.

وللتوسع أيضاً، كتاب هـ. ج. ويلز: معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط4، 1994، م3: خلافات عائلية عنيفة بين أفراد الأسرة العثمانية. ص 943... الخ.

القتل المعتاد، ونكون إزاء دماء حارة، وهي تهرق من نقطة غير مفكر، أو فظيعة، عبر الفصل بين الرأس والجسد، وفي ضوء هذا المشهد، يكون الدم في أكثر حالاته انفجاراً تعبيراً عن العنف المكبوت عن أكثر حالاته فظاعة وإرهاباً قيمياً، أي بما أن الدم ينبثق حيث لا ينبغي أن ينبثق في شكله الذي يلغي ما هو إنساني في الشخص، حيث الدم يهدد سلامة الجسم بكامله ودونما رجعة، وفي المقابل، يكون ما يُسمى بـ «الدم البارد»، إنه الدم الذي يدعو إلى الالتحام بالآخر، كما أن «الناقص الحدي» يقابل «الإيجابي الحدي»: دم بارد لا يخرج إلى الحياة، ويعيد إليه درجة حرارته السوية، كما هو مزعوم، إلا المقدّر من الدم المنبثق، حيث لا بد أنه سيجمد بعد حين، لصالح الدم المحفوظ في عروق الفاعل، وهي الدرجة القصوى في التضاد الصادم، أي ما يعرّي ثقافة فالقة تصلنا بزمان غابر، حيث كان الإنسان أبعد ما يكون عما هو «مدني» دابّ على اثنتين، وهو يضيفي على دم الآخر، أي المعتبر خصمه قيمة استثنائية، ليلغيه من الوجود: افتراس اللحم، ولعق الدم، وطحن العظم، تبعاً لثقافة سائلة ومقدّرة.

وهذا ما يذكرنا مجدداً بما يلفظه من يصل به الغضب والسعار النفسي المحسوس إلى حالة من الهستيريا في موقف من المعتبر عدوه أو خصمه: سأشرب من دمه *ezê xwîna wî vexum*، سأمضغ لحمه *ezê goştê wî bicûm*، وحتى على سبيل المداعبة الثقيلة في خلفيتها التاريخية: فلان مهضوم، تشبیهاً له بالطعام، أي ما يصلح للأكل، وما يرد في أغنية كهذه من باب هذا التأكيد «أكلك منين يا بطلة، أكلك منين- في فراولتين ع خدودك- حلوين حلوين» وهو تشبيه يُخص به الصغير طبعاً، والمشتهى كطعام بالمقابل، وحتى بوصفه مستساغاً كشراب، أو ما يقوله أحد عن نفسه في موقف مضاد، وهو محتد «أنا لحمي مر لا يؤكل» ما بيتأكل - أنا عظمي قاسٍ.... الخ

هنا يحال الآخر، محطّ اعتبار السلب، في الدرجة الدنيا من التقدير، أي بوصفه شراً، والشر هنا لاعب رمزي وخفي رئيس في النفوس، حيث يوجّه الضمائر، ويترأس أفكاراً، ويدرب مشاعر وسلوكيات شديدة الإيلام هنا، والشر أيضاً في عراقته الميتافيزيقية، يبدو أنه يغذي فينا فولكلوريات عنف مختلفة، وأوج هذا العنف، بوصفه الشر الكارثي أخلاقياً، من وجهة نظرنا، وخارج معترك هذه الثقافة، ويستجيب لقائمة من الدوافع البشرية التي تؤكد طابعها السيادي اللافت على الكثير مما يفكر فيه البشر، ويقومون به، كما في الحروب الكبرى، والمجازر الجماعية، ويأتي الخير في الدرجة التالية، أو الدنيا، كما له معدوم الأثر، منزوع الصوت، غير قادر على «وقف

الشر عند حدّ» وهو داخله أساساً، ودون هذا الذي نراه ونسمع به من انتهاكات وفضائح وجرائم حرب وغيرها، وحتى في تلك الأفلام التي يكون العنف الدموي محرّكها الرئيس، ويُقبل على مشاهدتها، أي «أفلام هوليوود» خصوصاً، لا يشكل تنفسياً للعنف المكبوت، وإنما إعادة دورة العنف بالذات، وتعزيزه، ليكون معتمداً في حالات مختلفة، ومن هنا، فإنه (في التمييز ما بين الخير والشر، يكون الشر هو المدرك أولاً. ذلك لأن الشر هو بالدقة ما يضعُ المشترك على المحك، أو المشاركة... الخ)⁽¹⁾.

ما يمكن قوله فيما تقدم، ما الذي يمكن قوله فيما تأخر؟

أولاً، بالنسبة لجمو، تردّد سابقاً، أنه غريب عن هفيركان، ولسان الراحل الدكتور بنكي حاجو، أي باعتباره معدوم القرابة مع آل عثمان، أي مع آل حاجو (وكان يرأس عشيرة صغيرة فقط وتعامل مع الدولة التركية ص 21)، وحيث أشرنا سالفاً أيضاً، ومن خلال مذكرات جميل حاجو، إلى أنه كان (من نفس عشيرة حاجو- آلكا- وكان يرافق الجنود في بحثهم عن حاجو ص 35)، ذلك يعني استبعاده إلى الخارج، أي من عشيرة متحالفة في نهاية المطاف، رغم أن رواية كهذه لا تبعده كثيراً، عن القرابة العشائرية، استناداً إلى رواية جميل حاجو هفيركي. عدا عن ذلك، كما لاحظنا، فإن خط النسب ليس دقيقاً، كما هو جدار الفصل العازل في جغرافيتين، إنما هو مصطنع، إذ لا يُستبعد أن ترجع مجموعة عشائر دكشورية وهفيركانية إلى أرومة واحدة، وأن العداء المستفحل في لحظة ما، آذّر تشطييراً بينهما، كما الحال في الانشطار العدائي داخل عائلة عثمان بالذات، جهة التفريق بين كل من عائلة حسن الأول وعائلة سرحان الأول، وهما من حاجو الأول، وتالياً، وبصورة معمقة بين جلبي وحاجو الثالث، أو عليكي بطي وجلبي.

ثانياً، إن إزاحته جانباً، وبالطريقة هذه، يكون قد أعفيت القبيلة، أو هفيركان بالذات من لسعة الضمير، أو إثمه، لأن أحد أفراد الاتحاد الهفيركاني كان وراء قتله بالطريقة البشعة تلك.

ثالثاً، صحيح أن الدولة لم ترد قتله مباشرة، سوى أنها ارتاحت لطريقة قتله، ولا بد أن ذلك تم على مرأى من أعين معنيين بها مباشرة، وهذا يضاعف من «نشوة» هؤلاء، ويطيل في أجلها، انتظاراً لـ «حفلة» الدم المسفوك بثارات متلاحقة.

(1) باديو، آلان: موجز ميتابولتك السياسية، ترجمة: حسين عجة، دار سطور، بغداد، ط1، 2019، ص 29. و«ميتابولتك» ما وراء، أي ما هو أبعد من الظاهر في السياسة.

رابعاً، بالنسبة لإسماعيل آغا، صديق حاجو الثاني والذي امتنع عن قتله، أكان حقاً غير قادر على منع جمو من القتل، أو أن يدع القتل على القتل يتم من قبل أعداء الكرد العثمانيين، وبطريقة لا تكلفه كبير جهد، خصوصاً وأن جمو وكما يعرف به، ينتمي إلى عشيرة محدودة الشأن، فمن أين يأتي الحذر المبالغ فيه إذا؟

خامساً، وهذه النقطة على صلة بتلك الطريقة المعاملاتية بين العشائر أو القبائل أنفسهم، وهي تكون متفاوتة في القوة، وهذا التفاوت يبقى الأقل قوة في منزلة التابع أو الأدنى مرتبة، مع ما يتبع ذلك من مقام محدود أو شأن ضئيل، وفي حالة واحدة قد تكتسب العشيرة الصغيرة مكانة، وهي أن تبرز في موقف معين من خلال قوة مضاعفة، أو عمل مرهوب الجانب، ويظهر أن جمو كان يفكر من هذه الزاوية، وبطريقته تلك، اعتقاداً منه، أنه بذلك يكسب المكانة المنشودة تلك، رغم أننا قرأنا في المسطور في كتاب بروينسن «ج1، ص 232»، أن جمو هو زعيم الدكشوريين.

بالنسبة لجبو، طرح بعض النقاط، وهي مشهدية، في العلاقة بين جمو وخصمه حاجو الثاني، بمقدار ما أنه أبرز «هويته» الاجتماعية والثقافية في علاقته مع المسئول العثماني «العدو الألد» لحاجو ومن وراءه، سوى أنه اكتفى بمثل هذه المعلومة ذات الطابع الحكائي، وترك أمر التأثير، وحتى السؤال عن حقيقة أخرى يخص حقيقة جبو على مستوى القرابة، ودور القرابة هذه في بنية العلاقات الاجتماعية. إذ ثمة فرق، وهو كبير، فيما لو أحتسب جمو من داخل هفيركان، أو من العائلة بالذات، حتى لو كانت القرابة بعيدة.

الأمر الآخر في هذا المَعْلَم الانتقامي، أو الكيدي المستفز للخيال، هو توقع ما يشكّله صدى واقعة «ذبحية» كهذه، خارج نطاق العشيرة، وما يترتب على هذا الفعل من تعليقات، لا بل وما يخل بميزان توازن الاتحاد القبائلي عينه، خصوصاً، وأن الاتحاد المذكور، ليس كما يشار إليه، وقد تعرض لهزة قاعدية، أثار فيه تشظيراً، حتى داخل عائلة/ أسرة أو صمان / عثمان بالذات «جلبي، سرحان» وما تشكّله «خدمات» مثيرة كهذه، من تغيير في مفهوم القوة ومن يكون الممثل الرئيس فيها، عندما نعطي الزعامة أو القيادة حقها في التسمية، وهو ما تنبّهت إليه هفيركان عموماً، واستشعرت مقدار الخطر الذي يتهدد هفيركان عموماً، جهة انتقال الزعامة، وانعكاسها على الوسط العام، وجهة الموقف من القوى العشائرية الأخرى، والتأثير الإيلامي الكبير على عائلة حاجو هذه المرة، وهذا يعني أن تأكيد نفي وجود أي علاقة بين جمو وعشيرة حاجو «آلکا» ربما للتقليل من فداحة الموقف، ومن تداعياته في المحيط الاجتماعي، والخوف أن يكون ذلك إيذاناً من نوع آخر، لتتلقى العشيرة انتكاسة أوجع وأفظع.

إنما ثمة ما يجدر التوقف عنده، حيث إننا نجد في رواية جكرخوين توصيفاً آخر لعملية القتل.

وهذا يعيدنا إلى مسألة الشهادة ذات الصلة التاريخية، ومن لدن ذاكرة لها بنيان شعري إجمالاً.

حيث إن جكرخوين، وبعد العبارة التي يشير فيها إلى اختفاء حاجو الثاني في الجبال هرباً من الملاحقة، يقول (لكن حاجو رأى يوماً امرأة محمولة بين عساكر العدو، يسيرون بها إلى مدياد. وخيل إليه أنها امرأته «عائشة» والصحيح، كما يظهر، كما ذكر الاسم في كتاب جبو، وذكر في مذكرات جميل حاجو، هو أنها: زينب، ولعل جبو هو الذي أخذ الاسم المسجل خطأً من جكرخوين تبعاً للتسلسل الزمني، ملاحظة من ابراهيم محمود). ولذا ودّع صديقه وقال: «الموت أفضل بعد الآن، كان الشرف قد بقي وها هو أيضاً وقع في قبضة العدو. سأسلم نفسي إلى أيدي الأعداء، لتلايق شر في أيديهم..)، تالياً يكتشف أنه خدع أوتوهم، وهو وسط الأعداء (لكنه لم يستطع أن يتراجع واعتقلوا حاجو وأصدروا أمراً بقطع رأسه. ورئيس بعض قرى توراباني «جمو» الذي كان يسكن في قرية «هيشترك» وكان عدو حاجو، قطع رأس الآغا). ويذكر بدوره رئيس الدكشوريين هذه المرة: الآغا اسماعيل، ساعياً إلى منع قتله، لكن حاجو قتل.. ويقول والذي استفاد في المحصلة هم (فقط عدو الشعب الكردي)، في الصفحة ذاتها، يشير إلى هوية جمو القبلية، لحظة الإشارة إلى أن القاتل لم يكن تركياً، وهنا تكمن المأساة (فالذي قطع رأس الآغا كردي، وهفيريكي من «توراباني» إنه «جمو»). كيف سنأخذ بثأرنا؟ أفواحد مثل جمو يقتل آغا الهفيريكيين ص 47).

طبعاً، في الوسع البحث في بنية العلاقة بين حاجو الثاني وزوجته الموصوفة في النص، ومدى تعلّقه بها، ربما ليس لحب خاص مستثنى به، إنما ربما لوجود علاقة اجتماعية قائمة بين الرجل والمرأة في الوسط الهفيريكاني، جهة القيمة المعطاة للمرأة، خلاف المحيط بها في المنطقة كثيراً.

إن امرأة يُقتل رجل «وهو غير عادي» باسمها هنا، يفصح عن هذه المكانة، وهي جدارتها في أن يُضحى باسمها، أكثر من مجرد عنصر الحيلة لدى الخصم، مقابل الاعتبار الوجداني عكسه.

رواية أخرى، تستدعي النظر، والمقارنة بينهما هنا، ولا بد أن الموقف يختلف في كل حالة، وربما كان الأقرب حتى الآن، للحقيقة، هو أن جمو وإن كان غير منتم إلى

هفيران كقبيلة مباشرة، سوى أنه داخل في حلف معين: عشائري، أي من خلال عشيرة معينة، كذلك التي ألح إليها جميل حاجو بالذات، حيث يسهل هنا تقدير دافع البغضاء في نفسه وخلفيتها في نفس جمو، وما الذي كان يخفيه الدافع ذاك، وهو الذي انتهى بمثيله: أي قتلاً، ولو بطريقة أخرى، كما يتردد أحياناً!

وتتنوع الروايات مقارنة بجسامة الواقع، فالمغдор ليس عادياً، لينسى أمره، وبالتالي فإن روايات كثيرة، تعني مكانة استثنائية أكثر للمغдор/المقتول، وجهة القائمين بفعل القتل، كما لو أننا أمام أدوار متشابكة، علنيها، وخفيها، بلعبة سلطوية محبوكة.

إنها لعبة الذاكرة في الصميم كذلك، كما يقول تاريخها الصوتي والمسجل معاً. أي: الروايات ومدى ارتباطها بالمواقف ذات الطابع السياسي، ومن ثم تداعياتها، جهة الذين شكّلوا عناصر اللعبة، والذين كانوا محفّزين على الانخراط فيها إلى نهايتها، والذين تابعوها عن كُتب «جهة الدولة العثمانية طبعاً»، والذين رووا الواقعة، كما نُقلت إليهم، وما يمكن التفكير فيه، في الربط بين هذه الرواية وتلك.

أعني بما تقدّم حتى الآن، أننا إزاء حرب الذاكرات من جهة أخرى، وهي ساخنة، تحريضية، صادمة، بالغة العنف في مؤسساتها الثقافية ومن يشدّد على تفعيل أثرها، وليس المدونات التاريخية، لأن المكتوب يستند إلى رواية شفاهية في مجمل الأحوال، وفي كل رواية يحضر الشخص الراوية وموقعه وثقافته، ومن يكون في علاقته بمحتوى روايته.

في رواية جميل حاجو هفيريكي، ثمة تنوع في سردية الرواية، إذ عدا عن تبعية جمو للعسكر العثماني، يكتب استناداً إلى أسلوب الرواية الشعبية، وهو لا يخفي سرداً له منحى عاطفي متأثر بالواقعة تلك، لا بد أنها مرتبطة بطبيعة الموصوف، كما قلت(ولم يئسوا من العثور عليه، أي حاجو، لجأ هذا الخائن إلى طريقة خسيصة للقبض عليه، فقد دس بعض «بعضاً» من أزماله بين الناس وأشاعوا خبراً كاذباً مفاده أن إحدى الوحدات العسكرية قد ألقت القبض على زينب زوجة حاجو التي كانت مختبئة في مكن ما، نظراً لعدم تمكّنها مرافقة زوجها لأنها كانت حاملاً «حاملأ» بوالدنا حاجو...فما كان منه إلا أن قرر تسليم نفسه حرصاً على إنقاذ عرضه وشرفه حسب تقاليد الكرد، وتم ذلك بالفعل.

ثم: كان جمو يعرف حق المعرفة أنه إذا لم يعدم حاجو فإنه سيكون هو في عداد الأموات، لذلك بذل كل جهده لإقناع قائد الحملة بإعدام حاجو فوراً، وفي المكان الذي سلم نفسه لخشيته من أنه إذا أرسل إلى القضاء قد لا يعدم...الخ ص36).

كما قلنا سالفاً، ما عدا هذا التوشيح العاطفي، فإن هذه الرواية أقرب إلى المنطق التاريخي، وهي في محتواها، تقرّبنا من نفسية جمو بالذات، كونه أدرك أن ما قام به لن يغفر له، وعلى يد حاجو بالذات، وأنه لا يمكنه الرجوع عن قرار القتل، وهو تابع للجيش العثماني، فلم يجد بداً من القتل، سوى أن قتلاً بالطريقة السالفة «ذبحاً» تضعه في مواجهة السؤال الأخلاقي، وما كان يخبئه في نفسه من ضغينة أو كراهية وتشفّ ناحيته، وتوق إلى سلطة مفتقدة.

وربما كان الذي أورده جبو تالياً بصدد تمادي جمو في استفزازه للمعنيين بحاجو الثاني تأكيداً على هذا الغل، حيث إنه، وبعد أن أحدث صدمة كبيرة وسط هفيران، وأعلنوا حداداً «ص 72» خاطب محمد جبو وهو في بيته ومع جمو مسلحوه عن أن يحمل ما يفرحه من باب السخرية (رقية حلوة من رقي مدياد . ص 73)، وفي خروجه وقصده رأس حاجو المذبوح، وعلى إثرها طرده جبو.

وهي حالة انتشاء قصوى، لأنها تفقد الفاعل رؤية ما يمكن أن يحصل جهة إثارة الآخر وهو لا يستهان بقوته الجماعية.

ويشير جكرخوين إلى أن زوجة حاجو كانت حاملاً (وبعد مقتل الآغا ببضعة أشهر وضعت حملها وأطلقت عليها اسم حاجو على ابنه . ص 48).

هنا علينا التوقف عند نقطة أخرى، تتعلق بالنقاط المذكورة سابقاً، وتوضيحها، كما تتضح بها، وهي خلافية، أي بسيرة التاريخ العائلي، حيث إن جميل حاجو هفيريكي يسمعون رواية تلفت نظرنا مغايرة للمتعدد عن جمو ومن يكون.

إذ بعد ذبح حاجو، نقرأ (انتقلت رئاسة القبيلة إلى حمد، أخ حاجو الأكبر وله أخ آخر اسمه بطي/بتي، وبدأ الصراع بينه وبين جمو الذي أصبح ذو «ذا» نفوذ قوي في القبيلة وذلك بدعم مباشر من الدولة العثمانية بالإضافة إلى دعم عشيرة الدكشورية له.... لاحقاً، وبدعم من جلبي وسرحان ابن سَروخان وقد بلغا سن الرشد لعمهما حمد، وعرف عن جلبي بأنه كان ذا: إرادة قوية وذكيا.. وبدأ يمسك الأمور تدريجياً، فتنازل له حمد عن سلطته لهذا السبب و: شعرَ جمو أن حياته أصبحت في خطر بعد أن تخلى عنه القسم الأكبر من أنصاره فلم يبق «يبيق» أمامه سوى الفرار إلى خارج حدود القبيلة والالتجاء لعشيرة الدكشورية هارباً من انتقام جلبي منه لمقتل حاجو... ص 37).

هذه الرواية تلفت أنظارنا، من جهتها كذلك، إلى واقعيتها أكثر، وحدة التخيّل الدرامي فيها، من جهة الصراع الدائر داخل القبيلة بالذات، وعلى مستوى درجة القرابة، حيث إن القرب هو الأكثر أهلية ومطالبة للقيام بما يلزم:

جهة الصراع بين حمد أخ حاجو الأكبر وجمو المنتمي إلى القبيلة، وهما أكثر من مجرد شخصين، أو جماعتين عاديتين.

جهة الصراع بين جلبي القريب المباشر لحاجو الثاني، أي باعتباره ابن سَروخان الذي يعد ابن عم حاجو الثاني.

تنازل حمد عن زعامة القبيلة/الاتحاد لجلبي باعتباره الأكفأ، وربما لوجود حسابات جانبية، وللتذكير، فإنه جائز أن الذي أفصح عنه بروينسن عن تصريح الزعامة في القبيلة أو الحمولة، أشار عن أن التراتبية ليست شرطاً مفصلياً: قاعدياً، إنما قد تُسمّى الزعامة شخصاً من مرتبة أخرى، تتوفر فيه صفات لافطة، من فطنة وشجاعة وعدل، وحنكة... الخ، وسمّى ضمناً «قبيلة هفيركان. ج1، ص 183»، أي كونه انطلق من دراسة ميدانية، وما قاله آنفاً يشدد على ذلك.

ولكن، أهي مصادفة أن برز سرحان فيما اختطه لنفسه خارج المستساغ كردياً في عائلة أوصمان، حيث التحق بمجموعة من فرسان هفيركان الفرسان الحميدية، وقد لبسوا الكوفية والعقال وليس اللفة والطاقيّة، كما هو لباس رجال القبيلة، أي من باب التمايز (وبالرغم من هذه التدابير لم يحصل على لقب الباشا أما السبب فإني أجهله. ولكن الملفت للنظر هو التنظيم في ذلك الزمان الذي كان غريباً على المجتمع الكردي العشائري.. ص38)⁽¹⁾.

إشارة لها مذاق المرارة والتهكم في الوقت نفسه، ويبث في ذاكرة الراوية ربما ما لم يفصح عنه صراحة، لأسباب قد تعود إليه، أو أغفلها، أو لم يرد تسميتها لغاية في نفسه، أي ما يقودنا إلى العدو الأكبر: عدو الجميع الممثل في دولة السلطان، أو حكومته، وفي الذين يمثلونها في هذا الشأن ولهم تقويمات لمن يتعاملون معهم، جهة الأوسمة، أو الألقاب والمكرّمات «الاعطيات».

وربما لو أننا توقفنا عند نقطة النهاية، لجاز القول عن عدم حصول سرحان على لقب «الباشا» لأن خدماته المقدمة للسلطان لم تكن بالمستوى المقبول، ويعني ذلك

(1) في كتابه: الحركة الكردية التركية في المنفى، المصدر المذكور، يقول جوردي غورغاس (وفي عام 1896 اغتيل حاجو الثاني، وقد اغتاله ابن عم له يسمى سرحان. ص 81)، وهذه الإشارة تمثل رواية أخرى، لها صلة بطريقة تتبع الواقعة، وإن كان الجاري، هو أن هناك من يعطي اعتباراً لدقة الرواية، بمقدار ما يعطيها لبنية الواقعة، أي الصراع القبلي أو العائلي من الداخل، كما يظهر.

أنه كان هناك تنافس بين رؤساء بعض العشائر الكردية وليس جميعاً، في كيفية تقديم الخدمات المطلوبة من قبل السلطان، وأن سلوك سرحان نفسه ربما كان محتمماً عليه هذا الفشل المتوقع والمدرّوس في آن، أي لأنه في قرارة نفسه لم يكن ذلك الفطين إلى ما يجري، إنما كان غير مصداقاً، كما لو أنه ينافس من هم في قبيلته ليثبت مكانته، وبصورة خاصة الطرف الآخر من عائلة عثمان، أي: من حسن الأول هذه المرة.

وهي المكانة الملحوظة التي تعلمنا بمشتركات كثيرة، جهة القوة، وليس بالنسبة لهفيران حصاراً، أو ما يصل هذا الخط النسبي، بمعنى ما، وجهة التأثر، وقد دشّن كثيراً من جهته، ببدرخان بك.⁽¹⁾

(1) أشير هنا مجدداً، ما يوضّح هذه العلاقة، والتي سترافقنا بتداعياتها هنا وهناك في الكتاب، أي موضوع القوة، وآلية استلام السلطة، أو تزعمها، من جهة بدرخان بك، كما توقفت عندها في كتابي الأول، وأنا أثبتنا هنا مع توضيحات إضافية تناسباً مع هذا الموضوع، ومن خلال كتاب جويده نفسه:

ما هي هذه النقاط التي تعيننا في مكاشفة الملتبس بدرخانياً، إن جاز التعبير؟ يرى جويده ضرورة في تأكيد المكانة الاستثنائية لبدرخان بك، جرّاء أعمال كبرى قام بها لإثبات شخصيته التاريخية، ومن خلال علاقته بالباب العالي وبقية الأمراء الكرد «ص 168» وهذا التعظيم والتفخيم أكثر «ص 172»، كما أشيرَ إلى ذلك سابقاً، استناداً إلى تلك الحنكة السياسية والسيطرة على مناطق واسعة شكّلت إمارته الموسعة «بوتان». ثمة إشارة إلى نقطة عمّرية تخص بدرخان بك، وهي تذكّرنا بكل من عليكي بطي ومن ثم حاجو «الثالث» وكيف أن الثلاثة أثبتوا وجودهم وتحولوا إلى شخصيات محط أنظار المحيطين بهم (تسلم بدرخان مسئولية الإمارة وهو لا يزال صغير السن «في الهامش استناداً إلى رواية، تردد أن عمره كان ثمانية عشر عاماً، حين أصبح أمير بوتان»، ولم يبرز اسمه إلا مع بداية مرحلة الإصلاحات العثمانية التي تجلت في القيام بحملات إلغاء كل ما كان يتمتع به الكرد مما يشبه الحكم الذاتي. ص 169)، طبعاً دون نسيان زعماء آخرين منحوا جماعتهم هيبة وسطوة.

ثمة نقطة تعتبر في غاية الأهمية والخطورة، وهي تخص مسألة القرابة والوراثة في السلطة والانتقام، من خلال علاقة الأمير يزدان شير، وفاقاً مع رواية مهتم بهذا التاريخ سنة 1835، وهي لأوستن هنري لايارد (إن الأمير كان يحكم باسم الأمير سيف الدين الوريث الشرعي لإمارة بوتان، وظل كذلك لوقت طويل من دون إعلان ذلك «كان الأمير سيف شير الوريث الشرعي لإمارة بوتان وباسمه حكم الأمير بدرخان، وكان ابن الأمير أسد الدين» أردشير «محط اهتمام جميع الحكام الترك» يصحح جويده المعلومة قائلاً عن أن الصحيح هو: يزدان شير»، أما الأمير بدرخان فقد أصرّ ألا يعلم أحد من أتباعه الكرد باسم من يحكم. ص 169).

لعل الذي بلغناه من متابعة ومكاشفة وتعرّف يمكّننا من التعمق في البحث، إلى جانب تنامي التوتر الجغرافي بالتوازي مع التاريخي، بالنسبة للکرد، ولهفيركان، وتآلق عليكي بطي الذي يمهّد لظهور حاجو آغا الأكثر شهرة، ومن ثم تعزيز فكرة أكثر قابلية لتحريّ أبعادها الاجتماعية والسياسية، فكرة دولة كردية كاستقراء، ودولة كردية كطرح سياسي حينذاك.

هذه قضية «جنائية» لحظة النظر فيها، وقابلة للتداول، وإخضاعها لمنطق التاريخ طبعاً، أي فيما كان الذي يتفوه به لا يارد صحيحاً أم لا، ما إذا كانت الرواية قد لُفّقت من قبله، وبتحرير من جهة أجنبية: انكليزية أو غيرها، إذا راعينا مدى التدخل الأوربي في الشؤون الداخلية للمنطقة، وبصورة خاصة في تلغيم العلاقات بين السكان المحليين، لاستثمارها في خدمة المصالح السياسية للقوى المتنفذة وقتذاك.

لا بد أن الباحث الحصيف جويده مدرك لهذه النقطة الحساسة جداً، حين يقول (إذا كان ما جاء على لسان لا يارد صحيحاً فإنه يلقي الضوء على أمور لا تزال غامضة حتى اليوم. أولاً: تشير إلى أن السنوات الأولى من حكم الأمير بدرخان والتي كانت هادئة نسبياً استغلها الأمير لإعداد نفسه للمستقبل آخذاً في عين الاعتبار الصعوبات التي تحيط به. ثانياً: تساعد على فهم التطورات المهمة المتعلقة بهزيمة بدرخان خصوصاً إلى خيانة عزالدين شير في الوقت الذي كان فيه الأمير يخوض معركة حياة أو موت في مواجهة العثمانيين.... ولقد فعل «يزدان شير» ذلك انتقاماً من بدرخان على معاملته لوالده سيف الدين الذي كان يحكم باسمه وأبقاه بعيداً عن الأنظار. ص 170).

ذلك يتطلب مزيداً من ضبط النفس «القوميّ المقياس»، ليس انتصاراً ليزدان شير الذي يشكّل هنا وهناك «بكو» كردياً من نوع آخر، ونموذجاً في الخيانة، وما يترتب على تركيز كهذا لتبرئة ذمة بدرخان بك فيما كان يقوم به، وإنما فهماً له.

هنا ينتهي ما قمت بتحليله في ذلك الكتاب، إنما ما أراه جديراً بتوضيحه في سياق القوة وعلاقتها بالسلطة، والسلطة بفعاليتها الاجتماعية. هو أن ما كان يدقّق فيه بدرخان بك، بالنسبة لطريقة إدارة السلطة بالنسبة إلى قريبه سيف الدين، وكيف أنه أزاحه، وحل محله، ليصبح هو ليس اسم العلم فحسب، وإنما النسب الجدير بالتاريخ، لتمييز اسم بوتان من خلاله، والقوة ومدى جدارتها، يظهر أنها تكونت تسويغاً في حالات محددة لها، لأساليب عنف مؤلمة، وتكون نشداناً للسلطة، حال «بدرخان بك» لا نعلم، ما إذا كان سيف الدين لو استمر، هل كان سيرفع من شأن بوتان، كما عرفت من خلال بدرخان بك، بغض النظر عن أخطاء وقع فيها، جرّاء العنف المستخدم، كما سنرى، القوة التي تتكلم مكانها وزمانها، وتسمّي تاريخها كذلك، وهنا يكون التقابل بين أوصمان وبدرخان، ومن جاؤوا بعد أوصمان، وبرزوا بقوتهم، حاجو الأول وبعده، ومن شقوا عن العائلة، اعتقاداً منهم أنهم الأكفأ، أولاً يقلون قوة إدارة من حاجو الأول وغيره...

الفهم الثقافي

الفصل الأول

عليكي بطي بطلاً تاريخياً

ولادة الزعيم عليكي بطي، ولادة تاريخ آخر

«إن حل مشكلة الحقيقة التاريخية يجب أن يكون مصاعاً في ضوء كل ما قام باكتشافه لنا تحليلنا النقدي..»

هأ. مارو: من المعرفة التاريخية

«هناك أبطال عديدون في مجتمعا، الذين لديهم خصائص مختلفة عن بعضهم بعضاً. نحن نعتبر البطل شخصية حقيقية أو خيالية، كما نعتبر البطل بشكل عام كشخص شجاع، شخص يظهر شجاعة كبيرة ويتميز بأفعاله البطولية. ألا نقول أن الأبطال مجرد شخصيات خيالية؟ إذن مصنوع فقط من الورق؟ بالتأكيد يمكننا الاستغناء عن الأبطال، لا شيء يمنعنا من العيش بدون أبطال. لكن في الحقيقة نحن بحاجة إلى أبطال، على الرغم من حقيقة أنهم أبطال وهميون أو حقيقيون لديهم القدرة على طمأننتنا ووضعنا في الثقة..»

هل يمكننا الاستغناء عن الأبطال؟ Pouvons-nous , nous passer des héros

من المنعطف طبعاً

الشخصية المتميزة بهالة زعاماتية، وصفة البطولة، تحمل بصمة من بصمات الغموض، التي تثير لدى كتاب التاريخ خيالهم، وتنوع ظنونهم، وكيفية التقريب بينهم والوثائق التي تعينهم في اقتفاء أثرها، وحتى بالنسبة إلى خيال الشاعر، وهو يمد بأنظاره بعيداً، ليلقى هناك من يمنحه طاقة تحليل، وقول الشعر الذي يعبر عن هذه الحالة، وهذا الغموض يكتف كل شيء، مع فارق استثنائي، هو أنه بالنسبة للشخصية الفاعلة، وذات الهيبة، يزيد في هيبتها، وفضيلة مكاشفة عالمها الرحب.

وليس لدينا تلك المعلومات التي تضيء نطاق هذه الشخصية: متى ولد عليكي بطي تحديداً، كيف عاش طفولته. هناك معلومات تقدم لنا بعد ذبوع صيته، وهي معلومات قليلة أو ترددت، أو كُتبت استناداً إلى ما بات يعرف به عليكي بطي. وهذه النقطة بالذات تحفّشاً على طرح مقولة ذات صلة بالمجتمع الكردي المحكوم بالآخرين كثيراً، وبالتالي بالتاريخ الكردي الذي كان في عهدة الآخرين كثيراً بالتالية. وأعني بذلك

تميّز هذا المجتمع بالشفاهية، حيث إن حدثاً ما، يسمّى الكرد، غالباً ما يبصر طريقه إلى سجل، في عمومته يندرج في الأرشيف السريّ للأعداء «حال العثمانيين والفرس» وليس هناك شك في أن محتوى هذا السجل يعبر عما جرى، وإنما عما أراد كاتبه، وفي ضوء التوجيهات السلطوية.

ربما تنتظر هناك، بعيداً في عتمة الصمت، سيرة ذاتية معينة له، في الأرشيف ذي السرية العالية لدى أجهزة الأمن العسكرية والاستخباراتية: العثمانية- التركية، وحتى لدى أجهزة استخبارات الدول التي نفذت مشاريعها التقسيمية في المنطقة، وفي الواجهة: بريطانيا، فرنسا، وألمانيا وروسيا... الخ، ويبدو أنها بحاجة إلى زمن إضافي لإخلاء سبيل بعض منها، وليس جميعها، طالما أن هناك خطورة محتسبة للقضية الكردية على أمن الدولة التركية، والمصالح المشتركة بينها وتلك الدول.

أقول ذلك انطلاقاً، من أن مجموعة المعلومات الأرشيفية التي سُمح لها بالخروج إلى العلن من سجل المحفوظات الخاص في تركيا، وهي لسان حال السياسة الأمنية التركية أساساً هنا، كما هو المقروء في قائمة الدراسات والمقالات الأكاديمية، وتلك الرسمية الطابع، أو تكون غفلاً من الاسم، إنما تشير إليها، كما سنرى تالياً، لا تعدو أن تكون بعضاً من هذه الجذازات، أو شذرات مسحوبة بغاية الاحتراس، وتفصح في بنيتها عن طبيعة السلطة القائمة، والتي تعبر عن خاصيتها العنيفة والتهديدية أيضاً.

إن ما يقوله أحد الباحثين في الشهادات التي قدّمت من قبل مدوّني رحلاتهم إلى بلاد الكرد وغيرهم، قادمين من الغرب، والنظر إلى معلومات واردة فيها، ومن ثم اتخاذ موقف من تلك الجهات التي زارها أصحاب المدونات السيرية تلك، يكاد ينطبق، وبصورة أكثر كثافة على موقف الدول التي كانت حذرة من الشعوب الخاضعة لها، أو تسيطر عليها هي وأراضيها بمصائر مستقبلها، كما في حال العثمانيين والفرس «الصفويين» وحتى قبلهم، وهم يعبرون في كتابتهم عنهم، من وجهة نظر سياسات حكوماتهم أو دولهم، ومن الثقافة التي تربوا عليها. ماذا يقول هذا الباحث؟:

(لا يزال محتوى تقارير السفر مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالأمّعة الثقافية للمؤلفين. قادمون من خلفيات ثرية ومتعلمة في المجتمع الغربي، هؤلاء المسافرون رجال وشهود على وقتهم. هم أكثر أو أقل من المتفرجين المخلصين، أكثر أو أقل انتباهاً للعالم من حولهم بينما هم أيضاً المؤدون. إنها مسألة التشكيك في نطاق الشهادة من خلال النظر في تأثيرها المحتمل على تيارات الرأي في الغرب. يجب أن ننظر في رؤية

المؤلفين فيما يتعلق بما ينقله التمثيل الجماعي. بهذا المعنى، فإن الرحلة عبارة عن تراكم للبيانات..⁽¹⁾.

وما يوضع موقع من تمت الكتابة عنهم، ومن يجري التعريف بهم، وحتى تقويمهم على الصعيد الاجتماعي، من البدو (البدوية هي عملية تقوم على تهجير السكان *déplacement des populations*. على الرغم من أن المسافرين كانوا على دراية بهذا الجانب، إلا أنهم لم يتمكنوا من فهم تعقيدات الظاهرة البدوية بشكل كامل، والتي ظلت طريقة عملها غامضة جداً في أذهانهم. بشكل عام، يجب أن نعترف أنه على عكس الأرمن وحتى الإغريق، لم يكن الغرب يحمل هؤلاء البدو في قلوبهم. لم يثر وجود هؤلاء اهتماماً كبيراً بين هؤلاء المسافرين، إذ إن ترقب الماشية تقريباً يصاحب دائماً تحركات السكان البدو. ومع ذلك، فإن البدو ليس مجرد اقتصاد قائم على البحث عن الموارد، كما أنها طريقة الاستيطان وإخلاء السكان التي يبدو أن هؤلاء السكان قد شاركوا فيها. بقدر ما يلعب البدو مع الحدود الإدارية للولايات، غالباً ما تظهر الأخيرة ميلاً معيناً إلى الرغبة في توطيئهم بالقوة لجعل نموذج مجتمعهم هو السائد. على عكس السكان البدو في الصحراء، لم يكن من المعروف أن سكان الجزء الشرقي من الإمبراطورية العثمانية يسافرون على مساحة واسعة. كانوا في الواقع شبه بدو يعيشون من النشاط الرعوي⁽²⁾.

ولا بد أن الكرد داخلون في هذا الاعتبار، ناحية احتكاك الرحالة الغرب، وكذلك القائمين بالبعثات التبشيرية، ومن لديهم مهام أخرى، وهم يمارسون مسحاً اجتماعياً وسياسياً لمناطق نفوذ العثمانيين والفرس، وكذلك دراسة طبائع المقيمين فيها وأنشطتهم، وهذا ما لم يكن خافياً على أجهزة المراقبة لكل من العثمانيين والفرس، والكرد الذين كثيراً ما يشار إليهم على أنهم بدو، أو يتحركون على أطراف المدن، أو هوامشها، مهمشين، إنما هو من بين هذه التوصيفات التي تحيلهم إلى هامش التاريخ، وكما رأينا سابقاً، جهة الذين عاشوا في مدن قائمة باسمهم، مع أولئك الأمراء الذين أسهموا الإسهام الفعال في انتصار الجيش العثماني على الجيش الصفوي في «جالديران»، ولاحقاً، وجراء الوضع السياسي والمتغيرات السياسية، يظهر جلياً، أن

(1) La 271pigones271n271ion occidentale des 271pigone bédouins, kurdes, turcomans, et yézidis – d'après les sources de langue française, core.ac.uk.

التمثيل الغربي للشعوب البدوية والكردية والتركمانية والإيزيدية – وفقاً لمصادر باللغة الفرنسية.

(2) المصدر نفسه.

ضغوطات هاتين الدولتين، والسعي إلى بعثرة أو ترحيل هذه القبيلة الكردية أو تلك، أو جزء من هذه أو تلك، بغرض إضعافها، إنما يتبع هذا التصور وهذه العلاقة، دون نسيان أن مفهوم البدو ليس سببة تاريخية، إنما حياة مجتمعية من نوع خاص، وهي تختلف من مجتمع إلى آخر، وهؤلاء الموصوفون بالبداءة، هم من كانت لهم أدوار في سياسات هاتين الدولتين بالذات، وهم محل اهتمامهما، إلى جانب وجود نسبة من الكرد الآخرين يتميزون بسكنى المدن، ودون ذلك، كيف يمكن استيعاب ذلك التحدي ضد دولة لها تاريخ عريق في الحروب وقمع الشعوب أو انتفاضاتها، ومن كانوا وراءها، حيث كانت المدينة، على وجه العموم معرضة لاجتياحهم من الخارج، أي كونهم غير غرباء عليها تماماً، إنما يعرفونها، وتحديدًا حين يتداخل الرعي مع الزراعة، والزراعة تحديدًا لها صلة مباشرة بالمدينة؟

نقاط ارتكاز إجرائية

ويظهر أن الحديث عن عليكي بطي يتحرك على جهتين، أو في مسارين: الأول، بصفته منتمياً إلى عالم البداءة، دون أن يكون بدوياً، أو من البدو الرحل، فله مكان إقامة، وأراض تسجل في عداد ملكيته، وقرى تتبعه، وليس مجموعة من الخيام التي تذكّرنا في الحال بالبدو الرحل.

الثاني، كونه لم ينشغل بالسياسة، أو لم يمارسها، إنما أصبح له مسار سياسي، ومسلّك سياسي، كأبي سياسي متحزب في زماننا هذا، جرّاء علاقات معقدة بين قبيلته «هفيركان» وداخلها، والقبائل المجاورة، ناحية المناوشات الجانبية، ومع الدولة العثمانية ومظالمها.

فلا يعرف عليكي بطي، في ضوء التوقعات كثيراً، إلا من هذه الزاوية، أي في السجلات الأمنية للدولة إجمالاً.

وليس نقيصة، إن قلت عن أن الكرد، في ظروفهم التاريخية والسياسية، شعب شفاهة لا شعب كتابة إجمالاً، وهذا انعكس كثيراً على أنشطتهم ونوعية علاقاتهم الاجتماعية ورؤيتهم إلى نفاذ فعل الأحداث من حولهم، واعتبار الكتابة شيئاً غريباً عليهم، الأمر الذي جعلهم محكومين بالآخرين، وفي ذمتهم، وحتى فيما بينهم، جهة التاريخ لسنة ولادة كل منهم.

وربما من هذا المنطلق، لم نجد لدى نذير جبو، ولا غيره، وفي حدود المتوافر لدينا من المواد، أي تحديد دقيق لتاريخ ولادة عليكي بطي، وكيف عاش طفولته، سوى ما

أعلمنا به من قبل أهله «أحفاده» كما سنرى، على أنه عاش «37 عاماً» يعني أنه من مواليد 1882، وأنه حين انتقم لعمه حاجو الثاني، ووالد حاجو الثاني، كان عمره «14 عاماً»، أو هكذا يكون التقدير، إذ إن رواية أخرى، كما أوردها آلتان تان، والذي ورد ذكر اسمه لاحقاً، على أنه من مواليد 1884، وهذا يضيف على عمره اعتباراً آخر، لحظة ربطه بفعل الانتقام لعمه، وهو ما سنتوقف عنده، كما استوقفنا موضوع تاريخ ولادة حاجو الثالث.

أي حين التدقيق في مسيرته الحياتية وكثافتها :

مرحلة الطفولة «ليس هناك ما يفيد هذا الجانب كثيراً»

مرحلة ما بعد انتقامه لعمه .

مرحلة التصعيد بالمجاهبات «في الدفاع عن هفيركان بعيداً عن تدخلات الدولة، وحماية السريان، والاستعداد لمواجهة التحديات.

مرحلة العلاقات مع الجوار، لتقوية علاقاته.

مرحلة إعلان المجابهة للدولة ومن معها «1913» وما بعدها .

مرحلة السجن «1913-1917» وهذه مؤثرة كثيرة، ولا بد أن هناك مستجدات كثيرة جرت في السجن نفسياً واجتماعياً ونفسياً، أكثر من كونه «ابن هفيركان».

مرحلة ما بعد الخروج من السجن «1917-1919»، والتحضيرات للانتفاضة، حيث الاتصال بمن رأى فيهم إمكانية تحالف ومساعدة: كرداً، سرياً، عرباً، انكليزاً «حتى حدود الموصل»، دون تجاهل توقع مناوشات واستفزازات من قبل خصومه والدولة من خلالهم.

مرحلة الذروة «أيار 1919»، كما لو أن كل سني عمره اجتمعت في هذه الأشهر التي شكّلت تحدياً للدولة وحلفائها، فلم «يسقط» وإنما كان شهيد مبدئه الإنساني والكرد في المحصلة.

ولهذا، لكي أمهد لظهور عليكي بطي، لا بد من إيضاح نقاط بيئية واجتماعية وتاريخية ذات تأثير كبير في مسار بحثنا، أي ما يخص مكانة عليكي بطي، وكيف برز في وسط أهله وقبيلته، وعلى مستوى الدولة باعتباره «شقياً» الكلمة الأكثر اعتماداً في أدبيات العثمانيين الأمنية، تعبيراً عن حالة «عصيان» طالما أن هناك خطراً عليهم من خلال فعل «الشقاوة» هذا .

هناك الكثير نسبياً، مما كتبه جبو في هذا النطاق، وإيراد الأهم منه ضروري
إضاءة معالم شخصية عليكي بطي:

حين يتحدث جبو عن حاجو الثالث، يقول (إن أشهر أفراد أسرة آل عثمان بعد
علي بطي هو حاجو الثالث. إنه آغا هفيران الذي حقق الشهرة الأكثر ذيوياً، كما كان
مدار الحديث أكثر من غيره إلى حد أن آل عثمان صارت تعرف بعده باسم آل حاجو،
لقد كان شخصية كارزمية «له جاذبية قيادية» إلى حد كبير.. ص 116).

هذا الاقتباس يقدم لنا صورة جلية، كما نعتقد، عن شخصية عليكي بطي، كيف
عاش، وفي ضوءه كيف كان موته مأسوياً، إنما بطولياً في الصميم. ومحتوى الصورة،
هو في الماضي بنا إلى جهة أخرى، عبر الرجوع إلى الوراء. أي ما يخص نشاط السالف
عليه، ودون الخلط بين الاثنين، والقيام بأي عملية تفضيل، من نوع: من كان الأشهر
منهما؟ من منهما الأكثر رجولة أو شجاعة، أو حساً قيادياً؟ أيهما كان أكفاً في زعامة
هفيران؟ وغيرها من الأسئلة الأخرى التي بمقدار ما تحيلنا إلى ما هوتاريخي،
تخرجنا منه بالذات، لأن لا بد من الفصل بينهما على صعيد طبيعة عمل كل منهما،
وذلك المناخ السياسي لهذا أو ذاك، وحتى بالنسبة للعمر «حسب ما اجتهدنا فيه،
عاش حاجو الثالث أكثر من ستين عاماً» 63 عام «كما حاولنا إضاءة هذه النقطة قدر
المستطاع، بالنسبة لعلليكي بطي، الظروف مختلفة، والعلاقات مختلفة، ورغم ذلك فإن
الذي أنجزه، بالمفهوم السياسي» وسرعة المبادرة، وشجاعة المواجهة، والمسلك
الزعاماتي، يمنحه موقعاً زعامتياً، واعتباراً بطولياً، دون ذلك، يصعب تفهم الأسلوب
الهمجي الذي عومل به، بجشته، من قبل المسؤولين الأتراك.

هنا، يكون الحديث عن حاجو الثاني، وهو في موقعه القيادي ضرورياً:

(بعد مقتل حسن قام فرد آخر من العائلة هو خلفي جرجو بطرد كل أبناء حسن
من القرية، وأصبح هو الآغا. وبعد نزاعات ومعارك استمرت سنوات طويلة تمكّن
حاجو الثاني ابن حسن من قتل خلفي جرجو، وتولّى الزعامة ص 62).

زعامة طبيعية، أي لا تتدرج في أي خانة سياسية، إنما في الإطار الأوسع
للعلاقات المتوترة بين أبناء القبيلة الواحدة، وعلى الموقع السيادي السلطوي فيها.
وليس هناك معلومات ذات صلة بشخصية خلفي جرجو، لكي نقارن ما بينهما، مثلاً،
ما إذا كان خلفي جرجو له علاقة معينة بالدولة، ومن أي نوع، ما إذا كانت علاقته،
مثلاً، قوية بأمراء بدرخان. لا شيء لدينا بدقة، سوى أننا نستطيع استقراء هذه
العلاقة بأن حسن كان الأقرب إلى «كرديته» بمفهومها العام وقتذاك، من خلفي جرجو

Xelefê Circo الذي يبدو مغموراً، حيث الصراعات القبلية، وإن كانت تسمى، لكنها تكون كغيرها، وما أكثرها، لهذا تهمل، طالما أن ليس من مميّز في بنية هذه الصراعات البينية، أي صراعات على النفوذ داخل القبيلة، بالرغم من أن الدولة، وتبعاً لحسابات مقدرة، وكما يعلمنا تاريخها، تقف ليس إلى جانب القوي، إلا إذا كان معها، وهنا تكون حذرة منه، إنما مع الضعيف الذي يلوذ بها، لتتخذ منه رأس حربة موجهاً إلى خصمه، وبحجة الإخلال بالأمن وهلمجراً.

أما بصدد حسن، فقد رأينا سابقاً موقعه بين أبناء قبيلته، ومع البدرخانين، في محاربة العثمانيين، ومن خلال أغنية اعتمدنا عليها، ومنها كانت المكاشفة وهي أن حسن كان رجل زعامة وقيادة وحرب..

أما على صعيد الصراعات، فلا أكثر منها، وكانت بمثابة العجينة الكبرى التي تضع الدولة «العثمانية هنا» خميرتها فيها على أوسع نطاق، ليطلع خبزها كما تشتهي هي، وليس كما يريد الداخلون في أتون الصراعات الجانبية والداخلية معاً، أي ما سمّيته عنواناً في كتاب سابق لي، وهو «الفتنة المقدسة» وهي التعويذة التي يتجنبها كثيرون، أي «الفتنة» سوى أنهم واقعاً يعتمدونها، كونها تثير فيهم قوى عنف، لها جذور مغلقة في القدم، وتستهلكهم كثيراً⁽¹⁾.

كما قلت، هناك الكثير من هذه الأمثلة التي سهّلت تحكم أعداء الكرد بهم، ومن ذلك، ما يورده بروينسن في كتابه السالف ذكره (إن العلاقة بين النزعة القومية الكردية والولاءات القبلية والدينية متأرجحة. فمن ناحية، كان القوميون الكرد الأوائل متحدرين من صفوف السلطات التقليدية، أي الشيوخ والأغوات.... إن مجرد اشتراك زعيم قبيلة ما في الحركة القومية كان، في الغالب، سبباً كافياً لأن يقف منافسوه على الضد من الحركة. ص34)

وما يترتب على الصراع الساخن ولو بدرجات، الصراع الداخلي والجانبى هذا من لجوء من ينتمي إلى القبيلة عينها إلى تغيير نسبه، ليجد له اسماً يحاول إلحاق القبيلة بها، من موقع القوة العائلية الخاصة به، ومن يتحلق حوله أو يلتحق به (فوحدة العشيرة القائمة الآن يجري إسقاطها على التاريخ، وتتصرف فعلياً كما تتصرف أية مجموعة سلالية حقيقية. بل قد يصار إلى اختراع أسلاف مشتركين. ص120).

(1) أقصد بذلك: الفتنة المقدسة «عقلية التخاصم في الدولة العربية الإسلامية» منشورات الريس، بيروت، ط1، 1999، وطبعة ثانية منقحة ومزودة، دار رؤية، القاهرة، 2016.

وفي هذا المثال الآخر من قبل بروينسن (إن النظر إلى القبيلة بصفتها كياناً من خلق الدولة، أكثر من كونها تشكياً اجتماعياً وسياسياً سابقاً لذلك، فرض نفسه تدريجياً علي في مجرى عملي الميداني، وبقوة أشد خلال قراءاتي اللاحقة في المصادر التاريخية. وبدت اتحادات قبائلية معينة التقيتها مدنية بوجودها لتدخلات متممة من جانب إحدى الدول الكبيرة. ص 283).

وفي مثال تال، يخص أحفاد صلاح الدين الأيوبي (وإذا كانت اللغة الكردية، وهي هندو-أوربية، والتاريخ الدامي المشترك عاملين يجمعان الكرد جميعاً، إلا أن أحفاد صلاح الدين الأيوبي كانوا ولا يزالون إلى يومنا هذا منشقين وممزقين إلى قبائل وعشائر وإمارات وأحزاب متناحرة فيما بينها مما يشكل إحدى أهم العوامل الذاتية، التي تحول دون نيلهم لحقوقهم المشروعة، إلى جانب العوامل الموضوعية والخارجية)⁽¹⁾.

وفي هذا المثال المختلف، إنما من دائرة الفتنة عينها، وتأكيد ما تقدم مجدداً:

(عاش كرد بانوك مدة طويلة في صراع مع حاكم دياربكر، وفي عام 1782 قام الحاكم التركي وبالتعاون مع باشوات آخرين وعلى رأس جيش مؤلف من «45» ألف مقاتل بالهجوم على عشيرة بانوك، ولم تحقق معركة الأيام الثمانية النصر للأتراك. فهاجموهم مرة ثانية عام 1785 وبجيش جديد ولم يفلحوا في المرة الثانية، وفي عام 1789، استطاع الحاكم التركي عن طريق الخداع استدراج الزعيم الكردي إليه وقتله، ثم عينوا ابن زعيم العشيرة، ولم يكن هذا على حكمة وقوة والده واستطاع الأتراك أن يعززوا مواقعهم إلى حد كبير في هذه المنطقة.)⁽²⁾.

وفي مثال من نوعية مختلفة، وفي المسار الانقسامية ذاته:

(أجل، كانت المناطق الواقعة تحت حكم الأسرة البابانية أصابها الانقسام، فكانت منطقة «بشدر» يليها كاكه مير، أما منطقة «مه ركه» فقد كان يليها ابن عمه كاكه شيخ. إلا أن كاكه شيخ ما كان ليقتنع بحصته، فأخذ يطمح في حصة ابن عمه ويدبر المكائد للقضاء عليه إشباعاً لجشعه وحرصه ويمهد السبيل في السر لتحقيق مآربه ومراميه. وذات ليلة شن عليه حملة على حين غرة وأعمل فيه وفي أتباعه السيف أفناهم عن بكرة أبيهم، فلم ينج منهم إلا «فقي أحمد» بن كاكه شيخ وأمه)⁽³⁾.

(1) دشنر، كوتنر: أحفاد صلاح الدين «الكرد: الشعب الذي يتعرض للخيانة والغدر»، ترجمة: عبدالسلام بروري، مطبعة خه بات، «دهوك، ط2، 2000»، ص 12.

(2) جليل، جليلي: من تاريخ الإمارات في الإمبراطورية العثمانية، المصدر المذكور، ص 27.

(3) ناظم بيك، حسين: تاريخ الإمارة البابانية، ترجمة: شكور مصطفى ومحمد الملا عبدالكريم المدرس، مؤسسة موكرياني، أربيل، 2001، ص 55.

وما يرويه لنا محمد فريد جميل أوغلو «وهو أحد أحفاد جميل باشا» المعلومات التي تناقلتها الأجيال المتلاحقة بحق العائلة منذ قدوم أجدادهم إلى ديار بكر، كالاتي (يعود أصلنا إلى منطقة سلوبي «وهي منطقة تابعة لشرنخ»، بمعنى آخر أننا بوتانيين. تقاتل أبناء العمومة في ما بينهم في صراع عائلي وقتلوا بعضهم بعضاً، قدموا إلى ديار بكر برجالهم واستقروا في 20-30 منزلاً في منطقة علي باشا، محلة خوجه أحمد. حينها كانت توجد نزاعات عشائرية في ديار بكر).⁽¹⁾

وفي هذا المثال اللافت بدوره:

(يبدو أن الخلافات بين الأسر الكردية كانت ظاهرة موجودة في التاريخ الكردي، قد أثرت على الحركة الوطنية الكردية وحرمتها من القيادة الموحدة، وحاولت أطراف عديدة زيادة هذه الخلافات من أجل شق صفوف الوطنيين الكرّد، وكان السبب الرئيس للصراع هو التنافس على زعامة الحركة التحريرية الكردية).⁽²⁾

وعلى طريقة «أخيراً وليس آخراً» هذا المثال الموجه أيضاً:

(حتى فترة قتال قصيرة، بغض النظر عن النتائج، تكفي لإحداث تأثير قوي على تماسك قوة قبلية أو انضباطها. وما لم يسيطر على هذه القوة سيطرة صارمة يؤدي النجاح عملياً النتائج ذاتها مثل نتائج النكسة. وينتهي الاندحار بالتدمير الواسع وتشتيت العدو، ويتدهور النصر غالباً إلى انغماس في ممارسة النهب والسلب والتجاوزات. إن المحاربين القبليين الثقيلين بالغنائم والمرهقين بدنياً وعقلياً بثروتهم التي حصلوا عليها حديثاً يميلون إلى الانسلاخ والعودة إلى بيوتهم في أول فرصة. وهكذا في الحرب القبلية تكون قوة الوحدة القبلية المسلحة في حالة تدفق مستمر. وحتى عندما تكون القوة القبلية ناجحة قد تكون أعداد أولئك الذين يتخلون عن الصراع كبيرة بقدر أعداد الملتحقين الجدد بالقوة الذين تجتذبهم إمكانية تحقيق الثراء السريع).⁽³⁾... الخ

إن المأتي على ذكره، غيظ من فيض، حيث إن عبارة «أرض الألف ثورة والألف حسرة» والتي تقال عن الكرد، تترجم في الحال ما هو معاش، حتى يومياً، فيما بين

(1) مالميسانج، تأليف وإعداد: عائلة جميل باشا الديار بكري والنضال القومي الكردي، الترجمة من التركية: فيض الله برايم خان- دلشا يوسف، المراجعة اللغوية والتقديم: فدان آدم، مؤسسة بير، ديار بكر، ط2، 2007، ص 15.

(2) هروري، د. صلاح محمد سليم: الأسرة البدرخانية نشاطها السياسي والثقافي 1900-1950، الدار العربية للموسوعات «بيروت، 2006»، ص 11-26-113، ص 113.

(3) جويده، وديع: الحركة القومية الكردية، المصدر المذكور، ص 229.

الكرد، في علاقاتهم مع بعضهم بعضاً، فهم كرماء، لطفاء، مضيافون، لديهم حس الغيرة، أهل نخوة، ومحاربون أشداء، ولنهم، ما أن يسمعوا كلمة الزعيم، ما أن تتردد على مسامعهم، كلمة من نوع تمثيلي، ملحق بالزعامة أو القيادة، وما يترتب على ذلك من تصور للمكانة والسلطة، حتى يحدث انقسام وتنازع.

قليلاً ما نجد من يخرج على هذا «العُرف» ومن يجد في نفسه قابلية «مضيافة» بالتخلي عن منصب زعاماتي لغيره، إشعاراً منه بحقن الدماء، وتحرراً من الأنانية والمنافسة البغيضة، إلا لحظة الشعور أن في ذلك مسؤولية، وأن عملية التصدي لهذا الجانب تتشكل في خضم تقدير ما يمكن أن يحصل إن لم يسارع إلى ذلك، وما في ذلك من مخاطرة.

ولا بد أن حسن حاجو الأول، كان من هذا الطراز، رغم ما يُتأسف له جهة إراقة الدماء في الداخل .

سوى أن الذي نستخلصه كذلك من هذا التسلسل في القتل الداخلي، هو حالة عدم الاستقرار في الداخل، وفتنة الزعامة التي يطمح فيها الكثيرون دون احتساب التكاليف، أو المسؤولية الأخلاقية لذلك، ولهفيركان رصيد معتبر في ذلك أيضاً .

ربما من هذا المنطلق كانت شجرة العائلة «الحاجوية، وكما وردت لدى بروينسن، في مصدره المذكور:

عثمان

حاجو الأول: سرحان الأول - حسن الأول

من سرحان : ذكر واحد من أصل أربعة وهو سَروخان

من حسن الأول: حاجو الثاني -...بطي

من سَروخان: سرحان الثاني - جلبي

من سَروخان: سَروخان الثاني

من حاجو الثاني: حاجو الثالث

من بطي: أليك / عليك

من حاجو الثالث: ذكر اثنين من أصل خمسة هما جميل وحسن الثاني

طبعاً حاولت تعديل اسم «هاجو» هنا، تجاوباً مع الاسم المعتمد، تجنباً للالتباس،

أي «حاجو» !

وعملية الانقسام في النسب الرئيس: أوصمان، لكون إزاء أربعة أنساب تالياً: جلبي- حاجو-فرحو- بطي... لحظة ظهور ما يشبه الانفجار في حامل النسب العتيد: أوصمان وهو بختمه البدرخاني: البوتاني، أي لحظة تعرض النسب الرئيس لما يُشبه «اللوث» أو شبهة «عدوى» الإساءة إلى محتواه وهو النقيض تماماً لدولة بني عثمان، ويكون الخارج عنه: جلبي، وما ترتب عليه من رجرة الشعور وحتى الذاكرة بصعوبة حملها معاً، وثمة من يقلل من سطوع نجمه.

ولنتابع تالياً مع جبو لمعرفة ما جرى بعد تزعم حسن للعشيرة، كما يسمي:
(مع انتقال حكم العشيرة إلى حاجو الثاني ازداد نشاط آل «أسرة» عثمان قوة.
ص63)

يستدعي هذا توقفاً، ومن ثم كاشفة لمحتوى الكلام، حيث إنه، أول ما يذكّرنا به، والتفكير فيه، هو الدور الذاتي للشخص، على مستوى القيادة، وميكانيزم تعامله مع أهله أو عشيرته/ قبيلته ومن هم في الجوار، ولهذا، فإن تعبير أحدهم «عشيرة / قبيلة فلان» يستدعي في الحال صورة معينة عما تكون عليه تلك جهة القوة أو الجبروت أو المكانة بين العشائر، إلى جانب أن هناك عشائر لها حضور معين أو صيت على صعيد كردستاني، كما في حال هماوند، ذات الخصوصية في العلاقة مع الجوار والآخرين (وفقاً لتقليد شرقي قديم، عاقب العثمانيون في أواخر القرن التاسع عشر قبيلة «هماوند» الكردية بأسرها، بسبب ولّع أفرادها بنهب المسافرين ووحشيتهم غير المحدودة، وأرغموها على الانتقال من موطنها في ما يعرف اليوم بـكردستان العراق، إلى ليبيا. لكن بعد سبع سنوات، عبرت القبيلة منطقة الشرق الأوسط مستخدمة القوة لشق طريقها للعودة إلى موطنها الأصلي، وعادت، بالطبع، إلى ممارساتها الشريرة القديمة. ويبدو أن في شخصية كل كردي، بعض من طباع أبناء قبيلة «هماوند»، لا سيما عندما يتعلق الأمر بمواجهة محنة تنزلها بهم قوة خارجية ما. لكن أشد ما يدهش المراقب الخارجي، هي الجروح غير المندملة والناجمة عما أصاب الكرد من محن كثيرة تشكّل جوهر تراثهم. فأحدى القصائد القديمة تؤكّد أن قدر الكردي أن «يحمل ألف حسرة، ويذرف ألف دمعة، ويطلق ألف ثورة، ويشعل ألف أمل».. ثم: للوهلة الأولى، لا يستطيع المرء إلا أن يبدي إعجابه بمقاومة الكرد وما بذلوه من تضحيات وما قاموا به من بطولات. لكن عند تفحص هذه الثورات، يتبين للمراقب حجم الأخطاء القديمة المرتكبة مراراً وتكراراً، والتي حكمت عليها منذ البداية بالفشل. ولا يخفي القوميون الكرد تعجبهم لعدم تمكنهم من النجاح في أية

ثورة من الثورات التي أطلقوها، سواء في بلد واحد أو في عدد من البلدان في آن معاً. فالکرد لم يتوحدوا يوماً على الصعيد السياسي، وعانوا كثيراً من الانقسامات العميقة في صفوفهم، ومن الميل المتأصل لديهم لخيانة بعضهم البعض⁽¹⁾.

في الإطار القيادي، يمكن معرفة من كانوا لاعبي أدوار زعاماتية، عرفت قبائلهم وعشائرتهم بهم قوة أو ضعفاً.

كما في حال بدرخان بك، ومن ينتسبون إلى عائلته: أمين عالي بدرخان، مقدار مدحت بدرخان، عبدالرزاق بدرخان، جلادت بدرخان، كاميران بدرخان، إبراهيم باشا الملي، محمود الحفيد، أكرم جميل باشا، قدري جميل باشا، إحسان نوري باشا، الشيخ عبيدالله النهري، عبدالسلام برزاني، ملا مصطفى برزاني، قاضي محمد... الخ⁽²⁾.

التقاط أنفاس

القوة والجبروت وسرعة المبادرة ثالث معتبر بالنسبة للقيمين على الحكم، أو من يقطف ثماره واقعاً، وعلى قدر انتشار نفوذه، كما في رسالة لسليمان القانوني «1520-1566» إلى ملك فرنسا فرانسوا الأول، يبرز الأسلوب التفضيحي «أنا سلطان السلاطين، وملك الملوك، مانح التيجان للملوك على وجه الأرض، وظل الله على الأرض. السلطان، وسيد البحر الأبيض «المتوسط» والبحر الأسود، والروملي، والأناضول، وكرمانيا، وبلاد الروم... وفارس، ودمشق، وحلب، والقاهرة، ومكة، والمدينة، والقدس، والجزيرة العربية كلها - وإليك أنت فرانسوا ملك فرنسا...»⁽³⁾.

هذا الحضور في القوة الذاتية، ومن خلال انفتاحه على أهله، ترافق مع قوة من نوع آخر، ذات صلة بأسلوب التعامل، أو إرادة الزعامة وكيفية تصريحها إيجابياً (وبداً

(1) راندل، جوناثان: أمة في شقاق «دروب دركستان كما سلكتها»، ترجمة: فادي حمود، دار النهار، بيروت، ط2، 1999، ص 23.

وقد أتيت على ذكر هذا المثال في المتن، تأكيداً على أكثر من نقطة، ومنها، إظهار مدى براعة بعض الكرد، وقوتهم في الداخل، وحتى رهبتهم إزاء الغريب، وكذلك إظهار حسم الكردي وارتباطهم بموطنهم، كصفة عامة تعنيهم، سوى أننا ما أن نأتي إلى ما هو قيادي، وموحد، حتى نجابه بما هو مأسوي، على الصعيد العام.

(2) حول ذلك، يجد القارئ مراتب من هذا القبيل، في كتاب وديع جويده السالف ذكره، وفي صفحات متفرقة منه.

(3) حتي، د. فيليب: مختصر تاريخ لبنان، ترجمة: فؤاد جرجس نصار، مراجعة: د. محمود يوسف زائد، دار الثقافة، بيروت، ط1، 1968، ص 169.

حاجو أولاً بترك السلوك المستبد الذي كان يسير عليه آل عثمان، وقام بتغيرات كثيرة لأجل تنظيم العلاقات بين العشائر، ووضع حد لقضايا الثأر، والتوصل إلى تسويات للمشاكل...ص63).

طبعاً، لا بد من إضاءة مفهوم «السلوك المستبد» هنا، حتى لا يجري خلط بينه، وما هو سائد لدى أنظمة قائمة تعرّف به، وتمارسه ضد شعوبها، بما أن السلوك المستبد في الحالة الأولى، يتطلب تحديداً لوظيفته، داخل العشيرة، بغية ضبط هذه، تجاوباً مع المستجدات، حيث تغيب المؤسسة بمفهومها المستقل قانونياً.

لدينا لائحة من البرامج التي أريد لها أن تكون عملية، أو خطط أريد لها أن تتفدّ، وهي من حيث الأرضية الاجتماعية، لا تلقى صدى إيجابياً خارجاً، ومن قبل أولي أمر السلطة العثمانية، وحتى عشائر مجاورة، لها سياسة مختلفة، وتتملكها الخشية من أن يكون تصرف من هذا النوع مهدداً لمكانتها، والخوف الأكبر من قبل السلطة بالذات، لأن أي إجراء من هذا القبيل، في تغيير بنية الخريطة الهرمية السياسية للعشائر، يعني زعزعة السلطة السياسية للباب العالي، أو كسر شوكتها بين القبائل، ومن ثم تحفيز هذه القبائل لأن تتوحد ضد الباب العالي بالذات هنا.

على سبيل المثل حين نسمع قولاً كهذا من نيكيتين، جهة علاقة الكردي بالطبيعة ومع الآخر، وهو الكردي أيضاً (كما أن الطبيعة لا ترحم الكردي، فإنه لا يرحم بدوره خصمه أيضاً، فالأخذ بالثأر والميل إلى الانتظام يسيطران عليه، إن قانون الأخذ بالثأر هو الذي يحكم الصلات بين العشائر... وكذلك: كانت الحكومتان العثمانية والإيرانية تعهدان إلى رؤساء العشائر الكردية الموجودة في مناطق الحدود بمهام الحكام، فكان هؤلاء يصبحون بمثابة نوع من الحرس لحدود الدولة، الأمر الذي كان يصرفهم عن أعمالهم التقليدية).⁽¹⁾

من جهة، يشكّل قوله توصيفاً للكردي، في علاقته بالطبيعة وتأثره بها، ومن جهة ثانية، ذمّاً له، في توصيفه لعلاقة الكردي بالكردي، على صعيد الخصومة، ليس لأنها ليست صحيحة، وإنما لأنها وضعت في سياق، يظهر الكردي، فيما آل إليه أمره، كما لو أنها الحاكم والمحكوم، أي مع تجاهل دور المؤثرات السلطوية في الخارج. ومن ذلك من أشير إليه تالياً، بالنسبة لتدخلات مستمرة من قبل الدول ذات المصالح في كردستان، والأكثر من ذلك، بالنسبة إلى كل من الدولة الفارسية والعثمانية.

(1) نيكيتين، باسيلي: الكرد «دراسة سوسيولوجية وتاريخية»، المصدر المذكور ص 120-124.

حتى بالنسبة إلى نقطة لها حساسيتها، في أسلوب الحكم الزعاماتي، وفي المتن: الثأر، وآلية اعتماده، ومن يزكي ناره، أو يحرص على تفعيل «فيروسة» وتنشيطه بأكثر من معنى، طالما أن هذا الأداء السلطوي والموجه يفيد المتحكمين بالكرد (وفيما يتعلق بالنظام العام وتحقيق العدالة لدى الكرد، يتوجب علينا أن نقول حول عادة الأخذ بالثأر «توله» ومن تقاليد الكرد أن يثأروا لدماء أقاربهم، والثأر حق يكتسبه أهل القتل، ويطرده القاتل من عشيرته لمدة خمس سنوات أو أكثر، فإذا تمكن أهل القتل من أخذ الثأر منه خلال هذه الفترة، فإن القضية تعتبر محلولة، وإذا بقي حياً بعد انتهاء هذه الفترة حق له العودة إلى عشيرته بعد استشارة زعيم العشيرة ومسئولها بهذا الشأن وموافقته على رأيهم، وحتى في هذه الحالة لا يفقد أهل القتل حقهم في الأخذ بالثأر⁽¹⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 207.

طبعاً، يُذكر في هذا المنحى، ما أتى على ذكره الكردولوجي ب. ليرخ، في كتابه: دراسات حول الكرد وأسلافهم الخالدين الشماليين، ترجمة: د. عبيد حاجي، مكتبة خاني، حلب، دمشق، 1994، وقوله (لا تُعتبر أعمال السلب والقرصنة جرائم لدى الكرد، بل على العكس فإن ذلك حسب مفاهيمهم يليق تماماً بالرجل الشجاع، ولا يوجد شعب آخر لا يرتبط ذلك ارتباطاً وثيقاً بطبيعة ونمط حياته وعاداته بمثل هذا القدر ص 22)، وهو يتطلب تحليلاً بيئياً واجتماعياً واقتصادياً وثقافياً من الداخل، وليس من الخارج، انطلاقاً من ثقافة أجنبية معيارية مغايرة.

ومن ذلك، ما يخص وجوب التفريق بين الكرد أنفسهم تبعاً لبيئاتهم، وعدم تطبيق مقولات سياسية، تاريخية واجتماعية واقتصادية غربية ميكانيكياً على واقع الكرد، كالقول المتداول بالإقطاعية الكردية، ونسيان أو تناسي الجانب المدني أو الأرستقراطي من هذا المجتمع، كما يفضي إلى ذلك الباحث الكردي روها آلاكوم، في كتابه:

تورين «أرستقراطيو سرحد» آفستا، ستانبول، ط2، 2009. وهو بالكردية

Torin «Aristokratên Serhedê», Avesta, stenbol, ç2, 2009.

ويمكن إيراد هذه الاقتباسات الدالة على هذا التنوع:

يمكن تصريف مفردة Torin عبر القواعد الكردية على أنها اسم ذكر وأنثى كذلك، وكاسم ذكر، كما في حال «تورني جيد»، وكاسم أنثى، كما في «تورنا جيدة». وفي كل بيت، كان يقال للأكثر حضوراً فيه، يقال له «تورني البيت» مدلل البيت «أو تورنا البيت» أي مدلة البيت. ويقال للأكثر تميزاً بالحب له وشعبية، في بعض الأغاني الكردية على أنه «تورن»، وأعطى له اعتبار كبير. وفي الفولكلور الكردي، نجد أن هذه المفردة تتضمن الإحالة إلى عبارة «الناس المدللين» «والناس المعتبرين». وهذه الكلمة وردت في الفولكلور الكردي، في هيئة قالب أدبي من أجل جماعات الناس الطيبين، الحلوين، والمختارين. ولهذا، نجد أن الفتاة التورنية والفتى التورني، قد وردا في بعض الأغاني العشقية، على أنهما عاشقان يحبان بعضهما بعضاً. فالفتاة التورنية غالباً ما تأخذ موقعها الاعتباري بقيامتها وقامتها،

ولنتابع ما توصل إليه جبو، حيث يستدرك قائلاً (كما حدث تغيير في أمر آخر، إن هدف حاجو لم يكن زعامة عشيرة الهفيركان فقط، فبعد أن أمسك بزمام الأمور في يده اتجه نحو عشيرة دكشوري، التي كانت عشيرة كبيرة ومعروفة بتأييدها للدولة، وفضلاً عن ذلك كان ضمن أهدافه إقامة دولة. ص 62).

هناك تناقضات في القول هذا، ليس من جهة جبو، وإنما من جهة بنية العلاقات بين عبارة وأخرى، ولكل منها مسار قيمي وسياسي مغاير للأخرى: بين التخطيط لمحاربة عشيرة دكشوري، وإقامة دولة، وما يترتب على هذا التخطيط من خلق زلزال سياسي في الجوار، وعلى مستوى الباب العالي بالذات، أي ما يخص تلك الغاية البعيدة المدى، والقائمة على رغبة صعبة جداً، رغبة تصطدم ليس بسياسة الباب العالي، وإنما سياسة الفرس، وكذلك القوى المؤثرة في المنطقة بالذات، وما في ذلك من وعي نهضوي كردي مضاد للعثمانيين ومن معها.

هذا الإصرار، أو التوجه المعاكس للتيار القائم إجمالاً، يفجر الوضع، ويثير كل من له ببقاء الأمور على ما هي عليه، ومن ثم تكاثر الخصوم والأعداء، وزيادة حالة العداء والتريبص بالقائم بهذه المهام المسماة.

ولنا أن نتخيل ردود الأفعال، أن نتخيل نوعية الدعاية المركزة التي تعتمد عليها الدولة، وطرق الاتصال بالعشائر المجاورة لهفيركان، ومن هم هفيركانيون أصلاً، مثل

وجمالها في الأغاني الكردية. وفي بعض الأغاني الكردية، والتي تتمحور حول الحب، عندما ينادي الرجل العاشق زوجته، نصادف وضعاً طورياً، مثال ذلك «أيتها الظريفة، الجميلة، التورنية...» ص 23.

في اللغة الكردية، هناك الكثير من المفردات التي تشير إلى وجود الأرستقراطية. ومن هذه المفردات، نجد أن كلاً منها لها معنى مختلف، وما بينها تمايزات، إيقاعات وألوان مختلفة، وفي العموم، الأرستقراط، الجماعات الرائدة، هم المتعلمون والأثرياء. وهذه الأسماء والتحديدات الخاصة بالأرستقراط الكرد، تتطلب في حد ذاتها إلى دراسة. وهناك الكثير من الأسماء والتحديدات الخاصة بذلك، مثل أصليزاد «ابن النبيل/الوجه» بكزاد «ابن بك»، آغازاد «ابن الآغا»، شيخ زاد «ابن الشيخ». ص 32.

في القرن التاسع عشر، هناك الكثير من العشائر الكردية الرحالة، كانت تعيش ضمن حدود روسيا. ففي أنغوريا، أفريانوف، توجد قرابة عشر عشائر كردية أخرى مثل: ريديكي، جلالي، بروكي، إيزدي، جونكي، بلياني، دلهيرانلي، جمالديني، ميلانلي وقاسكانلي، تعيش على أرض روسيا. ص 44.

وهناك الكثير من زعماء العشائر الكردية «زيلان، هيدران، سيبكي، رذكي، جيران» وآخرون، كانوا عموماً يُعرفون بـ «تورن». وأولئك كانوا محبوبين، أغنياء وأقوياء... ص 46.

عشيرة دكشوري، وكيفية ممارسة التشهير ضد المحرّض على الدولة، وما يمكن أن يقال عن قرب، وكيفية تأليب الآخرين عليه، وتحيُّن الفرص للنيل منه⁽¹⁾.

(1) أشير هنا إلى مثال حي، ولو أنه يحصل كواقعة متسلسلة فيما بعد، ولكنه المثال الذي يمكننا من تخيل ما كان يحصل قبل ذلك «قبل ظهور أي حديث عن هفيركان في القرن التاسع عشر على الأقل»، وهو يوجد في كتاب روهاات آلاكوم: شريف باشا «سنوات عاصفة لديلولوماسي كردي»، ترجمة: شكور مصطفى، الدار العربية للموسوعات، 2006. الطبعة الأولى للكتاب، سنة 1995، وهو يتحدث عن الكردي السيء الصيت سليمان نظيف: نجل الشاعر والباحث في التأريخ سعيد باشا الديار بكري، هو ابن أسرة كردية، ولد في ديار بكر «آمد»، لقد أنكر فيما بعد كونه كردياً، وادعى أنه تركي. ص 90. ينقلب على غرار ضياء كوكالب على القومية التركية، في بداية عهده كان متحمساً للقومية الكردية مدافعاً عنها كما في مقالیه «الکرد وكردستان» و«إزمير ليست بكردستان». ص 91. ثم ينقلب عليها فهو «من بين معماريي الذهنية الأشد محافظة ورجعية بشأن مستقبل الكرد. ص 93. وكان حاقداً على شريف باشا، حين أصدر عنه كراساً سنة 1910 بعنوان بوش شريف باشا» شريف الخاوي: في كتيبه هذا الذي حشاه بما لم ينزل به من سلطان من السباب والشتم الرخيصة المستهجنة والهجمات الظالمة التي يأبأها الذوق العام. ص 94. ويقول في موضع آخر «حتى أن أمه بالذات لا تعرف من صلب من جاء بل حتى أبوه هو الآخر لا يعلم أين ولد». ص 94. ونبه علاء الدين كويفسا بقوله «لم يكتب سليمان نظيف رسالته المعنونة بوش شريف إلا بتحريض من جمعية الاتحاد والترقي بهدف تحقير هذا الرجل لا أكثر ولا أقل». ص 94. وظهور سليمان نظيف المعروف بعدائه الشديد لشريف باشا منذ القدم والكردي الأصل في هذه الآونة وبالذات لا يمكن تفسيره بمحض مصادفة. ص 131. وكذلك الحاقد الآخر: رضا نور، في مذكراته حيث يشوه سمعة شريف باشا: لا يتورع هو الآخر كما جاء في مذكراته، عن شتمه والصاق أفذع الصفات وأشنع الافتراءات به. ص 95. واستخدم عبارات مثل «عديم الاخلاق» و«عديم الحيثية» و«عديم الشرف». بل بلغ به الغضب حد الإقدام على المشاجرة معه بباريس لولا تدخل بعض أصدقائه في الموضوع وتهديتهم إياه. ص 95. كما في (لم تكن حياته من أولها إلى آخرها سوى فوضى في فوضى. ص 96. والاتحادي القديم الآخر السيد أحمد رضا دارس الزراعة في فرنسا، ويفكر في اغتيال شريف باشا عندما ساءت علاقته به. ص 97. الخ). وقد أوردت هذه المقاطع، تعزيز مؤسفاً لتلك المواقف الأكثر عدائية من كردي ليس تجاه كرديته فحسب، وإنما كل من له صلة بالكردية أيضاً، وهو ما يستحق دراسة مستقلة، عن هؤلاء الذين يعيشون «نزوة اشتهاة خدمة الغريب والعدو الألد لبني جلدتهم» ويوغلون في الإساءة إلى هؤلاء، وما يترتب عليه من ممارسة سلوكان مشينة، وتماهٍ مع العدو، وهذا ما يذكّرنا بمن يقفون لهم بالمرصاد، والحرب عليهم.

وما يفيد في تتبع الأثر بخصوص هذه الذهنية، يمكن مكاشفة ما اشتغل عليه مالميسانز نفسه، في كتابه: عائلة جميل باشا الديابكري، المصدر المذكور، وأورد التالي:

ولا أكثر من هذه الفرص في أرض واسعة مراقبة مباشرة أو عن طريق الوكلاء، من الكرد أنفسهم.

وهو ما يتضح أكثر في السلوك «إن سياسته المعتدلة والذكية في إدارة الأمور الداخلية جعلته يحصل على دعم قوي من قسم كبير من أعضاء الاتحاد «الهفيكان». ولم يتردد في استخدام الشدة ضد بعض العشائر التي لم ترغب في الانضمام إلى ذلك الاتحاد. ص 62».

أتوقف هنا عند بعض النقاط، ما أمكنني ذلك، جهة السياسة التي اعتمدها أتاتورك. في الوقت الذي كان عليكي بطي يسعى جاهداً إلى الملمة الصفوف، لمواجهة

حسب ما يذكره كاظم قره بكر، قائد الفيلق الخامس عشر للجيش. قائلاً: «إن الكرد لا صلة لهم بالعلم والعرفان وهم في حالة تأهب دائمة من أجل إنهاء بعضهم البعض. ص 89» ويعلق الكاتب قائلاً من جهته: إن قره بكر الذي يرى «المسألة العرقية كمسألة ملحة وطارئة» لا يحب الكرد والعرب أكثر من الأتراك، ويفهم من اقتراحه السابق، ضرورة منع تعيين الموظفين الكرد والعرب في المواقع الحساسة. رغم ذلك يقوم قره بكر نفسه بالدعاية «12-9/ 1919»، لفكرة أن الكرد والترك هم «أبناء نفس العرق والتاريخ» أما بعد يومين فيكتب أن الكرد والترك «شعبان تربطهم الأخوة». ص 89.

ويسترسل في الكلام معمقاً هذه النقطة: لا يُعد قره بكر الوحيد الذي يعطي الأهمية لمسألة العرق، بل يغالي الدكتور رضا نور الذي عمل سابقاً وزيراً للتعليم القومي، وبعد ذلك أصبح وزيراً للصحة في أنقرة «من عندي ما وجه الصلة بين الوزارتين؟» بهذا الأمر حيث يقول: «إن الأمر الأهم هو تحرير تركيا من العناصر التي تسببت في إضعاف بنيتها منذ عصور غابرة وأقامت الانتفاضات وأصبحت آلة بيد الدول الأجنبية، ووضعهم في نسق واحد مع تركيا، هذا الأمر هو الأهم الذي شغلني كثيراً..»

إن أهم الأعمال وأكثرها حيائية وعدلاً هو عدم ترك أي أثر لإنسان مختلف عن عرقنا، لغتنا وديننا في وطننا. لهذه الأسباب وهبت نفسي بشدة للتعصب القومي منذ سنوات طويلة. كما أعمل لهذا في نتاجاتي ومقالاتي، أقوم ببذل الجهود المضنية من أجل تطبيق ذلك خلال مهامتي. من أجل هذه الأسباب، يُعتبر أهم الأعمال وأولها تفكيك مناطق قرى الشركس والأرناؤوطيين وتوطينهم في أماكن مختلطة مع الأتراك...

«هؤلاء العناصر الأجنبية بلاء وجراثيم. هؤلاء الكرد، يتوجب فرض سياسة الانحلال ضدهم وتجريدتهم من عرقهم ولغتهم المختلفة.»

«يحافظ الروم على امتيازاتهم الدينية التي حصلوا عليها نتيجة الفتوحات، ولدي عزم على إزالة كل ذلك من الوجود. منذ أن وعيت على أحوال بلادي سياسياً ودينياً وحتى سني هذا كنت عدواً لدوداً للبطريكية الرومية وامتيازاتها، وازدادت عداوتي شراسة منذ أن أصبحت قومياً متعصباً. ص 90. ... الخ

الدولة وسياستها المتنامية في التتريك، أو تهميش الاثنيات الأخرى غير التركية، والتركيز على الكرد، ليكونوا من ناحية، دعامة الرئيسة في هذا المضمار، حال الذين سبقوه في ذلك، منذ أيام السلطان سليم الأول، ومن جاء بعد أتاتورك، وإلى يومنا هذا، وليتم إضعافهم، جرّاء هذا الفارماكون «العقار السم، في آن واحد» عقار له، حين يخفّف من الضغوط عليه، وعلى حلّمة الطوراني، وسمّاً للكرد، حيث يجري تمزيقهم، وتفريقهم وتخريقهم، إن جاز التعبير، من ناحية أخرى، ومن خلال أمثلة وردت في كتاب مالميسانز «جميل باشا الديار بكري، المشار إليه لأكثر من مراراً:

(لنذكر بما قاله مصطفى كمال باشا سابقاً، وكما يذكر قدري جميل باشا: عند تشريف حضرة مصطفى كمال باشا لمؤتمر أرضروم في 1919 أنا أيضاً كنت متواجداً هناك. أوضح علناً ميوله القوية لإنشاء كردستان مستقلة. كان هناك سيد يعرف نفسه كممثل للكرد في باريس باسم شريف باشا، ويتفاوض مع هذا وذاك، علمنا بذلك. قمنا بإخبار الممثلين البريطانيين ورئيس أمريكا «ويلسون» في ذلك الحين خطياً، بأنه لا يملك أي أحد حق التمثيل عنا وطلبت من حضرة «غازي باشا» أن يتخذ التدابير اللازمة تجاه هذا الخطر. وعند البدء بأولى جلسات مجلس النواب في 1920، أرسلت برقية تهنئة بهذه المناسبة، أعربوا عن غضبهم تجاهي، وقالوا لي «مادمت كردياً لماذا تميل للأتراك؟»: أنا لم أستطع أن أعبر عن رأيي وأفكاري بوضوح بقيت وحيداً. ص 58).

يُذكر هنا من خلال ذكريات سيف الدين بوداق حازرولي مع مصطفى كمال، خلال الأيام التي قضاها معه في سيلوان كالآتي:

من أهم القضايا التي شغلت بال مصطفى كمال باشا كقائد للفيلق السادس عشر خلال فترة تواجده في سيلوان، كانت مسألة تأمين اللوازم اللوجستية للجيش. كان الباشا يتصل على الأغلب مع محمد بك دوناً عن جميع أفراد عائلتنا. عند زيارته لـ «حازرو» كان يحل عليه ضيفاً. في إحدى المرات قدم إلى «حازرو» برفقة مجموعة من ضباط المركز القيادي وحل ضيفاً على محمد «بوداق بك»

أعدّ له ذلك اليوم مائدة متنوعة من ألد الأطعمة. عند دعوة الباشا لمائدة الطعام، لم يجلس على المائدة، بل قال: «لا أستطيع أكل هذه الأطعمة اللذيذة والجنود جوعى في الجبهات». ينهض محمد بك من مكانه على الفور، ويقول «سأتحمل مصاريف تأمين اللوازم اللوجستية للجيش لمدة شهر واحد، فقط لا تحرمونا شرف مشاركتكم

على هذه المائدة». بعد قوله ذلك ينهض الجميع للمائدة، في نفس ذلك اليوم يتم جمع كمية كبيرة من القمح. دفع محمد بك «800» كيل «كيل واحد يعادل 300 كغ من القمح»، خطيب بك «400» كيل، و«500» كيل من القمح من قبل الشعب. يتم تسليم المجموع لمسئول اللوازم اللوجستية «شوقي بك»... وهكذا مع آخرين.. ص 71.

وهناك تحركات مصطفى أتاتورك:

مثلاً، ما فعله في ديار بكر آذار 1917:

حسب ما يذكره قذري جميل باشا «زنار سلوبي»: عند تواجد مصطفى كمال في ديار بكر كقائد للجيش الثاني، كان يشارك الرؤساء الكرد في كل مناسبة لدرجة أنه عقد معهم علاقات الصداقة.... اعتباراً من تاريخ تأمينه الانتصار، أزال جميع الإمارات الكردية من الوجود واحدة تلو الأخرى وذلك عن طريق المؤامرات والدسائس. دمر الكرد عن طريق ممارسات مختلفة من تركيا. خصص مصطفى كمال باشا طابوراً عسكرياً من الكرد من أجل حماية مركز قيادته، ألبسهم القيافة الكردية والكولوز وعين على رأسهم قائداً كردياً من ديرسيم واسمه «حسن خيرى بك»... «...» بصورة متعمدة. كان مصطفى كمال باشا يقوم باصطحاب طفلين كرديين يتيمين معه حينما كان يتجول في المدينة. كان عمر الطفلين لا يتجاوز «6-10» سنوات «في كتاب زنار سلوبي 8-10» سنوات، ص 52»، وكان يلبسهما نفس القيافة المستعملة من قبل الطابور العسكري «...» هذه الاستعراضات كانت تجري لغرضين رئيسين، الأول، فرض سياسة الإمحاء والإنكار على الشعب الكردي، والغرض الثاني، ليعرض الباشا مدى حبه للكرد. كان ما يظهره مصطفى كمال باشا من مودة شكلية للكرد، تأثيره الكبير، لدرجة وصل بالبعض القول بأنه كردي الأصل «المصدر من زنار سلوبي». ص 73.

وأكرم جميل باشا، نفسه، عمل فترة، ضابطاً للشيفرة لدى مصطفى كمال باشا هذا. ص 73.

وكذلك من ألعاب السلطة الجديدة.

وبداية، دافع الخلافة والسلطنة:

أقيم مؤتمر أرضروم في 23 تموز- 6 آب 1919. في ذلك الحين أرسل مصطفى كمال باشا، رسائل لبعض العشائر، الرؤساء، الشيوخ والأغوات الكرد. على سبيل المثال، كتب رسائل للشخصيات التالية في 10-13 1919 «من عندي، حينها كانت حركة عليكي بطي في أوجها»:

حاجي موسى بك رئيس إحدى العشائر في موتكي Mutki، شيخ عبد الباقي أفندي كفري زاده في بدليس، عبدالرحمن آغا شرنخ، عمر آغا درشيفلي، رسول آغا من مُشار، سعداله أفندي «المبعوث السابق»، شيخ محمود أفندي، شيخ ضياء أفندي من أكبر الشيوخ في نورشين، جميل جتو بك، من رؤساء غرزان، يستخدم لغة مرنة ومادحة في تلك الرسائل وينهي رسائله بعبارات مثل «أقبلكم من عيونكم»، «أرجو قبول محبتي واحتراماتي». رغم خروجه ضد الخلافة والسلطنة، وفصله من مهامه في المجلس الرئاسي بتاريخ «23 حزيران 1919» وإبلاغ جميع المؤسسات الرسمية بذلك من قبل وزير الداخلية «علي كمال» في ذلك الوقت، لا يذكر مصطفى كمال أي أمر بشأن فصله من مهامه في تلك الرسائل التي كتبها في 10-13 آب 1919، بل طلب من الشخصيات الكردية المعروفة مد يد المساعدة لمقام «الخلافة والسلطنة» التي تمر بظروف عصية نتيجة مخاطر تأسيس أرمنستان. لنلقي نظرة على جزء من رسالة كتبها لـ «حاجي موسى بك» من موتكي يقول فيها :

«سيدي

مازلت أحتفظ بداخلي على عواطف الصداقة والمودة التي ربطت بيننا أثناء تواجدي في قيادة الجبهة الثانية وضمن تلك الظروف العسيرة. يتم تقييم إخلاصكم وخدماتكم العظيمة في سبيل الوطن والأمة والدولة منذ القديم وإلى الآن من قبل الشخصيات المرموقة في الدولة «...».

تم انتخاب مجلس الممثلين بالإجماع في مؤتمر أرضروم. لقد تم انتخابكم أيضاً كعضو في مجلس الممثلين بالإجماع، من قبل المشاركين في المؤتمر «...».

أتمنى من الله تعالى أن يوفقكم في مهامكم من أجل وطنكم وأمتكم، مع قبلاتي. ويذكر «كاظم قره بكر» أيضاً خلال مؤتمر أرضروم، أن حاجي موسى بك، سيلعب دور «القوة الاحتياط» في حال حدوث أي ارتداد. لكن الحقيقة تؤكد بأن مصطفى كمال باشا لا يذكر شخصية «حاجي موسى بك» بشكل إيجابي رغم إطرانه ومدحه في الرسالة وانتخابه في «مجلس الممثلين» خلال مؤتمري أرضروم وسيواس.

عكس ذلك يقيّمه مصطفى كمال في كتابه «النطق» على أنه رئيس عشيرة «مسكين» و «لم يشارك في إدارة الجيش والسياسة ولم يخدم الوطن والأمة» ويضيف «أنا أعرف أن رئيس عشيرة موتكي إنسان جبان ولم يخرج من جبال موتكي» ص 85

يوضح مصطفى كمال نفسه في رسائل خاصة أرسلها لبعض القادة والمسؤولين قبل التجمع من أجل مؤتمر «أرضروم» في 21 حزيران 1919، كيف أنه استفاد من دوافع السلطنة والخلافة حيث يقول:

«هناك بعض التيارات مثل التي تنادي باستقلال كردستان وبمساندة وتحريض من الانكليز، في وقت تتعرض فيه الدولة للانتقام» طبعاً كانت الدولة مفككة جرّاء هزيمتها وخضوعها لهيمنة الانكليز والفرنسيين خاصة. من عندي، نتيجة النداءات المكتوبة التي وجهناها لهذه التيارات واقترحنا لمشاركتهم في آملنا المشتركة في المنطقة من حيث الخلافة والسلطنة، وصلنا إلى التفاهم في جميع النقاط وعلى إثره أعلنوا عودتهم لجانبنا، لذا قمنا بدعوتهم للمؤتمر. ص 85.

هناك عبارات كما ذكر في السابق «عن الخلافة والسلطنة وحمايتهما» في البيان الختامي لمؤتمر سيواس حيث يذكر في البند الثاني: «من أجل المقام العالي للخلافة والسلطنة وتأمين استقلال ووحدة الكيان العثماني، لا بد من تفعيل القوة والإرادة المالية بشكل قطعي».

طبعاً، وليس من مثال يشير إلى أنه راسل الهفيركيين هنا، وإلا كان سيؤنى على ذكرهم.

كذلك يذكر «أحمد جودت» وكيل قائد الفيلق الثالث عشر للجيش في رسالة له كتبها لمجلس الممثلين العام في مؤتمر سيواس «14 أيلول 1919»، أنه يتوجب وضع مسألة التحكم بالعشائر الكردية والعربية خلال سياسة الخلافة بعين الاعتبار «طبعاً كان هو ومصطفى كمال وغيرهما يعلمون أن هناك تحضيراً لمؤتمر السلام، وأنه سيأتي على ذكر حقوق الكرد والأرمن، كما هو معروف في مباحثات هذا المؤتمر، فأعدّ هؤلاء لكل ذلك عدتهم، للالتفاف على أي محاولة معاكسة لها. وأفلحوا في ذلك كثيراً، ومن ذلك خيبة أمل شريف باشا. ملاحظة من المؤلف إ. محمود..»

بعد مرور سنوات يبيّن مصطفى كمال، أن السلطان مشارك مع حكومة فريد باشا في «الخيانة» ويوضح ما مارسوه كتكتيك للإساءة إلى الهدف «كانت ضرورة تلك المرحلة تحكم بالابتعاد قدر المستطاع عن المواجهة المضادة والهجوم المباشر... قمنا باختيار حكومة فريد باشا فقط كهدف للهجوم ولم نكن ندري بمساهمة السلطان نفسه في هذا العمل علمنا بحقيقة أن حكومة فريد باشا لم تخبر السلطان بالحقائق وخذعته... ص 86».

ويتطرق كاظم قره بكر، قائد الفيلق الخامس عشر للجيش «آب- أيلول 1919» في كتاباته وبشكل علني لماهية الدعايات التي كانت تجري بين الكرد عن طريق عامل الدين «كانت دعايتي الأساسية تجاه ذلك: إن الكرد هم الترك الجيليون القدماء وهم مشتركون في وحدة الأمة والدين والوطن منذ غابر الزمان... القوة الأساسية التي تربطنا بالكرد هو الدين ص86».

كذلك يكتب قره بكر الآتي «لا بد من تقوية مراكزهم المهمة ومواقعهم بالعناصر التركية- بما فيها محيط بحيرة وان- قمت بتقسيم تشكيلات العشائر إلى أقسام صغيرة قدر الإمكان. كذلك كنت أفرض سيطرتي وأقوم بدعاية مكثفة في سبيل التأكيد على أن الكرد ليسوا مختلفين عن المجتمع التركي وأن أي نشاط يجري بشأن المسألة الكردية في الحصيلة يردى إلى إنهاء الكرد بتأسيس وطن كبير للأرمن. ص87».

وبإمكاننا قراءة موجز عن هذا الوضع في عبارة مذكورة داخل برقية مرسلة لـ «كاظم قره بكر» من قبل وكيل والي خربوط/ خربوت «حيدر بك» حيدر حلمي ينر «20 أيلول 1919»، فحواها «لا يوجد أي رابط بين الحكومة والشعب أساساً. لكن هناك فقط رابط معنوي. إن الكتاب هي الأمة الإسلامية، والخلافة هي المادة اللاصقة يتوجب الحفاظ على المادة اللاصقة «من عندي، يتم تأكيد هذه النقطة كثيراً، من قبل الساسة الترك، وفي واجهتهم أردوغان ص87».

في فقرة: الدافع الأرمني وأرمنستان:

يذكر كاظم قره بكر، في أيار 1919 وبشكل واضح الآتي «إن الأمر الأهم الذي يتوجب الوقوف عنده هو تيار القوميين الكرد. هناك نشاطات كثيرة بهذا الشأن في ستانبول، باستطاعتي التنسيق مع العشائر في منطقتنا والتحكم بهم من خلال باشواتهم بالذات. يمكن حل المسألة بسهولة من خلال إفهامهم بأن كردستان ستصبح أرمنستان ص88».

كما قد تطرقنا سابقاً لحديث القائد العسكري «خالد بك»، حسب ذلك وحسب قيادة الفيلق الثالث عشر أيضاً «كان يتم تخويف ذوي النفوذ رفيعي المستوى بأرمنستان. وأنه يتوجب عدم الانخداع بعهود الانكليز بشأن تشكيل كردستان، إن الكرد ليس بإمكانهم تأسيس دولة كردية سيقدمونها لأرمنستان وإفهامهم أن سلامتهم تكمن في عيشهم كأخوة مع الأتراك وتحريك عواطفهم الدينية والوطنية. ص88».

وهو ما سنجد له أثراً في نفوس المقيمين على الأرض وهم في تنوعهم الاثني: الأرمن، السريان، والكرد، وتصادم الدعايات حول ما يمكن للانكليز والفرنسيين أن يقوموا به، والدعاية المركزة التي عرف بها الاتحاديون، وقدوتهم مصطفى كمال باشا .

الموظفون المحليون والقضايا العرقية

يذكر جوت بك، قائد الفيلق الثالث عشر، للحيش في ديار بكر من خلال برقية له أرسلها لمجلس الممثلين في أماسيا بتاريخ 16-17 / 10 / 1919 «يمنع إرسال الموظفين الرفيعي المستوى المحليين إلى كردستان لحين التوقيع على الهدنة. الأمر العجيب هنا، أن صاحب الاقتراح الذي ذكرناه فوق هو «جودت» قائد الفيلق الثالث عشر للجيش وأصله عربي من بغداد وكونه عربياً كم سيكون مخلصاً للقومية التركية، فإن الاقتراح المذكور أدناه من قبل «كاظم قره بكر» واسعٌ بالقدر الذي سيشمله، والحقيقة تؤكد أنه وبعد مرور أقل من سنة على طرح جودت بك لاقتراحه، بعد تأسيس الحكومة الجديدة في أنقرة، تم سحبه من مهامه في حزيران «1920» حيث سافر على إثر ذلك إلى بغداد، وأصبح من أحد رعايا الملك فيصل. يكتب كاظم قره بك قائد الفيلق الخامس عشر في أضرورم برقية لقائد الحربية بتاريخ 13-12 / 1919، ويقدم اقتراحات مشابهة لاقتراح «جودت» السابق:

«... إن أهم مسألة في المرحلة الحالية هي المسألة القومية الكردية».. «برأيي إن المسألة العرقية مسألة طارئة، يمكن أن تعمل اليوم مجموعة كبيرة من العسكريين أو الموظفين، بشكل متفانٍ مع الشعب التركي، لكنهم قد يعملون لصالح أعدائنا أيضاً. يتوجب وضع ذلك بعين الاعتبار «يشار هنا، كيف أن هؤلاء يدققون في وقائع التاريخ في علاقتهم بالكرد، حتى الآن، والكرد، كما لو أن ما كان بالأمس لم يكن له حضور غالباً. توضيح من المؤلف» في كل الأوقات، لذا من الضروري تقوية الأماكن التي يتواجد فيها هؤلاء بعناصر تركية... في الوقت الذي يتم فيه نشر الوعي القومي بين أقرب العشائر في ديرسيم وأرزنجان يقوم هذا الشعب المسكين بعقد اتفاقات مع العرب والأرمن ويحرضون من أجل إقامة دولتهم، حكومة أرزنجان تغض الطرف، وقد تكون لديها المعلومات الكافية عما يجري لكنها تغض النظر وتقدم الدعم ص89».

أما مصطفى كمال وبعد سنوات، أي في «1932» يقول «إن الديار بكريين، الوانيين، الأضرورميين، الترابزونيين، الستانبوليين، التراقيين والمقدونيين جميعهم أبناء عرق واحد.. ص90».

وفي هذا الممعان علينا أن نتصور ما يمكن أن يحصل، كما هي سياسة رمية الصخرة الكبيرة في ماء ساكن، والحركة الاهتزازية والرشقات المحيطية التي تحدثها سقطة الصخرة تلك ومن عل ، ومن مباغته لمن لم ليس له صلة بهذا المستجد، أي ليس مؤيداً لهذا الفعل، فتكون المواجهة متوقعة، والصراع قائماً بالتالي:

«ومثلما كان الدكشوريون في حالة صدام مع الهفيران، فإنهم لم يكونوا تابعين في أي وقت للحكومة الكردية في بوتان. وقد دعموا بقوة الجيش العثماني في حربه ضد بدرخان بك. ولهذا السبب كان الهفيران يكون بغضاً وغبضاً ضدهم، وفي عهد حاجو الثاني كان زعيم دكشوري هو يوسف حسن شمدين، وكان يوسف هذا يهاجم قري هفيران وينهبها، ولهذا السبب سار حاجو الثاني ضد يوسف حسن شمدين... ص 64».

كان ذلك يعني فتح جبهة جانبية مع الدولة بالذات، حيث يتميز الكرد تاريخياً، في حروبهم بالوكالة، إلى يومنا هذا، وهذا مما يؤدي إلى إضعاف مستمر لهم، وإلى المزيد من طمع ليس أعدائهم فيهم، وإنما من يرغبون في مد نفوذهم إلى الداخل، عبر وسطاء، أو متنفذين، أو سماسرة أو أصحاب خدمات خاصة من الكرد بالذات، أي حين يوقرون على أعدائهم والذين يدخلون على خط التماس، والتهيئة للدخول إلى عمقهم الاستراتيجي «رغم تدني مستوى هذا الجانب تاريخياً الكثير من الجهد، والضحايا، أو تداعيات المجابهة المستمرة»⁽¹⁾.

(1) بمرارة موازية، يمكن لنا أن نقرأ بعضاً مما تقدم، وما ينير ما أسلفنا القول فيه، في كتاب أكرم جميل باشا: مذكراتي، الترجمة من التركية إلى العربية د. قدري الدياربيكري، المراجعة اللغوية والتقديم: فدان آدم، بير، ديار بكر، ط3/ 2007، وهو يقول بمرارة طبعاً، حيث يتحدث عن الآثار المدمرة للحرب العالمية الأولى في كردستان (وكانت الحرب التي استمرت أربع سنوات قد آذت كردستان كثيراً وخشنتها وأضعفتها جداً.. ص 26).

وإذا استثنينا نحو عشرة من العلماء المحترمين أمثال خواجه حمدي أفندي وخواجه كومرجي، كان هناك مئات الملاي في زي العلماء والمشايخ اللصوص والملعونين والخائنين. ص 27. وبدءاً من 1921 (لم يكن الوضع في كردستان عموماً وفي ديار بكر خصوصاً كما نتوقع قطعاً، لأن مصطفى كمال وحاشيته كانوا فطناء ومكرة وشجعاناً وكانوا على علم كيف يخدعون الكرد الجهلاء الذين هم مستعدون لأن يجعلوا كل شيء فداءً لديهم. ص 41).

نعم، كان مصطفى كمال اعتباراً «1926» يقوم بمظالم وحشية في كردستان فنفي الأسر الكبيرة في المدن إلى الأناضول بشكل عائلي ثم نفى بعدهم زعماء العشائر وأخيراً نفى عوائل من الدرجة الثانية وساق حوالي خمسين ألف سجين في سجون ديار كردستان المختلفة إلى سجون أخرى. ص 46).

أي ما يجعل الكردي الداعم للعدو هو نفسه العدو لهذا العدو تالياً، حين يفرغ من مهمته، ودون اتعاض. ولعل المفكر التركي، وصديق الكرد بامتياز اسماعيل بشكجي أكثر من كتب في هذا المضمار، أذكر كمثال، ما أودعه مقاله «كرديان» وهو يقارن بين اليهود وكيف تعلموا من التاريخ ليوحدوا صفوفهم، والكرد الذين واتتهم فرصة التقارب والتوحد في الصفوف، لكنهم، لم يتقاربوا ولا توحدوا، لا بل استمروا في التعامل مع أعدائهم التاريخيين. ينظر في المقال الذي نشرته، هو ومقالات أخرى، ترجمتها عن الكردية «الوسيلة» وفي كتاب: الكرد بين التاريخ والجغرافية، منشورات مركز بشكجي للدراسات الإنسانية، أربيل، 2017، صص 71-86.

وحسبي أن أشير هنا إلى كتاب الرمز الكردي الكبير في النضال القومي زنار سلوبي «قذري جميل باشا» وكتابه: مذكراته في سبيل كردستان «مذكرات»، ترجمة: ر. علي، ربطة كاوا للثقافة الكردية، دار الكاتب، بيروت، ط1، 1987، إذ لا يعرف كتابه بحماسة لكرديته، لكنه يشكو من ثغرات ومفارقات كثيرة، مثلاً، حين يتحدث عن الانتفاضات الكردية، بدءاً بانتفاضة ملا سليم شهاب الدين في ولاية سيرت، عام 1913 «ص 34»، دون أن يأتي على ذكر انتفاضة عليكي بطي، وهي تأتي في صدارات الانتفاضات «التمردات/ العصيانات» في التاريخ التركي الرسمي.

وحين يتحدث عن جمعية «هيفي» وكيفية تنظيم صفوف المعنيين بها في النضال العملي، فيقول (أرسلت «أي الجمعية» عدداً من أعضائها الشباب النشيطين سنة 1921 إلى كردستان، بغية النشاط هناك، ونشر الإيديولوجية المتفكة مع طموحات الجمعية، وهم أكرم جميل باشا، وحمزة بك، من ميكيس. لقد عمل أكرم جميل باشا، بشكل سري في منطقة ديار بكر، إلا أنه أثناء زيارة له لزعيم قبيلة هفيران عبدالكريم علي رمو، قُبض عليه من قبل صاحب البيت، وسُلم للسلطات التركية التي أرسلته بدورها إلى أنقرة، للمثول أمام محكمة الاستقلال. وبطرق أخرى ملتوية أُعتقل كذلك حمزة بك، الذي بقي فترة من الوقت في سجن ديار بكر. ص 69).

وهذا غير صحيح على الإطلاق، فأسرة رمو نَحِيت عن زعامة هفيران قبل عدة آباء، وفي التاريخ المذكور، كان هناك حاجو الثالث المعارض للدولة التركية. فكيف تسرّب الخطأ إلى «ذاكرته» أو نصه ؟

وربما كان هناك أقسى الانتقادات، إلى درجة التحامل، تلك التي وجَّهها إلى البدرخانين، وأنشطتهم، وفي الواجهة: جلالات وكاميران بدرخان، والرد عليهما، بأن البدرخانين كانوا يفتخرون بأصلهم النبيل...، ويتعالون على رفاقهم، ويرغبون في إملاء رأيهم على الآخرين... ورد عليهم بأن زعمهم بأنهم أول من وضعوا ألقاب الكردية بالرسوم اللاتينية ليس صحيحاً... الخ. ص 197-198، وفي هذا الاستغراب الأكبر، والذي يفصح عما هو أكبر من الحساسية التاريخية عينها، بالنسبة إليهم، وإلى هفيران، من موقع البكوية بطابعها المدني «الديار بكري» وهناك ما يعمّق هذه المفارقة، عندما نقرأ في كتاب الباحث الآشوري الشهير يوسف ملك: كردستان أو بلاد الكرد، مراجعة وتدقيق: د. عزالدين مصطفى رسول،

وما يشدد أيضاً على استثنائية موقع حاجو الثاني، حين يقول جبو «قدّم حاجو الثاني دعماً كبيراً لعودة البدرخانين مجدداً إلى كردستان وإقامتهم حكومة كردية مستقلة، ومرة أخرى أصبح الهفيركانيون بمثابة القوة الضاربة لبوتان. وقد انسحبت القوة العثمانية الموجودة في المنطقة أمام هجمات الهفيركان. وأصبحت المنطقة كلها تابعة لأمير بوتان عثمان باشا. ولم يحقق العثمانيون أية نتيجة من إرسال العسكر ضد جزيرة «جزيرة» مرات عديدة. وقد وسّع الأمير حدوده وأدخل ضمنها جولميرك وزاخو وعمادية وماردين ومدياد ونصيبين. ص 65».

يعني ذلك أن الدولة المصغرة والمقامة هي إمارة هفيركان لا إمارة بوتان، سوى أن حاجو الثاني، وتقديراً منه، كما هو معاًين لرصيد الإمارة التاريخي والكردية، والعلاقة الوطيدة بينهما، كان إخلاصه لهذه العلاقة، وربما لو أنه طالب السلطان العثماني بنفوذ سياسي، في المساحة التي انتشر فيها نفوذ عثمان باشا، ورضي بالتبعية للسلطان، كما كانت حالة إمارة بدرخان بك، لنال موافقة ما، وتمكّن حينها بالمقابل، من الاستمرارية أكثر في عملية الزعامة، ومد نفوذه على الجوار الجغرافي، من خلال تحقيق النصاب المطلوب لتأكيد زعامة إماراتية، وتسمية إمارة له «مزيزخ، مثلاً»، وهو الذي يندرج في خانة «سلاطين هفيركان» وهذا لافت للنظر طبعاً. لكنه لم يشأ، إنما أثار غضب السلطان عليه، وهو ما دفع هذا السلطان، وكما هم أسلافه، تمكن بالمرء والحيلة من استدراج عثمان باشا الذي نسي أو تناسى هذه السياسة في الخديعة والمكر، كأنما لم يراجع ذاكرته القريبة وهي تريح خريطة إمارة بوتان وكيف قضى عليها بالطريقة هذه كثيراً، مما سهّل عملية التغلغل إلى الداخل، وليبقى حاجو الثاني هذه المرة في مواجهة خصومه الألداء، إلى جانب الدعم المادي والمعنوي من الباب العالي بالذات «بينما كان الدكشوريون يتسلحون ويعيدون لمّ شملهم جاءت الدولة أيضاً

منشورات مكتب الفكر والتوعية في الاتحاد الوطني الكردستاني، ط2، 2006. الطبعة الأولى للكتاب بيروت، 1945، وهو الذي عاش بين عامي 1899-1959، ما يخص نص برقية قدري بك جميل باشا هذا في وفاة جلادت بدرخان (عندما عدت اليوم من الرقة علمت بالخبر المؤلم الذي أفاض الدم من قلبي. أن آخر واجب كان يترتب علي نحو قائدنا العظيم هو حمّله على رأسنا فحيل بيني وبين هذا الواجب لذلك أشعر بالعميق ويزيدني أسى على خادم الأمة يقيني أنه لن يأتي عوض عنه وقد كنت أود أن أجثو على رطبتني أمام هذا الفقيه العزيز الذي هو ملكنا جميعاً لأطلب منه المغفرة ولروحته الرحمة ولأنفسنا العزاء.

معربة عن التركية، حلب، 17 تموز 1951. ص158).

فكيف نفسّر هذه الخصومة، وهذا التبجيل والتعظيم والتفخيم في الحالة الأخيرة ؟

لمساعدتهم. وبدأوا الحرب سوية ضد هفيران، وتم إحراق قرى الكرد ونهبها. وقتل وأسر عدد كبير من الناس. كما أن إبراهيم وجمو العالمين ضمن ألوية الفرسان الحميدية، انضموا إلى القوات العثمانية. وقد جرت معارك قوية مع قوات حاجو التي اتخذت مواضعها في قرية مزيخ. ونتيجة القصف المدفعي الكثيف تحولت القرية المذكورة إلى أنقاض وتمت تسوية قصر حاجو بالأرض، وارتكبت مذبحه كبيرة في المنطقة. وأمام هذا التفوق في القوة العسكرية اضطر حاجو إلى الانسحاب إلى جبل مافا، الذي يقع ضمن منطقة حلفائه عشيرة سيدان «السياد»..ص 66.

بعيداً عن الاسترسال في الكلام، يسهل تبين القوى المشاركة في هذه المواجهة المشتركة:

عشيرة دكشوري ومن معها في المنطقة.

من كانوا منخرطين في قوات الفرسان الحميدية، وهؤلاء اكتسبوا خبرة في الحرب واستعمال السلاح الثقيل.

الدولة عن طريق قوة عددية وعناصر مرافقة، تعزيز للقوتين الآخرين، وبغية النيل من قوات حاجو.

وما عملية حرق الأرض والقرى، وتدميرها ونهبها إلا التعبير الأوفى عن هذا الغل النفسي المتراكم.

طبعاً، مثل هذه الاصطفافات كانت تزيد في تبديد قوى الكرد، وفي إحداث المزيد من الشروخ في الذهنية الكردية، لا بل وتزايد نسبة الذين لا يغيرون ولا هم ويعتبرون أنفسهم داعمين لهم إنما أعداء «قوميين» لبني جلدتهم، وهذا يزيد بالمقابل من تمادي سياسة التصفية والصهر القومية التي اتبعتها حكومة السلطان عبدالحميد بداية، وبشكل سافر مع الاتحاد والترقي، وبلغت الذروة مع أتاتورك.

حول ذلك يقول أحد الباحثين في هذا الشأن الاصطفاي (كان لإنشاء الألوية الحميدية نتائج سلبية وإيجابية على تطور القومية الكردية، ومن بين أكثر السلبيات إحداث التناقضات القبلية بين السنّة والشيعة، فالألوية كانت قد تأسست من القبائل السنّية فقط بحسب سياسة عبدالحميد البان إسلامية «متعدية الدين»، وهذا أضعف بشدة مكانة القبائل الشيعية والعلوية. وزاد من العداوة بين السنة والشيعة بصورة عامة، أن شريف فرات الذي سجّل بعض تلك النزاعات أشار إلى مدى تأثير هذا الموقف في استمرار المنازعات داخل قبيلته العلوية التي ينتمي إليها ومن جانب

لآخر كان أعضاء قبيلة هورمك، المؤلفين من الملاكين والفلاحين، يعتبرون أنفسهم غير قبلين وأنهم ليسوا كرداً، وأنهم ينتمون إلى مجموعات من التركمان...

ومن إيجابيات الألوية الحميدية، لقد كانت في القمة من الأهمية حينما ظهرت القومية الكردية من سنة 1891-1914، وعملت كنقطة ارتكاز أساسية للقوة الكردية طوال عقدين... إن الانتساب إلى الألوية الحميدية منح الكرد فرصة التدريب، ومحاولة فهم العالم بشكل أوسع، وأن المرسوم القاضي بتأسيس الألوية الحميدية، تطلّب وجود مدارس عسكرية لتخريج الضباط لقيادة هذه الفرق، وكان متاحاً لأبناء زعماء القبائل الانتساب إلى هذه المدارس العسكرية، وكان بحد ذاته تطوراً له تأثيرات بعيدة المدى...⁽¹⁾.

طبعاً، يمكن الموافقة على مثل هذا التحليل للوهلة الأولى، لكن المقارنة بين السلبيات والإيجابيات، تظهر لنا البون الشاسع والهائل بين الحالتين. إذ إن ظاهرة البغضاء والكراهية والحد التي تأصلت في نفوس الكرد ممّن لم ينخرطوا في هذه الألوية والنقمة على الذي اندفعوا إليها لمصالح شخصية، ربما عمّقت حالة العداء الكردي- الكردي، إلى يومنا هذا، إلى جانب أن أولئك المنخرطين، وكونهم أسهموا، وبنسبة اعتبارية عالية في نيل الثمار المضرجة بدماء بني جلدتهم، وحتى أبناء شعوب بريئة، وفي الواجهة: الشعب الأرمني، ليشكل لهم رصيد من نوع آخر، وهو السعي ما أمكن إلى تجاهل كليّ لنسبهم الكردي، وبالتالي، فإن عائدية الخبرات المتحصلة، ومن

(1) أولسون، روبرت: تاريخ الكفاح القومي الكردي 1880-1925، المصدر المذكور، صص 36-40.. وللتوسع في هذه النقطة، يمكن قراءة ما فصل فيه اسماعيل بشكجي، في كتابه: تنافسات المستعمرين حول اقتسام كردستان 1915-1925، الذي ترجمه ولات توفيق من التركية إلى الكردية:

بزاڤين داڤير كه ران ل سه ر دابه شكرنا كُردستانى 1915-1925، منشورات مركز بشكجي للدراسات الإنسانية، جامعة دهوك، دهوك، 2019، الفصل السادس، سفر مصطفى كمال باشا إلى سمسون، ومؤتمري أرضروم وسيواس و«الهيئة التمثيلية»، صص 272-319، وخاصة اتصالات مصطفى كمال مع رؤساء العشائر، ورسائله وبرقيات إلى كاظم قره بكر، في صفحات متتابعة، للحيلولة دون نشوء كيان سياسي كردي، وتخويف الكرد بمنطقة الإسلام، من مساعي الانكيز لنشوء كيان سياسي أرمني، وتبنيه الترك بالمقابل، من مساعي الانكيز، ومن خلال الضابط نوئل، في نشوء كيان سياسي كردي، و«براعته» السياسية، ومكره في ذلك، كما في الصفحات التالية 280-281-282-283-286-296-298-301-305...الخ.

ثم جرعات المدنية الممنوحة لهم، لم تفدهم في شيء، اللهم إلا مصالحهم الذاتية، وتقوية أعداء شعبهم وغيرهم.

ولأن حديث جبّو بلغ عشيرة سيدان، لا بد من وقفة عندها كونها مهمة جهة احتضان حاجو وقواته، وكذلك جهة مساندة هذه القوات، وتلقّي الأثر الكبير من العثمانيين ومن معهم جرّاء هذا التحالف المضاد :

(تشكّل عشيرة سيدان فرعاً مهماً من فروع اتحاد هفيران، وزعيمهم هو آل «أسرة» جبّو» أي عشيرة الكاتب «بيجيرمان التي هي مركز سنجد عشيرة، تعني في اللغة الكردية «بلا ضريبة»، ويعتقد أن أمراء بوتان لم يكونوا يأخذون ضريبة أبداً من القرية المذكورة، بسبب كون أهاليها «سادة»، وأن أمراء بوتان هم الذين أطلقوا اسم «بيجيرمان» على القرية. وكان أمراء بوتان يعتقدون أنهم من ذرية الرسول «محم، ص»، وحسبما أشرنا سابقاً فإن بعض المصادر ذكرت بأن أمراء بوتان يدعون أنهم ينحدرون من ذرية الرسول «ص»، وهذا هو سبب المعاملة المتميزة التي عاملوا بها السادة. ولكن حسب بعض المصادر الرسمية، كان هذا هونفس سبب المعاملة المتميزة التي عاملهم بها السلاطين العثمانيون، وقد ورد هذا الأمر في تقارير الدبلوماسيين السويديين في القرن التاسع عشر. ص 67).

هذا يعيدنا إلى نقطة سألنا فيها جهة التعامل مع الدين، ووجوب التفريق بين الدين والسياسة الدينية بالذات، أي ما يرتقي بالدين إلى مستوى الأمثلة الحية والمؤهلة لأن تكون سنداً معتقدياً بالسلطان العثماني، ومن ثم دعوة الناس إلى الالتفاف حوله، وتلك سياسة دينية، ولا غرابة أن يكون في طبع بعض الأمراء الكرد أنفسهم توجه من هذا القبيل، حيث التقرب من رجال الدين ليس حباً بهم، وإنما لما لهم من رصيد رمزي، ومن قابلية قوة معنوية في أن يحركوا الناس في هذا الاتجاه أو ذاك، وهذه الحقيقة يمكن اعتبارها تاريخية جهة كيفية تصريفها سلطوياً.

لدينا على سبيل المثال، وكتوضيح لخلفية ما تقدّمنا به، ما يُسمى بـ «مدرسة العشائر في ستانبول/ ستانبول» سابقاً :

(لم تكن مدرسة العشائر مؤسسة خيرية صمّمت من أجل تعليم الفئات المحرومة ولكن أداة سياسية لكسب ولاء القبائل. ص 28... ففي يوم الافتتاح: فتحت مدرسة العشائر أبوابها في الموعد المحدد الموافق يوم مولد النبي في 4 تشرين الأول 1892، وألقى وزير المعارف خطاب الافتتاح باللغة العربية، احتراماً لجمهورية الذي لا يعرف

من اللغة التركية إلا النزر اليسير. وسعى للتأثير على جمهوره من خلال القول بأنهم قد تركوا خلفهم عالماً من الشقاء حيث الصراع اليومي من أجل البقاء وكيف أن عرب الصحراء لم يكن لديهم وقت للتعليم والدين وفوائد المدنية.⁽¹⁾

وفي مثال آخر، يأتي بروينسن على ذكره، بهذا الصدد، وهو مرغب، حيث تتنوع أو تتعدد المذاهب، وهوما يستدعي الكثير من إمعان النظر بالمقابل (يعتمد الطامحون إلى القوة ضمن الدائرة القبلية أحياناً إلى أية مصادر قوة خارجية ممكنة. ص 433... ويكون الله أكثر الطرق مباشرة لاستمداد، عبر الادعاء بأن الشخص هو الله.. وثمة خطورة في ذلك.. لئلا يكرر تجربة الحلاج.. وهناك أحد الملالي المحليين في إقليم كردستان بأن الشيخ أحمد البارزاني «هو الله، وإن يكرموه على هذا الأساس. ص 435.. والأسلم لأي كان هنا الادعاء أن يتلقى الإلهام الإلهي. ص 436.. وجود نسب زائف لدى الزعماء القبليين الكرد يصلهم برجال الإسلام العظماء. ص 440.. من ذلك: الانتساب إلى عمر بن الخطاب «أي العمرّيون»- إلى خالد بن الوليد «الخالديون».. سلالة الخلفاء العباسيين... ومع نمو النزعة القومية الكردية

(1) روغان، يوجين: مدرسة العشائر في ستانبول، ترجمة: د. نهار محمد نوري، دار الوراق، بيروت، ط1، 2014، ص 40.

سوف نجد امتداد هذا التأثير ذي الطابع الكردي والذي بدأ يتبلور قومياً على مراحل، خارج نطاق العشيرة، وقد اتسع مفهومها الاجتماعي، مع حاجو الثالث، مكملاً ما دشّنه ما كانوا قبله: عليك، حاجو الثاني، مثلاً، وكما ورد في كتاب جبو، السلف ذكره، ولسان علي بطي حفيد عليكي بطي، وهو يرد على الذين حاولوا النيل من موقفه من حركة الشيخ سعيد: (كان عمي «حاجو الثالث» يعيش كردستان، وعاش كذلك طيلة حياته. ولم يقاتل ضد الشيخ سعيد. وبالرغم من أنه استجاب لنداء الدولة، إلا أنه توجه إلى ديار بكر وفي نيّته الانضمام إلى الحركة أصلاً. وقد قابل في طريقه قوات الدولة، ولأجل عدم الدخول في معركة لا لزوم لها فإنه تحاشاها وسلك طريقاً أطول، لأنه لم يكن مهتماً لمثل هذه المعركة. وكان يرى أن الدخول في معركة ضد قوات الدولة، دون استعدادات كافية ستؤدي إلى الهزيمة. ولهذا السبب أبقى قواته بعيدة عن منطقة العمليات. لقد أراد أن ينضم إلى قوات حركة الشيخ سعيد أولاً، إلا أنه لم يجد فرصة لذلك، ووصل إلى سفيرك. وعندما وصل إلى هناك علم بنياً قمع الحركة من قبل الدولة، فسعى هذه المرة إلى إنقاذ الموقف بالقول بأنه قد جاء لمساعدة قوات الدولة، ذلك أن عشرات الآلاف من أفراد الجيش التركي المجهزين بأنواع الأسلحة والمعدات العسكرية بسطت سيطرتها على كل المنطقة. ولم يكن بوسع فعل شيء في مثل هذا الموقف ومعه بضعة مئات من أتباعه، ولم يرغب في المجازفة من أجل لا شيء، ولكنه لم يتهرب من القتال من أجل تحرير الكرد عندما حان الوقت المناسب. ص 135.)

تخفف من ذلك ص440...الملا له مكانته وهو يترأس كل الاحتفالات الدينية على مستوى القرية، ويدرس أطفالها القرآن ص443.. وللشيخ تعددية أدوار، والأهم: دور الرجل المقدس، وهو محط تفران شعبي، ودور القائد الملهم ص444...وهناك الطرق الصوفية والدرويشية ص450..وظاهرة الكرامات ص456...وما يخص تاريخ الطريقة القادرية ص457-473...الخ)

وكذلك في مثال ثالث، جهة الأسلوب المعتمد والمتوارث لدى سلاطين العثمانيين ورجالاتها في هذا المنحى، وملاحقتهم من يشدُّ عن هذه القاعدة، حيث كان يتم (استغلال الدولة العثمانية المشاعر الدينية في الحرب العالمية الأولى)⁽¹⁾.

(1) الداوقوي، د. إبراهيم: كرد تركيا، دارالمدى، دمشق، ط1، 2003، ص 153.
ماذا يمكن للقارئ أن يستخلصه فيما أورده عبدالمملك بن قريش الأصمعي «123-217هـ» في كتابه: تاريخ العرب قبل الإسلام، تحقيق: محمد حسن آل ياسين، الوراق، لندن، ط1، 2009، حيث يستهل جل كلامه وفي مقاطع كثيرة بعبارة: وبلغني- يا أمير المؤمنين..ص32 وما بعد (من قول معاوية الأكرمين وهو جد ملوك كندة، وصى بنيه فقال لهم: يا بني أحسنوا موالاة من والاكم، واجتهدوا في معاداة من عاداكم، أما من عاداكم فاسهرؤا ليله وأخيفوا نهاره، وكونوا أمامه ظلاماً ووراءه أفاعياً، وعن يمينه وشماله أسداً، واقترسوه في الليل إذا يغشى، والتهموه في النهار إذا تجلى، فإن تركه إياكم ليس من شفقة عليكم، ولكنه ينتظر الفرصة فيكم، ليثب وثبة الحادر على الضالة في مرصده، وأما من والاكم فارعوا ليله، واحفظوا نهاره، وكونوا له صباحاً ساطعاً، وركناً مانعاً، وغيتاً هامعاً، وأدنى ما توجبون له ما من حقه أن تؤثره بالخبر عليكم، وتقوه الشر بأنفسكم، وأن تحفظوا فيه أقراره، وتصونوا أدانيه، فما الناس إلا اثنان: عدو كاشح أو صديق ناصح...ص169... وفي الختام: قال أبو يوسف بن السكيت: هذا آخر ما وصل إلي من تاريخ ملوك العرب الأولية من بني هود وغيرهم، لأبي سعيد عبدالمملك بن [قريش] البلعكي الأصمعي، الذي أقطعه عليه المأمون أراضى أميرية الكرخ الغربية..ص199.) غير الصعود على منبر ديني أو في الاستناد عليه، لاحتواء عامة المسلمين إليه سلطوياً؟ كما لو أنه لم يمت، أي معاوية، ولا أدل من قوله «شعرة معاوية» السياسة الأكثر دهاء في التعامل مع الآخرين.

وما ورد في كتاب أيرام. لابيدس: تاريخ المجتمعات الإسلامية، ترجمة: فاضل جتكر، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 2011، م 2، حيث يسمي تاريخاً طويلاً، كان للفاعل الديني وزنه النافذ (منذ ما يقرب من خمسة آلاف سنة ظلت المجتمعات الشرق أوسطية والإسلامية مستندة إلى باقة المؤسسات النسبية والقبلية والدينية والسياسية المحلية أولاً في مدن الرافدين «ما بين النهرين» القديمة في الألفية الثالثة قبل الميلاد. هذه التشكيلة من المؤسسات كانت قاعدة مجتمعات الشرق الأوسط ما قبل الإسلام وشكلت الأساس الذي شيدت مجتمعات الشرق الأوسط الإسلامية فوقه..ص1322.

وأشير أيضاً إلى المثال الأبرز وهو الذي ورد في كتاب ألبرت حوراني: تاريخ الشعوب العربية، تعريب: أسعد صقر، دار طلاس، دمشق، ط1، 1997، محيلاً على وصف مؤرخ بغداد الخطيب البغدادي «1002-1071 لمشهد سلطوي، لا أظن الدين، بكامل إرثه وحمولته الماورائيين بغائبين عن مشهد النعمة المفرطة التي أحاط بها هذا الخليفة الإسلامي» نفسه، عند استقبال الخليفة المقتدر عام 917 لسفير بيزنطة مستذكراً فخامة البلاط وطقوسه (وعندما مثل بين يدي الخليفة أمرهم بأن يروه القصر: بقاعاته وساحاته وحدائقه وكذلك الجنود والخصيان والحجاب والغلمان والكنوز في المستودعات والأفيال المزركشة بالحرير المطرز بريش الطاووس وقد شاهدوا في قاعة الشجرة: «شجرة تنتصب في وسط بركة عظيمة مستديرة مملوءة بالماء الصافي وفي الشجرة ثمانية عشر غصناً لكل واحد منها عدة فروع تقف عليها أنواع من العصافير الذهبية والفضية بعضها صغير وبعضها صغير وبعضها كبير ومعظم أغصان هذه الشجرة من الفضة إلا أن بعضها من الذهب وهي ترتفع في الهواء حاملة أوراقاً ذات ألوان مختلفة وتتحرك أوراق الشجرة كلما هبت الريح في حين تصدح الطيور وتغني... وبعد ذلك يعودون مرة أخرى إلى مجلس الخليفة:

كان يرتدي ثياباً مطرزة بالذهب ويجلس على عرش من العاج، وقد علقت إلى يمين العرش تسعة عقود من الماس وإلى شماله مثلها وكلها من أنفس الجواهر ويجلس أمام الخليفة خمسة من أبنائه ثلاثة إلى يمينه واثنان إلى يساره... ص67) الخ.

وفي إطار التلبس بما هو ديني، ولتوسيع رقعة العلاقة مع ما هو ديني، والخلافات التي شغلت الكثيرين، من أبناء الدين الواحد، يمكن الذهاب إلى خارج نطاق الإسلامي. مثلاً ما يقوله فولتير، في: الرسائل الفلسفية، ترجمة: عادل زعير، دار المعارف، القاهرة، 1959 (هذا هو بلد الملل والنحل، ويذهب الانكليزي، كرجل حر إلى السماء من الطريق الذي يروقه.

ومع ذلك، فإن كل واحد، وإن أمكنه أن يعبد الله كما يهوى، يرى أن ديانته الحقيقية، أي الديانة التي تؤدي إلى السعادة هي الديانة الأنغليكانية ذات الأساقفة، ولا يمكن أن تُنال وظيفة في إنكلترا وإيرلندا ما لم يكن الطالب من الأنغليكان، وهذا السبب، الذي هو دليل واضح، أدّى إلى تحويل كثير من غير الأنغليكان إلى الأنغليكانية، فبلغ الأمر من الاستفحال ما ترى معه اليوم أقل من نصف عشر الأمة خارج نطاق الكنيسة المسيطرة. ص31).

ولتأكيد مدى التفاعل والتداخل بين الديني والسياسي الديني، ثمة الكثير مما يشير إلى ذلك، ومنذ زمان طويل، وقد مر في أطوار مختلفة، وبصيغ شتى بالمقابل..

من ذلك ما يمضي إلى قوله جورج قرق المفكر اللبناني، في كتابه: تعدد الأديان وأنظمة الحكم «دراسة سوسيولوجية وقانونية مقارنة»، دار الفارابي، بيروت، ط4، 2011، والكتاب يرجع في طبعته الأولى إلى سبعينيات القرن الماضي، فهو يشير في مثاله هنا عن العلاقة بين الملوك الساسانيين ورجال الدين الزرادشتيين، قائلاً (لقد تسنم الملوك الساسانيون عرش إيران بمؤازرة فعالة من رجال الدين الزرادشتيين الذين كانوا بالإجمال من النبلاء الإقطاعيين. ومن ثم لم يكن أمامهم مندوحة من مراعاة حميتهم الدينية. بيد أن الكثيرين من أولئك الملوك ما كانوا غرباء عن الحركات الدينية الكبيرة التي كانت رياحها تهب بصورة

أي ما كان يعرف حينها بـ:سفر برلك، باسم الجهاد المقدس ضد الأجانب، فأدّى ذلك إلى تعطيل الجمعيات وإيقاف صدور الجرائد بسبب سوق القائمين عليها إلى جبهات القتال.

وهذا ما يصلنا بمسألة تتسبب الأصل الكردي إلى أصل من بيوتات الإسلام السالف، لأغراض أو مطامح طبقية أو اجتماعية أو سلطوية تجد صدى لها في الفضاء السياسي الأوسع للسلطة (أما ادّعاء بعض العشائر، وبالذات رؤسائها، أو بعض الأسر المتنفذة والكبيرة، التي تحولت بمرور الزمن إلى «عشيرة»، الأصل العربي أو الانتساب إلى العرب وصحابة الرسول «ص» فلا أساس تاريخي له، وقد حسم هذه المسألة العلامة المرحوم مصطفى جواد في معرض تعليقه على ما ذهب إليه المسعودي «ت 956 م» من أن أصل الكرد عرب، بقوله: لا شك في أن إلحاق الكرد بالأنساب العربية، قد أصبح باطلاً عند أهل التحقيق والتدقيق، وكان السبب فيه على ما أرى إثبات الأخوة في النسب تبعاً للأخوة في الدين وكثرة اختلاط الكرد بالعرب حيث يعز على الكرد أن لا يكونوا من أصل عربي قديم، فاخترع النسابون تلك النسبة»⁽¹⁾.

والأكثر تأثيراً هو الذي شهدته مناطق متفرقة من كردستان الجنوبية في الزمن السابق، قبل قرن ونيف، مثلاً بالنسبة إلى كل من الطريقتين النقشبندية والقادرية، كما في حال أحد الباحثين متناولاً هذا الجانب، حيث إنه في دراسته هذه (يتوقف عند الشيخ مولانا خالد النقشبندي، وتقديمه وما يؤكد بذلك من إبراز مكانة هذا الشيخ الكردي: ضياء الدين خالد بن أحمد ابن حسين من عشيرة الجاف فرع ميكائلي فخذ آلي «بكي» علي بكي».. ولد في قرية قره داغ «1779 م» في الحلم قيل له أن يذهب إلى الحج للقاء درويش مثله وتجاهل الحلم وذات يوم قصد الحج فرأى ذلك الدرويش الذي قال له: نسيت حلمك ثم: إذا لم تذهب إلى دهلي فسيكون الخلاص طويل الأمد.. وقصدها وأمضى عدة سنوات لدى الصوفي المبارك الشاه عبدالله متلمذاً عنده على الطريقة النقشبندية ورجع إلى السليمانية سنة 1808، مؤسساً فيها

متواصلة على إمبراطوريتهم. على هذا النحو عرف ماني ومزدك نجاحاً كبيراً منذ ابتداء رسالتهما بفضل التأييد الملكي. ولعل الملوك الإيرانيين كانوا يرون في ذلك وسيلة لموازنة نفوذ رجال الدين ص 148).

(1) سايكس، مارك: القبائل الكردية في الامبراطورية العثمانية، ترجمة: أ. د. خليل علي مراد- تقديم ومراجعة وتعليق: أ. د. عبدالفتاح علي بوتاني، دار الزمان، دمشق، ط1، 2007، ص9، والقول للدكتور بوتاني.

الطريقة النقشبندية وقصد بغداد مفتتحاً تكية حملت اسمه ص75.. وتتلذذ على يده علماء كثيرون انتشروا في أرجاء العالم الإسلامي منهم الشيخ عبيد الله النهري.. هذا الذي يتصل بالشيخ عبدالقادر الكيلاني نسباً.... وهناك الشيخ «معروف النودهي» وهو عالم عظيم، وشاعر بليغ، وصوفي شهير، ولد سنة 1753، في قرية نوى دي، وتوفي سنة 1828.. ونافس مولانا الشيخ خالد متهماً إياه بالزندقة والكفر والإلحاد من خلال تأليفه لكتب ونشر رسائل.. بمعاونة آخرين، ولم يفلح ذلك في النيل منه لدى المشير العثماني في بغداد داود باشا، فالعلامة ملا يحيى المزوري كان مقرباً لدى باشا.. واحتفى المشير بخالد.. وظهر له أعداء أرادوا قتله.. فذهب إلى القسطنطينية ثم إلى البلاد العربية بنصيحة من بعض العلماء، فقصد الشام وتوفي بعد سنوات فيها سنة 1826...⁽¹⁾ الخ

(1) سعيد عبدالرحمن، بشير: بهديتان وعشائرها «دراسة تاريخية»، تقديم: د. خليل علي مراد- د. رزق عبدالمنعم شعث، مطبعة خاني، «دهوك»، 2006، ص 76-77.
من المفيد هنا أيضاً، أن أورد ما فاض به قلم الباحث الاجتماعي المقتدر حنا بطاطو، في كتابه الذائع الصيت:

العراق «الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية»، ترجمة: عفيف الرزاز، منشورات فرصاد، قم، إيران، ط1، 2005، في الكتاب الأول منه، وبخصوص هذه النقطة بالذات، في الفصل السابع والمعنون بـ «السادة» السادة ج سيد، يعرفون باسم الأشراف، ج شريف، يدعون أنهم من سلالة الرسول محمد.. ونظرياً هم جماعة منفصلة.. وعلى العموم، فإن الادعاء بالتحدّر من بيت محمد، الذي كان يقدمه «السادة» ملاك الأراضي، كان يشكل عنصر دعم وإسناد لموقعهم الاجتماعي أكثر من أنه الحقيقة التي تكمن وراء هذا الموقع.. وفي الواقع، يبدو أن ادعاء هؤلاء التحدر من سلالة قدسية لم يظهر إلا بعد أن برز أصحابه في العالم، وبعد التغير في موقعهم.. وفي حقيقة الأمر، فإن صحة نسب العدد الأكبر من «السادة» لم تمر من غير إثارة للشكوك والتساؤلات. وحتى آل الكيلاني، الذين كان منهم «نقباء أشراف» بغداد لمدة تزيد على أربعة قرون- من 1531 وحتى 1962 حيث زال هذا المنصب- لم يستطيعوا الهرب من توجيه الاتهام إليهم بأنهم زوروا شجرة عائلتهم.. وإلى جانب هذا، يبدو أن «الأشراف» كانوا- مع مرور الزمن- يمنحون لقب «سيد» لأناس كلياً بهدف تدعيم أنفسهم سياسياً.. وكان «الأشراف» عند السنة، وخصوصاً في المدن، محدودي العدد، وكان أكثرهم من الرجال البارزين اجتماعياً والأثرياء. واستناداً إلى لائحة رسمية نشرت في العام 1894 بهدف وضع حد- على ما يبدو- للنزاعات حول الأسبقية في الأهمية، كانت هنالك في بغداد، في تلك السنة، خمس عائلات «أشراف» سنة فقط، وهي عائلات جميل والكيلاني والألوسي والحيدري والسنوي.. وكان مجموع «الأشراف» واحداً وعشرين فقط، ستة عشر منهم من آل

اليكلاني.. ولسبب ما، فإن آل السنوي، الذين يدعون تحدرهم من الأمويين، وبالتالي، من قريش، قبيلة الرسول، وليس من بيت الرسول نفسه، أدخلوا في اللائحة، في حين أن آل السويدي، الذين يدعون التحدر من عباس، عم الرسول، لم يدرجوا فيها. وكذلك فقد استبعد من اللائحة آل الطبجلي ورجب الراوي، الذين يدعون التحدر من الحسين، حفيد الرسول، ربما لأنهم كانوا ينتمون إلى الطريقة الرفاعية، وهي طريقة باطنية تنافس طريقة «النقيب» الذي يرأس القادرية.. ص 184.. وكانت عائلات «أشراف» بارزة كثيرة تعود بأصولها الحديثة نسبياً إلى شبه الجزيرة العربية أو إيران أو سورية. فعائلة أبو طبيخ التي كانت في العام 1958 تملك 124496 دونماً على قنال الشامية المتفرع من الفرات وفي رميثة وشمشة في لواء الديوانية، كانت قد انتقلت من الحسا في شبه الجزيرة العربية إلى العراق قبل حوالي 250 سنة. وآل جميل، الذين كان لديهم 92166 دونماً، تشمل معظم ذيل نهر خراسان في ديالى، وكانوا يملكون أيضاً 121 بيتاً وجكاناً في حي قنبر علي في بغداد، كانوا قد جاؤوا إلى العراق من سورية في نهاية القرن الثامن عشر، وكان الشرفاء، الذين يملكون 33352 دونماً على شط الحلة، قد هاجروا من مكة المكرمة قبل حوالي 350 سنة.... والطبجلية كانوا من حماة في سورية، والقوزينيون من إيران، وآل زوين من المدينة المنورة وآل الياسري من المدينة المنورة.. والعائلة المالكة نفسها من أصل حجازي.. وسادة الموصل: النقيب والفخري والمفتي والعبيدي يتحدرون من السيد عبدالله، من بيت الأعرجي المشهور، أتى به الأتراك من مكة المكرمة في أواسط القرن السادس عشر، وأما الحيدريون وهم من السادة الكرد من أردبيل، جنوب شرق بحر قزوين.. ص 188... والشيخ عبدالقادر الباني الحقيقي لثروات الكيلانيين من كيلان في فارس سنة 1095.. والسعدون في أصولهم من مكة المكرمة لم يكن السادة يحتلون مراتب متساوية. ص 188... ويبدو أن العنف يقدم أيضاً تفسيراً جزئياً لنفوذ آل حفيد البرزنجي، وهي عائلة «السادة» القائدة في السليمانية، وكانت في العام 1958 تملك 71716 دونماً. ص 195.. وكان والد الشيخ محمود، الشيخ سعيد، مصدر رعب السليمانية.. ص 195.. حول انتقال اسم السادة: يبدو أن ياسمين الهاشمي، الذي كان اسمه ياسين حلمي، لم يتبن لقبه الجديد هذا إلا في حوالي سنة 1902، عندما دخل الأكاديمية العسكرية في استامبول، وهو لقب يشير طبعاً إلى أن حامله يتحدر من بني هاشم، عشيرة الرسول. وكان والده يحمل لقب «سيد» ولكن البعض يشك في أصله العربي ويربطه بعشيرة كروية التركية التي جاءت إلى العراق مع السلطان مراد في القرن السابع عشر.. ص 228 «الأصل غير العراقي لكثيرين: أصل الشرشفيين من بلاد فارس، وعائلات الشاهبندر والباحجي والقشطيني من سوريا، وعائلات الزبيق وغنام وصالح وثمان وعسافي وبصام ومنديل وزهير وعبدالواحد من نجد.. ص 298...

وكذلك ما ورد في: الآثار الكاملة للدكتور أحمد أبو بكر، ج 1، إعداد: د. آزاد عبيد صالح، بنكي زين، السليمانية، 2009. ترجمة كتاب الملا محمود البازيدي، بقوله: يكن الكرد احتراماً فائقاً للحسب والنسب. وينتمي فريق من بين أمرائهم وأغواتهم إلى فرقة السادة أو إلى

ومن المؤثر، تفعيل التركيز على نقطة مهمة هنا، وهي أن تصريف الدين، وما يكون عليه حمولة، وما يترتب عليه حصاداً أو قطاعاً في «البيت الكردي، رغم الكم الهائل من منازله المتصدعة» غيره لدى الذين يتمتعون على مستوى السلطة والنفوذ وطول الباع في القوة الضاربة، كالعثمانيين أو الفرس، وحتى بعد ما يُسمى بتشكّل الأنظمة ما بعد الاستعمارية، وإلى هذه اللحظة، ومدى الاعتماد على الدين، في الزوايا التي يصار إلى ربطها بمرام سلطوية، وما يؤدي ذلك إلى تمزيق مفهوم الدين بالذات، وإلحاق مؤمنيه بواقع ماورائي إجمالاً.

يعني ذلك أن الاعتراف بالدين، وفتح مجالات واسعة له، حتى لو كان بدرخان بك نفسه، وما جاء من بعده، يفصح عن توجهات من هذا النوع، أي إنه ما أن يجري الحديث عن السلطة حتى يفقد الدين، وباعتباره دينياً أغلب ما يمثله من تطلعات نفسية وذهنية، وفي ضوء ذلك، لا يعود المعنى به أرضياً مدرِكاً لحقيقة أمره.

ويتابع جيو ما جرى عقب المواجهة، وفي منطقة «بيجيرمان» مشيراً إلى السياسة التتريكية ومن قبل أتاتورك ضد هذا المسار، وعلى سبيل المثال، عندما تم تغيير اسم «بيجيرمان» في ظل «الجمهورية التركية» (وقد أخذت نصيبها من هذا التغيير وسميت فيركلي Vergili، وتعني ذات الصربية، أي عكس معنى الاسم الأصلي. ص 68).

الصحابة. وفيهم من هو عباسي أو أنسي أو خالدي أو مرواني.. ص 206... عندما تخطب فتاة يجري الاتفاق كما لو يشتري حصان مطهم.. ص 219.

طبعاً، يمكن التوسع حول ذلك في كتاب باسيلي نيكيتين: الكردي، المصدر المذكور، في الفصل السادس «العشيرة الكردية. ص 193»، والفصل السابع «العشائر في الزمان والمكان. ص 245»، والفصل المهم: الحادي عشر «الحياة الروحية للكردي- الدين. ص 326»...

إن ما أرت قوله أو نقله من خلال هذا الاقتباس الطويل نسبياً والتذكير التالي عليه في المرجع، ليس الرد على ما تحدث فيه جيو عن عشيرته بالذات، وإنما ما يستوقفنا إزاء مسألة أصبحت في ذمة التاريخ، وليس في مقدور التاريخ إخفاءها، أي ما كان للدين من إسهام عملي، ومن قبل الذين مثّلوه على الأرض، وحاولوا تسجيل أسماء لهم، ألقاب لهم، مواقع لهم في السماء، باعتماد حالات تنسيب من هذا القبيل، حتى بالنسبة للذين أوجدوا مخرجاً لها بداية، والذين استحلوها، والذين قلبوها على وجوها سلطوياً، يشدد على وجوب التروي والتبّنه الدقيقين قبل المصادقة على أي عبارة ذات صلة بما تقدم، وفي أوساط اجتماعية تزكّي حالات كهذه، وتحديدًا، في ظل الأنظمة التي ترى أن دوام ذكر الله ليس بدواعي دينية، وإنما إحياء إلى نوع من التدين الذي يفضي إلى حالة أسلبة للذين يصدقون سريعاً فكر، أن الأقرب إلى الله هم الذين يديرون أمور السلطة، وما في ذلك من نشر دعايات تصب لمصلحتهم، بوصفهم مسئولين أخلاقياً أمام الله في قيادة «رعيتهم»... الخ.

أي ما ينسف الذاكرة الأصلية للكلمة، وأكثر من ذلك، ما يذكّر بالإجراء الممنهج للسياسة التركية، التي لا تعدو أن تكون استمراراً، على أكثر من صعيد لسياسة من كانوا سابقاً، وهم سلاطين العثمانيين، وهذا ما رأيناه في مثال رئيس «جمهورية تركيا» راهناً، أي أردوغان، وذلك الأسلوب الممنهج أيضاً في هذا المضمار، ووصل اليوم بالأمس البعيد، ومنذ أيام السلطان سليم الأول، والذي سمى نفسه بـ: خادم الحرمين الشريفين⁽¹⁾.

وعلينا الآن، أن نسائل أنفسنا، عن مغزى هذا الانتشار الديني من خلال جوامعه ومظاهره هنا وهناك كردياً.

وحين يأتي جبو على ذكر المجابهة بين قوات حاجو الثاني، وجملة قوات من أتينا على ذكرهم، أي «معركة جبل مافا» نتلمس مدى إصرار العثمانيين بالذات على تصفية نفوذ حاجو الثاني، وأكثر من ذلك، على كسر شوكته، ومن ثم إرجاع أتباعه إلى نقطة ما دون الصفر، وإشعارهم بأن لا قيامه لهم بعد تلك الغلبة، عن طريق المكيدة والخداع، ومن داخل البيت الكردي المنفلق، حيث المواجهة أعيت القوات تلك (وأخيراً قام أحد الدكشوريين بإعطاء هذا الرأي لقائد الوحدة العسكرية: نحن الكرد متعلقون بشرفنا، فإذا أوصلت خبراً إلى حاجو بطريقة ما بأننا قد أسرنا زوجته فإنه سوف لن يتحمل ويأتي لتسليم نفسه فوراً. ص 70).

وهذا ما يحصل، رغم أننا نجد هنا مستويات من التعامل مع الرجل الذي أصبح أسيراً، تعامل من يقدر هذه المكانة والشجاعة، كما هو حال أحد قادة دكشوري وهو اسماعيل آغا، وتعامل من لا يدرك هذه المكانة، ولا بد أن ذلك يعكس نظرتهم الدونية إلى نفسه حينذاك، وهو جمو (ربط جمو يدي ورجلي حاجو وأبقاه في الأسر عنده لبعض الوقت، ثم قرر فيما بعد قتله... ص 71) حيث باشر - في النهاية - ذبحه هو ورفيقه الإيزيديين (وقام جمو بوضع الرؤوس الثلاثة المذبوحة في خرج وألقاه على

(1) كما ورد في هذا المصدر (هياً سليم الأول حملة ناجحة نحو حلب. وهناك بعد سنة واحدة من دخوله إلى القاهرة، أصبح سليم يحمل لقب «خادم الحرمين الشريفين» وهو اللقب الذي يحمله سلاطنة المماليك. وفي حلب عرف العثمانيون أنهم أصبحوا أسياد ديار الإسلام الأقوياء والعظماء.)

نقلاً عن الصافي سعيد: خريف العرب «الحرب الدامية بين العروبة والإسلام: البئر والصومعة والجنرال»، دار بيسان، بيروت، ط1، ط2، 2005، ص 26.

ظهر الحصان.. إلى أين؟ لأجل أن يسمع الأصدقاء والأعداء بالنصر الذي حققه... الخ.
(ص 72).

هذا المشهد الذي استوقفني هناك في «دولة حاجو آغا الكردية» يستوقفني هنا أيضاً، وفي الإطار المطلوب، بغية فتح البوابة الكبرى أمام رجل طليعي في التاريخ، هو عليكي بطي، وما أريد قوله هنا، مجدداً، هو أن جمو في مسلكه هذا، لم يكن يعبر عن انتقام عدو من عدو، ولأن ذلك يتطلب نوعاً من التكافؤ، كما أرى، وإنما عن انتقام من طرف واحد، حيث الآخر لم يعد في وضعية المجابهة، وإنما التجريد من كل قوة، وأي تصرف من النوع المذكور، يرينا ما ليس مأخوذاً به في نطاق الشجاعة ومفهوم الغلبة، وإنما الرغبة المكبوتة شارة الضعف والصغار.

أكثر من ذلك، هي شارة على نسيان الآتي، إذ إن الاستغراق في نشوة قتل الآخر في مشهد كهذا، يسطّح المستغرق، حيث ينسى أو يتناسى تبعات إجراء كهذا، وهو محاط بمن ليسوا متحالفين معه، وإن بدوا محيطين به، إنما هي إحاطة من نوع آخر، بالنسبة للعدو العثماني، إذ كان يريد لها هكذا، وهو يقدر أي ثمرة نصر بغیضة ومن ثم غير مسبوقه سوف يجنيها، على خلفية أسلوب كهذا في تنامي العداوات الكردية-الكردية، والتقدير بأنه سيقول لامحالة، وبالنسبة للخصم الآخر: الدكشوري، الذي كان يعبر قتل حاجو الثاني عن رغبة انتقامية لديه، وربما لم يستطع الحيلولة دون قتله، لكي لا يُنظر إليه نظرة أخرى من قبل القائد العثماني، عدا عن أن الدكشوري نفسه، كان صاحب الاقتراح، ولعله ندم في اللحظة تلك على ما فعله، وهو يتخوف من النتائج.

دوامه العنف العاليه

هذا يعيدنا مجدداً إلى خاصية عنف من هذا النوع، وخلفيته الاجتماعية، حيث إن الشخص الذي يقوم بتصفية الآخر، لا ينتقم، بالمفهوم الحرفي، وإنما يظهر للآخرين من يكون هو، فالآخر هو في عهدة الموت، رغم أنه لم يسع إلى الموت إلا من أجل الحياة، حياة من يرى فيها «زوجته المتوقعة» أكبر من الحياة العادية، وهذا من شأنه تبين الفارق الكبير بين من يقدم على عملية كهذه وهي «ثلاثية» إنما جرى ذبح الآخرين إلحاقاً بالأول، وهو الرئيس هنا، الأول تم ذبحه لأنه هو المقصود، والآخران تم ذبحهما عقاباً لهما على تبعيتهما له، ومن يغيّره في نظرته إلى فعل القتل، وفي وسط مرئي من قبل المحيطين به، وهذا ما يجعل للانتقام هنا منشأ نفسياً، وقد شذت النفس عن واقع معتاد، وأفصحت عن واقع مشوه في الذات، ذات الذي نفذ فعل

القتل الصادم طبعاً) هذا الانتقام يجعلنا ندرك بشكل خاص أننا نتعامل هنا، كما في كثير من الأحيان، مع عنف الموت وعنف الحياة في الوقت نفسه: الأول جذري، بدون استثناء، هو الموت النفسي الذي يهدد عندما يكون الموضوع تطفئ عليها قوة النبضات التي تسكنها دون أن يكون لديها الوسائل لمواجهتها. إن العنف عن طريق الاقتحام، عن طريق الغزو، هو ما يخيفنا كثيراً لأنه يذكرنا بالتطهير العرقي، وعنف الفتح كما تم تصوره في العصور القديمة، حيث كان علينا أن نحلق كل شيء حتى لا شيء ينمو مرة أخرى. ديلندا هي قرطاج. ثم هناك عنف آخر، عنف الحياة، الذي ينفذ الانتقام ويسمح للمريض بالبقاء من خلال تفعيل المفاصل المختلفة كما تظهر في الانحراف⁽¹⁾.

ذلك ما يمكن التأكد منه في السطور التي يقدمها لنا جبو(شُلّ الهفيريكان من وقّع هذه الحادثة ولفهم الصمت، واتشح بالسواد من تتراوح أعمارهم بين 7 أعوام و70 عاماً. وبينما كان الرجال يغوصون في صمت الأموات، أقسمت النساء على عدم البكاء، إلا أنهن كن يتمزقن ألماً من الداخل، وكانت المراثي تقال بحق شهامة حاجو، ولم يكن الحال مختلفاً كثيراً في قصر محمد جبو زعيم عشيرة سيدان بيجرمان...)

تالياً، ولكي يزيد جمو في إيلاهم ومحاولة تعمييق الكيدية والتشفي منهم، يزور قصر زعيم سيدان (يقال أنه بعد تناول الطعام تحدث جمو قائلاً: ألا تعرف يا محمد أن في خرجي رقية حلوة من رقي مدياد، ألا تريد أن أخرجها وأكسرهما ؟) وكان يقصد بذلك رأس حاجو المذبوح». وبسبب هذا ساد التوتر الجو على حين غرة. لقد فهم صاحب البيت ما يريد جمو قوله فطرده من البيت قائلاً: «انتهت الضيافة، قوموا وارحلوا وإلا فإنني سأقطع هذا الرأس» يقصد رأس جمو» الذي لا يساوي 5 بارات».

استمر سيد إبراهيم «الذي سرد الواقعة للمؤلف من ألفها إلى يائها» في سرد الأحداث طويلاً بأدق تفاصيلها فيما يخص نهوض الضيوف ومغادرتهم، والاضطراب الذي حصل في هفيريكان، بعد حاجو. والإرهاب الذي مارسه الدكشوريون وقوات الدولة. ومحاصرة قصر محمد جبو في بيجرمان وتسويته مع الأرض بواسطة قذائف المدفعية، وقد سألت فيما بعد علي بطي الثاني حفيد علي بطي، عن الموضوع المشار إليه أعلاه فكانت روايته متطابقة مع رواية سيد إبراهيم باستثناء نقطة أو نقطتين. (ص 73).

(1) بونيت، جيرار: «انتقم من أجل البقاء»، المصدر المذكور، بالفرنسية.

من المؤكد أن مشاهد من هذا الواقع متوقعة في أمكنة كثيرة، عندما يبلغ العداء الدرجة العليا من رفض الآخر، وأن هذا العداء يجد من داخله ما يغذيه، سوى أن الذي يحصل بالمقابل، هو طبيعة التقابل بين عداء وآخر، ولا بد أن جمو حين قصد قصر زعيم سيدان كان يعرف أن الطريق سالك إلى هناك، بعد أن تأكد له أن ليس من إمكان للتصدي له، وهو في حماية قوات ثلاثية، وفي الوقت الذي تعرضت قوات حاجو الثاني إلى خسارة كبيرة جرّاء التصدي بالبنادق لقوات مسلحة أحدث تسليح. ولنتصور لو أن الدولة لم تسند هؤلاء بعتادها، هل كان الذي حصل يحصل بالطريقة هذه؟ لنتخيل ما ستكون عليه المجابهة، ولمن تكون الغلبة.

وحين أتحدث في واقعة كهذه، وغيرها من الوقائع الأخرى، فجل ما أحاول التعرف إليه، هو كيفية تراكم أحقاد كهذه في النفوس، ولقاء ماذا، وتحسباً لأي شيء، حيث الضحايا كثيرة، والتكاليف باهظة، ولأن الذي يستوقفني ماض، ولكنه لم يفقد تأثيراته في بنية الثقافة الكردية، حيث إن الذين يحاولون استعادة وقائع كهذه، ربما لا يكون هدفهم، هو مجرد الاستعادة، وإنما إشهار متعة نفسية، لا تخفي انحرافها عن جادة الصواب، أي ما يبقى الماضي حياً، وكأن هذا التفاعل الحيوي، يشكل خطاباً مستعاداً، ليكون خطاباً معززاً بلغة الراهن ضد الذين يتأذون من أي حديث عن مثل هذه الواقعة، كما لو أن فعل الذبح لا يتوقف عن التكرار، دون ذلك، كيف يمكن تقبل هذا الجنوح عن السوية النفسية، والدخول في عقد مجتمعي، يبقى الماضي لماضيهِ، وليس أن يحيل الموتى الذين قضوا نحبهم، أو فطرت أكبادهم، كما لو أنهم لم يموتوا، ليجري تعذيبهم بأيدي اللاحقين عليهم تبعاً.

أترانا دخلنا انعطافة تاريخية جديدة؟ أترانا أصبحنا مستعدين لمواجهة أخرى، ولو بعد حين، حيث الدم المسفوك وكما أشير إليه، يخاطب أهل المذبوح بوجوب القيام بالمثل، أي كما الحال مع «شبح هاملت» والذي كان يلح على «هاملت» في مسرحية شكسبير، بضرورة الانتقام من قاتله، أي عمّن قتل أباه، وكان ذلك منذ أربعة قرون ونيّف.

طبعاً، ومن باب اللزوم، فإن الذي قتل أبا هاملت، ولمن لا يعلم، هو أخوه بالذات، طمعاً في السلطة، أي كلوديوس، وتزوج والدة هاملت، وهي مأساة فظيعة، متعددة الأبعاد، ذات وقع إنساني إلى هذه اللحظة.

لعل هذا الذي تقدّمنا به، يعطينا فكرة ثقيلة الوطاء، وهي تضغط على أذهان

الهفيريكانين/ الهفيريكيين، وبصورة أكثر، من يكون الأقرب من المقتول بالطريقة تلك، وربما كان المرشح للصعود إلى الواجهة: عليكي بطي.

الزعيم الذي سيكون

من المؤكد أن الذي خلفه حاجو الثاني وراءه، ليس تركة موجعة من الحزن والقهر حصراً، كما يمكن أن يقال أو يتردد، وإنما من المواقف التي تسميه وتبقيه حياً في النفوس أكثر، وتحفز على سرعة المبادرة، لانتاج مثيلاً، أو لاستعادة هيبة هفيريكان، كما كانت أيام حاجو الثاني، وأن القيام بالمسعى نفسه «الذبح بالمقابل» يسهم في استعادة هذه اللحظة التاريخية.

لا فصل بين السلف الأول لهفيريكان «أوصمين/ عثمان» والتالي فيما بعد، وبدءاً من حاجو الأول، إنما هو حديث يتركز على ما أنجزه كل اسم، وهو موصوف بما يميزه عن سواه «حاجو- حاجو الأول، الثاني، الثالث» وما يقابل هذا التسلسل النسبي العائلي جهة العمومة، بالنسبة لعلكي بطي، كما سنرى: عليكي بطي، أو علي بطي الثاني، بطي... أي ما يحافظ على نوع من التوازن في التقابل، جهة أبوين من صلب أب واحد !

ومن المؤكد أيضاً أن مناخاً يتصف بصفة معينة، ولها عراقة معينة تاريخياً، داخل عائلة أو أسرة معينة، لا بد أن يحافظ على عناصر دعم له، ليس على صعيد المجموع العام لأفراد الأسرة أو العائلة، وإنما على الأقل من خلال فرد معين، يكون المحرّض اليومي، بصيغة ما، على وجوب التذكير بهذا المناخ، وطابعه الثقافي، وهذا المناخ الذي أشير إليه، هو مناخ التحدي للمؤثرات الساعية إلى طمس كل أثر للذين كانوا عناصر دعم لربط هذه الأسرة/ العائلة باسم معين، سرعان ما صار لقباً، واللقب هذا علامة تمايز فارقة، أي حاجو. بحيث إن الذين يتحدثون عنها، ربما القلة القليلة منهم، يذكرون بالاسم الأول فيها «أوصمان/ عثمان» وهذا السلف الذي بالكاد يوتى على ذكر اسمه، قد يثير خيالات المنتسبين إليه، كونه لقباً، وهي خيالات لا تخلو من تحليق شعري، إلى جانب معاشات نفسية عما كان عليه موقعاً ومكانة، ومنذ متى حمل هذا الاسم: أتراه كان اسماً عادياً، أم لقباً بدوره؟ لا بد أنه، ومن خلال أثريات الألقاب والأسماء، أن اللقب أبقي، وكونه يتميز بمكانة اعتبارية رحالة عبر أجيال متسلسلة، فلا بد أن هناك تطويلاً له، ولادة اسمية مغايرة لأي ولادة عادية، أي ما يأتي اللقب في ظل الاسم، أو ما يجعل الاسم لقباً، لحظة القيام بمأثرة بطولية معينة، يترتب

عليها إجراء مفصلي، وهو اتخاذ قرار بإعلان حالة طلاق بين اللقب الذي كان واللقب الذي يؤرّخ له بحياة جديدة، تدخل في رصيده الرمزي، وفي إثره تأتي الأسماء الأخرى: الأبناء والبنات، الحفدة والحفيدات..الخ إلى آخر القائمة الاسمية التي ترفع من شأنه، أو يكون هو حاملها الاعتباري، وربما يأتي لقب آخر، ينفك عن السابق عليه، ليس لأنه قد فقد صلاحية الانتماء إليه، أو انتهى أمره، وطوي تاريخاً، وإنما لأن هناك مستجداً على الواقع، هو الذي يشكل مخاضاً صعباً، وربما مكلفاً أيضاً، لولادة لقب آخر، يدشن مرحلة زمنية جديدة، لا أحد يمكنه البت في نهايتها، إنما يتوقف ذلك على ذلك المستجد الآخر، والذي - بدور- يشكل مخاضاً صعباً يليق بمكانة المنتظر أو المختلف عن سابقه- وبناء عليه، يكون لدينا تطويع مختلف، وتسيب مختلف، ويحتفظ بحق الاستمرارية، طالما أن شيئاً لم يتغير ذلك التغير المناسب من الداخل والخارج، أو لم تبرز قوة أخرى: سلطوية، ترى في وضع لقب جديد، من عائدات ثقافة السلطة السائدة، وبما يتناسب مع توجهاتها العقائدية، وإقامة فصل حدّي، ربما نهائي، طالما أن السلطة تلك قائمة، بين اللقب المفروض، واللقب السالف «نتذكر هنا السيستام الإيديولوجي التركي، إبان ظهور أتاتورك مدشناً لتاريخ جديد «تتريكي» مع «الجمهورية التركية» بدءاً من 1923،. وحيث أن اللقب نفسه قد يشهد انقساماً ما داخله، لأسباب ذات صبغة عائلية صرفة، كما في حال «حاجو- بطي» هنا، حيث إن الذين ينتسبون إليهما هم هفيريكيون، لكنهم في التحديد النسبي، أبناء عمومة، أي يجمعون في ذاتهم بين حاجو وبطي.

وهو ما يمكننا المكاشفة لخطوطه الدقيقة والمتعددة الاتجاهات في الخريطة الاسمية الحية لعلكي بطي، وهذه الخريطة، بكل مدلولاتها، تعرّف بموقعها، وما يدخل في الموقع من أحداث.

نعم، وهناك الكثير من المتاعب لا بد من التهيؤ لها، متاعب تتناسب ليس تجاه ما هو مكتوب عن عليكي بطي، وما أقله طبعاً، مقارنة بشخصه المختلف، وبما يقال عنه حتى الآن في الوسط الاجتماعي الذي يحيط به علماً فحسب، وإنما تجاه ما لم يكتب عنه أولاً، وكيفية تسليط الضوء على ما هو مكتوب عنه ومتردد حوله شفاهة ثانياً.

أعني بذلك، كيف يمكن الوقوف على حقيقة مغيّبة كردياً، قبل كل شيء، ومن المعنيين بالتاريخ الكردي، من كتّاب تاريخ وباحثين، حقيقة أن عليكي بطي، يكاد ينعدم كل أثر له، أو إشارة إليه، وثمة عشرات الدراسات والأبحاث والمقالات والوثائق عنه في

تركيا، وقد عاش عمراً كفاحياً، نضالياً، أو انتفاضياً، على الأقل، ست سنوات «1913-1919»؛

تلك علامة فارقة للحساسيات الكردية التي، في حالات كهذه تتعامل عن رؤية أقرب ما هو موجود، وتعدمه، رغم أن الأعداء لا زالوا يأتون على ذكره، والتأكيد أنه انتفض ضد الدولة، ولم يكن «قاطع طريق» أو «متعاوناً» مع العثمانيين أو التركي، حال آخرين وآخرين، ولا كان حاجو الأول أو الثاني أو الثالث، كما تقول الوثائق التركية نفسها. طبعاً، وعند «جهينة» الحساسية العشائرية الكردية المنغصة الخبر اليقين: تجاهله، ليس لأنه غير موجود، وإنما تام الوجود، وهو وجود ربما يلتهم ما عداه، جرأ لائحة الانقسامات الموجعة المفجعة، وما يترتب عليه من جهة ساسة الترك وكتائبهم من تحويل ذلك إلى رصيد «لؤمي» والنيل منهم.

وهذا ما حفزني كباحث متعدد الاهتمامات، أن أولي هذا الجانب اهتماماً آخر، قدر المستطاع، وقدّر ما يستحق.

ولهذا أيضاً، فأنا أعتمد هنا مهمة المؤرخ، قبل كل شيء، أولاً، حيث (إن مهمة المؤرخ في احترام حقائقه لا تستنفد بالتزامه في أن يرى حقائقه صحيحة. فيجب أن يذهب إلى إظهار جميع الحقائق المتعلقة بموضوعه قيد البحث وبالتفسير المقترح في الصورة).⁽¹⁾

اسم على تاريخ

مهمة تأريخ، وفي وضع كليكي بطي، لا يمكن أن يتجاوب معك اسمه وسجله السيّري، وموقعه في هفيركان وخارجها، دون توسيع قاعدة البيانات الشخصية، وذهنيته ومدى استشرافها لما حولها، وأبعد من ذلك، وليس ما هو مصوّر ومشاع عنه، كما يشتهي التركي الرسمي، مجرد «قاطع طريق» أو شقي» أو «عاص». هذه الألقاب من عدو شرس، ثناء عليه في الواقع.

وبالتالي، تكون لدينا مهمة أخرى، كما أسلفت سابقاً، وهي في الماضي قدماً إلى مكاشفة ما هو أسطوري، وما في أسطوري من تعميق مفهوم «الواقعي» كمسلك شخص غير عادي، ومن ثم فولكلوري، وما في الفولكلوري من حفز الاسم في صخرة

(1) كار، ادوارد: ما هو التاريخ، ترجمة: ماهر كيالي- بيار عقل، المؤسسة العربية، بيروت، ط2، 1980، ص 30.

الذاكرة بارزاً، حيث التغني به توقيراً وتقديراً له، أوحى جهة تقديم صورة مغايرة له، جرّاء الحساسية، وفي هذه النقلات، وحالات الربط المطلوبة، تكون المهمة غاية في الصعوبة، رغم متعتها، لكنها متعة لا تتحصل بيسر.

كما قلت، تكمن الصعوبة في قلة المعلومات التي تعيننا حول شخص لا زال يطرح اسمه، بطلَ زمانه العتيد، معلومات تتوافر في كتابات «رسمية» غالباً، تعيننا على قراءة السريّ فيها، وتلك مفارقة تاريخية طبعاً، حين يكون النص «العدو» المرجع، والجاري تطهيره من العوالق!

ولهذا، فإنه حين تأتي على ذكر شخص وفي مقام «حسن» دون أن تعرف حقيقة تاريخه، فذلك لا يعدو أن يكون تعبيراً عن درجة الشهرة التي حققها لنفسها، أو ذاع صيته من خلال أكثر من عمل بطولي يكتسب صفة شعبية فعلية حقاً، أو ما يتوسط المسافة بين التاريخ وخلافه هنا .

لديه شهرة شعبية وتاريخية وتداخل بينهما، دون نسيان الأسطوري، والمعروف بأكثر من صيغة «عليكي بطي/ عليك/ أليك...الخ»، وكذلك «بطي/ بتي/ بطي/ باطي/ باتي...الخ»، ونحن نعتمد صيغة عليكي بطي، وهو ابن أخ حاجو الثاني وابن عم حاجو الثالث الذي يكون ابن حاجو الثاني، وهي شهرة تستند إلى الجانب الإقدامي mêrxasî في شخصه، حيث انتقم لعمه من جمو، كما أنه كان وراء فتح سجن نصيبين وإطلاق سراح المساجين، إلى جانب تحدي السلطة المحلية في المدينة والجوار، ومن هم متحالفون معها كردياً، ليكون بالطريقة هذه نجم هفيران باقتدار، وأبعد، حيث يجري تنصيبه هكذا، أي ليكون السبب لكسب الكثيرين من الكرد في المنطقة ليكونوا حلفاء لهفيركان، أي من باب التشديد على أن منطق الغلبة، أو المبادرة الذاتية، يمهّد الطريق واسعاً أمام انطلاقة صاحبها، ويرفع من شأنه في أعين الآخرين.

وفي العودة إلى الاسم المقدّم بالصيغة المعتمدة هنا، رغم أنه كان «عليكي بطي/ بطي» هناك في كتابي «دولة حاجو آغا الكردية» إلا أنني ارتأيت هنا تلطيف الاسم، وربما إضافة بُعد آخر، صوتي «فونيتيكي» بعد أن لاحظت أن الذين يأتون على ذكر اسمه، كثيراً ما يتهجونه/ يلفظونه بنوع من الضغط على منتصف اللسان، حيث يظن حرف «التاء» في مقام «الطاء» أكثر، رغم أن ليس من حرف كهذا في ألفباء الكردية، كما هو معروف، وأن أساير المنطوق الشفوي، فإنما من باب الإخلاص له، وكونه يضيف هيبة على الاسم، وثمة تاريخ لصوتيات كهذه لدينا .

في صفحة مؤثرة تظهر مدى إعجاب بروينسن نفسه «ج1»، من خلال طريقة الكتابة لديه، ولو بشكل مكثف واقتصادي جهة العبارات المنتقاة بالذات، نقرأ صوراً تترجم مما استهّلينا به هذه الفقرة (في عام 1896 اغتيل حاجو الثاني بتحريض من زعيم الدكشوريين جمو، فانتقلت الزعامة إلى عليكي بطي وجلبى وهما من فرع العائلة الأصغر عمراً. ورغم أنهما كانا على خلاف دائم بينهما، فإنهما جمعا جميع الأفخاذ تحت سيطرة عائلتهما. فواصل عليكي، الشجاع، ذو الجاذبية الشعبية، وبطل القرية الأسطوري، حرب عصابات ضد الحكومة لأكثر من عشرين سنة، وأقدم على قتل جيمو «جمو» بيديه هو انتقاماً لمقتل عمه. وفي خلال الأيام المضطربة التي أعقبت هزيمة العثمانيين في الحرب العالمية الأولى، استولى على بلدة ميدياد وحاول أن يقيم حكومة مستقلة هناك، ويومذاك لم يكن مسيطراً على الغالبية العظمى من الهفركانيين فحسب، بل على قبائل مجاورة أخرى أيضاً. وتطلع المسيحيون، الذين كانوا قد تعرضوا للقمع على يد الأتراك والقبائل الكردية الأخرى، إليه بصفته حاميه، بل إن مقاتلين مسيحيين أشدّاء أسهموا في ازدياد نفوذه، وفي العام 1919 اغتيل عليكي في ظروف غامضة، فانهارت وحدة القبيلة ص 232).

بروينسن، كما أسلفت، لم يتطرق إلى معلومات أخرى تكون مهمة لمعرفة أمور أو جوانب أخرى من حياة هذا الشخص الشجاع وهو في أوج فتوته، كما في حال طريقة انتقامه من جمو «وما يمكن أن يقال فيها نفسياً»، ومداهمته لسجن نصيين ورهبتة في أعين الحراس ومن في المكان، إلى جانب انتشار صيته في المنطقة، وتحديداً، في الوسط العشائري وخصوصاً بالنسبة إلى الطرف الآخر من آل عثمان، وهم يراقبون كل صغيرة في هذه السيرة: البطولية.

وفي الجانب الآخر، لا تعدو عبارة «ظروف غامضة» أن تكون تعبيراً عن المناخ البوليسي المتشدد، والسلطة التي هي غاية في المركزية الصارمة، حيث إنها تعتمد أساليب ضغط، وإكراه وملاحقات، إنما تمارس تصفيات بصور شتى، وفي واجهتها: القتل الذي ينسب إلى فاعل مجهول، وهو دأب مختلف الحكومات في المنطقة، حين تتخلص من المعتبرين أعداءها أو خصومها، دون أن تكشف عن ذلك، أو ملابسات الحالة، بمقدار ما تخطط لأكثر من دور لأكثر من جهة في هذا المقام، ومن ذلك، حين تحيل المجتمع إلى قوى متصارعة، فيكون أي عمل إجرامي منفذ من قبل الدولة هذه أو تلك، وقد نسب إلى فاعل مجهول محفزاً للناس لأن يبحثوا في أمر هذا الفاعل

المجهول، وأن يتساءلوا فيما بينهم عما يجري في أوساطهم، وتصبح الدولة معنية بذلك، وإن كانت أصابع الاتهام توجه إليها، إلا أن هناك أطرافاً أخرى في المجتمع لا صلة لها بالسلطة، توضع ضمن دائرة الاتهام وينسب متفاوتة من جهة إلى أخرى، وقد يحصل ذلك، جرّاء نزاعات جانبية، أي حين تكون البغضاء والكراهية وتبادل الأحقاد والتصفيات الجانبية «شغالة» في المجتمع، تكون الدولة الشمولية، والتي تمثل مجموعة محدودة في المجتمع هي المستفيدة الأولى في ذلك، وتحرص على تنمية مؤثرات هذه الصراعات.

دون أن ننسى أن عملية النيل من أحدهم، بطرق عنف بليغة، كما في تركيا بالذات، وتجاه الكرد، وقبل قيام جمهورية «أتاتورك» الطورانية بالذات، على جانبي الحدود، وفي مناطق مختلفة، ناحية إبقاء الجثة مكشوفة أو وهي عرضة للضواري والتفسخ وتهديد كل من يقترب منها بالقتل، وتحديدًا في الشريط الحدودي المغموم، كما يمكن تتبع ذلك في كتب كثيرة، ومن ذلك ما أثاره لالش قاسو في روايته الكردية «ثلاثة أيام بلياليها» إزاء حالات كهذه، وما أودعته الباحثة الكردية أصليخان يلدرم عن مشاهد مرعبة كهذه، في كتابها الكبير «كردستان والحدود في القرن العشرين»، أما عن المفكر التركي اسماعيل بيشكجي، فيصعب وجود كتاب له، دون التطرق إلى أوجه إرهاب تجسدها الدولة التركية، أو تلجأ إليها الحكومات التركية المتعاقبة، كوريثة «شرعية» لسلطة عثمانية وقد قلصتها تناسبها مع سياسة التتريك فيها.

لقد حاولت، قدر المستطاع تعقب خيوط هذه الشخصية التي امتزج فيها التاريخي والحكائي، العلمي والفولكلور الشعبي، ولا شك أن ذلك من البدايات، لأنها من حيث البنية أو النشأة، ربما تكون صالحة لحمل مثل هذه المقومات المختلفة، وفي الوقت الذي يمكننا العثور على أكثر من مسوّغ واقعي، يشدد على ما كانت عليه، فهي، وإن كانت من لحم ودم، إلا أنها، وجرّاء خلل واقعي، على مستوى تردّي الأوضاع، وحجم الضغوط على الناس، والكرد كنموذج، حي، وكنموذج محسوس، واقعي، كان هناك انتظار لمن يمكنه تمثيل همومهم، أوجاعهم، آلامهم وآمالهم، وبطريقة تعينهم في تحررهم من أنقال الواقع، أو تجعلها أخف.

وأن يكون التصوير مبالغاً فيه، فربما لأن الذي يعيشه المهوورون، لا بل والمهدورة قيمتهم بأكثر من معنى، لا يجدون غضاضة في نسج شخصية تتناسب وقسوة ما هم عليه، بمعنى أن المبالغة في وضع كهذا، لا تعدو أن تكون تقريراً حياً عما هو مبالغ فيه

جهة وطأة الأوضاع، أي: ما كان يجب أن يحصل عنف بالمنوال الذي يتهدد حياة الناس في الصميم.

لعل التصوير الشعبي، كما سنرى، في أكثر من مثال فني «غنائي» عن عليكي بطي» هنا، ودلالات كل أغنية، بأبعادها الجمالية والتاريخية كذلك، يمثل صورة فاعلة، وأحياناً تكون أصدق من أصدق رواية تنسب إلى التاريخ، لما لهذه من صلة مباشرة بطبيعة الراوية ومغزى روايته ومنحائها، سوى أن الأغنية التي تسمي شخصاً، بطلاً، طرفاً معيناً، ودون تحديد واضح الكلمات بجلاء، تصبح التسمية محررة من المسألة التاريخية ذات الصبغة العلمية المعتادة، أي استنطاقها عما إذا كانت صائبة، دقيقة، أم لا، إنما العمل يتم من خلال نوعية التسمية، وكيف تشكلت هكذا، وماذا تمثل بمفهومها الفني ومداه المعنوي، وبعدها الجمالي... الخ.

وعليكي بطي ليس شخصية شعبية بحرفيتها، كما يُسمَع عنها هنا وهناك، بمقدار أنه شخصية تاريخية، وثمة وقائع مسجلة باسمه، ثمة أناس عاشوا حرارة هذه الوقائع وتوترها، ثمة أناس كانوا معه عن قرب، وقاوموا العثمانيين وحتى الأتراك وهم في تعددية لغاتهم ومعتقداتهم: كرداً، سرياناً، أو مسلمين، مسيحيين، إيزيديين، وهناك وثائق تتحدث عنهم كذلك.

وهذا الأمر، بمقدار ما يضيف على البحث جانباً من الإثارة والتشويق، أو الفضول، لمعرفة هذا المزج، وحدود التلاقي بينهما، أو نوع الفصل القائم بينهما أيضاً، وبالترافق مع المعلومة التاريخية التي تركز إلى أحداث، وشهود عيان، ومن كانوا في الأمكنة التي تواجد فيها عليكي بطي ومن معه، وخاصة رفيق حياته البطل السرياني شمعون حنا، أو شمووني في بعض الروايات، وما لذلك من أثر في نفوس من غنوا ومن أصغوا، ومن فكروا ومن حللوا وناقشوا وساجلوا كذلك، أي، ومن اهتموا بوقائع كهذه، ومآلاتها كذلك، يحفزنا أكثر على المكاشفة.

وأحسب أن متابعة مركبة من هذا النوع، تفيد الباحث التاريخي في أمرين:

كيف يتدرب على فك رموز التاريخ، ويصل فيما بينها، ويرتقي بمستواه المعرفي: الأرشيافي إلى ما هو أفضل.

وكيف يعيش حرارة الكلمة وقد انسابت بمعلم وجداني، تذوقي، وهي توسع دائرة المتخيل، ورؤيا العالم خارجاً.

ذلك ما ينطبق على الشعوب المحرمة من لسانها: لغتها، ومن صوتها وهي تقرأ بلغتها، ومعدّبة من سلطة غاشمة، أو واقع مشهود له بعنف متعدد الأبعاد، وفي كل ذلك يكون امتحان المؤرخ والباحث في التاريخ معاً، أو على انفصال.

ومن جهة أخرى، فإن الحديث عن البطل بمفهومه الشعبي، إلى جانب مفهومه التاريخي، يتطلب بعضاً من التحري في تلك الوشائج بينهما، وكيف يمكن للبطل التاريخي نفسه أن يصبح بطلاً شعبياً، أو ينتقل الأخير إلى مصاف الأول، أو يجمع في لحظة ما بين خصلتين، أي توأم المفهوم الواحد، حيث السياسي يلتقي بالاجتماعي الشعبي، وتحديدًا بالنسبة للشعب الذي يفتقر إلى التاريخ الذي يعنيه أساساً، أو يتلمس فيه حضوراً يحمل بصمته، بمقدار ما يدرك أن المدون يعنيه حقاً.

أي حيث يكتسب التراثي ما هو أبعد من المتعارف لدى آخرين يسهل التمييز بين تاريخ معرف به، وله علاماته، في مجتمع معرف بدولة أي كيان سياسي وحدود، وهنا: كردياً، لا يكون هذا الشيء متوفراً، وذلك من شأنه اعتماد آليات تعبير عن الذات بمفهومها القومي والإنساني بغية التعويض، كما لو أن التاريخي يتوسل الشعبي ليمتج منه ما يلزمه ليكون في مستوى المأمول، أي ما يجعله تاريخاً، وإن كان يتطلب وقتاً كافياً، ليعرف كسابقه باسمه بدوره، وهذا يحتم علينا ألا نطلق القول/ الكلام على عواهنه لحظة اقتباس كلمة، عبارة، مقطع من مصدر ما، دون التأكد في مدى قابلية النص الذي نشغل عليه، أو يعمل به لامتصاصه، أو هضمه «اجتيافه» بالمعنى النفسي، واستحالته بعضاً منه.

أحسب أننا في الوضعية هذه، وفي المسار الذي نتحرك فيه، نتحدث عن أولئك الهامشيين في التاريخ، وهم ليسوا هامشيين واقعاً، والمحسوبين مهمّشين وسطحيين على قارعة طريق المجتمع، ولم يكتسبوا بعد شهادة حسن سلوك ليكونوا أهلاً بالدخول إلى التاريخ والمجتمع والثقافة بوجوههم الفعلية، أي اعتبارهم طارئین بأكثر من معنى (يتم تعريف الهامشيين بالنسبة إلى المجتمع المهيمن بصورة سلبية: إنهم ممن «ليس له مقر دائم»، وهم «يوجدون في كل مكان»، وهم «ممن ليس له اعتراف»، و«وهم ممن لا يصلح للدنيا»⁽¹⁾).

(1) مقال تاريخ الهامشيين Marginaux، لجان كلود شमित، في كتاب التاريخ الجديد، تأليف جماعي، إشراف: جاك لوغوف، ترجمة وتقديم: د. محمد الطاهر المنصوري، مراجعة: د. عبدالحميد هنية، منشورات المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2007، ص 467.

والكرد من خلال أدوارهم التاريخية، وما أكثرها، وإلى يومنا هذا هم في سعي دائم أو دائم لأن يكونوا في في الجانب الآخر من التاريخ، أي غير هامشين، وهم يعرفون بأنفسهم مقصيين عن التاريخ، أو محرومين من هوية تعنيهم تاريخياً، كما لو أن أي صوت يلفت النظر وهو محمل بنبرة شجن، أو صرخة قهر، وحتى سخط، كما يقال، لأهله، ناسه، شعبه، خطوة صوب الأخير.

في شخصية عليكي بطي يمكن المضي بالاسم، ودلالات الاسم، إلى نقطة بعيدة، وهي تضيء في أفق الرؤية، وفي محيط جغرافي، متنوع في تضاريسه، ومتداخل بقواه الحية والفاعلة.

وآمل من القارئ، النظر، فيما أورده اليوناني العتيذ ثوسيديديس، في كتابه الشهير «تاريخ الحروب البيلوبونيسية» وهو مشهد على غاية من الصراعية، بين الأثينيين والميليين: الأثينيون: نجتمع هنا من أجل مصلحة إمبراطوريتنا... ومن أجل الحفاظ على مدينتكم وسوف نقول ما ينبغي علينا قوله. لا نسعى إلى إيذاكم في حال ضمكم إلى إمبراطوريتنا ونريد الحفاظ عليكم من أجلكم ومن أجلنا.

الميليون: هل من العدل أن يصيبنا الخير حين نصبح عبيداً بنفس الطريقة التي تكونون أنتم بها أسياداً ؟

الأثينيون: ستجنّبون أنفسكم الكارثة حين تستسلمون، ونحن سننتفع منكم حين لا ندمركم. الميليون: نفهم من هذا أنكم لا توافقون على أن نكون محايدين، أصدقاء وليس أعداء، ولسان حلفاء مع أي طرف ؟

الأثينيون: كلا، ليس لأن هجماتكم ستؤذي، الأخرى أن تكون القضية كالتالي: حينما نكون أصدقاءكم، سيظن رعايانا أن هذا علامة ضعف فينا، بينما كراهيتكم لنا هي دليل قوة.. ويكتب المؤلف، أن الميليين حاولوا المسلحين مع أولئك بوجوب الدخول في علاقة تضمن سلامة الجميع، والحرية للجميع، تم رفضهم من قبل الأثينيين وشرعوا بالهجوم فوراً، ونجحوا في النهاية في تحقيق ما توعدوا به:

نُفذت عمليات الحصار بقوة، ولكن بسبب الخيانة الداخلية، استسلم الميليون بلا شروط للأثينيين الذين أعدموا الذين أسروهم كل القادرين على حمل السلاح وباعوا النساء والأطفال عبيداً. واستولوا على مدينة ميلوس نفسها وأرسلوا فيما بعد 500 مستوطن إليها..)

نقلًا عن كتاب جون دوكر: أصول العنف «الدين، والتاريخ، والإبادة»، ترجمة: علي مزهر، مراجعة: حسن ناظم، منشورات جامعة الكوفة، بيروت، ط1، 2018، ص 88.

وأترك للقارئ الكريم حرية التأمل في بنية هذا الاقتباس وربطه بواقعنا الكردي تاريخياً، وموقع كل من الأعداء وطبيعة تعاملهم مع الكرد، وما يخص الكرد وانقساماتهم فيما بينهم، وصلاتهم بالأعداء أنفسهم !

إنها القوى التي لا تتفصل عن محيطها الاجتماعي، مثلما أنها حصيلة مجموعة من العلاقات غير المتناغمة، جرّاء كان هذا الظهور لاسمه كما يعرف به الآن، بدءاً من عائلته بالمعنى العام لكلمة «عائلة عثمان»، وموقعه داخل عائلته باعتباره ينتمي إلى حسن الأول، وصراعه مع وسطه الاجتماعي والعشائري، ومن ثم مع الدولة، وهي عبارة في بنيتها مجموعة مؤثرات مزروعة، إن جاز التوصيف، أي متعددة الاتجاهات، متداخلة، ومتشابكة كذلك.

ولا بد أن تحرّي أصول شخصية بمفهومها البطولي، ومن خلال معاينة وسط اجتماعي بالصورة السالفة، وما سيعمّق في أثر الصورة وإضاءتها، قد يضعنا إزاء حقيقة ذات صلة بموضوعنا الفرعي هذا، وهو أن عليكي بطي كشخصية تاريخية وشعبية نتاج تناقضات تمتد ما بين الحد الأدنى من الوسط الاجتماعي الضيق الذي كان يعيش فيه، والحد الأقصى من المجتمع وهو في تنوع اثنياته، وما فيه من تجاذبات سياسية واجتماعية وسياسية، وعوامل نفسية.

لقد قال غوستاف لوبون ذات يوم عن أنه (لولا الحروب الأهلية في رومة لاستحال ظهور القياصرة..)⁽¹⁾، ولعلّه في قولته الذكية هذه، ما يفيد في إنارة هذا الجانب الدقيق، أي اعتبار عليكي بطي حصيلة واقع من النوع الذي نوّه إليه، كما كان حاجو الأول فالثاني والثالث، وهو ما سنحاول التعرض له، وكيف أنه «أي بطيها» مثل الخطوة الرئيسية في لفت الأنظار إلى هفيران، والشخصية الكاريزمية الطابع، والتي بدورها - شكّلت تنويراً لحاجو الثالث، أو تحفيزاً له ليخطو إلى الأمام بصورته المعروفة كسياسي، وأن يكون جديراً بالاسم اللقب عالياً.

نعم، في الحالات الاعتيادية على صعيد العلاقات الاجتماعية، ربما يكون الجميع سواء، ولا أحد يمكنه مجارة الآخر، ففي مناخ روتيني، حيث الجميع يؤدون أعمالهم، مهما تفاوتت مراتبهم، يغدو من الصعب التمييز بين الأكثر حذاقة وجسارة، والأكثر لامبالاة وخوفاً. ففي النهار، يتحرك الجميع هؤلاء دون أن يلتفتوا إلى الوراء، إلا في حالات خاصة، دون أن ينظروا ميمنة وميسرة، إنما في الليل يختلف الوضع كلياً، حيث إن متابعة حركات الناس وطباعهم الداخلية، كثيراً ما تميّز الواحد عن الآخر، وأكثر من ذلك، ما إذا كان رجل مهام صعبة أم لا.

(1) لوبون، غوستاف: فلسفة التاريخ، نقله: عادل زعيتر، دارالمعارف، مصر، 1954، ص 11.

يقول جويده في إشارة منه، وهي مؤثرة هنا، إلى تداعيات نهاية الحرب العالمية الأولى، وتأثيرها على الكرد عن أنه (كان توقيع الهدنة في موندروس عام 1918 إشارة لانفجار نشاط الحركة القومية الكردية في تركيا. لم ينجم هذا التطور عن جهود القوميين الكرد الذين عادوا من المنفى أو الإقامة في تركيا فحسب، بل من الدعم التركي النشط أيضاً)⁽¹⁾.

(1) جويده، وديع: الحركة القومية الكردية: نشأتها وتطورها، المصدر المذكور، ص 325.
وقارن ما قيل، بما ورد في مقال يوسف معروف «کردستان» في مواجهة الخرائط والالتماسات Haritalar ve dilekçeler kısıncında 'Kürdistan', 28-11-2019, yeniozgurpolitika.net ومن ذلك(لم يتمكن الأتراك، الذين نظموا حملات عسكرية إلى كردستان في العشرينيات من القرن الماضي، من دخول هذه الجغرافية الجبلية والقاسية حتى عشرينيات القرن التاسع عشر. خلال فترة 800 عام هذه، لم يتكيف الرعاة الكرد، السلطة السياسية والإدارية الرئيسة في كردستان، بشكل كامل مع السياسة وعلم الاجتماع الكردي ولا يمكنهم إقامة وحدة فيما بينهم).
وربما ما كان سبباً لأن يحدث التالي (بينما كانت هذه تحدث على الجبهة الكردية، كانت هناك تطورات مختلفة في المكاتب العسكرية لبريطانيا وفرنسا في كردستان. لم تفكر بريطانيا وفرنسا، اللتان احتلتان معظم مناطق جنوب وشمال وغرب كردستان، في التبرع بدولة مستقلة للكرد).
وما أدّى إلى الأخطر، وإلى هذا اليوم، في مقال فهم عشق: اهتمام سايكس بيكو بالحفاظ على الاستمرارية

Sykes Picot'un devamlılığını sağlama derdindeler, 28-11-2019
كما في قوله (لا يوجد كرد في اتفاقية سايكس بيكو. لقد تم دفع وطن الكرد من قبل الإمبرياليين. ينقسم العرب إلى قبائل صغيرة تخدم مصالح الإمبرياليين، وليس كدولة مشتركة وذات سيادة. وتمت التضحية بالأرمن، الشعب القديم في المنطقة، الذين قُتل 1.5 مليون منهم قبل عام واحد فقط من الاتفاق القذر للإمبريالية، من أجل الطموحات القذرة لروسيا القيصرية).
ولهذا السبب، كان هذا التقويم الماركسي المستحدث (لهذا السبب بالذات، سايكس- بيكو هي «أوساخ الإمبريالية» كما يقول قادة ثورة أكتوبر، إنها بلا شك صفقة قذرة).
وأخيراً وليس آخراً، القول المخيف، في مقال، منشور في الموقع السالف الذكر نفسه، والتاريخ نفسه، وهو لإحسان كورت:

معاهدة لوزان في غزو روجافا ومساجلات الوحدة الوطنية
Rojava'nın işgali ve ulusal birlik tartışmalarında Lozan Antlaşması, 28-11-2019
ومنه (أكبر الخاسرين في لوزان هم الأرمن والكرد. قدم السير هوراس رومبولد، رئيس وفد المملكة المتحدة، الرد التالي على ممثلي الرابطة الأرمنية الدولية، الذين سألوا الأرمن في

قول يفصح عن أن نهاية الحرب هذه نبّهت الناس إلى مرحلة جديدة، وملؤهم انجراحات وذكريات فجائية، وآلام، ولزوم التحرك بتصورات وأفكار جديدة، حيث إن الدولة العثمانية التي كانت تضم داخل حدودها أعرافاً وثقافات ولغات، قد انهارت، وتشكّلت دول على إثرها، ليجد الكرد أنفسهم، من ناحية في عراء التاريخ، ومن ناحية أخرى، محط أنظار العالم، ومهب المصالح الدولية بالمقابل، ولا بد أن وضعاً جديداً كهذا، كان يفصح عن غليانات جرت قبل ذلك، وأن الهدنة السالفة الذكر ثبتت جرائها.

ونهاية الحرب أفرزت بطلاً من نوع خاص، بطل يحمل دمغته المحمولة تاريخياً، بمقدار ما نعت بطلاً من نوع خاص، هو عليكي بطي.

بمعنى آخر: أكان لعليكي بطي، أن يكون عليكي بطي الذي نعرفه، لولا انفجار الأحداث داخلاً وخارجاً وفي المحيط الواسع لهفيريكان؟ ذلك ما نحاول التقيب فيه !

مجموعات الضغط أثناء انعقاد مؤتمر لوزان في أوتشي: «نحن نعرف وعودنا ومسئولياتنا، ولكن لا يمكننا الوفاء بها. نحن بحاجة إلى ضمان السلام بأي ثمن. نحن ندرك أنه تمت التضحية بالأرمن». أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي، الذين عبروا عن قوتهم العظمى في الشرق الأوسط حول وضع الكرد في الشرق الأوسط، الذين تركوا الكرد بمفردهم بعد عملهم مع داعش في روجافا اليوم، سكبوا دموع التماسيح.

يعني ما تقدّم، أن إلحاق الهزيمة بالكرد، منذ أول انتفاضة لهم في النصف الأول من القرن التاسع عشر بدرخانياً، وإلى أول انتفاضة سبقت الحرب العالمية الأولى، لبطي، وما يقوم به الكرد هنا وهناك تعبيراً عن رفضهم للظلم، لم ولا يشغل أذهان ساسة القوة في العالم، وإنما مقرر مسبقاً. ليدفع الكرد الضحايا، ليجر الثناء عليهم، يُيهتم بأمرهم، إنما أن يُعطوا حق وجود في كيان يسميهم، فهذا معدوم الأثر، وإلى أجل غير مسمى. عليهم أن يُهزَموا دائماً إذا !

أي تاريخ لعلكي بطي ؟

«بالنسبة إلى هذا الرجل الذي يُعدُّ ما يأتي في إبانهِ هو الخير الوحيد، والذي يستوي لديه أن تكثرَ أو تقلَّ فرصته لأن يعبرَ عن العقل السليم في أفعاله، والذي لا يجد فارقاً بين أن يتأمل العالمَ لفترة أطول أو أقصر- بالنسبة لهذا الرجل . . . حتى الموت ليس بالشيء المخيف»

ماركوس أوريليوس: التأملات

«على المؤرخ ألا يقتصر على إعادة نسخ ما قال أسلافه. عليه أن يأتي بالجديد في توثيقه، في الأنوار التي ينير بها الموضوع، في الإلحاح على أشخاص غير معروفين كثيراً»

غي تويليه- جاز تولار: صناعة المؤرخ

أسئلة حائرة

من هو عليكي بطي؟ كيف ظهر إلى ساحة التاريخ الكردي وأبعد منه؟ أي مصادر لدينا تفيدنا في الاقتراب منه، كما لو أنه مقيم بيننا، عندما تتوافر لدينا المعلومات التي تتضمن أوصافاً رئيسة له، سلوكيات تجسّد طبيعته في القول والفعل، ما كان عليه في مجتمعه، وخارجه، وما يقوله الآخرون عنه، ممن يتصفون بمواقع نافذة في المجتمع ؟

من المؤسف جداً، أنه، وكما نوهت إلى ذلك، بالكاد نعثر على لمامات تاريخ تدل عليه بوصفه رجلاً تاريخياً، باعتباره رجل سياسة، مقارنة إياه، مع من باتوا رموزاً لتاريخ حركة التحرر الكردية، مثل الشيخ سعيد الذي ظهر بعد مقتله بست سنوات، مثلاً. ليس لدينا ما يساعدنا في هذا المضمار ذي الالتواءات، والزوايا الحادة، ما يعيننا على سرد وقائع حياة ومتسلسلة تشير إليه، لحظة التوقف عند شهرته، وكيف لهذا الرجل أن يكتسب شهرة عملية وتاريخية، عند متابعتة، دون رصيد أرشيفي حي؟

ثمة ملاحظة، أراها جديرة بالتثبيت هنا، وهي أن ظروفًا سياسية لعبت دوراً كبيراً في عملية الإخفاء هذه، والبعد عن ساحة تحركاته، إلى جانب الحساسيات التاريخية، وهي بخلفيتها العشائرية وغيرها، وتحديدًا، بالنسبة إلى من يقيمون في روجآفا «بنختي» الصيغة الأكثر شهرة للموطن الجغرافي الواحد، والشاهد الحي على إجراء سياسي تعسفي، دولي وإقليمي، في تشطيره «بنختي- سرختي» كردياً، وربما لأن

هناك إهمالاً يخص هذه النقطة، حيث إن الذين انشغلوا بالأحداث الدراماتيكية والدامية في كردستان الشمالية، وفي كردستان الجنوبية، والأولى بالنسبة لمن هم في روجآفا، كادت أن تلغي أي وجود جغرافي كردي هنا، ودون نسيان مسؤولية هذا النسيان أو الإهمال من قبل الذين انشغلوا بتلك الأحداث حتى وهم في سوريا «مع خويون»، أي لم أسمع بأن هناك من تطرق إلى هذه الجوانب من خلال أشخاص لهم حضور بطولي، حتى بالنسبة إلى من توافرت وثائق، سجلات، كتابات لأبأس بها، إنما دون كتاب خاص باسمه، أي «حاجو الثالث» ودوره في لعبة السياسة التي امتدت لعقود من الزمن، وكيفية تتبع خيوط هذه اللعبة، ومن جوانب مختلفة.

وبالنسبة لبطّي، ربما كان التقسيم «سرختي- بنختي: Serxetê- Binxetê» له دوره المؤثر في ذلك، إنما هناك عامل مهم جداً، وهو يتمثل في مسؤولية أهله، ومن لهم صلة به، ممن بقوا في كردستان الشمالية «سرختي» ومن هاجروا إلى أوروبا وغيرها، ولم يقدموا شيئاً يستحق الذكر، مقارنة بمكانة بطي في تاريخ شديد السخونة، شديد التأثير، والتركيز عليه سلباً تركياً.

بين بطي الذي انتقم لعمه، قبل قرن وربع قرن، وما بعد عملية الانتقام، حيث المشهد يحيلنا إلى ما هو عشائري، رغم أنه ليس عشائرياً خالصاً، بما أن مقتل حاجو الثاني لم يكن عشائرياً خالصاً، إنما بإشراف مباشر من الدولة العثمانية، عبر قادة مكلفين منها، وهو الحدث الكبير بطبيعته، وقد أحاله إلى زاوية تاريخ عشائري، وليس سياسياً، وهو ليس صحيحاً، إذ كما كان الحال مع حاجو الثاني، وقبل حاجو، مع حسن الذي حارب إلى جانب البدرخانين ضد الباب العالي، فإن حاجو الثاني، كان يحارب الدولة العثمانية، وهي تتمثل في وسطائها، أو من يحاربون بالوكالة، إلى جانب مشاركتها الحية، والحدث الأهم، والذي استغرق زمناً يستحق تعقّب نقاطه التاريخية العلامة، وفي أتون الحرب العالمية الأولى، هو حدث المجابهة المباشرة للدولة التي مهدت لتاريخ آخر، حيث تم نعي «الرجل المريض» اللقب الأكثر تجسيدا للدولة العثمانية التي أشرفت على الانهيار، ليكون هناك بروز عهد جديد، وسياسة جديدة تجاه الشعوب التي كانت تعيش ضمن حدود العثمانيين، وما بقي في نطاق المسماة بـ «تركيا» الراهنة، وكيفية تأليب العشائر، كمادة الدولة ذات السياسات الأحادية الجانب والمراهنة على سفك الدماء، وهي مجابهة مشهود لها، إنما هناك القليل الذي يعلمنا بتفاصيل ما جرى.

وحده المتوافر لدينا، هنا، كتاب «سلاطين هفيركان: صفحة من تاريخ الكرد» حيث ظهر بعد قرابة قرن من الزمان «ظهر في ستانبول عام 2010، واغتيال بطي كان

عام 1919، كما هو معروف»، وهذه المدة الزمنية كافية، لأن تنسى وقائع كثيرة، مهمة جداً بدقائق أمورها، ولقاء الأشخاص الذين شاركوا في الواقعة التاريخية، ووصف ما جرى، وحيث إن الوثائق التي يشار إليها وهي في عهدة الدولة التركية، وتسمي ما كان يعبر عن سياستها التتريكية حينذاك، سياسة قائمة إلى الآن، وما يمكن العثور عليه في أرشيفات دول أخرى، تواطأت مع تركيا وغيرها في تقسيم الموطن الكردي، كما في حال بريطانيا وفرنسا، وحتى الآن لا يوجد إلا القليل القليل مما يفيد في بلورة فكرة أكثر وضوحاً وإضاءة لشخصية بطي تاريخياً.

ولعل التركيز عليه، والتوسع خارجاً، من خلاله، هو بنى العودة إليه.

وهناك الكم اللافت من المصادر المكتوبة بالتركية، رغم أن الأغلبية الساحقة منها تتكلم بلسان السلطة القائمة، أو إيديولوجيتها، وسوف نتوقف عندها تالياً.

أسئلة استنطاقية

سوف نتبع شخصية عليكي بطي، نقطة فنقطة، لعل هذه النقاط مجتمعة، وفي حدود الاجتهاد التاريخي، تشكل بانوراما تاريخية بفضاءها الكردي، حول هذه الشخصية، وسوف أمضي إلى نهاية المتاح، عبر أسئلة استنطاقية، وأنا أعتمد ركيزة مكاشفة من هذا النوع، وهو (أن حل مشكلة الحقيقة التاريخية يجب أن يكون مصاغاً في ضوء كل ما قام باكتشافه لنا تحليلنا النقدي...) (1).

أن أقرأ، أن أسمع، أن أربط بين الحالتين، أن أحاول السماع والقراءة مجدداً، وأن أسأل عما لم يتم قوله، وعما هو خفي، ويتطلب المزيد من الإضاءة، أو المساءلة، وأن أكتب بعيداً عن أي كتابة قطعية، تناسباً مع شددت عليه وهو نسبية ما يقدمه لنا كل من القول «شفاهة» والقول «كتابة»، والنسبية تبقى قائمة، حتى لو قدمت مكتبة كاملة، تعزيزاً للأفضل.

كما قلت، فإن الذي أودعه جبو كتابه حول هذا الجانب، وفي حدود متابعتي للموضوع، يكاد يكون المصدر الأشمل، والوحيد الذي يمكّننا من التوقف طويلاً، كما كان الحال في موضوعات أخرى.

بالنسبة لجبو، فإن الذي سطره هنا يقع في أربعين صفحة «74-114» في الترجمة

(1) مارو، هـ.أ.: من المعرفة التاريخية، ترجمة: جمال بدران، مراجعة: د. زكريا إبراهيم، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، 1971، ص 188.

العربية، ولا علم لي بما هو موجود في النص الأصلي «التركي» حيث إن المترجم إلى العربية، مقدّم بوصفه الجزء الأول من الكتاب.

جبو، لا يقدّم تاريخاً، كما هو مطلوب عن بطي، وفي وضع كوضعه، حيث شح المعلومات وأقل من ذلك حوله، أي إمكان نشر أي شيء في الوسط الجغرافي الذي يعيش فيه أهله، وأفراد قبيلته، وفي أمكنة متباعدة، ليكون هناك اهتمام به، من زاوية المكان، وليكون هذا المنشور مادة مطروحة للنقاش، وقابلة للتحليل، ليصطفى منها ما هو تاريخي فعلاً.

ولهذا نوّهت إلى أن جبو، يمزج ما هو تاريخي بما هو حكاوي «شفاهي» ويقدم المادة ناقصة. إن أهم ما تقتصر إليه كتابة جبو هي التاريخ بمعناه الأشمل، ما يفتقر إليه هو صنعة المؤرخ، جهة التحليل والربط والمقارنة، والتمييز بين رواية وأخرى، وما تكون عليه قيمة كل رواية ولمن تكون، وهنا يتدخل الفاعل النابض بالتاريخ: استطاق الذهنية المتكلمة!

يذكر جبو التالي في الفقرة الخاصة بعليكي بطي (مثلما يلاحظ من شجرة نسب أسرة آل عثمان، فإن علي هو ابن به تي واسم أمه فصله Fasle، وأن به تي وحاجو الثاني أخوين «أخوان». ويقال أن الاسم الأصلي لبه تي والد علي هو عثمان، وأن والد أمير بوتان كان ضيفاً عند حاجو الأول في الليلة التي ولد فيها به تي وأن والد أمير بوتان هو الذي سماه. ووفقاً للتقليد الأبوي في المجتمع الكردي فإن الابن يُعرف باسم الأب ولذا كان يُسمّى عليكي به تي «أي ابن به تي». وعلي هذا هو ابن أخ حاجو الثاني... ص74).

قبل كل شيء، هذه المعلومة مهمة جداً، جهة المكان والزمان، أي حين يتصرف تصرف المؤرخ النسابة، وهو يأتي على ذكر الاسم الكامل لعليكي بطي من ناحية، وخلفية هذا الاسم. سوى أنه لا يعتمد أي سؤال يستتق المعلومة هذه، إنما ينتقل منها مباشرة إلى الفقرة التالية، حيث يتحدث عن والده «بطي»، بطي الذي يشكل لقباً ينتسب إليه من جاؤوا بعده، كما هو الخيط النسبي لحاجو. السؤال مهم جداً، أو ما يلعب دور السؤال، حيث إن مفردة «يقال» في مقام «يحكى أن...» أو حتى «ما» يُزعم، أو يروى. طالما أن ليس هناك من تتم تسميته، وأين يكون، وما هي صفته طبعاً، وهذه نقاط مهمة جداً للدفع بأي معلومة إلى خانة التاريخ، أو حتى يُنظر إلى المعلومة وقد توازنت، أو نالت استحقاقها مما هو تاريخي. حيث إن السؤال يقوم في الوقت نفسه

على عنصر التحليل والربط بين نقطة وأخرى، وفي الوقت الذي ينعدم التاريخ كلياً، مثلاً ما يخص علاقة بطي بوالد أمير بوتان الذي سمّاه، حيث إنها واقعة مهمة جداً، أولاً من جهة العلاقة التاريخية بين والد أمير بوتان، وخصوصية الاسم بالذات، ولماذا تم تحويله، أي من «عثمان» إلى «بطي»، والنقطة الأخرى، تمضي بنا إلى بوتان ووالد أميرها، أي ما يرجعنا إلى الوراثة بقرنين من الزمان، وفي هذا التاريخ ثمة عرافة علاقات.

يقول جويده مضيئاً هذا الجانب (لا شك أبداً أن بدرخان هو الأشهر في العائلة العزيزية...ثم: تسلّم بدرخان مسئولية الإمارة وهو لا يزال صغير السن، ولم يبرز اسمه إلا مع بداية مرحلة الإصلاحات العثمانية التي تجلت في القيام بحملات إلغاء كل ما كان يتمتع به الكرد مما يشبه الحكم الذاتي)⁽¹⁾.

طبعاً، هنا يعتمد جويده الباحث الشهير والتقدير في التاريخ الكردي، على شيركوه «أقرب إلى أن يكون ثريا بدرخان» والذي سلسل تاريخ الثورات الكردية، بدءاً بثورة «عبدالرحمن باشا الباباني بمدينة السليمانية سنة 1806» ليصل إلى أمير بوتان (وفي سنة 1821، تولى الأمير بدرخان وهوبيلغ من العمر ثمانية عشر ربيعاً إمارة الجزيرة وإقليم بوتان. فلم يكتف بأن وضع نصب عينيّه من يوم تولّيه الإمارة تخليص إمارته من الدسائس التركية وأطماع الباب العالي الخفية والجلية، بل فكر في إنقاذ كردستان بأجمعه من الإدارة التركية الظالمة وتأسيس اتحاد عام بين إمارات كردستان المختلفة)⁽²⁾.

يعني ذلك أن زيارة والد أمير بوتان إلى حاجو الأول، تعلمنا بقوة الروابط المصرية بين إمارة بوتان والعشائر وشم القبائل التي كانت تتبع الإمارة، وربما كانت الزيارة هذه تفصح عن مدى تقدير بوتان لهفيركان، بالمفهوم الاستراتيجي.

لكن ذلك يواجهنا بما هو تاريخي دقيق، أولاً بالنسبة لعمر والد أمير بوتان، إذا كان هذا الذي يشار إليه في النص، هو الذي نزل ضيفاً عند حاجو الأول، والد أمير بوتان، كما قلنا، كم كان عمره حينها؟ ذلك مهم جداً، لا بد أنه في الأربعين أو الخمسين على أكثر تقدير، يعني ذلك أن عليكي ولد لبطي بعد عمر متقدم نسبياً. بما أنه تردّد، كما سنرى، أنه ودّع الدنيا وعمره «37» عاماً، أي إنه من مواليد 1882.

(1) جويده، وديع: في مصدره المذكور، ص 169.

(2) شيركوه، د. به ج: القضية الكردية «ماضي الكرد وحاضرهم»، منشورات آراس، أربيل، ط2، 2011، ص 62.

إن مسألة التاريخ تؤرّقنا، كما رأينا في الكتاب السالف، وهذا عائد إلى ظروف المجتمع الكردي، وعدم تركيز الكرد كثيراً على التاريخ الدقيق لولادة أبنائهم وبناتهم، وفي الوقت الذي كان الإحصاء تابعاً للدولة، وتعتمد على تقديرات خاصة بها، أو من جهة الأهالي أحياناً.

هذا يعني وجوب إضاءة هذه النقطة الخاصة بتاريخ الولادة، وهي تعرّف بالظروف التي كانت تعيشها المنطقة، فالكرد لم يتوقفوا عن الصراع مع كل من الفرس والعثمانيين، كما أنهم لم يسلموا من اعتداءات الدولتين ومظالمهما :

ففي مطلع النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كان هناك غيوم ملبدة في سماء كردستان.. وكان هناك انتفاضات (ومما ساهم في النهوض المتواصل للحركة الكردية التحررية في هذه المرحلة هو الوضع الدولي والداخلي لتركيا وإيران على السواء، وحلت مرحلة بلغت فيها المسألة الشرقية أقصى درجات تفاقمها، عندما وصل الطامعون في «التركة العثمانية» إلى اصطدام عسكري مباشر. ومما زاد في تعميق النزاع هو وقوف انكلترا «بالدرجة الأولى» وفرنسا المتنافستين الرئيسيتين لروسيا في الشرق الأوسط إلى جانب تركيا مباشرة «مثلما كان في حرب القرم 1853-1856» من وراء الكواليس..⁽¹⁾.

ذلك ينذر بالخطر، حيث إن الحروب الكبرى، أو المواجهات الدامية بين قوتين عظميين، تعني خراباً وسقوط ضحايا جانبية، ولهذا، كان الكرد في الوضع الذي نسمّيه بين حجري رحى، كون كردستان إما أن تتأخم حرباً أو مواجهة مدمرة، أو تكون هي نفسها ساحة خراب ودمار، وترويع للسكان الآمنين، أو مواجهات بين الكرد أنفسهم والقوى الغازية لأرضهم أو التي تحتل أرضهم، لكنه في المحصلة كانوا يدفعون الكثير في أرواحهم وأموالهم وممتلكاتهم، وتعرضهم للتهجير.

عدا عن أنهم، على وجه العموم، شكلوا ولا زالوا يشكلون وقوداً للعنف لصالح هذه الجهة أو تلك، تلبية لوعود معينة.

وكما في الحرب الروسية- التركية، فقد (تم إشراك الكرد في العمليات العسكرية مباشرة، وكان الطرفان المتصارعان يهتمان بمواقفهم أي مواقف الكرد. وسرعان ما اقتتعت السلطات العثمانية بأنها لا تستطيع الاعتماد على الكرد في أي شيء، فما

(1) لازاريف، م. س، وآخرون: تاريخ كردستان، ترجمة: عبيد حاجي، دار سبيريز، أربيل، ط1، 2006، ص132.

زالت ذكريات الحملات التأديبية التي قامت بها القوات التركية في المناطق الكردية من الإمبراطورية العثمانية ماثلة في أذهان الناس، بل وأن الإدارة التركية العسكرية والمدنية قامت باضطهاد السكان الكرد المسلمين. ولهذا السبب تملصت الأكثرية الساحقة من الكرد «في تركيا» عن التجنيد ولاذ عدد كبير منهم بالفرار إلى الجبال⁽¹⁾.

طبعاً، إذا كان هناك من كلمة يمكن قولها هنا، فهي أن الكرد في مختلف الحالات كانوا يدفعون الثمن غالباً، إذ إن فرار الكرد خارج موطنهم الأصلي، هو بحد ذاته هزيمة موجعة، وخسارة كبيرة، ولا يعرف كم تستمر المدة الزمنية لكل محاولة فرار، وفي الوقت الذي تُترك فيه الديار والممتلكات تحت رحمة الأعداء، ويعيش أطفالهم في رعب، وبمقدار ما تتعرض المنطقة للخراب بالمقابل، فهي تتعرض أيضاً للأهمال، ليبقى التخلف قائماً في ظل أوضاع كهذه.

ومن جهة الحرب المدمرة الأخرى لكردستان، نجد أنه (في ربيع عام 1877 اندلعت الحرب الروسية- التركية التي جرت على جبهتين: هما جبهة البلقان «الأساسية» وجبهة القفقاس. وكانت العمليات العسكرية في القفقاس تجري على الأراضي التي يسكنها الكرد والأرمن بصورة أساسية. ص 143).

وهذا وجه آخر من وجوه التاريخ الدموي، وانعكاساته على مجمل الأوضاع الجغرافية والاجتماعية والسياسية، ففي سياق ما تقدم (تطورت العمليات العسكرية على المسرح التركي الآسيوي «جبهة القفقاس» لصالح الجيش الروسي منذ البداية، ففي نهاية نيسان وأيار عام 1877 احتل الجيش الروسي الزاحف أردهان، وبيازيد، وديادين، وحاصر قارص ثم وجه هجومه باتجاه أرضروم بعد أن استولى على مساحات شاسعة من أرمينيا وكردستان⁽²⁾).

ومن الطبيعي أن نتوقع أنه في زحمة كل حرب، توقع حالة تملل، ومن ثم محاولة للملئة الصفوف ورصها، ضدّاً على هذا العدو أوداك، كما لو أن التملل يعني النهوض الصحي بكامل الصحي، والانخراط في الحرب، اعتراضاً على ما يجري رغم أن ذلك قد يكون مكلفاً جداً، أو لحظة شعور الكرد، أن في مقدورهم الانتفاضة ضد هذا العدو أو غيره، وقد بين أن حربه قد أضعفته، مما يسهم في إضعاف هذا العدو، ويخلق فراغاً، يحفز الكرد للنهوض، بمقدار ما يبعث العزيمة في النفوس، بغية الإجهاز على

(1) المصدر نفسه، ص 133.

(2) المصدر نفسه، ص 144.

العدو، وفي الحالة هذه، لن يشار إلى الكرد إلا من باب التوقف عند اسم معين، يكون الزعيم أو رجل القيادة، كما هو الحال مع الشيخ عبيدالله النهري، الذي تميّز بمكانته وسلطته على مساحات شاسعة أراض وبشراً.

إنه الزعيم، القائد الذي يبرز بقواه الحية، وهي زعاماتية، ليتمكن من مواجهة الفراغ هذا، ودحر العدو أكثر، وكما هو معتاد في أي عملية عسكرية معادية، أو حالة صمت وهدوء تلي عملية هدنة أو استراحة (بيد أن الهدوء لم يدم طويلاً، ففي نهاية 1879، أخذت تشتعل بؤرة جديدة للحركة الكردية التحررية في هكاري وترأسها الشيخ عبيدالله النهري،، الذي كان يبلغ من العمر خمسين عاماً، ويقع مقره في بلدة شمدنيان، ولم يكن يتمتع بنفوذ ديني لكونه رئيس الطريقة النقشبندية وحسب، بل كان واحداً من أثرياء الملاكين في كردستان، فقد كان يمتلك 200 قرية في تركيا وإيران على السواء، وكان ذلك الوقت قائداً دون منازع للكرد في تركيا وإيران أيضاً).⁽¹⁾

المزج بين السياسة الدينية والدنيوية. يقربنا من اللعبة السياسية التي اعتمدها الشيخ نهري، ومداها الكردي المجدي !

ويظهر لمن يمعن النظر في الحراك الاجتماعي- السياسي لتهري، يلاحظ أنه بطريقته هذه، تمكّن من استقطاب الكثيرين، أولاً لأنه يمتلك، كما هو مدوّن، مساحة واسعة من الأراضي، والثراء يمنح المرء مكانة، هيبة ونفوزاً، وتحديداً في المجتمعات الزراعية والأبوية الطابع، ثانياً، وهذا ملحق بالأول، لأن الذين تتم مخاطبتهم في ضوء هذا الثراء، يدركون أن هناك رغبة حميمة للقيام بمثل هذا العمل النهضوي، أو الثوري، بما أن الذي يدعو إليه لا يحتاج إلى منصب يضاف إلى منصبه الوجيه السابق، وهذا يعني الحصول إجمالاً على شهادة حسن سلوك، إلى جانب أن القائم بذلك معرض نفسه للمخاطر، عدا عن الجانب الشخصي نفسه، إنما ممتلكاته كذلك التي تتعرض للمصادرة لحظة القضاء عليه.

إنما لا بد من التركيز على الخصال الشخصية ودورها في عملية استقطاب الآخرين، وفي مجتمع تعددي من جهة، وفي نطاق المؤثرات الجانبية التي تمثلها القوى المؤثرة في سياسات المنطقة «الانكليز والفرنسيون، من جهة أخرى، ودون نسيان الدولتين اللتين تتعرضان للمواجهة المباشرة: تركيا- إيران»، ولهذا نجد (أن ما قام به الشيخ عبيدالله من نشاط لم يعزز سلطته في جنوب- غرب كردستان فحسب، بل

(1) المصدر نفسه، ص 147.

حظي أيضاً بشعبية كبيرة بين جميع شعوب المنطقة ومختلف فئات السكان أيضاً، فقد كتب أرمني يعرفه قائلاً (كان إنسان رائعاً محباً للعمل ونشيطاً ومهذباً وموهوباً. وكان يشمل برعايته الأبوية اليتامى والأرامل، ويأتيه الكرد إلى شمدينان من كل حذب وصوب ليتحدثوا إليه عن مصائبهم وما يتعرضون له من مظالم، ويتطلبوا منه النصح والموعظة والمشورة في مسائل الدين والضمير، وقبول وصاياه، وكانوا يكونون له الاحترام ويكرمونه كزعيم عادل وإنساني...) ⁽¹⁾.

ولعل انتصاره على عدوّه التركي- الفارسي، كان حصيلة هذه المناقب (وما خطط له عبيدالله من عملية لإقامة وطن كردي مستقل في إيران قد بدأت في آب عام 1880، وكان حمزة آغا زعيم عشيرة منكور، الذي كان يدخل في كونفدرالية بلباس، أول من قام بالحركة وراح يستولي على منطقة صاوجبلاق، وسرعان ما انضمت إليه وحدة عبدالقادر نجل الشيخ عبيدالله وتقدم الكرد سريعاً في ميركوير، ولاهيجان...) ⁽²⁾.

ولنا أن نتصور أيضاً ما يمكن أن يحصل في ظل امتداد ثورة وانتفاضة كهذه، فيتداعى صوتها وتأثيرها هنا وهناك، حيث انطلق كثيرون متجاوبين مع نداء ثورته في تركيا، وكما هو معروف، انتهت ثورته بالقبض عليه، سنة 1882، حيث (وقع أسيراً في أيدي الأتراك، وأخذوه إلى مدينة الموصل، لكنه واصل فيها الدعاية بين العشائر الكردية...) ⁽³⁾.

وقبل التوقف عند هذا الزعيم الكردي الكبير، ثمة نقطة ثبتها جويده، وفيها من التحليل ما يضيء ساحة القول كثيراً، إنما أيضاً ساحة عموم الكتاب، وضمناً ما يخص عليكي بطي تالياً، وهي في هذه الواقعة (نقل الشيخ عبيدالله، الذي نجح في شق طريقه إلى ناوشيا، أخيراً إلى القسطنطينية في تموز / تموز عام 1881، نتيجة الضغط الشديد الذي آذارته الدول العظمى على الباب العالي. ومن المثير للاهتمام ملاحظة أن الشيخ قوبل بالترحاب بوصفه بطلاً في طريقه إلى العاصمة. وبعد إقامة استمرت بضعة أشهر في القسطنطينية هرب وشق طريقه عائداً إلى منزله الجبلي في نهري. واستجابة لرغبة الرأي الأوربي أرسلت قوات تركية ضد الشيخ وطلبت

(1) المصدر نفسه، ص 148.

(2) المصدر نفسه، المعطيات نفسها.

(3) المصدر نفسه، ص 151.

استسلامه. وعندما أدرك الشيخ عبيد الله الحالة الميئوس منها سلّم نفسه وفي هذه المرة نفي إلى الحجاز حيث توفي في مكة عام 1883⁽¹⁾.

هنا نجد أنفسنا في مواجهة مجموعة من الأسئلة ذات العمومية ومن ثم الخصوصية، وهي في المحصلة تتكامل فيما بينها:

ما الذي يعرّض الكرد للفشل في عموم انتفاضاتهم وثوراتهم؟

هل كانت الانتفاضات والثورات الكردية تنتمي إلى منظومة سياسية وفكرية نفسها؟

ما هي نوعية القوى المعادية لمثل هذه الانتفاضات والثورات، وربما حتى اللحظة، إن مددنا النظر فيها؟

أليس من خصوصية معينة لمواجهة ثورية معينة، تسمح لنا بالكشف عن قواها الخاصة، ومقارنتها بسواها؟

هل من ميزة معينة لمجمل ما قام به الشيخ عبيد الله النهري في ثورته؟

سوف أنطلق من هذه النقطة بداية، وهي أن عبيد الله النهري، فيما قام به من عمل ثوري امتد في أكثر من مرحلة، واستغرق زمناً نوعياً في كتابته، كما أنه شمل مناطق واسعة نوعية في بنيتها الجغرافية كذلك «تركيا- إيران»، يمثل الحالة الوحيدة، في عموم التاريخ الكردي الحديث، من خلال طريقة التعامل معه، من قبل أعدائه، وهو تعامل إيجابي رغم رفضه لهم.

هل من سرٍّ ما في مثل هذه العلاقة، ليمكّننا، من خلال فك شيفرته، ومكاشفة بقية النقاط الأخرى؟

وفي العودة إلى البداية، ومع السؤال الأول، قيل الكثير في ذلك، كإجابة، وهو العائد إلى عدم اتفاق الكرد على كلمة سواء فيما بينهم، وهذه بدورها تترجم من خلال طبيعة المجتمع الإقطاعي والذي يُبقي كل آغا، أو صاحب إقطاعية، وهو المسيطر على رقعة جغرافية معينة، مسمّاة بحدودها، محكوماً بهذه الحدود، حيث إن الجغرافية المقترعة، تعني بالمقابل إقامة حاجز بين المقيم فيها والآخر، وما يترتب عليها من صعوبة الانفتاح أو التوحد، إذ إن السلطة المحلية الضيقة، وما فيها من غواية انكفاء على الذات، تحيل الآخر: الآغا المجاور، في وضع طارئ كهذا، إلى الدخول في

(1) جويده، وديع: في مصدره المذكور، ص 235.

حسابات جانبية، على صعيد ما يمكن أن يظهر فيما بعد، رغم عدم التعميم في المقولة هذه، ومن ناحية الزعامة، ومن يمكنه أن يخطف الأضواء، وما يمكنه أن ينال قصب السبق في عملية المجابهة، وما هو أبعد من ذلك، لحظة الخسارة أو الهزيمة، وخسارة الإقطاع، أو المكانة، أو التعرض للقتل، وهي فكرة لصيقة بتلك الأناية ذات المآثرة التاريخية والتي تضيء في الكثير من مكوناتها طبيعة العلاقات القائمة بين الذين يمثلون الكرد، إلى يومنا هذا، من خلال تشرذمهم، أو تفككهم، وما يمكن التقاطه في حركية هذه العلاقات من عدم بلوره ووعي ميتا- إقطاعي، ووعي مدني، مؤسساتي، يضمن لكل منهم حقوقه ومكانته. وهذا النموذج الذي يكون نوعياً هو الذي يشكل- ربما من وجهة نظري، وفي ضوء ما تردد القول حوله- كلمة السر الضائعة، ليس لأنها صعبة المنال، كما يمكن التسمية، أو أعيت الكرد المعنيين بها في العثور عليها، وإنما لعدم وجود إرادة فعلية تحررهم من البؤرة الجغرافية المحددة تلك، وهذا يعني أن أشد هؤلاء المعنيين بالعمل الثوري، والمتفاني، يجد نفسه في لحظة معينة في وضعية المحبط تجاه الجاري.

وهذا العامل المشترك، بغض النظر عن تفاوت مراتبه، وقيم المراتب هذه، وهي مشكلة بنيوية أخرى، تسجل لحساب المتحكمين بالكرد وحتى الذين يعتبرون أنفسهم زعماء لهم، وما لهم من صولات وجولات، مشكلة تتمثل بدورها، في أن وراء هذا التفاوت اللاوذي يجد من يتدخل من الخارج، وحتى من الداخل نفسه، معبراً سهلاً لإشهار قوته بغية إبقاء التفاوت هذا واستدامته، لأن الذي يقيم بين فراغاته، أو ثغراته، ليس تهوية، وإنما تصفية، أي لعبة الحساسيات المتبادلة، والتخوف المتبادل، والذي يمنع من التفاعل البنيوي اجتماعياً.

في الجانب الآخر، تبقى الانتفاضات والثورات الكردية، مهما كانت محدوديتها ذات غايات مشتركة، دون تجاهل الفارق النوعي بين واحدة وأخرى، جهة المؤثرات والتفاعلات المكانية والزمانية، وانعكاسها على محيطها وامتدادها المستقبلي.

إزاء ذلك، وبالنسبة للقوى المعادية لها، هي بدورها تختلف من مكان لآخر، إنما يسهل القول هنا، أن مساحة جغرافية واسعة، يسميها الكرد وطناً قومياً لهم، وفيها تعددية اثنية، إلى جانب الموقع الاستراتيجي له، تبقى من حيث التقويم أهلاً لأن تعيش ربما لزمن قادم، لا يعرف مداها، محكومة أولاً من قبل الدول التي تقاسمتها، إلى جانب القوى الفاعلة دولياً، طالما أن هذه القوى هي التي مهدت لعملية التقسيم، وهي العملية التي تحول كل أمان الكرد، وما يردونه عن تلك المزايا التي يتمتع بها وطنهم

الجغرافيا القومي هذا، إلى مشاكل وأزمات وتوترات ومآس من الصعب التخلص منها، وهم في مثل هذا الوضع، حيث إن الجغرافية نفسها، يمكن لها في مرحلة تاريخية معينة، ونتيجة توافقات قوى قائمة على الأرض، ومن ثم اعتبارات مستقبلية، أن تصبح هي ذاتها واقعاً لعنة لأهلها، أو ضحية بقية الجهات الجغرافية الأخرى، وهو ما شهدناه على مر التاريخ، وإلى هذه اللحظة، وفي الوقت الذي نشهد فيه كذلك، تراكم الرهانات وتناميها على هذه الرقعة، وضمناً، يكون الكرد فيما يرددونه أيضاً عن عددهم النوعي مقارنة بالكثير من الاثنيات الأخرى، ملحقين بالجغرافية، لا بل وعناصر دعم وإسناد لتلك السياسات المبتدعة، والمتجددة، والمشاركة بين أطراف عدة، أو تكون طرفية أحياناً، بالتلاعب بهم واقعاً.

دَيْن الزمان - المكان

وإذا كان لنا أن نتحدث عن خصوصية انتفاضة أو ثورة كردية، فربما كان ذلك في إطار زمني- مكاني معين، طالما أنها من حيث التقدير، تمثل مكانة الموجة في المحيط، مهما كانت حركتها محدودة، لكنها منتمية إلى المحيط، إذ لا بد أن حركة عميقة مسببة لها، وأن هذه الحركة ترسم خطوط، تموجات، ضمن فسحة مرئية معينة، إنما مشدودة إلى القاع، ولها حسابها كذلك بالنسبة لعموم المحيط.

وإزاء ثورة نهري ذات الاعتبار الخاص، فإن الممكن قوله، هو أنها كردية، وأن الشيخ نهري، وهو أكثر حيوية ونشاطاً، خلاف البقية من زعماء أو قادة الانتفاضات والثورات الكردية التي عرفناها في العصر الحديث عموماً، ليس له امتياز معين، لكي نسلط عليه الضوء، كما لو أنه غير محسوب على حركة التحرر الكردية، وقد كان لها تأثيرها الكبير فيها، وإنما لها اعتبار جغرافي- سياسي واجتماعي، ربما كان نهري مختلفاً في موقعه وشخصه عن الآخرين، وظهر في الوقت الذي شهدت المنطقة اضطرابات، كما في الحرب الروسية- التركية، وضعف الوضع في إيران، وحتى بالنسبة إلى الدول التي مارست ضغوطات على الباب العالي بلزوم وضع حد له، كما لو أن مهمته انتهت، ولم يعد في الإمكان استمراره، وهو يصول ويجول، فلم يُقتل، تعزيزاً لاعتبار استراتيجي بالنسبة للتالين عليه، كرسالة موجهة إليهم بوجوب التزام الحذر في تحركات كهذه، أو عدم القيام بأي «تمرد» أو انتفاضة أخرى، ستكون سلبية كثيراً هذه المرة.

وهذات ما ينبغي الوقوف عنده كثيراً، وتناول أبعاده من زوايا مختلفة، نظراً لهذه الخصوصية المعتبرة.

وفي العودة إلى ما قام به حاجو الثاني، وما آل إليه أمره، كان يشكّل خطراً على العثمانيين، وهو ضمن مساحة جغرافية، لم يكلّفهم أمر التخلص منه كثيراً، وقد انتهى تلك النهاية الصادمة. إن المكان بحمولته الاجتماعية له قيمته الخاصة، والمأخوذة بعين الاعتبار هنا، أي عندما نمد بأنظارنا إلى ما يتعدى نطاق قوة الدولة، إلى الذين فعلوا هذه القوة كردياً لصالح الدولة.

وفي متابعة موضوعنا المتعلق بعليكي بطي، وقد توقفنا عند هذه النقطة، كان الذي أردنا منه قبل كل شيء، هو أولاً، المسألة والاستفسار عما دفع بوالد أمير بوتان لزيارة حاجو الأول، وفي وضع مضطرب، في تلك المسافة الزمنية الممتدة على الأقل بين الأربعينيات والستينيات من القرن التاسع عشر، وما إذا كان للزيارة من خصوصية معينة، وكذلك هو أن الذي أبصر النور في الدنيا، تم ذلك في مثل هذه الظروف والانتكاسات المسجلة، أي حيث توافقت ولادته مع هزيمة الشيخ نهري سنة 1882، ومن ثم أسره، وهذا أمر له دلالاته، لحظة السؤال عما كان عليع واقع الكرد عموماً، وما كان عليه وضع هفيركان بالذات.

إنها مؤثرات تؤخذ في الحسبان، والذي ينشد الذاكرة الرياضية بالتالي، هو ما إذا كانت الولادة حقاً سنة 1882، أي إنها «أي الولادة» جاءت بعد ولادة حاجو الثالث بثلاث سنوات، كما تابعنا ذلك في الكتاب عنه، أي كونه عاش ثلاثاً وستين سنة.

هنا، وبالنسبة لعليكي، حين يقدر عمره هكذا، يعني ذلك، في الحساب المتداول أن حاجو الثاني حين قتل سنة 1896، كان عمر عليكي بطي 14 سنة، بالمفهوم الحسابي هنا، وليس من تحديد دقيق للسنة التي انتقم فيها لعمه، سوى أن المتوقع في ضوء المتردد هو أن عمره بالطريقة هذه لم يكن يتجاوز الـ 16 سنة، إذا افترضنا أنه انتقم من قاتل عمه بعد سنتين.

هذه الحسابات التي تستوقفني، وأرى أن لا علاقة لها البتة بأي فهلوة، أو بعراضة ثقافية تاريخية، حيث إن عمر الزعيم زعيم بمعنى ما، كما يقال، وتحسب مراحلها وسنواته بدقة، مثلاً، حين نتوقف عند الأشهر الأخيرة والحاسمة في حياته «بين أيار وآب 1919»، وفي عمر شبابي تقريباً «35 أو 37 سنة، هو ذا عمره»، إنما هو استنتاج الفراغ القائم بين حدث وآخر، كما كان السؤال الأكبر حول حدث ولادة كهذا، بالنسبة إلى حاجو الثالث في بطاقة هويته، وخلافها في المتردد، أي كونه عاش 63 سنة. وهذا يبلبل الوضع على مستوى التاريخ نفسه.

لا بد من قول آخر في هذا الجانب، وهو يخص شخصية عليكي، ومهاراته الذاتية وفطنته، وجسارته، حيث إن المدوّن عنه يوحي بأن قدرته على التحرك ورصد الأوضاع، وسرعة البداهة عنده، أهّلته لأن يكون الزعيم المنتظر، وحيث إنه حين أفصح عن نيّته بالانتقام كان مثار سخرية، وهو مثال حي، وشاهد تاريخي ربما، للإعلام عن أنه كان في ريعان صباه، ولم يشدّ عوده كما هو المتوقع مما يبلغ سن الرشد «18» سنة.

ولحظة النظر إلى سيماء وجهه، ونظرتة، وطريقة إطلاقه لشاربيه علامة ثقة بالنفس، وحتى إشعار لمن حوله، بمن يكون، بما أن لصورة الشارب، وقتذاك تحديداً، دلالة اعتبارية قائمة!

تلك أسئلة، وتصورات، وحتى افتراضات أردتُ طرحها، دون القطع بأي إجابة منها، كي يستقيم التاريخ هنا أكثر، ويفيد في قراءة أحداثه بسوية أكبر. وهي أسئلة ربما لن تكرر نفسها حرفياً، وإنما في نطاق المزيد من معرفة ما يُعتَقَد أنه يتطلب وضوحاً، وإن تكررت، فلأن في السياق ما هو مختلف، فيكون التكرار بمعنى مناسب له.

الاسم الذي أصبح لقباً لعائلة كاملة

كان بطي والد علي يمتلك قطعاناً كبيرة من الغنم والماعز، وقد انشغل علي منذ سن مبكرة بهذه القطعان، وكان لديه العشرات من رعاة الغنم والبقر. وكان علي يخرج، وبيده بندقية الماووز، على رأس قطعانه شتاءً مع الرعاة إلى السهول الواقعة في جنوب طور عابدين، أما في الصيف فيخرج معها إلى مراعي الأماكن المرتفعة: بعكس أبيه، كان علي شخصاً لا يمكن التحكم فيه من حيث المزاج، كما كان معروفاً في المنطقة بالشهامة والمروءة، وكان زعماء العشيرة المنافسين يتحفظون منه. فقد كان محبوباً جداً بين الهفيركانيين العاديين، إذ كان سخياً جداً في مساعدة الفقراء والمحتاجين في العشيرة، وقد سمعت من الهفيركانيين حكايات كثيرة عن كرمه، وهذه إحدى تلك الحكايات:

(كلما يأتي ضيف إلى بطي كان علي يقوم بنحر عشرات الخراف والماعز، وبهذه الطريقة يقدم الضيافة للأهالي أيضاً... ص74).

لنتوقف قليلاً عند صفة الكرم التي ظهرت جلية في النص. ما الذي يدفع بأحدهم إلى الحديث عن الكرم، عن كرم معين، أو شخص يتصف بالكرم؟ هل للكرم رصيد وجداني يُطمأن إليه، بوصفه ملاذاً إنسانياً في وقت الشدة ؟

يمكن للكرم الذي يقابل العطاء الفائض. أن تعطي، ربما ما ليس لدى الآخر، وأن تظهر ما لا يتوقعه، إشعاراً له أن هناك ما يجعل الكريم، أي صاحب الكرم، شخصياً يتعدى حدود حاجاته المعينة، أنه يعطي بما يثير في الآخر مشاعر، تؤهله لأن يكون أكثر استقراراً، أكثر حباً للحياة، أكثر انفتاحاً على سواه، فهو درس عملي، وليس مجرد أي كلام هنا .

في مكان ما، جري الحديث بنوع من التكتيف عن الكرم. ما هو هذا الفائض في الكلام؟

(من المؤكد أن الكرم المادي La générosité matérielle ليس عديم الفائدة، لكننا ما زلنا بحاجة إلى معرفة من الذي يستفيد منه. من الواضح أنه يخدم أولئك الذين يستفيدون منه. من وجهة النظر هذه، لا يوجد تضامن كاف على الإطلاق. ولكن هل تخدم أولئك الذين يمارسونها؟ الوقت الذي انقضى فيه الانغماس، التخلي عن الفائض ليس له أي أثر سوى تغيير ارتفاع الحساب المصرفي أو مدى خزانة الملابس. الهدية لها قيمة لمن يفعلها فقط إذا كانت تتعلق بما هو عزيز علينا أو ضروري. إذا تم ذلك بدون حساب، بدون فكرة، على سبيل المثال، للخلاص الشخصي، دون أمل في أي عودة، فيمكنه أن يفتح القلب ويعرف بما يسمى كرم القلب. الهدية الصريحة، بدون دافع خفي، لما هو ضروري لنا، مع ذلك، يمكن أن تجعلنا نولد مرتين، أي أن البشر قدموا إلى الحب الروحي.

يرتبط الكرم، واقعاً، بمعناه الأساسي، بالنبل والشهامة - هذا هو تعريفه. بالطبع، ليس ما يخص النبلاء المتعيين الذين لجأوا إلى ما يسمى بتفوق الدم. إنها فقط مسألة عظمة الروح وقوة الروح. النبلاء الحقيقيون هم فضيلة شجاعة، لا تتوقف عند أي وسط دون أي معنى. لا شيء فيه صغير، محصور، منسحب. الكرم لا يتوقف عند حدود الشخصية. إنها حقيقة روح شجاعة لا تخفي قيمتها. لا تتباهى، كما لو كان يمكن تحريكها من خلال هذه الأنانية الصغيرة الخاصة جداً بالصالحين، ولكن لأنها تعبر عن وفرة من الحياة. إنها، كما قال غوتاما، «شجاعة في الفضيلة». في جوهره الكرم يكون تعبيراً حراً عن الحياة.

بالنسبة لأولئك الذين يدركون طبيعته الحقيقية، فإن الكرم مناسب لإثبات البنية الداخلية للإنسان، وصولاً إلى جوهره.

إنه يعني، أولاً وقبل كل شيء، شخصية منفتحة. لا خجل أو خوف يحد منها. لا

تباه بالذات! ولا يسعى إلى حماية لقب أو وظيفة أو مجموعة. لا يتوقف عند الأحكام النقدية السلبية. إذا أكد نفسه على هذا النحو، فذلك بسبب جذوره في صفات الروح التي يجعلها نبيلة. الكرم هو أحد مكونات الحب الروحي⁽¹⁾.

نعم، الكرم فعلٌ إحيائي، وفعل تنموي لنفس كذلك. أن تُكرم، هو أن تفيض بذاته، إنه مفهوم شجري، حين يستتبت، ويستحيل أشجاراً من خلال «جذاميرها: تلك السوق التي تثبت جانبياً، وتنمو، لتصبح أشجاراً».

والكرم يفصح عن تخارجيته، وجهة السلوك المرئي فيه، باعتباره ترحيباً بالغريب «الأليف».

فأن يكون أحدهم كريماً هو أن يكون صريحاً بما لديه كثيراً، وفصيحاً بعبائنه أو جوده، هو أن يكون مكشوفاً، بحيث يباغت الآخر، عدا عن ذلك.. فإن الكرم هو من بين صفات النفس الأكثر تعبيراً عن حب الآخر، عن الحرص عليه، وعن شعوره بمشترك إنساني.

نكون كرماء، حين نظهر ما لا يستطيع الآخرون التعبير عنه أو إبرازه خارجاً. إنه جزء حيوي من المال الشخصي، أو الجماعي، وقد بات منذوراً للآخرين، ممن يشكلون ضيوفاً، وبالتالي، فإن العلامة الفارقة الأولى للكرم، تتمثل في الزهو الروحي، وفي روح الإيثار، إلى جانب الاقتدار في القيمة النفسية، ليس لأن الذي يملك أكثر هو الذي يمكنه أن يقدّر على ما هو كرم، بالعكس، في الحالة هذه، يكون الكرم محدود الأثر، إنما من لا يفكر بما لديه، وهو يفتخر به إنطلاقاً منه. فالذي يظهر جانباً من الكرم، لا يقدم إشعاراً بأنه سيفعل كذا، إن الكرم نفسه يتكلم عنه، يعرف به، وهو صامت، وليس لديه أي كلام له صلة بما يقوم على تقديمه، إنما هو الآخر الذي يرى، ويصف ما يرى، وهننا يكون البذل والعطاء الفعلان.

في الحالة هذه، يقوم الكرم على نفي الموت، على إعلان الحرب عليه، ومن ثم الإقرار بأن الذي يجري، هو تعظيم حياة مشتركة، وأن اللحم الذي يؤكل، إنما يحمل بصمة حياة نافذة، حياة تتجدد، كما أنها تزدهر كقيمة في مواجهة الموت.

الكرماء مقدامون في الحياة، حراس عليها، بعكس البخل الذي يستحضر الموت، كابوسه النهاري. إن آخر ما يمكن لأي منهم التفكير فيه، أو التخوف منه، هو الجوع،

(1) La générosité, www.fernandsaniel.fr

حيث إن الكرم قاهر للجوع، بمقدار ما يعطي فكرة عن العلاقة التي تقوم بين الكريم وضيفه / ضيوفه.

في حالات معينة يمكن للبذخ أن يكون دالاً على الكرم مقلوباً، أي بدواعي المفاخرة، والإعلان عن أن الذي يتصرف هكذا إنما من باب نقل رسالة معينة إلى من يشهد على ذلك، أي ما يجعل الكرم مجرد سوق / بورصة متاجرة بالأخلاق، وليس تعبيراً عن كيفية إنماء ما هو روحي. الكريم نقيض هذا التصرف، لأنه حين يولم للآخر، وهو لافِت للنظر، لا يطلب من أي كان، أن يسجّل مثل هذه الواقعة الكرمية، إنما ليزيده طمأنة وأريحية روح بالمقابل.

في السياق هذا، وفي مجتمع «ريفي» مهدد بين الحين والآخر بشبح الجوع، يصبح المقدّم كرماً، تأكيداً على أن ليس هناك من يمكنه الخوف من غائلة جوع مباغتة، من يمكنه التخوف مما هو قائم، فهناك من يقوم في الخارج بدعمه، أو بطمأنته أن لا داعي البتة للخوف من الجوع. الجوع هنا فعل موت تدريجي، وأقصاء تدريجي للحياة، والكرم وضع مغاير، إنه التعبئة اللافتة لحياة يخيّل أنها تشكو خلاً، إمكان انتشار جوع. الكرم شجاعة نفسية، ومقدرة على تعدد الخيارات في التعامل، وامتناء النفس بالآخرين، وليس انغلاقاً على الذات.

في حال بطي الذي أصبح اسمه لقباً، لعل الذي أفضت به يده، وعن طريق ابنه: عليك، كما سنلاحظ، وهو أنه شاهد حي على طبيعة معط

هنا شاهد يتعلم من الطبيعة، كما لو أنه في تربيته للأغنام، إنما لكي يقوم بواجبات الضيافة تجاه من يحتاج إليها، أي ما يجعل الطبيعة تجود بثرواتها الفائضة، ونظيرها في تربية الأغنام والرعي الذي يجمع بين معاينة «مواهب الطبيعة» وحركة الأغنام، وقد أصبح الكريم في مقام الطبيعة، وهو يجود بما لديه، بأكثر من معنى، وهنا لا يعود الضيف نفسه ضعيفاً، لأن الضيف حالة زيادة، أو من لا يتوقع ظهوره، حيث يتقابل الضيف والكرم. لا كرم يترجم إلى واقع عملي، إلا بظهور زائر هو ضيف، لكن الأمر أكثر رحابة معنى من ذلك. لا يحسب القادم والداخل إلى بيت هذا الكريم ضعيفاً، إنما صاحب حق، يقدر القائم بواجبه، والكرم يتراجع عن اسمه ليصبح واجباً أخلاقياً تجاهه، وهناك تقوم براعة العلاقة بين الكريم والآخر: الضيف، علاقة تصبح وجدانية، ولها أثرها في الجوار، ولا بد أن بطي الذي يرتبط في اسمه بالغنم، والغنم رأسمال حي، من خلال طبيعة، مراعى مفتوحة، كان مؤهلاً لأن يكون في مقام

هذا اللقب الذي استمر إلى هذه اللحظة، لا بد أنه لم يكن مجرد كرم، وإنما ما يرفق الكرم بالشجاعة بالإيثار والإقدام والمروءة بالمقابل.

وأن يكون الولد من ذاك الوالد، هذه المقولة التقليدية، فإن في ذلك مساراً تصاعدياً، جهة التفاعل ما بينهما .

إن الربط بين علي وهو في عمر صغير، حيث الكرم، ومفهوم الكرم، وموقع الكرم، يتطلب قدراً كافياً للتعرف على بنيته، أو حقيقة أمره، لأنه يتجاوز ذات الشخص، كما أنه قيمة تاريخية مضافة، ففيه ما يلفت النظر، وتعريف بالمسؤولية، في عمر مبكر بالمقابل، وهي إشارة أخرى إلى وجود كفاءة ذاتية لدى عليكي بطي، أو علي، وفي الجانب الأبعد من ذلك، يمكن القول أنه في المجتمعات الرعوية، لا ينبغي التقليل من مكانة الرعي أو خاصية الراعي الكبرى، كما هو معهود في الأدبيات القديمة، ومدى نفوذ هذه الكلمة «الراعي» في مختلف الأدبيات التي تتحدث عن العلاقة القائمة بين المعتبر راعياً، حتى على مستوى الأنبياء كذلك، وما يخرج القطيع من مفهوم القطيع بالمعنى الحرفي للكلمة، أي ما يجمع بين راعي القطيع، وراعي الكرم واقعاً، وما في ذلك من تدفق المعنى لحياة مؤمم عليها لمن يتعاملون معه، فيستشعرون أماناً. إنه الراعي الذي يسوس قطيعه، والراعي المسئول عنه، وهو يتأكد أن الجهة التي يقود إليها القطيع، إنما يضمن كلاً وماءً وفيرين، يلبيان حاجة الجوع لديه، وأكثر من ذلك، حيث لا يعود مجرد الإشباع هو المطلوب، بل كيفية الحفاظ على سلامته، ومنع أي عدو عادي، أو حيوان مفترس من الاقتراب منه، وبذلك، تكون المهام متعددة، وغاية في الخطورة أيضاً، وليس كما يُردد «الراعي مسئول عن رعيته» فربما يكون عدواً لقطيعه. وهنا تكثر الدلالات، وبذلك يمكن توسيع دائرة التصورات، أو بالعكس التضييق على المعنى، سوى أن الوجه الأكمل للقول هو أن الذي يحرص على قطع بالصيغة المقدمة، ينال منه ما يبقيه، وما يرفع من مقامه، كما في عملية الضيافة، عبر الذبح. إذ إن المذبوح لا بد أن يكون على قدر مكان الضيف، هذا من جهة، ومن جهة ثانية، ينبغي أن يكون المذبوح لحيماً شحيماً، وفي ذلك تكون المكانة المثلى للكرم بالذات.

ولا أظن أن الكاتب جبو وهو يتحدث عن علي في علاقته بالرعي وهو يحمل البندقية، ومن ثم يصفه بالطباع المذكورة، ببعيد عما هو متوخى منه، أو أنه تقوه بذلك خارج ما ليس صحيحاً.

إنما يبقى الممكن قوله، أن الذي تردد حول علي، قد قيل بعد اغتياله، ليكون في

مستوى البطولة التي استحقها . في الوقت الذي يمكن القول في الجانب المقابل، عن الخط التصاعدي لمسيرة علي/عليكي، بذائقة التهجنة الكردية، كما هو مقروء في سيرته الحياتية، إنما لا يبعدنا عن هذه الصورة التي أبرز من خلالها، وهو أنه كان يلفت الأنظار بتلك الخصال منذ البدايات الأولى لحياته، أي قبل عبور الطفولة الثانية إلى عالم الصبابة وبقاعتها، ومن الشباب وسخونته كذلك .

ولا غرابة أن يمضي الهفيريكانيون في نسج حكايات، أو سرد أخبار، قد تتسع ساحتها على خلفية تاريخية مما تم ذكره حتى الآن، لا غرابة أن الذي قيل هنا، ربما سبق ما كان يجب البت فيه، بصدد إعلان زعيماً، ومن ثم موسّعاً علاقاته الاجتماعية مع الآخرين، وبعد ذلك منبرياً متحدياً للدولة ومن معها، بعد أن انتقم لعمه حاجو الثاني .

حالات فصل ووصل قابلة للتفريق بينها، أو النظر في كل منها على حدة، لضرورة إجرائية، ومن ثم لحم الحالات كافة مع بعضها بعضاً توخياً لمعرفة الفكرة الأشمل ذات الصلة بهذه الشخصية التاريخية أو المدركة تاريخياً .

نعم، وأشدد على هذه النقطة، من المهام الكبرى للمؤرخ أن يتروى مع كل عبارة من هذه العبارات، وخاصة حين تغلب العبارة ذات النسب الحكائي، وما فيها من وصف حسي ونثر إنشائي، على الخاصة بمنطق التاريخ ودقة دلالته طبعاً .

إذ حسب المؤرخ أن يتلقى العون والتحفيز من عين الطبيعة التي انطلق إليها من يبحث عنه، من صار بطلاً، حسبه أن يصغي إلى الطبيعة قراءة تمضي به إلى ما وراء ظاهر العشب، الشجر، الماء، الهواء، النار، التراب، وأصوات الأشياء، وكذلك دبيب خطى قروبيّه من حوله، وحتى أصوات الحيوانات التي حرص عليها إشباعاً وسلامة، حسبه أن يتلقى المدد في كل هذه الأمور، ليجد نفسه، وقد أدرك الكثير مما هو خفي على سواه، حيث يكون المؤرخ أبعد من أن يكون مجرد ناقل روايات، أو مستسخ صور أو أخبار، وبالنسبة لما تقدّم حتى الآن، لا يبدو المنقول مجرد إخبار عابر، إنما عبور إلى العالم الذي وجد علي نفسه فيه بين أقرائه، أو أهله وأناسه، وحتى الغرباء ممن مروا من هناك، حتى الأصوات التي لم يعهدها من قبل، فكل هذه الترددات الصوتية تشكّل إثراء لشخصيته، أي حيث تكون الطبيعة مدرسة مفتوحة بكامل صفوفها، ومراتبها، ولا حدود لأبجدياتها، ليتمكن من يكون الشخص الذي ينتظره على مقربة منه، رغم أن ذلك يتطلب بضع سنين أو أكثر، ليخلق عالماً، وتبقى الطبيعة بكل تفتحها مهبط روحه، وهو لا ينفك يكبر من خلالها .

ربما هو ما يمكن تأكيده هنا، من خلال المنقول إلينا، وما يعزّز من قيمة العلاقات بينه وبين العالم من حوله.

أي إن الطبيعة وهي في تنوعها، وهي كرمها اللامحدود، أي تعطي ولا تسأل، هي التي تعلّم ما لم يعلمه الإنسان، أي من يريد أن يكون أكثر من منتسب إلى ما هو آني، أو رقعة جغرافية محدودة، ربما لا رمز دالاً عليها في خريطة معينة، ولا بأي مقياس معين، وهو ما أهله ليكون من يريد أن يكون، حيث يستمر إلى ما بعد رحيله النهائي.

ولعل جبو حين ينقل إلينا مقطعاً تالياً، يفضي بنا إلى كيفية تموضعه في المكان، في علاقة الآخرين به هذه المرة، حتى ممن كانوا على خصومة حادة مع أهله (كما سمعت من عبي Ebê ، وهو من مسيحيي هفيران الحكاية الآتية «أراد أحد المسؤولين العثمانيين المعينين حديثاً في مدياد عقد صلح ينهي المعارك بين جلبي Çelebî وعلي. إلا أن عدم معرفة جلبي اللغة التركية أصبح مشكلة، وبدأ البحث عن مترجم. وبعد ذلك قال جلبي: ليكن علي هو المترجم. فذهل المسؤول لذلك وقال: كيف يكون هذا؟ إنه عدوك. من أين ستعرف بأنه سوف لن يتحدث ضدك؟ هل تثق به ؟

فأجاب جلبي: نعم أثق فيه لأن علي لن يقول الشيء الذي لا يفعله، ولا يكذب إذا تحدث.

فقال له المسؤول: حسناً، وكيف تعرف أنه لن يكذب؟ إنه عدوك اللدود.

فقال جلبي: نعم. صحيح إنه عدوي اللدود، ولكني أعرف عدوي، إنه لا يعرف الكذب. والحقيقة أنه لو يعرف الكذب لما تشاجر معي»

ولقد سمعت الكثير من الحكايات المماثلة في هفيران عن مزايا علي. (ص 75)

ربما يكون لنا عودة لمثل هذا النص الحكائي، ومن طبيعة النص الحكائي أنه متعدد الاتجاهات، حيث لا يمكن ضبطه، إنه سرد لا يعهد باسمه إلى أحد، إنما القائل غفل من الاسم، سوى أن له أرضية معينة، أو ما يقود الباحث في نشأته إليه: من جهة المجتمع الذي أطلقه، والذين ينتمون إليه، بصفة معينة، والبعد الثقافي لمثل هذه الحكايات، ودلالاتها، أي إنها على صعيد التقدير لم يجر ابتداعها بالمطلق، أو من العدم، ثمّة أصل ما لها، غير أنها تتطلب من ينقب فيها، وكيف تشكلت لها بداية معينة، وما مناسبة مثل هذا النص الحكائي، والصيغة التي عرف بها، ومن هم الداخلون في نطاقها... الخ.

يعني ذلك أنه ليس المهم أن نتعرف على ما هو محسوس مباشرة، إنما ما يشدنا إليه في الداخل، وهذا هو ما يمكن للإنسان أن ينتبه إليه، ويتفاعل معه، أو ما يحسن تدبيره، لكي يكون أكثر قابلية لأن يسلك الطريق الصحيح.

وقد يتساءل أحدهم: من أين جيء بهذه الحكاية، أو غيرها؟ وأي تاريخ تحدد لها؟ ذلك ما لا يمكن ضبطه، أو التأكد، إنما يكون ذلك من مهام المؤرخ البحث، أو الذي يجمع في ذاته بين ما هو تأريخي لا يسلم لغواية جملة أو خبر عابر، وما هو جمالي بالمقابل، لأن جمالية الشيء، كما هي موسيقى ماء الينبوع، روح الجسد في الطبيعة الحية، إذ على هذا الأساس، يتمكن أن يفتح باب المكاشفات الكبرى على مصراعيه. أن يقارب بين الفراغات القائمة، ويضع الفواصل بغية إيجاد معنى أكثر سلاسة، وفي النص الحكائي، لا يخفى على كل ذي نظر أنه نص هفيركاني، زاخُراني، مزيخِي، مديادي... الخ. حيث انتشر صيت علي، وحيث تم الاحتفاء باسمه، كما لو أن الختام يمهّد لبداية لها بدايات، على وقع الترددات الصوتية لما أثير حوله من حوله، ومن جهة الذين تأثروا به، وربما كان هذا الذي تأثر به هو نفسه أحد أولئك الذين ناصبوه العداء بعد الواقعة المفجعة، فأطلق كلاماً، في هيئة حكاية، وفي هذا المنحى، يكون مسرحه: جغرافية هفيركان.

بالنسبة إلى كباحث مسكون بظل مؤرخ، أعاين في هذا النص أكثر من صوت، لكن الصوت الذي يطغى هو صوت علي. وهذا التعيين لتلك الخصلة فيه، يضاف إلى ما سبق قوله في النص السابق، بالنسبة لخاصية الكرم. فأنا على يقين تام، وبغضّ النظر عن مدى دقة هذا النص، أي ما إذا كان الذي وجد طريقة إلى القرطاس هو نفسه الذي انطلق من لسان كائن حي، وبأداء معين، وعبارات معينة، ربما تختلف الكلمات، سوى أن المعنى واحد.

أعني بالصدق وتقابله مع الكرم. فالصادق، كما أشير إليه هو أنه يتكلم دون تلكؤ، دون أن يرف له جفن، خشية من أحد، وهو في حديثه انسيابي، بعيد عن التوتر، كما لو أن روحاً بكامل قيافتها هي التي تملأ المكان، تفيض بصوته، والكرم من جنسه، والعكس صحيح، أي لا يصدق في القول إلا من كان كريماً، لأن الكرم مشهود له بالحضور، والصدق هكذا. ثمة حق كامن في أصل الصدق، والحق لا يعرف التردد، بما أن هناك ثقة بالنفس وهي مطمئنة هنا بجوهرها.

إن ما يأتي جبو على ذكره، وفي نطاق النص الحكائي السالف، ومتضمناته الاجتماعية،

يغيّر في إيقاع القول، إذ يصبح منتسباً تاريخ (مع مقتل حاجو الثاني انفرط عقد وحدة الهفيران وبدأت الفوضى. وقد تسلّم قيادة العشيرة فرد آخر من أسرة آل عثمان، وهو جلبي. إلا أن علي بطي لم يعترف بهذه القيادة وخرج ليقاقل ضد جلبي. وقد ازداد وضع جلبي صعوبة بشكل كبير جداً أمام هذا المنافس الجسور الذي لا يستهان به. ص 75).

في كل فقرة مقطوعة، وهي بالتسلسل حتى الآن نسبياً، أجد ضرورة في التوقف، وتفكيك مكونات القول هنا. ماذا يقول؟

لاحظوا مدى العلاقة الانصالية بين المحتوى الرئيس للقول، وما يخص السالف عليه، جهة ثقة جلبي بعلي. نحن الآن بين عالمين، كائنين، قيمتين، بينهما غاية الخلاف.

لا بد أن جلبي، فيما عرفه من علي، كان على بينة من حقيقة أمره، وطبيعته النفسية في المجابهة.

هذا يعيدنا إلى ربط القول آنف الذكر، وما تحدّثنا فيه لبعض الوقت عن العمر ودقته، بما هو معرّز واقعاً. ولو أننا جارين الكاتب، وكما نقل التاريخ إلينا، ونحن نطلق مما هو موجود، فسوف نعيش وضعية ذهول، إزاء فتى في أول عمره، لا زال في عنفوان المراهقة، وما للمراهقة من انفجار قوى، ومن احتداد، ومن استعراض قوة بالمقابل. سوى أن الذي يسمّيه يبدو أبعد من حدود المراهقة بمفهومها المتداول. كما قلت، فإن بين «1882-1996» أربعة عشر عاماً، فلنُضف عاماً آخر، إن أمكننا التعامل مع واقعة المجابهة الجسور لعلكي بطي، وهو وسط رجال كبار، أو ناضجين، فيتقدم الجميع هنا.

المواجهة تلي عملية مقتل حاجو الثاني مباشرة، أو بعد فترة زمنية قصيرة، وأنا لا أتكهن، ولا أطلق الكلام في الفراغ البتة، إنما أمعن النظر في حدث تاريخي، ومجتمع متأثر به، وهناك سقف معين لكل مجابهة معينة بالمفهوم المتوسط للقول.

بين جلبي من طرف، وهو ناضج، راشد، وعلي الذي لا يبدو أن زغب شاربيه ظاهر كما يجب، أو يفترض، حيث تقترب من سقف آخر يتجاوز حدود الواقعي المتداول، أي ما يجعل من علي بعمره العقلي وقواه الحية أكبر من عمره الزمني والمقدّر في كيانه الجسدي، أي وهو يفوق قدرات الذين يتعاملون مع القوى الجسمانية استناداً إلى الأعمار بالذات.

وفي عبارة «المنافس الجسور» ما يؤكد صحة الواقعة، ولا بد أن جلبي قد أبصر علي في مواقف مختلفة، وليس عن طريق السماع، لا بد أنه- ربما- خبره في قواه العقلية والجسمية، وربما القتالية كذلك، ليقول مثل هذا الوصف.

وما يأتي تالياً يضيء دائرة القول كثيراً (فتخلّى جلبي عن التقليد القومي، ومعارضة الدولة، الذي سارت عليه أسرة آل عثمان باستمرار. فقد وقف مع الدكشوريين المواليين للدولة، وحصل هو أيضاً على دعم من الدولة. وهذه هي المرة الأولى التي تحدث فيها مثل هذه الحالة في تاريخ أسرة آل عثمان. وهكذا أصبحت المنطقة تماماً تحت سيطرة جلبي والدكشوريين المؤيدين للدولة. ولهذا انسحب علي إلى المرتفعات العالية في طور عابدين وبدأ بشن حرب أنصار من هناك ص76).

كما أن مقتل حاجو الثاني شكّل انعطافة تاريخ، فإن المجابهة بين جلبي وعلي، وعبرهما من يقف معهما: هناك من يساند جلبي داخل هفيركان وخارجها، وهناك من يساند عليك داخل هفيركان خصوصاً، ولنبق اسم كل من حاجو الثالث وشمعون حني حيدو في الواجهة هنا، ومدى مكانتهما ومرونة تحركهما، مع فارق الموقف ونوعية القوة في الحالتين، والتي شكلت بدورها انعطافة داخل انعطافة، أي ما يزيد في توتير الأوضاع، ولا أحد في الحالة هذه يمكنه توقع ما سيحصل، إلا أن الذي يمكن إظهاره، هو لعبة القوى على الأرض، وكيف أن جلبي دخل في حلف ثلاثي كما يظهر: مع الدكشوريين والقوة الداعمة من الدولة، وربما كان الهفيركانيون أكثر عدداً، أو أكثر تماسكاً من جهة، أو أنهم من حيث نوعية القوة، يقبلون على مواجهة، ولديهم إيمان بقضية ذات طابع كردي.

ذلك ما نشهده، كما رأينا سابقاً، في مختلف المواقف، بين العشائر أو القبائل التي تتقسم فيما بينها، أو تتصارع من الداخل، فيحدث انقسام، ومن ثم طلب الاستعانة أو المساندة من غريب أو عدو، ليكون عامل الغلبة لهذا الطرف أو ذاك، ولعبة القوى في الحالة هذه، لا يمكن التعرض لها بالتفاصيل، لأن لدينا عشرات الأمثلة المشابهة، بطابعها الكردي وغير الكردي بالمقابل، سوى أن مصيبة الكردي مضاعفة هنا، كونه ممزقاً في الأساس، ويخضع لسلطة المستبد به ومصيره، وبالتالي، تكون هذه المواجهة باعثة على الإيلام، وربما موجعة، كلما كان هناك رغبة أكثر بالتعرف على مكوناتها⁽¹⁾.

(1) أعيد هنا ما قاله بروينسن في مصدره المذكور، الجزء الثاني، وهو:
يعتمد الطامحون إلى القوة ضمن الدائرة القبلية أحياناً إلى أية مصادر قوة خارجية ممكنة.
ص433 .

و: يلعب الولاء القرباني نفسه دوراً في «تضاد الأشياء». ففي الحالات التي يحصل فيها نزاع بين شخصين، فإن أقارب كل منهما يهبطون لنصرته. ص 645.

وهذا يعيدنا مجدداً إلى ما ركّز عليه جويده، في وديع جويده: الحركة القومية الكردية «نشأتها وتطورها»، المصدر المذكور، وهو وهو يتحدث في فقرة معنونة بـ «خصومة الدم والأخذ بالتأثر» عن ذلك الخوف الكامن في النفوس تحت يافطة التأثر (كما في المجتمعات القبلية، تعتبر خصومة التأثر، الحالة الأكثر انتشاراً في كردستان، ومدتها تختلف من مكان لآخر وفقاً لعوامل متعددة ومتنوعة... ص 102.. والزواج بين أفراد العائلة الواحدة، والقبيلة عموماً، يغذي الإحساس بهذه الخصومة.. ص 102.. استناداً إلى نيكيتين: الد تولا وتعني الانتقام إحدى أهم ركائز الفكر السائد في المجتمع الكردستاني. ص 103... تؤكد مهمة إجراء تسوية خصومة الدم، إما إلى أحد وجهاء المجتمع وإما إلى مجلس زعماء القبائل أو شيوخها.. ص 104.. وهناك عادة متصلة بإيجاد حل لخصومة الدم، تركز على منح الحماية «بانه» للمعتدي، وأي خرق لشروط هذه الحماية، يجعل المعتدي عرضة للانتقام من الشخص الذي منحه الحماية. ص 105.. لا تقتصر الخصومة أحياناً على العائلتين المعنيتين فقط، بل تتعداها إلى الحلفاء والأنصار.. ص 107.. والانتقام قد يطال الحيوانات وغيرها: رواية عن محمد باشا الراوندوزي الذي أمر بقتل الذئب بعد تعذيبها، انتقاماً لقتلها أحد رجاله.. ص 108..

وللتأكد أكثر، حيث أشير إلى باسيلي نيكيتين، في: الكرّد المصدر المذكور، وقوله: ما يزال النظام القبلي سائداً في المجتمع الكردي ولم يتخلص منه حتى اليوم رغم أنه يسير نحو التحضر. ص 23.

ومن ثم هذا القول الآخر الذي يشبه التقرير الوصفي الكاشف، والذي نوّه إليه فيما سبق: كما أن الطبيعة لا ترحم الكردي، فإنه لا يرحم بدوره خصمه أيضاً، فالأخذ بالتأثر والميل إلى الانتظام بسيطران عليه، إن قانون الأخذ بالتأثر هو الذي يحكم الصلات بين العشائر. ص 120. وآلية العمل بهذا الذي أجبر له أن يكون قانوناً إن طرق اكتساب السلطة من قبل رئيس العشيرة تختلف باختلاف الظروف، إلا أنه يمكن ردها لأسباب محددة منها على وجه الخصوص عن طريق الوراثة أو الانتخابات من قبل العشيرة، أو نصبه من قبل السلطات. ص 195. وكذلك، هذه الإضاءة التاريخية: فيما يتعلق بالنظام العام وتحقيق العدالة لدى الكرد، يتوجب علينا أن نقول حول عادة الأخذ بالتأثر «توله» ومن تقاليد الكرد أن يتأثروا لدماء أقاربهم، والتأثر حق يكتسبه أهل القتل، ويطرد القاتل من عشيرته لمدة خمس سنوات أو أكثر، فإذا تمكن أهل القتل من أخذ التأثر منه خلال هذه الفترة، فإن القضية تعتبر محلولة، وإذا بقي حياً بعد انتهاء هذه الفترة حق له العودة إلى عشيرته بعد استشارة زعيم العشيرة ومسئوليها بهذا الشأن وموافقة على رأيهم، وحتى في هذه الحالة لا يفقد أهل القتل حقهم في الأخذ بالتأثر. ص 207.

وهذا يضعنا مجدداً في النطاق النفسي الجمعي للعشيرة أو القبيلة أو حتى المجتمع الذي يحتفظ بمثل هذا القانون، وأبعاده القيمية للذين كانوا مرجعاً له، حيث الانتقام هو العمل، في إطار

إنه السيستام الذي يمكن الباحث من تحرّي تلك الخيوط الدقيقة، كما هي الأوعية الدموية، أو الشرايين التي تتكفل بنقل الدم، وأن أي حدث طارئ، حدث لا تريد جماعة معينة وقوعه، كالقتل، وتبعاً لنوعه، يحيلها مباشرة إلى وضعية أخرى، حيث إن الموت يصبح الموضوع المتداول في أحاديث أولي أمرها، ويكون هناك دائماً شخص أو أكثر، تسند إليه مثل هذه المهمة، على طريقة «السن بالسن». إن الحياة هنا لا تعود قادرة على «التنفس» على منح أفراد الجماعة هذه على التقاط أنفاسهم، وحتى النظر إلى وجوه بعضهم بعضاً، أو إقامة علاقة مع الجماعات العشائرية المجاورة وغيرها، جرّاء هذا الحدث المخل بنظام الجماعة الأمني، وما يترتب عليه من اتخاذ الخطوات الفورية، إذ يصبح كل ما يخدم سبل التعايش مع المكان، وفي الحياة اليومية، مرتبطاً بالرد، وهو عنف مؤصل، لا يدع الجماعة وشأنها، في ضوء هذا التوتر النوعي، إلا إذا مورس عنف من قياسه «نوعه»، وما يترتب على القيام بمثل هذه المهمة من اعتبار مسجّل لصالح المقتول، أو جماعته، كما لو أن المنتقم، أو الأخذ بالتأثر، حيث يحتفى به، يعيد دورة الحياة السالفة، وقد توقفت إلى نفوس أفرادها، ومن هنا تكتسب المكانة مكانتها الخاصة، بما أن العنف قد قضى بمثله، وهو داخلي، ليكون تمثيل الجماعة زعاماتياً خارجاً.

هكذا تفهم المسألة أيضاً، حيث إن الخروج من الدائرة الاجتماعية، أو مفارقتها صوب الخارج، ليس أكثر من حالة حرب يُعد لها بطريقة ما، بوصفه اعتراضاً أو احتجاجاً، وأن العودة لا تتم، إلا لحظة ممارسة عنف بعنف مماثل، مهما أفضنا في تحليل كل منهما، جهة القيمة أو الاعتبار: دم مسفوك لجسد له مكانته المميّزة، يعني سفك دم بالمقابل، كنوع من المقايضة الإلزامية، وهي مقايضة ذات صلة بالجسارة، بمن لديه القدرة على الإقدام.

أتوقف عند هذا الاقتباس التالي من لدن جبو، وهو يستند إلى رواية ثبتها برونسن في كتابه المعروف، حيث يقول:

القضاء الخاص justice privée، لإيذاء شخص آخر أو مجموعة بهدف معاقبة أو الحصول على تعويض عن عمل يعتبر مسيئاً (القتل، الإهانة، الخيانة، رحلة...).. وقد يكونون أشخاصاً أو أشخاصاً اعتباريين أو مجموعات عائلية أو عرقية أو مؤسسات، وخاصة للفرد الثاني. في المجتمعات العشائرية، يلزم التضامن جميع الآباء والحلفاء حتى درجة معينة من القرابة أو التحالف للمشاركة في الانتقام (أو التأثر)، كما ورد هذا الكلام في موقع fr.wikipedia.org الخ

(«قتل حاجو الثاني في عام 1896 بتحريض من جمو زعيم الدكشوريين») (ليس بتحريض من جمو بل إنه قتل على يده- المؤلف، أي جبّو) فانتقلت الزعامة إلى عليكي بطي وجليبي، وهما فرع العائلة الأصغر عمراً. وكنا في حالة خلاف أو شجار دائم بينهما، إلا أنهما أخضعا جميع الأفخاز «العشائر الفرعية» لإشرافهما. إن علي بشخصيته الشجاعة والكارزمية صار البطل الأسطوري للعشيرة، وواصل حرب الأنصار ضد الدولة على مدى 20 عاماً».

وجه علي ضربات كبيرة إلى جليبي والدكشوريين، ومع نجاحه في ذلك ازداد عدد مؤيديه، وحظي بالاحترام. أما جليبي فقد خسر مكانته واحترامه، ومنذ ذلك الحين صار للهفيركان سلطانين «سلطانان. المؤلف». ص (76)

كثير من الكلام، كثير من الإشارات، كثير من الأفكار التي تترتب عليها:
سوف أتوقف عن مناقشة مفهوم «البطل الأسطوري» كما ينبغي أن يوضح تاركاً إياه للفصل الذي أخصصه له، لما للمفهوم هذا من ذيول وتشعبات نفسية واجتماعية وحتى لاشعورية تستحق الإضاءة التاريخية.

بالنسبة لمفهوم الزعامة، والذي أشير إليه سابقاً، لا بد أنه في سياق النص المقتبس يعكس وضعية اجتماعية معينة. فثمة الزعيم الذي يكونه بجدارة، وثمة الزعيم الذي يكون خلفه، حيث الزعيم هنا يكون من الزعم، وهو ما لا يكون دقيقاً، أو صحيحاً في أصل تشكّله، أي قرصنة سلطوية، والزعيم ينتقل بنا إلى الواجهة، إلى مكانة قيادية، أو رمزية هي محل احتفاء.

ولحظة النظر في النص أعلاه، تتراءى للعيان علاقات متصادمة، حارة، متوترة، وما فيها من مناورات وتكتلات أو تحالفات:

هناك من حرّض على القتل، وهذا له مقامه الاجتماعي الخاص، إذ ليس أيّ كان لديه صلاحية الإيذان أو الإشعار بوجوب القتل، وليس أيّ كان يصغي إليه أو يتجاوب معه، في نظام العلاقات الاجتماعية التراتبية داخل العشيرة ز أكثر من ذلك، وكما هو مستخلص من النص سالفاً، ومن خلال بنية العلاقات الاجتماعية، ومكانة كل فرد فيها، لا يبدو أن كل عملية قتل تستحق التسمية، أو تشكّل حدثاً طارئاً، يتوقف عندها أفراد العشيرة، رغم أن الذي يدعو العشيرة في عمومها، ومن خلال ممثليها الأدنى مرتبة، أو في مجلس له بُعد تشاوري أحياناً، وهو مراتبي. ولا للتاريخ حضور من باب التاريخ، أو ضبط الواقعة تماماً، إنما من يشغل مكانة معينة، وهي تبقى شاغرة، نظراً

لخاصيتها. إن كل ما يُخل بنظام الجماعة العشائرية، هو الذي يكون محل اعتبار، يكون قيد الدرس لتقليبه على وجوه، تبعاً للقدرات والظروف، وكيفية الرد.

نعم، يقال عن أن الجماعة العشائرية عبارة عن مجموعة أفراد يشكّلونها، إنما بصورة تراتبية، وهذا يعني أن مفهوم «الأفراد» حسابي له طابع تجريدي، إذ إنه لحظة التسمية، يصبح التفاوت قائماً مباشرة بين فرد وآخر. ماذا يعني أن يُقتل راعٍ عادي في الجماعة، أو حين يموت خادم رئيس الجماعة؟... الخ.

الحدث ما يصبح تاريخاً يبصر طريقه إلى الذاكرة الجماعية للعشيرة، حيث يحاط بما يستحق من اعتبار، ووضعه في سياق حكاوي، وراثي، وحتى غنائي، كي يتأرشف في النفوس، وهذا ما سنتعرف عليه في الفصل الأخير.

وهناك من تتم تسميته، وهو ليس أياً كان بالمقابل، أي بخصوص الحدث، إذ إن الزعيم، وباعتباره زعيماً، وهو محط أنظار لمن حوله ومن الخارج كذلك. ما يتكلمه هو موقعه، ويكون له صدى يتناسب وأهمية الموقع، والواقعة تتسبب في نشأتها إليه بالمقابل، بما أن الذي يشار إليه في موقع اعتباري مماثل، وبالتالي، يجري انتظام العلاقات بالطريقة هذه.

هناك من يقوم بعملية القتل. ربما يكون أحد أفراد العشيرة بالذات، ولكن الرد، كما موصوف أنفاً، سيوجه إصبع الاتهام في الحال إلى المسؤول المباشر عنه، طالما أن العشيرة في مجموعها تكون خاضعة لسلطته.

بالطريقة هذه، قد تصبح العشيرة عموماً مستهدفة، رغم أن المرصود هو «رأسها» الرمزي.

اللعبة المستمرة

في العودة إلى كل من عليك وجلي، كما جرى وصفهما. لا بد أن القوة هي التي منحتهما مثل هذه الميزة في التسمية، أي في أن يكونا تحت الأضواء، رغم أنهما ينتسبان إلى موقع اعتباري متقدم، سوى أنهما بالمسلك الذي عُرفا به، كان لهما هذا البروز، ولا بد أن مفهوم التنسيب جهة اللقب، ومن باب التمايز، جاء على خلفية تناحرية أو صراعية كهذه، أن يكون لدينا عليكي بطي، مقابل جلي، ولكل منهما اتجاه، عالمه الخاص جهة العلاقات التي بات يعرف بها.

يعني ذلك تاريخياً، وبالنسبة للقوة بالذات، لا يمكن لها أن تكون عزلاء، يشار إليها

في عراء الكلمات، وإنما تكون ذات حمولة قيمية، قوة لها وزنها، شكلها، لونها، معدنها كذلك، صرافتها، إن جاز التعبير، وهي بذلك تحدد مواقعها داخل الجماعة وخارجها. كما رأينا هنا. خاصة حين تنقسم، ويحدث تفاوت، وتكون المجابهة، وكما هو ملاحظ: تسمي قوة عليكي بطي نفسها من الداخل، قبل كل شيء، بينما يظهر توجهه جلي إلى الخارج، تعبيراً عن الانقسام، ومن خلال عقد تحالفات، أي إيجاد نقاط ارتكاز له، سعياً إلى إيجاد قوة تضاهي القوة التي في الداخل، وهنا يتقابل الداخل والخارج ويتصادمان، وربما يحصل تغيير جذري في المواقع، حيث إن تحقيق الغلبة لأي منهما، يعني هنا، أن من في الخارج يصبح في الداخل، ويجري طرد من في الداخل، في بعض الحالات، كإجراء عقابي، وتبعاً لطريقة التعامل، أو تقدير الموقف.

أحد هنا، عبارة واحدة فقط، لأنطلق إلى ما بعدها، كقنلة رئيسة، وهي تتمثل في الذي جعل من علي بطلاً أسطورياً، في ضوء ما سجل: خوض جملة مجابهات، هي حالات انتفاضة ضد الدولة على مدى أكثر عشرين عاماً.

هذه العلامة الرقمية مهمة جداً، وترغب إرادة المكاشفة، في طرح المزيد من الأسئلة الارتكازية، لحظة تحديد ما هو ضروري، وهو أن هذه الحرب بدأت وعمره «17» عاماً، أي عقب الانتقام من جمو، كما هو مستقراً من الرواية.

وبصد الحرب التي استمرت طوال عقدين من الزمن ونيف، هناك الكثير والأكثر من الكثير نفسه مما هو مخفي، أو مجهول لدينا، حتى بالنسبة إلى جبو، وكما سنرى، فإن الذي يقدمه كتابه، وهو جهد مشكور، أقل بكثير مما يعرف به «بطله الأسطوري»! مثلاً:

طوال هذه المدة، ماذا كان يفعل؟

هل من مدونات معينة، ووافية في شروحاتها، ترينا كيفية تسلسل هذه السنين الطوال نسبياً بتوتراتها ومشاكلها الجانبية؟ أي ما لم يكن تحت الضوء، وهو مهم، لمكاشفة ما هو في الضوء!

هل من وقائع نوعية «ولا بد منها تناسباً مع موقعه» يمكن تسميتها، لتتال حقا من التحليل والتفسير أو التقويم هنا؟

ما هي حدود هذه المجابهات، والجهات التي اشتركت فيها ونوعيتها، ونسبة كل منها بالمقابل، وتكاليفها أيضاً؟

أسئلة لها شهيتها جهة الموضوع الشائك والمثير للانتباه، وليس للمؤانسة «هل يمكن منادمة الدم المسفوك؟» أعني بذلك، أن أي سؤال، لا يعتمد توصيفاً خارجاً لأي كان، وهو يتجنب أي صدام جانبي من ذم أو شتم أو إهانة، حيث إن الذي يُسمى هنا يشغل تاريخاً كان، ويمارس تحليلاً له من خلال مكوناته، حيث الوقائع تتحدث بعلاقتها المرافقة لها، مثلاً، واقعة معينة، بالنسبة لعلكي بطي، مع أي كان، كما سنرى، أو جلبي، أو جمو... الخ، وكيفية إضاءة الذهنية التي أوجدت مثل هذه الواقعة، والذهنية السردية التي روتها، وأوصلتها إلينا بالمقابل.

ربما أمكن للممة بعض من الخيوط الخاصة بإجابات الأسئلة تلك من خلال كتابات ذات طابع رسمي «تركي» كما سنرى، وهي تعيننا بهذا الجانب، أي متابعته من قبل الدولة، ليس بوصفه شخصاً استثنائياً لا نظير له، رغم مكانته، وإنما لكونه ينتمي إلى تلك السلسلة من الزعامات الهفيركية «الأوصمانية» إن جاز التعبير، ومن أوصمان الداعم البوتاني،، منذ أكثر من قرن ونصف القرن، انطلاقاً من الهفيركيين كانوا على الضد من الدولة باستمرار، وفي ضوء ذلك، يقدر دائماً، أن كل من يتزعم هفيركا، سيكون له حضور زعاماتي مختلف، ولحظة ظهور ذلك الانقسام، برز النقيض، بمقدار ما أصبحت ضراوة المواجهة والخطورة أكثر.

لا شك أن هناك إرثاً ثقيلاً وموجعاً من المواجهات أو النزاعات البينية، والتي تحفز على إقامة حوار، ومن بعيد طبعاً مع أطرافها، وتوجه كل منها، ودون إعلان الحيادية لحظة المتابعة للخطوط العريضة على الأقل، إذ لا شك أن تأكيد صواب الموقف جهة ما هو كردي يفرض نفسه، ليس كإلزام، وإنما كواجب أخلاقي، وانتمائي قومي، رداً على الجاري والذي يتمثل في تلك الماكينة الإعلامية والدعائية والشعبوية الهائلة التي تعتمدها أجهزة الدولة في تركيا ضد الكرد، وليس أمامها إلا كيفية النيل منهم، كيفية صهرهم، كيفية التقليل من مكانتهم، بطرق شتى، وهو تأكيد آخر، وعلى مدى عقود زمنية طويلة على أن تحويل الكرد إلى مشكلة، إنما هو في الأساس، تسمية المشكلة في الذي يفتعلها. هي مشكلة نظام أحادي الجانب، نظام يتمترس وراء ما هو انقسامي، عنصري، وتغليب اثنية على أخرى، لا بل وإلحاق المسيطر عليها بالقوة بتلك التي تمارس دور المسيطر ومن خلال السلطة وعنفها، وكل من يشكل دعماً مادياً ومعنوياً لها. إنه مبدأ مثبت هنا!

إنه حديث الحق عن التاريخ، والحق في وجوب الانتماء إلى التاريخ بالأصالة الذاتية وليس الوكالة الماحقة للذات.

أتحدث بالطريقة هذه، وأشدد على أنني حين أستخدم كلاً من الواقعة والحدث، ولعلم من يعلم، فإنما للتبويه لمكانة كل منهما، وخطورته بالمقابل: في الواقعة، أسأل عن خلفية ما يقال ويتردد ولماذا كان هكذا، وفي الحدث، يستوقفني بما يجري داخله، ما يجعله قابلاً للاستمرار، أي بالنسبة للانقسامات وتداعياتها الموجهة: لماذا ذلك، وماذا فيها، لكي تستمر بالطريقة هذه، وما أكثر الأمثلة التي يطرحها كل من سؤال لماذا، وماذا Çima –çawa⁽¹⁾.

إن ما يلي ذلك، هو نتيجة إقرار ما بما حصلت، بعد عملية الخروج على جلبي، أي رفضه هنا، وما ترتب عليه من توجيه الضربات ضده وضد من معه. لقد أصبح مطلوباً الآن، ولا بد أن يتصور المرء، ماذا يعني أن يصبح مطلوباً، وطوال هذه المدة، وماذا يعني بالمقابل، أن يكون هناك سلطان للعشيرة/ القبيلة ؟

إنه انقسام في الداخل، بين مؤيد ومعارض، كما تقدم، وفي الحالتين، هناك تجاذبات، وبشكل غير مستقر، تبعاً لتحولات القوة.

لا بد هنا من أخذ مفهوم القوة ووجهتها بعين الاعتبار، بالنسبة لمن لديهم حضور مواجهة، أو ذاكرة مكانية وزمانية بالنسبة إلى الدولة والذين يشكلون خندقاً أمامياً خطراً لها، ضد أقرب المقربين إليهم، أي كيف يمكن أن يتسمم الدم في الجسد الواحد:

(يروي لنا محمد فريد جميل أوغلو المعلومات التي تناقلتها الأجيال المتلاحقة بحق العائلة منذ قدوم أجدادهم إلى ديار بكر، كالآتي: (يعود أصلنا إلى منطقة سلوبي، بمعنى آخر أننا بوتانيون. تناقل أبناء العمومة في ما بينهم في صراع عائلي وقتلوا بعضهم بعضاً، قدموا إلى ديار بكر برجالهم واستقروا في 20-30 منزلاً في منطقة باشا، محلة خوجة أحمد. حينها كانت توجد نزاعات عشائرية في ديار بكر. قسم منهم كانوا يسيطرون على مناطق «داخل القلعة». كانت تقابلهم عشيرة كوراني برئاسة حسن باشا. وكانت سيطرتهم تمتد من حدود ديار بكر إلى بالو، مادن

(1) في كتاب بول ريكور: الذاكرة، التاريخ، النسيان، ترجمة وتقديم وتعليق: د. جورج زينات، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2009. في 750 ص ونيف. ريكور 1913-2005، يشير إلى مثل هذه العلاقة بين السؤالين وهما فاعلين في دراسة أي موضوع له صلة نسب تاريخية واجتماعية: لماذا وماذا (ثمة التمييز بين الواقعة والحدث: الواقعة بما هي «الشيء المقول» لماذا الخطاب التاريخي، والحدث بما هو «الشيء» الذي يتحدث الناس عنه» بما هو «حول ماذا يدور الخطاب التاريخي»... ص 273).

وجرمك. في ذلك الوقت كان فقط للمشير المبعوث من قبل الحكومة حق دخول المدينة. أما الأمور المتبقية كانت تدار بإدارة ذاتية.⁽¹⁾

(وإذا كانت عشائر كردية عدة قد تحالفت مع الشيخ محمود الحفيد بدوافع العوز الاقتصادي، أو الانصياع إلى نفوذه الديني، فإن عشائر أخرى في كفري وكركوك وبعض سكان مدنها لم تكن راغبة في أن تكون تحت زعامته، مرجحين على تلك الزعامة البقاء تحت الحكم البريطاني المباشر..⁽²⁾

ويمكن النظر في مثال مريع كهذا، كما جاء ذكره في: انتفاضة آكري 1926-1930 «مذكرات الجنرال إحسان نوري باشا»، من هذا الجانب المقلق: الرئيس الكبير لعشيرة حيدري وأكثر الرؤساء نفوذاً في المنطقة المحيطة بـ «وان وبازيد».... ومن ثم: لم ينضم حسين باشا إلى الثورة الكردية، ولم تكن عشيرة حيدران وحدها بعيدة عن الثورة، بل كذلك بعض العشائر الكبيرة الأخرى، مثل زيلان، سيبكان، جلالى وكذلك بعض العشائر الأخرى الصغيرة. إن كون حسين باشا كردياً، وتجري في عروقه دماء كردية، كان كافياً كي يلقي جزاءه هو أيضاً حسب معتقد الأتراك. ولم تسعفه في درء ذلك خدماته المتعددة للدولة التركية، التي لم تر الوقت مناسباً بعد لاقتلاعه من مكانه..... كان كور حسين باشا قد غادر سوريا، ماراً بين العشائر الكردية، لينتهي به المطاف في شمال العراق، حيث حل ضيفاً على الشيخ أحمد البارزاني، الشقيق الأكبر لبطل الكرد الجنرال بارزاني. وكان في ضيافة الشيخ أيضاً ابن حاجي موسى بيك، المدعو مدني، مع عمه نوح بيك. وبعد أيام من الاستراحة في مضافة الشيخ، استأذنوا في السماح لهم بمواصلة مسيرهم. عندها قال نوح بيك لكور حسين باشا: «إن ابن أخي، مدني، يرغب كثيراً في الذهاب إلى آكري، فحبذا لو أخذتموه معكم»، فوافق حسين باشا وأعرب عن سروره بذلك. وقام مدني باصطحاب بضعة فرسان معه، وساروا مجتازين الحدود العراقية سراً، ومكثوا ليلاً في كنف أحد الجبال، حيث قام مدني ووريه بمؤامرة دنيئة وجبانة، قتلوا على إثرها حسين باشا ورفيقيه، وهم نيام، ثم سلموا

(1) مالميسانج «تأليف وإعداد»: عائلة جميل باشا الدياربكري والنضال القومي الكردي، المصدر المذكور، ص 15.

طبعاً. هناك جزء من الاقتباس أوردته في مكان آخر، وأعيد هنا، في سياق مختلف، لأهميته، حيث الفكرة تؤكد.

(2) البياتي، عبدالرحمن إدريس صالح: الشيخ محمود الحفيد «البرزنجي»، والنفوذ البريطاني في كردستان العراق حتى عام 1925، دار الحكمة، لندن، 2005، ص 126.

أنفسهم للسلطات التركية، وبعد إجراء التحقيقات اللازمة حول ظروف وملابسات الحادث، أدرك الشيخ أحمد البارزاني أن لشقيق حاجي موسى بيك «نوح بيك» ضلعاً في المؤامرة، وأنه قد اتفق سراً مع السلطات التركية للقيام بهذه المهمة الجبابة، وأنه قد وعداها بقتل حسين باشا لقاء إصدار السلطات التركية قراراً بالعفو عنه، وهكذا اتخذوا قرار القتل، وبعد إجراء الشيخ أحمد محاكمة لـ «نوح بيك»، واطلع على تفاصيل ومجريات الحادثة، وفهم طبيعة علاقة واتفاق نوح بيك مع السلطات التركية، أصدر قراراً بإعدامه الحياة رماً بالرصاص، ولم يدعه يتمتع بقرار العفو الموعود ص⁽¹⁾.

ودلالة قول كهذا (وإذا استثنينا نحو عشرة من العلماء المحترمين أمثال خواجه حمدي أفندي وخواجه كومرجي، كان هناك مئات الملاي في زي العلماء والمشايخ اللصوص والملعونين والخائنين)⁽²⁾.

ذلك داء عضال قديم، فعلى سبيل المثال (كان سلاطين عثمان والشاهات الصفويون ينتهجون سياسة «فرق تسد» إزاء الكرد دائماً. وكانت جميع الوسائل صالحة لتحقيق مآربهم السياسية، وذلك مجرد أن تطلق آلية الثأر القبلي والاقتتال الداخلي البغيض، وقام السلطان سليمان، الذي كان يظهر بمظهر حامي الإسلام، بتسليم شهادة حكم الإمارة إلى زعيم عشيرة داسن الإيزيدية بغية تحطيم أمراء سوران. واندلعت معارك ضاربة بين القائدين الكرديين، دفع فيها أمير داسن حياته ثمناً للسلطان على إخفاقاته، وصمدت إمارة سوران، لكنها أصبحت ضعيفة)⁽³⁾.

هذه الأمثلة لا تفاجئنا، ليس لأننا تعرفنا عليها في نماذج سابقة، أو على بعض منها، سالفاً، حيث إيقاع المعنى يختلف قوة أو ضعفاً أو دلالة، مع كل عنوان، أو سياق فكرة، وإنما للتأكيد على حقيقة ملازمة لنا جمنياً، ولو بتفاوت، وهو أن العنف، بكل صيغه وأشكاله حقيقة مثبتة في التاريخ، والتاريخ نفسه لا يعدو أن يكون ثمرة عنف معينة، سوى أن للكرد رصيماً فائضاً من هذا العنف، حيث التاريخ يحيلهم إلى الخارج، وما في ذلك من انزياح لمفهوم القوة الخاصة بهم.

(1) انتفاضة آكري 1926-1930 «مذكرات الجنرال إحسان نوري باشا»، ترجمة: صلاح بروراي، ص 66-69-72..

(2) جميل باشا، أكرم: مذكراتي، الترجمة من التركية إلى العربية: د. قدرى الدياربيكري، المراجعة اللغوية والتقديم: فدان آدم، بير، ديار بكر، ط3/2007، ص 27.

(3) لازرايف، م. س، وآخرون: تاريخ كردستان، المصدر المذكور، ص 89.

والصراع، كمفهوم، يجسّد العنف ميدانياً، سواء في الداخل أو الخارج، حيث المشاعر والهواجس والرهانات تتواجه!

من جهة أخرى، وهذا هو الأهم، ما الذي يفيدنا به الصراع، من باب التعرف على بنية الوقائع والأحداث الجارية: بين قول يذاع أو يتداول، وفعل يتم، ويشار إليه، كما يجري تقويمه واتخاذ موقف منه؟ وما موقع الذي تحدثنا فيه، بخصوص هذه المجابهات بين عليكي بطي وهجوماته وجلبى المدعوم من الدولة ومن يسانده في هذا النطاق ؟

لعل نظرة فاحصة إلى الصراع كمفهوم، تكشف عن فوائد جمّة تقرّبنا من هذا الحقل المغموم: من يلغمه، ومن يحاول نزع فتيل كل لغم، ومن يخترق الحقل، ومن يصبح ضحية اللغم المنفجر، على صعيد المجتمع وعلاقاته المختلفة ؟

يظهر جلياً، أننا ما كنا نعرف ما يكون عليه عليكي بطي، ولأن الكتاب في عمومته يعنيه، ويتمحور حوله، وأن كل ما يدور في الكتاب، كل ما جرت تسميته بين صفحتي الكتاب، إنما يرتد كنسب معرفي إلى عليكي بطي وليس سواه، حتى بالنسبة لي أنا هنا، حيث أكتب عنه بطريقة ما، وأفكر فيه بطريقة ما، وأتحفظ على مواقف معينة بطريقة ما، وأتجاهل مواقف معينة كذلك، بطريقة ما،، تبعاً لطريقة إدارتي لنقاط البحث، ومن خلال المسار البحثي، وليس لأن ما أتجاهله لا يستجيب لرغبة نفسية تعنيني، كلا، إنما من باب ما يُراد سماعه، أو التعامل معه، إلا بوصفه واقعة بغیضة، أو حدثاً مستفزاً في التاريخ، أكون أنا نفسي، كما قلت، مرتبطاً بعليكي بطي، وهو حال الكاتب مع أي موضوع يبحث فيه، مع فارق درجة التعامل وحساسيته طبعاً... الخ، لأن كل ذلك يقع في مرمى البحث التاريخي وما يتطلبه التاريخ في الحالة هذه مما ينيره، ويعمّق أثره، صار في الإمكان التعرض لهذا الذي بلغناه، جهة المواقع والأحداث، أي ما يحرك كل هؤلاء الذي يعرفون بأسمائهم في دائرة الصراع الكبرى.

لولا الصراع، أو التحرك وسط تواترات أفكار، وأطاريح أسئلة تاريخية، واجتماعية وسياسية كذلك...، لما كان هذا الكتاب، بهذا الأسلوب، والحجم، وأفق الرؤية، ولما كانت هذه المتابعة، فالصراع متعدّد، والصراع متنوع في تكويناته، وهو المحك الرئيس للقوى النفسية وتدفقاته في كلمات وأفعال، أي في التفريق بين البشر، أو الناس قيمياً، من يكون المأخوذ بغواية الشر، ومن يتلمس في الخير ما يهواه ويستهو به بالمقابل، وبالتالي، فإن الصراع هو الذي يسهم في الدفع بالمجتمع من وضع إلى آخر، وفي الكشف عن خفايا الناس وهم يتصارعون.

لهذا، ولأهمية هذه النقطة، ثمة ما يفيد في تعميق بنية هذا المفهوم، كما يرى أحد المختصين بأمرة نفسياً. ماذا يقول؟

(تأتي كلمة «صراع» Le conflit من كلمة «صراع» اللاتينية والتي تعني: تصادم، صدمة، صراع، هجوم.

وكان «الصراع» ينطبق في الأصل على حالة الكفاح المسلح، أو القتال بين شخصين أو أكثر، أو منظمات أو سلطات، وهم يقاتلون من أجل السلطة.

تالياً، ينطبق مصطلح الصراع الآن على أي معارضة تنشأ بين الأطراف في خلاف، حيث يرغب طرف في فرض مواقفه، ضد توقعات أو مصالح الطرف الآخر.) وفي نقطة لاحقة، يتطرق إلى البعد القانوني للصراع:

وبالمعنى القانوني، النزاع/الصراع هو نزاع حول نقطة قانونية واحدة أو أكثر. ويفهم الصراع، بالمعنى العميق أو الأصيل للمصطلح، مواجهة إرادتين فرديتين أو جماعية أو أكثر تظهر تجاه بعضهما بعضاً بنية معادية وإرادة للعدوان، بسبب حق لاستعادة أو الحفاظ عليها. تحاول هذه الإرادة كسر مقاومة الآخر، ربما باللجوء إلى العنف.

«غالباً ما يُعتقد أن الصراع بين الناس علاقة «سيئة». ومع ذلك، فإن العديد من علماء الاجتماع (مثل جورج سيميل) أو الفلاسفة (مثل هيجل أو نيتشه) أو علماء النفس، يطورون رؤية أكثر إيجابية للصراع كوسيلة للعلاقة بين الأفراد. يعتبر علماء النفس، كما في حال دومينيكي بيكار وإدموند مارك أن الصراعات ليست أخطاء في الاتصال، ولكن من الطبيعي والمعتاد أن يجادلوا على نحو جيد: «المشاكل العلائقية متأصلة في الطبيعة وديناميكيات العلاقة لأن العيش معاً والتواصل معقد وصعب». ومع ذلك، غالباً ما يعيش الصراع في معاناة، وعلى عكس الفهم الجيد، فإنه يمنع العلاقة من التقدم والإنتاجية والشركاء من الازدهار. هذا هو السبب في أنه من الضروري في كثير من الأحيان تنظيمها وحلها..).

وهذا من شأنه أن يمضي بنا إلى ما هو غائر في النفس:

(ومن وجهة نظر نفسية، فإن الأشخاص المتورطين في صراع أو يعيشون صراعاً داخل نفوسهم يختبرون حالات عاطفية قوية: الغضب والإحباط والخوف والحزن والاستياء وأحياناً العدوان والعنف. هذا هو الواقع وراء الدلالات السلبية لكلمة الصراع.)

هذا من شأنه أن يكون الصراع ديناميكية هائلة، رهيبية، ومدهشة، وداخلية في بنية متغيرات التاريخ الاجتماعي، العائلي نفسه، جهة النتائج التي تترتب عليه هنا : (مع ذلك، فإن الصراع ليس مدمراً بالضرورة. من الطبيعي أن تواجه صراعات أو مشاكل علاقة، لذا فإن تنوع البشر وتاريخ الشعوب وثقافتهم ورحلة كل فرد هائل. وبدلاً من النزاعات نفسها، فإن طريقة التعامل معها يمكن أن تكون مدمرة.

ووفقاً للدكتور أوستروي، الطبيب النفسي في باريس، «أي موقف علائقي يؤدي بالضرورة إلى الصراعات». كل هذا يتوقف على درجة حرية التعبير والمساواة بين الأفراد. في أصل النزاع، هناك دائماً مصالح متباينة، أو مشاعر متضاربة أو رغبات مختلفة. «في الواقع، يثير النزاع سؤال الطرف الآخر، الذي لديه أحياناً فكرة سيئة عن عدم الرغبة في ما نريده».

لقد جئنا جميعاً لتجربة الصراعات! لحظات الأزمات حتمية وضرورية غالباً لتحريك الخطوط والبدء في تحول نحو توازن جديد .)

هذا من شأنه، ومن باب التوضيح، تبيان ما يكونه الصراع في لائحة مراتبه ومسالكه، حيث يصنف هنا :

(أي حيث إن مصادر وسياقات وأشكال الصراع متنوعة للغاية ومتنوعة، يمكن تجميعها في أربعة مجالات واسعة:

الصراع الداخلي الشخصي

الصراع الداخلي الشخصي هو صراع داخلي للفرد، الذي يمكن أن يسكنه أفكار متناقضة، ويشعر بتناقض في مشاعره، ويعاني من فقدان شخص محبوب...

سنحدث بشكل عام عن «الصراع النفسي».

يجب على جميع الأفراد، بغض النظر عن عصرهم، وثقافتهم، وحالتهم، أن يواجهوا، طوال حياتهم وبدرجات متفاوتة، مواقف تولد صراخاً نفسياً، والتي تعمل على التركيب العميق لشخصيتهم.

في كثير من الحالات، يؤدي الصراع النفسي، إذا لم يتم حله، إلى شعور الفرد بالانزعاج الشديد الذي يمكن أن يؤدي إلى إيذاء النفس أو حتى الانتحار..)

وما يدفع بالصراع، لأن يَمَعَ صوته، وهو بتردداته، ويُرى بهيئته، من خلال من يجسّدونه سلوكياً :

(يتم تعريف الصراع بين الأشخاص من خلال وضع يواجه فيه العديد من الأشخاص بعضهم بعضاً).

نزاع الزوجين، الصراع بين الجيران، بين الأصدقاء، بين المشتريين يطعمون في نفس الملكية... كل هذه الصراعات تشترك في العاطفة أو المصلحة، والتي هي في أصل الخلاف.

بشكل عام، ينتقد النقاد أحياناً السباب الذي يفسح المجال للعنف، مع أحد الطرفين الذي لا يؤيد اختلاف الرأي، أو البحث عن الاستيلاء على الآخر، أو حتى الغيرة، الاختلاف المعتقدات والقيم والثقافة.

غالباً ما تكون الصراعات حتمية، خاصة في العلاقات. ولكن إذا كان لديهم وقت سيئ، فإنهم يحتنون على شكل من أشكال التواصل يمكن أن يكون بناءً.) وما يوسع ساحته وهو في كثافة اسمه، حيث نلتقيه كما نعيشه طبعاً: (في مجموعة منظمة، يمكن أن تكون الاشتباكات لأسباب مختلفة.

تضارب السلطة والقوة: غالباً ما يكون هؤلاء أشخاصاً من الترتيب الهرمي نفسه في منظمة (شركة، جمعية، إلخ) ممن يعارضون اتباع الزحف من جانب واحد على ما يقع ضمن اختصاص أخرى.)

وما يجعل الصراع نفسه انقسامياً، وعامل تفريق وتوحيد، تبعاً لمن يعيش مخاضه في:

(تضارب المنافسة أو التنافس: ينشأ في المواقف التي تكون فيها المنافسة والبحث عن النتيجة من خلال قياسها ضرورياً.

الصراع المقلد: يتعلم الطالب ويمارس بجدية وينتهي به الأمر إلى معارضة المعلم). وما يوجز مغزاه ومبتغاه بالمقابل في مختتم أمره:

(هذه بشكل عام مجتمعات أو مجموعات متميزة، لها ثقافة أو إيديولوجية مختلفة. لن تتردد في استخدام العنف.

هذا النوع من الصراع هو سمة من سمات المعارضة بين الجماعات العرقية أو بين الحركات السياسية.⁽¹⁾

(1) Sada, Richard: Le conflit www.psychos-ressources.com

ودون نسيان أن في الصراع أحياناً، مواجهة، بين طرفين أو أكثر، قد تكون نتيجة النتيجة هلاكاً لطرف دون آخر، وربما كان «الصراع» نفسه تصارعاً في الرأس، بين السوي واللاسوي فيه.

في ضوء هذه النقاط الواضحة، والدقيقة في النقاط التي تشكّل مواقع قوة للمقال، يمكن لنا أن نتفهم آلية الصراع، تلك التي تشغل جغرافيا ممتدة ضمن مساحات واسعة، تشترك فيها قوى متضاربة، وغايات متضاربة، ومصالح تكون كما هو حامل حبات المسبحة، حيث يكون رأس السلطان، في النطاق الجغرافي الذي يتبعه سياسياً «السلطان عبدالحميد»، هي التي تهىء لوضع خطة، بمقدار ما تبحث عن يمكنهم تنفيذها، وما بينها من تضارب إلى أقصى حد. مثلاً، ما هي العلاقة بين مصلحة كل من عليكي بطي وهو يتكلم كرديته، وجلبلي الذي ينزعها، ويحتمي بظل السلطان الأحمر؟

طبعاً، ونحن نتكلم عن هذه العلاقة، ونسمي الشخصين، لا ننسى في كل عبارة، مدى التأثيرات التموجية التي تحدثها كل حركة في الإغارة أو الهجوم أو المباغطة في الجوار، وكيفية اصطفاف الناس، تبعاً للعلاقات القائمة ومغذياتها، حيث نتلمس فيها ما هو اجتماعي، سياسي، نفسي، ثقافي وتربوي بالمقابل، حيث الصراع يشكّل عتبة رؤية واستشراق غد !

المشهد المفصلي للانتقام

يورد جبو التالي في كتابه:

(إن مقتل حاجو الثاني ذبحاً، وهي نفس الطريقة التي قتل بها ابن عمه سرحان الثاني الذي كان قد تولى زعامة العشيرة قبله، لم يكن من نمط الحوادث التي يمكن نسيانها بسهولة. فقد أوجع نزعة الانتقام لدى الهفيركانيين أولاً، إلا أن الصراع من أجل الزعامة بدأ أيضاً من جهة أخرى. وكان كل المنافسين يعرفون أن من الطبيعي أن يتولى الزعامة الشخص الذي يثار لمقتل حاجو. وهكذا بدأت عملية مطاردة بلا هوادة لجمو وأفراد عائلته. إلا أن جمو، الذي يحظى بدعم من الدولة، جمع الكثير من عشائر المنطقة حوله وكان في ذروة قوته، ولم يكن من السهل أسره. استمرت المطاردة لسنوات وكان علي الشخص الأكثر إصراراً على الأخذ بثأر حاجو. ويقال أن بقية

سادا، ريشارد: الصراع

أغوات هفيران قالوا له «من أنت حتى تقتل آغا مثل جمو؟ أنت مجرد راع»، كما كانوا يستهزئون به خفية. وكان علي يجيبهم «صحيح أنا الآن راعي قطعاني، ولكني كنت آغا الرعاة أيضاً، والآن سأقتل جمو وأصبح آغا عليكم جميعاً» والحق أنه فعل ما قاله وأخذ بثأر حاجو بشكل أكثر مأساوية وقسوة. (ص 76).

وهي إجابة دقيقة، ومعبرة عن فطنة وسرعة البدهة، وربما عن استطلاة وعي مستقبلية.

هنا، نفسياً، يتراءى لنا تماسك شخصيته، اعتداده بنفسه، ملائمة شاربيه لمن يفصح به عن نفسه!

وقبل التطرق إليه، في هذا الكتاب، وقد تطرقت إلى التفاصيل، في كتابي السابق، لا بد من مكاشفة أخرى، إضافة إلى ما سبق وأن أثرته حول هذه الانعطافة التاريخية، بغية تقريب الحدث في أبعاده المركب من الأذهان، كما أعتقد، حيث إن جبو الذي أورد الواقعة المنقولة إليه، ومن ثم الحدث العملي، برواية منقولة إليه كذلك، كان راوية بدوره، وهذا ما يجب علينا المضي بالقول إلى ما وراء القول ذي الطابع الحكائي، ليكون للتاريخ طعمه الثقافي، ولو أنه طعم حريف، مر المذاق!

كما رأينا سابقاً، من المؤكد أن الحديث نفسه حين يتطرق إلى أي كان، وكيف قضى عليه ذبحاً، يثير مخاوف كثيرة، جرّاء طريقة القضاء عليه. إنه ليس مجرد قتل، وإنما إرسال رسالة إلى المعنّين بأمره، وإهانة لجماعة المقتول بقسوة هنا.

وفي هذا النطاق الملتهب، علينا أن نتخيل مدى الاستعدادات التي تتم جهة كيفية الانتقام، وجهة المجابهة، أي من قام بفعل مستفز كهذا، وما أعقبه من استعراض استفزازي كذلك، وفي وضع النهار، أمام أهليه. الأدرينالين مرتفع جداً هنا !

يعني ذلك أنه في مجتمع يلتقي فيه النشاط الزراعي بالرعوي، تتخذ الذكرة الجماعية سمة الأرشييف المحمول، وربما من قبل حفظة وقائع أو أحداث لها تأثير معين في سلوكيات هذا المجتمع، وتحديدًا، حين تكون الذاكرة المعتمدة عملياً في مقام «اللوحة المحفوظة» حيث إن كل ما يخرج منه يعطى ذلك الاعتبار الذي يشكل الدليل الحيوي والمصيري للجماعة، والتي تراهن على الشفاهة، أو تكون الشفاهة هي الحارس اليقظ على ما يجري: ذاكرة حسابية، رياضية، حكاية، شعرية، موسيقية، ومجالسية... الخ، إنها ملتقى/ سجل المجتمع، وهو السجل الذي يرتّب الوقائع والأحداث تبعاً لمكانة كل منها.

بمعنى آخر، في الرعوي، هناك ما يتحرك، جرّاء الاستدعاء والتكرار لأحداث مفصلية، بغية تثبيتها أكثر، كمفهوم المترحل من مكان إلى آخر، والريفي «الزراعي»، يثبت المعلومة أكثر، لأن الاستقرار، وإن اعتمد على ما هو شفاهي، سوى أن هناك تقابلاً بين المزروع أرضياً، والمغروس شفاهياً، وكيف تتم «سقاية» الاثنين بالحرص والحماية والتشذيب وظيفياً.

وفي مثال حاجو الثاني، يبدو أن الذاكرة هذه تتلبس بالحداد الذي لا ينفك ييثر سخونة داخلية، تعبيراً عن أن السيستام المجتمع قد أصيب بأعطال كثيرة، بما أن المغدور يقع في واجهة الذاكرة تلك، وهو ما يبقى الجميع مستغربين.

واللافت أن مشهد الذبح، يبدو معتاداً، إلى حد ما، كما في الاقتباس، وفي اتحاد هفيران بالذات، وهو ما يشدد على النص المقدّم، وسبر قاعه، لاكتناه هذا المشهد المتكرر، والذي يدفع بنا إلى أن هناك تاريخاً طويلاً ربما، لمشهد من هذا النوع، وهو يتناسل أو يتكاثر، يستحيل في ضوء المعطيات التي بين أيدينا الوقوف على بداية ما له، إلا أن الذي يمارس تسخيناً للمشهد متخلياً، هو ما إذا كان له في النطاق الهفيريكاني خصوصية معينة، ما إذا كان الهفيريكانيون، حيث حديث الذبح يتكرر، ولو في عدة حالات، للمضي بنا إلى توقع حالات مشابهة ماضياً، وأبعد من ذلك، ما إذا كان مشهد كهذا، يحيل هفيران كاتحاد إلى مساءلة تستنطق المغيب، نوعاً من الشعائرية ذات العرافة في التاريخ البشري.

أكثر من ذلك، ما إذا كان الذبح يمثل في جوهره المريع شاهد عيان على عنف استثنائي، أو عقابي بالتناوب، وما إذا كان هذا المشهد يفجر ذاكرة منجرحة بما كان، في سيروية عنف نوعي، يبقى هفيران على أشد ما يكون من التنبه، رغم أن ليس في العمران الاجتماعي لهفيران، وكاتحاد، ما يشير إلى مثل هذا العنف الداخل إليه أو الخارج منه. لأن هذا العمران الذي يتشكل من بناء طوابقي ذي قاعدة متينة، إذ يتواجد المسلمون، المسيحيون والإيزيديون، وهو ما يسمح بالانفتاح الطوابقي، والدخول في علاقات مفتوحة، أي حيث تكون المرونة هي الميزة الكبرى لعلاقة من هذا النوع.

ورغم ذلك فإن في المذبح ما يبقى الذاكرة تهبّ المخاوف والهواجس، وهي تنزف تاريخاً من التصادمات والمآسي.

لدينا قاعدة عريضة من العلاقات الاجتماعية بالنسبة إلى هذه المكونات، وهي تسمح بمثل هذا الانفتاح، إلا أن هذه القاعدة العريضة والتي تمتد على مساحات واسعة، لا يجب أن تتسببنا نقطة مهمة جداً، وهي قابلية الخرق لبيانات القاعدة هذه، أي طبيعة العلاقات الاجتماعية، ومن هم الذين يمثلون مواقع القوة المنتشرة فيها، وكما هو الفيروس «الكوروني»، يتم البحث عن الجسم الأكثر تكيفاً مع «الغزو الفيروسي» ومن ثم التوغل إلى الداخل واستعمارها، وبالتالي نقل العدوى إلى الآخرين ليتم تشكيل حزام قوة جانبي، أو ضمنى لجماعة مقطوعة، من خلال من يطرح نفسه منافساً بطريقة ما لزعيم الاتحاد .

هذه المرونة «الاتحادية» ربما لا يُستبعد أنها تستحضر نمطاً من العنف الموازي للمرونة تلك، وحتى ابتداء طرائق لافقة من نوع، في الانتقام من المخالف، أو حتى من الهرم الأعلى، لأن هناك حالات مشابهة وقعت سالفاً .

العنف هنا، يرتبط بنوعية المنافسات ومآلاتها . إذ كلما ازداد التمسك بما هو قاعدي بالنسبة للاتحاد، كلما برز هناك، كما هو معلوم، انفصال والتحاق بالخارج، عبر علاقة طردية: توجه يزداد صرامة من هذه الجهة، توجه يزداد حزمًا من الجهة الأخرى، والقوى الداخلة في العنفين المتشابهين، كما في حال عليكي بطي وغريمه التاريخي «الدموي» جمو الذي عبّر مسلكياً عن استعدادة للمواجهة . ولا بد أنه على كان بيّنة تاماً من التربص به، ولهذا، وعلى قدر تسقطه للأخبار وكل ما صلة بهذا الجانب، يزداد يقظة، ومن ثم التحاماً بالدولة العثمانية، إلى جانب المتحالفين معه، من أبناء العشائر أو القبائل الأخرى، وأن المسافة بينهما، مميتة، وخطرة، بما أن كل طرف يريد إلحاق الأذى بالآخر، مع فارق، أن جمو في مسعاه، يفعل ذلك من باب التخوف مما يجري، كما لو أن الحيطة والحذر، ومن ثم التلويح بالقوة الضاربة، سلوك سياسي عملي، بغية تنبيه الآخر «طرف المغدور» بلزوم الكف عن ملاحقته، أو التفكير في أي عملية إغارة عليه، أو مسه بسوء، ووضع الطرف المقابل يكون مختلفاً تماماً، طالما أنه يعيش آلام قتلهم المغدور، وهذا يزيد في توتيرهم وحماهم، والسعي، عملياً، إلى الانتقام، هو أكثر من كونه تحقيق التعامل، إنما الارتقاء بالاسم المكتوب إلى سابق عهده، أن زعيماً من جديد .

تلك إحالات مرجعية لا بد أن التاريخ يصادق عليها، على من صعيد، ومن خلال نص لا يخفي حراكاً داخلياً هائلاً .

في هذا المجال أكثر من ذي قبل، تبقى شخصية عليك غاية في الحيرة والمثيرة للقلق، ومن ثم التساؤلات، حيث إن قبيلته لم تعبأ به، أو تعيره الاهتمام الذي ينبغي، كما يلاحظ بدايةً، أي لم تعط له اعتباراً وهو يتوعد بالانتقام، حتى وهو يعرف بنفسه، ومن سيكون موقعاً فيما بعد .

وإذ أقف عند هذه النقطة، أشير إلى المكابدة النوعية جهة المصادر المباشرة «المكتوبة» تلك التي تقدّم ما يضمن تقديم بحث حريّ، من التاريخ إلى التاريخ، وفيه ما هو جديد طبعاً، ولهذا، يكون الاعتماد على ما هو شفاهي من باب الضرورة القصوى، رغم أن ليس من عبارة «تفوّت» دون محاولة النظر فيها بعين الناقد التاريخ وبصيرة المؤرخ.

إذ تبعاً لما يقوله أحد المعنيين بهذا الخصوص، وهو يقابل بين المصادر الشفاهية وتلك المكتوبة ونوع كل منها، ونقاط التلاقي والافتراق فيما بينهما، فإن:

(المصادر الشفاهية صالحة بشكل خاص في الفترات الأخيرة. نقوم بجمعها عن طريق إجراء مقابلات مع الأشخاص باستخدام استبيان قابل للتكيف. الذكريات الشخصية مهمة ولكنها هشة، مهددة قبل الموت في الذاكرة البشرية حيث يتم تخزينها، طوعية أو عن غير قصد، أو تغييرها باستمرار. إن وضعها في حد ذاته فريد: أليست الذاكرة صورة للماضي، نتذكرها في الحاضر؟ عادة ما تكون الشهادة الشفوية التي يمكن الاعتماد عليها بشكل معتدل في إثبات الحقائق لا يعلى عليها لإعادة خلق جو أو لإلقاء الضوء على الأفعال الدنيوية التي لم يفكر أحد في كتابتها. تقتصر على حياة الشهود، ومع ذلك قد تتضمن ذكريات الناس صوراً أقدم.

المصادر المكتوبة هي الغذاء الرئيس للمؤرخ. فهي لا تعد ولا تحصى وتتطلب لكل نوع نهجاً مستهدفاً. الأكثر استخداماً هي المحفوظات، التي يصعب وصفها في فقرة. بالمعنى الدقيق للكلمة، هذه وثائق صادرة عن شخص - طبعي أو قانوني - تم الاعتراف بسلطته علناً، مثل الأفعال التي تم تمريرها أمام كاتب العدل أو المحامي، القوانين التي تم تمريرها في البرلمانات، المراسيم الملكية، أعمال (الخدمات الإدارية للسلطة المشكلة)، وسجلات الرعية المعمودية، والزواج أو الموت، تحت مسؤولية كاهن الرعية، ووثائق المحكمة، إلخ. هناك أيضاً تقارير عن خدمات الدولة أو الخدمات الحكومية والحسابات والوثائق الصادرة عن الشركات والبنوك والجمعيات بجميع أنواعها وحتى المراسلات التجارية بين المؤسسات. أو الأفراد... إلخ. بالمعنى الواسع

للغاية، فإن الأرشيف يعين في الواقع أي مجموعة من الوثائق المكتوبة التي تم جمعها بهدف الحفاظ عليها، على المدى الطويل تقريباً... الخ⁽¹⁾.

كأنني في ضوء ذلك أصغى إلى عليكي بطى ومن حوله، وهم يتناقشون، ويتحاورون، ومن ثم يجري جدال فيما بينهم، حتى لو كان المقروء مكتوباً، من خلال طبيعة مجتمعهم الهفيركان، والذي لا يخفى تعلّقه بمأثرة اللسان، ولن يعود موقعه الاعتباري، وتمثيله أكثر من غيره.

ذلك ما يمكن النظر فيه، وهو بوفرته وكثافته، وتنوعه، وغزارة المدوّن في هذا المضمار، وفي بلاد قطعت أشواطاً بعيدة، ليس في نطاق المكتوب، والاقتصار عليه فحسب، وإنما جعل المكتوب نفسه ثرياً، من خلال تعميق محتواه، عبر قائمة كبرى من المناهج البحثية وطرق الوصول إلى الحقيقة التي تتوارى داخل هذا النص أو لا، وما لدينا، في منحى التاريخ الكردي، يظل بحاجة إلى المزيد من اتقان لغة قراءة التاريخ، وليس الكتابة في حقه، كما هي اتجاهاته الأكثر حداثة، حيث الكتابة انفجرت مدارس ومناهج واتجاهات، وكردياً، ماتزال الشفاهة تمارس سلطتها، كما لو أنها تقول: لن يحدث طلاق وتتحّى، طالما الكتابة باسم لم تتفعل كما يجب.

ولهذا، أجدني ضاعطاً على نفسي، وأنا أتابع ما هو متيسر لدي، وربما بنوع من القسوة أحياناً، سعياً إلى الأكثر توافقاً مع منطق التاريخ، حيث أشير إلى من يروي الواقعة، من يصف له الحدث، أو يقدم عنه تقريراً، هذا من شأنه القول بأن العمر الذي يشكل بطاقة تعريف فيزيكية للجسد، له دور في الحراك الاجتماعي للمجتمع العرقي أو القائم على التقاليد كثيراً. طبعاً، لا ننسى أن عليكي بطي، ينتمي إلى عائلة معروفة: زعاماتية، وهذا يزكيه لأن يلفت الأنظار وأن يأخذ له موقعاً وسط الآخرين، أما أن ينتقم، وهو في ذلك العمر، فهذا يتطلب، عمراً أكثر نضجاً، ولهذا يصدق وعده، بخلاف توقعات الآخرين، ولا بد أيضاً، أن هذا السياق ذي الطابع الحكائي، مرتبط منذ البداية، إثر النهاية بتلك الانشغالات الحيّة به «بعلي» بالذات، أي ما إذا كان هذا الذي تردد آنفاً، يسبق عملية الأخذ بالثأر أم لا، والتقدير تشير إلى المرحلة اللاحقة على هذه العملية، وهو ما يستأهل النظر فيه، أو توقع حدوثه، حيث القتل بالمثل له

(1) Bonnechere, Pierre: Les sources de l'histoire, books.openedition.org

صدى مدوّ في الجوار، لأنه لا ينفصل عُرفياً عنه، ومن خلال التصميم الذي برز به في التأثير علي، وكيف شكّل ذلك مفاجأة لم تكن متوقعة تماماً في هذا العمر.

ولعلم من يريد أن يعلم، أو يحاول التفكير في محتواه تاريخياً، فإن الكتابة في رجل لم يستقر، ولم تستقر به أرضه، أي عليكي بطي، ليست بالأمر اليسير، إنها هي ذاتها تحتاج إلى نوع من التوازي مع حركته، ليعرّف أكثر.

إن تناول بعض أهم الروايات المتوفرة لدينا عن هذا المشهد الانتقامي، يعطينا صورة عميقة عن أسلوب الرواية، وخلفيتها بالمقابل، إلى جانب طبيعة السارد بالذات، حيث إنه لا ينفصل وجدانياً، عمن يتكلم، أو يقول روايته، وما في السرد الروائي من مسحة جلية من لغة الحكاية، كما سنرى.

رواية جكرخوين

إن أول ما يمكننا طرحه هو عن طريقة السرد الروائية لدى جكرخوين الهساري «وهو ما يؤخذ في الاعتبار التاريخي، والعلاقات القبائلية»، وهو الذي يمثل ذاكرة حية، مهما كان موقفنا من بنية هذه الذاكرة، حيث عاصر أحداثاً، وتفاعل معها، ووجد نفسه إلى جانب كونه شاعراً، ناثراً، ومأخوذاً بغواية الرواية ذات الصلة بعالم الحكايات التي كانت قائمة، ولا زالت تحتفظ بشغفها في نفوس نسبة ملحوظة من الكرد، والتي تدل في الجانب المقابل، على ثقافة الشفاهية، رغم وجود نسبة لافتة من أهل الكتابة والثقافة الجامعية، أي حيث تمارس الخلفيات العشائرية والقبلية، وهي مستحدثة بعائدها التحزبي، دورها الاعتباري في تقويم التاريخ وأحداثه.

تُرى، كيف هي رواية جكرخوين في مصدره المذكور عنه؟ هناك ما يشدنا إلى سماع صوته عبر كتابته السيرية:

إن رواية جكرخوين تسلك مسلكاً آخر، أي خلاف الروايات الأخرى كما رأينا سابقاً، وكما أنها في بنية تشكلها تثير ظنوناً أكثر في الوقت نفسه، حول كيفية نسجها وتدوينها، وما يكونه الشاعر في تعامل مع هذا الاسم «هفيركان» وهو يشير إلى أن الهفيركيين كانوا ينتظرون فرصة الأخذ بالثار من قاتل رئيسهم (وفي أحد الأيام وقف علي ابن بطّة أو علي بطّة- أحد أبناء عمومة حاجو- مع بعض الرجال في طريق جمو وقتلوه وابنه حسين وأخذ بثأر عمه.

يقولون: قال علي وهو فوق جسد جمو:

أنا فرخ البط يا جمو، وأقتلك وهذا تأر لحاجو!
لكن جمو قال له: لقد هرمتُ ولا أصير تأر حاجو، لكن إن كنتم قتلتم ابني حسيناً
أيضاً، فقد أخذتم بتأر حاجو.

قال علي له: افتح عينيك لترى جثة ابنك أيضاً وليطمئن قلبك.
أغمض جمو عينيه وقال: إذاً أخذت بتأر عمك، وصحيح أنك فرخ الخروف،
لكنك لست- واللّه- ابن الكبش، فوالدك ليس جديراً بأن يكون كبشاً.
«وفيما بعد يشير جكرخوين إلى معتمر العمامة «والخضرة مقدسة»، ويستجيب
له: وعم الخير البلاد وهو أن علي بطة أخذ بتأر حاجو، ومنذ ذلك اليوم اشتهر علي.
ص 49 - النص الكردي، ص 40).

هذا النص، فيه الكثير من الحركة المشبعة بالإثارة، ويمكن لكل ذي خيال محلّق أن
يمضي إلى الطبيعة التي شهدت مثل هذه الواقعة، كمشهد سينمائي أخذ، بغضّ
النظر، عن محتواه القيمية، وفي بيئة تلعب دوراً كبيراً جداً، في تلوين المشاعر ومنحها
حضوراً وديمومة، حيث الجبل والسهل، الوادي، والقمة، الصخور الناتئة والشجر،
والينابيع... الخ⁽¹⁾، كل ذلك يشكّل أكثر من كونه استوديو طبيعياً، والذين يتحركون فيه،
يشاهدون بعفويتهم، وطبيعتهم وثقافتهم المتوارثة كثيراً:

القارئ المهتم بنصوص كهذه، سوف يقرأ كل عبارة لصق الأخرى، وهو يتحرى
طريقة التتابع فيما بينها، وتخيل من يكون صاحب الصوت الأول في بناء نص
حكائي، ومرفق بما هو تاريخي، وموقعه من المشهد الحي:

أولاً، لا ندري من كان في مكان الحدث، لينقل إلينا رواية كهذه، أو يروي عما
عاينه بأم عينه، وهو بسلامة حواسه، وهو متميز بتلك المعرفة التي تتطلبها رواية

(1) عندما أشير إلى جانب مما هو طبيعي جغرافياً في المنطقة «آمد: ديار بكر» وما يحيط بها، أو
من «نصيبين» إلى «آمد» مروراً بماردين، حيث تشاهد القرى المتناثرة على جانبي الطريق،
إلى جانب البلدات، تشاهد السهول الممتدة أمام مد النظر، الرحبة والصغيرة، وذات
الهضبات والأكمات، إلى جانب قمم الجبال، ومن ثم نهر جلة، والينابيع، وغيرها من المشاهد
الطبيعية الحية، والتي تعطي فكرة موجزة عن الكثير من الأماكن الأثرية، وأصوات الذين
كانوا هناك ذات يوم، أقول: عندما أشير إلى ذلك، فمن موقع المشاهد لما رأيت بالعين
المجردة، في زيارة ثقافية لي، إلى آمد، سنة 2007.

التاريخ، ومن ثم كتابتها، تُرى، هل كان لألسنة الناس واختلاف لهجاتها الاجتماعية دور في هذا الذي نسمع به ونقرأه؟ هل يُعقل أن بطي هو من يمكنه أن ينشر بين الناس رواية كهذه؟ أي نص حوار ساخن، استفزازي كالذي تقدم؟ وأي عبرة في مجابهة مميتة في النهاية، وبطي كان متحمساً لقتل قاتل عمه؟

وبالتوافق مع ما تقدم، ماذا عن رؤية لابس الأخضر الموصوف في المكان؟ وهو ذو معنى ديني، وربما استلهامي، أو يترجم إحدى طرائق الاعتقاد الشعبية بما هو ديني، وما يعكس الكامن في النفوس وقتذاك. هل أفصح بإدخال هذا المشهد الفرعي الآخر عن خلفية خيرة لبطي، لتكون نهاية جمو وولديه كما علمنا بها سابقاً؟

صراحة، تستوقفنا القراءة، جهة المؤثر الرئيس فيها، وكيف ظهر إلى السطح أكثر من غيره، إلى جانب وجود أكثر من حافز يشدد على وجوب المسائلة أو الاستفهام، إلى جانب بروز حاجة إلى عدم ترك أي مشهد كهذا أن يثبت أو يأخذ موقعه في سياق النص دون تمحيصه أو استنطاقه من خلال مجموعة من المقاربات النقدية، أو التروي والتدقيق.

في رواية جكرخوين، وحتى الآن، يظهر جمو، في موقع المستهزئ بمصيره، وهو يشير إلى أن الذي يحدث لن يغير في بنية ما قام به، وهو أنه ذبح حاجو الثاني، إلى جانب أنه كان متمالكاً نفسه من الداخل، ويستفز بطي، ودون أن ننسى أن بطي نفسه في موقع الضعيف أو المهزوم، وهو يشدد على هذه العلاقة ذات المآثرة التاريخية «العائلية» في المتن.

تُرى هل كان جكرخوين يتوارى بصوته النفسي وراء هذه الرواية، وكونه راسماً موقفاً سلبياً من الآغوات والبكوات والباشوات... وضمناً آل حاجو؟ أي ما يدفع بالرواية لأن تكون رواية تاريخ موثقة، وليس من سقط المتاع، أي بما أن الرواية لا تستند إلى رواية باسمه، أو يمكن الاهتداء إليه، كما في «يقولون»، ولا ندري من هم هؤلاء، وأين كانوا حينها.

جكرخوين، يظل من حيث المكانة، يحتفظ ببصمة تاريخية، حيث حالة الندرة تحيلنا إليه، حتى ظهور الأكثر تاريخية، والأكثر انقسامية في رسم صورة الحقيقة المذاعة هنا.

ماذا نتلمس في رواية أخرى نقلها لنا جبو؟

(في يوم ما وصل إلى مسامع علي خبر خروج جمو إلى السفر بصحبة رجلين. فأخذ هو أيضاً رجلين معه ونصب له كميناً، وكان الرجلان اللذان أخذهما معه هما ابنا الإيزيديين اللذين قُتلا مع حاجو. وعندما اقترب جمو وصاحبيه «صاحباه» خرج له علي من مكنه قاتلاً: «تهياً يا جمو» أو جيمو كما تردد «.. جئت لأخذ روحك». وقد فرّ الرجلان اللذين «اللذان» كانا بصحبة جمو بعد أن شاهدا علي أمامهما وتركوا جمو وابنه لوحدهما. وهكذا قبض علي على جمو وابنه حسين الذي كان شاباً يافعاً. وقد قتل حسين أولاً على مرأى من والده، ثم قتل جمو الذي كان العمر قد تقدّم به كثيراً، وكان ذلك في عام 1912. ويقال أنه بعد أن قبض عليهما جاء بهما إلى نفس المنطقة التي ذبح فيها حاجو، أي منطقة سيّدان. وكان غرضه ذبح جمو بنفس الطريقة، وفي نفس المكان الذي ذبح فيه حاجو. وعندما همّ بذبح الابن والأب، مر من هناك سيّد ذو لحية ويرتدي عمامة خضراء وقال له: «اقتل الاثنين، واكتفي بأخذ الثأر، وما يزيد عن ذلك لا يليق بك»، فتخلّى علي عن فكرة ذبحهما واكتفى بقص أذنيهما من رأسهما. ص 77).

في القراءة الأولى، ومن خلال ما تعرفنا إليه في اقتباس جكرخوين، يظهر جلياً أنه فردّ ظله على نص جبو، لكنه، على خلفية من الفارق الزمني بينهما، يكون جكرخوين متراجعاً إلى الوراء، بما أنه جاء من بعده، حيث إن فضيلة المعرفة التاريخية الزائدة تعود إلى الفارق ذاك، وبما أن جبو تابع معلومات ذات صلة بموضوعه، وقد وجدت طريقها إلى السنة امتلكت القدرة على إطلاقها بعد أن أمنت على نفسها، وقد انصرم زمن طويل نسبياً على الواقعة المؤلمة في الحالتين طبعاً، بمقدار ما أن أهمية الواقعة تفرض نفسها لأن يشار إليها، أو تنتقل إلى أكثر من لغة، نظراً لندرة ما جرى، وليكون لهذا المروي مساره وحلوله في أرشيف تاريخي ما.

وماذا عن دخيلة بطي، ماذا عن تلك المشاعر والأحاسيس التي لا بد من التنويه إليها في وضع صعب ومتوتر كهذا؟ كيف كان يفكر وهو يجد عدوه اللدود بين يديه، وأمام ناظره صورة عمه مذبحاً، ومعه صورة صاحبيه الإيزيديين؟ كما لو أن بطي المنتقم هنا، ولعله هكذا، لم يشأ في العمق أن يجاري خصمه اللدود/ عدوه، ولا أن يتنازل إلى مستواه، أو أن يتدعم بآخرين غير مرغوب فيهم، بالنسبة إلى أعداء الكرد من العثمانيين قبل كل شيء، سوى أن فعله أريد منه أن يكون شهادة مادية على أنه انتقم لعمه، كما وعد أهله، أي بصفته رجل اقتدار وشهامة معاً.

سوى أن الذي يراد التنويه إليه هو أن قص الأذنين، يعني ترك وشم محفور في

الجسم يشهد على استمرارية فعل الموت المنزل به ما بقي حياً هو وابنه، قص الأذن أو صلماً، هو عبارة عن تشهير مرئي ودال على هزيمة نكراء.

بهذا الصدد، نجد أنه في حالات الكيدية، والرغبة في إيلاء الآخر وإهانته، يجري التركيز على جدع الأنف، لأنه يتوسط الوجه، عدا عن وظيفته الجمالية والحيوية كذلك، حيث إن تشويه الواجهة رسالة محمولة، وقابلة للرؤية، إلى جانب قصور الأنف عن القيام بوظيفته، والأذى الذي يسببه لصاحبه وسط الآخرين، وفي حالات المرض «الزكان مثلاً» أما بالنسبة إلى صلماً الأنف، فهو رسالة من نوع آخر للعالم، حيث لا يعود قادراً على السماع، وما في ذلك أيضاً من تشويه جانبي الرأس، خصوصاً حين يكون بين آخرين، وما يتطلب هذا المستجد من دوام تغطية الأذنين، لئلا تؤذيانه أكثر..

وفي هذا السياق، ما يعرف عن أن صدام حسين في حربه مع إيران «حرب الثماني سنوات 1980-1988» كان يأمر بصلماً آذان المتخلفين عن الالتحاق بالجيش، عقوبة رادعة لهم، أو تهديداً لمن تسوّل له التخلف عن اللحاق بالجيش ذاك.

وفي العودة إلى جبو، جهة تعليق أورده في كتابه، يلفت نظر قارئه، ويغمّه، ويقلقه في أن كذلك، إن أراد المقارنة بين سلسلة الوقائع التاريخية والمأسوية الكردية، وكيف أن «الخسران المبين» من حصة معظم الكرد، فنقرأ ما يتطلب توقفاً ومكاشفة قيمة تاريخية هذه المرة (ومن اللافت للنظر أنه بينما كان الكرد في هذه المنطقة مشغولين بقطع رأس وقص أذن، أحدهما الآخر، كان الباشوات العثمانيون منهمكين في الوقت نفسه بقطع الرؤوس وقطع آذان الكرد العصاة، في منطقة أخرى من كردستان. ص78).

ما الذي أراد قوله من خلال هذا القول؟ أو ما الذي يُستشف مما قاله ؟ يمكن للقول أن يفجر دلالات تترى، منها ما يخص أسلوب السخرية مما كان يجري، ومنها ما يعبر عن التأسف، ومنها ما يعبر عن الطعن فيما جرى.

تلك مفارقة تضع التاريخ الكردي في مفترق طرق تواريخ الآخرين، وكيف يفكر الكرد في بعضهم بعضاً، كيف يهيئون أنفسهم للتفكير في ساعات الشدة، وتبعاً لأي مقياس عقلي/ منطقي، ويديرون دفة التاريخ، وربطة سبطانة «مدفعه» وهي بهول المودع فيها إلى بعضهم بعضاً، ويتباهون بالمحقق جرأ الإصابات المباشرة وحتى تهليل الأعداء لهم.

أقولها مفارقة، لكنها مرة بالمقابل، إذ ليس تعبيراً عن أي حماس إزاء مجابهة كهذه، ولكن ثمة عدوى عامة، ربما يضطر من لا يريد اعتماد مسلك كهذا، إلا من باب الاضطرار، وهو المسلك الذي ربما نجد تأييداً له، أي للضرورة القصوى، في اتحاد قبلي يضم مكونات دينية واجتماعية مختلفة، لا بد أنها احتاجت إلى مرونة كافية لتتمكن من الاستمرار.

هذا يمضي بنا مجدداً إلى إثارة نقطة فاعلة فيما تقدم، أي بخصوص الذاكرة، وكيف يجري تداولها، يجري العمل استناداً إلى الثقافة التي تحمله. الذاكرة التي لا تقال هكذا دون دفع ما يشبه «الرسوم الجمركية» بعد فحص البضاعة كذلك، إذ ليس كل ذاكرة بقادرة على الانتساب إلى الفضاء الأرشيفي الأوسع للتاريخ، وليس كل ذاكرة بأهل لأن تمارس دوراً مشابهاً للتاريخ، كما هو حال القرنين نسبياً، حيث إن عوادي الزمن، أو متغيرات الزمان والمكان، ومؤثراتها في بنية العضوية لا تغفل هنا إطلاقاً، إنما يصار إلى مساءلتها، للتأكد فيما إذا كانت في وضعية سليمة أم لا، إلى جانب موقع الشخص ذاته، وما يعتقده تجاه موضوعه، وكيف يجري تسجيل المعلومة الملتقطة في «قرطاس» ذاكرته.

في بحث أثير، يتطرق المفكر اللبناني جورج قرم إلى مثل هذه العلاقة بين التاريخ والذاكرة، ويحذر من تقلبات الذاكرة، حيث (إن التاريخ والذاكرة هما في تفاعل مستمر. لكن المفارقة قد تكون الذاكرة العدو للذود للمعرفة التاريخية، فتسبب إفقارها). ويسترسل قائلاً، للمزيد من التوضيح (في الواقع، يتشكل التاريخ من تطوير وبناء التدفق المستمر للمعارف عن الماضي، تدفق يتجدد بشكل دائم ويعاد تأويله تبعاً للوثائق والمعلومات المكتشفة حديثاً، وكذلك تبعاً لتطورات الحاضر واهتماماته. بالمقابل، فالذاكرة مخزون يتألف من غرين لازب يُنتجه تدفق ذكريات الحوادث التاريخية القديمة دون الاكتراث لدقة هذه الحوادث ودرجة تعقيدها)⁽¹⁾.

فأي جنسية لهذه الذاكرة التي توقفنا عندها حتى الآن؟ من ناحية معدنها، ومدى قدرتها على صون المعلومة، وما إذا كانت في نقلها دقيقة، أو تستحق الثقة ومن ثم تشيبتها بوصفها معلومة من صلب التاريخ!

(1) قروم، د. جورج: نحو مقارنة دنيوية للنزاعات في الشرق الأوسط «تحليل ظاهرة توظيف الدين في السياسة الدولية»، ترجمة: د. سلام دياب، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2014، ص 185.

وفي العودة إلى العلاقة بين التاريخ والذاكرة، يمكن القول، أن هذه العلاقة ليست مستقرة، إلى جانب أنها تتفاوت قيمة وأهمية ونوعية كذلك من مكان إلى آخر. حيث إن الذاكرة تمارس الدور السيادي والإشرافي وكذلك التقويمي على المعتبر تاريخاً، في المجتمعات التي تكون فيها أجسادها محفوظات الذاكرة، في الوشوم، أو في وجود مجموعة معينة من المعنيين بواجبات الذاكرة بالذات، وهم حراس عليها في الوقت نفسه، أما التاريخ، فكثيراً ما يلقي عنثاً، ويعاني مشاكل إجرائية، وعملية اعتراف بحقيقة ما يمثله في المجتمعات التي لم تمتثل لتلك القواعد المعيارية ذات الطابع المؤسساتي العميق، حيث الذاكرة تتراجع إلى الخلف، وهذا ما يمكن لنا أن ننظر فيه جهة هذه العلاقة، وكيف أن الذاكرة تتفعل هنا وهناك أكثر من التاريخ، لوجود تلك الأنظمة المعرفية العائدة إلى الشفاهة، فيشار إلى التاريخ مع قليل من الاعتبار والأهمية..

ويحق لنا إزاء هذا التنويه، أن نتحدث عن «جغرافية الذاكرة» عن معالمها البيئية والمناخية، وما يتعرض فيها للحت أو التعرية على وقع مؤثرات، أو صدمات، أو «انهيارات» عقدية من قلب التوجهات الإيديولوجية: الحزبية وغيرها، وما يجري عطبه ذاتياً، لأسباب لها صلة بطبيعة الذاكرة العضوية، وما إذا كان في مقدور المعرف بها، يعيش مستجدات ما حوله، وما يتعرض له هو نفسه من تأثيرات أو ضغوط، أن يحافظ على صفاء الذاكرة: مناخاً، فضاء وترية، ما إذا كان يمكنه أن يحمي ذاكرته تلك، من رياح عاصفة وأغبرة على وقع التقلبات النفسية، وضغوطات العمر والمجتمع، إلى جانب غوايات اللحظة غير المحتسبة من الداخل، والأهواء الطارئة، وانفجار مكبوت ما في ظرف معين، كفيل بأن يقلب ظهر المجن أحياناً، فلا يعود في الإمكان إجراء عملية اللحمة بين حلقات الفكرة الواحدة.

وبالنسبة لما تحدثنا فيه حتى الآن، لا يبدو على جبو، وقبله جكرخوين أنهما يحافظان على مسافة ثابتة من نقاط ما يبحثنا فيه، أو يتحدثان عنه، بمقدار ما نشهد أكثر من ثغرات ذات تماس مباشر بإشكالية صنعة كتابة التاريخ، أي ما يفتقر إليه النظر البحثي التاريخي إلى سعة الأفق في الكتابة، وعدم الإغفال عما يكتب، وما كتب سابقاً، تجنباً للتناقض، ولكم يتضمن كتاب جبو «وأنا لا أتحدث عن كتاب جكرخوين السيّري، بوصفه كتاباً دون كتاب يستحق الذكر بالمفهوم التاريخي النصي والمعتبر» تلك التناقضات، حين يعزز مكانة، مثلاً، حاجو الثاني، أو عليكي بطي، في

موضع معين، ويقول خلاف ذلك في موضع آخر، وهو من حيث الإجراء إخفاق القدرة على الوصل والتآلف بين مكونات الكتاب.

ربما لأن ذلك من بقايا أو آثاريات الذاكرة الفاعلة في مجتمع كل منهما، أو رواستها المؤثرة سلباً في أصل الكتابة.

وإذا كان لي أن أقول شيئاً آخر في هذه النقطة، فهو ضعف التمييز بين ما هو تاريخي، وما هو انطباعي لحظة المقارنة بين مشهد وآخر، وكيف إدخال المؤثرات الذاتية في تسيير خطاب النص الموضوع، وتبعاته المؤذية لمتن الكتاب.

عليكي بطي وصعوده النجمي

بعد واقعة عليكي بطي وانتقامه لعمه من عدوه، يجري تغيير جذري في مجتمع هفيركان، ويظهر أنه تغيير يمهد لعودة هفيركان إلى سابق عهدها من البروز والهيبة، لحظة المقارنة بين قوة عليكي بطي المحدودة، وتلك الحراسة التي أحاط بها جمو نفسه، ربما لأنه تتاسى ما يمكن أن يحصل، أو استخف بقوة الآخر، وهي في إرادته، وليس من الخارج، وفي مثل هذا الوضع، تتطلب الحالة درجة عليا من اليقظة والحذر (ألقى علي بطي أذني جمو وابنه أمام أفراد العشيرة وقادتها دليلاً على أخذه بالثأر. وقد انفجر هذا الخبر مثل القنبلة. وفي حين كان أحد طرفي المنطقة يعيش أفراح العيد، كان الطرف الآخر يلفه الحزن والحداد. ولا شك أن مكافأة الأذان التي قصها لم تكن بضعة قروش، بل ملحمة أسطورية تجري على الألسن، فقد أسر بعمله هذا قلوب أفراد العشيرة. وعلاوة على ذلك صار هو الآن أكبر أغوات هفيركان... السلطان الحقيقي لهفيركان. وقد كتب ضابط الاستخبارات الانكليزي المقدم نوثيل أن شخصية علي بطي تشبه شخصية روبن هود إلى حد كبير.

لقد كان بطلاً أسطورياً للعشيرة، وأن قتله لجمو انتقاماً لعمه حاجو الثاني كان في عام 1912. ص 78).

من الواضح أن الذي تحقق على يدي عليكي بطي كان، في ضوء ما كان يتردد عن قوة الخصم، أقرب إلى المعجزة. إنما مفهوم المعجزة، بالصيغة الدنيوية، في بعض الحالات، يشكو دائماً من خلل ما، لحظة الكشف الدقيق عنها، أو من ثغرة ربما لا أحد يكتشفها إلا من أوتي بُعد نظر، وجراءة في الرصد والترقب، ولا بد أن الأوصاف التي منحت لعلكي بطي تجاوزت مع تلك القدرات التي امتلكها في داخله، ثم أصبحت حقيقة ملموسة على الأرض، أي عيانية.

بين من يقول: سأحاول، وربما لا يستطيع المحاولة، أو يفشل أو يتراجع قبل الإقدام عليها، وقد يفشل أو ينجح، والذي يقول: سأفعل، فرق كبير ونوعي، هو هذا الفارق الذي يجدر بنا قياسه، بين الذين استخفوا بقوله، وما كان هو عليه، وقد خطَّط بينه وبين نفسه، ومن هم قرييرون منه، لتتبع أثر عدوه، وكيفية الإيقاع به في المكان والزمان المناسبين.

لا بد أن عنصر الإقدام لا يُعطى أو يُوهَب لأي كان، فهو يبقى المتميز به في حالة يقظة دائمة، وأبعد ما يكون عن الخوف، وهو ما أوصله إلى ما كان يسعى عليه منذ سنوات.

كما أسلفت، يبدو أن عليكي بطي خريج مدرسة الطبيعة الكبرى، ولكي أمضي في بعض من مآثر سردياتها، أشير إلى البيئة المحيطة به، عدا عن اهتماماته بكل شاردة وواردة في وسطه الهفيريكاني والجوار، ومعرفته للغة العثمانية-التركية، أبلغ شاهد على أنه كان يمتلك واعية يقظى، وسرعة القابلية للتعلم. وفي الجانب الآخر، حيث النظر في الطبيعة، دروس متعددة، متنوعة، ومتفاوتة في إيقاعاتها، ومناخاتها الدلالية، بين كيفية صعود جبل، والتمسك بالحافة، أو دخول كهف محفور في الصخر، ومعاينة المنخفضات والمرتفعات المتماوجة فيها، إلى جانب الطبيعة الشجرية، والغابات، ومن ثم موارد الماء، وكذلك الكائنات الحية التي تنتشر على جنباتها، ولكل منها طبيعة خاصة، وفي كل ذلك ما يلفت النظر، وما يغذي الروح، ويعلمها بالمقابل، ولولا معرفته ذات الطابع الهندسي الذاتي بالطبيعة هناك، لما تكيف معها طويلاً.

وكما أشرت إلى الجانب الأسطوري في شخصه، سابقاً، سوف أوْجَل هذه الصورة الوارد أعلاه كذلك إلى حين الحديث عن ذلك، وكذلك ما يخص تشبيه الضابط الانكليزي نوئيل بأنه روبن هود، وهو موضوع آخر، سوف أحاول التوسع فيه، لأهميته في فصل خاص، وما يصل عليكي بطي به، وما يفصله عنه.

يبقى هنا، عدا الإثارة والحماس في نفوس الهفيريكيين، على وقع هذا الحدث العظيم وقتذاك، أو في تداعياته، يبقى أن أتوقف عند تأريخ الواقعة، وكيف يمكن إقامة علاقة ذات نسب تاريخي منطقي معها تماماً.

فهذا التحديد الزمني «1912» له مدلوله، بالنسبة لجملة الأحداث المؤرخة لعلليكي بطي.

إذ يعني ذلك أن عمره كان وقتذاك في حدود «30» سنة، وهو عمر متقدم، مقارنة بما أُشيرَ إليه، وهو في وسط هفيركان، حيث كان مبعثاً للسخرية، كما رأينا سابقاً، وهو ما توقفتُ عنده لبعض الوقت، ولم أشرُ إلى هذا التاريخ، تجاوباً مع ما كان يتردد في وسط هفيركان وفي الجوار عما كان يجري، أي إن عليكي بطي انتظر «16» سنة، ليأخذ بثأر عمه، وكان عمر ابن عمه حاجو الثالث، تبعاً لما حسبناه سالفاً في الكتاب الأول «34 سنة»، وهذا يدعو إلى الكثير من التساؤل والقلق وحتى التردد في الموقف، عما كان يجري طوال هذه المدة، عما كان يقوم به عليكي بطي في محيطه الجغرافي، وربما يستوقفنا كثيراً، قبل التفوه بأي عبارة: نتيجة !

ليس للتقليل من مكانته، وإنما لإضاءة هذه المكانة، لتكون درساً تاريخياً، يعرف بوضوح قواه.

هناك الكثير من الفراغات الزمنية، ومثل هذه الفراغات، لا أقول فيها ما يخرجنا عن السياق الذي نتحرى أمره، ولو في النقاط البارزة، وما يلملم شمل شخصيته التي عاشت، كما قيل «37 سنة» في لوحة لها عمقها المطلوب، كأن أقول بأنه نام سنين طوالاً، على طريقة أهل الكهف، ثم خرج في التوقيت المناسب. كلا، إنما هو السؤال عن أمور صاخبة، حية، مؤثرة، فاعلة، على الأقل، شهرية، ليتمكن الباحث من متابعة زمنية نشطة، وقادرة على ملء الفراغات اللافتة.

إذ بين مقتل عمه ومقتل جمو، كما قلتُ، سنوات ثقال، ودلالات عميقة، تغيرت خلالها أمور كثيرة جداً، ولو أننا حاولنا القيام بثبت عناوين مؤرخة، لطافت صفحات بها، من مجازر الأرمن، إلى أحداث عاصفة في كردستان، وما يخص تطور الحركة الكردية حينذاك، ورموزها في ستانبول وغيرها، وتكوين الاتحاد والترقي، وأنشطة سياسية وثقافية كردية، ثم التحضر للحرب العالمية الأولى، وفي كل عنوان من هذه العناوين كُتبَ حوله الكثير، وبلغات شتى.

مثلاً، ما نقرأه في كتاب لمؤلف بدرخاني (وأول جمعية سياسية كردية كبيرة تألفت هي «جمعية التعالي والترقي الكردية» التي أنشئت في الآستانة سنة 1908، فكان من مؤسسيها البارزين من رجال الكرد الذوات الآتية أسماؤهم: الأمير أمين عالي بدرخان، والفرق شريف باشا، والشهيد السيد عبدالقادر الذي شنقه الكماليون في ديار بكر، والداماد أحمد ذو الكفل وغيرهم.

وتأسست في نفس هذا التاريخ بجانب هذه الجمعية السياسية الكبيرة جمعية أدبية تهييية باسم «جمعية نشر المعارف الكردية» وفقت إلى فتح مدرسة كردية بجنبرلي طاش لتعليم أولاد الجالية الكردية بالآستانة.

غير أن استيلاء الاتحاديين على مقاليد الأمور في السلطنة العثمانية وتأسيسهم إدارة ظالمة، ودكتاتورية قاسية، تحت ستار الدستور والديمقراطية أفضى إلى إقفال هاتين الجمعيتين معاً، وإلغاء المدرسة أيضاً. ولكن الجمعية السياسية - جمعية التتالي والتتري الكردية- اضطرت أن تقتصر نشاطها على الطرق السرية والأساليب الخفية...⁽¹⁾.

أمثلة تتزاحم في أزمنة متقاربة، وهي تلح علينا بالسؤال تلو الآخر، عما هو مجهول في حياة هذا الزعيم، الذي يبدو عليه أنه أمضى الكثير من سنوات عمره خارج حدود هفيركان، أو متخفياً، جراء الهجمات التي كان يقوم بها على خصومه من زعماء القبائل التي تحيط به، وعناصر الدولة التي تدعمهم، كما أنها كانت تطارده كذلك، وهذا ينشط الذاكرة المكانية ومن جهات مختلفة، بغية الحصول ولو نتف معلومات تتضاف إلى تلك التي تضمنها كتاب جبو، وما يشكل متفرقات، في كتب محدودة، متوافرة بين أيدينا، أو من خلال تسجيلات صوتية، لها تصنيف اعتباري مختلف طبعاً.

فراغات طي فراغات، أو توسع مداخلها ومخارجها، وأسئلة تتبع أسئلة أو تثير سواها، وليس من إجابات، أو ما يلهم الذاكرة المكانية نفسها بحثياً !

بما أنه منذ البداية تم تقديمه، وبعد تصعيد المواجهة بينه وبين جلبي ومع الأخير كانت الدولة، يصعب ملاقاته في نطاق حدود هفيركان، إن حسبناها من خلال إبراز خطره، أنه يخضع للمراقبة، ولا أكثر من «عيون» الدولة وهي تقتفي خطاه !

وإذا كنا قد تحدثنا حتى الآن عن بعض النقاط العلامة في حياة عليكي بطي، وما هو أهل للنقاش والمساءلة، فإن الذي يستحق النظر أيضاً، هو تثبيت بعض النقاط التي تمكّنا من التعرف على موقع عليكي بطي في خضم الأحداث التي شهدها «الرجل المريض» وتلك المساويات التي شهدتها المنطقة وهي التابعة لسلطة الباب العالي.

(1) شيركوه، د . به ج: القضية الكردية...، المصدر المذكور، ص 72.

والذي يجدر التذكير به، هو أن عبارة «الرجل المريض» إذا كانت توحي بذلك الضعف الذي يحفز القوى الجانبية أو التي تتريص به على مهاجمته، منتهزاً الفرصة بذلك، فإن ذلك وارد بالنسبة للدول الأوروبية ذات النفوذ في نطاق حدود الدولة العثمانية، وليس بالنسبة للشعوب التي تضع لسلطتها عن قرب، مثل الأرمن والجرکسوالکرد والسريان، والتي، كما أثبتت الأحداث أن هذه القوى كانت قد خططت، بحيث تبقى الشعوب التي ذكرناها طي الانقسام إلى أجل غير مسمى، تجاوباً مع سياستها في التمكن من المنطقة، ومن ثم تقسيمها .

وبالتوازي مع هذا الوصف، يمكن ملاحظة ما تمكن الرجل المريض من القيام به، ناحية الانقراض على هذه الشعوب، إن من جهة ذلك الإسفين فيما بينها، وإنما من جهة تحيّن الفرص والالتفاف عليها وبعثرتها .

وعلى سبيل المثال، بالنسبة للکرد، فإنه (منذ أوائل عام 1890 شرعت السلطات التركية في شرق الأناضول في تشكيل قوات الفرسان غير النظامية والخفيفة من الكرد، وسمّيت «بالحميدية» تيمناً باسم عبد الحميد الثاني. وتم ذلك حسب السمة العشائرية، وقبل كل شيء في المناطق المجاورة للحدود الروسية وقدمت الحكومة السلاح وجرت التدريبات تحت قيادة الضباط الأتراك، بينما كان الزعماء الكرد يقودون أفواج الحميدية ولما قام الباب العالي بتشكيل فرسان الحميدية، فإنه كان يتوخى أهدافاً سياسية وعسكرية في آن معاً، وهي إقامة حاجز عسكري من الكرد على الحدود مع روسيا لرقابة صارمة من جانب الإدارة التركية المدنية منها والعسكرية، واستمالة القيادة الكردية إلى جانب الحكومة ليتم بمساعدتها إطفاء نار الانفصالية الكردية الخطيرة، وتسهيل عملية صهر الكرد. إلا أن مهمة ستانبول الرئيسية كانت تأليب الكرد ضد الأرمن كي تقوم بقمع الحركة الأرمنية التحريرية المدعومة من بعض الدول الأوروبية الكبرى وروسيا ..⁽¹⁾.

يعني ذلك كيفية تحويل الكرد من العصا المستنّة على رؤوس الأتراك، أو ضد سلطة الباب العالي، إلى العصا الضاربة ضد الأرمن، وما في ذلك ليس من انعطافة في مجرى الصراع. ومن ثم نسيان من هم الأعداء الفعلين، وإنما التخلي عن الذات بالفعل، أي الذات الكردية، وإخضاعها لأهواء الآخر: العدو القومي للکرد، وفي الوقت

(1) رزاريف، م. س، وآخرون: تاريخ كردستان، المصدر المذكور، ص156.

نفسه، السعي إلى تلغيم ذاكرة الآتي، حيث يستمر العداء تاريخياً بين الكرد أنفسهم، بينهم وبين الأرمن، على خلفية من هذا الانخراط..

وما جرى، يشير إلى هذا الحدث الرهيب (وقع الانفجار في منتصف التسعينات، عندما جرت موجة من مذابح الأرمن في الإمبراطورية العثمانية لا سيما في شرق الأناضول. ففي عام 1894-1896 وحدها قتل أكثر من 300 ألف أرمني، وهرب الكثيرين منهم إلى خارج البلاد، كما شاركت فرسان الحميدية في هذه الأعمال الوحشية التي نظمتها الأجهزة التركية- القمعية، الأمر الذي كان ينطبق تماماً مع مخططات المحرضين الأتراك، الذين كانوا يجدون في تدهور العلاقات الأرمنية- الكردية خدمة لمصالحهم، كما جرت المذابح الأرمنية في السنوات اللاحقة وحتى الانهيار النهائي للإمبراطورية العثمانية.⁽¹⁾

تاريخ مكتوب بالدم، لكنه الدم المهرق باسم أعداء كل الشعوب التي اضطهدوها العثمانيون، ومن ساروا على دربهم المظلم والمملوء بالأهوال والفظائع مع الاتحاد والتركي، وصولاً إلى ظهور النجم التركي القومي العنصري أتاتورك.

هذا التاريخ الذي لم يزل هناك الكثير من التكتّم عليه من قبل ساسة الكرد، ومتقفّيههم، دون ممارسة نقدية لهذا الجانب، أي ذلك الاعتراف بوجود تواطؤ ملحوظ بين نسبة من المتنفذين الكرد، وهم من زعماء العشائر الكردية، بصورة خاصة، والساسة الأتراك، تواطؤ أثبت فعاليته المدمرة في الاستمرار، بتخريب البيت الكردي، وإحداث شقاق بين ساكنيه. وكما نلاحظ في التاريخ أنه في تلك المرحلة التي شهدت صراعات بين أطراف كردية نفسها، كما في حال هفيركان، ومن هم في الجوار، كما رأينا في مقتل حاجو الثاني في السنة المعلنه «1896»، في الطرف الآخر، كان يجري ضرب الأرمن، وبصورة جماعية، وما يترتب على هذا الأسلوب القمعي الموجه والمعزّز تركيا أو عثمانياً، من مأس للأرمن وتهجير لهم، أي ما كان يدخل في نطاق الإبادة الجماعية بالذات.

(1) المصدر نفسه، المعطيات ذاتها.

ولاحظ ما يقوله بصدد نقطة كهذه، من ناحية تداعياتها، من خلال كتاب الميجر نوئيل: ملاحظة في الوضعية الكردية، تقديم: أ. د. عبدالفتاح علي البوتاني، مركز الدراسات الكردية وحفظ الوثائق، دهوك، 2009 (إن الجيش العثماني استمد قسماً قليلاً للتجنيد في كردستان والألوية الحميدية انسحبت من الجبهة في أوائل أشهر الحرب سريعاً ما اعتبر الترك الكرد ملة خائنة وبحثوا يوماً ما عن معاقبتهم كوظيفة حربية لازمة. ص26).

في هذا السياق، كما أشرنا إلى نسبة من الساعين إلى مصالحهم الخاصة، وحتى بالنسبة إلى تدعيم، أو تقوية سلطتهم في الداخل، إن على أبناء عشائهم أو قبائلهم، أو غيرها من العشائر والقبائل الكردية، أوحى استجابة لتلك الروح الإقطاعية التي تقوم على كراهية الآخر، والاستغراق في أهواء الذات ونشوة السلطة المدعومة من الخارج، سوى أن نسبة أخرى لم تكن هكذا، حيث (وجدت أغلبية الناس العاديين من الكرد وجزءاً من القيادة الكردية أن التجنيد في الحميدية هو تناول على حريتهم التقليدية، وأن السلطة تعتزم بذلك توطيد سلطة ستانبول الجائرة على كردستان. واتخذت التهرب من الاستدعاء إلى الحميدية طابعاً جماهيرياً، وأصبح التجنيد في عدد من الأمكنة ذريعة للقيام بمقاومة مسلحة، وجرت على هذه الأرضية اشتباكات كبيرة عام 1891 في كردستان الجنوبية، وفي عام 1892-1893 في ديرسيم بين الكرد والقوات التركية)⁽¹⁾.

تاريخ حي بفصول، بشهور فصوله، وحتى بأيام هذه الشهور، جهة سياسة ستانبول التي لم تتوقف إلى هذه اللحظة، وإن انتقلت إلى أنقرة، سياسة تشهد تراكماً فظائلياً، وهي تشكّل أرشيفاً هائلاً لا يحاط به، وهو يتألف من مثل تواطؤات كهذه إلى يومنا هذا، وما يستدعي النظر المستمر، وبنوع من التأسّي والسخط والغضب والخيبة المستفحلة في النفس، حيث يكون التاريخ الذي يستمر ساسة الأتراك في تدوينه، وباعتماد قوى كردية لا يستهان بها، بالتوازي مع تاريخ متقطع، يعيش توتراته، ومازقه الجماعية، وانشقاقات بين صفوف الكرد .

ومن باب الإخلاص المطلوب للتاريخ، وكما نوّهت سالفاً، وكما يأتي التذكير به، مع إضافات حسب السياق، ولإضاءة ما نحن فيه وعليه، أشير إلى موقف عبيدالله النهري، تجاه مسألة خطيرة للغاية، كهذه التي خطط لها العثمانيون والأتراك بدهاء ومكر لافتين، فقد (اتسم سلوك هذا الشخص الأبوي- وكما يقول باحث شهير، آشوري، توفّي في أميركا، وعبر كتابه التحفة الذي أخرجه هنا باللغة الانكليزية سنة 1960، أي جويده- بالنزاهة وبشعور غير متحيز ولو أنه صارم. وكتب ويلسن «بوصفه مشرعاً وقاضياً اشتهر بعفته علاوة على عدله غيرالمتحيز...إلا أنه يبدو أن الشيخ عبيدالله لم يميز على نحو واضح بين إرادته وبين القانون. وكثيراً ما أدت معارضة

(1) المصدر نفسه، ص 157.

إرادته إلى فرض عقوبة سريعة وعاجلة. وذات مرة لدى إبلاغ الشيخ عبيدالله أ، بعض أتباعه قد سطوا على قرية على الرغم من وعده بحمايتها أمر بصلب اللصوص تعيسي الحظ... ولاحظ بعض المبشرين الذين عرفوا الشيخ عبيدالله هذه لخاصية بإعجاب عميق. أطرى عليه سبير واصفاً إياه بأنه «رجل ذو عطف واسع ومتسامح»، وأشار إلى موقفه الودّي نحو الأجانب ومعاملته المنصفة للمسيحيين..⁽¹⁾.

(1) جويده، وديع في مصدره المذكور، ص 202.

لعلي أجد فيما سمعته، من البروفيسور الأرمني آرثر بليريان، والذي قدم من باريس، إن لم تخنّي الذاكرة سنة 1994، وربما في شهر حزيران، وألقى محاضرة في «الجمعية الخيرية الأرمنية» في الهواء الطلق، أي في ساحة الجمعية الرحبة، حول المسألة الشرقية وموضوع الأرمن، وركّز على الإبادة الجماعية، ومن حاول مساعدتهم كرداً وأتراكاً، حسبما شدّد هو على أنه سيلتزم قول الحقيقة، وفي نقطة لافتة أشار إلى اسم عبيدالله النهري، ولا أستطيع الجزم بمدى صواب هذه الواقعة، وهي أن نهري كان ضيف السلطان عبدالحميد في قصره «يلدز» بدعوة منه، نظراً لمركزه الديني والاجتماعي، ولبعض الوقت، ثم في نهاية مدة الضيافة، طلب منه السلطان الأحمر أن يخبر كرده بقتل الأرمن أتى وجدوا، ليحلوا هم «أي الكرد» محلهم، فكان رد نهري، أن نعم: اليوم سنقتلهم، وغداً ستقتلوننا، وهكذا أخبر معارفه بوجود خطة كهذه. طبعاً، إن تصرفاً كهذا من الشيخ نهري غير مستغرب، وهو مشهود له بالنزاهة والعدالة والجرأة كذلك، لكن ذلك يرتبط بتاريخ دقيق، فحينها كانت الحرب الروسية-التركية «1878»، وحينها كان عبدالحميد «بيرمج» لطريقة يستميل بها الكرد ناحيته، وقد تحقق له ذلك، ولا بد أن نهري كان ينتمي إلى تلك الدائرة الجهنمية في الأسطوانة ورفضها.. أقول ذلك استناداً إلى ذاكرة مكانية، ولعل التسجيل الذي يتضمن محاضراته موجود، وهناك صورة تذكارية لي مع البروفيسور... الخ.

وبالنسبة لموضوع الأرمن، هناك من يتحدث بنبرة أخرى، يجري فيها اتهام الأرمن بما جرى، ومن منطلق لا أظنه يفصح عن تاريخ دقيق، بطريقته التي تقرب أحياناً حتى من تحميل الأرمن وأولي أمرهم مسئولية ليس ما جرى لهم فحسب، وإنما للآخرين ممن تعرضوا للمآسي، وحتى بالنسبة للعثمانيين، أعني به هنري مورغنتو، في كتابه: معرفة الشرق في العصر العثماني «مذكرات السفير الأمريكي في الأسطوانة»، تعريب: فؤاد صروف، المركز الأكاديمي، العراق، تورنتو، كندا، ط1، 2015، حين يقول أولاً ما يشير إلى علاقة تركيا والأرمن: لقد اتخذ بعض الكتاب مسألة نفي الأرمن، وفي بعض الجهات اليونان والسوريين، سبباً للطعن على الحكومة العثمانية، وقبل أن أذكر شيئاً عن موقف الحكومة نحو الأرمن أريد أن أصرح بأن الأخبار عن هذا النفي مبالغ فيها، فالأرمن واليونان أرادوا أن يستميلوا الشعوب الأوروبية والأمريكية فصوروا الحالة بصور جاءت غير منطبقة على حقيقة الواقع، ولا أريد بقولي هذا أن أنفي صحة هذه الحوادث ولكن أريد أن أنفي ما فيها من مبالغة وإغراق.

ومن ثم: إنني أعترف إننا نفينا كثيرين من الأرمن من الولايات الشرقية ولكن لم يكن ذلك حسب خطة رسمناها قبلاً، والتبعة في هذه الأعمال تقع على الأرمن لأنهم بذلوا ما في وسعهم لمساعدة الجيش الرومي، فكانت عصب الأشقياء منهم تتبع آثار الجيش التركي وتعيث في مؤخره فساداً حتى يتمكن منه أعداؤه الروسيون، وقد وجدنا بعد البحث أن كنائسهم لم تكن سوى مستودعات للذخائر والمؤن والأسلحة وبهذه الطريقة أهلكوا 300000 مسلم وقطعوا أسباب المواصلات بين الجيش التركي في مقدمة الحرب ومركز القيادة في القوقاس.....

وكذلك: إنني أعترف أن النفي لم يجر في كل الأماكن حسب القوانين المرعية والمعترف بها، وإنه حدثت في بعض القرى أعمال غير قانونية، وما ذلك إلا نتيجة البغض الذي أوغر قلوب الفريقين، الأرمن والمسلمين، نعم كان هناك عدد من أصحاب المناصب في الحكومة أساءوا استعمال سلطتهم وألحق الضرر بعدد كبير من الأبرياء، أعتزلاف بذلك وأقر أيضاً بأن واجبات الحكومة تقتضي بتعقب المجرمين ومنع وقوع الفضائع.....ولكني أقر أيضاً بأنه يجب على الحكومة أن تدقق في البحث عن المجرمين فقد بقي العدد الأكبر يسرح ويمرح مطمئناً أميناً.... أما من جهة نفي اليونان الموجودين على شواطئ آسيا الصغرى الغربية فلم ننف إلى داخلية الأناضول سوى الذين ثبت لنا عنهم أنهم كانوا يمدون غوصات الأعداء بالمؤن والذخائر، وأما في سوريا فأعلننا الحكم العرفي وعاقبنا الذين كانوا يحرضون الشعب على الثورة..ص 187..في السطرين الأخيرين من الكتاب: لقد حدثت أمثال هذه الحوادث في كل مملكة في العالم في أثناء الحرب، ولكن لسوء الحظ لم يرها العالم ولم يسمع بذكرها إلا في بلادنا لأن أعين الجميع كانت متجهة إلينا..ص 188.

من المعروف أن مورغنوتو، عاش بين عامي 1856-1946، من أصول يهودية في ألمانيا، وهو حقوقي، رجل أعمال، وسفير أمريكي في الامبراطورية العثمانية عام 1913-1916 ذلك يتطلب دراسة دقيقة ومستقلة فيما زعمه.

وأجد أنه من المفيد جداً، ونحن نتحدث عن تعددية فسيفسائية ضمن حدود امبراطورية ولعبة الأمم داخل المعتبرة أمة فوق الأمم، الإشارة إلى الباحث الفرنسي في: مجتمع ديناميكي للإمبراطورية

François Georgeon:Une communauté dynamique de l'empire, www.lhistoire.fr

وهو مقال ذو طابع حوارى، ضمن ندوة مفتوحة معه، حيث أورد الاقتباسات التالية، للنظر فيها: ف. ج: المزيد في عام 1900. منذ قرن من الزمان، تم التعرف على الأرمن بعلامات خارجية معينة، ونوع الملابس، والألوان التي فرضت عليهم (الأصفر، على سبيل المثال، كان مخصصاً للمسلمين). عملت الإمبراطورية العثمانية وفقاً لمعايير محددة لكل مجتمع وكل شركة وكل جماعة. من خلال إقامة المساواة النظرية للجميع، ألغى التنظيمات من حيث المبدأ هذا النظام. في عام 1900، كان الموظف أو الموظف الأرمني لا يمكن تمييزه عن التركي، وكان يرتدي بنفس الطريقة، ويرتدي الطربوش والعباءة.

من ناحية أخرى، فإن التمايز الاجتماعي قوي داخل المجتمع. البعض منهم عمال أو يشغلون تجارة صغيرة: على سبيل المثال لديهم شبه احتكار لقطاع الهمة، Portefaix، وهي تجارة

مؤلة غالباً ما يتم حجزها للوافدين الجدد، قبل أن لا يتنافس الكرد معهم في نهاية القرن التاسع عشر. كان هؤلاء الأرمن الفقراء هم أول ضحايا المذبحة التي شهدتها ستانبول في آب 1896 بعد أخذ الرهائن في مقر البنك العثماني من قبل مسلحين أرمن. يمثل الأرمن في ستانبول تمثيلاً جيداً بين الحرفيين والتجار، وكذلك بين المهن الجديدة (المحاميين والأطباء والمعلمين والاقتصاديين والطابعات والصحفيين...). يزداد النشر والصحافة الأرمنية، خاصة بعد الثورة التركية الشابة عام 1908. إلى جانب الصحف الأرمنية، هناك عناوين باللغتين الأرمنية والتركية، وأخرى باللغة التركية بشخصيات أرمنية - الرواية الأولى في التركية العثمانية، تاريخ أغابي (1851)، يرجع إلى كاثوليكي أرمني، فارتان باشا، وينشر بالشخصيات الأرمنية. يلعب الأرمن دوراً مهماً للغاية في نشر الأعمال باللغة التركية العثمانية وينشرون أنفسهم كثيراً بهذه اللغة. هذا هو الحال مع ديران كيليكيان، أحد الصحفيين الرئيسيين الذين يساهمون في صحف مثل جيهان («الكون») باللغة التركية ولكن بأحرف أرمنية، وهو محرر صباح («لو ماتان»). في التركية العثمانية، الذين ندين لهم بكاموس نفيس فرنسي / تركي، فرنسي (1911) لا نزال نستخدمه بشكل مريح. س: هل يمكننا أن نذهب إلى حد القول، إذا أخذنا في الاعتبار هذه النخب، أن نهاية القرن التاسع عشر كانت عصراً ذهبياً؟

ف. ج: ما لا جدال فيه هو أن الأرمن يقومون بدور نشط للغاية في الديناميكية الاجتماعية والثقافية العثمانية التي سبقتها ثورة 1908. لاتخاذ هذا الإجراء، يكفي أن نقول أن ستانبول سيكون لديها حوالي 300 جمعية أرمنية ومدرسية وخيرية ورياضية وما إلى ذلك س: في أي مناطق أخرى ميز الأرمن أنفسهم؟

ف. ج: التصوير الفوتوغرافي. تحدثنا عن مصوري المدن الصغيرة ولكن يوجد أيضاً في ستانبول أشهر المصورين الفوتوغرافيين وهم الإخوة فيجن وهوفسب وكيفورك الذين يحملون اسم عبد الله، على الرغم من أن الأسرة لم تتحول إلى الإسلام. بدأت قصتهم في عام 1858 عندما اشتروا استوديو مصور ألماني في ستانبول. سمعتهم الراسخة، حصلوا في عام 1863 على لقب المصورين الرسميين للسلطان عبد العزيز. في وقت لاحق، عندما قام عبد الحميد بتغطية فوتوغرافية حقيقية لإمبراطوريته، استخدم على نطاق واسع الإخوة عبد الله. تساهم هذه ثلاثة أرباع الألبومات المرسلة إلى انكلترا والولايات المتحدة كدعاية. إذا انتهى بهم الأمر في تسعينيات القرن التاسع عشر بفقدان امتيازهم كمصورين قصر لصالح اليوناني، Kargopoulo، فإنهم مع ذلك يواصلون تزويد السوق بصورهم، والتي تتراوح من الصور الأثرية إلى المشاهد الغريبة، من خلال الصور والبطاقات البريدية.

س: متى يصبح الوضع أسوأ حقاً؟

ف. ج: أود أن أقول في بداية تسعينيات القرن التاسع عشر. إن ظهور القومية الأرمنية (أذكر تأسيس الحزبين الرئيسيين، هنتشاك، 1887، في جنيف، وداشناك، 1890، في تفليس) يتوافق مع الوقت الذي قام فيه السلطان عبد الحميد نوع من «الاستعادة الداخلية» للإمبراطورية. في عام 1894، اندلع تمرد بين أرمن ساسون، والذي تم قمعه بوحشية من

ومما يستحق الذكر أيضاً، وفي خضم العلاقات المتشابكة فيما بين الكرد أنفسهم، بينهم وبين الآخرين، من خلال أنشطة مختلفة، عبر تنظيمات وتحالفات، وفي نطاق مواجهات دامية، لا بد من التنويه إلى ولادة اسم شكل جرثومة كبرى، لولادة نظام كان خلاصة ظهوره، وهو الاتحاد والترقي، وكما يعلمنا بأمره جويده، وحينها كان عمر عليكي بطي، إن جاريننا الذاكرة الهفركانية والمكانية بالذات لأحفاده سبع سنوات.

قبل الجيش، في نمط لا يزال يمكن تسميته بالتمرد / القمع التقليدي. في 1895-1896، كانت مرحلة أخرى، تلك المذابح والمذابح على نطاق واسع، والتي بدأت عندما علمنا أن السلطان قد استسلم للقوى العظمى بقبول برنامجها الإصلاحي. تم طرح مسألة الإصلاح الأرمني في وقت انعقاد مؤتمر برلين عام 1878. ولكن هناك سوء فهم مثير حول هذه الكلمة: بالنسبة للأوروبيين الذين يريدون إلهامهم، فهي إصلاحات يجب أن تحسن حالة المسيحيين ويضمن لهم المساواة مع المسلمين، بالنسبة للأرمن هو وعد الأمن والتقدم والحرية. بالنسبة للعديد من المسلمين، الذين تلقوا تعليمهم من قبل السوابق البلقانية والذين يترددون بشدة هناك، فإن الإصلاحات لصالح المسيحيين (وخاصة الأرمن) تدل على الحكم الذاتي ثم الاستقلال.

ومهما يكن الأمر، فإن المجتمع الأرمني يواجه مشاكل هائلة: مشكلة الأيتام، والأراضي أيضاً، التي تحتكر خلال المجازر. ومن ثم، فإن الطلب المستمر لإصلاح الأراضي لم يتم تنفيذه على الإطلاق.

س: هل قامت الثورة التركية الشابة عام 1908 بتغيير أي شيء؟

ف. ج.: في البداية، نعم. إنها، بالنسبة للأرمن، لحظة «آمال كبيرة» (أناهيد تير ميناسيان) 1. لقد أرست الحريات العظيمة وأعادت دستور عام 1876، وبذلك أعادت تأكيد المساواة بين الجميع أمام القانون. يرحب الأرمن بالثورة بحماس، خاصة أنها تؤدي أيضاً إلى عفو عن السجناء السياسيين وعودة المنفيين.

في الوقت نفسه، تجري ثورة صغيرة أيضاً في المؤسسات الأرمنية. يتم طرد البطريرك واستبداله. نعيد تقديم «الدستور القومي الأرمني» لعام 1863 و«الجمعية الوطنية الأرمنية»، حيث يهيمن العلمانيون ويعزز التفاهم مع الشباب الأتراك. يتم إنشاء الأحزاب الأرمنية الرئيسية في الإمبراطورية ويتم إرسال النواب الأرمن إلى البرلمان. أعضاء داشناك يدعون إلى التعاون مع الاتحاد ولجنة التقدم.

لكن مذابح أضنة عام 1909 كانت إشارة تحذير رهيبية. ثم أبعد الكثير من الأرمن أنفسهم عن السياسة المركزية والجمعية للأتراك الشباب. تحت ضغط من روسيا، تم انتزاع برنامج إصلاح جديد للمقاطعات الأرمنية من الحكومة العثمانية في عام 1914. فاة الأوان. تفتح الحرب المأساة.

إنها جهات تتداعى وتتقابل، من خلال مواقع سياسية وثقافية وعقائدية كذلك !

من الكوسموبوليتية إلى التُركوبوليتية، هكذا يبدو المسار الخطي والمنكسر لتاريخ الاتحاد والترقي، فقد (أسست جمعية الاتحاد والترقي في ستانبول عام 1889، على يد إبراهيم تيمو وعبدالله جودت وإسحاق سكوتي ومحمد رشيد. يوسف حكمت بايور، والأولان كرديان، ويذكر جويده أن (الجمعية تأثرت بوصفها منظمة سرّية تأمرية، بعدد من الجمعيات السرية الأوربية، خصوصاً الكاربوناري، والمنظمة الثورية المقدونية الدولية...ثم: لعب الكرد أو الأشخاص من أصل كردي دوراً مهماً في الجمعية منذ تأسيسها. وكان اثنان من الأعضاء المؤسسين لجمعية الاتحاد والترقي الأولى، هما إسحاق سكوتي وعبدالله جودت كرديين. وانضم كرد بارزون إلى الحركة وشاركوا مشاركة فعالة فيها. في الوقت ذاته واصل كرد آخرون المشاركة في جمعية الاتحاد والترقي التي عقدت مؤتمراً لها في باريس عام 1902 بعنوان «مؤتمر أحرار العثمانية»، واشترك فيه عبدالرحمن بدرخان وحكمت بابان وهما عضوان في أسرتين كرديتين بارزتين، وتولى عدد من الأعضاء في الجمعية بعد الثورة مناصب بارزة كان بينهم إسماعيل بابان، الذي تولى منصب وزير التعليم العام، وسليمان نظيف، الذي تولى منصب والي بغداد...الخ)⁽¹⁾.

كم من الفخاخ التي يقع فيها الكرد عبر تاريخهم المديد، أو تنصّب لهم، وهم ذوو دور فيها، وينسون أنها فخاخ قد تتكرر هنا وهناك !

وهذا شاهد آخر، يعيدنا إلى تلك الحقبة الخطيرة، إذ كان المعنيون بـ «تركيا الغد» و«تركيا للأتراك» يصافحون الآخرين وفي واجهتهم الكرد، كما في «الاتحاد والترقي» بيد، وبالياد الأخرى يجهّزون أنفسهم للتخلص منهم في التوقيت المناسب.

وليس ما يُسمى بـ «ثورة تركيا الفتاة في تموز 1908» إلا هذه الثمرة المُرّة لذلك الاتحاد.

أمور لا بد من الإعلان عنها، أو التعرض لها، في هذا السياق أو ذاك، لملء ما يعتقد أنه فراغ من هنا، وفراغ من هناك، حيث يكون التاريخ الكردي، وحيث يتواجد من ينتمي إلى هذا التاريخ، ويحمل بصمته، ومن يعاديه بالمقابل.

هذا الارتقاء في حضن عدو له صيت تاريخي، حيث تتنوع أسماؤه وألقابه، لكن محتواه، يكاد يكون واحداً، يحفّز على التبحر في أصوله وفروع الأصول هذه، وكيف يوحد بين من بلغ أعلى السلم الاجتماعي، ومن هو في أسفله، بين الإنسان الذي يكون

(1) المصدر نفسه، صص 253 - 256.

مبدأ في قبضته، وذلك المتخرج في جامعة أوربية، وتبقى ذهنية العثماني، ومن ثم التركية منغلقة في بنيتها الفعلية.

لاحظوا، مثلاً، ومن باب الكشف المخبري، نموذجاً مكرباً من هذا القبيل، لحظة النظر في الاتحاد والترقي، حيث إن مصطفى كمال باشا كان عضواً فيه، ولكنه كان يحمل خريطة تركيا الغد، وشعار «طوبى لمن يقول أنا تركي»، في رأسه، أي جهة (مساعي أتاتورك لاحتواء الكرد، وكان اتحادياً وهو يمارس خداع الكرد: تظاهر أنه ضد سياسة تحطيم الكرد، وقام بسليم الأمور في مقره للفريق الكردي الذي كان أفراده يرتدون الزي القومي الكردي ويقوده حسن خيري بك من ديرسيم، كما كان «يصطحب معه دائماً في مختلف الجلسات واللقاءات طفلين كرديين يتيمين تتراوح أعمارهما بين 8-10 سنوات ويرتديان ألبسة كردية تقليدية كاللباس الذي يرتديه أفراد الفريق الكردي المذكور، وذلك لخداع البسطاء الكرد...»⁽¹⁾.

ذلك ما كان يثير حماس بعض الكرد، ويخرجهم من «الحجر الصحي» الوهمي الذي طال أمده، وتم حصاره بعد زمن محتسب، وهم يدركون مدى خطورة اللعبة التي جرت، سوى أن المهمة حسمت لصالح الأكثر مكرراً، وما يقوله أحد الكتاب الكرد المعاصرين عن كاتب عاش تلك الفترة، وذاق مرارتها وندم على ما قام به، أي عبدالله جودت، وربما شعوره بالإهانة والندم البالغين على النتيجة المخزية لنشاطهم، جرأ تداعيات ما كان يجري سراً وعلانية (لقد بلغ عبدالله جودت حداً يصف مع ضغوط الامبراطورية العثمانية على مختلف الأقوام بما يشبه نوعاً من الامبريالية، قائلاً: هل نبقى على هذه العقلية ٥٠٠ سنة؟ إنا بقينا من دون معنى وعبثاً لحساب هوى الامبريالية ونعمة الخلافة أشبه ما نكون بحفنة من البشر...) ⁽²⁾.

طبعاً في تلك الفترة التي كان عليكي بطي في أوج قوته، كان هناك من يصرخ، كما هي صرخة يوحنا المعمدان، تجاه ما كان يجري في نطاق الدولة العثمانية، والذين حاولوا وراشها «رغلها» خارجاً، وهم يرون أنفسهم أقدر على قيادة المرحلة، أو تمثيل تركيا المستتبّة مما هو عثماني، استحضاراً لحقبة زمنية قادمة، ومن ذلك ما خطه

(1) أحمد، د. أحمد محمد: كرد الدولة العثمانية 1880-1923، سبيري، دهور، ط1، 2009، ص 352.

(2) مالميسانز: القومية الكردية ود. عبدالله جودت في مطلع القرن العشرين، ترجمة: شكور مصطفى، آراس، أبيل، ط1، 2000، ص 82.

قلم عبدالرحمن بدرخان في صحيفة «کردستان» الشهيرة، كما في العدد الحادي عشر، وهو يكتب عن الأرمن وصلة الكرد بهم ومأساتهم (فكّروا. لكم هم الأرمن أصحاب همة وغيره. هم أيضاً كالکرد مظلومون. سوى أنهم يضخّون بدمائهم من أجل حريتهم. وجهلاء الكرد أمّيون، يقتلون الأرمن. وهذا الوضع سييء إلى الكرد كثيراً. على العلماء أن يقولوا للکرد على أن هذا قتل. على الكرد أن يحموا أنفسهم من ذلك الإثم. على الكرد بالاتفاق مع الأرمن، إبعاد الموظفين الظلمة والقتلة، وبدلاً من أن تهبوا إلى نجدة الأرمن المظلومين، تذهبون إليهم لقتلهم. وهذا الوضع خطأ كبير وعار كبير، والله ورسوله غير راضيين عن هذا الوضع).

ويأتي ذلك أكثر توضيحاً في العدد الثاني عشر (لا يقول الله أبداً: أطيعوا القتلة والظلمة، لأن الطاعة هذه تؤدي إلى هلاك الأمة. وعدالة الله لا تقبل بذلك الوضع. الملك يصبح ولي الأمر عندما يكون عادلاً، وعندما يكون ظالماً، على الشعب إزاحة ذلك الملك بأي شكل كان. وهذه الحقيقة يعلم بها علماء الكرد علانية، دون أي شبهة، سوى أنهم يتكتمون عليها لسببين: الأول، أنهم يخدمون ما يقبلون عليه، والثاني، الخوف)⁽¹⁾.

أهي علامة فارقة ؟

يظهر أن الكرد بلغاء، فصحاء، نجباء، في الجِد والعمل، وفي تحدي الصعاب، وهم يتميزون بنشاط بدني، أوصحة جسمية ملموسة، وقدرة هائلة على معايشة الأزمات والنكبات وأهوال الحروب والشدائد، وربما كانت العلة الكبرى ماثلة في هذه النقطة، إذ إن معايشة شاقة، وتمتد لسنوات لا بل قرون طوال، دون استخلاص الدرس التاريخي، تشكل قلقاً وجودياً صامداً.

أي ما الذي يدفع لأن يجد مبتغاه خارج جماعته وأهله؟ لا بد أن هناك خللاً بنيوياً طبعاً، لا بل ويكون مزمناً، له تاريخ عريق، ويعتمد بوصفه مرجعية، لا يُنتَبه إليها، بما أنه يعيشها، أو يستبطنها، وينسى أنه الكائن الذي يعنيه أمره، أن عليه الخروج من الدائرة الضيقة لتاريخ لا يؤخّذ به، إلا بمقدار ما يشد رحاله إلى فضاء

(1) Felat, Dilgeş: Rojnameya kurdî ya pêşîn Kurdistan, «Nûbihar, stanbol, ç2, 2017, r:115-133.

فلات، دلکش: الصحفية الكردية الأولى: کردستان، نوبهار، ستانبول، ط2، 2017، ص 115-133.

واسع وأرحب، وقارن نفسه واقعاً، بالآخرين الذين يقعون على مقربة منه، ليكون في مقدور الدحول في التاريخ. وقد اكتسب نوعاً من المناعة ضد أوبئة ذات صفة تاريخية كذلك، وأنه أصبح أكثر أماناً لنفسه وعليها بالمقابل.

لابأس مرة أخرى، ليس أن نؤجل الحديث عن عليكي بطي، وإنما نزيد ساحته وضوحاً، من خلال لائحة من النقاط التي توجه الأنظار إلى الجغرافية الكردية، وكيفية التوزع الكردي فيها، على أساس القوة، وتبعاً لأي معيار سلطوي، كان الباب العالي يقيم علاقاته، وينوع فيها مع الكرد، وتحديداً، عبر وجهائهم أو أعيانهم، أو «نبلائهم» بالمفهوم الأوربي المستحدث، وممن تخرجوا في مدارس أجنبية ومحلية، وحملوا شهادات ورتباً، كانت السياسة تلك، تتقن لعب السبعة جحور تلك التي يمتلكها الثعلب، بغية النجاة من أي عدو متربص به، وله احتياط عبر منافذ أخرى، دون نسيان لعبة القوى التي كانت تتداخل وتتمايز، من منطلق نقاط الالتقاء والتباين أو التضاد فيما بينها.

الباب العالي، كان لديه تقرير يومي، يأتيه من مستعمراته، أو البقاع التي تخضع لسيطرتة، وخصوصاً، البقاع التي تمتد أمام ناظريه، والكرد في الواجهة، والكرد الذين استحال على سلاطين بني عثمان، كما استحال على خلفاء بني عثمان الأتاتوركين نسيان الكرد، وأسماهم الكرد الذين حاربوهم بوصفهم كرداً، وأن أرضهم تسميهم أهلاً أصلايين لها قبل أولئك، فيحمونها كما هي أخلاقية الحماية، وهذا ما أقلق كما يقلق الكرد أولئك إلى هذه اللحظة، وهم في في مواجهة أساليب الدهاء التاريخية والمتوارثة التي حفظها آل عثمان، عبر سلاطينهم ومن ابتعدوا اسماً لا يتكرر في الوجود، وهم الترك: تسمية لا تقبل سواها عرقياً، وهنا يشار إلى ما يكون عليه الكرد في مسألة العلاقات وامتداداتها قبل ملاذرت وبعدها، وكيفية استمالتهم حين الطلب، وإقصائهم عند اللزوم، وتفريقهم، بطرق شتى، عندما يرى ذلك ضرورياً، ونفي زعمائهم، وفق تقديرات معينة، أو قتلهم، في الوقت المناسب للباب العالي هذا، وترحيهم، وقد تم تشتيتهم، حيث يكون لذلك داع سلطوي بالمقابل. وفي الوقت الذي نشهد، وباستمرار، وعلى طريقة «واحد باليد دائماً» أخذهم بعين الاعتبار، حيث تكون الحاجة إليهم لدواعي سلطوية ماسة طبعاً، نظراً لحضورهم الديموغرافي، وقابليتهم لأن ينسوا أنهم كرد، كما ينبغي، وكما يفكر أعداؤهم في أنفسهم، وهم مختلفون عنهم، وليس أنهم كرد، وقد خدعوا مراراً وتكراراً.

وليس من ممثّل قوة في نطاق حدودي للدولة العثمانية، إلا وله مصنّف باسمه، ومن يتخصص في متابعتها.

لهذا، فإن في «أصول السؤال الكردي» مرة أخرى، وكما يسمّي كاتبه إحدائياته وتحركاته، ما يقربنا مما تقدم:

(في ظل الدولة العثمانية، الهوية الكردية أو بالأحرى الهويات الكردية ليست مهددة بشكل مباشر. من المسلم به أن ستانبول تقمع بشدة الأمراء الكرد المتمردين والثورات التي يقودها الشيوخ الصوفية. لكن هذا لا يظهر رغبة في قمع الكرد على أنهم «جماعة» عرقية. بالنسبة للسلطان، إنها مسألة خنق أي دافع غير عادي مثل أي ظهور لسلطة منافسة أمام السلطة المركزية.

وبالتالي، تم القضاء على جميع الإمارات الكردية شيئاً فشيئاً خلال القرن التاسع عشر، في حين تم نفي معظم الأعيان الكرد في مقاطعات أخرى من الإمبراطورية أو في الخارج. أطاحت الحملة الرئيسة الأخيرة «للعزو الداخلي» لكردستان بدرخان بك عام 1847.

ومع ذلك، تسبّب فراغ السلطة الذي خلفته السلالات الكردية الساقطة في حدوث فوضى في نهاية القرن التاسع عشر، مما دفع السلطان إلى الاعتماد مرة أخرى على اتحادات قبلية كردية كبيرة – مثل ميلي إبراهيم باشا – ولكن في تبادل الولاء له. من هذا المنطلق، أنشأ السلطان عبد الحميد الثاني أفواج الحميدية – أفواج القبائل من الفرسان الخفيفة – التي يمنحها وضعاً مميزاً (التسلح، الإعفاء الضريبي، الحصانة شبه القضائية). كانت أفواج الحميدية بدورها تحمي الإمبراطورية من الأخطار الخارجية (النفوذ الروسي على الحدود الشمالية للإمبراطورية) والأخطار الداخلية (القوميين الأرمن).

تلك نقطة في غاية الأهمية، وهي في الحاجة المستمر إلى الكرد. هل نكون مبالغين، إن قلنا عن إن مثل هذه السياسة لازالت قائمة في عموم أطراف كردستان، حيث يتم تهميش كرد من هنا، واحتواء كرد من هناك، من هذا المنحى؟

سياسات الفراغات المتشكلة، أو القائمة، تليدة، حيث الفراغ قوة مقضي عليها، أو جرت إزاحتها أو تحييتها، إنما دون التخلص منها، وهذا الفراغ المتبقي يشكل عامل تهديد للدولة بالذات، خوفاً من أن يشكل معبراً لأعدائها في أن يتسللوا إلى الداخل، ولهذا كان الكرد المعنيون «مسمار أمان» أو «سدادة الزجاج» لحظة الحاجة.

وهناك ما يستدعي التفكير في القوى الكردية ومواقعها طبعاً، وهي التي جرت هناة العيش، وهذا وجه من وجوه التقرب من هؤلاء الذين عاشوا نعمة كهذه، كما نقرأ (من جانبها، تبقى العائلات القديمة لوجهاء كردستان قريبة من السلطة. يشغل المفكرون الذين يأتون منها مناصب إدارية في الإدارة العثمانية. تم اقتلاعهم من كردستان في العقود الأخيرة، وهم أقرب إلى نخب العاصمة من بقية السكان الكرد الذين يعيشون في ضواحي الإمبراطورية. لذا، على الرغم من مناقشتهم حول مبدأ الحكم الذاتي، فإنهم لا يزالون مرتبطين بشكل كبير بالإطار السياسي والاجتماعي العثماني. بالإضافة إلى ذلك، أبحر العديد من المثقفين الكرد بين الدوائر المقربة من لجنة الاتحاد والترقي (ضياء كوكالب وإسماعيل حقي بابازند) والليبراليين العثمانيين (شريف باشا) والإسلاميين (سعيد نورسي وأحمد نعيم بابازند) والجمعيات الكردية..)

ليكون هناك الدفاع أحياناً عن مواقف غامضة ومتناقضة، حيث:

(تشكلت الدائرة الكردية الأولى حول صحيفة كردستان (1898) وعائلة بدرخان. هذه الصحيفة ثنائية اللغة (الكردية-العثمانية)، التي نشرها في القاهرة مدحت بدر خان، تدافع عن المعارضة التركية الشابة ضد استبداد السلطان بينما تدعو في الوقت نفسه إلى إيقاف الكرد في مواجهة التحديات التي تفرضها الحداثة.

بعد الثورة التركية الشابة عام 1908، التي شهدت وصول لجنة الاتحاد والتقدم إلى السلطة، أسس بعض الكرد البارزين Kürt Teavün ve Terakki Cemiyeti («جمعية التآلي والترقي الكردية») وأنشأوا جهازاً صحفياً.. أهداف الجمعية معتدلة: دعم الحركة الدستورية، وضمان تقدم وتعليم كرد ستانبول، وترسيخ العلاقات الجيدة مع الشعوب العثمانية الأخرى، وفي النهاية، بذل كل الجهود الممكنة لإنقاذ إمبراطورية بني عثمان.

بشكل عام، خلال الفترة «النقابية» (1908 1918)، ظل المثقفون والأعيان وزعماء القبائل والزعماء الدينيون الكرد قبل الحرب متمسكين بمثل الوحدة العثمانية التي تضمنها مؤسسة الخلافة. يمكن بسهولة تفسير هذا الولاء للإطار العثماني من قبل الجنسيات الأخرى للإمبراطورية. يرجع ذلك في المقام الأول إلى فكرة دينية: ينتمي الكرد والمسلمون السنة في الغالب إلى «المجتمع المهيمن»، بنفس الطريقة التي ينتمي بها الخليفة السلطان، وكذلك غالبية الأتراك والعرب وخلافاً للمسيحيين واليهود.)

لم لا نقول أن هؤلاء المثقفين، وفي نسبة غالبية منهم، كانوا ينظرون بأكثر من معنى، بعين العطف إلى الدولة، كي تهتم بهم، كما هو حال تنظيماتهم، وأنهم حين هبوا منتفضين، إنما كانوا يريدون إحداث تأثير نوعي تجاههم؟

والذي يستغرق السؤال السالف كذلك، هو المتعلق بالأراضي، ومن يقيم عليها، ومن هم ملاكها، وكيف تدار.. وفي الوقت الذي يتقابل فيه الأرمن والكرد، كان السؤال يزداد تعقيداً بالنسبة للطرفين، ويزداد تحفيزاً للدولة، لتعتمد السياسة التي تنهي أحدهما بالآخر، أو تضعفهم بطرق خبرتها تاريخياً، وبدلاً من التفكير في الأرض، يصبح التفكير في الأهم منها، وهو سؤال الإقصاء عن الأرض، أو إلحاقهم بهم، ليكونوا أكثر ضعفاً، أكثر تبعية، بعد تشتيت قواهم، أو البعض منهم بالآخر:

(إن «سؤال الشرق»، الذي يعود جزئياً إلى أصل التنظيمات في القرن التاسع عشر، هو على حافة الإمبراطورية «سؤال أرمني كردي»، سؤال زراعي.

أنشأ قانون الأرض لعام 1858 الملكية الفردية على أساس التابو الخاضع للضريبة والتحويل (سندات الملكية). لكن القانون يفتقر إلى أحكام للمزارعين الذين يعملون في أراضي ملاك الأراضي الكبار. ومع ذلك، سمحت نهاية الإمارات الكردية لسلسلة من الأعيان الحضريين وزعماء القبائل باختلاس عدد كبير من الأراضي، على حساب الفلاحين الأرمن وصغار الملاك).

والعثمانيون، وفيما بعد الأتاتوركيون، وهؤلاء «خير» من استوعبوا الدرس السلطان، وحصره في ذواتهم، كانوا على بينة من هذه العدوى التي انتقلت إلى «ديارهم» من الغرب، فتحدث بلبله بذلك، سؤال القومية بالذات:

(لكن في الوقت نفسه، تتغير العلاقات بين الدولة والجماعات العرقية الأخرى، بما في ذلك الكرد. الهوية العثمانية التي طرحها الإصلاحيون في القرن التاسع عشر، والتي تم التخلي عنها تدريجياً لصالح «الوحدة الإسلامية» في عهد عبد الحميد، أفسحت المجال أمام إيديولوجية «تركية» تحت تأثير الشباب الأتراك. اكتسبت القومية مكانة بين القادة الودوديين قبل التدريب، في بداية القرن العشرين، النخب العربية والألبانية والكردية..)⁽¹⁾.

(1) Aux origines de la «question kurde»

أصول السؤال الكردي، المصدر المذكور.

لم يتخل الكرد عن «أخوتهم في الدين» أي العثمانيون، وحتى «الأتاتوركيون» إلا حين طُعنوا في خاصرتهم، إلا حين أدركوا تماماً، أنهم قد خرجوا من «مولد» التاريخ بلا «حمص» جغرافي، فأشهرها تمايزوهم وهم مضعضعون. أي مثلما أن العثمانيين، ومن سبقوا العثمانيين في الاختلاط بالكرد، ومن جاء بعد العثمانيين، وفي إطار ما كان يُسمى بـ «التحالفات»، «تغدّوا» بهم، قبل أن يتعشى الكرد بهم، وهو الفارق الكبير بين سياسة قصرِ نظر، وسياسة مدِ نظر.

أترانا نسينا عليكي بطي، ونحن ننتقل من نقطة إلى أخرى، ومن اسم إلى آخر؟ إطلاقاً، إنما كما أفصحنا عن ذلك، فإن تنوير ساحة الاسم، ومن خلال مسح انثروبولوجي لشخصه، ولسكانه، وكيفية تداول العلاقات الاجتماعية، إنما من المهام الصعبة التي تقع على عاتق من يعيش حرارة التاريخ، برودته، تقلباته، خموده،

في السياق هذا، ينظر فيما قاله إحسان كورت في مقاله: معاهدة لوزان في غزو روجافا ومساجلات الوحدة الوطنية، الذي سبق ذكره، عما تحقق للأتراك في معاهدة لوزان قبل قرن تقريباً (يكتب المؤرخون المستقلون أن «معاهدة لوزان للسلام Lozan Barış Antlaşması» هي يوم المجد والشهرة للأتراك في 24 تموز 1923، أي قبل 96 عاماً. العالم الأول، الذي أنهى الحرب رسمياً والهيمنة الكمالية الحالية التي تشكل هذه المعاهدة، تنتهي جمهورية تركيا، في الأناضول (آسيا الصغرى) الهلينية، بينما يكرر التاريخ نفسه سبباً لحرية جدية تتم التضحية بالكرد على طاولة التوقيع في قصر الرومي). وليورد التالي في النهاية (مع دستور عام 1924، تم إنشاء شكل اليوم للدولة الموحدة التركية الوحيدة. ومع ذلك، في الوقت الذي أعيد فيه تصميم الشرق الأوسط بعد قرن من الزمان، لم تكن لوزان، التي اعترض عليها الكرد في أربعة أجزاء، اتفاقية يجب تعديلها، كما ذكر المؤرخ السويسري هانز لوكاس كيسر، ولكن معاهدة يجب التغلب عليها.

بعد مائة عام من إعلان وودرو ويلسون أنهم قاصرون وغير قادرين ديمقراطياً على حكم أنفسهم في الشرق الأوسط، قال الرئيس الأمريكي دونالد ترامب، الذي قرر سحب قواته من سوريا: «حان الوقت zamanı geldi» ليشير ضمناً إلى أن النظرة الاستشراقية والإمبريالية للغرب تجاه الشرق لم تتغير. ومع ذلك، فمن الضروري أيضاً أن الكرد، الذين يريدون تحقيق حقوقهم وحرّياتهم من خلال الاستفادة من التغيير الدوري والتدخل في المنطقة، لتشكيل جمعيّاتهم على أساس مبادئ الأمة الديمقراطية. إن القوى التي شكلت خريطة الشرق الأوسط من خلال النفط والطرق الاستراتيجية إلى البحر الأبيض المتوسط في عام 1923 تعيد تصميم المنطقة لأسباب نفسها اليوم. يجب أن يكون الكرد طرفاً على طاولات المفاوضات في القاعات حيث يتم تحديد مصيرهم، بدلاً من كونهم مراقبين أو جماعات ضغط عند أبواب جنيف ونيويورك وسوتشي. هذا التزام يفرضه التاريخ على الأحزاب والمنظمات السياسية الكردية...)

وغليانه...الخ، رغم أن التاريخ في كل ما يُسميه، حتى بالنسبة لتاريخ غابر، نكون المعنيين به، ونحن الذين نُسأل عنه، بما أننا نحوي كتباً كثيرة، إلى جانب وثائق وملفات بالتوازي معها، وهي بدورها تكوّن تعريفاً بنا، إلى جانب تعيين موقعنا على صعيد التاريخ.

ما أردنا مما تقدّم، هو التحرك في الفضاء التاريخي الواسع، بغية تحديد موقعه «أي علي» بدقة أكثر، وما يكونه اعتباراً في خريطة القوى القائمة على الأرض، ومن يشغلونها، حيث إن الذي كان يقوم به، وجدت نسبة معلومة من قواه توجه إلى خصومه من بني جلدته، مهما أفصحنا عن حقيقة المقابل، وهو لم يكن استثناء طبعاً. وأن الدولة في تعاملها معه، كانت تدير دفة القوة وفق آلية تتناسب وموقع علي بالذات، وأنها في إقدامها وإحجامها، إنما كانت تتطرق من متغيرات القوى على الأرض بالمقابل، إلى جانب وجود من يتصدى له، بالنيابة عنها، وفي الوقت الذي علينا أن نعلم هنا، أن القوى التي وجدت ساحتها، أو مواقعها في الرقعة الجغرافية التي ينتمي إليها علي، لم تكن فارغة من جهة قوات التدخل الرسمية عند اللزوم، وفي الوقت الذي نعلم بالمقابل أنها كانت تخوض حروباً على جبهات عدة في الداخل والخارج.

وعلى الصعيد الكردي، فإن ملاحظة ما، تبّهنا إليها، وهي أن الكرد في انتفاضاتهم أو ثوراتهم، لم يكونوا يوماً، ولا في أي تاريخ مسجّل أو يمكن أن يلمح إليه موحدّين، بالعكس، فإنه في العصر الحديث، ربما أمكن القول أن ضحايا مجاهبات الكرد مع أعدائهم في مختلف جهاتهم، وهم كرد، وممن يحاربون إلى جانب أعدائهم ضد بني جلدتهم، أو جرّاء تحريضهم على بعضهم بعضاً، أكثر بكثير، من ضحايا أعدائهم الفعلين، ممن ليسوا كرداً وفي أشد المواجهات سخونة.

وفي المواجهات بين هفيركان وخصوم هفيركان، والدولة على التخوم، في شرفة التاريخ، وحتى تاريخ متقدم من القرن العشرين، لوحظ مثل الكم من الضحايا، وما يترتب عليه من انجرافات متعاضمة ودامية في الذاكرة الكردية المتشظية، أي ما يشغلني بصدد ما أراه دقيقاً ومفجعاً، وهو حروب أهلية كردية، بدءاً من الحروب العائلية وتدايعياتها، وما لهذه الحروب التي تمثّل مشهديات عنف مختلفة، من رواسب عُرْفية، اجتماعية وثقافية قديمة، وما لهذه الرواسب من تفاعلات تسهم على مر الزمن في إحداث تصادمات تستغرق مدة زمنية، ودون أن تتقطع، طالما أن هناك مسببات لها.

يكون هذا العنف منشطراً، أو منفلقاً، حيث يثير أحد الشطرين الآخر، تذكيراً بوحدة الأصل، وفي حمى من يكون المسيطر، وما يتدخل في هذه المواجهة من قوى لا تحرف هذا العنف العائلي عن مساره فحسب، إنما تعرض سلامة الجميع للخطر.

يشير الباحث الاجتماعي إلى وجه بارز من وجوه هذا التصادم الذي يسمي بيئة واحدة (كثيراً ما يكون هناك جزآن مترابطان ثم يحدث التغير في أحدهما دون أن يحدث في الآخر، أو هو قد يحدث في أحدهم أسرع مما يحدث في الآخر... وهو ما أسميه بـ«التناثر الاجتماعي»⁽¹⁾.

ولا أمتن ولا أدل من هذا الترابط الذي يستشرف عالماً واسعاً من العلاقات المتصارعة وهي تنتمي إلى أصول قرابية واحدة في المنطقة، كما رأينا سابقاً. إنه اختلال في التوازن، والذي ينوّه إلى أنه قابل للاستمرار، طالما أن ليس هناك ما يلغيه كقانون مفصح عن العنف، وهو ما نتلمسه في مجتمعاتنا، ما نتلمسه في الكثير من أحاديث من نعرفهم، في الأوساط الثقافية الكردية، وبالنسبة إلى حملة شهادات عالية، جهة التكتّم على هذه البؤر المعدية، والتوتر الداخلي وظهور علاماته في تعابير الوجه وفي اضطراب الأنفاس، وغيرها، عند تسمية ما كان، ولعله يبعد زمنياً عقوداً طويلة من الزمن نسبياً.

وفي وضع عليكي بطي والبيئة التي عاش فيها، فإنه لا ينفصل فيما قام به عن هذا العنف الأهلي، إذ يؤتى على أثره، حيث يكون للكلام مساره الصحيح، أي باعتبارها فاعل استفزاز لدى الذين يروونه حجر عثرة في طريقهم.

إن جميل حاجو، حين يتحدث عن مثل هذه الصراعات، يقول ما هو أبعد من جغرافية العنف القائمة:

(لقد كنا في صراع قبلي مستمر، تارة مع العشائر المجاورة وتارة أخرى داخل العشيرة نفسها بسبب النزاع العائلي بين آل حاجو وآل سَروخان على قيادة العشيرة، وكان هذا النزاع القبلي والعائلي يسود جميع العشائر الكردية)⁽¹⁾..

(1) الوردی، د. علي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، جامعة بغداد، دار الكتاب الإسلامي، ط1، 2005، م1، ج1، ص 301.

(1) هفيركي، جميل حاجو: مذكرات جميل حاجو هفيركي، المصدر المذكور، ص 63. طبعاً، لا يخفى ما لهذه الكلمة «هفيركي» من شارة دلالية، وباعتها الاجتماعي والتاريخي، خصوصاً وأنها تميز الاسم، وتحدد الخانة الاجتماعية وهي موصولة بـ«هفيركان»، وما في ذلك من تمايز، كما تقول الكلمة وليس مجرد تحليل.

نعم، أن نتحدث عن عليكي بطي، فإنه عن شخص معرف به في إهاب تاريخ عاصف، هو تاريخ كردي، ينشد المزيد، إلى جانب الكشف عن مكوناته، وحين نقول عن عليكي بطي، على أنه رجل قائم بذاته، فهو تحديد وليس كيل مديح، لكنه في وضع كهذا، يرى فيمن حوله، كما تتم رؤيتهم من خلاله في القول والفعل.

وما الأمثلة التي أتينا على ذكرها، وإجراء تحليلات حولها، إلا لمعرفة أدق بالتواريخ الواردة في سجله ومحتواها .

هناك عبارة دقيقة بمحتواها لدوبريه، تجد موقعها المناسب في هذا السياق، وأظنها لا تفهم بسهولة، كتركيب طبعا:

(بمجرد أن يكون هناك أب، فهناك خداع للابن وسلب وارتهان. ولكن بمجرد أن يكون هناك إنسان، فهذا الإنسان أب «رعية، مواطن، مؤمن، مقاتل، محارب» فأمام الذي لا مفر منه، لا بد من ترك شيء جانبا، في الحفظ، والترديد كل صباح أن الابن هو الذي يصنع الأب، وإن الإنسان هو الذي يصنع الآلهة، وليس الأب من يصنع الابن).⁽¹⁾

الذين سلسلناهم، بالنسبة للهفيريكانيين/ الهفيريكيين، من أوصمان/ عتمان، وليس انتهاء بحاجو الثالث وعليكي بطي طبعا، ينتمون إلى العالم الدلالي لما أفصح عنه المفكر الفرنسي دوبريه. هل لنا من تفصيل مناسب للمقولة تلك؟

في النظر إلى سلسلة النسب لأوصمان، نجد أنه الاسم الذي صار نسباً، رغم أنه الابن لأب كان، وهذا معهود به إلى القوة التي أمكنته لأن يغير في سياسة النسب من خلال هذا الحضور المميز في شخصه، أي أوصمان.

هذا ينطبق على حسن الأول، ثم حاجو الأول وصولاً إلى حاجو الثالث، وكذلك الحال مع بطي وعلي «عليكي: الاسم الشعبي».

أي ما يعيدنا مجدداً إلى مآثرة القوة الجامعة بين الدهاء العقلي، واليد الضاربة في المكان والتوقيت المناسبين، ولتراجع موضوع الاسم بالمفهوم الوراثي إلى الوراء، تحت وطأة القوة الفاعلة، وفي النطاق الجغرافي الذي شهد ألعيب كثيرة تهدد استقرار كل عشيرة، تتجنب مثل هذه القاعدة الصلبة البنيان: القوة المركبة.

(1) دوبريه، ريجيس: مذكرات بوجوازي صغير بين نارين وأربعة جدران، ترجمة: د. سهيل ادريس، دار الآداب، بيروت، ط2، 1981، ص 100.

وهذا ما يدفع بنا «بي» إلى استعادة، ما أورده بروينسن في كتابه المعلوم حول ذلك، وفي محورين:

محور الزعامة، وكيف تأتي أكلها، أو تصبح ناضجة، أي تسنح لها الفرصة في الظهور، تجلي سيادتها الاسمية والفعلية:

(إن زعامة الحمولة أو القبيلة يجري توارثها، عموماً، ضمن العائلة نفسها، بيد أنه لا توجد قاعدة ثابتة للخلافة... أما في واقع الحال، فإن هناك عناصر أخرى تدخل في العملية في غالب الأحيان هي: القوة المطلقة والقدرة على التلاعب الذكي. ويتبدى ذلك بقوة حينما تتولى عائلة ثانية، الزعامة من عائلة، كما حصل تكراراً في القبائل الأكبر حجماً ص 183)

وما يحيط بها من متغيرات، ودورها في تغيير ميكانيزم العلاقات، جرّاء مؤثرات الخارج هذه المرة:

(في عام 1847، وهو العام الذي سقطت فيه حكومة بوتان كان زعيم أسرة «آل: عثمان» هو حسن الأول. وكان قائداً قوياً جداً، فمع سقوط إمارة بوتان أمسك بزمام قيادة الهفيركان، واستطاع أن يعزز التنظيم المشتت ويؤسس مجدداً وحدة الاتحاد [الهفيركاني]، وبعد وفاته حل محله ابن أخيه سروخان الأول، وقد اصطدم سروخان مع قوات الدولة والاثوريين المريدين لها، وفي إحدى المعارك وقع في كمين نصبه له السريان المؤيدين للدولة وقطع رأسه وأرسل إلى والي ديار بكر، وبعد ذلك تولى حاجو الثاني، ابن أخيه حسن الأول، زعامة العشيرة في عام 1875.... بعد مقتل حسن قام فرد آخر من العائلة هو خلفي جرجو بطرد كل أبناء حسن من القرية، وأصبح هو الآغا. وبعد نزاعات ومعارك استمرت سنوات طويلة تمكن حاجو الثاني ابن حسن من قتل خلفي جرجو وتولى الزعامة ص 62).

هناك، كما نرى يوجد خط نسب، لكنه ليس مستقراً، إنما يخضع لهزّات بنيوية، تقدّم اسمه ليكون نسباً، أو تتحيه جانباً، وربما تصفّيه، عند اللزوم، ولا تترك له أثراً، إلا ذكرى اللحظة القانصة، حيث يحضر الآخر والذي دشّن نسباً مجدداً.

أي حيث إن كلاً منهم يشغل مساحة اعتبارية محفوظة في ذاكرة جماعته، مثلما أنه يحتفظ بسجل ما هنا وهناك، وبأكثر من لغة طبعاً، لحظة السؤال عن الجهات التي انشغلت بكل اسم، وخاصة: عليكي بطي، ومن بعده حاجو الثالث تسلسلياً.

وفي موضوعه كل من الأب والإبن، وهي موضوعه على غاية من التعقيد، يظهر النسب متفاوتاً في قيمته، أو في نفوذه اجتماعياً، في الفترة التي تشغلنا بحثياً. فليس كل نسب يمكن أن يكون محل اعتبار وتقدير مميزين.

إن الانتساب إلى الأب الأول هنا، وهو الذي صنع شهرة أو ذبوع صيت، هو الإبن أساساً، لكنه الأب اقتداراً. ونحن في متابعتنا لما نعرف به من أسماء وألقاب، هي أنساب، يتبين لنا مدى ربطنا لتلك الأنساب والألقاب التي صارت أنساباً معينة. مهما أوتي أحدهم مقدرة وبراعة في عصرنا الحديث، كما لو أن النسب المعلوم قد بلغ ذروته وتوقف هناك.

وعلى سبيل المثال، بالنسبة إلى من ينتمون راهناً إلى كل من حاجو وبطي، هم أبناء وآباء، لكنهم مشدودون إليهما في المحصلة، بما أن عصرنا هذا، ومع تحولات عاصفة في القرن العشرين، واجه المرء بتحديات أخرى مغايرة. وهو وإن كان يعرف بلقب معين، لكن اسمه هو الذي يشير إليه، وليس هناك جهة تمنحه قيمة مضافة إلا من خلاله، وما تبقى، يكون عائداً إلى التاريخ طبعاً «طبعاً لا أتحدث عن فرحو، ولا عن جلبي في نطاق المنتمين إلى أسرة أو صمان هنا، لأن موضوعي يقتصر على متابعة مستجدات طارئة في نطاق هذين الاسمين: حاجو الثالث وقد تعرضت له في كتابي السالف، وعن بطي: عليكي بطي تحديداً».

صناعة الاسم أكثر من كونها فتح ورشة، مانيفاكثوره، ومصنعاً، أكثر من كونه شق طريق في جبل صلد، أو ركوب الموج العاتي. إنه افتتاح تاريخ والتأمين على جغرافية، في ظروف غاية في التعقيد والصعوبة والمخاطرة بالحياة الجماعية كذلك، وليس الفردية، إنها استراتيجية هنا، وهي دفاعية مفتوحة على جبهات شتى: داخلية وخارجية، ضمن إرادة تطوع قوى غير متاحة لأي كان، كما يُتصور، أو كما يستسهل البعض سهولة ابتداع اسم وجعله لقباً. المهم غناه.

مثلاً، كان لأوصمان أهلية صناعة الاسم اللقب، وكذلك حسن، وحاجو، مروراً بعليكي بطي وحسين فرحو وحاجو الثالث. سوى أن الاسم المطروح لقباً وبالصيغة المعروفة تحول آخر.

أن يجعل الاسم من نفسه لقباً، في الحالة الأخيرة، هو أن يصبح الابن أباً، أباً لجماعة، وربما لعشيرة، وربما لكيان سياسي دولتي، هكذا هم آل عثمان، أتاتورك

نفسه، بنو أمية، بنو العباسيين بدورهم، هكذا كان الساسانيون، والصفويون، وآل سعود، وآل نهيان، وال الصباح وزايد... الخ.

أكثر من ذلك، في حال السلاطين العثمانيين، كان كل سلطان يعرف باسمه وكأنه لقب: السلطان سليم الأول، السلطان سليمان القانوني، السلطان مراد، السلطان عبدالحميد. اسم واحد يتوَّج أباً ولقباً ضمن إمبراطورية كبرى... وفي الحالة الكردية ثم مرونة سياسية واختبار قدرات تترى.

أي حين جعل حاجو من اسمه لقباً، أو أصبح لقباً لعائلة كبرت، كذلك فرحو، كذلك بطي، حيث إن عليك هنا هو عرّاب الاسم، وصانع الاسم واللقب، وفي كل إنشاء اسم لقب: رأس مكلف !

وهو ما يمكن البحث فيه في إطار مستجدات الزمن، وما يكون عليه الناس صعوداً ونزولاً، وما يكون عليه المكان في ظل لعبة الأسماء توحداً، وانقساماً في داخله، ويكون للتاريخ شهادته هنا :

لهذا، وفي ضوء ما أثير حتى الآن، يبرز الكثير من مفارقات المعنى، فإِنْ حركة الزمن الذي من دأبه الحركة المستمرة ليتدفق جارفاً في طريقه جميع ما يعترضه ويقذف به في غياهب الظلام المطبق، يستوي عنده في ذلك تافه الأعمال وما يستحق منها الخلود..⁽¹⁾.

(1) كومينا، أنا «المؤرخة اليونانية»: ألكسياد، ترجمة: حسن حبشي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2004، ص 25.

عليكي بطي في خضم الحرب العالمية الأولى

«في إبان الحرب العالمية الأولى بلغت النزعات الانفصالية ذروتها، وآلت إلى مذابح ومجازر. فقد قطعت الدول الأوروبية يومئذ الوعود الكاذبة لطوائف الإمبراطورية العثمانية، ومن دون أن تقيم اعتباراً البتة للإمانيات العملية للتحقيق والتففيذ، تعهدت بمنح كيان قومي وإقليمي مستقل لكل من الأرمن والكرد والآشوريين والموارنة والعرب . .»

جورج قمر: تعدد الأديان وأنظمة الحكم

«كان تردد الانكليز على كردستان وتحركاتهم فيها تزداد باقترب الحرب واتساع مداها، كما كانت أهدافهم الحقيقية تتضح أكثر فأكثر، مثلما كان الأمر في معظم أرجاء الشرقين الأدنى والأوسط الأخرى، وقبل ابتداء الحرب أخذ نائب القنصل البريطاني في وان يقيم صلات قريبة مع الرؤساء المتنفذين في منطقة بدليس، ومن جهة ثانية، فإن القنصلين البريطانيين في ديار بكر والموصل أخذوا ييثان الدعاية بهمة ونشاط ضد روسيا التي كانت تتطلع نحو كردستان الشرقية والشمالية.»

كمال مظهر أحمد: كردستان في سنوات الحرب العالمية الأولى

لافتة مضاءة

ماالذي تُعلمنا به الحرب العالمية هذه، في المسار الكردي، خصوصاً، وما يشغل بحثنا عموماً؟

سوف أستعين بمثال شعري، أورده جورج قمر في كتابه الذي يشكل عصارة متابعة لمأس من هذا النوع: ما يُتَوَقَّع من القادمين من الخارج من خير، والرغبة في الخلاص من مستبديّ الداخل بشعوبهم، وما يصبجه الخير شراً مستطيراً. وهذا النوع من الشر يمثل «مورثة» مميتة مستحدثة، وهي نتاج تلاقح ما بين مستبدي الداخل والخارج، أي ما بات معروفاً في الأدبيات الاستعمارية الحديثة بـ «الكولونيالية» و«النيوكولونيالية» وتبعاتها في المنطقة «الكومبرادورية».

بما يفيدنا ذلك المثل الشعري، وهو لشاعر لبناني «شارل قمر» رحَّب بالغزو الفرنسي لبلاده، وإذا به ألد من سابقه:

ألا كم كانت مهيبة وجليلة،
من الفولاذ ومن المخمل،
ساعة غور،
حين حطمت الذراع اليتيمة
قيودنا وطردت جلدنا .
ألا كيف كنا نغني الأغاني
للجنود الفرنسيين ونشدهم
قصائد ترتعش فيها أمانينا المؤثرة،
قبل أن تنهمر منا
الدموع فنبكي تبدد كل تل الآمال
العراض وتلاشيها،
وها نحن ذا الآن فريسة الموت
الكئيب البطيء، تنهشنا وكأنا
بهائم مخالب البدو الذين
تتقلقل بهم خيامهم...
ومخالب الاستعماريين⁽¹⁾ .

التعطش إلى رؤية مفتاح الفرج مكلف في بعض الأحيان للشخص الواحد،
وينعكس ربما على نفسه، إذا كان وحيداً، أو عائلته، إذا صحبة عائلة، لكنه باهظ
التكاليف، إذا كان مرتبطاً بجماعة، وتبعاً لموقعها الاجتماعي ووضعها النفسي، فما
بالك، إذا كان المقصود بذلك هو شعب كامل: لا بد أن في ذلك كارثة فعلية، مميتة،
مدمرة، ومخرّبة للواقع.

ربما هكذا تظهر لوحة الحرب العالمية الأولى بالنسبة للشعوب التي عانت ويلات
العثمانيين طويلاً، وبينها الكرد، ولعل هذه الولايات بمختلف صنوفها لم تفارق الكرد،
بالعكس، لقد فرخت وعششت في مناحي الحياة المختلفة، وصار في مقدور كل كردي
يقظ إلى ما يجري، أن يشدد عليها، وهي في تنوعها منذ قرن وربع قرن على الأقل.

(1) قرم، جورج: تعدد الأديان وأنظمة الحكم، المصدر المذكور، ص 358.

وبدت المفاجآت التي تهيأ لها الكرد على أنها إشعار لهم بدخول واحة الأمان، وأن القرن العشرين سوف يكون مطلقاً في بنيته القيمية عن «أشقائه» من القرون الأخرى، تبين أنه كان أكثر شراسة، أكثر خبثاً، أكثر توقفاً إلى سفك الدماء.

يعني ذلك أن حرباً كان قد خطط لها ضد الكرد، في الداخل العثماني- التركي، قبل أي حرب أخرى، كالحرب العالمية الأولى، وأن هذه الحرب التي نفذت بنسبة من مشاركة كردية ضد الأرمن، قبل أي شعب آخر، معرضة إياه للقتل الجماعي، والتهجير الجماعي، والتتكيل الجماعي، في تسعينيات القرن التاسع عشر، أو في مختتمه الدامي، ثم أُنستكملت الخطة بصورة أبسع وأوسع نطاقاً في مستهل الحرب الكبرى تالياً، لكي يزداد الكرد ضعفاً، ولكي يصبح الكرد أكثر رفضاً لهم، في مطالبهم الحقوقية العادلة على خلفية ممارسات كهذه، خطط لها، كما أسلفت، ومن قبل أجهزة الدول الاستخباراتية الكبرى، ودون تجاهل الدولة العثمانية المنهارة، إنما المقامة تالياً بعد حين، في كيان سياسي جديد، لتأخذ من حيث القيمة، أكثر مما أعطي لأي دولة أخرى خارجاً، بمفهوم الاحتلال واغتصاب الشعوب الأخرى، وكأن الكرد الذين دفعوا الكثير من دمائهم، وأوجاعهم، وضرائب الولايات والنكبات و«سفربرلك» العثمانية، لم يفهم كل ذلك، ليتم الدفع بهم، كما سنرى لاحقاً، كي يشهدوا انخراطاً آخر، وهو الذي أفصح أكثر من أي وقت مضى، الشارة الكبرى على مدى انخداعهم بالذين استمالوهم ونالوا منهم «من جهة سياسة أتاتورك، وهو يشرك الكرد في المسماة ب: الحرب الوطنية الكبرى، التي أشعلت نارها، بعد أن حطت الكبرى أوزارها»، وغطت هذه الحروب المتسلسلة على مختلف الأنشطة الكردية ذات الصبغة التحريرية القومية، حيثما كانوا، وهذا يعني أن الكثير من الوقائع التاريخية، والمجابهات الدامية، ومنها البطولات الكردية في مواجهة هؤلاء الأعداء، ومن تعاونوا معهم بمختلف إمكاناتهم، قد هُُمشت، أو تم حجبها وراء دخان المعارك الكبرى لدول متنفذة مثل بريطانيا وفرنسا في المنطقة، ولم يكن في مقدور الذاكرة الشفاهية الكردية في هذه المجابهات أن تسجل ما كان يجري، إذ إنها هي نفسها عاشت مثل هذه الولايات، وأعييتها عملية التسجيل جرّاء هول الصدام.

أجدني ملزماً، ومن باب الوفاء لما هو تاريخي، الإشارة إلى بعض النقاط المفصلية والدراماتيكية، والتي أعقبت قيام «ثورة 1908» بتداعياتها المريعة، أي وقد أنجبت المولود الأكثر شراسة «تركيّا العنصرية»، وكما ينقلها إلينا جويده في كتابه السالف ذكره:

(وفاقاً «تبعاً» لإلْفنسْتِن، دعمت اللجنة القومية الكردية جمعية الاتحاد والترقي «مقابل ضمانات معينة» ولكن يبدو أن حركة تركيا الفتاة تراجعت عن وعدها عندما شرعت بقمعها العشوائي للحركات المختلفة. حكمت بالإعدام على أمين عالي بدرخان والجنرال شريف باشا وأرغما على الهرب من البلاد..ص259).^(١).

وما يضيء هذا الجانب أكثر:

(ظهرت البوادر الأولى للصراع الوشيك بين الكرد وبين حركة تركيا الفتاة بعد فترة قصيرة من النجاح الأولي لثورة تركيا الفتاة. حرّض الشيخ سعيد برزنجي السليمانى عام 1908، على تمرد قبيلة هماوند تحدياً لحركة تركيا الفتاة ودعماً للسلطان...ص268)

لاحظوا كيف يتم التعامل، كما لو أن دعم السلطان يعنى التحرك في المسار السليم، وهو مسار انتحاري:

(لعل أكثر الأفعال إثارة من زعيم كردي دعماً للسلطان المخلوع هو الإجراء الذي اتخذه إبراهيم باشا رئيس اتحاد العشائر المليية وقائد الأفواج الحميدية. عندما وصلت أنباء سقوط عبد الحميد إلى إبراهيم باشا في نيسان 1909، زحف على دمشق على رأس خمسمائة كردي واحتل المدينة باسم السلطان. إلا أنه سرعان ما أرغم على الانسحاب. وفي طريق عودته إلى معقله في ويرانشهر، قتل في منطقة جبل عبد العزيز أثناء اشتباك مع قبائل شمر الذين أرسلتهم حركة تركيا الفتاة للإغارة عليه. ص269)

وتلك واقعة مأساوية حقاً، تعبيراً عن الذهنية «الكردية» وكيف تعيش أوضاعاً غاية في السوء والمفارقات^(٢).

(1) أذكر أن حفيد إبراهيم باشا هذا، وهو المحامي إسماعيل، إن لم تخنّي الذاكرة، وقد عرفته شخصياً في تسعينيات القرن الماضي، توفي في السعودية، وأريد أن يدفن بجواره، فرفضت قبيلة «الجبور» في المنطقة دفنه، وكان ردها، كما تنهى إلي: ما خلصنا من واحد، حتى نصير باثنين. وتلك عبارات دلالة عميقة ومؤلمة كذلك.

(2) هناك الكثير من المواجهات والدسائس التي اعتمدها العثمانيون ومن ثم «الاتحاديون» من منظور طوراني عنصري ضد حركة عبدالسلام الذي عرف بالكثير من ضبط النفس، والسماحة والصيت الحسن، والذي أشرف على إعدامه، كان الضابط الكردي الأصل سليمان نظيف. ويمكن متابعة ذلك بتوسع في كتاب متين فاضل طه: حركة الشيخ الشهيد

عبد السلام البرزاني، مكتبة جزيرة، دهوك، والكتاب في الأصل عبارة عن رسالة ماجستير في التاريخ.

مثلاً، بدءاً من «بروز الشيخ عبد السلام البارزاني كداعية قومي» ص 103، وما بعد. ويُقرأ مثلاً، أيضاً في كتاب جويده حول سلوكية هذا الضابط وشراسته: ويبدو أن والي الموصل الجديد سليمان نظيف، الذي كان من أعضاء حركة تركيا الفتاة المتحمسين، صمّم على قمع كل من عارضوا أفكار النظام الجديد وسياساته. ص 279.

وورد في الكتاب هذا، أنه جرى شنقه مع ثلاثة من أتباعه بعد قضاء فترة من الزمن.. وكان ذلك سنة 1914. ص 280.

ويمكن التشديد أكثر في هذه النقطة، بالنسبة إلى سياسة الاتحاد والترقي، وخصوصاً مناورات مصطفى كمال باشا، وضباطه في تعاملهم مع الكرد، كما يذكر سلوبي «قذري جميل باشا» في كتابه السالف ذكره: في سبيل كردستان، مصطفى كمال باشا وقد تعيّن أثناء الحرب قائداً للجيش الثاني في ديار بكر، أقام علاقات ممتازة مع الأمراء الكرد... تظاهر بأنه ضد سياسة تحطيم الكرد، وقام بتسليم مهام حفظ الأمن في مقره للفيلق الكردي، الذي كان أفراده يرتدون الزي القومي الكردي، ويقوده حسن خير بك من ديرسيم، وبالطبع، كان هذا التصرف لا ينسجم مع سياسة الحكومة التركية التي بذلت كل محاولاتها لإزالة كلمة «كرد» من الحياة. إلا أن مصطفى باشا استمر في مراوغاته تلك، وبدأ يصطحب معه في مختلف الجلسات واللقاءات، طفلين كرديين يتيمين، يتراوح عمرهما بين 8-10 سنوات، ويرتديان ألبسة كردية نظيفة، كاللباس الذي يرتديه أفراد الفيلق الكردي. ص 53.

ويعلق تالياً مباشرة: وفي الوقت نفسه سادت حالة رهيبة يصعب تصورها ووصفها، بالنسبة للأطفال الكرد المشردين والجياع والملقين على حافات الطرقات كالهياكل العظمية، بالأبستهم البالية، التي لا تحمي أجسادهم النحيلة من البرد والريح. وفي ليالي الشتاء القارصة تراههم قطعاً جليدية صماء مغلقة بالخرق البالية.. ص 53.

وما كان لذلك من تأثير في ما قام مصطفى كمال في الأوساط الكردية، بحيث راح البعض يتحدث عن الأصل الكردي لمصطفى كمال. ص 54.. وهو ما رأيناه في اقتباسات مالميسانز منه، مع وجود تغييرات، كما في تشكيل منظمة تحت اسم «جمعية البعث الكردية» في ديار بكر من قبل أعضاء جمعية «هيشي» على إثر الإعلان عن برنامج الرئيس الأمريكي ولسون بنقاطه الأربع عشرة... وقد أُلقيت كلمات بهذه المناسبة، ومنها كلمة الخوجة حاجي أفندي.. ومن ضمن ما قاله في كلمته، وصفه للإمبراطورية العثمانية بجسد كبير أصابته الغنغرينا، وطالب بإبعاد الأجزاء الصالحة من الجسد عن الأجزاء المريضة، وصرح بأنه يجب عدم التهاون أو التردد في تحرير كردستان من هذه الغنغرينا. ص 56.

«في كتاب مالميسانز: الاسم هو: حميد أفندي خوجه، ص 43، وقوله: لقد أصيب جسد الدولة العثمانية، بمرض عضال، وهذا المرض العضال بدأ يستفحل في جميع أطراف الوطن...» وهناك إشارة لافتة إلى مذكرات كاظم قره بكر باشا وعنوانها «حرب من أجل الاستقلال»، وفي الصفحة 106، يستشهد بالفقرات الأولى من القرار الذي اتخذ في 6 آب 1919 في مؤتمر

«جمعية الدفاع عن الحقوق في الأناضول الشرقية» الذي انعقد في أرضروم، حيث يذكر بأن «ولاية ترابزون مع سنجق جانيك متساوية في الحقوق مع أي ولاية من ولايات أرضروم، سيواس، ديار بكر، مامونتو، العزيز، وان، وبدليس، التي تسمى جميعها باسم ولايات الأناضول الشرقية..ص59»...

ويشدد في الصفحة «216» على إسلامية الغالبية العظمى من سكان أراضي الإمبراطورية العثمانية. وكل العناصر القاطنة في هذه الأراضي هم أخوة...ص59.

وفي هذا السياق ما ينبّه إلى وهم الحديث عما كان يُسمى بـ «الرجل المريض» بالنسبة إلى الدولة العثمانية، إذ كان الرجل الشرس في الداخل، وبدعم معين من القوى الكبرى كذلك.

أشير هنا إلى مقال بشكجي «الرجل المريض»

İsmail Beşikci: Hasta Adam, www.nerinaazad.org, 13.01.2017

إسماعيل بشكجي: الرجل المريض

كما في قوله (المفهوم الأساسي الذي سيتم تناوله هنا هو مفهوم «الرجل المريض». من المهم فحص وتقييم هذا المفهوم. ثانياً، يجب فحص مفهوم التشكيلات الخاصة Teşkilat-ı Mahsusa ومحتوى تنظيمها.

ف:من النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بدأت الإمبراطورية العثمانية تُعرف باسم «الرجل المريض». تم استخدام هذا المفهوم لأول مرة من قبل الروسي قيصر نيقولا الأول. قال القيصر هذا في عام 1853، خلال محادثة، إلى سيمور، سفير روسيا في بريطانيا العظمى. عندما أبلغ لندن بذلك، انتشر هذا المفهوم في جميع أنحاء الغرب.

تم استخدام هذا المفهوم في جميع أنحاء روسيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، في الربع الأول من القرن العشرين، من قبل روسيا وبريطانيا العظمى وفرنسا وألمانيا وإيطاليا والولايات المتحدة الأمريكية. يمكن أن يستند هذا الفكر على مصادر عديدة.

وما هو مهم وخطير: ماذا حدث خلال الحرب العالمية الأولى عام 1915 وما بعده؟ تم دحض ما يقرب من 1.5 مليون من السكان الأرمن بسبب الإبادة الجماعية. لاحظ أن «الرجل المريض» يقوم بهذه العمليات ليس فقط في جزء معين من غرب أرمينيا أو كردستان، ولكن في كل مكان....الخ).

أشير هنا أيضاً إلى أن بشكجي في كتابه: تناقضات المستعمرين على اقتسام كردستان، المصدر المذكور، في الصفحة «101» أن سنة التسمية هي «1851»، وفي مناسبة جديرة بالقول (سنة 1851، لُقّب قيصر نيقولا الأول الدولة العثمانية بـ «الرجل المريض»، واقترح فكرة اقتسام الدولة العثمانية، فرفض هذا الاقتراح من قبل انكلترا، واقترحت انكلترا هذه أنها تبذل ما في وسعها لمعالجة «الرجل المريض». والصحيح هو أن انكلترا من النصف الثاني للقرن التاسع عشر كانت مع وحدة أراضي الدولة العثمانية، وكان لها هدف من وراء ذلك: ميناء ستانبول، والأمر الثاني يخص مشاكل كردستان وأرمينيا. وكان الهدف الأهم هو محاولة ألا يصبح العثمانيون مجال نفوذ لروسيا). تُرى، لو تم تقاسم أراضي الدولة العثمانية وقتذاك، أي مصير كان ستكون عليه كردستان؟ الجواب في ذمة القوى الاستعمارية المتنفذة، وإلى الآن.

(لم تؤد الإجراءات التي تبنتها الحكومة العثمانية في وجه التملل والعناد الكردي المتزايد سوى إلى زيادة غربة الكرد . على سبيل المثال، حاولت الحكومة في نهاية عام 1910 جمع الضرائب من قبيلة جاف، القبيلة الأقوى في جنوبي كردستان، التي لم تدفعها منذ بدء حركة تركيا الفتاة، ودعي الزعيم القبلي البارز محمود باشا إلى الموصل واحتجز هناك قرابة العام، ثم أطلق سراحه في النهاية، إلا أن المسألة لم تُسوّ على نحو مرضٍ . واحتجز في بغداد مصطفى باشا، زعيم باجلان في منطقة خانقين بعض الوقت، عام 1912، إثر الارتياح في ميوله المساندة للبريطانيين، بوصفه مشتبهاً فيه سياسياً . وفي السنة نفسها قتلت الشرطة التركية في بوتان سليمان بدرخان في سياق اضطرابات أدت إلى محاولة عقد المصالحة بين حركة تركيا الفتاة وبين القوميين الكرد . ص 270)

وما يوسّع دائرة الضغوط على الكرد :

(شكلت الأحداث الخطيرة لحربي البلقان الأولى والثانية، التي توجت بسلسلة من الهزائم المذلّة للقوات العثمانية، ضغطاً غير مسبوق على ولاء الكرد المتراجع . ووفقاً لتقرير بريطاني رسمي، عندما استولى الجيش البلغاري على أدرنة القوية في هجوم صاعق في 26 آذار عام 1913، وبدت ستانبول ذاتها مهددة بمصير مشابه بدا أن عدداً من القبائل الكردية قررت إنهاء الصلة بالعثمانيين . وذكر أن قبائل مللي وقرقشلي وكيكان وبرازي وافقت على تشكيل اتحاد بهدف إعلان استقلالها في حالة سقوط ستانبول بأيدي البلغار... ص 271).

وهناك ساحة مواجهة كبرى، وقد حمي وطيسها :

وفي البرنامج الوثائقي: مصطفى كمال أتاتورك، المقدم في «الجزيرة الوثائقية»، مثلاً، في الجزء الثاني، يوم الأربعاء 10-6/ 2020 عصرًا، تم التعرض للكثير من أنشطة أتاتورك و«حرب الاستقلال» وسياساته في الداخل: العلماني الأوربي ضد الخلافة الإسلامي، والتركي ضد الأوربي واقتداء به في اقتباس قوانينه، وحتى «رسم أبجديته»، والمفارقة، أنه أشير في هذا الجزء إلى ثورة/ انتفاضة الشيخ سعيد، وكما هو الوصف السائد لكل الانتفاضات أو ثورات الكرد ضد مستبديهم، أشير إلي بـ «عصيان الشيخ سعيد»، والأكثر لفتاً للنظر، ما يمكن لكرد اليوم، وهم يقرؤون تاريخهم، ويعيشون تداعياته إلى اليوم، هو الإفصاح عن أن الشيخ سعيد واجه أتاتورك ليعيد الخلافة الإسلامية العثمانية إلى ما كانت عليه «طبعاً، تلك كانت وجهة نظر أكاديمي إسلامي». أي رغم تسمية سعيد بـ «الكردية»...

(لعل أبرز زعيم كردي كان على الحكومة العثمانية التعامل معه أثناء هذه الفترة هو الشيخ عبدالسلام الثاني زعيم قبيلة بارزان. كان صراع الشيخ عبدالسلام مع حركة تركيا الفتاة تتويجاً للصراع بين شيوخ بارزان والسلطات العثمانية...الخ. ص 272)

وهناك ما يفجر مسوغاً لتدخل القوى الدولية، وتنامي أحقاد السلطات المحلية، حيث يجري التعامل مع الشعوب المضطَّهدة كبيادق شطرنج.

إذ كما أشير إلى ما قاله قرم في كتابه «تعدد الأديان» بخصوص مآسي الحرب العالمية الأولى، والوعود الكاذبة، أو المعسولة التي قدّمها الأوربيون لهذه الشعوب، لم يكن الهدف إطلاقاً تحريرها، كما يُتوقَّع، أو حتى يُفترض في سياق الكلام، وإنما «تفجيرها» و«تحويلها»، ليقول فيما بعد (وقد كان الغرض من كل ذلك الإجهاز على الإمبراطورية العثمانية، بل إعادة القسطنطينية إلى اليونانيين، وتجنيد أكبر عدد ممكن من القوات المحلية الموالية التي لها معرفة جيدة بالأرض. وغني عن البيان أن أشد أنصار الحلفاء حماسة واندفاعاً كانوا أبناء الأقليات المسيحية الذين ظلّت دعاية القناصل والمبشرين تنشط في وسطهم على امتداد قرنين كاملين من الزمن، وقد أقبلوا بالفعل على التطوع بحمية تلهبهم مشاعر القربى الدينية التي كانت الدولة الأجنبية قد استغلّتها إيما استغلال مصورة نفسها على أنها محررتهم المنتظرة من السيطرة الإسلامية التي طال أمدها...ص343).

ليقول فيما بعد في ضوء غلو الأتراك في العنف ضد من ثاروا ضدهم (وعلى كل حال، كان تحقيق كيانات إقليمية للأرمن والنساطرة والكرد يصطدم بعقبات كأداء، نظراً إلى أن هذه الطوائف نادراً ما كانت تشكل جماعات ديموغرافية متجانسة، بل كانت عناصرها السكانية مشتتة ومتداخلة مع عناصر أخرى...ص345).

أين يقف عليكي بطي الآن، في ضوء هذه النقاط الأنفة الذكر؟ لا بل كيف بات في الإمكان الحديث عن عليكي بطي، في ضوء كل هذه المكابلات، وصنوف الويل التي تعرضت لها شعوب المنطقة، وضمنه: كرده ؟

يقال، إن التاريخ لن يتوقف، وتلك بداهة. لكنه تاريخ البشر في مختلف تحركاتهم وأنشطتهم، في حلهم وترحالهم، وهو متغير ومتحول، طالما أن هناك من يُسمى بـ «الإنسان» وهناك ما يضيف إلى التاريخ باسمه، ولهذا، فإن لكل إنسان، بصورة ما

سهمه في بناء التاريخ أو تلوينه، أو ما يُعتقد أنه تاريخ له حضور فيه، فأني بصمة
لعليكي بطي في هذا التاريخ الأوقيانوسي الهائل؟

كل هذا الكلام الذي تم نثره في الكتاب، لا بد أن يرفع من سقفه الزمني
التاريخي، ومن استحقاقه لأن يتكلم باسمه.

وانما بناءً على أي صيغة، حيث إن عليكي بطي الذي عرفناه حتى الآن، وفي مداه
الجغرافي يشكل محارب جبهات؟

مقارنة بما تم ذكره، بالمفهوم التاريخي، يظهر أن الآتي أكثر سخونة، أكثر
مكاشفة في النطاق الجغرافي العثماني- التركي، وكذلك من كانوا يراقبون أي تحرك
من هذا النوع، اعتماداً على رجالاتهم «استخباراتهم» بصيغ شتى، أي الانكليز
والفرنساوية وغيرهم، وما بقي يشهد بارتفاع درجة حرارة رقعته، وتلبد سمائه بالغيوم
على أكثر من منوال، حيث إن الأكثر تحدياً للانحرافات والمناورات السلبية في وسطه
هو الأكثر تعرضاً للعنف، على قدر السلبيات هذه. أكثر من ذلك، يظهر أن الذي
ينتظره نوعي، وربما كان نتيجة لما عرف به سابقاً، من أشكال تحدياته تلك، وهو ما
سيأخذ منا حيزاً يتناسب ولائحة النقاط الأكثر حساسية وخطورة، إن من الناحية
الاجتماعية، أو السياسية، كمواقف متداخلة تعرف به.

يكون الحديث متمحوراً حول مناخات هذه الحرب، وما تمخضت عنه من
نزاعات، وانفجارات، ونتائج مختلفة، تطلبت في ضوئها تخطيطات جديدة، وسريعة،
استناداً إلى السرعات القياسية التي فجرت المنطقة الواسعة ظاهراً وباطناً.

من هنا يمكن البدء، مجدداً، مع جبو، واللوحة التأريخية التالية، حيث الدخول في
المنحدر التاريخي الصعب:

(عاشت الدولة العثمانية أيامها الأخيرة في الحرب العالمية الأولى «1914-
1918»، فقد كانت غائصة حتى ركبتيها في وحل المشاكل، ومن بينها نشاط القوميين
الأرمن على الحدود الشرقية وحصولهم على دعم الروس. ولهذا السبب، وبدعم من
ألوية الفرسان الحميدية، اعتقلت كل الوجهاء الكرد الذين اعتقدت بأنهم يشكلون
خطرًا في «مناطقهم». وكان لآغوات هفيركان نصيبهم من هذا الاعتقال. فقد تم
جميع الكثير من أولئك الآغوات وأرسلوا إلى سجن خربوت، وكان علي بطي من بينهم.
وفيما عداه كان هناك آغوات مهمون من الهفيركان مثل، خليل بطي، حاجو الثاني،
جلبي، سرحان، حسيني فرحو، عبيدي فرحو، والزعيم السرياني شمعون حنا حيدو،

ومن آغوات هرمس، الآغا عليكي سكفان، ومن آغوات ديركفان الآغا حيتو وعَمري شيرو، وأثناء مكوثه في السجن أجرى علي بطي لقاءات مطولة مع جميع زعماء هفيركان. وفي نهاية هذه اللقاءات أخذ يفكر في الفرار من السجن والقيام بحركة ضد الدولة. وبعد فترة قصيرة فر علي بطي وشمعون حنا وجاءا إلى هفيركان في عام 1913 أو 1914. ص 79

هي المرة الأولى التي يجري فيها اعتقال جماعي على هذه الشاكلة، ولا بد أن هذا الاعتقال ترافق مع اعتقالات أخرى، في مناطق أخرى من كردستان، أو حيثما تواجد زعماء أو وجهاء كرد، ربما، وكما هو الممكن تفسيره، لأن تقارير مسحية للمنطقة في عمومها كانت تُرفع إلى السلطات المختصة، وفي مثل هذا الوضع المنفجر، مع اندلاع الحرب العالمية هذه. دون ذلك يبدو أنه من الصعب استيعاب هذا الاعتقال. وما يقربنا من المشهد، وهو يدخلنا مجدداً في دوامة الصورة الجماعية الملتقطة للكرد، وأعني بذلك، أن عملية الاعتقال هذه شملت من كانوا مع الدولة بالذات، وهذا يطرح سؤالاً في وقته، وهو: ما الذي جرى؟ لم يجر شيء إطلاقاً، إنما هي ذهنية العدو التاريخي، والتي تتخذ موقفاً مبدئياً/جوهرياً من الكرد عموماً، وهم في المحصلة سواء، أي لا يفرق بين كردي هو في أقصى درجة من النبذ له، والحرب ضده، وكردي هو في الطرف المعاكس تماماً، يمشي في ركابه، ويأتمر بأمره، لكنه ينظر إلى الكرد، وهذا ملاحظة وجيهة ونبيهة، على أنهم خرجوا من «البيضة» النسبية عينها، مثلما أن هؤلاء العثمانيين ومن في إثرهم فقستهم بيضة عثمان أورطغرل، والملاحظة هذه، ليست جديدة نصها، أو تاريخها الملتهب، وإنما يمكن أن ترينا مختلف مراحل التاريخ، وإلى هذه اللحظة، على أن الكرد هم كرد، وليس هناك كردي «أصلي» وكردي مزيف، أو متواطئ مع عدو بني جلدته، تحت تأثير نزعة شكيّة، وهي أنه ربما لاحقاً، أو في قلّة نفسية منه، قد تنبهه ذاكرته الجماعية على الانحراف الذي وقع فيه، فيحاول الالتحاق بسربه الرئيس، وكما ذكرنا في البداية بخصوص موقف أتاتورك من الذين رحّلهم إلى جهات متباعدة، وطابعها العقابي، وضمناً، كان هناك من تعاونوا معه في حروبه الجبهاتية المختلفة. والتفسير الذي قدّمه أتاتورك لمن استغرب مسلماً كهذا من «سيّده» هو أنه لا يمكن لك أن تثق بمن يخون قوميته، أو بني جلدته، فهو بالطريقة هذه، يعني أنه شخص لا يؤتمن، وإنما ينبغي الحذر منه.

الأليف الغريب

وعلى طريقة «مصائب قوم عند قوم فوائد» ربما يستدعي الناظر في هذه اللمة

«الهفيركانية، مقولة مؤثرة تاريخياً، وهي أن هؤلاء الذي أُعتقلوا ولم يجمع مكان شملهم يوماً، لعله يذكّرهم بموطنهم الموحد، أو يكون على الأقل الدرس المرسل في فضاء التاريخ، وأكثر من ذلك، الموجه إلى الغد، وإلى من يمتلك قابلية التفكير السليم في مكاشفة حقيقة مرّة كهذه، وقد وضعوا في السجن، وهم يواجهون بعضهم بعضاً، أو تجمعهم حالة واحدة، من إيلام عدو مشترك أولاً وأخيراً، في الوقت الذي يشغل النص سؤال نص التاريخ، جهة الدقة، وكما لاحظ المترجم، بخصوص تاريخ الاعتقال، وهو ما يدفع بنا إلى طرح السؤال التاريخي: أي رواية تاريخية اعتمدها، في نقل هذه الواقعة؟ لعلها منقولة بتواتر معين.

في السياق نفسه، وما يعمّق الجرح الكردي، هو ما يكون متوقعاً طبعاً، أي جهة الفرسان الحميدية، ممن لهم دور في اعتقال من ذُكروا في الاقتباس، ولا بد أن الدعم متجاوز ما هو مادي، إنما معنوي كذلك، أي معرفة هؤلاء لجغرافية المنطقة، وللذين يعيشون فيها، وكيف يمكن التعامل معهم، أو مخاطبتهم، أي بوصفهم عيوناً على بني جلدتهم، والعصا الضاربة، كما ذكرنا سالفاً، بأيدي أعدائهم ضد الكرد، وهو ما يسهل التعرف إليه في سياق القول تاريخياً.

سوى أن تعميق أثر وجداني يحفّزنا على المتابعة والنظر في الجاري، وهو ظهور الشخصية السريانية البطلة: شمعون حنا حيدو، الأقرب إلى الخل الويفي لعلكي بطي، وتلوينه لمسار الأحداث الساخنة حتى اغتيال عليكي بطي نفسه.

هذا الأثر الوجداني الذي يترجم قوة العلاقات الاجتماعية بين مكونات هفيركان، ويأتي هذا التلاحم الوجداني، المصيري، والتاريخي على خلفية من هذه العلاقة القوية بالتأكيد، والتي تعلمنا بالذين قدموا من الخارج، كما هو حال القوى التي تدير دفة الحكم، أن أساليب شتى قد خطّط لها، لكي ينتفي أو يتداعى مجتمع بمثل هذه السمات، وهي من صميم الأخلاقيات البطرياركية الشرقية، والتي تجد حضوراً لها في تلك الصراعات الجانبية التي تضعف الأطراف جميعاً، فتستمر تلك.

في الإطار نفسه، وبخصوص السجن، يمكن للسؤال التالي أن يطرح نفسه، وهو: كيف أمكن الخروج، بهذه السهولة، من السجن؟

وقبل هذا وذاك، هناك ما يمكن اعتباره سؤال السجن الأساسي: بامتداد هذه الفترة الزمنية الطويلة نسبياً «3 سنوات»، وكانت ستطول أكثر، لأن هناك ما خُطّط له، من قبل الدولة وأعاونها أو حلفائها، لتنفيذه في المنطقة، ومن ذلك تنفيذ المجازر

ضد السريان، وضرب الكرد بعضهم ببعض أكثر. لهذا: ماالذي كان يدور في ذلك السجن الرهيب الغريب ؟

ليس لدينا أي مصدر يفيدنا بنوع من التغطية، ولو الخبرية، عما كان يجري معه، جهة موقعه في السجن، هو وصديق طفولته شمعون حني حيدو، وآخرون، كما رأينا، وكيف كان يمضي أوقاته، جهة علاقاته، جهة تعامله الذاتي. إذ لا بد أن هناك تفاعلات، وأحاديث جانبية، ذات صلة بما يُسمَّى بـ «مناخ السجن، تربيته، مجتمعه، الذين وضعوا فيه، ومن أين هم...الخ»، ليس لدينا سوى ما يمكن قوله، في ضوء ما جرى بعده بعد الهروب من السجن ذاك، وتداعياته، حيث إن الذي كان يسيطر على مشاعر الناس وأحاسيسهم هو جو الحرب وأخبارها ورعبها كذلك.

ولعل الناظر في ذلك التاريخ، يلاحظ أن المنطقة كانت داخلة في أتون الحرب الكبرى، وبالتالي، فإنه لم يكن هناك ذلك الاهتمام بنوعية الحراسة على السجن وإدارته، بمقدار أنه لم يكن متوقعاً مثل هذا الخروج، يضاف إلى ذلك، أن الناس حينذاك كانوا يكابدون قسوة الجوع، مما يعني إمكان الاتصال بالقيّمين على السجن، ومن ثم تسهيل خروج من خرجوا بعد تقديم رشوة معينة «طبعاً هناك روايات شفاهية، سوف نتوقف عندها، بهذا الخصوص في فصل مستقل».

ومن جهة أخرى، لا علينا أن نتوقع أن هؤلاء الذين خرجوا، سوف يجدون من يعترض طريقهم في الحال، لأن التاريخ المذكور، إلى جانب حالة الحرب التي أعدت لها، كان ذلك يعني عدم رؤية الناس، كما هم في حالة السلم، خوفاً من القبض عليهم وإرسالهم إلى جبهات الحرب المميتة، وكذلك، فإن طبيعة المنطقة الجبلية والشجرية والمائية كذلك، تمكن من التحرك والتواري عن الأنظار أوالاختفاء، وعدم وجود تلك الآليات التي تسارع إلى اللحاق بهم واعتقالهم مجدداً، ولو أننا نأخذ في الحسبان، ما سيتضح تالياً، بقاء قوة عسكرية تركية، من باب الاحتياط، توقعاً لقيام انتفاضات أو حالات تمردات، وليس عملية هروب من السجن، وإلا لما كان هناك هروب أصلاً، لو توافرت الحراسة المطلوبة، ذلك ما ينبغي أخذه بعين الاعتبار، لحظة قراءة الاقتباس، وكيفية كتابته، أو نقله من رواية ما .

ولهذا، فإن التالي يشير إلى الملاحقة، كما يذكر جبو:

(تعقبت قوات الدولة علي بطي لبعض الوقت بعد فراره من السجن. إلا أن رchy الحرب العالمية الأولى كانت تدور بسرعة، وكانت الدولة تتكبد خسائر كبيرة، كما أن قواتها العسكرية في المنطقة كانت غير كافية، ولهذا توقفت عن مطاردته، وبهذا أتيح

لعلي بطي أن يستقر في مدياد ويبدأ العمل من أجل الخطط التي تم وضعها في السجن مع آغوات هفيران. (ص 80).

تلك نقلة نوعية، كما لو أن اعتقالهم كان إشارة إلى لزوم اعتماد هذه الخطة أولاً، ومن ثم، حين تم وقف عملية المطاردة، تأكيداً للذين خرجوا من السجن، عن أن الدولة ليست بتلك القوة التي تدفع بهم إلى التواري عن الأنظار كلياً، في ظل سوق كثيرين من شباب الكرد، كما رأينا، عدا الذين انخرطوا في الكتائب الحميدية، فلم يبق في المنطقة إلا من كان متوارياً عن الأنظار، مخفياً، أو من لم يسلم نفسه، فاقصد في تحركاته، وكل ذلك من المحفزات التي دفعت بعليكي بطي ومن معه من رفاقه لأن يخططوا للقدام من الأيام، أي أن يدخلوا، هذه المرة، في مواجهة مباشرة، ليس مع الدولة، وقد اشتهوا رائحة ضعفها، وإنما الذين كانوا متحالفين معها، من العشائر والقبائل في المنطقة، وهي المتاخمة لهفيران.

طبعاً، وكما رأينا في نقاط سالفة، وما أكثرها من نقاط، ليس هناك معلومات تفيد بكيفية التخطيط، ومن هم هؤلاء الذين تحلقوا حول عليكي بطي. من من آغوات هفيران اصطف معه، أو لبى نداءه، ومن أثر الابتعاد عنه، كما في المرحلة السابقة على الاعتقال الجماعي، ليعود إلى ما كان عليه وهو يناصبه العداء. تبقى التخمينات هي سيدة الموقف، أو هي المرشد التوضيحي لما كان يفكر فيه عليكي بطي، وتوقع من يمكن أن ينهضوا معه في خطوته التالية، ولعل أول من يمكن التفكير فيه، هو خلّه الوفي شمعون حنا حيدو، وفي الحالة هذه أيضاً، لا يعقل أنه وحده، إنما هناك من وقفوا معه، من «جماعيته» من السريان، وكذلك من الإيزيديين الذين ينبغي التذكير بهم، وثمة تاريخ يدعم مدى إخلاصهم لاتحادهم، أو بصورة أدق لمن اغتيلوا، كما في حال حاجو الثاني، فيكون هناك من ساندوا عليكي بطي، لأكثر من سبب، ليس لأنهم من القبيلة ذاتها، وإنما تلبية لواجب تأري، له دوره في المقام هذا، وحتى من الذين تعاونوا مع الدولة ضدهم.

وقبل الانتقال إلى الخطوة التالية، أيضاً، لا بد من السؤال عمّن بقي في المنطقة، أي عن وجود من كانوا يحيطون به، ومن كانوا على علم بأمره، وحتى ما يمكن أن يقوم به في الانتقام من الدولة عينها، وهو ينتهز الفرصة المؤاتية.

سؤال جائر، وربما كان جوابه المعقول، أو الوارد بالمقابل، هو أن نعم، لا بد أن هناك من يتتبع تحركاته، ويرصد كل خطوة يقوم بها، إلا أن الذي يحسب له ألف حساب، هو مدى الخشية من سطوته ومن انتقامه المباشر، إذ ربما كان هروبه ومن

معه من آغوات هفيران، تأكيداً لبطولة مسجلة باسمه، وزيادة في مخاوف الناس الذين كانوا يعرفونه، فهذا الذي أهان الدولة «دولة بذاتها» وكسر شوكتها، إثر الخروج من السجن، وكيف كانت الأخبار تتناقل هذه العملية، وهي في انتقالها من لسان إلى آخر، تضيف عنصر قوة آخر إلى شخصيته، لا بد أن الذي سوّلت له نفسه في أن يشي به، أو يحدد مكانه مباشرة، أن يحسب لفعله ألف حساب، وهو يتخيل المصير البائس الذي ينتظره، فيحصل التراجع بالتالي.

ومن هذا المنحى، يغدو الحديث عما هو ديني وهو يتداخل مع ما هو اجتماعي وسياسي، نوعاً من التطعيم الأكثر أهلية لأن يصبح فيه الإنسان أقرب إلى نفسه وإلى الآخرين، من من منظور التنوع والاختلاف، وحتى العطاء والتجدد.

وبناء عليه، فإن الحديث عن هفيران، هو حديث شيق من ناحية، كونه يمضي بنا إلى هذا المركب الاجتماعي الذي تجد فيه ثالوثاً من العقائد الدينية: الإيزيدية، المسيحية فالإسلام، تبعاً للتسلسل الزمني لكل دين، وبالمقابل، يكون تواجد الكردي الإيزيدي، السرياني المسيحي، والكردي المسلم في منظومة قيمية واحدة، في وحدة مصير، وضمن جغرافية محدودة، ومعلومة بنظام اتحادي «كونفدرالية هفيران غاية في الانفتاح والتفاعل الاجتماعي من ناحية أخرى. يقول جبو حول ذلك:

(ويمكن القول بدون مبالغة، أن العلاقات الودية بين المسلمين وغير المسلمين في هفيران وطور عابدين لم يكن لها مثل في أية بقعة من بلاد المسلمين، بل حتى في مناطق أخرى من كردستان. وقد لفتت هذه الحالة انتباه بروينسن أيضاً إذ كتب قائلاً: إن المسيحيين الذين يعيشون بين الدوركان «وهي عشيرة مرتبطة باتحاد عشائر هفيران. جبو» وبين الهفيرانيين أقل تعرضاً للاضطهاد، سياسياً واقتصادياً من المسيحيين الذين يعيشون في مناطق أخرى من كردستان، بل حتى أنهم كانوا يعدون من منتسبي العشيرة. ص 80).

من الجائز القول، أن كل تقويم إيجابي بخصوص علاقة مركبة كهذه، إنما ينطلق من واقع الحال القائم بين أديان ومعتقدات مختلفة، وعلى وقع تسقط الأخبار، ومن خلال علاقات مباشرة، يأتي التحديد الاعتباري لما يجري بين منتم إلى دين أو مذهب ديني وآخر، ولكم شغلت العلاقات الدينية البشر، لكم شغلت هذه العلاقات الأمم والشعوب، ساستها ومفكرها، كتابها المميزين والعادين، فنانيها، وأهل العلم والمعارف المختلفة فيها، أما من لهم صلة مباشرة بما هو ديني، من رجالات أديان، أو معتقدات على وجه البسيطة، أو في العالم، وفي مختلف العصور، ونظراً لدور الدين الفاعل في

التاريخ، فحدث ولا حرج، كما يقال، إذ من خلال هذا التمايز بين دين وخلافه، معتقد وسواه، كان يجري التسلل إلى الداخل من قبل من لهم مصالح ضد أي تقارب ديني، أو اجتماعي- ديني مختلف، وتفجير الأوضاع، وإلى هذه اللحظة.

ولولا سريان فعل هذا المؤثر «الكوروني» المدمر في النفوس والرؤوس، لما كان هذا الحديث، أو هذا التأكيد من قبل جبو، وهو المنتمي إلى هذا الاتحاد، ولا كان حديث سلفه والذي اقتبس منه واقعة مشاهدة وترجمة واقعة، أي بروينسن في كتابه المعروف «الآغا والشيخ والدولة» الصيغة المعروفة التي تحمل طيَّ عباءتها مثل هذا التنويع في العلاقات.

ولأكثر من سبب، كما هو معلوم، لعب الدين دوراً كبيراً في حياة المسلمين، قبل آلاف السنين، أسباب بيئية، تاريخية، اجتماعية، سياسية ونفسية... الخ، وكانت سلوكات الكرد تتّرجم مثل هذا التأثير، إلى الآن.

مأثورات ضاغطة:

في كتاب جويده السالف ذكره، نماذج من هذه المأثورات الدينية وتوجهاتها القيمية:

(يلعب رجال الدين، في حياة الكرد دوراً يوازي الدور الذي يلعبه الزعماء، إن لم يكن أكبر وأكثر فعالية. وحتى اليوم لا يزال لرجل الدين أو الشيخ مكانة الصدارة، لذا أفردت للمسألة قسماً تفصيلياً في هذا الفصل. ص100).

هذا صحيح. ومن جهتي، عاينت ولا زلت أعاين وأشاهد ذلك، من حيث كنت أعيش في قامشلو والمدن التي تقع في امتداداتها الحدودية «تربه سبي شرقاً وما بعدها، وعامودا غرباً وما بعدها»، وحيث أقيم الآن في دهوك، فالأماكن الدينية، وبالنسبة للجوامع، ثمة كثرة لافتة في إقليم كردستان العراق، وهناك الكنائس ودور العبادة للإيزيديين، والكاكائيين، وحتى اليهود، كان لهم حضور في الإقليم، أكثر من غيره، وهذا له تاريخ طويل.

من جهة أخرى، ينبغي التوضيح قليلاً بصدد الحديث عن «رجال الدين» وإن كنتُ أستخدم هذه العبارة، فبالمعنى العام لها طبعاً، وبغية الربط بين ممثلي العقائد والأديان، إذ إن الحديث رجل الدين، يذكّر في الحال بالمسيحي، أكثر من سواه، لما يتميز به من تنويع مهام: من الإرشاد الديني، فالتعليم الديني، والاقتصار في حياته على ما هو ديني وتبشيري، كما في الكاثوليكية، بالنسبة للرهبنة، حيث الامتناع عن

الزواج تلبية لواجب الدين مدى الحياة، وحيث يتواجد الدير والكنيسة. على صعيد بقية الأديان، كما في الإيزيدية والإسلام، لا شيء من هذا الحصر في النظر إلى العالم والنفس، كما هو معلوم.

في العودة إلى جويده، هناك نماذج من هذه العلاقات:

(عام 1921 وأثناء مناقشة العلاقة بين الكرد وزعمائهم، تحدث الرائد وليم ربرت هي، وهو واحد من الإنكليز الذين عملوا في الإدارة البريطانية في العراق فقال: ينقسم زعماء الكرد إلى «آغوات حسني السيرة والسلوك» و«آغوات سيئين». الأوائل يعاملون أتباعهم وكأنهم أبناءهم. أما الآخرون فيستغلون أتباعهم ويقمعونهم أنى تسنى لهم ذلك. ص 100).

وفي إشارة أخرى، وفيها ما يفيد في تنوير هذه العلاقة بين القبلي والديني، والطابع الاجتماعي لكل منهما:

(يتميز المجتمع الكردي بتمسكه الشديد بالرابط القبلي الذي أثبتت الأحداث أنه أقوى بكثير من الرابط الديني. ص 101).

للتوضيح، فإن ما يقول جويده، يعبر عن مشاهدات شخصية، كونه عراقي الأصل، ولو أنه أمضى شطراً كبيراً من حياته في أميركا وتوفي هناك، إنما هناك ما يوضح هذه النقطة أكثر، وتتمثل في مدى الانحراف عن هذا التحديد القيمي، أي من يتأثرون بما هو ديني، ومنه يحددون لقاتهم مع المختلفين عنهم دينياً، والمبشرون من الغرب، إلى جانب الدور التحريضي الكبير الذي لعبته السلطات في المنطقة «في الدولة العثمانية، وحتى مع الاتحاد والترقي رغم اعتباره علمانياً» ضد المسيحيين، وفي الواجهة الأرمن، والسريان، باعتبارهم «عملاء الغرب» أو متواطئين معه، فكان ما كان من مأس طبعاً.

هناك أمثلة جديرة بالذكر يأتي جويده على ذكرها في هذا المقام:

(قبل الحرب العالمية الأولى وعلى الضفة اليسرى لنهرالزاب، كانت قبيلة الهرتوشي البدوية الكردية الكبرى «ربما الأرتوشي، كوني أعيش في المنطقة» وقبيلة التيارية المسيحية تعيشان جنباً إلى جنب وخاضتا معاً - بسبب تحدرهما من نسل واحد - حرباً ضد المسيحيين النساطرة والكرد المسلمين المقيمين على الضفة اليمنى لنهر الزاب. الأولون كانوا يُسمون باسكي تشب أي سكان الضفة اليسرى «بالكردية

Baskê çep. ملاحظة من الكاتب إبراهيم محمود» والآخرين يسمون باسكي راست أي سكان الضفة اليمنى «بالكردية أيضاً Baskê rast. ملاحظة من الكاتب إبراهيم محمود». وقبل ذلك، حين قضي الأمر على الإمارة الكردية، حارب المسيحيون الأرمن، جنباً إلى جنب مع الكرد المسلمين المقيمين في جبال ساسون في مواجهة الجيوش العثمانية بقيادة رشيد محمد باشا، حتى انهزما معاً.

وربما المثل الأكثر غرابة والذي يمثل تجاوز الكرد للرابط الديني، قدمه مسلمو إمارة هكاري ومسيحيوها التي عرفت المجد والعز أوائل القرن التاسع عشر. في إمارة هكاري، وفي حال غياب أميرها المسلم، كانت المسئولية تنتقل إلى البطريرك النسطوري المسيحي، فيتولى إدارة شئون البلاد كافة، من دون اعتراض من أحد، حتى أنه كان يستقبل موفدي السلطان، مما يعني موافقة الباب العالي على التقليد المتبع في إمارة هكاري، بين المسلمين والمسيحيين. ص 102⁽¹⁾.

ذلك وارد جرّاء التعايش الطويل الأمد بين مختلف الأديان وأصحابها في المنطقة، إلى جانب الروايات التاريخية التي تشير إلى الأصل الكردي للنساطرة، وكما هو واضح في إشارة جويده «وهو مؤلف مسيحي وأثار دهشة كل من قرأ كتابه هذا عن الكرد من مختلف الأديان، على تلك الدقة والموضوعية في تناوله التاريخي للأحداث والوقائع، وبالنسبة للكرد وصلاتهم التاريخية بالمسيحيين ووحدة المصير فيما بينهم» وكما يمكن متابعة ذلك هنا وهناك، كما يشير جبّو.

(1) ربما جاءت الواقعة هذه، من لدن جويده، من قراءته لكتاب نيكيتين الشهير «الكرد» المرجع لكل الذين أرادوا، ولأزوالوا، الاطلاع على الكرد، من النواحي كافة، وضمناً الأدب الشعبي، من أشعار، ورقص، وغناء وغيره. وهنا أشير إلى مثال «هكاري» حيث يقول في مصدره المذكور سابقاً (وللهكاري عُرِف غريب يخص كيفية توليهم السلطة. فإذ تبين أن الـ «خان» المحلي غير جدير بتولي أعباء الحكم، يدعى جميع الوجوه والأعيان إلى الاجتماع، فينظر هؤلاء في الوضع. وإذا تبين لهم أنه غير جدير بالحكم وثبت زوال حقه، وضع أمامه زوج من الحذاء، وعليه أن يحتذيها ويغادر الاجتماع، بعد إعطاء موافقته على تعيين شخص آخر سواء لتسلم الحكم، ولكن أموال المعزول وأملاكه لا تصدر من قبل أحد. ص 258).

ذلك غريب فعلاً، نظراً لأنه مغاير لأعراف عموم المقيمين في المنطقة، ولا بد أن في وضع زوج الحذاء أمام «الخان» المرغوب في تنحيته جانباً لعدم صلاحيته على إدارة أمور القبيلة، كما يظهر، وجماع من تم ذكرهم، ما يشير إلى لزوم الخروج من الاجتماع، إنما مع التقدير له «أي جهة من يضع زوج الحذاء» أما عن انتعالهما، فهي شارة المغادرة، أو المفارقة للمجلس، وبإيدان أو موافقة من المتواجدين فيه.

في الجانب الآخر، وكتوضيح للعلاقة المعقدة بين أصحاب الطوائف والأديان، ومن منطلق ديني، قيل الكثير في ذلك، ويمكن القول أن في الكثير من هذا الكثير، ما يثير العواطف والمشاعر سلباً، استناداً إلى أغلب ما يقال ويتردد، أو يثار في هذا المضمار الزلق تاريخياً، ونتيجة وجود هوى في النفوس، ومن يحاول إثارة البلبلة بذلك.

وربما كان تركيز جويده، وكوننا نتحدث عن البعد الديني في العلاقات القائمة بين أفراد هفيران، على إمارة بوتان، وأميرها بدرخان بك، وما أثير في هذا الصدد، ربما يبرز ما قيل في عموم الأمراء الكرد وأكثر، جهة الطبيعة المعقدة، والتي حملت من السلبيات، وما له من محفزات جانبية مغرضة من قبل المبشرين الغرب ورجالاتهم، وكما يقول جويده نفسه، يوجد الكثير من ذلك، ودون نسيان أن هذا النقد الموجه إلى بدرخان بك، ربما يتأتى من إعجابه بشخصه، ومن قدرته على إدارة الأمور وفلاحه فيها، إلا في هذا الجانب، الذي أفصح عن انزلاقه، والسماح للقوى الأوربية المتنفذة في المنطقة وضمناً «بوتان» في أن تمارس لعبتها في التشويش عليه، وفي تحريض العثمانيين وغيرهم عليه كذلك، وفي الوقت الذي يجب ألا يُنسى، وهو أن الهفيرانيين كانوا متحالفين مع البدرخانيين مذ وجدوا، ولهذا تأثير في العلاقات القائمة بين الهفيرانيين أنفسهم، وهي نقطة غاية في الأهمية، جهة انتقال أصدقاء العلاقة السلبية المذكورة بخصوص تعامل بدرخان بك مع النساطرة..

وهناك صفحات طوال في هذا الجانب، تأكيداً على هذا المتردد، وربما لوجود تعقيدات استثنائية في هذا الموضوع «صص 168-193». ففي الفقرة المعنونة بـ «صفات الأمير بدرخان» يقول:

(ما من شك أن بدرخان واحد من أعظم الزعماء الكرد الذين عرفهم التاريخ. فالطريق التي تمكن خلالها من انتشال نفسه من الحضيض والوصول إلى قمة النفوذ والثروة كافية للاقتناع أنه يمتلك صفات جد مميزة. بالنسبة إلى الكرد، كان الزعيم المثالي الذكي، له حضوره ويتمتع بإطلالة خاصة تجعل الآخرين يهابونه ويحترمونه في آن. كان إنساناً شجاعاً حازماً في اتخاذ قراراته طموحاً، تقياً، وورعاً. لا شك أن اجتماع كل هذه الصفات برجل واحد ستجعل منه عظيماً ولكن في الوقت نفسه قد يتحول هذا الشخص إلى نقيضه، إذ تتحول الشجاعة إلى تهور والعزم إلى عناد والتقى إلى تعصب أعمى.

ويسترسل في الكلام: في الوقت ذاته كان بدرخان يتصرف كمجرم أحياناً، وأكبر

دليل على ذلك تصرفه الوحشي في قمع النساطرة المقيمين في أعالي الجبال، الذي بين عدم امتلاكه الحكمة الكافية للتعامل مع الآخرين. ص 172).

طبعاً، لا بد أن هذا المستل من الكتاب، وهو يشكل كشفاً بيانياً، اجتماعياً وسياسياً ودينياً كذلك لشخصية بدرخان بك، يحفز في إرادة الباحث قواه النفسية للنظر في كل كلمة وجدت طريقها إلى هذا الكشف، جرّاء هذا الاهتمام به.

فمن جهة التقدير له، يُلاحظ أن جويده، هذا الباحث المفكر، لم يقل ما هو إنشائي «عاطفي» إنما بناء على قراءات مختلفة، وبأكثر من لغة، كما تكشف هوامشه، وتلك بداهة، بالنسبة إلى رجل معرفة كبير، ويشعر القارئ في بنية كل عبارة قيلت في بدرخان بك، من موقع النقد، وهو يبرز سلبية له، وبالنسبة لتعامله مع النساطرة، كانت السلبية قاتلة، انطلاقاً من مكاشفاته للموضوع، يشعر أنه كان يتمنى ألا يحصل ذلك، وربما لقناعته أنه كان يستطيع تجنب ذلك.

من جهة أخرى، فإن قراءة سردية «العوامل التي أكسبت حملة بدرخان على بلاد النساطرة أهميتها» (ص 176-187) أي أكثر من عشر صفحات، تشير إلى تداخل العوامل، وهي تتراوح بين وجود مبررات لما جرى، رغم فظاعة ما جرى، ومسوّغات تبرئ بدرخان مما قام به من أعمال العنف الدموي في النساطرة. أي ما يصلنا بصراع المصالح ليس بين المسلمين والمسيحيين «إذا حسبناها دينياً»، وإنما بين المسلمين «الکرد هنا» والمسيحيين «النساطرة أنفسهم» وهذا يزيد النار اشتعالاً، كما في الحديث عن دور (التفكك النسطوري - الخلافات النسطورية الداخلية. ص 178)، وهناك دور (أمير هكاري، فمردّ غضبه على البطريرك مرده إلى رفض هذا الأخير مساعدته في حملته على العمادية. ص 180)، وهناك (دور المبشرين الأميركيين. ص 182) الخ.

وإنما دون نسيان ملاحظات وإشارات أخرى إلى خضن التعقيدات التي وضعت فيها بوتان، إفصاحاً عن وضعها المميز، وتعبيراً عن التدخلات من كل حذب وصوب، وحيث إن جويده نفسه، من خلال قائمة الأمثلة، ومن ثم الاقتباسات التي ينقلها عن مصادر مختلفة، يترك الحكم الأخير للقارئ، رغم أنه يضيء ساحة الإمارة هذه، عالياً وسافلاً كثيراً، ورغم ذلك يبقى هناك ما يمكن النظر فيه.

وأذكر هنا أخيراً، أنه في مثال مأخوذ من مصدر أجنبي، وفي الهامش الأول، من الصفحة «188» يشير إلى جانب حوار يخص الدائر في إمارته (وفقاً لويغرام، قرّر أحد أشقاء بدرخان بك الذي خشي الكساد الاقتصادي في نهاية المطاف إذا سمح

باستمرار المذابح من دون وقفها، عرض المسألة على شقيقه على نحو مثير. دخل يوماً قاعة استقبال الأمير بوصفه فلاحاً نسطورياً يحمل مجرفة على كتفه. تحير كل الحاضرين بمن فيهم الأمير، الذي قال، «ما شاء الله، ما معنى هذه المسخرة؟» أوضح شقيق الأمير آنذاك أنه إذا أبيد كل النساطرة كما بدا الأمير مصمماً على ذلك فسيضطر كل كردي إلى حرث الأرض. وقال إنه قرر البدء بممارسة مهنته المستقبلية...).

يبقى هذا المثال لماحاً وذا مغزى عميق، ودالاً على تمادي الأمير في ملاحقة النساطرة، والنيل منهم، ويظهر شقيقه مدركاً لخطورة النتائج، فيما لو استمرت الحالة على الوتيرة نفسها.

في هذا المثال، يلقي اللوم على الأمير، وربما كان المعني يتمنى ألا يحصل ما يحصل، تعبيراً عن تقديره للأمير.

ومن هذا المثال الآخر، يظهر لنا مدى تعقيد الخريطة السياسية في المنطقة، وفي الواجهة الدينية المعتبرة لها، إلى جانب الخلافات التي لم تكن تهدأ، حيث الحدود المفتوحة، والتي كانت تسهل مرور وجوه شتى إلى قلب الإمبراطورية العثمانية بالذات، وتمنح امتيازات داخلياً وخارجاً، لعبت هي الأخرى دورها اللافت فيما تقدم.

في مثال إيجابي، يخدم غرضنا البحثي من جهة، ويشدد على قوة العلاقات الاجتماعية لدى «هفيركان» من خلال سياسة زعمائها، ومنهم عليكي بطي، والوقوف ضد أي محاولة لدك الإسفين بين أفرادها، من جهة أخرى، يتحدث جورج قرم عما يضيء هذه الواقعة (في معرض كلامه عن وضع النساطرة زمن بداية نشاط الإرساليات التبشيرية، يكتب جون جوزف، في دراسة متبحرة له عن العلاقات بين النساطرة وجيرانهم المسلمين، فيقول: «كان من العسير تمييز النساطرة عن جيرانهم المسلمين الذين كانوا يعيشون بين ظهرائهم ولكن من دون أن يختلطوا بهم، وذلك بالنظر إلى ما كان يجمع بينهم من محيط اجتماعي وطبيعي مشترك، وفي بعض الحالات أصل إثني مشترك. وكان ينشأ عن اختلاف الدين تباين سافر في بعض الحالات المنفردة، ولكن تشابه العرف والعادة في أمور المسكن والملبس والمطعم وآداب المعاشرة والنشاط الاقتصادي والتسلية والإيمان بالخرافات كان ينزع إلى محو معظم الفروق بينهم. لقد كان خط الفصل دينياً، لكن الحفرة لم تستحل هوة إلا يوم دخل الشرق والغرب في اتصال حميم مع كل الطرفين في القرن التاسع عشر»⁽¹⁾).

(1) قرم، جورج: تعدد الأديان وأنظمة الحكم، المصدر المذكور، ص 331.

وفي هذا الإطار، وجرّاء التدخلات الخارجية، ورغبة من افتتتوا بالامتيازات التي أعطيت لهم من ممثلي المسيحيين في المنطقة، وما ترتب على ذلك من صراعات دامية، وتدخلات إثر أخرى في الجاري، ثمة الكثير مما تردد حول ذلك، وهأنذا أشير إلى بعض منها، من خلال كتاب المفكر اللبناني «المسيحي» والشهير «تعدد الأديان وأنظمة الحكم» حيث الأمثلة الحية تلون تاريخها :

(في دراسة عن سلوك الأقليات الأرمنية في داخل العالم الإسلامي يكتب هـ. شاكماجيان يقول: عانى أرمن الإمبراطورية التركية في القرن السابع عشر من الخصومات الفئوي والصراعات بين القوميين وأنصار البابوية وما استتبعته من تدخلات من جانب الحكومة التركية أكثر بكثير مما عانوا من اضطهاد- تركي مخطط له. ص 325).

ويتابع قرم قائلاً تالياً مباشرة، ومقتبساً هذه المرة أيضاً من أحد الكتاب الغربيين (ولا يتردد رودريك ديفيسون من جهته في أن يكتب قائلاً: «كان نصارى الإمبراطورية العثمانيون مصدراً لقلق متواصلة لكثرة مشاحناتهم الفئوية الناشئة إما عن المنازعات على الامتيازات على الأماكن المقدسة، وإما عن مشكلة وجوب أو عدم وجوب تبعية البلغار للسلك الكهنوتي الرومي أو الحسوني، وإما عن المساجلات بصدد سلطة البابا على الكاثوليك الأرمن، وكان بعض النصارى يثيرون القلاقل بانتقالهم من ملة إلى أخرى، كلباً لمنافع سياسية أو لحماية أجنبية. وما كانت هذه المشاحنات الفئوية المسيحية تضرب قدوة حسنة للمسلمين، فضلاً عن أنها كانت تسبب متاعب أكيدة للباب العالي وتقدم ذرائع لتدخل الدول الكبرى. ص 326).

وما يقوله في موضع آخر، بخصوص التداخل بين الدين والمصالح القومية:

(واضح كل الوضوح للعيان إذن، على حد تعبير أحد أولئك الأحرار، أن «الدين والمصالح» القومية قرينان لا يفترقان في نظر الفرنسيين والإنكليز. فقد كان الممثلون المدنيون والدينيون لهاتين الأمتين يبلون قصارى جهودهم لكسب زبائن يكون لهم نفعهم من منظور التجارة أو المطامع السياسية، ويجري تجنيدهم إيثاراً من بين النصارى. وكانت المدارس والكتب والأموال تدعم جهودهم وتغذيها. ص 337).

وفي الهامش «50» من الصفحة «343» هناك ما يشير إلى العنف الهمجي للروس والانكليز واليونانيين ضد المسلمين، والكرد في الواجهة، وبلسان جون جوزف، والذي ذكر في مكان سابق، حيث نقرأ (كتب جون جوزف يقول: «ولا يجوز بحال من الأحوال

السكوت على الفضائع التي اقترفها بحق السكان المسلمين. فحيثما مروا، تركوا وراءهم السكان المسلمين في حال من الإملاق والعداء. إذ كانوا ينهاون أقواتهم، ويسلبونهم ماشيتهم ودوابهم، ويقضون على الألاف منهم بالموت جوعاً. وحين تمكن قوزاق باراتوف من أسر راوندوز، لم يبقَ من السكان الكرد سوى عشرين بالمئة على قيد الحياة ليتذكروا ذلك اليوم». «الناشطة وجيرانهم المسلمون...» المصدر الآنف الذكر. أي ضمن كتاب قرم «ولا حاجة بنا إلى التذكير بأن فرقاً من النساطرة، ممن كانوا يعيشون سالفاً في تفاهم ممتاز مع جيرانهم الكرد، كانت تقاتل إلى جانب القوات الروسية. ويسير علينا أن نتخيل عمليات الثأر والانتقام التي تعرض إليها النساطرة حين انسحبت القوات الروسية من أذربيجان الفارسية في أعقاب ثورة (1917). وفي مكان آخر، وأحدث تاريخياً:

(وفي العراق، وعلى أثر اكتشاف حقول النفط في منطقة الموصل، داعب الإنكليز من جديد الحلم بإنشاء دولة آشورية في ذلك القسم من البلاد تكون بمثابة حاجز واق في مواجهة مطالب الأتراك والعراقيين، ومن دون أن يعتبر النساطرة بدروس الماضي تجندوا من جديد لتشكيل فرق صدّامية خاصة تتولى قمع الانتفاضة القومية العربية والكردية، وهذا ما استتبع، حين عزف الإنكليز عن تلك السياسة، عمليات انتقامية عنيفة أدت إلى نزوح جزئي جديد، إلى سوريا هذه المرة. ص 349). ... الخ

مقصدي من هذا الكلام، في تنوع مرجعياته بالمقابل، ليس استعراض أقوال الآخرين في نقطة حساسة للغاية، وإنما هو نوع من الاستبيان القاعدي لتاريخ شائك والقوى المتنفذة التي كان لها أكثر من دور في نصب شبّاكها لتلك القوى الأقل محدودية نفوذ، وكيف جرى التخطيط لكي تدخل في مناوشات جانبية، أو يعطى لهذه القوة الاثنية أو الدينية الامتياز الذي يخرجها عن حدود قوتها المعروفة، والتعدي على الآخرين، وكيف أن الذين استمروا هذه اللعبة، وذاقوا عسلاً، إنما نسوا أن وراء مذاق العسل هناك ما يشبه السم الزعاف، جرّاء ردود أفعال، كانت تجد طريقها أولاً إلى نفوس من تضرروا، ومن ثم انتظروا الفرصة السانحة، ليعيدوا اللعبة معكوسة هذه المرة، في سباق مارتوني وضد مارتوني.

ومقصدي من هذا الكلام أيضاً، هو ذلك التاريخ الملحمي السلبي العلامة، لقائمة الشعوب التي أصبحت رازحة تحت قوى الأجنبي، في الداخل والخارج، وانقسمت على نفسها جرّاء التلاعب بمشاعرها وعواطفها، وتخلت عن ذلك السيستام الثقافى

والاجتماعي التاريخي اعتباراً، للعلاقات الوطيدة بين جميع مكونات المنطقة، دون استثناءات جانبية تُذكر، كما رأينا في صفحات سابقة، وأن هذا الذي أُشير إليه، يضع الجميع في مواجهة صور وجوههم في مرآة التاريخ الفعلية، وليس المرآة المنصوبة لهم، كي يروا وجوههم التي يريدونهم، لا كما هي في الواقع، أي ما يعكس تطلعات وآمالاً تُثير أهواء في النفوس، وتجعل الحافة المهلكة مغامرة جديرة جديرة بالقفز والوقوع في هَوَّتها ونسيان الارتطام المدوِّي.

ومن وجهة نظري، وكباحث في تاريخ معضل من هذا النوع، ثمة أرشيف محفوظ باسم التاريخ، تجد كل طائفة، كل اثنية، وكل جماعة بشرية في المنطقة ما يواجهها بأخطاء قاتلة أحياناً، وهي بدلاً من الدخول في حوار مفترض سلمياً مع من كانوا جيراناً لها، أو مع من بينهم «خبز وملح» وأكثر (اعتمدت لغة التهديد والتكيل والقتل)⁽¹⁾.

(1) ربما في المصدر نفسه، يعثر القارئ في هذا المضمّن، على ما يروي غليله التاريخي والثقافي، بصدد السلوكيات البغيضة التي تم اعتمادها بعد مرحلة ما يُسمى بـ«استقلال البلاد العربية»، صص353-374..الخ.

وما يعمّق هذا النطاق، ما ركّز عليه جورج قرم، في كتابه الأحدث: نحو مقاربة دنيوية للنزاعات في الشرق الأوسط، المصدر المذكور، بصدد النظر في العلاقة بين الجغرافية والتاريخ وآلية العنف في كل ذلك، في دول المنطقة، كما في هذا الاقتباس التالي (في هذا الإطار المبسّط من التحليل، ليس للبلد أو البلدان المعنية تاريخ ولا هي تعرف حتى التغير التاريخي هي بلاد جامدة تعاني عيوباً أنثروبولوجية هائلة تُفسّر انفجار كل أشكال العنف فيها، حيث إنها غير قادرة على التطور والتحديث والتنظيم والتكيف مع العالم الحديث).

ويتابع قائلاً، ومن باب التوضيح أيضاً: كم من قصص رُوّجت عن لبنان ويوغسلافيا والعراق وسوريا وليبيا أو اليمن ليست سوى نسيج من الحقائق المزيفة، أُطلقت بشكل مفرط لهدف وحيد هو إضفاء الشرعية على العنف الذي تشهده هذه المجتمعات التي تتدخل فيها القوى الخارجية بأعظم ما تيسّر لها من قوة سياسية وإعلامية وعسكرية... (صص45).

طبعاً، ومن باب الإعلام، فإن هذا الكتاب الشديد السخونة، أُلّف أساساً وصدر بالفرنسية، في باريس سنة 2012، وبالترجمة العربية، سنة 2014، على خلفيات مما يُسمى بـ«الربيع العربي»...!

ولعلي أجد من المناسب، بهذا الصدد، إيراد فقرات من كتاب الميجر نوئيل: ملاحظة في الوضعية الكردية، تقديم: أ. د. عبدالفتاح علي البوتاني، مركز الدراسات الكردية وحفظ الوثائق، دهوك، 2009.

إنها قائمة من المعلومات التي سطرها ضابط انكليزي متنفذ، وتنتقل في مناطق الصراع، والذي قيل فيها الكثير، عن التصادمات بين كل من الكرد والأرمن والسريان، وميزة كل منهما،

ومن ذلك: آمد ومحيطها، رغم أن الذي يتفوه به نوئيل حرفياً، لا يؤخذ به، ولكنها تبقى شهادة مهمة في هذا الجانب، على الأقل، تثير الكثير من النقاشات: من ذلك أنه يشير إلى تسليط بدرخان بك لجيشه على النساطرة. ص 15. وتعليقه، وتوضيحه وكذلك موقفه النقدي لا يتم تجاهله: لسوء الحظ أن الكردية «الكردية» في أوروبا يلاحظ كرجل وحشي وبربري والذي جلّ عمله في الحياة هو ذبح الأرمن ويشكل فهم كيف أن هذه الفكرة الكاذبة تماماً أصبحت شائعة من أن جميع السواح الأوربيين لأجل الملاحظة في كردستان قد رجعوا وهم في فكر مساعد جداً للكرد مع هذا، بسبب فعالية الصحف التبشيرية والجمعية الأرمنية القوية جداً في انكلترا، فإن فكرة عامة مضادة للكرد رائجة في أوروبا، وقد تبين أن الكردي هو أحسن عنصر لموظفي وفي أعمال شرطتنا في العراق وأن فرق العمال التي تشكلت في الحرب أظهرت أن تجنيد الكرد أنتج نتائجاً حسناً أكثر من تجنيد العرب والعجم. ص 17.

وبصدد العلاقة بين الكرد والنساطرة جهة النوعية، وقد خبر الموضوع من جوانب مختلفة، أي ما يذكر بجانب مهم، ولا يخلو من مفارقة صارخة، كما في حال العرب. إذ يوجد العربي اليهودي، المسيحي والمسلم، وهذه بداهة تاريخية، وثمة من عبّر عن توجهه العروبي، أو القومي العربي المتشدد، وهو مسيحي «ميشيل عفلق، مثلاً، رغم أنه أسلم، لكن إسلامه له منحى آخر، وهناك قبله، وهو من أوائل من نظّر لفكرة القومية العربية، أي جورج أنطونيوس، في كتابه «بقطة العرب»، وقسطنطين زريق، ونقولا زيادة... الخ»، فلماذا لا يقال ذلك في الكرد، كمفهوم قومي، أو اثني، وفيه تعددية مذاهب، حيث يوجد الكردي اليهودي «كثيراً ما يتم قبول وجود للكردي اليهودي» ربما لتأكيد نوع من «العمالة السوقية، أو المساواة هنا»، والكردي المسيحي، وله تاريخ عريق في المنطقة، كما في حال النساطرة؟ أما فكرة ربط الكردي بالإسلام، فهي نظرة أقل ما يمكن القول فيها هي أنها تعسفية، وإيديولوجية.. أما الكردي الإيزيدي فهذا معترف به.

ماذا يقول نوئيل بخصوص صلة النساطرة «مذهبياً» «بالكرد» اثنيّاً، أو قومياً؟
إن [النساطرة] المتعلمين يؤكدون مع بيان السبب أنهم كانوا كرداً وآمنوا بالمسيحية قبل مجيء الإسلام وإن الحقيقة الباقية هي أنهم يتكلمون الكردية ولهم تنظيمات قبائلية تقريباً كأظمة عشائر الكرد المحيطة بهم. ص 20.

وفي سياق الموقف من الحساسيات القائمة بين كل من الكرد والجغرافية، وثمة جغرافية تصل ما بينهما:

إن كل من له اختبار عام عن هذه البلاد يدرك بكمال الوضوح أنه لو أطلقت يد الأرمن لأظهروا أنفسهم وحشيين وسفاكي للدماء إن لم يكن أكثر فمثل الكرد. ص 21.

وجهة اقتدار الكرد، وليس بدائيته، وعدم أهليته لأن يكون صاحب يد صانعة:
يقال أن الكردي لا يمكنه أن يعيش اقتصادياً بغير الأرمن، ولكن توجد الأهالي الكردية بأكثرية تقريباً في الجنوب الشرقي من كردستان مع أن الحياة الاقتصادية للهيئة تتقدم بدون إشكال، التجار، العرافين، الصناع، وأصحاب الدكاكين جميعهم كرد. ص 23.

هذا ينطبق على الكرد في نسبة منهم، وهم ينساقون وراء مصالحهم المشيخية أو الإقطاعية أو الفئوية، في التعامل مع أي قوة أُستهدف من ورائها ضرب الكردي بالكردي تخلصاً من الكردي نفسه، وضرب الكردي بالسرياني، تخلصاً من الكردي أو السرياني، أو من الاثنين معاً، وضرب العثماني بالكردي أو الكلداني، أو الجركسي، تخلصاً من أحدهما، ثم من الآخر، وهكذا من الكل في المحصلة، وهي السياسة الأكثر تعبيراً عن مدى «صلاحيّة» العنف هذا في استئصال جماعات بشرية بالكامل، أو ممارسة عمليات إبادة جماعية، في الأرمن، والآشوريين والكرد، والعرب إبان العصر الاستعماري، وهي التركة المشؤومة والغاية في السوء، والتي، ليس لأن الأنظمة التي زعمت أنها وطنية، لم تتخلص من آثارها المدمرة، وحتى الآن، كما نلاحظ في سرديات

وبالنسبة لفكرة للأفواج الحميدية:

إن الجيش العثماني استمد قسماً قليلاً للتجنيد في كردستان والألوية الحميدية انسحبت من الجبهة في أوائل أشهر الحرب سريعاً ما اعتبر الترك الكرد ملة خائنة وبحثوا يوماً ما عن معاقبتهم كوظيفة حربية لازمة. ص26.

وبخصوص العشائر وتركيبتها:

في المادة الثالثة المتعلقة بكيفية التحكم بالعشائر: رؤساء العشائر والمشايخ والعلماء والأشخاص الآخر الذين لهم نفوذ سيفرّقون من أفراد عشائرتهم ويسكنون مفرّقين في أقاليم بعيدة عن عشائرتهم بوظيفية لا يمكنهم فيما بعد الاختلاط معهم ويرجح أن يحافظ في القصبات ليكونوا تحت مشاركة الحكومة. ص27.

والعلاقة بالتعليم:

بانتشار التعليم وتأسيس حكومة قوية يحصل سبباً للأمل بأن الكردي باستعداده وخضوعه سيرتقي بنفسه وبهيئة ثابتة التي ستكون مانعاً قيمياً بين العراق والقوقازيين السياسيين. ص33.

وزيف الإحصائيات وصلتها بعلاقات القوة السائدة، ونوعية المكر في بياناتها:

في متابعة تحرّ لإحصائيات عن عدد كل من الأرمن والكرد والترك، تبين مدى التلاعب بالأرقام تبعاً لمصلحة النظام التركي: يزيد في عدد الأرمن لحظة إبراز زيف دعاويهم، والترك لحظة إبراز كثافتهم العددية، للکرد تبعاً للهدف المدروس، فيقول في سياق رقعة جغرافية ما يلي: إن ولاية بتليس، وإن، ديار بكر، ومعمور العزيز تشمل تقريباً بالمائة ثمانين من البقاع التي تسود بها الكردية والتي تدعي الأرمن بأنها قسم من أرمينيا الكبيرة فإذا يقرر مؤتمر الصلح إعطاء أرمينيا مطالبها سيكون ذلك مساوياً لإخضاع 11430000 كردي لتسلط 43000 أرمني. ص42...الخ.

هذه الاقتباسات متروكة للقارئ، وفي مقدوره متابعة الكم الهائل من البيانات والمواقف مما تقدم، وبُناها الثقافية.

القتل والقتل المضاد، وإزهاق روح الحياة في المنطقة هذه، إنما لم يكن في حسابها إطلاقاً، وليس من دليل يقول العكس، في أن تسعى جاهدة إلى تصفية هذه الآثار المدمرة، وتوسّع كما تعمّق تلك السلوكيات التي ارتبطت بالثقافة التي ترافقت مع الاستعمار إلى المنطقة بصدد مفهوم المدنية والحداثة والمؤسساتية.

إنما ما ينبغي التركيز عليه هنا، وفي حمى مناخات الحرب العالمية الأولى ونتائجها، هو ما أعدت له القوى الكبرى في المنطقة ولها، في التعامل مع الاثنيات التي حرمت من منحها أي كيان سياسي مستقل، كما في حال الأرمن، والكرد والسريان.

إذ عقب هدنة موندروس، كانت الأراضي العثمانية شبه مستباحة، ومن ذلك أورفه وعينتاب، فلم يدخر الأتراك، ومصطفى كمال تحديداً، جهداً في تجيش الوعي الديني الإسلامي لدى المسلمين للدفاع عن أرض المسلمين ضد العدوان الخارجي «الفرنسي- الانكليزي» هنا، ومن يتحالفون معهم، حيث يأتي الأرمن والسريان أو الآشوريون في الواجهة في الخطاب السياسي الشعبوي التركي، وكيف تصدوا لهم، ولنقرأ ما ورد حول ذلك في كتاب جبو:

(في مواجهة هذه البطولات الكردية لم يستطع الفرنسيون دخول أورفه ومرعش، كما اضطروا إلى الانسحاب من مناطق مختلفة. وعندما كانت هذه الأحداث تجري في هذا الجزء من كردستان، لم يظهر بين الهفيران، ولا العشائر التي أبعدت إلى الشرق، أي مقاومة بهذا المعنى ضد الفرنسيين ولا ضد الانكليز. وربما كان أحد أسباب ذلك عدم حدود أي احتلال في هفيران فعلاً. وعلى هذا الأساس يشير ناجي كوتلاي في كتابه دخول الكرد في القرن الحادي والعشرين 21 yuzyla Girerken kurtler، إلى هذه النقطة وينقل ما يلي:

«يحتمل أن يكون السبب الأول عدم تعرضهم لاحتلال واقعي، وعدا ذلك فإن استياء جميلي جتو وعلي بطي وعشائر الملي من الإدارة العثمانية، فضلاً عن كونهم في حيرة بين حركة مصطفى كمال والانكليز قد يكون له دور في ذلك أيضاً»

ويتابع جبو قائلاً: وفي مقابل هذا، من المعروف أن حاجو وغيره من وجهاء المنطقة اتخذوا موقفاً تجاه مافعلته دول الوفاق، أو ما يمكن أن تقوم به من عمليات احتلال. والدليل على هذا برقيات الاحتجاج الموقعة من كثير من وجهاء هفيران، ومنهم حاجو. وهذه البرقيات موجودة في أرشيفات تلك الدول. وبرقية الاحتجاج ضد الاحتلال الفرنسي، التي ننقلها هنا، دليل على ذلك.

برقية:

مكان الصدور: مدياد

الرقم: 1138

التاريخ: 16 تشرين الثاني 1919

إلى مقام الصدارة العظمى «الصدر الأعظم. م من إبراهيم محمود، وهو رئيس الوزراء»

في الوقت الذي نأمل في إنصاف وعدالة دول الوفاق لإخلاء أرضنا المقدسة المحتلة خلافاً لكل قواعد القانون والعدل، فإننا نشهد ظهور بعض الأمور التي تسبب الألم في وجدان الإنسانية. لقد تلقينا بحزن نبأ مفاده أن عينتاب ومرعش وأورفه لم تحتل من قبل الفرنسيين بل من قبل أعضاء الجمعيات «الأرمنية» الذين يعرف كل شخص خصومتهم وعداوتهم للمسلمين، والمعروفين أيضاً بمشاعرهم الانتقامية، وأن الغرض من احتلالهم هو الانتقام فقط...إننا نناشد المشاعر الإنسانية التي نثق بأن كل دول الوفاق تحملها، كما نناشد وجدانها، وشرف كل الرجال المشاركين في مؤتمر الصلح «في باريس» راجين منهم إنهاء عمليات الاستيلاء دون وجه حق، والتجاوزات الشنيعة بأسرع ما يمكن، ونحتج بشدة على أسلوب معاملتهم «يقصد عصابات الفدائيين الأرمن»

الموقعون «وهم كثيرون، ومنهم»

المفتي شاكراً «باسم هيئة الدفاع القومي في مدياد»

المدرس حسين «باسم عموم الأهالي»

فتح الله بوست نشيني «من الطريقة النقشبندية»

عابد «رئيس بلدية حسنكيف»

حمدي «رئيس بلدية مدياد»

نورالدين «رئيس عشيرة دكشوري؟»

خليل «رئيس عشيرة محلي»

عزالدين «رئيس هبزيني»

إبراهيم طاهر «رئيس كربوران»

عبداللطيف «رئيس إيليكان»

حاجو «رئيس عشيرة هفيران»

صالح «رئيس أرناس»

وفي التعليق من الكاتب: إن ما يلفت النظر في البرقية أن الاحتجاج كان موجهاً ضد «أفراد الجمعيات الأرمنية» أكثر من الاحتلال الفرنسي، وكذلك التأكيد على أن الأراضي المحتلة هي أراضي «الأهالي المسلمين»، وكان هذا يخاطب المشاعر الدينية لدى الناس بشكل خاص... لقد وجدت الحركة الكمالية فائدة كبيرة في هذا القول، وكانت نتيجة لسياسة مطوّرة مناسبة للأهداف المحددة سابقاً... (ص176).

ذلك واضح في سياق الكلام، أولاً من جهة الدافعين إلى كتابة عريضة كهذه، وهي رسمية إجمالاً، ومن جهة الذين وقّعوا عليها، وهم متنوعون، ويظهر أنهم التقوا هنا، بما يتجاوز سياسة الدولة، دون نسيان أن فيهم من وقعوا اعتقاداً منهم، أن مصطفى كمال سوف يفي بوعده، بالنسبة للکرد عموماً، وقد كان يركّز على أخوة الشعبين. على سبيل المثال: شتان ما بين حاجو وعزالدين، الأول لم يكن مع الدولة التركية البتة، عموماً، والثاني كان معها، وهكذا الحال مع آخرين.

وما في ذلك من حساسيات، ورهانات، وحالات قلق تجاه ما يمكن أن يحصل، أي في نطاق سياسة دول الوفاق مكرها بالنسبة لكل من الكرد والأرمن والسريان هنا، وهي تفضّل العدو الأكبر والموسوم «تركيا» عليهم مجتمعين، انطلاقاً من خريبتها الجيوسياسية في «سايكس-بيكو»، ربما استناداً إلى قاعدة تاريخية: عدو معروف أكثر من صديق غير معروف، أو غير مجرب تاريخياً وسياسياً، ليكون الآخرون ضحايا شأن كل انعطافة تاريخية.

لا بد أن عليكي بطي ينتظرنا الآن، ربما لأننا أطلنا في الغياب عنه، إنما مبتغانا، هو إضاءة موقعه التاريخي أكثر، لحظة النظر إليه، محملاً بكل هذه النقاط، وميراث قلقها:

لأن هذه القضية شائكة وفيها من الالتباسات الكثير الكثير، مما يستوقف الباحث الدقيق فيما يجري، وما يتردد عما يجري، وما يشكل رد فعل من هنا وهناك إزاء كل ذلك، أي جهة بنية الحقيقة التي يشار إليها، ومدى دقتها.

ولأن الذي يشغل من يعيشون في المنطقة، ودونما استثناء، ينشغلون، إجمالاً، وفي ضوء ما أتينا على ذكره، بردود الأفعال، وليس بالأفعال، والمؤثرات التي صيرتها أفعالاً،

كما في الحديث المتواتر، وصيغته، ومن ناطقه، عما كان يجري في نطاق الأمكنة التي سميت في قائمة الاقتباسات، ومن كان الممهد لها، والأيدي التي قلبت عجينها مع خميرتها على هذا الوجه أوداك، ولمن خبزتها، وأطعمتها، واستوت بها، إن جاز التوصيف، لحظة الإخلاص لتاريخ مدعم جغرافياً.

وبما أن الذي تم الاعتماد عليه، وهو متنوع، فإن المستقراً في متونه، هو مدى انزلاقات من كانوا المعنيين بمثل هذه «التفجيرات» داخلاً وخارجاً» وأنا أعتمد على كل من جويده وقرم المسيحيين أصلاً، كما أسلفت، وهما بدورهما يقتبسان من نصوص ذات خلفيات استشراقية واستعمارية، واعترافات بتلك الفخاخ المادية والمعنوية التي نُصبت لعموم مكونات المنطقة الجغرافية «ضرباً لكل بالكل» لئلا يبقى إلا من هو أضعف من أن يُعتد به، فإن الذي شغل هفيركان «وها قد عدنا إليها، وفي حوزتنا أكثر من لسان حال شاهد عيان على حقيقة مطاردة»، كما شغل زعماءها، وهنا يكون الزعيم عليكي بطي هو المعني، كونه المحرك البحثي والمرجع والموضوع المتشعب بحمولته التاريخية، قبل كل شيء، هنا، ربما يسهل القول، أن الذي تحقق في مجتمع هفيركان، هو مشروع بناء كيان سياسي مصغر، ليس للتعايش السلمي، كما يقال راهناً، وفي العبارة هذه من جذاذات حقيقة غير فعالة، وإنما للتشارك القانوني، والذي يكفي حقوق الجميع إجمالاً.

ولهذا، ليس حماساً أو اندفاعاً، إن قلت: نعم، هوذا ما أردت بلوغ عتبته، لأسميه، وقد بات الاقتباس من جبو أكثر دعامة، وإسناداً من التاريخ وبالتاريخ نفسه، وأن الكثير الذي يمتد شطره، وعانيت سره، في اقتباسات مختلفة، تعبيراً عن إنارة ما توصلنا إليه، بصدد التكوين الهفيركاني، وهو يكاد يكون أشبه بواحة في صحراء تتلاعب برمالها الرياح هنا وهناك، أعني بذلك، جهة الذين يتحينون الفرص لنسف مثل هذا التكوين، وتعرضه للخراب، فلا يكون من أثر اجتماعي يُعتد به.

وما يستند إليه جبو، هو قول بروينسن مجدداً، تعميقاً لأثر هذا التكوين الخاص في المنطقة، نقراً (وعند تقييم موقف العشائر التي تشكل اتحاداً عشائرياً كردياً، يقول: «إن العشائر التي تشكل الاتحاد، تحافظ على هويتها... إن الهفيركان الذين قبلوا مساواة مسلمي العشائر والإيزيديين، بل وحتى المسيحيين المحاريين، مع العشائر الكردية» هكذا ورد في النص «، كان من المحتمل أن يصبحوا غير متجانسين إلى حد كبير. ص 80)⁽¹⁾.

(1) حالة الندرة هذه، هي التي تظهر روعة ما كان يدور في نطاق جغرافية هفيركان، كما أشار إلى ذلك بروينسن في كتابه: الشيخ والأغا والدولة (في العام 1896 اغتيل حاجو الثاني بتحريض من زعيم الدكشوريين، جيمو، فانتقلت الزعامة إلى عليكي بطي وجليبي، وهما من

تعميق الأثر

إنه الرهان الذي يستشرف بنا عالماً واسعاً، لا يشكو من الضغوطات الجانبية فحسب، والتي تهدد هفيركان في العمق، وإنما من المساعي الداخلية «ممن هم هفيركيون» لجعل عالي هفيركان سافلهما، وكأنها لم تكن يوماً بقواعدها الاجتماعية الصلبة.

ولنتابعه في كتاب جبو كذلك، رغم أننا سنتوسع في النقطة المتعلقة بالصفة الأسطورية لبطي في فصل خاص، ويبقى المهم هنا، هو في إشارة بروينسن، إلى أن المسيحيين الذي قصدوا هفيركان، ربما كانوا يطلبون حماية لهم ممن كانوا يلاحقونهم من الأتراك والكرد، وهو ما دفع بهم، كحالة مصيرية، إلى الانخراط في مجتمع هفيركان.

وما أورده جبو تالياً، ربما من باب التعليق، وهو استفساري حول هذه العلاقة النوعية بين مكونات هفيركان الاجتماعية، ما يستحق التوقف، وهو (ولا نعلم إن كانت حالة المساواة هذه لدى الهفيركان، والتي قل نظيرها في بلاد المسلمين، ذات علاقة بأصولهم الإيزيدية. إلا أن ما يلفت الانتباه أن حاجو عندما قُتل في جبل مافا كان بصحبته إيزيدي ذهب معه إلى الموت وهو قاسمي تاق، وكذلك الحال عندما قتل علي بطي في معركة مديه «Medihê» حيث كان بصحبته رجل سرياني ذهب معه إلى الموت، يدعى بنويا «بنو» قلجي Binoyê Qeleçi . ص 81).

فرع العائلة الأصغر عمراً. ورغم أنهما كانا على خلاف دائم بينهما، فإنهما جمعا جميع الأفخاذ تحت سيطرة عائلتهما. فواصل عليك، الشجاع، ذو الجاذبية الشعبية، وبطل القرية الأسطوري، حرب عصابات ضد الحكومة لأكثر من عشرين سنة. وأقدم على قتل جيمو بيديه هو انتقاماً لمقتل عمه. وفي خلال الأيام المضطربة التي أعقبت هزيمة العثمانيين في الحرب العالمية الأولى، استولى على بلدة ميديات وحاول أن يقيم حكومة مستقلة هناك. ويومذاك لم يكن مسيطراً على الغالبية العظمى من الهفركانيين فحسب، بل على قبائل مجاورة أخرى أيضاً. وتطلع المسيحيون، الذين كانوا قد تعرضوا للقمع على يد الأتراك والقبائل الكردية الأخرى، إليه بصفته حاميههم، بل إن مقاتلين مسيحيين أشدّاء أسهموا في ازدياد نفوذه في الهامش رقم 99، نقرأ: حول عليكي، وثوراته وحمايته للمسيحيين، هناك أيضاً بعض الملاحظات الموجودة في ملفات وزارة الخارجية البريطانية.. إن أخا عليكي في السلاح، المسيحي شمعون حنا هو موضوع العديد من الحكايات البطولية التي يرويها مسيحيو طور عابدين» ص 232)، وهذا ما سنتأكد منه.

كيف يمكن الربط بين الانفتاح المتبادل، ومفهوم التحالفات التي تخدم الجميع، والنسب الإيزيدي لهفيركان ؟

أولاً، بالنسبة إلى هذه المعلومة، يستقيها أساساً جويده من هارتمان، بقوله (واستناداً إلى هارتمان، هذه العائلة تدين في غالبها الأعم بالإيزيدية).⁽¹⁾

ما قلناه سالفاً، نكرّره هنا، ولكنه التكرار الذي ينير مشهداً آخر، من مشاهد القوة ونوعيتها في التاريخ الحي للقوة.

ويظل السؤال السالف مستعداً، أي عما دفع بالكاتب الرئيس أساساً «الأجنبي» ودون أن يعترض عليه جويده، دون أن يتوقف عنده بروينس، دون أن يمارس تحليلاً له جبّو نفسه، أي: لماذا هذا الانفتاح موصول بالإيزيدي ؟

هل يمكن لنا أن نتوغل لبعض الوقت في معتقد الإيزيدي وما يريده الإيزيده من نفسه والعالم الخارجي؟

تظل الإيزيدية، كما هو معلوم عنها، في حدود معلوماتنا، الديانة الوحيدة، التي تطرح نفسها، في سياق التعامل مع مفهوم الشر، وكيفية إدارة الشئون اليومية بعيداً عن تهويل الوقائع، أو تجاهل تحديات الواقع، ومن منظور توحيدي.

أن يتمكن الإنسان من مواجهة شرور نفسه، وليس تهويلها، واعتبارها من مصدر خارجي، ليس عبر ربطها بما هو معروف في الأدبيات «السماوية» المعادة، أي «الشیطان» فهناك ما منح الشيطان هذا الحضور، ما استبقاه ليكون حامل ضريبة الذنوب التي يرتكبها متّهمه الأبدي، وهو المذنب الأبدي، ليكون الأصلح هو الأكثر تجنباً لهذا المفهوم، أو الأقل تذكيراً بممثل الشر الأوحّد كونياً في العرف الديني السائد في أوساطنا. كما لو أن الشر هو الحافز الأكبر على تنوير الذات ومن ثم إضاءة معالم الروح، ومن ثم إخصابها بمقومات الحياة.

أن يكون الإيزيدي هو النسب، بمعنى ما، لهذه «الإصلاحية الوجودية» إن جاز التعبير، والتوق إلى الأعلى، مسعى لافت، بغية تجاوز ما هو سلبي، وفي الوقت نفسه، ربما كان في هذا التسيب، نقد صريح ومباشر، موجّه إلى الجوار والأبعد، أي إلى الذين باسم خالق السموات والأرض، وما بينهما، وهم لا ينفكون يأتون على ذكره

(1) جويده، بديع: في مصدره المذكور، ص 169.

قياماً وقعوداً، كما فيأيماننا هذه بصورة استثنائية جداً، والحاصل، هو أكثر الشرور رعباً ودماراً لكل ما صلة فعلية بالحياة.

بالطريقة هذه، يختلف الهفيريون عن البدرخانيين، لحظة أخذ العلم، بأن بدرخان بك كان مرتبطاً بالدين، تقياً، ورعاً، كما رأينا، لكنه في الوقت نفسه، كان متكرراً للحقيقة التي تصله بالنسب المذكور «الإيزيدي» وفي حال تأكيد ذلك طبعاً، وهو لا يتردد في ممارسة العنف الدموي الذي يجده مناسباً، ويجد المسوغات التي تدفع به إلى ذلك.

على الصعيد الديني، ليس في الفضاء الاجتماعي الهفيري كافي مثل هذا الارتباط، ليس بمعنى نفي الدين عن المنظومة الاجتماعية والأخلاقية «الهفيرية»، بنوع من العدمية المألوفة، وإنما، كما يُستقرّ في أدبيات هفيران، تركّ أمور الدين كقضية ذاتية، وعدم الدفع بها، لتكون قائدة أوركسترا القيم التي يتداولها الهفيريون فيما بينهم، ككتلة واحدة، ومتراصة.

ربما هذا، ما يمكن النظر فيه في سير من يمكن التعرض لهم، بخصوص الموقف من الدين. ولا بد من التنويه إلى نقطة موازية لهذا الذي نظر فيه، وهو الحياة اليومية لأفراد هفيران، تجري بسوية مشتركة، وليس في بنية العلاقات التي يتم تداولها، أو تجري بين زعماء أو أغوات هفيران شيء لافت من هذا القبيل. وفي هذا تستحق الإيزيدية: رفع القبعة !

ربما من هذا الجانب، في وسع الباحث أن يقدر حجم مخاوف العثمانيين، جرّاء «فلترة» ما هو ديني، أي تطهيره من تلك الجرائم السامة والمعدية أو المميّنة والتي اعتاد سلاطين بني عثمان، وما جاروهم من أتباعهم، إطلاقها في أوساط «رعاياهم» أو في تلك النصوص الدعوية التي تكفل المؤتمرون بأمرهم، وأتباعهم على نشرها هنا وهناك، بما أنها الضامن القوي لإبقائهم في السلطة، إلى جانب بطانتهم، ومن هم تابعون لهم في أوامرهم المختلفة.

في العودة مجدداً إلى جبو، هناك ما يضيء السالف ذكره في الكتاب، عندما يذكر الكاتب بالتالي:

(ولم يفت هذا الموضوع على المؤرخ السويدي يونس لندرهولم، فقد كتب في كتابه الصادر عام 1915 بعنوان «شرق الأناضول»، وفي معالجته لموضوع السريان وأوضاعهم أثناء الحرب العالمية «1914-1918» ما يلي:

(كان اتحاد الهفيركان الكردي موجوداً منذ منتصف القرن لتاسع عشر في طورعابدين في القسم الشرقي من سنجق «لواء» ماردين. ويتألف هذا الاتحاد من قسم من العشائر الـ «24» الباقية من إمارة بوتان. وكان المسيحيون السريان والإيزيديون يعاملون على قدم المساواة كغيرهم من أعضاء الاتحاد، أما حالة المسيحيين تحت الحكم الكردي في هكاري فكانت على العكس من ذلك تماماً.». ص 81).

أهو اتحاد المغلوبين على أمرهم، ووقت الشدة، أم الاتحاد الذي تم نتيجة بحث وتمحيص ودراسة، ليكون هذا الانتظام في حلف دنيوي محفوظ، ومراعى فيه مقام كل إنسان، بغض النظر عن دينه أو معتقده الخاص؟

لا يمكن التأكيد على عنصر معين دون سواه، كالقول بأن ذلك تم تلبية لوازع الخوف، وما في ذلك من قوة ضامنة لهم، وإقصاء للأعداء والطامعين فيهم بعيداً. يعني ذلك أنه ما أن ينتهي عنصر الخوف حتى يعود كل شيء إلى سابق عهده، وينفطر العقد المجتمعي/ التحالفي فيما بينهم. للخوف من الآخر، بوصفه خطراً يهدد، مبرره، والشعور بالضعف في مثل هذا العدد المحدود أحياناً، وتحت أنظار المتربصين كذلك، خطر من نوع آخر فلم لا يكون هذا التلاحم المشترك إشعاراً باتحاد يُتوخى من خلاله درء المخاطر، وحماية من انضموا إلى هذا العقد/ الحلف، ومع الزمن، وجراء الشعور بالأمان المنشود، والراحة النفسية، تبين، وجراء الاختبار النظر والعملي، أنه جدير بتعميق أثره، وترسيخه أكثر، وهذا ما يمكن التشديد عليه، بما أن كل ما يُأذى، يكون في قالب فكرة، نظرية، أو مقترح، يجري تداوله بصوروة ما، ومن معاييته على أرض الواقع، أي في المختبر الفعلي واليومي، ولحظة التأكيد من فعاليته، كما هو مفعول العقار المرصّي، حتى يتم طرحه، والإعلان عنه، ومن ثم نشره بين الجميع، والتعريف به، ومن ثم ليكون له صدّى خارجي بالطريقة هذه، ولعلّي على يقين، من أن شواهد كثيرة، في البنية التنظيمية لهفيركان واقعاً، تصادق على مثل هذا التصور أو التحليل !

هناك نقطة أخرى، وهي أيضاً متشعبة، حيث إن الحديث عن علاقات قائمة بين جماعتين أو عشيرتين، وغيرهما، ربما يكون للظروف في بعض الأحيان يد في نسجها أو تلوينها، وحتى تغييرها .

في العودة إلى هكاري، ثمة ما يستحق القول، وهو متشعب بدوره، لأن هناك روايات تاريخية وغيرها تدور حولها :

تبعاً لما يقوله نيكيتين، واعتماداً على «شرف نامه» يقول عن (أن رؤساء عشيرة هكاري الذين طردهم الأتابكيون من العمادية في القرن الثالث عشر، وبالتحديد 1218 كانوا قد اتخذوا لهم مقراً في «جوله ميرك» الواقعة على نهر الزاب الأعلى، وكانوا يدعون الانتساب إلى العباسيين. إن أول أمير من هذه الأسرة ورد ذكره في «شرفنامه» هو عزالدين شير الذي حاول الوقوف بوجه تيمورلنك في قلعة «وان» عام 1387...)

تالياً، يشير نيكيتين إلى قوة الهكاريين المعروفة، منذ عام 1849، ليقول بعد ذلك أنه (رغم أن الهكاريين حرّموا منذ ذلك التاريخ من عاصمتهم بدليس، إلا أنهم يمثلون لحد الآن- أي قبل مجيء الكماليين إلى السلطة- أكبر عشيرة قوية ومشهورة، وحتى أنه لم يتجاسر أحد على الوصول إلى القسم الجبلي من موطنهم. ويمارس الترك مع هذه العشيرة سياسة تساهل كيما يتسنى لهم الاعتماد على إخلاصها في تلك المنطقة الحدودية. وقد أبدى «سون» ملاحظاته بشأنهم قبل الحرب العالمية الأولى اشتركت هذه العشائر الحدودية في الجهاد إلى جانب الترك وقاتلت بضراوة العشائر النسطورية المسيحية في المنطقة...).

وفي ملاحظة لافته، حول طبيعة العلاقات القائمة بين الكرد والمسيحيين، يبيدها هذا القنصل الفرنسي البولوني الأصل، والذي يمتلك معلومات ميدانية عن مجريات الأحداث في المنطقة، مشدداً على ما يقوله المستشرق والمستكر «رونودو» وهي التالية (كانت المسألة بين الكرد والمسيحيين مسألة عشائرية أكثر من كونها دينية...)⁽¹⁾.

وقبل أن أتوقف قليلاً عما تردد سالفاً، ثمة ما يلح علي في قوله، وهو العائد إلى جويده، داخل القسم المتعلق بإمارة بوتان والصلات المعقدة بين بدرخان بك والجوار، وضمناً النساطرة، ومن ذلك، في الموقف من أمير هكاري نور الله بك، حيث يكتب (أيّاً كانت نوعية خلافت النساطرة مع إسماعيل باشا «أمير العمادي» وبدرخان، فخلافتهم مع نور الله بك، أمير هكاري، كانت أعمق وأكثر تعقيداً. من المعروف أن جبال النساطرة، كانت تشكل جزءاً من إمارة هكاري. إذ إن أمير هكاري هو السيد الأعلى، والبطريك هو مجرد إقطاعي. هذا الوضع خلّف نوعاً من التوتر بين الرجلين، خصوصاً حين كان الأمير يلح على البطريك بزيادة الأموال التي يرسلها إليه، والتي تُعتبر حقاً من حقوقه، بينما يحاول البطريك التخلص من ذلك...)⁽¹⁾.

(1) نيكيتين، باسيلي: الكرد، المصدر المذكور، ص 254-257-258-305.

(1) جويده، وديع: في مصدره المذكور، ص 181.

هذه الاقتباسات ترينا مدى صعوبة الحكم على أي علاقة من زاوية واحدة، على الأقل، بوجوب تحميل أي طرف مسؤولية ما كان يجري من توترات، أو اضطرابات، أو حتى منازعات دامية، إنما ما يتعدى الطرفين المتشابكين، وتحديدًا بالنسبة إلى ممثلي القوى الكبرى والذين كانوا يتنقلون في طول المنطقة وعرضها ليل نهار، مسجلين كل شاردة وواردة على هواهم، أي انطلاقاً مما يرونه في الواقع وليس كما هو الواقع، ولأنهم في الأساس لم يأتوا إلى المنطقة كي يحسنوا إقامة علاقات مع أهاليها، أو يخففوا من أوجاعها وآلامها، وإنما ليتسللوا عبرها إلى الداخل، مزيدين تعميقها.

هذا التوضيح يرسم خطوطاً متعرجة في بنية الحدود الجزئية التي تفصل بين جهة جغرافية وأخرى، بين عشيرة وأخرى، أو اتحاد قبائلي وآخر، وما يترتب على كل جهة من مبادرات ذاتية وحمية محلية دفاعاً عنها، ورد الظلم عنها.

ربما بالطريقة هذه، نستطيع النظر إلى ما يورده جبو في الفقرة التالية بعد السالفة مباشرة:

(أما دافيد كوانت، فقد تحدث عن الحوادث المأساوية أثناء الحرب العالمية الأولى وانعكاساتها على ديار بكر ومنطقة طورعابدين التي كانت سنجقاً تابعاً لديار بكر. وقد تطرق إلى دور الكرد في تلك الحوادث وموقف الهفيركانيين قائلاً:

«في سنجق ماردين التابع لولاية دياربكر كان الأثوريون عموماً تابعين لكنائس السريان الأرثوذكس أو السريان الكاثوليك. وفيما عداهم كان هناك عدد قليل من الأرمن الكاثوليك أيضاً. وكان هذا السنجق بعيداً عن جبهات الحرب. إن الوالي رشيد بك، وهو طبيب عسكري قديم، بدأ ظلمه قبل مجيء أوامر التهجير من ستانبول بأشهر. وقد فهم بأن قراراً صدر من جمعية الاتحاد والترقي إلى الساسة أو المسؤولين المحليين بإبادة كل المسيحيين. وقد شكلت الولاية لجنة خاصة لغرض الإبادة. وتم تنظيم قوات غير نظامية «ميليشيا» تتألف كل مجموعة منها من «50» فرداً، ولذا أطلق عليها «الخمسين» حسب معنى الكلمة بالعربية في الجنوب. وكان على هذه الميليشيات تطويق القرى وإبادتها وتدميرها. كما سيوجه نداء إلى بعض العشائر الكردية في المناطق الأكبر التي يتوقع حصول مقاومة كبيرة فيها. إن أكثرية الذين ما يزالون على قيد الحياة يتحدثون مراراً عن عشائر محددة لبت ذلك النداء. ونلاحظ أن بعض العشائر قد تم التركيز عليها بشكل واضح. بيد أن هناك عشائر وقفت صراحة ضد المجازر، بل نلاحظ أن البعض منها، مثل عشيرة هفيران والكثير من الكرد الإيزيديين، قامت بحماية المسيحيين بشكل فعال. ص 82).

لعلها انجرافات الذاكرة الجماعية، من جهة المسيحيين، وفي الواجهة الأرمن والسراني، حيث يجري استصراخ ضمير أولئك الذين يتحدثون عن الحق والعدل وكل ما هو إنساني، ويكون المسلمون، وفي الواجهة، من لهم اليد الطولى على صعيد السلطة المتنفذة حينذاك «العثمانيون فالأتراك» ومن ساندوهم واثتمروا بأمرهم، نسبة من الكرد، لا ينبغي التستر عليها، إنما أرشفة أسمائها، وحتى الذين كان لهم دور مباشر في تنفيذ مخططات «أسيادهم» أولئك «والتركيز عليهم، ومن ثم الاعتراف علانية بأنهم أجزموا، أن أيديهم ملطخة بدماء من أبيدوا، وحتى الذين تم إبادتهم من بني جلدتهم، من قبلهم، ودون نسيان أي طرف، من أي جماعة كانت، كان لها سهم في ممارسات دموية أو إجرامية كهذه، ليس من أجل التاريخ وحده، وإنما من أجل الغد، فليس من غد يمكن التكيف معه، والتفرغ باسمه لما هو أكثر عطاء لمن يولدون فيه ويعيشون للتالي عليه، طالما أن هناك شعباً واحداً ولو لشخص واحد مours بحقه التكيل، وعُدب أو تمت تصفيته، وبالطريقة هذه، يصبح استشراف المستقبل أكثر قابلية للنظر فيه، والانشغال به، وذلك تحت وطأة الذكارات التي لا تزال إلى هذه اللحظة تتجاوز متوترة، أو تمارس مناقشات مختلفة في مجالس خاصة، أو على الورق، أو في مواقع ما يسمى بـ «التواصل الاجتماعي» وقد أصبحت جرأ هذه المعادلات بؤرة استعدادية، ليزداد تحكم الموتى بالأحياء تبعاً !

لهذا، فإنه إذا كان هناك من يردّد على (أن بعض أنواع العنف بين الأشخاص، بما في ذلك كل من من العنف اللفظي والنفسي، منتشرة إلى حد كبير، لدرجة أننا اعتدنا أن نتحملها ونتقبلها، واعتدنا وجودها. وهكذا أصبحت بعض أنواع العنف جزءاً من حياتنا اليومية في الواقع)⁽¹⁾، يكون من السهل القول، أن هذا العنف الذي يُسمى،

(1) هولين، كليف آر: سيكولوجية العنف بين الأفراد، ترجمة: متيم الضايغ، دار الحوار، اللاذقية، سوريا، ط1، 2019، ص 73.

إنما وجه المأساة والمهزلة، هو حين يتشظ أحدهم، وهو يخشى من كتابة اسمه الصريح، وهنا تنعدم كل قيمة لمقاله، وهو حديث نسبياً «2019 / 2-17» هذا فيما لو كان الموسوم مقالاً، ذم كرده عموماً، في الشمال وروجافا، ويستشهد بمثال تاريخي، هو عليكي بطي، حيث كل طرف يبحث عن مصلحته وشهرته، مثل عليكي بطي الذي فتح باب سجن نصيبين لهذا الغرض، ومن المؤكد أن شخصاً كهذا على علم بمحتوى ما يكتب، ولا يخفي معلومات تاريخية، لا تظهره إنساناً عادياً، وإنما مميّز بكثير من اللؤم النفسي. ينظر مثلاً:

Dilciwan Helbest:Kurdê bakur û rojeva bê ser û...rojevakurd.com

ديليوان هلبست: كرد الشمال وروجافا على غير هدى.

وفي هذه الفقرات:

يهجمون على غير هدى، مثل الصوفي بيت الشيخ، مثل أزعر تلمزي! كل واحد يقول أنا ولا أحد سواي. وعليكي بطي بدوره، فتح باب سجن نصيبين، وكيف كانت النتيجة؟ كان يبحث عن الشهرة لنفسه، ولم يكن يقيم للكرد أو كردستان وزناً. وهكذا يتضح الأمر أيضاً، أن لا علاقة لهؤلاء الأخوان بالقومية بالمقابل، هم بدورهم يبحثون عن شهرتهم الزمنية.

...هم مثل حسن الصباح، قد خدروا الشعب، وأفقدوا الكثيرين وعيهم، وعندما استرجعوا وعيهم. انتهى كل شيء. الكثيرون أصبحوا عملاء، لا يعود في مقدورهم العودة من ذلك الطريق، والبعض استفادوا مادياً دون شعور منهم، والبعض الآخر بالمقابل، انتشوا

انظروا ماذا يفعلون الآن؟ كرد الشمال وروجآفا مثل زورق بلا مجذاف، تتلاعب به أمواج البحر، لا يعرفون أين هي وجهتهم. كل يوم يتحالفون مع طرف ما، كل من يقيم معهم علاقة لأمر يبغيه، يتخلى عنهم، ليبحثوا عن حليف جديد آخر. وهذا ليس أفضل من سابقه، إنه مثله.

يلتفتون إلى بعضهم بعضاً، يقولون: لقد عثرنا على شيء مفيد. ما هو هذا الشيء؟ الشيء الذي لا يمكن أن يحصل في العالم، ينشغلون به. لقد أفلسنا الاشتراكية في العالم أجمع، وانتهى أمرها، وهم من جديد يلهثون وراءها. يقولون سوف نحقق الاشتراكية! وبالنسبة لنا، بالنسبة إلى كرد الشمال، ليست الاشتراكية، إنها الكمالية، إنهم سيحققون الاشتراكية تحت سقف الكمالية، إن استطاعوا....

ذلك مختلف مع كاتب آخر «يحترم كتابته» وهو يكتب اسمه الصريح مع صورته، وفي كلامه ما لا يضر، أي سيبان شيندا، في «الكرد وتاريخ الجمهورية التركية»

:Kurd û dîroka Komara Tirk, ronahi.net

في 19-10/2019، حين يكتب مثلاً:

(بعد الحرب العالمية الأولى انهارت الإمبراطورية العثمانية، في 24 تموز 1923، وفقاً لمعاهدة لوزان، تأسست جمهورية تركيا واعترفت بها العديد من دول العالم... لقد تغير مصير الكرد بشكل مأساوي منذ ذلك اليوم... ومنذ ذلك اليوم فصاعداً استمرت الحرب بين الكرد وقوى الاحتلال... قبل معاهدة لوزان، تمرد عليكي بطي في عام 1919 ضد مصطفى كمال ونظامه..... ومن غير المعروف عدد الآلاف من الكرد الذين قتلوا على يد الدولة المحتلة خلال هذه الانتفاضات. ومع ذلك، فإن الكرد يسقطون باستمرار في فخ استقلالهم ولا تشعر الجمهورية التركية بالاستقرار..)

وحتى في مجال التطرق إلى التاريخ روائياً ونقده، كما في رواية كردية صدرت في تشرين الأول هي «Leylan, Leylana Me ye»، أي «السراب سرابنا» لـ Devliken Kelogirî ، كما استعرضها الكاتب شيخموس أوزنكين

Şeyhmus ÖZZENGİN : Leylan, Leylana Me ye, www.rojnameyakurdistan.com

تبدأ الرواية بالجملة التالية:

«انعدام الجنسية مثل السراب، كل المشاعر الخادعة موجودة على مر الزمن!» (!)

تستند الرواية إلى موضوع كردي مليء بالألم والعمل الجاد والمشقة وطفولة صغيرة ولكنها سعيدة، لكنها تتحول إلى حب طبيعي.

يقدم المؤلف، بتفسيره للحياة والثقافة والأنشطة الاجتماعية، نفسه لقارئ الرواية، بغض النظر عن مصير الرواية في متناول اليد. هذا، إلى جانب روايات إحياء لغة الرواية (الكردية) في أمسيات الحياة، هذا المساء، «مثل رجل في المسرح ومنوم ضد مسرحية على المسرح، كان القرويون ينومون من قبل اللغة (الكردية) لهؤلاء الرواة». (ص 15)

يذكرنا الكاتب المرجع اللساني للغة الرواية «الكردية» في هذه الأمسيات، عبر الملاحم والحكايات، حيث «إن أغلب الأشخاص سمعوا بأسماء دوريش عبيدي، مم آلان، رستم زال، عليكي بطي، حسن مالا موسى، بشار جتو، جمبلي، بنفش نارين، وسيامند وخجي، في هذه اللقاءات والأمسيات، وكل واحد من هؤلاء الأبطال المشهورين، وفي الحب، كان يصبح لكل منهم عالم خيالات، وينامون مع هذه الخيالات ويصحون».

ذلك مثير للاهتمام وواضح، مع جمل واضحة وموجزة. نوع من الفولكلور الكردي من الأغاني المثيرة يدخل في خطوط الرواية. يحذرنا المؤلف ولوران، وهو قارئ سويدي وموظف، من أنه «يمكنك أن تفعل ما تريد، ولكن لا تنسى».

يناقش المؤلف القضايا الكردية وكردستان ومنطقة الشرق الأوسط بطريقة انتقائية. مع هذه المحادثة، لن ينسى الفنانون والمطربون الكرد. بين خطوط المحادثة بين لوران وأليس، الفنانين والمغنين، مثل النحل على الشبكة من جهة المزارع.

المؤلف، باختيار أبطاله وبطريقته رواية فالحة، يقبل نفسه بهذه اللغة الحلوة والغنية. إن سبب اختيار غالبية أبطالها، الذين لهم علاقة بكرد السويد، وهي قرية مجهولة الهوية ومرتبطة بالثقافة الكردية، هي التفضيلات الرئيسة في تكلفة بناء الرواية. كل اسم لبطل الرواية هو لون، صوت يكسر من صدر الثقافة الكردية ويدفع بنا إلى سفك الدموع. إنها رواية ناجحة، ولغة ناجحة، خارج الخط والمصطلح. تعطي هذه الرواية للقراء الأخبار السارة عن إنشاء المؤلف للروايات.

ويبقى للتاريخ ومن يحضره في «مطبخ» القوى المتنفذة بعد آخر. وكيفية التلاعب بالكرد، ضمن مجموعاتهم الموزعة إلى عشائر أو اتحادات قبائلية.

أشير هنا إلى كتاب لوند آياباتان، وهو أطروحة جامعية، في معهد جامعة ساكاري للعلوم الاجتماعية، لعام 2017، وقد تم تسميتها من قبل المناقشين، أي: مشكلة الاستقلال الذاتي في العلاقات الكردية – الانكليزية 1918-1925

Levent Ayabatan: Kürt – İngiliz İlişkilerinde Özerklik Sorunu (1918-1925)

وهو مستل انترنيتي، نقرأ فيه مثلاً:

(لماذا فشل الكرد في إعلان الاستقلال في الفترة الممتدة من النصف الأول من القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين، في حين أن أغلبية الأطراف التي عاشت في الامبراطورية العثمانية نالت استقلالها؟

لم يجرِ التحقيق في مشاكل وضع الكرد باهتمام مركّز في العديد من الدول رداً على سؤال: لماذا لم يتمكن الكرد من إقامة دولة، مثلها مثل العديد من العناصر العرقية التي عاشت داخل الحدود السياسية للدولة العثمانية؟

لقد شجع البريطانيون العرب الذين ثاروا وأعلنوا استقلالهم، ولقد أسهم الكرد في تأسيس تركيا كاستمرار للولاء للامبراطورية العثمانية، الجمهورية.. وظهرت نقاط تحول مهمة، شكّلت مستقبل الكرد والتطورات المهمة التي أدت إلى فقدان الكرد الفرصة للاستقلال ما بين عامي 1918-1921.

كانت التطورات التي حدثت ما بين عامي 1921-1925 هي أن القوميين الكرد، الذين لم يتمكنوا من تحقيق النتائج المرجوة، فتحو الأبواب للتحالفات التي يمكن أن تكون بديلاً لانتكرا. تُعتبر مشكلة تحديد الهوية الجغرافية واحدة من أكثر المواضيع إثارة للجدل في مجال علم الكرد. نوقشت بالتفصيل مفاهيم الاثنية القبلية، والمشكلات التي ظهرت نتيجة لتقسيم الجغرافية الكردية إلى حدود سياسية، وإدارية مختلفة، وتشكيل المنظمات الكردية غير القانونية، ومناهج مشكلة كردستان في المؤتمرات والمعاهدات الدولية.

الحرص على استخدام وثائق الأرشيف مباشرة، والهدف منه، الإسهام في مراقبة شبكة العلاقات المعقدة بين الكرد والسلطات المركزية من خلال عزلهم عن الوسائل الإيديولوجية. لن يكون إنشاء دولة جديدة معجزة للكرد، الذين عرفوا أنفسهم على أنهم جزء من العنصر المسلم في الربع الأول من القرن العشرين، يتصرفون مع الشعور بتحديد هوياتهم الوطنية في المقدمة.

تأسس اتحاد هفيركان لإمارة بوتان في النصف الأول من القرن التاسع عشر. بعد القضاء على إمارة بوتان من قبل الامبراطورية العثمانية، ازدادت الاشتباكات بين القبائل المنتمية إلى الاتحاد حتماً.

وما يخص قبيلة هفيركان، وموقعها السياسي في الدولة التركية، وحركة عليكي بطي/ علي بطي:

قبيلة هفيركان برزت متحدية الدولة التركية في عام 1919 هناك الذين لم يتمكنوا من البقاء داخل القبيلة والقبائل المختلفة، حاولوا البقاء من خلال التحول إلى أنشطة قطاع الطرق في بعض الأماكن. وفي المقاطعات الشرقية للدولة العثمانية تحت تأثير صعوبات التحكم، في عام 1919، تم استرجاع سلطة القبيلة تحت سيطرة علي بطي.

في تقرير لجاردن، أرسل إلى بغداد في نيسان 1919، تضمن حديثاً عن قبيلة هفيركان، حيث يذكر أن هناك اتحاد هفيركان:

Alikan, Seida, Dermamuka, Salihan, Mizizak, Beravî, Arabia, Kuaza...

وأشير إلى عدد القرى التي تمتلكها هذه القبائل 149 قرية، وتتكون من 9420 عائلة، ويذكر أن لعللي بطي موقعاً نشكاً كزعيم قبلي داخل قبيلتي أليكان ومزيزاك «مزيزاخ»، وأن هفيركان تتألف من 1800 عائلة، وهي قبيلة مسيحية ومسلمة.

وفي تقرير لنوئيل في نيسان 1919 أن علي بطي ورجاله سيطروا على الطرق... «من عندي، يبين ذلك مدى اهتمام الانكليز بشمال كردستان».

وانضم 500 رجلاً في وقت قصير إلى علي بطي. إلا أن الانتفاضة افتقرت إلى دعم أسر النخبة الكردية في محافظة ديار بكر.

ولعبة التصفيات الجانبية:

وهناك ما هو جديد، وهو أن السلطات العثمانية قامت بإخراج جلبي أوصمان من سجن خريبيتي في حزيران 1919، شريطة أن يقتل علي بطي. وأخذ الجبهة المعادية لعلي بطي، وقد استلم القيادة القبلية، حيث قام بدور فعال في جميع الحركات من خلال التحالف مع الضباط العثمانيين. وقتل علي بطي في مديته، في تاريخ غير مؤكد.

وكانت الدولة العثمانية تدعم جلبي أوصمان لكي يصبح زعيم قبيلة هفيكران... وصار صراع دموي داخل هفيكران بعد مقتل بطي. سوى أن العلاقات استمرت مع ممثلي الانكليز، ومنهم الممثل السياسي الانكليزي ليتمان في الموصل، وهذا ما تابعه حاجو الثالث....(الخ)

إنه كتاب لافت بمحتواه، وتركيزه على مجموعة قوى: دولية، وأخرى دونها: إقليمية، وثالثتها تكافح بغية استقلاليتها، وهنا تجري اللعبة الساخنة، بمقدار ما يتم التلاعب باللاعبين وصفاً وتشويه محفّزات، وتحديد مواقع.

فالكاتب هنا، خريج جامعة تركية رسمية، قال أشياء كثيرة، وعلى مدى تواريخ طويلة، لكنه لم يقل ما كان يجب قوله منذ البداية، وهو: هل كان لدى القوى الكبرى أي نية لمنح الكرد هنا كياناً سياسياً؟ سؤال يمتد إلى الغد كذلك! الجواب بالنفي، لهذا تمارس القوى الإقليمية المشكلة سياسياً، كما في حال تركيا، وما أشبه اليوم بالأمس، بتجسير مناطق شتى هنا وهناك، على مرأى ومسمع من دول العالم، وتحت وطأة هذه القوى تزداد تمزقات المنطقة، ومنها الكردية.

وفي الوقت الذي يشار إلى أن السؤال الافتتاحي هنا، عن سبب فشل الكرد في بناء دولة مستقلة لهم، في الفترة المذكورة آنفاً، يذكّرنا بما أفصح عنه اسماعيل بشكجي نفسه، مع فارق الرؤية «الأخلاقية» في كتابه: تنافسات المحتلين حول اقتسام كردستا، المصدر المذكور، ص 66-67.

لاحظ مثلاً، وكثاكر على هذا التوجه، ما يقوله بشكجي، في مكان تال(كان العثمانيون يمارسون سياسة التجزئة باستمرار ضد الكرد، وهي تبدأ منذ أيام الشيخ إدريس بدليسي، والذي ربط كردستان بالعثمانيين، وهذه السياسة قائمة إلى الآن. ص 125). وهذا يعيدنا إلى ما فصلنا فيه سابقاً.

ويمكن التوسع حول هذا التاريخ العاصف، خاصة في الربع الأول من القرن العشرين، بالرجوع إلى كتاب روشين ارسلان

تقرير وولف للقيادة العامة للدرك: الدولة والمعاداة الداخلية للكرد منشورات وقف إسماعيل بشيكتشني، ستانبول، 2014:

والذي يجري أثره في النفوس والرؤوس، بالنسبة للبشر، إنما يكون بالنسبة لهؤلاء الذين لا يكف الماضي عن توقيفهم من داخلهم، إنما يكون بالنسبة إلى هؤلاء الذين لا يكفون عن السكنى في الماضي، وبعناوين معينة، ومعايير معينة، ويقذفون به في وجوه الذين يرونهم متهمين بما كان أكثر من عقود طوال من الزمن، أكثر من قرن، أو يطالبونهم باعترافات، أو حتى دفع أتعاب معينة، طالما أنهم يعيشون في ظل هذا الماضي، وهذا ينطبق على الذين لا يكفون بالمقابل، عن إيجاد المبررات من داخل ماضٍ، يستحيل التعريف به من لغة واحدة، ووجه واحد، وشعور نفسي واحدة، وزاوية واحدة، حتى لو زُعمَ عن أنها كاملة، وهم ينطلقون تحت وطأة شعور بالضغط النفسي، وليس في كيفية وضع أسس تتشلهم من ذلك الذي كان، ولو أن آخرين، كما في حال الأوربيين أنفسهم، وحتى بالنسبة لضحايا مدن مثل هيروشيما وناغازاكي، تصرفوا بالطريقة نفسها، لما كانت أوروبا كما هي الآن، ولا كانت اليابان كما هي الآن، وهي في علاقاتها القوية مع «أميركا».

في نطاق العلاقات الهفيريكانية، وما يمكن تلمسه من بهو «الذاكرة الهفيريكانية» نقرأ التالي في كتاب جبو:

(كان المسلمون والسريان والإيزيديون في هفيريكان يخاطب بعضهم بعضاً بلقب «كريف»، ومع مدى أهمية علاقة الكريف بين الكرد، ومدى الاعتناء عند اختيار الإنسان الذي سيكون كريفاً، فإنني أظن أن استخدام هذا اللقب في المخاطبة يبين الأهمية التي أعطاها الهفيريكان لأتباع الأديان المختلفة. ص 82).

ما يضيء ساحة هذا المفهوم، لحظة المضي بالقول إلى ما وراءه، ربما يبرز الأصل العميق للقب، للقول، وهو أنه يخرج القول من خاصيته العابرة، من مجرد اللفظ

Ruşen Araslan: Jandarma Genel Komutanliginin kurt raporu: Devletin iç duşmani Kurtler , Ismail Beşikci,Istanul, 2014

حيث تتم تغطية العشائر في «حدود» تركيا، وتقويمااتها أمنياً للدولة، مثلاً، في الإشارة إلى «منطقة ماردين Mardin Bolgesinde» فتذكر أومريان، هفيريكا، وكوجك Koçekan ، باعتبارها الأبرز بالنسبة إلى الدولة، والأكثر أهمية. ص 129.

طبعاً لا بد من التفريق بين موقف الموالة وموقف المعادة، فهفيريكا، مثلاً، في موقف المعادة للدولة تاريخياً، كما أشير إلى ذلك منذ البداية..

تلك أمثلة متنوعة، عما يمكن القيام به تجاه ماضيها ورموزها، بطريقة تجعلنا داخل التاريخ لا خارجه.

المتداول بين طرفين، إلى ما هو لحمي، معنوي، إلى الدم مباشرة. إن أخوة الدم تستحضر هنا بكامل قياقتها، وهيباتها، وبذخها الإنساني، كما هي قراءاتي للعلاقة «الكريفية». إنه حاضن أمان، وملاذ آمن، ومشاركة في علاقة مصيرية، تجعل كل طرف معنياً بالآخر، وقد أصبح محسوباً عليه وبالعكس. وأبعد من ذلك، إن مجرد خروج الدم من «القلبة» يعني نوعاً من الإضحية الرمزية، من الافتداء، من رفع العلاقة مما هو يومي إلى ما هو أبدي، إلى درجة أن أي اشتهاً لأي طرف للآخر، كان حتى بالأمس القريب جداً، نوعاً من سفاح القربى. وهذا يترتب على طبيعة «الكريف» الجمعية، وهي أبعد من كونها مجرد نقطة دم تهرق من قلبة المطهر، خصوصاً، وأن الذي يجري مسه، إنما له صلة مباشرة بالحياة، وما في ذلك من توسيع دائرة القرابة الأهلية وتعميقها بالمقابل.

و«الكريف» تدشين لأخوة الدم من نوع آخر، ومستجد، لتقوية أو اصر القربى اجتماعياً.

وما يقوله جبو، نقلاً عن شهود عيان على ما كان ينوء إلى ذلك:

(في هذه المنطقة يوجد الجامع والكنيسة جنباً إلى جنب، ويختلط صوت الأذان من المساجد مع قرع أجراس الكنائس، كما أن البيوت متلاصقة، وفناءاتها متداخلة. لقد عاش المسلمون والمسيحيون والإيزيديون في نفس القرى والأحياء سوية بسرم على مدى قرون. ولا توجد مثل هذه الصورة في أية منطقة من الولة العثمانية.. ص82).

هذه العلاقات الهندسية الطابع تفي بالغرض، بوصفها «كريفية» أي إن كل مبنى يأمن على نفسه بحضور المجاور له، أن كل صوت له مسار ديني مختلف، يحتضن الآخر، ويقوى به بالمقابل. ولعل هذه الحالة الخاصة، تنير الكثير من التساؤلات عما كان عليه الوضع في الجوار، وكيف أمكنها الاستمرار، حيث كان العثمانيون، ومن معهم، من أصحاب المصالح الخاصة والضيقة، يسعون ما وسعهم الجهد، إلى عدم إبقاء أي رقعة جغرافية دون تلغيمها، وربما كانت جهود الهفيركانيين في كيف الحفاظ على أمنهم وسلامتهم، أو سوية علاقاتهم، مثمرة، ومكلفة في آن.

قراءة في العتمة:

ويظهر أن العثمانيين وبعدهم أخلافهم الاتحاديون الأتراك مارسوا حُزْراً خنادق وأنفاق في تلك المنطقة، وسعوا إلى استخراج الهفيركانيين من حيث هم، وهم يضغطون

عليهم، بسبل شتى، وعلينا النظر في المتشابكات، على خلفية من مذابح السريان طبعاً، وما أثارته من ردود الأفعال في المنطقة والجوار:

(في تلك الفترة كان في المنطقة حزبان من العشائر الإقطاعية وهما: الدكشوريون المواليون للدولة، والهفيركان «الذين كانوا معارضين للدولة- ملاحظة جيو». وكان يوجد في الحزبين عدد كبير من الأعضاء السريان. وفضلاً عن ذلك اتخذ بعض زعماء العشائر الكردية موقفاً سلبياً تجاه المذابح وبقوا صامتين. إلا أن بعض الوجهاء الكرد، الذين خمنوا أو شعروا أن هذه الكوارث يمكن لها أن تحل بهم أيضاً، عارضوا قتل السريان من قبل الجيش العثماني. وقد قاوموا بغناد العداء الكردي- السرياني، وأنقذوا الكثير من السريان من الموت. إن ثلاثة أرباع الكرد في هذه المنطقة لم يشاركوا في المذابح التي تعرض لها السريان»

وللتوضيح أكثر(ليس هناك شك في أن أغلبية الذين عارضوا مذابح السريان كانوا من الهفيركان، وكذلك قائدهم «إن الكردي المشهور علي بطي كان في السجن عندما وقعت هذه الحوادث. وبعد أن أصبح حراً نظم مجدداً الحزب «يقصد الاتحاد» الذي كان تحت إشراف عشيرته. وقد أقام علاقات وثيقة مع السريان وكسب صداقتهم وثقتهم، بعد أن كان ينظر إليهم كأعداء حتى ذلك الحين. وأعلن أنه سيفرض عقوبة صارمة على أي نوع من الظلم والأذى تجاه السريان، كما أن حزب عشيرته هفيركان أسند إلى السريان واجبات مهمة وهذا ما جعلهم يشجعون». ص 84).

هذا الاقتباس من جهته يعيدنا إلى النقطة السالفة، وهي المتعلقة بالشخصية الكاريزمية في المنطقة، والتي تلعب دوراً أكثر من استثنائي أحياناً في الملمات، وما يفيد القول هنا، ويتطلب التشديد عليه، هو أن التوترات التي تملك هفيركان، إلى جانب المنطقة عموماً، حصلت إبان وجود علي ومن معه في السجن، وفي الواجهة رفيقه الروحي شمعون، يعني ذلك، أنه فيما لو لم يجر اعتقاله هو وشمعون بالذات، أكان الذي جرى بالطريقة ذاتها؟ أولم تستغل الدولة فترة اعتقاله وأصحابه، لتقوم بفعاليتها النكراء؟ وسؤال آخر، وهو يترتب على مثل هذه الممارسات الدامية والشنيعية: ألم يكن اعتقال كل من علي وشمعون وآخرين ممن ذكروا- أساساً- قد تم على خلفية ممنهجة، وهو أن يُزج بهم في السجن، ليكون في مقدور الدولة التي أديرت شئونها من قبل أعضاء الاتحاد والترقي، الأكثر مكرراً وخبثاً وتطلعاً إلى انتهاز فرص همجية كهذه؟

وكان يُراد إلى التخلص من كل معارضٍ مسيحي قوي، كما في حال شمعون، ولا بد أن هناك ما يشير إلى مانع لذلك، وهو يتمثل في الهفيريكيين المعتقلين: عليك، حاجو، وفرحو... الخ

ولو طال غياب كل من علي وشمعون بالذات، أي لم يهربا من السجن، أما كانت المنطقة تشهد المزيد من الويلات والفظائع، وأما كان عدد الذين عُرِّضوا للإبادة أو للتكيل بهم أضعافاً مضاعفة؟ وبذلك، ألم يكن هروب كل من علي وشمعون وفي ذلك التوقيت نوعاً من المعجزة، التي على أثرها تم حقن دماء كثيرة، وانكشفت عورة الأتراك وأزلامهم في المنطقة؟

بالتوازي مع ما تم طرحه من أسئلة: أليس الذي أعقب هذا الوقف لسفك الدماء البريئة، وكذلك لكبح جماح من كانوا يعيشون سكرة إراقة دماء كهذه من الكرد، قبل سواهم، والذين دعوا إلى المجابهة، من السريان تعبيراً عن حقهم وانجراحهم، وما كان يمكن أن يحصل من كوارث وفظائع أخرى، وهو تعقبٌ عليكي بطي بالذات، تعبيراً عن الفشل الكبير لسياسة الاتحاد وأعوانه، كما لو أن القضاء عليه، يعني فتح الطريق كاملاً أمامهم ليرتكبوا المزيد من الجرائم؟

وذلك ما يدفع بنا إلى تأكيد الشخصية القوية بفظنتها وقدرتها على إدارة الأمور الاجتماعية بعيداً عن التحيز الصادم.

ويعني ذلك أن الذين يقومون بتنفيذ مهام ذات صفة دموية، بالشكل المأثور، إنما يُعدَمون في أوساطهم أولئك الذين يستطيعون الوقوف في وجههم، أو الحد من هذه الممارسات، وما في ذلك من حالات تعرض للعواقب والمضايقات.

هذا في حال ارتبط المتحدي منتمياً إلى عقيدة محددة، ومن داخلها يتحدد موقفه، فكيف الحال إذا كان هناك التعبير عن أكثر من عقيدة أو دين، في مجال اجتماعي واحد، كما هو النموذج الهفيريكاني؟!

ملحق

كل الحق على القوميات المقهورة

ربما يُطرح سؤال «عاجل» بصدد هذا الملحق: عن مغزاه، وضرورته.

والجواب الذي لم أجد مفرّاً منه، لأهميته هنا، هو:

أولاً، لأن هناك الكثير الذي يمكن التعرف عليه في هذا المبحث، والذي يكشف عن طبيعة الذهنية المركّبة: للدول التي أسهمت، وبشكل صارخ إلى بث روح العداء بين شعوب المنطقة، تلك التي لم تتلحقها في السيادة على مصيرها وتاريخها، كما في حال الكرد، والآشوريين / السريان والأرمن، وحتى بين الدولة ذاتها، تلك التي مثّلت هذا الشعوب ضمن حدودها الإمبراطورية «العثمانية هنا» بطرق شتى.

ثانياً، ولأن هذه الدول مجتمعة، لازالت تمارس السياسة عينها في التدخل السافر، وتحت يافطات كثيرة، كما في سياق «الحقوق الإنسانية» وغيرها، ودون أن تغيّر في واقع الحال شيئاً.

ثالثاً، ولأن الدول التي تقاسمت كردستان، كمثال حي هنا، وكما في حال تركيا خليفة الإمبراطورية العثمانية، كما هو معروف، حاولت، ولازالت تحاول إلى هذه اللحظة طبعاً، تصوير تلك الصراعات الدموية، ومنها الإبادات الجماعية، على أنها من تدبير تلك الدول ومراميها العدوانية، وأن محتوى الصراعات الدموية هذه، تتحمل تبعاتها هذا الشعوب «الأقليات» في منطقتها، لأنها من جهة، انزلت إلى فخ هذه الدول، ولكل منها سياسة ومصالح خاصة ضد الأخرى، ولأنها عادت الدولة دون أن تحسب حساباً لقوتها ولا لمستقبلها، ومن جهة ثانية، وكونها اندفعت إلى صراعات جانبية، في نوع من الحروب الأهلية، بوصفها أدوات ليس إلا.

وبالطريقة هذه، تكون هي الملوثة، وأكثر من ذلك، تحمل كثيراً بتبعات ما جرى، وتوصيفها بالضعيفة والهشة والمعدومة الخبرة، وإلا لما جرى التلاعب بها.

يضاف إلى ما هو أخطر، وهو أنها لا تستحق أي تمثيل ذاتي في الاستقلال.

والفترة الزمنية الفاصلة بين ما قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى بعدة سنوات، إلى نهايتها، هي التي تضيء بنية هذه العلاقات بين هذه القوميات «الأقليات» ولا بد أن السؤال الكردي الطابع، في طبيعة هذه الأسئلة، ومأزق الكرد في علاقاتهم تلك.

رابعاً، وكون هذه الفترة الزمنية، تمكّنا من معرفة جوانب تاريخية حية ومكثفة

عما كان يجري في المناطق التي يعتبرها الكرد تعنيهم مباشر في جغرافية كردستان، وما يخص عليكي بطي، وما يمكن تصويره عما كان عليه موقفاً ونشاطاً على مدى عقد من الزمان، قبل أن يفجر انتفاضته، ويصبح شهيد مبداءً فعلياً.

والذي استوقفني، هو مقال طويل، وهو بحث فعلي، ولو بمنطق الدولة التركية الرسمي، حاولت نقل الكثير مما يميزه، ليعرف الكرد الكثير مما كان في ضوء الحاضر ومستجداته، وصراع القوى الدولية والإقليمية حيث هم: مثلاً: الأميركيان والروس، والدول الذي يقوم بهم كل منهم في «روجافا» حيث يمثل بالكرد هنا وهناك، ودون أن يحركوا ساكناً، وما في ذلك من لعبة مستهجنة، كما لو أن شيئاً لم يتغير، مع فارق: مهزلة الجاري، لحظة قراءة مواقع القوى المتنفذة على الأرض.

كاتب المقال/ البحث، تركي، ونصه بالتركية، وهو يتضمن بانوراما الفترة المذكورة تلك، وكيف أنها أقلقّت الدولة، كما لو أنها هي نفسها ضحية الصراعات التي أشيرَ إليها، وليس لها أي يد فيها، كما هو مضمون نص: صلاح سونيل:

الفترة الأخيرة من الإمبراطورية العثمانية وجهود حجرة تركيا (1908-1918)

SONYEL. SALÂHI R: Osmanlı İmparatorluğu'nun Son Dönemi ve Türkiye'yi Bölme Çabaları (1908-1918), www.ttk.gov.tr

ويكفي القارئ المعني بأمور من هذا النوع، مجرد الوقوف على العناوين الفرعية، حتى يلاحظ ذلك المكر التاريخي، والذهنية الإيديولوجية بطابعها الإستخباراتي في كل ذلك.

وقد حاولت نقل هذه العناوين مع مقابلها التركي، وإيراد مقتطفات من ذلك، ليتشكل في النهاية، كما حاولت قدر المستطاع نسيج حي، وصادم للفكرة التي شغلت الباحث، ببعدها الأمني:

الشوك في عين تركيا Türkiye'ye Göz Dikenler

تتنافس دول قوية مثل فرنسا وبريطانيا وروسيا وألمانيا مع بعضها بعضاً منذ سنوات للسيطرة على الشرق الأدنى والأوسط، كما يتضح من أولى وثائق المصدر المتاحة للباحثين في بعض الأرشيفات الأوروبية والأمريكية. قبل الحرب العالمية الأولى، خلال أيام الحرب وبعد الحرب مباشرة، كانت الدولة الرئيسة التي استهدفت نظامها هي الإمبراطورية العثمانية. كانت الدول والدول القوية واستغلال الموارد الوفيرة للإمبراطورية العثمانية من أجل الاتصال بأسواقها تحاول التسلل إلى تركيا من خلال

تطبيق جميع أنواع الوقاية. كان النفط من المصادر الأكثر أهمية بالنسبة لها. حتى أنها كانت تتنافس مع بعضهم بعضاً على مستوى العداء للاستيلاء على موارد نفطية وفيرة في دول الشرق الأوسط. في الواقع، كان أحد العوامل الرئيسية التي تسببت في اندلاع الحرب العالمية الأولى هذه المنافسة الاقتصادية بين الدول القوية.

هذه الدول في القرن التاسع عشر، أرسلت عملاءها المختلفين، الذين أخذوا دور الرحالة، التبشيرية والدبلوماسية، إلى الدول العثمانية، برسمهم على خرائط العديد من المواقع الاستراتيجية، لقد حددوا الموارد التي يمكنهم استغلالها، المجتمعات المسيحية والمسلمة (أو الأقليات) التي يمكنهم استخدامها كأدوات، وربطها بها «أي الدول المتنفذة تلك». ومن بين هؤلاء العملاء بير توماس بوا، والسياسي فرانكلين بويلون والعقيد موجين من فرنسا. المقدم رولينسون، الرائد ف. ميلينغن، الرائد سوان، المقدم مارك سايكس، المقدم تي. لورنس والرائد نوئيل، الضابط س. بروسكوفياكوف من روسيا، العقيد ف. كارتسوف، الكابتن بي واي. أفيريانوف وفلاديمير مينورسكي والأمير بوريس شاكوفسكي وبوريس نيكيتين، فيلهلم واسوس وشونيمان وليتين من ألمانيا، الأميرال تشيستر، اللواء هاربرد... الخ. يتبادر إلى الذهن.

أولئك الذين يريدون استخدام الأرمن والسرّيان والكرد كأدوات

Ermenileri, Süryanileri ve Kürtleri alet olarak kullanmak isteyenler

أعطت الدول القوية، وخاصة روسيا، أهمية كبرى للأرمن والسرّيان والكرد بين المجتمعات العثمانية المسلمة وغير المسلمة التي يمكنها استخدامها كوسيلة لأغراضها الخبيثة. فبدأت الإدارة الروسية القيصريّة، وخاصة في الحروب مع إيران في عشرينيات القرن التاسع عشر، الاهتمام بهم، حيث الكرد شكلوا جزءاً كبيراً من الجيش الإيراني. وخلال أيام الحرب التركية الروسية 1828-189، وخاصة خلال حرب القرم 1853-1856، بدأت تهتم بهم كثيراً، لوضعهم كما يعرفون بـ «الشعب المحارب» في خدمتهم... وحرصت الأرمن والكرد وضد الحكومة.

يعرف جمال موقف روسيا جيداً، يقول جمال باشا:

«لقد اعتقدنا بالتأكيد أن السياسة الروسية كانت مسئولة عن مشاعر العداء بين العناصر التركية والأرمنية. عندما حول الروس أعينهم الطامعة إلى الإمبراطورية العثمانية، حيث العناصر المسيحية نفسها

بدأت تعتقد أنه إذا استخدموها كأداة في نظامها، فسيكون لذلك تأثير سياسي.

بما أن الأرمن يميلون إلى إقامة دولة مستقلة حيث يمكنهم فرض مطالبهم على الكرد والأتراك المتفوقين عليهم، فقد عارض الكرد والأتراك بطبيعة الحال تحقيق هذه الخطة... لقد فهموا جيداً أنه تم استخدام اعتذار من روسيا لإقلاع شركة. لذلك، اعتبر الأتراك والكرد أرمنياً (الأرمن) ثعباناً أطلق سراحه».

الصراع الكردي الأرمني Kürt-Ermeni çatışması

بالإضافة إلى جهود الأرمن لإقامة دولة مستقلة أو مستقلة في شرق الأناضول بمساعدة بعض الدول القوية، فإن السلوكيات الإرهابية التي مارسوها في جميع أنحاء البلاد منذ عام 1880 مضايقة الكرد مثل أي شخص آخر. نتيجة لهذا الإرهاب، بين عامي 1894 و 1896، اندلعت أحداث تركية - أرمنية - كردية في تاريخ الغرب، انعكست عن عمد وظلم على أنها «مذبحة أرمنية»، بعد هذه الأحداث، اتهم الكرد بمصادرة الممتلكات التي استولى عليها من معظم الأرمن بشكل غير صحيح. أراد الأرمن إعادة البضائع إليهم، لكن الكرد لم يكونوا على استعداد للقيام بذلك. رغم كل جهود النظام الجديد، الذي وصل إلى السلطة بانقلاب تموز 1908 وبدعم من شباب الترك، لا يمكن حل المشكلة. ونتيجة لذلك، تشكّل وضع مزعج ومحبط طويل الأمد بين الإدارة العثمانية والأرمن والكرد، استفاد منها أعداء الوطن فقط.

وشغلت بعض العناصر الكردية مناصب إدارية عالية (نائب المحافظ، المتصرف، حاكم المنطقة) في بعض المناطق خلال أيام عبد الحميد، إنما عندما أطيح بالسلطان عام 1909 نتيجة لأحداث 31 آذار -13 نيسان)، حرمت معظم العناصر الكردية من هذه الامتيازات.

كان يُعتقد أن مثل هذه العناصر لا تعكس المشاعر والآراء الحقيقية للناس في الأناضول، على الرغم من وجود بعض مؤسسي ومؤيدي جمعية الاتحاد والترقي، إسحق سُكوتى، عبد الله جودت، عبد الرحمن بدرخان، حكمت بابان، إسماعيل حقي بابان وبعض العناصر الكردية الأخرى.

أحداث 31 آذار (13 نيسان) 31 Mart (13 Nisan) Olaylar I

في غضون ذلك، فإن رد الفعل المعروف باسم «قضية 31 آذار» (حادثة 13 نيسان) ينفجر على أنه رد فعل ضد الصراع شباب الترك.

مباشرة بعد هذه الأحداث، وخاصة في نيسان 1910، بدأ نواب القناصل البريطانيون في شرق الأناضول في التفكير في أن الاتجاه قد بدأ بين الكرد، ومعظمهم

في مقاطعة بدليس. فنجد نائب نائب القنصلية البريطانية من أصل أرمني بروتستانتى، القنصل البريطانى P.J.C. كان يرسل مقالة سرية إلى ماكجريجور في 22 نيسان. ووفقاً لسفارستيان، فإن قائد الدرك حسين بك، الذى كان قد تجول مؤخراً في الشواطئ الشمالية لبحيرة وان لمعرفة وضع الكرد، أعطاه المعلومات السرية التالية: «بعض القرى الأرمنية في منطقة أدليفاز، مهددة من الكرد، وتم تدميرها بشكل كبير لأغراض الدفاع.

الكونغرس الكردى الأرمنى Kürt –Ermeni Kongresi

في الأسبوع الثالث من آب 1910، بدأت الأخبار تنتشر بالطريقة التي تمرد بها الكرد في مقاطعة غافار وأن المسيحيين في غافار كانوا يحاولون الفرار إلى وان بحثاً عن الأمن. ويقال أن الكرد هناك يهددون المسيحيين شخصياً.

يؤسس الكرد منظمات سرية Kürtler gizli örgütler kuruyor

قرب نهاية آب 1910، أصبحت العلاقات بين الأرمن والكرد أسوأ.

مع دخول عام 1911، استمرت مشاعر الكراهية والأحداث بين الكرد والأرمن. تم الإبلاغ عن العديد من الهجمات الكردية، لا سيما في موس وبيتليس، ولكن هذه الحوادث كانت مبالغ فيها من قبل نائب نائب القنصلية البريطانية من أصل أرمنى في بيتليس، سفراشتانكا Safrastianca. ذكر Safrastian، في تقرير أرسل من Bitlis في 23 أيلول، أن الفوضى كانت سائدة في تلك المقاطعة.

«أعمال العنف والقتل الكردى في كل مكان» «Her yanda Kürt taşkınlıkları

ve cinayetleri

استمر Safrastian في إزعاج الإدارة البريطانية بتقاريره المتشائمة. في مقالته بتاريخ 18 كانون الأول، عندما كان مسافراً من بدليس وأرضروم

سنة القدر (مصير) الإمبراطورية العثمانية: 1912

Osmanlı İmparatorluğu'nun yazgı (kader) yılı: 1912

عند دخول عام 1912، كان الوضع يزداد سوءاً في المقاطعات الشرقية لتركيا. كان القنصل البريطانى مكجريجور في أرضروم يرسل التقرير التالى في 5 آذار: «الفوضى في المناطق الكردية مستمرة دون رادع. يقال بالتأكيد من جميع الجهات أن النفوذ الأجنبي قد اخترق القبائل الكردية. إن سلوك السلطات اللامبالي المطول يعطل

معنويات هذه القبائل بشكل ملائم». تم تأكيد هذا التقرير أيضاً من قبل القس التبشيري الأمريكي G. Knapp، الذي كان يعمل كنائب القنصلية البريطانية في Bitlis في ذلك الوقت. في الرسالة التي أرسلها إلى القنصل مكجريجور في 26 فبراير، قال الأب ناب إنه تم جلب بعض الأسلحة من روسيا ووزعت على الكرد.

التعاون مع الروس Ruslarla işbirliği yapanlar

كان الروس يغيرون النظام مع بعض القادة الكرد.

تجاوزات المسلحين الكرد Kürt militanların aşırılıkları

في أيلول 1912، قبل اندلاع حرب البلقان الأولى بقليل، كانت صحيفة باكو الروسية تنشر تقريراً من مراسلها في ستانبول. وبحسب المزاعم الواردة في هذا الخبر، فإن التقارير الواردة من شرق الأناضول قالت: «في عدد قليل من المحافظات التي يعيش فيها الأرمن، تم قتلهم. ونهبت القرى. وتم اختطاف النساء والفتيات، أن بعض الناس أجبروا على تغيير دينهم، وأن 30 رجلاً قتلوا في وان في أسبوع واحد على أيدي الكرد، وخلال الشهرين الماضيين، اختطف الكرد 10 فتيات أرمن في بدليس، أن يجبر البييسون الكرد سكان قرية أرنيو على تغيير دينهم، ونظمت مسيرات في مدن مختلفة للاحتجاج على هذه السلوكيات الإجرامية». وتؤكد صحافة ستانبول وقوع بعض هذه الأحداث. كان ينشر أنباء عن «تجاوزات المسلحين الكرد ضد الأرمن في وان وبدليس وديار بكر».

تهديدات البطريرك الأرمني Ermeni Patriğin tehditleri

كان الوضع حزيناً جداً لدرجة أن مجلساً أرمنياً يتألف من اثنين من أساقفة يرأسهما البطريرك الأرمني ذهب إلى الباب في أيلول، وقبله وزير العدل والعدل. وهدد البطريرك بالانسحاب من منصبه بإغلاق البطريركية إذا لم يحصل مواطنوه في شرق الأناضول على ثقة كافية.

حروب البلقان والأحداث الكردية الأرمنية Balkan Savaşları ve Kürt-

Ermeni olayları

بينما تم جر الإمبراطورية العثمانية إلى حرب البلقان الأولى، التي بدأت في تشرين الأول 1912، كان الوضع في شرق الأناضول يدخل في مرحلة أكثر اكتئاباً. وفقاً لنائب القنصل البريطاني في وان، السفير لوثر، الحاكم الجديد عزت بك، الذي وصل إلى وان حوالي 15 تشرين الأول، لم يستطع اعتقال قادة قطاع الطرق الكرد مثل

سعيد بك ومير ماهى Sait Bey ve Mir Mahe، الذين خَلَفُوا سمعة سيئة في تلك المنطقة.

لم تنجح القوة العسكرية التي أرسلتها الحكومة ضد قطاع الطرق الكرد بقيادة مير ماهى وسعيد بك. في عام 1911، تم إرسال قوة عسكرية ضد القبائل الكردية، التي كان لديها أكثر من 6000 خروف وقتلت العديد من النساء. ولكن لا يزال عدم الثقة مستمر في مقاطعة وان. ووفقاً لمترجم نائب القنصلية العامة البريطانية في ديار بكر، أعاد الآغاوات الكردي في منطقتي الجزيرة وماردين احتلال مواقعهم في وقت عبد الحميد وبدأوا في إجبار سكان القرى التي احتلوها على دفع ضرائب عليهم.

عبد الرزاق بدرخان في الخدمة الروسية

Abdurrezzak Bedirhanzade Rus hizmetinde

في غضون ذلك، واصل بعض زعماء القبائل الكردية تغيير العلاقة مع العملاء الروس، بمساعدة أعضاء من عشيرة بدرخان. من أجل مساعدة القنصل البريطاني في وان، فإنه يهدف إلى «إقامة كردستان المستقلة في شرق الأناضول» كانت الاستفادة من الوضع السائد في تركيا وأوروبا. في غضون ذلك، ورد أن الزعيم الكردي شيخ طه، الذي ذهب إلى بدليس، التقى ببدرخان عبد الرزاق، المعروف بأنه عميل روسي.

أفيد أن بعض الكرد العثمانيين كانوا يتصاعدون ضد الحكومة في العديد من الأماكن على الحدود. علاوة على ذلك، قيل أنه تم إرسال 70.000 بندقية من روسيا إلى عبد الرزاق لبدء تمرد كردي.

Bölücüler sahnede المسرح على

في غضون ذلك، استمرت تصرفات العملاء الروس في منطقة الموصل.

كانت أسوأ العلاقات بين الكرد والأرمن تطلق الحكومة العثمانية. من ناحية، كانت منظمة طاشناق الأرمنية تسليح الفلاحين الأرمن، من ناحية أخرى، كان الكرد يجمعون الأسلحة ويقيمون مسيرات. من بين العناصر الكردية، كان الرأي القائل بأن الثورات المخطط لها في شرق الأناضول تهدد «أصولها الوطنية» هي المهيمنة. لذلك، كانوا يقومون بأحداث في مدينتي سيزير ومديات.

Kürt-Alman düzenleri أوامر كردية ألمانية

في هذه الأثناء، بدأ الألمان في تحويل العلاقة مع الكرد.

الصراعات الكردية والأرمنية والسريانية Kürt –Ermeni – Süryani çatışmaları

في حين أن وضع الإمبراطورية العثمانية دخل مرحلة من الكساد الشديد بسبب حرب البلقان، كانت العلاقات الكردية الأرمنية الآشورية تزداد سوءاً أيضاً في شرق الأناضول. قالت السيدة م. باركلي، التي تعيش في نورثود، إنجلترا، في مقال أُرسِل إلى وزارة الخارجية البريطانية في 26 أيار، «عن قتل الكرد، للمسيحيين النساطرة (السريان) في شرق الأناضول، للانتقام من هزيمة حرب البلقان.

تحريرض تم تدمير 50 عائلة من هؤلاء الرعاة النسطوري المحبين للسلام أثناء رعي قطعانهم في الجبال وأخذ 9000 حيوان من أغنامهم، نهبت مدينة القبيلة (٩).

«القبائل الكردية، جيش يتراكم للقضاء على المسيحيين. يتم ذلك عن طريق الأتراك الذين سلّحوا الكرد لأنهم يقولون: «المسيحيون استولوا على أراضينا واستولوا على معظمنا. الآن سننهبها هنا أيضاً!» قدم القنصل البريطاني في فان والقنصل الروسي في أورمية معلومات حول هذه المسألة. ألا يمكن الضغط على الحكومة التركية لجمع الأسلحة التي قدمها عبد الحميد للكرد؟ إذا تم ذلك، يمكن للنستوري، المحظور عليهم حمل السلاح، أن يتأقلموا مع الوضع. أنا أدعم العمل التبشيري بين الكرد ومتسلقي الجبال في كردستان وأتمنى لكم أن تعملوا على وجه السرعة لإنقاذ شعب مسالم لا يعارض الأتراك أبداً».

ومع ذلك، لم تذكر السيدة باركلي في الرسالة قط أن الإدارة العثمانية كانت أضعف من أن تتعامل مع الوضع بسبب حروب البلقان وأن المسلحين السريان لم يكونوا أبرياء للغاية.

في حزيران، كان يرسل الرد التالي: «إذا لم يتم التعامل مع كردي يقتل أرمنياً ليس كرجل يقتل أرمنياً فحسب، بل كقاتل»، فلا يمكن توقع الأمن والنظام في تلك المناطق...».

تستمر الأحداث الأرمنية الكردية في المقاطعات الشرقية

Doğu İlleri'nde Ermeni-Kürt olayları sürüyor

استمرت الحالة السيئة في شرق الأناضول. تم تعيين القس المبشر الأمريكي م. ناب، كنائب القنصل البريطاني في بيتليس، من قبل القنصل البريطاني جي إم. في الرسالة التي بعث بها إلى موناهاان في منتصف حزيران 1913، أفاد أنه تم ارتكاب ما يقرب من 40 جريمة قتل في مقاطعة بدليس منذ منتصف نيسان.

تم تسجيل العديد من عمليات الاختطاف والابتزاز والسرقة، أنباء تفيد بأن معظم القتلى وغيرهم من الضحايا هم من الأرمن، وأن الذين ارتكبوا الشر هم من الكرد وأن الأخبار المقلقة وردت من جميع الجهات، وصف لانسليت أوليفانت، أحد مسؤولي وزارة الخارجية البريطانية، ذلك بأنه «وضع رهيب».

الإمبراطورية العثمانية على وشك الانقسام

Osmanlı İmparatorluğu bölünmek üzere

نشر عبد الرزاق وأتباعه شائعة مفادها أن الحكومة العثمانية على وشك منح الأرمن الحكم الذاتي من جميع الجهات.

كيف يمكن حل المشاكل الأرمنية والكردية؟

Ermeni ve Kürt sorunları nasıl çözümlenebilir?

في غضون ذلك، كان من المفهوم أن الزعيم الكردي سمكو، الذي كان تحت حماية روسيا، كان يتعاون مع عبد الرزاق في بدء انتفاضة كردية. كان هدف سيمكو أن يبقى مخلصاً للحدود الكردية مع تركيا، باستخدام القوة إذا لزم الأمر.

العلاقات الكردية الأرمنية Kürt-Ermeni ilişkileri

في منتصف أغسطس 1913، كان الصراع الكردي الأرمني يصل إلى مرحلة لم يتم حلها.

الوضع بعد حروب البلقان Balkan Savaşları'ndan sonraki durum

إن استفاد الإمبراطورية العثمانية من حروب البلقان يمنح الدول القوية الفرصة للانخراط أكثر في الشؤون الداخلية للإمبراطورية، خاصة في روسيا وبريطانيا وفرنسا وألمانيا والنمسا والمجر وإيطاليا ودول أخرى، كما أدى إلى التنافس مع بعضها بعضاً في زيادة آثاره السياسية والاقتصادية. قسمت بعض هذه الدول الإمبراطورية العثمانية إلى مناطق نفوذ فيما بينها، لقد منحوا حقوق الامتياز من حيث الأشغال العامة والمواد الخام في مناطق مختلفة.

يستمر تسليح الكرد والأرمن

Kürtlerle Ermeniler silâhlanmayı sürdürüyorlar

في غضون ذلك، استمر تسليح الكرد والأرمن. القنصل البريطاني بكالوريوس في حلب وفقاً لسفير فونتانا البريطاني الجديد في ستانبول، أبلغ السير لويس ماليت في

21 تشرين الأول 1913، أن اليونانيين (القبارصة) وبعض الأشخاص الآخرين، «سيتم بيعهم للأكراد والأرمن» أسلحة إلى تركيا. من ناحية أخرى، أرسل إيان سميث، نائب القنصل البريطاني الجديد في فان، إلى السفير ماليت في 10 كانون الثاني 1914، أن الأرمن في وان يشكلون 5/2 من سكان المقاطعة، إذا وقعوا تحت سيطرة أوروبا، فإنهم متفائلون ويعتقدون أنه يمكنهم «السيطرة على العناصر التركية والكردية من السكان» بفضل «تعليمهم المتفوق ومهاراتهم التجارية»، كان الأرمن مسلحين في ذلك الوقت أفضل من الكرد. وذكر أنهم يرغبون في توفير الأسلحة بسبب عدم الثقة وعدم الثقة التي عانوا منها أكثر من بعض قطاع الطرق الكرد.

الحكومة العثمانية تتمنى المساعدة من بريطانيا

Osmanlı hükümeti İngiltere'den yardım diliyor

قلقاً من هذا الوضع الخطير نوعاً ما، تقدمت الحكومة العثمانية بطلب إلى الحكومة البريطانية لتحقيق ثورة بمساعدة المسؤولين البريطانيين في شرق الأناضول. لكن روسيا كانت ضدها. هذا التطبيق الذي قدمته الحكومة العثمانية إلى إنجلترا يثير الجدل بين الدول القوية.

مشروع إعادة تأهيل شرق الأناضول Doğu Anadolu ıslahat projesi

يمنح مشروع الإصلاح، شرق تركيا، درجة كبيرة من الحكم الذاتي للمقاطعات الست وترايزون، وقسمهم إلى قسمين للإدارة: القسم الأول كان من أرضروم وترايزون وسيواس. القسم الثاني يتكون من فان، بدليس، خربوت وديار بكر.

أحداث جديدة للأرمن والكرد في بدليس

Bitlis'te yeni Ermeni-Kürt olayları

في غضون ذلك، في الرسالة التي بعث بها إلى حكومته في 9 نيسان، ذكر السفير الألماني في العاصمة العثمانية أن رئيس أساقفة الأرمن في بدليس أرسل الرسالة التالية إلى ستانبول في 1 نيسان: «تعرض الكرد للهجوم حول المدينة. صراع رهيب مستمر. هناك فوضى في كل مكان. نحن ننتظر الموت. الرجاء ارسال المساعدة».

استفزازات روسية جديدة Yeni Rus kışkırtmaları

وكان يشير إلى تقرير نُشر في عدد تموز من عام 1914 لصحيفة جالديران، والذي وصفه نائب القنصل البريطاني في فان بأنه «صوت الطوابق المحلية ولجنة

الاتحاد والترقي». ووفقاً لهذا التقرير، يعقد زعماء القبائل الكردية اجتماعاً في هوي تحت رئاسة القنصل الروسي م. شاريكوف (أو تشيرينوف)، وتم خلال اللقاء توزيع البيانات بطبعها لتوزيع الكرد. وقد اتخذت قرارات بإنشاء عصابات وتوزيع 500 قطعة سلاح تم إحضارها إلى دول أجنبية منها مؤخراً.

إعلان الحرب والتعبئة العثمانية Savaş ilânı ve Osmanlı seferberliği

عندما بدأت الحرب العالمية الأولى في 1 آب 1914، امتنعت الإدارة العثمانية عن دخول الحرب، لكنها أعلنت التعبئة. ويعارض بعض الأرمن، ثم بعض الكرد، الالتحاق. لكن الغالبية العظمى من الكرد تم تجنيدهم. وفقاً للسفير البريطاني السير لويس ماليت، عارض بعض الفلاحين الكرد والأرمن في ديار بكر التسجيل أو المساعدة المالية لأغراض الحرب.

دخول الإمبراطورية العثمانية الحرب واقتراحات لاستفزاز الكرد

Osmanlı İmparatorluğu'nun savaşa girişi ve Kürtleri kışkırtma önerileri

دخلت الإمبراطورية العثمانية الحرب العالمية الأولى في 30 تشرين الأول 1914. استناداً إلى تقرير المخابرات البريطانية السرية المؤرخ 26 كانون الأول 1917، كانت أهداف حرب الحكومة العثمانية هي القضاء على التهديد الروسي.

كانت مسألة تمرد الأقليات العرقية والدينية داخل حدود الإمبراطورية العثمانية مرة أخرى على جدول الأعمال في اجتماع سري عقد بين الدول المتنفذة في باريس في 30 كانون الأول 1914.

ومع ذلك، هناك أدلة تثبت أن الأرمن والمارونيين (النستوريين) السريان والعرب والكرد والشعوب الأخرى قد استفزوا بسبب التمرد أو عملائهم السريين في أيام الحرب.

النزوح الأرمني (إعادة التوطين) (tehciri) Ermeni yer değiştirmeleri

في كانون الثاني 1915، بعد كارثة جيوش ساري قاميش الروسية في الاحتلال التركي الشرقي للأناضول.

في هذه الأثناء، قررت الحكومة العثمانية، التي قررت أن بعض القادة الأرمن والمقاتلين تعاونوا مع الأعداء، وإبعادهم عن المناطق الاستراتيجية وإرسالهم إلى المناطق التي لا يمكن أن يكونوا فيها ضارين.

وحشية روسية أرمنية Rus-Ermeni vahşeti

المقاطعات الشرقية في تركيا، وخلق ساحة معركة بين تشرين الثاني 1914 وتشرين الأول 1918، تتراوح العمليات العسكرية من سالفاميش Sarkamış في الشمال إلى خانقين Hanikin في الجنوب وأرزنجان Erzincan في الغرب. خلال الحرب، كان الكرد والمسلمون الآخرون، مثل الأتراك، يتسببون في خسائر بشرية. يلجأ العديد من الكرد والمسلمين الآخرين إلى غرب الأناضول بعد احتلال روسيا شرق الأناضول. تعرض أولئك الذين تركوا وراءهم لجميع أنواع القسوة والقسوة من قبل الروس وحلفائهم. وفقاً للتقرير السري الذي أرسله العقيد البريطاني مارش إلى رئيس المخابرات العسكرية في 24 أيار 1916، كان على الحكومة الروسية اتخاذ إجراءات جنائية لإنقاذ المواقع التي تحميها الحاميات الصغيرة من «خيانة الكرد» في العديد من المناطق 76. كان الجنود الروس الذين استخدموا لتنفيذ هذه الإجراءات يتألفون بشكل عام من القوزاق والميليشيات الأرمنية والميليشيات الحدودية والجنود، ومعظمهم من الأرمن. كان الجنرالات الأرمن مثل نازاريكوف، تشيرنوزوبوف وتيرمن يقودونهم، الذين ينتمون إلى الجيش النظامي الروسي وزعموا أن مواطنيهم ذبحوا من قبل الكرد. انتشرت شائعات بأن كل جندي كردي في العصر العسكري، أُلقي القبض عليه خلال العملية الإجرامية التي قام بها الجنرال تيرمين في شباط 1916 بالقرب من سوسبولاك، وذبح. وكما يُزعم في التقرير، فإن الشائعات التي تفيد بأن الكرد، الذين كانوا في سن الجيش واعتُقلوا في شباط، قتلوا خلال العملية الإجرامية في منطقة سوسبولاك للجنرال الروسي الأرمني.

الخطة البريطانية لاستخدام الكرد İngilizler Kürtleri kullanmayı tasarlıyorlar

في عام 1917، لم تكن الحرب تسير على ما يرام بالنسبة للأقارب. لذلك، استخدام الأقليات داخل حدود الإمبراطورية العثمانية على أمل أن تساعد في الجهود الحربية للشركاء، وقد جرت مناقشات حول بعض المشاريع من أجل التمرد أو الاعتداء عليها والاستفادة منها من جميع النواحي. P.A.

أفيد أن حوالي 30 ألف جندي تركي كانوا هاربين وأن الكرد تجمعوا في منطقة هيزان شرقي بيتليس. كان بعض هؤلاء الهاربين يهاجمون خطوط النقل التركية في جنوب بدليس. وعلق مونسل:

من المحتمل أن يكون جميع هؤلاء الهاريين رجالاً من أصل كردي، ولم يعودوا يرغبون في القتال من أجل الأتراك. قبل الحرب، أصبحت مدينة ومنطقة بدليس مركزاً دائماً للكرد الساخطين.

الصراع البلشفي والصراع الكردي السرياني - Bolşevik ihtilâli ve Kürt-Süryani çatışması

يقول ستيفن بيليتير، كاتب غربي: «من غير المعروف جيداً في الغرب كيف دمرت الحرب العالمية الأولى منطقة شرق الأناضول 86. عندما غزا الروس هذه المنطقة، صادروا الطعام هناك. ودمّرت منشآت الري. لقد أحرقوا الحدائق وكثيراً ما جردوا جميع الدول الإسلامية.

. عندما انسحبت الجيوش الروسية من شرق الأناضول، ترك الآشوريون لوحدهم. كان هناك 25000 محارب شرقي سري.

. عندما انسحب الروس، كان عليهم أن يلجأوا إلى إيران مغادرين منازلهم

في خريف عام 1915، تم إرسال هؤلاء المحاربين الذين ينتمون إلى قبيلة جيلو إلى سهل سلماش في إيران وأورميا (رضائي) من قبل البطريك والقادة الوطنيين، مار شمعون، مستشعرين بأنهم ليسوا آمنين.

وقرب نهاية عام 1917، أمر البطريك السرياني مار شمعون بـ 5 آلاف محارب سرياني كانوا مسلحين مباشرة قبل انهيار روسيا وبعده. بعد الصراع البلشفي، كان الممثلون المنتسبون في تلك المنطقة يحاولون تنظيم الآشوريين، إلى جانب بعض الجنود الروس المتبقين، استخدموا الدفاع للدفاع عن الأتراك. بالإضافة إلى عدد قليل من المتطوعين، تمت تعبئة 6000 مسيحي مسلح. كان ينظر إلى وجود مثل هذه القوة المسيحية القوية والمسلحة على أنها تهديد من قبل مسلمي مدينة أورميا، ولا سيما من قبل زعيم قبيلة الشكاك، إسماعيل آغا سيمكو.

حتى ذلك الوقت، كان القرويون المسلمون والآشوريون في منطقة أورمية يتعايشون مع بعضهم البعض. لكن الوضع كان يتغير بسرعة عندما ظهرت قبيلة المحارب الجبلية الآشورية على المسرح.

السريان بعد الانتقام Süryaniler öç peşinde

بمجرد أن سمع السريان بهذه الأحداث، لم تتمكن أخت مار شمعون من العثور

عليها، وأمرت بالانتقام من المسلمين الأبرياء. إن الأسلحة السريانية، التي أخذت السفينة إلى فمها، قتلت المئات من الرجال والنساء والأطفال المسلمين دون أي تمييز، كانوا ينهبون منازلهم. أحد أفراد القبيلة السريانية كان يقول: «بعد وفاة مار شمعون، لم نعد سجيناً كردياً». تمت تعبئة قوة سريانية على الفور تحت قيادة أشا بتروس ومالك (ملك) خوشابا لمعاقبة سيمكو، الذي كان في حصنه في جحريك (شارا). هزم سيمكو بعد 36 ساعة من التصادم. وبحسب ادعاء الكاتب الغربي بيرلي، فقد وجدوا رسالة في حصن سمكو أرسلها حاكم تبريز الإيراني مطالبين بقتل مار شمعون. ومع ذلك، لم يتم العثور على وثيقة تؤكد هذا الادعاء في أرشيف الدولة البريطانية.

ينوي البريطانيون استغلال الآشوريين İngilizler Süryanileri istismar
etmeyi tasarlıyor

وفي الوقت نفسه، قدم الجنرال البريطاني دونستريفيل معلومات حول الآشوريين المسيحيين في منطقة أورميا، واتصل بهم على أمل تهديد خطوط النقل التركية، تحت قيادة العديد من الضباط البريطانيين.

نهاية الحرب Savaşın Sonu

حتى هزيمة الإمبراطورية العثمانية مع تعديل موندروس، الموقعة في 30 تشرين الأول 1918، كانت الولايات المتحدة، وخاصة إنجلترا وفرنسا وروسيا واليونان والأرمن والسريان والكرد الذين عاشوا في تلك الإمبراطورية لسنوات عديدة رفعوا مجتمعات عرقية ودينية أخرى لمصلحتهم وبكلمات وفيرة، لقد ألبوا شعوب الأناضول ضد بعضهم بعضاً ونسيوا وعودهم بعد تحقيق مصالحهم الخاصة.

ينتهي المقال/ البحث هنا، ولن أصدر حكماً قطعياً عليه، سوى أنني كباحث، ومن خلال تجربة كتابية وقرائية لي، أرى أن العناوين الفرعية وحدها، تشكل مجموعة رسائل صغيرة، ولا تقرأ بسهولة من جهة طريقة كتابتها، وما يُراد منها في مناخ اجتماعي ساخن، وضمن مغلف كبير، موقع عليه من أعلى جهة أمنية استراتيجية تركية، لنشرها هنا وهناك. حيث كل عنوان يفصح عن مؤامرة تلو أخرى على هذا البلد «المسلم- الديمقراطي- المغدود» عالمياً.

هنا، أتخيل ما كان عليه وضع المقاوم لمثل هذه الصراعات ومن وراءها، ومن حاول وقفها، وهو يحمل روحه على راحته، وتكون الدولة التركية نفسها معلنة حربها عليه، كما في حال عليكي بطي هنا، وعموم هفيركان إجمالاً، كما يعلمنا بذلك تاريخها.

من عليكي بطي إلى شمعون حنا حيدو

«إن مغامرة البطل الناجحة، المتجاوزة، ليست سوى تدشين لتيار الحياة وتدفقه في جسد العالم.»

جوزيف كامبل: البطل بألف وجه

تأخذ معظم قصص البطل من عالمه المألوف ليأخذه إلى عالم غريب غير معروف وغريب (مثل سمكة خارج الماء). الهدف من هذه الخطوة الأولى هو خلق تباين مع العالم الاستثنائي الذي سيدخل فيه البطل بعد ذلك. لذلك عليك إظهار البطل في عالمه العادي.

كريستوفر فوجلر: رحلة البطل

تدشين الاسم تاريخياً

سأتحدث هنا بنبرة مختلفة، ليس لأن هناك خروجاً عن النص، يستجبه ظهور طارئ فيه، وإنما لأن في النص الذي لا يمكن أن يكون مستوياً، كما لو أن قراءته تجري بالنبرة ذاتها، وإرفاق الشعور نفسه، والانطباع نفسه. إن الكلمات، من حيث البنية والنشأة كائنات حية، لا مناص، وأوجز شاهد على أن ذلك، أن ليس من كلمة تجد طريقها إلى الخارج، إلا وتحمل بصمة أنفاس معينة، حيث يتداخل فيها الشهيق والزفير، أي ما يصل الخارج بالداخل، أو بالعكس، وإن أردت إيضاحاً واجباً أكثر، فهو بصدد الكلمة عينها، فهي، حتى وهي مستقرة في النفس، وتخرج في صمت، منتقلة إلى الورق، إنما لا بد أن عمرها ما يلزمها لكي تجد الوقت المناسب للخروج من «رحم» الصمت المضمّر، وأن تكون داخلة في نطاق ما هو نفسي من مشاعر وانفعالات وهواجس وخلافها، حتى إن اعتبرناها مجرد كلمة عادية، فهي في الحالة هذه أيضاً لا بد أن تأخذ «نصيياً» لها مما هو شعوري، أو من بصمة روحية معينة، فهي تكون محسوسة، ومقدرة، تحيي وتميت.

وهناك تفاوت بين كلمة وأخرى، بين الكلمة التي تأتي في سياق جملة معينة، معبرة عن موقف معين، والكلمة ذاتها، وهي تردّ تردّ في سياق جملة أخرى، وترتبط بموقف آخر، أوحى وإن تكررت الجملة نفسها، فإن الكلمة الواحدة لا تعود هي نفسها بالتأكيد، نظراً لتأثيرها في كل حالة، بالمفهوم الزماني- المكاني، فكيف يكون

مقام الكلمة، وهي ترتبط بموقف لا بد أنه استثنائي، موقف ليس من المواقف التي يمكن ملاقاتها يومياً. موقف بطولي، بامتياز.

الكلمة الموصولة في ظهورها وتهجئتها بخصوص بطل في التاريخ، ويصبح من التاريخ، لها اعتبارها، سطوتها، عمقها الوجداني، فسحتها الفضائية، بالمفهوم الإنساني، قدرتها على ترك الأثر البليغ في المكان، وكلما ترددت في المكان.

أقول ذلك تأكيداً على هذه اللحظة المكثفة من الزمان، حيث يكون حضور البطل، وزمن البطل ليس أي زمان كان، كما يعلم بذلك أي معني باختلافات مفهوم الزمان، والذي يتم تلوينه وتعزيزه من خلال الكلمة المشيرة إليه. ولهذا كان هذا العنوان، الذي وإن كان فرعياً، لكنه يمثل شجرة في غابة الزمان، شجرة لها فروعها الكبيرة والنضرة كذلك، أعني بها شجرة السرياني شمعون حنا حيدو، أعني به البطل، وهو بطل، وإن تُذكر هذه الكلمة، أي مستقرة في أصل الاسم. ووجه المبرر لهذا الاختيار، هو استحقاق هذا السرياني العتيد التاريخي، وأهليته لأن يكون فضاء مرسوماً وموسوماً من خلاله.

ولو أن في رحلة عليك/ علي بطل يبقى ظله متخيلاً حاضراً في أكثر من مقام لافت.

هناك الكثير الذي يمكن قوله فيه وعنه، بالرغم من الذي يتوافر لدينا باسمه لا يتجاوز نطاق هذا الكتاب، وهو مقروء اسماً وبطولة في عدة صفحات، إلى جانب ورود اسمه في أغان كردية تحتفي به، وتمجّده لقاء الرمزين الأثيرين: السرياني- الكردي، ليس كيل مديح، وإنما حقيقة تاريخ مسجلة، وهو ما سنتعرض له في الفصل المتعلق بـ «البطل الشعبي».

من المؤكد أن لشمعون تأثيراً على حياة علي، وأن علي كان يقدره لهذا السبب، وهو تأثير يتجسد في كونه ابن عائلة/ أسرة سريانية معروفة ومتفذة في زمانها، وهذا يظهر بالمقابل، تلك الحميمية بينهما أكثر، أي كان يمتلك ما يمكّنه من العيش معتمداً على نفسه، ليكون له هذا الظهور المعلوم، أو كان من الصعب، على الأقل، وفي ضوء ما هو مكتوب، وكذلك ما هو متردد عنهما من خلال الذاكرة الشفاهية، أن يكون لاسم علي ذلك الصدى البطولي بمعزل عنه. وهذه ليست نقيصة بالتأكيد، بالعكس، حيث إن قصص الأبطال تظهر دائماً من يشق طريقه إلى الشهرة، صحبة صديق/ خل وفي.

طالما أن الصداقة تقوم على المغامرة البطولية، ودون تردد، وهي شراكة روحية حياتية ضد الموت معاً.

وهذا ما يدفع بنا إلى أن نتعرض لتلك النقاط التي تثير الفسحة المضاعة لهذه العلاقة وأهميتها اجتماعياً.

لنبدأ بما كان يجري من تخطيط جهة التوترات المفتعلة بين الكرد والسريان، وكيف جابه علي الموقف وما نتج عن ذلك،

حيث إن ما تفوه به عليكي بطي، يفصح عن هذا التحدي، بمقدار ما يسمي علاقة الصداقة تلك وهي أكثر من كونها بين مجرد شخصين عاديين (إن الكثيرين من رؤساء العشائر الكردية، الذين وقعوا تحت تأثير دعاية الجامعة الإسلامية، اجتمعوا في منطقة إيسل، في مدياد وكانوا يتهيأون لشن هجوم على السريان. إلا أن علي بطي أبلغ المجتمعين «عهداً بذمتي، كل من يقوم بأي هجوم، مهما كان صغيراً، على المسيحيين سيجدني واقفاً ضده.. ليكن هذا معلوماً..» وبذلك شتت الاجتماع وتفاذى مشروع الهجوم هذا، والذي يمكن أن يؤدي إلى حوادث كثيرة سيئة. ص 85).

ذلك يذكرنا بمواقف كل من عبيدالله النهري، وعبدالسلام برزاني، كأمثلة حية دالة على كيفية النظر إلى الآخر، وهو شريك في المكان والسلطة، ليس بوصفه المختلف بالمفهوم الإنساني، كونه ينتمي إلى دين مغاير، وإنما إلى ذات الإنسانية، والاختلاف ينمي العلاقة أكثر هنا.

ويقال، كما جاء في التأكيد (أن هذا الموقف الإنساني الجدير بالثناء لزعيم هفيركان لم يمر بلا مقابل من جانب المسيحيين، فقد قدّموا دعماً كبيراً لحركة التحرر الكردية في المنطقة، كما أن الكرد المسيحيين في المنطقة ساهموا في تحويل علي بطي إلى صاحب سلطة في المنطقة خلال فترة قصيرة، وكانوا إلى جانبه في أوقات الشدة، وكان أصدق أو أوفى رفاقه من هؤلاء المسيحيين، وأحد أشهر هؤلاء يدعى شمعون حنا، رفيق علي في السلاح وساعده الأيمن، وأن الشجاعة التي خاضها سوية أصبحت تجري على الألسن في هفيركان... ص 85)

يستوقفني هذا الاقتباس/ المقطع، لأن فيه قوآن عناصر متكاملة، ومتناغمة، إن من جهة التلاحم الاجتماعي المصيري، وإن من جهة تحدي المظالم، أو من جهة الصداقة التي تقوم على أساس الإيثار، وليس الأنانية.

بعيداً عن الاسترسال في هذا الجانب، أنوّه إلى التأثير المعنوي لصداقة مصيرية كهذه، وهي ترتبط بتاريخ ثقافي طويل، أي ما يعود إلى دور الفرد في التاريخ، ففي يومنا هذا، لازال التركيز على هذا الدور قائماً، وليس من مؤشّر على وقوع خلاف

هذا التوجه. أي مقدرة شخص ما، متفان، مقدام، ملتحم بشعبه، ولديه قضية يؤمن بها، ويكون في الواجهة، ولديه قابلية التعبير فيما يقوم به، والحركة اللافتة، وجليب الأعمال التي تحيله إلى رمز عنفوان أو قدوة اجتماعية، لا بل وقومية. ذلك ما يستحقه، وما يجدر التنويه إليه، وتحديدًا، فيما يشبه الوقت الضائع، أو غير المحتسب، أي لحظة هروبه مع رفيق دربه النضالي، وتدارك الوضع الكارثي قبل وقوع الكارثة، أي تهديد المتبقين للموت أو للتكيد بهم. هذه الواقعة ذات مقام رفيع ومهيب في الذاكرة الجماعية، لا أظن أنها في سريانيته تتساها، ولا أظن أن بيتاً سريانياً لا يعلم بأمره، ولنوعية البطولة التي قام بها، صدىً لمخططات أعداء شعبه هنا، وكان من الممكن أن تكون نهايته، وفي الوقت الذي يمكن السؤال، عما إذا كان هناك ما أعلمهم، أم لا، بأن مكيدة كبرى، يُخطط لها، عبارة عن إبادة جماعية بحق السريان تبعاً. حتى وإن لم يكن هناك من أحد أعلم كلا الصديقين بذلك، فإن فطنتهما، ربما تكون متوقعة ذلك، وهذا يعني أنه من المحتمل أن يكون هروبهما من السجن، تعبيراً عن هذه المخاوف، طالما أنهما كانا يعلمان بمثل هذه المخططات المميتة، ويعيشان مناخاتها المسمومة جماعياً منذ نهاية تسعينيات القرن التاسع عشر، مع الشعب الأرمن، والبدء بالشعب السرياني.

ولهذا، فإن ما أقدم عليه شمعون السرياني وهو في وفائه مع علي، هو هذا التركيز على كيفية تعميق هذه الصداقة، لتكون أكثر رسوخاً، أكثر عمقاً في الوصل بين الكرد والسريان، وهذا ما تحقق في حدود ما استطاعه، وكما قدر السريان، من هم في النطاق الهفيريكي/الهفيريكي، ومن هم في الخارج، بعد أن سمعوا بما جرى، وبما كان سيجري لولا إيقاف المذبحة الكبرى، عبر الدخول في تحالف استراتيجي إنساني، ضد قتلة الشعوب طبعاً.

ومن المؤكد أن نبأ عظيمًا كهذا لا بد أن يكون له الصدى المدوي في المنطقة، لا بل والتأثير المهيب، من جهة ردع نسبة ممن انخدعوا بالوعول المعسولة لسانسة الترك في هذا الجانب، وقد تنبّهوا، أو توقعوا العقاب الصارم من قبل الآخرين.

وفي ذلك ما يعيد المرء إلى المرء، حيث المأساة هي التي تضيء الذاكرة، وتسمح بإضاءة المستقبل أكثر.

نقاط وأكثر

هناك الكثير من النقاط التي سأعرض لها في هذا الفضاء الواسع، إنما لاحقاً، أما هنا، فسوف أنقل إلى نقطة أخرى، موصولة بما تحدثنا فيه، وهي الخاصة

بالظروف الصعبة التي مرت بها المنطقة في منازات الحرب العالمية الأولى، وما أؤخمها من منازات.

سأطرق إلى كيفية اقتحام علي لسجن نصيبين صعبة رجاله، ومعه رفيق دربه النضالي هذا، أي شمعون، وهي النقطة المؤثرة، وما تلاها من مجابهة ساخنة ورهيبة، بين قوة عددية محدودة هنا، وقوة عسكرية منظمة للدولة إلى جانب مجموعة العشائر التي ساندتها، وكان لها الدور الكبير في وضع نهاية لعلكي بالذات. هناك الإيمان بالمبدأ:

(مع أن علي بطي لم يستطع إيجاد قوة توازن قوة الجيوش العثمانية صاحبة الخبرة الكبيرة، إلا أنه حصل على دعم بعض العشائر الكبيرة في المنطقة. واعتقد بأن الوقت المناسب قد حان وبدأ حركته في 11 أيار 1919. فقد خرج مع رجاله من مدياد وسار أولاً باتجاه سافور- ماردين، وأرسل قسماً من قوته إلى منطقة نصيبين وجزيرة. وانضم إليه الكثير من زعماء العشائر مع قواتهم ومن بين هؤلاء زعماء مشهورون في هفيركان مثل عمري شيرو، وحيثو، وعلكي سيفكن، وأوسه «أوسي» عزام.

وبعد حصوله على الدعم أصبح واثقاً من نفسه وسار إلى مركز مدينة نصيبين وسيطر على المدينة. وقد استسلمت له بعض الوحدات العسكرية الموجودة فيها في حين غادرت البقية المدينة. كما فتح أبواب السجن وأطلق سراح جميع المعتقلين. ويقال أن علي ورجاله صاحوا على المسؤولين عند باب السجن «افتحوا الأبواب وأطلقوا سراح جميع المعتقلين»، إلا أن المسؤولين عن السجن قالوا «هذا ممنوع يا علي بك... القانون لا يجيز ذلك» وجواباً على ذلك قال علي «القانون يأكل الغائط... ما هو القانون؟».

استقبل علي بمظاهر الفرح من قبل الأهالي وازدادت شهرته. وفي هذه الأثناء تحركت الوحدات العسكرية التركية التابعة للفرقة الخامسة في المنطقة وطوقت المدينة. وبناءً على ذلك أخذ علي جميع الإداريين المدنيين والعسكريين في نصيبين معه كرهائن وغادر المدينة منسحباً نحو جبل باكوك في القسم الجبلي من المنطقة. وحدثت بعد ذلك معارك عنيفة جداً استمرت 20 يوماً. وكان لدى قوات الدولة تفوق لا يجارى من حيث العدد ومن حيث الأسلحة. ولا سيما سلاح المدفعية الذي كبّد قوات هفيركات خسائر كبيرة. إن المقاتل المسيحي حنا حيدو الذي لمح مدفعاً على تل مرتفع اتجه نحوه وقتل الجنود الذين كانوا هناك واستولى على المدفع. وقد رفع هذا الحادث معنويات الهفيركانيين كثيراً، إلا أن قوات الدولة كانت تحصل باستمرار على

التعزيزات وتضيق الدائرة على علي بطي ورفاقه. ولهذا قرر زعيم الهفيكران أن يتبع أسلوب حرب الأنصار وانسحب بشكل متواصل نحو مدياد مجدداً. وفي 14 حزيران وقع حادث في المكان المعروف باسم مقري نصادفه كثيراً في التاريخ الكردي. لقد تكرر التاريخ مرة أخرى. فالكثير من العشائر التي أطاعت علي سابقلاً، وبينت له أنها ستبقى مؤيدة له، انضمت إلى جانب قوات الدولة وشاركت في معركة مقري. وقد استطاعت قوات الهفيكران كسر الطوق الذي كان مفروضاً عليها بعد قتال شرس..ص (107).

هذا الاقتباس الطويل، والذي أوردته، وهو الأخير في هذا القسم، وباسم شمعون حنا حيدو، سوف أعرض له، من مناحي شتى، يستحقها، لما يتضمنه من خطوط متداخلة، حول كيفية التلاحم، وكيفية اقتحام نصيبين، وكيفية إطلاق سراح أسرى السجن، وكيفية الخروج من نصيبين، ومن ثم، وهو الأهم، كيفية الصمود في وجه الجيوش العثمانية وأزلامها، أكثر من عشرين يوماً، ومن ثم كسر الطوق، والخروج بشجاعة، وما نفذ رفيق عليكي بطي من أعمال بطولية، لا تستحق الذكر فحسب، وإنما التوقف عندها، والنظر في بنيتها، ووجه البطولة الخاصة في مختلف جوانبها:

تاريخياً، يمكن النظر إلى هذه العلاقة، على أنها استراتيجية، وتفصح عن أنها مرتبطة بذلك التحالف المتفق عليه، والمدرّوس بعين النقد، وليس اعتباطياً في بنيته، خاصة وأن هناك أكثر من تجربة حياتية كانت وراء عقد مثل هذا النوع من التحالف بين الكرد والسرّيان في آصرة واحدة، وليس بين شخصين اثنين.

اجتماعياً، وهو بدوره يحيلنا على المكان الذي يضم أكثر من الطرفين، ومن خلال معرفة ما كان يجري في الجوار، من تلك الاختلالات في العلاقات، والتي يسبب من خلالها كل طرف إلى الآخر، طالما أنه بعيد عنه، رغم أن الأذى الاجتماعي ملحق بهما معاً، حيث إن الاتحاد الهفيكران والذي يمكن درّس قواه الاجتماعية من زوايا مختلفة، واعتبارها في صلب هذا التحالف الذي يضم كلاً من الكرد الإيزيديين والمسلمين والسرّيان، وهو بالطريقة هذه يكون نوعياً بمعان مختلفة.

وسياسياً، حيث إن السياسة عبارة عن علاقة مُقامة على رؤية نحو الخارج والداخل، وكيفية التعامل مع الاثنين، وهما يتبادلان التأثير والتأثر، ولحظة إمعان النظر في هذه الثنائية المعقودة، يجد الباحث، أو المعني بالموضوع، أنها غير مستقرة، إنما تتلون من خلال المستجدات، وفي كل متغير، ثمة إضافة، أو شطب، أو تعديل، أو إعادة تنظيم

لما كان، ومن مواقع شتى، لأنها، أي السياسة، تسمي مواقع اتصالها بالذين يمثلون قوى متنوعة، وهي التي تغذي الجسد المجتمعي.

ونفسياً، وهذه النقطة مهمة جداً، إذ لا أكثر تأثيراً في نطاق ما أثرناه، أكثر مما يثير في النفس من مشاعر وأحاسيس، من مخاوف وهواجس، من طرق تفكير وتدبير تجاه ما هو قائم، فيما كان، وما يمكن أن يكون، ولعل هذا العامل، هو الذي يشكل عتبة استشراق لذلك الاستقرار الملموس في خريطة هفيركان والحرص على استمراريتها.

ومن اللافت أن هذه الديناميكية القائمة في مجتمع هفيركان، شكّلت، وكما تشكّل محط أنظار المحيطين بهذا المجتمع، كما أسلفنا سابقاً بوصفها مرتبطة بحيوات أفراد ولهم تصورات وأفكار، وتأثرات بما يجري في محيطهم، ووحدة حال من هذا الجانب. إنه حضور لتاريخ نوعي أيضاً.

وإذا كان لي أن أوجز هذه الديناميكية، ومنها أنطلق، فأرى، أن الذي يشد كلاً من عليكي بطي وشمعون حنا حيدو، هو هذا الذي يحرك في كل منهما ذلك الشعور بحاجة كل منهما إلى الآخر، ولعله شعور مشترك، ببنيانه المرصوص، والذي لا يقتصر على مجرد هوى معين، وإنما مسئولية أخلاقية، تجاه أهم ما في مجتمعهما، ألا وهو أمن مجتمعهما الموحد.

بالصيغة المقدّمة هذه، لا يظهر على شمعون حنا حيدو، أنه إنسان عادي، بالعكس، إن كل من يدخل التاريخ من هذا الباب الذي أسميته بـ «باب البطل» إنما هو أكبر مما هو عليه في الواقع، لا يعود اسمه أي اسم. على سبيل المثال، يمكن أن تعثر على آلاف الأشخاص من السريان، ممن يسمون جميعاً بـ «شمعون»، كما هو حال عليكي، أو علي بطي، حيث لا بد من الربط بين الاسمين، لكي يكون في مقدور الناس التمييز بين الاسم العادي هنا «علي/ عليكي» الذي قد تجد آلاف الأشخاص بالمقابل يُسمون به، سوى أن مجرد الربط بين الاسم والنسبة أو اللقب «علي/ عليكي بطي» حتى يتراجع الآخرون ممن يشاركونه في اسمه، وقد ارتبط بـ «بطي» وظهر في الخلفية التاريخية تقدير معين وهو خاص به جداً، هكذا الحال مع شمعون، حيث لا يعود في مقدور كل من له اهتمام بهذا الجانب، إلا أن يربط في الحال بين الاسم وما يميّزه عن سواء تاريخياً، أي شمعون حنا حيدو، والذي يذكّر بصورة معينة له، بوجهه الدال على تقدير للذات، وثبات النظرة ذات الدلالة على الثقة والعنفوان، وحتى بشاربيه اللذين

يُتلمس فيهما ذلك التوق إلى الرفعة والسمو والكبرياء بالمقابل، والعينين، وهما من خلال سيماء الوجه، حال عليكي بطي، تترجمان عالماً نفسياً ثرياً، ورباطة جأش، إن جاز لنا قراءة دلالة المرئي أحياناً.

وليس هناك من يمكنه الاعتراض، كما هو تقديري، جهة القول بأنه في اسمه وما يسميه بطلاً، لا يبقيه في الحيز الاثني، أو القومي، أو الديني سريانياً، بمقدار ما يمد بمعناه وموقعه خارج هذا المعتكز التاريخي الصعب والمهيّب في آن، وهو أنه متعدد لسريانيته، حيث يحتفى به، من خلال مآثرة البطولة التي عُرِف بها، على الصعيد الكردي، والإيزيدي، لأنه في الأصل ينتمي إلى مجتمع متنوع في علاقاته، كما لو أنه خلاصة هذا النسيج الاجتماعي الغاية في الشراء.

فرد أكبر من اسمه

هناك من رأى في الفرد، ككائن اجتماعي، من زوايا متنوعة (فقد تكون كلمة «الفرد» في وعي آخرين مرتبطة بالافتخار بموقعها المستقل في المجتمع. ويمكن أن تكون رمزاً لما يستطيع الفرد أن ينجزه مستقلاً عن الآخرين، في منافسته لهم، معتمداً على مهارته. وربما يعني «المجتمع» لهم بعد ذلك ذاك الذي يساوي بين الناس ويقف في وجه كل من يحاول التقدم والارتقاء بشخصيته الفردية. ويمكن أن تكون الصورة التي يجدونها مرتبطة بهذه الكلمة ليست إلا كتلة رمادية من أناس لا يتميزون عن بعضهم، تهدد بخطر كبت الناس وخفضهم إلى مستوى واحد متساو لجميعهم، ويمكن أن تظهر هذه الكلمة أيضاً كمضمون لكل القوى التي تقف في طريق تحقيق الأفراد لذواتهم وتعيقهم عن انطلاقهم وتحقيق ما يصبون إليه... الخ)⁽¹⁾.

هذه التنويعات في بنية كلمة «الفرد» تقرّبنا من عالمها المركّب، ومن ذلك أيضاً أننا نقول عن أحدهم، بأنه «الكائن الفرد» أي المميّز، والمفرد، والفردة مأخوذة من هذه الناحية، أو الشخص الفريد، الذي لا نظير له، ومثل هذه الاعتبارات تعطي لذلك المسكون بمجتمع كامل، بمقدار ما يعرف هذا المجتمع من خلاله، ولهذا، فإن شمعون حنا حيدو، فيما عُرِف به، ينتمي إلى تاريخ معين، وله عمر معين، وسجل بطوليمعتد به، ولكنه يفيض على تاريخه، في إرادة قوته الذاتية وعبرها، أو من خلال مآثرة القوة التي ميّزته عن سواه، كما لو أنه يتكلم بلسان جميع سريانيين، وأن هؤلاء حين يتغنون

(1) إلياس، نوربرت: مجتمع الأفراد، ترجمة: هاني صالح، دارالحوار، اللاذقية، ط1، 2014، ص

باسمه، وكما سنرى في فصل متعلق بالأغنية الشعبية الكردية، وموقع البطل فيها، إنما يبصرون أنفسهم في مرآته، وهو وإن كان يتكلم لغتهم، لكن مآثرة القوة الفعالة فيه، تتكلم بلغة أوسع مما هي عليه، أوسع من لغته السريانية، إنها ناطقة بالكردية، بمعناها الرمزي، مثلما أن عليكي بطي، لحظة الوقوف على تاريخه، لمن يعتمد نظرة الباحث التاريخي والاجتماعي، يعاين أكثر من كونه كردياً، وإن كان كردياً أباً عن جد .

إزاء هذا التصور الاجتماعي الشري في أصل الفرد الواحد، وقد انفجر دلالات، يتبين لنا ذلك التتوير القاعدي الذي يلهم من يتحرى حقيقته، وفي تاريخ عاصف، وقد حرّك في بني جلدته أمانى عراضاً، وإيماناً بالحياة، أكثر من المخاوف التي يمكن تشيبتها أو تصوورها خارج نطاق جغرافية هفيركان، وأن هؤلاء الذين يسهل تعيين الشعور النفسي والجماعي لمن كان هذا البطل يتكلم بلغتهم، وهو ذو مكانة محترمة في وسطهم، حال عليكي بطي بالنسبة إلى قومه، إنما شكّلوا خيبرته الروحية، مثلما أنه شكّل فيما بات يعرف به، المدخل القويم إلى شعب حي، ويتنفس تاريخاً حياً من خلال شخصه.

ولا بد أن ذلك الانتقال للسريان صحبة الإيزيديين وكذلك الكرد المسلمين، من حالة التباعد الديني أو الاجتماعي الذي تميّز به آخرون خارجاً، جرّاء سياسات «فرّق تسد» إلى التلاحم المجتمعي المصيري، أساس المدنية بوحدة مصيرها إنسانياً.

وهم إذ يشكّلون عامل قوة في تضامنهم مع الكرد، إنما هو إشعار لهم بالخطر المشترك، إنما أكثر من ذلك، هو شعورهم بأن هذا الذي يجري، ويتم صده ورده، لا يقتصر في ذلك على ما هو كردي حصراً، إنما يعني الجميع، بما أن هناك وحدة كيان جغرافية «هفيركان» إنما أكثر من ذلك، هو أن محيط هفيركان ليس منعزلاً عن خارجه، مثلما رأينا آنفاً، أن الشعور السرياني بالخطر، بالقهر والسخط تجاه الجاري، إنما هو جرّاء الانقسام في صفوفهم خارجاً، كحال الكرد طبعاً، وهم في لحمتهم الاجتماعية، كانوا ينقلون رسالة إلى أعلى سلطة «الدولة» وحتى الذين كانوا معها، باختلافهم عنهم.

ولا شك أن الصّلات القائمة والفعالة بين البطّلين التاريخيين، كان لها أهم الأثر في هذه العملية السياسية، كانت الصّلات هي ذاتها تاريخاً مسجلاً يُسمّى فيه من أرادوا الاختلاف، في انتفاضة مشتركة، شكلت هيبة لها، وكانت عاملاً مؤثراً لأن يكون هناك في الخارج من يتضامن معهم، كما هو الحال مع «جبهات» كردية أخرى، مثلها

زعماء كرد، وهم في انطلاقتهم الأولى، وهم تالياً، في اتصالات لهم بقوى كردية: عشائرية. وعبر زعمائها، وتنامي القوى المنتفضة على الأرض، عبدالله نهري، وقبله بدرخان بك، وسعيد بيران، وسمكو آغا شكاك، وحاجو آغا... والعنوان الوحيد لمثل هذه القوة هو جانب الغلبة فيها، وما لها من صدى مؤثر في النفوس، وهو الفرق الذي نجده بين انضمام الناس «عشائر في المنطقة»، وفيما بعد، التخلي عنها والانضمام إلى الدولة وقواها ومن معها من العشائر الكردية الكردية، كما سنرى.

إن المشهد المهيّب والتاريخي، هو في دخول نصيبين، مشهد دخول «الفتاح» في التاريخ وسقوط المواقع المعادية، حتى بلوغ بوابة السجن، ولا بد أن صدى زحف قوات عليكي بطي ورفاقه وفي الواجهة شمعون حنا حيدو، كان يجد من يتجاوب مع في الجوار، ويكون مدوياً، وفاعلاً في النفوس، وسط استغرابة وإعجاب وحتى ذهول، إذ إن استمرار فكرة الدولة التي لا تُهزَم في أذهان الناس، ورهبة الدولة وسطوتها، ليس بالأمر السهل، وبهذا الوهم، انقشع الوهم، وبدا أن عملية المجابهة تتطلب، قبل كل شيء، إيماناً بالهدف، وثقة قديمة بالذات ومن هم حولك.

وليبغ هذا المشهد الأوج، في فتح بوابة السجن، وإرغام القائمين على إدارته بالانصياع له. هي لحظة تستحق المكاشفة النفسية والاجتماعية. فهؤلاء لا بد أنهم يتسقطون الأخبار على مختلف الجبهات، وهم في وضع مزر، جرّاء أهوال الحرب الكونية الأولى، وشح المواد، أو الغلاء، وما يترتب على كل ذلك من انهيار معنويات، وجوع وأمراض كذلك. لهذا، يمكن اعتبار طريقة تعامل المقيمين على السجن مع هجوم قوات عليكي بطي، تعبيراً عن هذا الضعف واليأس.

ومن المؤكد أن هذا المشهد التاريخي، وهو في طابعه السينمائي الساخن، مؤثر، وربما يأتي يوم، أن تحول هذه اللقطات إلى مشاهد سينمائية حية، أو يُخرج فيلم عن هذه الواقعة في تسلسل مراحلها.

وحتى بالنسبة لمجابهة قوات عليكي بطي ورفيق نضاله شمعون حنا حيدو، كانت واقعة بطولية، رغم الفارق الكبير بين حجم قوات كل طرف، ونوعية الأسلحة التي استخدمت في الحرب القائمة بينهما.

لحيدو كان حضوره النجمي في التصدي، كما في لقطة قتل من كانوا على المدفع والإطاحة به، وهو بسلاحه البسيط، وليس بسلاح اليوم «الرشاش، مثلاً» إنها هيبة من نوع آخر، كان لها تأثيرها الصاعق في النفوس.

لا بد أن هذا الموقف، رغم خذلان من تخلوا عنهم، يجد نفسه إلى متن التاريخ، ويدرس أيضاً من جوانب مختلفة، إذ إن تصور رجل بالطريقة هذه، يخرج من شكله الإنساني المعتاد، وهو في خفته، وما في هذه الخفة من تحدي للموت، أي ما عرف من إرادة قوية، أكثر صلابة من الذين كانوا يقاتلون في الطرف الآخر.

أزعم هنا أن هناك سلسلة من النقلات في حياة شمعون حنا حيدو، وهو يهيب بمن حوله وبلغتهم: الكردية، ولغته السريانية طبعاً، في أن يصمدوا، إلى جانب أن الذين كانوا يقاتلون، كما هو المعتاد، لا بد أنهم كانوا يستمدون معنوياتهم، أو وهم في ثباتهم، من خلال متابعة تحركاته إلى جانب تحركات عليكي بطي، وما في المجابهة من سياسة قوة على الأرض في التخطيط، وكيفية التخلص من الطوق المضروب حولهم.

فيما هو موجب، وما يستحق الذكر، هو أن ليس من خبر، مهما كان بسيطاً، تردّد عن نوع من التراخي في مجموعة شمعون حنا حيدو من السريان، إنما كانوا معه، وهو إيمان بالقضية المشتركة، أي كانوا مخلصين لزعيمهم في الحالة هذه وهو الذي كان يتنقل من مكان إلى الآخر، تبعاً لمجريات أحداث المعركة المفتوحة.

في السياق نفسه، هل يمكننا تخيل هذه المجابهة الساخنة، ومن خلال ما كان المحاربون يرون ويتابعون ما يجري، وعلى مدى أيام «20 يوماً» ولعل المدة أطول؟ كيف كانت العلاقات تتم، وسط هذه الكثافة في المجابهة، مع فارق في التسليح والقوة العددية؟ بأي أسلوب كان يتم رفع الروح المعنوية في النفوس، حيث الحضور اللافت لقوات الطرف الآخر؟

هذا يعيدنا مجدداً إلى عنصر الإيمان بما كان يتم على الأرض، ولا بد أن المحاربين، رغم ما جرى من بلبلة صفوف قوات عليكي بطي، على وقع تنامي القوة العددية والعسكرية للطرف المعادي، كانوا يعيشون توترات، وأن الذين تخلوا عن علي ورفاقه، إنما تصرفوا وهم يتابعون مسار الأحداث، فقدروا أن الكفة ستكون راجحة لصالح العدو، ليس لأنهم على خطأ، إذ بالطريقة هذه يكون شمعون حنا حيدو بدوره مخطئاً، يكون عليكي بطي نفسه، فيما قام به خطأ قاتلاً، إنما هو الكشف عن الرصيد النفسي وهو تاريخي بالنسبة لحالات التخلي والالتحاق باخر، أو الهزيمة بالمقابل، وهي علامة فارقة كردية، وفي مختلف أدوار التاريخ، كما يعلم بذلك أهل المعرفة التاريخية في مثل هذا الوضع.

أن يجري الحديث عن هزيمة قوات عليكي بطي، كما سنتابع ذلك في عناوين أخرى، وشعور بالمرارة لدى قواته، لدى عليكي بطي وشمعون حنا حيدو، هذا شيء، وأن يجري الحديث عن البطولة النوعية لقواتهما، وهي تستमित في الدفاع عن مواقعها وضد جيوش مجهزة بأسلحة فتاكة، في زمانها، وحشود عسكرية كبيرة، شيء آخر.

الهزيمة في وضع كهذا انتصار، لأنها تنقل صداها النفسي إلى الآخرين، وإشعارهم أن تصوير العدو بالقوي، يعني وجوب الاستسلام له، وبذلك تكون التبعية والرضوخ لمختلف صنوف الاستبداد التي تترتب على مثل هذا الرضوخ.

شمعون حنا حيدو البطل السرياني، نعم، البطل الكردي، نعم، أيضاً، ولكنه البطل الإنساني باقتدار، وهو الذي شعر بغصة كبيرة في روحه، لأن رفيق دربه النضال، صديقه الروحي وخله الوفي، مضى سريعاً، وفي مشهد مؤلم، كما سنتطرق إلى ذلك، وبقي وحيداً في الساحة، أو لم يعرف عنه شيء، كما لو أنه استشعر خيبة أمل وبأساً في النتيجة الصادمة، والتي كان لنسبة معلومة من الكرد الدور المهيمن لبني جلداهم، حيث قُضي على بطلهم عليكي بطي، وكيفية التتكيل به، كما لو أنهم، وهم يرونه هكذا، يفصحون عن مدى شعورهم بالمتعة، لحظة تشقّي عدوهم الرئيس بهم، وحتى سخريته منهم أنفسهم، ولا بد أن ذلك الشعور بالمرارة التي صُعِبَ عليه التعبير عنها كما كان يريد، رافقه حتى رحيله النهائي سنة 1954، كما تردّد عند «جيو، ص 115» أي بعد مقتل رفيق دربه النضالي بـ «35» سنة، ليعيش هذا البطل ضِعْفَ عمره تقديراً.

تنويه مهم جداً

هناك ملف مهم جداً، وله صلة مباشرة بموضوعنا عموماً، وبهيفيركا خصوصاً، وعائلة أوصمان، بصورة أخص، على هيئة كتاب، ويحمل اسماً، أو عنواناً لا يخفي صفة ذاكرة جماعية مدماة هنا «على خطى أولئك الذين أظهروا موقفًا وجدانياً في عام 1915»، والمؤثر في الموضوع، هو أن الذين دونوه أو أشرفوا عليه هم سريان، ومن مصادر سريانية إجمالاً.

كما قلت، سوف أقصر على ما يعنيني، رغم أن الكتاب في مجموعه مهم، ولكنه يتطلب من ناحية المحتوى مساحة ورقية أوسع، تشكّل في بنيتها موضوعاً قائماً بذاته.

هناك حضور للتاريخ، ومن خلال أسماء أشخاص وتحركاتهم، وأمكنة وجهات، وهناك أحاديث أو مرويّات شخصية داعمة للمحتوى، إلى جانب مذكرات فاعلة في تفعيل جمالية أثر القول. وهناك صراعات متعددة الاتجاهات، ومشاعر وعواطف، وفلتان قوى وضبطها بالمقابل.

إنما تبرز هفيركان، في واجهة ما هو إنساني، ولا بد أن هناك تشاركاً في التعامل مع كل مستجد من قبل الرجال والنساء، رغم أن الاسم الحاضر هو اسم أم عليك: فصلة، ولكنها، كما هو مقدّر، لا يمكن أن تكون الوحيدة، لحظة التفكير في هندسة العلاقات الاجتماعية داخل هفيركان.

أورد ما هو معرّز للكثير مما تقدّم وما سيذكر ذكره، أولاً في الموقف من الدولة، وعلينا أن نشدّد على طبيعة هذه العلاقات الاجتماعية ومن خلال رعب الفرمانات «مراسيم الإبادة» ومدى تعلّق بطي بشمعون، وهو أبعد من كونه فردياً، ومدى تقدير شمعون لبطي، وهو أبعد من كونه مجرد ميل عاطفي، وهذا ينطبق على القيم المتداولة بأبعادها الاجتماعية والإنسانية الطابع:

«لا تتسى الدولة أبداً موقف الناس». على عكس قبيلة هفيركا هذه التي سيطرت على مدياد والمناطق المحيطة بها، خلاف الدكشوريين، الموالين للدولة، لم تصنع السلام مع الحكومة. وعلى الرغم من أن بنى الناس في المنطقة التي لم تعترف بالسلطة بخلافهم كانت حاسمة في هذه الحالة، فإن وجود السريان والإيزيدية بين أفراد القبائل كان أيضاً عاملاً مهماً. لم يقتصر دور هذه الجماعات على كونها «رعايا tebaa» كما هو الحال في القبائل الأخرى. كان لهم رأي في الإدارة. ما أن قُتل زعيم هفيركا حاجو الثاني سنة 1870، حتى نشأ علي بطي وجلبي، اللذان ستوليان القيادة في وقت لاحق، نشأ السرياني أويابوي مريد oyaboyê Mirêd من قرية عين ورده Aynvert. علي بطي، من ناحية أخرى، لن ينفصل عن صديقه ورفيقه زعيم السريان شمعون، وسيخذ قراراً بالتشاور معه في كل قضية. عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى، كان علي بطي أحد الأسماء المرهوبة الجانب في السلطات الإدارية في المنطقة وهز سلطة الدولة. ورفض الامتثال لأمر التعبئة ورفض فرض الضرائب من قبل الدولة. كما عارض المصادرة العسكرية للمواد التي يحتاجها في المناطق التي يسيطر عليها. لم تكن هذه الإجراءات خالية من رؤية سياسية. كان على اتصال مع أولئك الذين قاموا بالانتفاضة في بدليس وعبد الرزاق بدرخان. ومع ذلك، لم يكن اهتمامه باستقلالية الكرد - على الأقل في تلك المرحلة - كافياً لجعله ينسى الصراع بين

القبائل والصراعات على السلطة. كان لا بد من قيادتها. ويحقق شفيق بك يحقق هدفه، ولو جزئياً، في أيلول 1914: وقد تم القبض على علي بطي وغيره من قادة هفيركا وسجنهم، ص 40).

وهناك ما يستوجب التذكير بأهميته، وهو الوارد في هامش «ص 41» (يذكر الباحث السرياني، ألكسندر ديباسو، أن علي بطي كان مسجوناً عندما بدأ التهجير tehcir، وحاولت والدته بطي، فصله، حماية السريان تحت حكمها. وهناك مصادر أخرى عن هرب علي بطي من السجن في عام 1917. وفي اجتماعه مع حفيده الذي يحمل اسم علي بطي نفسه، ذكر أن جده قد هرب من السجن بينما كانت عملية التهجير مستمرة... المصدر الأول من قادة هفيركا لحماية السريان والأرمن هو مذكرات ملفونو عبدالمسيح كاراباش Melfono A. Mesih Karabaş، التي توجد في دير ماردين السرياني ديرالزعفران Deyrül Zafaran في عام 1915. (عبد نعمان كاراباش: الدم المراق: قصص الفظائع التي ارتكبت ضد المسيحيين في تركيا Vergossenes Blut: Geschichten der Greuel, die an den Christen in der Türkei verübt, 1999 adıyla Almanca yayınlanmıştır) لدينا ترجمة تركية بعنوان «مجازر ضد المسيحية» نشرت عام 2000 في مجلة الإبادة الجماعية Sfioyo في شكل متسلسل.. استخدمنا هذه الترجمة كمرجع في الدراسة. المصدر الثاني هو اليوميات التي تحتوي على المعلومات التي جمعها القس السرياني الأرثوذكسي سليمان سليمان من المهاجرين السريان أثناء وجوده في سوريا. استخدمنا في هذه اليوميات من الترجمة التركية المنشورة في مجلة Kolo Suryoyo عام 1993 تحت عنوان «1915 منطقة طورعابدين Turabdin region».... وتشير بعض المصادر إلى أن الهفيركيين Heverkians كانوا من أصل إيزيدي Ezidi، وأنهم كانوا قريبين من السريان لأنهم تعرضوا للاضطهاد).

هنالك مصالح متضاربة، تتم فيها سلعة البشر ومن قبل البعض منهم، في لعبة السلطة المربعة والتي تدفع بالناس إلى التناحر، أو التقاتل، لتتمكن من البقاء أكثر رهبة، وما هو في الضد:

(كانت هناك قبائل رفضت الوقوف بجانب الدولة وقررت حماية أفراد السريان. واحدة من أهم الكونفدراليات القبلية في المنطقة كانت هفيركا، والمعروفة أيضاً باسم Haverkan - كانت واحدة من أهم القوى التي تحمي الأرمن والسريان في مدياد ونصيبين وإديل İdil).

ولعل قارئ حيثيات هذه الفترة، ونشاط عليك، يلاحظ ما كان عليه في شخصيته، ومدى تأثيره على وسطه، وحيث الدولة تحسب له الحساب الدقيق، وتبعاً لطريقة تفكيره، في الموقف مما كان يخطط له ضد السريان والأرمن، وما سعت إليه هفيركان، وما تتشّط فيه بطي هنا :

(عندما بدأ التهجير، كان علي بطي وساعده الأيمن في سجن خربوت شمعون. وفقاً لبعض المصادر، بمبادرة من والدته فصله، وفقاً لآخرين، واعتماداً على التعليمات التي أرسلها بطي نفسه، تحاول حماية الآشوريين والأرمن في المنطقة من التهجير والمذابح. وفي حزيران 1915، تم القبض على قادة الأرمن والبروتستانت السريان في مدياد ثم قتلوا. فيتسبب هذا الحدث في إثارة الرعب في نفوس السريان في المدينة فينشئون حواجز في أحيائهم لحماية أنفسهم. وفي 2 تموز 1915، جمع حاج بشار بك زعماء القبائل الكردية والعربية في مدياد طالباً منهم دعم الهجوم على المسيحيين. وفقاً لحفيد علي بطي البالغ من العمر 82 عاماً: علي بطي، أي هذا الذي كان يحمل اسم علي بطي نفسه، هرب من السجن مع صديقه شمعون في ذلك الوقت... أخبرنا حفيده بطي، الذي التقيناه في نصيين، في ذلك اليوم: «ذهب بطي إلى الاجتماع. ورفع صوته عالياً «من يمس المسيحيين سيجدني أمامك» وأفضل الخطة. وكان، لهفيركا دور، في حماية السريان. ثم قاومنا معاً، لكننا عملنا معاً أيام الفرمان، قمنا بحماية المسيحيين». وفقاً لحفيد بطي، لم يتمكن جده من حماية منطقته سوى في نطاق مدياد وإيدل ودارغجيد ونصيين Midyat و Idil و Nusaybin و Dargeçit. وسينضم الدكشوريون إلى المذبحة بنية الاستيلاء على ممتلكات المسيحيين. هل يستطيع علي بطي الهروب من السجن، كما أفاد حفيد بطي، بمنع المذابح شخصياً؟ وفقاً للمحفوظات العثمانية، نعلم أن علي بطي كان في السجن حتى نيسان 1915 على الأقل. تشير سجلات أخرى في الأرشف إلى أنه كان في السجن لفترة من الوقت بعد هذا التاريخ، حتى لو لم يتضمن موعداً نهائياً. فإنه وفقاً لألكسندر ديباسو، لم يكن علي بطي قادراً على الخروج من السجن في ذلك الوقت، وأنصاره ووالدته وأعضاء مزيخ Mzizex (يُطلق عليها الآن Doğançay) ممن اعتبروا مركز القبيلة وقد لعبوا دوراً نشطاً في حماية المسيحيين. وفي 19 تموز 1915، هاجمت قبيلة أومريان وقوات الأمن الأحياء المسيحية في مدياد. ووقعت المجازر، وتراجع من نظّموا الدفاع عن الحي إلى عين ورد. لينقذ هفيركا البقية، بينما

يصل بعضهم إلى عين وردة دون التعرض للهجوم، يحتفظ الآخرون فبراهم. كما سنرى في المستقبل).

وما يصعد بأهمية مكان دون آخر، في مواجهة السلطة وفرمانات مياتها الجماعية:

(وستصبح عين وردة قاعدة مقاومة وستكون مأوى للسريان والأرمن الذين أمكنهم الفرار. وقد وصلت أصداء المجازر إلى سجن خربوت. فيقوم علي بطي برشوة السلطات كل يوم حتى لا يُقتل رفيقه شمعون. ويحال السريان والأعيان الأرمن المعتقلون إلى سجن خربوت، ومن بين السريان، صاحب الصحيفة آشِر يوسف من بين المعتقلين. يقول لشمعون: «في يوم من الأيام سينفذ المال، وسيأخذوني». كما قال، عندما أخذوا يوسف ليصفّوه، لم يعد على علي بطي وشمعون قوة تدخل. لا يمكنهما إنقاذه، لكنهما تمكّنا من الفرار من السجن. بقي قادة آخرون من هفيركا جلبي وحاجو، في السجن. وفي غياب جلبي، يحاول إنقاذ زوجته نازلي السريانية والأرمن. ويوظف رجاله للوصول إلى رايت طور إيزلو (المنطقة الواقعة جنوب مدياد) الأكثر أماناً لمن هم في منطقته. عندما أطلق سراحه من السجن في نهاية الحرب، ساعد جلبي السريان وضمن عودتهم إلى قراهم. وهناك الزعيم قبلي آخر، سروحان، كان يحمي أولئك في رايت. وفي عام 1917، عندما أعاد الباسيريين Basiribin مهاجمة السريان، ورد أن علي بطي أخذ الناجين إلى قريته. وبعد الحرب، سيعلن علي بطي أنه لن يعترف بسلطة الدولة في المنطقة.. وفي 11 أيار 1919، دخل نصيبين مع حوالي 100 رجل. «كان أغوات السريان والمسلمون يحصلون على المال من الجميع بالغصب. واستعاد علي بطي أموال الناس منهم. فقد قال حفيد بطي: «لقد قال أهل نصيبين أن المال لك». «جاءت امرأة»، وضعت الدولة ابني في السجن لمدة أربع سنوات، كيف حالك؟ ثم توجه علي بطي نحو السجن. لم يكن يتحدث التركية، ولم يكن لديه حتى هوية، لذلك لم يبق لنا أي صور. وكان شمعون مترجمه. لتحدث إلى المدعي العام للإفراج عن الفتى، على الرغم من أنه لم يفعل، لم يصغ إليه. فتح علي بطي باب السجن، وأطلق سراحه من الداخل. وقد أخذ المدعي العام وحاكم المقاطعة رهائن وأخذهما إلى الجبل». نتيجة لأشهر من المتابعة، تم تحديد موقع علي بطي في 18 آب 1919، وقتل في اشتباكات مع قوات الأمن والقبائل الموالية للدولة. وشمعون، الذي يراه بطي الثاني، على قيد الحياة وقد استمر حتى عام 1964، قال «لماذا قتل وليس أنا؟» وكان يبكي كل يوم.)

وجهة التقلبات ورسم المواقف، كما في هامش «ص 42» وفي عائلة أوصمان بالذات (هاجم جلبي وسروخان وابنه سرحان القرى السريانية بين عامي 1907 و 1910 وصادروا أراضيهم وممتلكاتهم. لهذا السبب، من الصعب تقييم قادة هذا الجناح القبلي بين الناس «وجدانياً»).

وما ترتب على موقف هفيركان، وأسرة أوصمان بالذات، ممن ظلوا على النقيض من تصرفات الدولة العثمانتركية، ربما إلى الآن، تأكيداً على ذلك الموقف المبدأ القويم كردياً وإنسانياً:

(وقد هربت الأسرة إلى سوريا بعد مقتل علي بطي. وفي عام 1950، أصدرت الحكومة التركية عفواً، فاستقر أفرادها في نصيبين. و«بعد مقتل علي بطي، ظل المسيحيون بلا حماية وعانوا الكثير. ويشرح حفيد بطي قائلاً: «لقد ذهبوا إلى بلدان أخرى». دمرت الدولة كل شيء في نزيخ مع عمي حسين جلبي، الذي كان صديقه بعد مغادرتنا. وأحرقوا ممتلكاتنا ثلاثة أيام وثلاث ليال، وكان يمكن رؤية الدخان من سوريا. ولم تنس الدولة أبداً موقف الهفيريكيين في تلك الأيام. وما زال يسأل أولئك المسجونون في المنطقة: هل أنت هفيريكي، دكشوري، سنتعامل معك وفقاً لذلك. لأننا الآن هناك أينما كنا، نحن ضد الدولة».

لقد تم إنقاذ أسرة مؤسس الجمعية السريانية الثقافية يوحنا أكتاش من قبل حاجو زاخراني هفيريكي، حاجو خورتك Xortik. حيث كانت قريتهم باقسيان Baqisyan تابعة لحاجو زاخراني.

(عندما بدأ الفرمان/ سيفو، نقل حاجو أهل باقسيان ودير قُبي Qubê، إلى هاخي Haxê، التي كانت آمنة، وقد رافقهم بذاته في الطريق ليكونوا في أمان أكثر. ولاحقاً، رجع هؤلاء الناس إلى قريتهم بمساعدة آغا هفيريكي. وسليمان دوغان «الذي لا زال على قيد الحياة» والذي كان أحد أحفاد حاجو، لا زال إلى اليوم في نظر الدولة مكروه الجانب، كونه ساعد السريان وقتذاك، وعندما كان ولي كوجوك Veli Küçük، يسيطر على المنطقة، سجّل اسم سليمان بين الذين كان يجب أن يُقتلوا. وقد ظهرت حركة مقاومة في قرية هبسناس Hebisnasê في مدياد. حيث كان يتعايش المحلّمية والسريان، وعندما علم المحلّمية بأمر التهجير، تمكّنهم العجب، وإزاء هذا القرار أعلنوا المقاومة، حيث حاصر أعضاء عشيرة راما القرية، فتعاون المسلمون والسريان ضد هذه العشيرة وهزموهم. سوى أن قرية هبسناس لم تعد قرية آمنة،

فقرر كبار القرية، وهم حمدكو، حاجي حسن وعلي كلش، على إخفاء السريان في الكهوف المجاورة، وكانوا يأخذون الطعام إليهم ليلاً، وبعد عدة أيام أيقنوا أن نقل السريان إلى قريتي عين الورد ونهيلي يكون أفضل.

وقد رافقوهم إلى أن بلغوا بهم هاتين القريتين، وبعد انتهاء الحرب، رجع السريان إلى قريتهم هبسناس، حيث أموالهم وممتلكاتهم، واستمر التعاون بين القرويين لسنوات طوال، وكانوا يتحركون معاً في حال ظهور مشكلة معينة، سوى أنه في سنوات التسعينيات «من القرن التاسع عشر» ساء الوضع مع الزمن أكثر فأكثر في المنطقة، فرحلوا سريان القرية إلى كل من ستانبول وأوربا، والآن توجد عائلة سريانية واحدة في القرية، ولا زالت تتردد قصص حمدكو الذي ساعد السريان بشجاعة في الجوار⁽¹⁾ إنه تاريخ لا يستهان بأمره، في درسه الاعتباري الجدير بالتقدير، والتعلم منه وفي أيامنا هذه.

وهو من جانب آخر، يشكل امتداد لطبيعة مجتمع هفيركان، وأخلاقية التعامل بين مكوناته.

(1) 1915'te vicdanlı duruş sergileyenlerin izinde... www.raoulwallenberg.net

على خطى أولئك الذين أظهروا موقفاً وجدانياً في عام 1915. وللتنويه، فإن المسطور بين قوسين في النص سالفاً، بخصوص أهالي باقسيان وغيرها، حتى نهاية الفقرة، ويخط مائل، من ترجمة الأستاذ بطي بطي، فله كل الشكر.

عليكي بطي وسط التحدي الديني والقومي

«كونه خيالياً أو حقيقياً، يقال أن البطل قد حقق إنجازاً استثنائياً في خدمة المجتمع. وقد دفعه التزامه الجسدي إلى التخلي عن نفسه، وأحياناً يخاطر بحياته. وإنما من الضروري أن تحسب براعته لتكون جديرة بالتقدير العام.»

مارك توريه: ما هو البطل؟

بطولة اللامتوقع

كما هو متوقع، فإن من يعيش حياة عليكي بطي، لن يجد نفسه سائراً في طريق مستقيم، أو في واحة صحراء. حيث إن البطولة هي التحرك على الحافات، وفي الأراضي التي تتقاسمها المرتفعات والمنخفضات، هي الثقافات ومناورات، كما هي السياسة بأبلغ مفهوم لها في الواقع الفعلي، وعلى قدر ما يكون التحدي طبعاً. هنا تكون البطولة مواقع مختلفة، وبالنسبة لعليكي بطي، وهو في واقع كردي، ومحاط بالأعداء، لا بد أن يعيش هذا التحدي، وهو يحمل روحه في كفه. البطل، تكون روحه هي الرهان دائماً!

لا يعود نص التاريخ واحداً، إنه هو الآخر طبوغرافيا عالم مختلف، عالم متحرك من خلال وقائعه، وهو في كل تغير، يؤثر في جسد هذا الصائر بطلاً، والذي يعيش نفسية البطل، بما فيها من معاناة ومن استبصار للمحيط الخارجي.

فيما أفصح عنه جبو، يظهر من خلاله بلغة مختلفة، تقريرية وإشعارية معاً. هناك تعريف مضاف إلى ما سبق، وهناك كذلك، إعلام بأمره وهو في نقلاته النوعية (إن هذا الشاب، وريث سلاطين هفيران، ترك التقاليد الاستبدادية التي سار عليها أجداده، وكان متواضعاً إلى حد كبير... وكان نموذجاً للقيادة... وعلى العكس من المفهوم العثماني والإسلامي الذي عد هؤلاء «المسيحيين» مواطنين من الدرجة الثانية، بل وحتى الثالثة، فإنه عزم على رعاية وحماية المسيحيين، والذين حرضوا وخذعوا من قبل الدولة. وبسبب سلوكه هذا كسب صداقة ودعم المسيحيين الكرد في المنطقة. ص 86).

بالنسبة إلى مفهوم الوراثة، صحيح أنه وريث السلاطين، ولكنه، وكما رأينا سابقاً، فقد كَوَّن في نفسه ذلك السلطان الذي به يُعرَف اسمه، ويكون باسمه صانع لقب أو

نسب يكون هو الحامل الرئيس له. وبذلك، لا أقول: تسقط فرضة أو مقولة وريث سلاطين هفيركان، وإنما إضافة أخرى لهذه الوراثة. فهو لم يكن ابن ليكون وريثاً، فحسب، وإنما أباً، سلطاناً، من خلال ما قام به، وفي مرحلة صعبة وخطرة بالمقابل. فكان طالباً ومطلوباً، وتلك بداهة، بالنسبة إلى رجل مثله. أن يكون ملاحق أولئك الذين آذوا عمه وقبيلته: اتحاد، وبنال منهم، هم والجهة التي تسندهم «الدولة»، ومطلوباً، في ضوء لائحة مجاباته للآخرين، لتكون ثنائية «الطالب والمطلوب» ميزة رافقت حياته إلى آخر لحظة فيها.

بتعبير آخر، إذا كان عليكي بطي، ابناً لبطي، ويرجع في نسبه إلى الأقدم فالأقدم منه «أوصمان/ عثمان» فإنه مغاير لكثرة كاثرة ممن يكون نسبهم هو ملاذهم، مرجعهم، شيفرتهم في تعريف الآخرين الآخرين بهم، فهم عالية على النسب. يغدو النسب في الحالة هذه كلمة سرّ من الخارج، في حال الصانع نفسه، صحيح أن لكلمة السر تلك قيمتها، إنما في حيز زمني معلوم، حيث بعد ذلك بمدة، ربما يكون هو نفسه نسباً لنسب، هو المضى للنسب نفسه، أو معادله، أو مدعمه أكثر.

أكثر من ذلك، صحيح أننا نشهد هنا مجموعة من الآباء والأبناء «من أوصمان إلى حاجو الثالث» في مثالنا، ولكن دراسة هذه السلسلة تضعنا في مواجهة حقيقة تاريخية، وهي أن هذه السلسلة تصلنا بتلك الاختلافات القائمة فيما بين حلقاتها. أعني بذلك أن لكل حلقة بداية ونهاية، رغم أن أياً من هاتين الكلمتين لا تُقرأ، أو ينظر إليها، كمفهوم حسابي مجرد، حيث لا بداية هنا، إلا بوصفها ارتباطاً بما قبلها، ولا نهاية إلا بوصفها انفتاحاً على ما بعدها. حيث كل اسم امتحان للآخر، كما أنه مشدود إليه، ويتحدد قيمة من خلاله. في حال عليكي بطي، رغم أنه ابن بطي، إلا أن عليكي / علي هو بطي بالمفهوم الرمزي، هو أب لأب بالمفهوم الاعتباري، كما لو أن اسم بطي لم يظهر إلا لعبور اسم عليكي جهة المقدرة، وبالتالي، فإنه إذا كان بطي هو النسب لسلسلة من الأسماء التي تلت تاريخاً طويلاً نسبياً، فإن الذي كان وراء ثبات اسمه، وعلو كعبه هو عليك، فيكون فضل الابن على الأب أكثر من دين الأب على الابن، وبالمقارنة، لا يمكن سداد دين علي على بطي.

وإذا كنت قد دخلت في فلسفة العلاقة بين كل من الأب والابن، فلأنها علاقة معقدة، ولا ينبغي تركها دون إضاءة، لتعميق تلك الخيوط الرفيعة التي تشكل نسيج كل منهما، وهذا ليس إنقاصاً من بطي إن شدد على أهمية عليكي بالنسبة إليه.

أي حين يتم نسيان الأب، بإبقاء الابن دائماً ماثلاً أمام النظر، بما أن الأخير أمن له موقعاً يتميز به عن الآخرين، والأب في واجهتهم. أي يكون الموقع المتميز صنيع الابن وليس الأب، إلا إذا كان للأب موقع هو صنيعه أحياناً. فحيثما يردد الناس اسم عليكي بطي، إنما يكون بطي معرفاً به من خلال ابنه عليك، أي يصبح الابن علامة الأب، حامله، كما هو الحال مع حاجو الثالث، مهما كان لحاجو الثاني منت موقع متقدم في الاعتبار التاريخي. إنها القاعدة اللاتكافؤ، التي تؤرجح اسماً أكثر، وهذا يرتد إلى الوزن الرمزي «النوعي» في المنجز البطولي لهذا أو ذاك تاريخياً.

وبهذا أقول، إنه لشرف عظيم ولا يجارى، حين يأتي الابن وليد أب كان، ولكنه يتجاوزه موقعاً أو حتى مرتبة، ليكون مبعث فخر له. ليكون بطي الأب البيولوجي «الحيوي» لابنه، بينما ابنه يكون الأب الرمزي دليل الشهرة لمن كان أباه سابقاً.

طبعاً، لن يقلل الابن «النجم» من مكانة الأب هنا، بمقدار ما يكون شارة اعتداد له.

وهذا الكتاب الذي يحمل اسمه من خلال نسبه، إنما في الأصل معقود على الابن وليس الأب، كما هو الكتاب السابق، فهو معقود على الابن: حاجو الثالث، وليس حاجو الثاني، رغم علو كعب الأخير هنا، حيث فارق العطاء قيوم هنا باقتدار.

وربما كانت عبارة «يخلق من الشبه أربعين» جائزة بتفعيل أثرها هنا: يوجد من الأب الواحد أربعين من الأبناء والأحفاد المختلفين، لا بل والمتعارضين مع بعضهم بعضاً تماماً. كحالتنا هنا.

أقدر هنا في عليكي بطي ما كان يقوم به، وهو يأخذ في الاعتبار سليل من يكون، وابن من يكون، ليكون أكثر حضوراً، وفي ذهنه سلالاته محفوظة في ذاكرته، إنما مع ملاحظة أخرى، وهي في «التقاليد الاستبدادية» التي تظهر ثقيلة. إذ أين هو الاستبداد لحظة المقارنة، في سياقها التاريخي؟ من أين جاء الاستبداد ومن ثم أصبح متوارثاً. ثمة مشكل هنا. لقد كان ابن زمانه، لكن لم يلتصق به، إنما أصبح «أبا» زمانه، وقد أراد بصيغة أخرى، وفي مخاض ما كان يتم ظروفه وأوقاتاً صعبة، كما ي الموقف من المسيحيين، ومن كانوا يتعاملون معه سلباً، فهو لم يعد يعيش في ذاته انتماءه الإسلامي المنفصل، إنما معتقدات الآخرين، وهنا يكون قد سار في الطريق الوعر، وفي الاتجاه المعاكس للتاريخ ذاك، أي حين نظر إلى المسيحيين على أنهم مسيحيون، ولكنهم كسواهم من أصحاب الديانات الأخرى، بشر، ويحملون «الجينات» الإنسانية عينها في

التفكير والعمل، في الفرح والحزن، أيما يزيح تلك التقسيمات العثمانية الإدارية جانباً، كونها متخلفة.

مصادقة المرتفع

هذا تطلّب جهداً ووقتاً، إنما قبل كل شيء، تطلب الاستعداد للدخول في صراعات لا تنتهي، وهو زعيم هفيركان، وليكون بالطريقة هذه في قلب العاصفة، أي حيث أخل بالقانون والعرف السائدين، من جهة الدولة، كما رأينا، جهة المفهوم الطائفي لمن كانوا يعيشون في حدود الإمبراطورية العثمانية، والذي يرسم حدوداً فاصلة، تحدد أشكالاً من التفكير والواجبات القائمة بين الأفراد سلفاً تبعاً لهذه الاعتقادات الدينية، ومن جهة الناس الآخرين، كما في وسطه، بما أنه بمسلكه هذا، يهدد مصالحهم، ليس على الصعيد المادي فحسب، وإنما على الصعيد العسكري أو الحربي كذلك.

إن شخصاً يتمتع بمثل هذه الكفاءات لا بد أن يلقي عنتاً، لا بد أن يحاط بكل ما من شأنه «الحط» من قيمته، وسط تلك الإمكانيات الهائلة للدولة، من أجهزة إيديولوجية، ومن أذلام، ومن حاشية إعلامية رسمية ومتغلغلة في أوساط الناس، وهي تمارس مهام مزدوجة، بغية تسقط الأخبار، وإيصال كل جديد إلى الجهات المعنية. وهنا، كان الذي ينتظر علياً، أو ينتظره علي، كما كان حال الذي قبله، ومن جاء بعده، وبتفاوت، تبعاً للذي قام به.

يقول جيو (إن المصادر الرسمية للدولة تعزو موقف علي تجاه السريان ومحافظته عليهم إلى تأثير الانكليز عليه. وبسبب دور علي في إحباط مشروعهم فإن موظفي الدولة نشروا دعايات بين الناس لإظهار علي بمظهر العميل الانكليزي الذي يأخذ الأوامر منهم «أي الانكليز». والحقيقة أن الكثير من المسيحيين هربوا في هذا التاريخ «عام 1917» من الاضطهاد ولجأوا إلى القوات الانكليزية. ومن المعروف أن القيادة الانكليزية قد استخدمت سلطة علي بطي، فقد أرسلت رسالة إليه تطلب فيها إيقاف هذه الهجمات على السريان... الخ. ص 89).

إن أول ما ينبغي تأكيده وإبرازه، هو أنه من البدايات الكبرى، أن تلجأ أي جهة رسمية، وعلى مستوى الدولة، حين تتلمس في معارض لسياستها، أو وهو يكشف عن جرائمها، أو يفضحها في سلوكياتها الشائنة، إلى اعتباره خائناً للدولة، بما أنه لم يلتزم السير في الطريق الصواب، وعميلاً، لأنها ترى فيما يثيره عنها شأنًا من شئون الأعداء،

طبعاً، كي تقي نفسها، ومن ثم تتستر على أعمالها المشينة بحق الناس، وتلك عادة أو ما يشبه العُرف في بنية سياسات دول المنطقة، وأسلوباً متبعاً من قبل سلاطين بني عثمان، ومن ظهرُوا في تاريخ «الجمهورية التركية»، وللکرد نصيب وافر من ذلك.

إن كلمات من مثل: التمرد، العصيان، الشقاوة.. الخ، من أكثر الكلمات اعتماداً في سياسة الدولة هذه ضد معارضيه⁽¹⁾.

(1) على سبيل المثال، ينظر في كتاب وديع جويده، بدءاً من الفصل الثالث، ص 149، وما بعد، وكيف تكون لغة الخطاب السياسية من جهة الدولة، إزاء أي حركة تحرر كردية، وأي منتفض ضدها.

هذه اللغة تجاورُ العنف وتعتمده، ويمكن أن نأخذ هذا المثال فيما أوردته الباحثة الكردية أصليخان يلدرم، في كتابها «کردستان والحدود في القرن العشرين» الطبعة الكردية، ما يلي: لقد سحق الناس في كل الأمكنة والجهات، وفي الكثير من الأحيان كان هناك مفارقات، فصادي كوجاس، يأتي على ذكر واقعة في ذكرياته، إذ يتعلق بهذا الموضوع، ولا بد أن لكلمات مغزى آخر، ولكنني أرغب أن أوردتها دون تعليق:

(سنة 1942، كنت في قاموشان «ساري قاميش»، حيث كنت عسكرياً هناك وحيث كان الجيش الثالث في مناطق جنوب أرضروم، تبعاً لقرار الجيش كنت ضابط ارتباط، وكنا مجموعة صغيرة مرافقة، وقد تم انتقاؤها من المقر العسكري تحت قيادة الضابط جمال تورال «ضابط كبير»، والجميع مرتبط بالقيادة الأعلى كاظم أورباي، إن لم أخطئ، عندما مررنا ركوباً بالقرب من منطقة كُمكُم، نزلنا عند نبع من أجل الراحة والغسيل وسقاية أحصنتنا مقدار 10-15 دقيقة، وكان على النبع رجل طاعن في السن وفتاة صغيرة نسبياً، وهما يغسلان أشياء، وعندما أبصر القروي الطاعن في السن ذلك الضابط وقف احتراماً له، واضعاً يداً على الأخرى، والضابط تمنع فيه جيداً، وبعد السؤال عن أحوالهم، وحاول طمأنئتهم، طرح بعض الأسئلة:

- من أين أنتم، من أنتم ؟ فكان جواب القروي بذات الاحترام:
- نحن كُرد سيدي. فقال الضابط ضاحكاً:
- أسألكم من أنتم، ومن أين أنتم، وأنتم تقولون لي: نحن كُرد، هذه النقطة تركية، ونحن جميعاً ترك ومن تركيا.

إزاء سماعه لهذه الكلمات بدا كما لو أن القروي الطاعن في السن شعر بالخجل، لكنه قال ثانية بصوت ما كان يريد لأحد ولأبي مكان أن يسمعه:

- بالتأكيد نحن ترك، برعايتكم، لكننا نحن هنا كُرد سيدي. تُرى هل الشجاع ينسى الشجعان أصلهم؟ لهذا أوجزت وقلت: نحن كُرد.

وبعد عدة كلمات كهذه، نادى ابنته التي كانت على مبعدة عنه وقال:
- كآساتي «يمكن أن تكون الكلمة الملفوظة مختلفة. إذ ما تذكرته سطرته»، اغسلي، وأتي لسيدي بلبن، وعندما كنا نفكر فيما طلبه من الفتاة، قال الضابط مجدداً ضاحكاً وبهدوء:

- ماذا عليها أن تفعل ؟ أنا لم أفهم ما قلته .

هو بدوره أعطى الجواب:

- قلت، عليها أن تغسل الكؤوس سيدي، إنها ستأتي لكم بلبن. ونحن في البيت نقول عن الكأس ستاكان.

كان وجه الضابط ضحوكاً، وكان يتحدث ببطء في مسعى منه لأن يسمع الجميع، وعندما قال:

-من أين تعلمت كلمة ستاكان، فهي كلمة رومية.

ونحن بدورنا كنا متشوقين إلى ما يمكن أن يقوله لقروي، وهو بدوره كان يضحك تجاه هذه الكلمات والمؤانسة، عندما قال:

- نعم، هو صحيح. صحيح ما تقوله. يقولون إن أجدادنا من كريت، ونحن رحلنا من كريت إلى هنا.

ذلك الضابط الذي كنا نعرفه دائماً قاسياً حازماً، ويتكيف مع ما حوله سريعاً، بدأ يضحك ويضحك «وكان ذلك ضمن الأصول والأدب»، حيث لم نره هكذا البتة.

- لماذا لا تقول نحن بسطاء «همشيرية». يقولون أبي أيضاً كان من صلب أثينا، لهذا صار لقبنا اوريبي. بالتأكيد لقد تبين لي من خلال وجهك، ومن ملامح وجهك أنكم قدمتم من هناك. أهو وحده جدك ؟ لقد قدم التركمان كعشيرة إلى هذه الجهات، من الجزر ومن الأناضول أيضاً. أرايت ! إذاً أجدادك كانوا كُرداً، إذاً أنت حفيد كردي، بشعر أشقر وعينين زرقاوين، إنما من أي سلف تركماني من كريت ؟

- يبدو أن الجنرال الكبير، إما أنه لا يعرف أن هناك كُرداً كثيراً زرق العيون شقر الشعر، أو أنه لا يريد عمداً الاعتراف بذلك.

في البداية أصغى الكردي الطاعن في السن إلى كلام الضابط الهاديء بخوف، وقابله بجرأة. ثم تقوه وهو يضحك ويصوت أعلى أكثر من ذي قبل، بهذه الكلمات:

-وأني لنا أن نعرف سيدي؟ قالوا أنتم كُرد، قالوا نحن كُرد، وقلنا بدورنا نحن كُرد، لكن أجدادنا قالوا نحن قدمنا من كريت، ولا بد أن ستاكان من بقاياهم..ص359).

وفي مثال آخر، من الكتاب ذاته، وله دلالة:

(بعد قيام الدولة التركية، واكتشف الكُرد أنهم مخدوعون، ظهرت اضطرابات كبرى في المنطقة، سنة 1926، في كل بقعة من كردستان كان ثمة نضال، كانت كل منطقة تقاوم من جهتها، إذ إن أغلبية الذين كانوا مع الدولة ندموا وانخرطوا في الغالب في النضال.

ويمكننا أن نتعلم الكثير من خلال وثيقة انكليزية في هذا الوقت. إنما علينا التذكير بأنه في 5 حزيران 1926، وقعت تركيا على المعاهدة التي نصت على ضم الموصل إلى العراق. والوثيقة الانكليزية هي في 19 حزيران 1926، واستناداً إليها، فقد أرسلت من السنجق رسالة من الموصل إلى أمين بك راوندوز، هذه الرسالة موقع عليها من جهة رئيس عشيرة الهفيران حاجو، ورئيس عشيرة راما محمد أمين، ورؤساء عشائر الهزنيان بدرالدين، ويوسف ضيا، ومحمد وابراهيم، ورئيس عشيرة هساري اسماعيل حقي. ولدينا بعض نقاطها:

- بقدر ما كان هناك تشكيل للجبان كردية، ومع مثقفين كانوا مقدّرين لوحدهم أيضاً، كانت العداوات العشائرية جرّاء تأليب الأتراك والأحقاد فيما بيننا، تنتشر في الساحة، وحتى الآن لا نملك الأمل، وتم الدفع بنا تجاه حالة الأسر.

- إن غاية الأتراك هي أن يتمكنوا من الكرد، ولاحقاً يتركونهم، وهذه أصبحت مفهومة جيداً حتى من جهة أولادنا، وقد ندمنا إزاء وضعنا السابق، والآن أسسنا علاقات جيدة فيما بيننا.

- الآن نحن وسط كرد آشيتان في السنجق، والتي تبعد مقدار نصف ساعة عن الحدود، إن قوة شاتسي مكونة من 500 خيلاً، وعندما الضرورة يمكن لهذه القوة أن تصل إلى 1000 خيلاً.

ومن عشيرة أومريان هناك أحمد سليمان ❖، حيث رحلت وذهبت إلى الجنوب، وهي الآن في ناكاريه والتي تبعد ست ساعات عن مكان تواجدنا، ولها الآن 500 مقاتل، وعند اللزوم يمكن لهذا العدد أن يصل إلى 1000 شخصاً. أما بالنسبة لقوة رؤساء قرى درفاري وتوفو ونوري تتكون من خمسين شخصاً، وعند الحاجة يمكن أن تصبح ألف خيلاً.

أما عن قوة رؤساء عشيرة أومريان «دقرا سور: المكان الأحمر» علي بن أحمد، يوسف بن أحمد ويوسف بن عثمان وهم الآن في عامودا ما بين 50-100 شخصاً، وقوة حسين سعدون من عشيرة دومبولان وهي الآن في قهرمانيان ما بين 100-200 مقاتلاً، وقوات تمو، ورزو وحسن، وهم من عشيرة سينكان، ورشكوتان وياكران، وهم الآن وسط كاشخانيان ما بين 1000-1500 شخصاً، والجميع في انتظار الفرصة المناسبة.

ومن رأس العين «كما وردت العبارة في النص: م، من المترجم»، 3000 مقاتل جاهزون مع محمود ابراهيم باشا الملّي، وعند الضرورة، يمكن للعدد أن يصل إلى 5000 شخصاً.

1000-2000 رجال عبدالقادر بك دارا بك، من عشيرة قركجييه، وهم الآن في علاقات حسنة مع أبناء ابراهيم باشا.

«....»

من ولاية بدليس، هناك عشائر أسرة شريف، وأسرة شيخو وبدري، قد أعلنت المقاومة، وهي تحارب الأتراك منذ قرابة عام.

وفي أسفل جيتا سبي في محيط بالويه، بقيادة أخوة الشيخ سعيد الشيخ طاهر والشيخ عبدالرحيم هناك 500 من كرد زازا في وضع الدفاع عن أنفسهم. «235» في النص الكردي فإن حياة جد والدي أحمد سليمان قد قضت نفيًا وتهجيرًا واعتقالًا، وفي النهاية لفظ أنفاسه الأخيرة وهو يتعرض للتعذيب. ولقد تحدثنا سالفًا أن آغا الأومريين أحمد سليمان لم يسمح للفرنسيين في أن يحتلوا نصيبين، ولكنه تعرض للنفي كثيراً عقب قيام الجمهورية التركية، يرجع تاريخ النفي إلى سنة 1943-1944 تقريباً، وقد نفي أحمد سليمان إلى مدينة دنزليه، وثمة آخرون من عائلته يجري توزيعهم في مدن أخرى، وبعد أن يعلم أشرف العشيرة بأمر النفي، ولكي لا يحدث تماماً، ولينقذوا بعضاً ممن كانوا سينفون من حكم هذا النفي الذي لا تعرف نهايته، يتم إرسال مجموعة من النساء والأطفال إلى قرى معروفة، وسواها إلى «أسفل الخط: سوريا»، حيث يكون أهلهم هناك. والمتبقون يجري تسييرهم إلى عالم المنفى. وأحد هؤلاء الذين يُنفون كان أبي رشيد مصطفى، حيث يمضي وقتاً في محيط دنزليه، وفيما بعد، يرجع

وهذا ما نتلمسه في الوثائق العثمانية في فترات متقاربة، والمحتوى الاتهامي واحد، كما في كتاب: صفحات من تاريخ الكرد وكردستان الحديث في الوثائق العثمانية «1840-1915»، وهي كثيرة⁽¹⁾، ومنها:

عن البدرخانين:

معروض العبد الداعي:

نظراً لبعد قضاء جزيرة عن ديار بكر فإن المحليين الذين يجمعون وارادات الميري «أي ضرائب الدولة» يستولون عليها ولا يرسلون إلى ديار بكر إلا الجزء اليسير، كما أن نواحي آشني وحاجي بيروام وبهتان، وعرة وصعبة المسالك فهي مأوى عساكر الكرد، ونظراً لبعدها عن ديار بكر فإنهم يرتكبون كل أنواع الخبث والفساد. ص 85.

معروض العبد الضعيف:

مثلاً تم بيان ذلك في عريضة العبد الضعيف الاخرى فقد اصبحت إساءات كل

هؤلاء المنفيون خفية إلى أرض الآباء والأجداد. ويتحدث حسن وهو نجل أحمد سليمان إذ كان صغيراً حينذاك عن بدايات النفي «لا أتذكر زمن النفي تماماً، لكن ثمة مشاهد لما تنزل حية في ذاكرتي. مع الصباح الباكر طوّقت قرية جاليه Calê، من قبل العسكر الخيالة، كانت أمي والكثير من زوجات أعمامي مع أطفالهن هربن من القرية ليلاً، حيث توجه الكثير منهن إلى أسفل الخط، وقد كان بيت خالي في أسفل الخط، والكثير من الأطفال الذين كانت أمهاتهم معنا أيضاً، استقروا سراً في بيوت أخواهم، لكن بالمقابل، كان قد بقيت مجموعة من النساء والأطفال في القرية، إذ إضافة إلى أبي كان هناك ثلاثة من أبناء سليمان من بيت جزيري «مجيد، محمد وأحمد»، تم نفيهم إلى مدينة دنزليه، والعسكر قادونا أمامهم وسيرونا. وعندما وصلنا دنزليه فرّقونا عن بعضنا بعضاً، حيث وجّهوا كل عم لي صحبة عائلته إلى ناحية ما» وكما أوضحنا سالفاً، ما عدا حالات النفي والتهجير، اعتقل أحمد سليمان مراراً أيضاً، وفي النهاية نتيجة تعرضه للكمين بالقرب من المخفر يلفظ أنفاسه الأخيرة.

وقد تعرض أفراد وأشرف من عشيرة الأومريان للنفي مراراً أيضاً في الحقبة العثمانية، أحياناً يكون النفي إلى الرقة وأحياناً إلى أرخني بالوي، وأحياناً ثالثة إلى قونية، وإبان نفي أمير كبير «فشكلين» ومير بوتان بدرخان إلى ستانبول وكريت، لأنه صاحب المير بدرخان، يتم نفي آغا الأومريان سعدون آغا بدوره إلى روسجوكا في بلغاريا، ويبقى هناك أحد عشر عاماً، ومن ثم يصدر عفو عنه فيرجع إلى موطنه. ص 383.)

(1) صفحات من تاريخ الكرد وكردستان الحديث في الوثائق العثمانية «1840-1915»، لكل من الأستاذ الدكتور خليل علي مراد- الأستاذ الدكتور عبدالفتاح علي البوتاني، منشورات الأكاديمية الكردية، أربيل، 2015.

من «خان محمود» و«خان ابدال» ظاهرة للعيان، وهما من بين اصحاب الدسائس من طائفة الكرد، وقد نسبا لنفسيهما امتيازات كاذبة من بقية العشائر. ص 88.

من ضمن معروض العبد الضعيف

...كما أنه مؤخراً قام الشخص الخبيث المسمى «درويش» بالهجوم على قضاء «بتليس: بدليس» وازعاج اهاليها وفقرائها. وقد بدا من خلال ذلك طبيعة الشر المركوزة في نفوس مثل هؤلاء الاشخاص، وهؤلاء الاشخاص غرتهم قوتهم في الوقت الحاضر. ص 89.

صاحب الدولة العطوفة والرفاة سيدي

على نحو ما هو واضح في معاني التفصيل الذي رفعته فإن خان محمود وشقيقه خان ابدال اللذين تجرأ على القيام ببعض الاساءات والاعمال القبيحة سبق وان بادرا القيام باعمال البغي... ص 91

سيدي صاحب الدولة والعناية والعطف سني الهمم

على نحو ما بينته بالتفصيل في رسالتي السابقة المقدمة الى الدار العلية دعا بدرخان بك متسلم جزيرة اسماعيل باشا العمادي اليه كي يزيد من فتنته وفساده ودعاه فكره الفاسد الى الاستيلاء على قلعة زاخو. ص 104.

من معروض العبد الداعي للمقام العالي

عن بدرخان بك وعشائر المنطقة.. كما أن أقوال أي أمير من أمراء هذه العشائر لا تطابق أفعاله، وعيوبهم ظاهرة من كل جهة، ومن ذوي الأمزجة المتوحشة، ودقة وحراجة الوضع يجعلنا لا نواجههم بهذه الحقائق، ولا يبقى لدينا في التعامل معهم سوى استخدام اللطف والتكريم تارة والتخويف والتهديد تارة أخرى. ص 136

معروض العبد الضعيف الى حضرة جناب الصدر الأعظم

لقد تمكن بدرخان بك متسلم جزيرة منذ مدة من توسيع دائرة نفوذه في منطقة جزيرة. وفي المدة الأخيرة خاض حرباً ضد بعض تالقبائل الكافرة.. ص 143.

عن عزالدين شير

«نظراً للمنازعات بين عزالدين شير المقيم فيالقنصلية الإنجليزية في الموصل وبين الشخص المدعو ملك، وهو بمثابة كهية «أي مساعد» له معروف جيداً بالبغي والعصيان وكل فضيحة، ونظراً لوجود محاذير من اقامتهمال سوية فيالقنصلية،

وتقديم التماس من جانب القنصلية المذكورة الى حكومته، والذي تبين منه وجود محاذير من وجود المذكور في موقف «أي سجن» القنصلية»..ص 270

تلك طائفة من الوثائق التي تكشف في بنيتها وطريقة صوغها، ومن خلال المكلفين بمراقبة كل ما يجري في أراضي الامبراطورية العثمانية، عما كان يدور في أذهان ساسة الامبراطورية، وكيف كانوا يقيّمون أولئك الذين كانوا يُشتمون منهم رائحة «خيانة» والتي تتمثل في أي محاولة للتخفيف من ضغط الدولة، أو التصرف بما لا يرضيها، أو عدم التجاوب مع سياستها بالطريقة التي تخطّط لها، كما رأينا في الفقرات السابقة، حيثعتمد إلى استعمال مختلف الكلمات التي تسفّه الخارجين عليها، حسب مقاييسها الخاصة، والنيل من هيبتها⁽¹⁾.

من جهة أخرى، وكما لاحظت من خلال كم وافر من هذه الوثائق في كتابي «دولة حاجو آغا الكردية»، فإن الذهنية واحدة، بالنسبة للدولة التي تتعامل مع خصوم أو من تعتبرهم معارضين لها، مع فارق يؤخذ في الحساب، وهو، أولاً، فيما يخص الذهنية العائدة إلى الدول التي تدين بالإسلام، كما في حال العثمانيين، وهو موضوعنا، يتداخل التعبير الديني والأخلاقي مع ما هو ديني، من نوع «عاص، شقي، كافر، فاسد، خبيث...» وهي الصفات التي تثير من خلالها الدولة رعاياها، وتستفزهم لئلا يتجاوبوا مع هؤلاء «الخارجين» على سلطتها، أم بالنسبة إلى دول ذات طابع علماني، كما في حال فرنسا، فتمة تعابير تتناسب مع سياساتها هذه، وطريقة تقويم الخارجين على سلطتها، ولعل تعبير «العصابات» هي من بين أكثر المفردات استعمالاً، وفي المحصلة، فإن المعارض إذا كان يرتبض بقضية محكوم عليها بالإعدام، أو الاختزال وعدم الاعتراف، وليس من دولة معرّف به، تهتم بأمره، وتمثله، نكون إزاء أوصاف أو

(1) ذلك يحفزنا على تأكيد حقيقة، لا بد أن ينظر إليها بإمعان، وهي التي تخص العدو، إذ إن مجرد الاستخفاف به، أو جعله موضوعاً للتندر أو السخرية، يرتد سلباً على من يتصرف هكذا، لحظة الحديث عن طرق التدخل غير المباشرة، ومن ثم بينها وبين المباشرة، وأخيراً المباشرة، ولوأن هذه على دفعات، تبعاً لنوعية الخطورة التي تراها الدولة مشكلة عليها، كما في حال الدولة العثمانية في أواخر عهدها بالسلطة، إذ إن لها تاريخاً من التجارب، ومن المناورات، ضد أعتى الجيوش والقوى العظمى عالمياً، وهذا ما نتملسه فيما يثيره جويده في كتابه المذكور، بلزوم الحذر من التقليل من قوة العدو «الأتراك، هنا طبعاً». كيف؟ (لكن للترك تاريخاً عسكرياً ممتداً على مدى قرون لإمبراطوريتهم مكانة لا يستهان بها، وإن بدأ الوهن يتسلل إليها. الترك شعب لا تعوزه الصفات التي جعلت منه أمة عظيمة ولا يفتقر إلى رجال أشداء، قادرين على إيجاد الحلول لما يعانون من مشكلات...ص 149).

نعوت أكثر سلبية واستفزازاً، كما في حال الكرد بالذات، فهم في كل ما يقومون به من انتفاضات أو ثورات تعبيراً عن حقهم المشروع في بناء كيان سياسي باسمهم، ومهما كانت طبيعة القوى التي يستمدون منها الدعم، يكونون في مجموعهم عصاة، عملاء، وخونة، وانفصاليين، وخارجين عن القانون، وألعوبة بأيدي الآخرين... الخ، وهو ما نتلمسه في تركيبة الذهنية السلطوية المتشددة لهذه الدولة، وكيف أنها في ظل مثل هذه النعوت تفصح عن سلوكياتها العملية في الاعتقالات الجماعية، والتتكيل الجماعي، ومن ثم النفي والطرْد والترحيل الجماعي، دون نسيان أوجه التهديد والوعيد، وتلك الدعايات المركّزة التي تتال منهم تاريخياً.

وفي حال عليكي بطي الاستثنائي باسمه وموقعه، فهو «خاسر - مطعون فيه» على كل الجبهات من حوله: من قبل العثمانيين، لأنه يتحدى سلطتهم التي تقوم على سلب حقوق الكرد، وتضرب الكرد بعضهم بالبعض الآخر، ومن قبل الانكليز، يُعتبر انتهازياً، ويخطط للنيل من المسيحيين، ودون أن يتورعوا عن ابتداع نعوت يلصقونها به، كما في «العمالة للانكليز» ليس حباً فيه، وإنما كرهاً للعثمانيين، ولئلا يفلح في أي مسلك، وبالنسبة لقسم معتبر، من بني جلدته، يعمل دفاعاً عن أغراض شخصية، وعن رغبته في مد الزعامة على بقية العشائر الكردية، وهي التهمة نفسها التي وجهت إلى حاجو الثالث.

أي طالما أن هناك تهمة ما، تكون مثمرة، أو فعالة، وتلقى صدى لها في أذهان من تتم مخاطبتهم، فهي المعتمد أكثر من غيرها، وفي ضوء ذلك، فإنه، وإلى يومنا هذا، حتى بالنسبة للذهنية الكردية، تكون تهمة «العمالة- الخيانة» وجهين لعملة واحدة، لا أسهل من إطلاقها، ولا أسهل من رؤية ثمارها المرة وهي تتضج سريعاً، ولا أسهل من النيل ممن يتم رصد، تعبيراً آخر على حقيقة مرة إلى أبعد الحدود، وهي تتمثل في طبيعة الأنظمة الشمولية إجمالاً، حيث إنها في تكوينها، لم تكن يوماً، ومذ عرف سلطوية، مهياة لأن تكون كما يُراد منها أن تكون، منفتحة، مؤسساتية بالفعل، تلتزم بذات القوانين ذات الصلة بعالم المدينة، بالعكس، تكون هذه عنصراً مساعداً لها لتفعيل سياساتها الافتتاتية، ومن جهة أخرى، لم تخطط يوماً، عملياً، لأن تمارس نقلة نوعية مشجعة نحو دنيا الحداثة، وديموقراطية تعاطي المعلومات، وعدم احتكار أي منصب سياسي في البلاد، وذلك من خلال الكفاءات القائمة والتميز فيما بينها، تبعاً للأصلح.

ذلك يدل تاريخياً، على عدم حدوث تلك النقطة النوعية، والتي من شأنها الدخول في عصر الحداثة القائمة على الاختلاف، والديمقراطية المؤسساتية، والمساواة أمام

القانون، أي ما يمنح المواطنة، كمفهوم حديث، كامل حقوقها من ناحية الإبداع، وحق إبداء الرأي والاختلاف، والذي بناء عليه يحافظ المجتمع على استقراره.

بهذا الصدد، هناك ما يفيد في التعرض له، من خلال ما يورد جبو في كتابه عن علاقة علي ومشاعره تجاه الاستقلال والقومية الكردية:

(لا شك أنه كان زعيم عشيرة، وكان هو أو من سبقه من سلاطين هفيركان ممثلين لبنية اجتماعية صاغت على مدى مئات، وربما آلاف السنين أعرافاً وتقاليد تعد متخلفة، ومن الطبيعي أن تكون نشاطاتهم مناسبة لهذه البنية... ولم يتخلصوا أيضاً من مستنقع الحسابات العشائرية... كما أن المنافسات والمعارك تسببت في حدوث تخريب متعدد الأوجه وكبير في المنطقة.... إن زعماء العشائر الذين كانوا يتصارعون فيما بينهم كالأسود تحولوا إلى بيادق بأئسة بيد الدولة.

ما يجب قوله أيضاً

ورغم كل هذا فإن القول بأن علي بطي وأسرة آل عثمان والهفيركان الوطنيين لم يروا حب الوطن يعد بمثابة خطأ تاريخي. إن فعاليتهم، التي يجب أخذها في نظر الاعتبار، في هذا الإطار استمرت في مرحلة سقوط الدولة العثمانية و«الجمهورية» التي تأسست بعدها. واتخذت هذه الفعاليات شكل انتفاضات ضد الدولة أحياناً، والقتال ضد العشائر الموالية للدولة أحياناً أخرى. ولهذا كان الهفيركان يوصفون بأنهم متمردون وخطرون سواء في العهد العثماني أو في عهد «الجمهورية»... لقد طورت «حكومات الجمهورية التركية» واستمرت على سياسة «فرق واحكم». الصحيح: فرق تسد. توضيح من ابراهيم محمود» التي انتهجتها الحكومة العثمانية للحفاظ على وجودها في عهدها الأخيرة، ولعرقلة انفصال الشعوب التي كانت خاضعة لحكمها... صص 90-92»

يحتاج ما قيل إلى ضبط، ومن ثم إلى نوع من التوازن بين المقولة المتمثلة بالدفع بالهفيركانيين صوب العشائرية المحضة، كبقية العشائر، والتحديد الاعتباري لهم، بأنهم تميزوا بروح وطنية كردية خلاف غيرهم.

ثمة شطحة في الحالة الأولى، لا تتناغم مع مجمل فقرات الكتاب بالذات.

من جهة أخرى، نعم، يمكن الحديث عن الروح العشائرية، إنما دون تعميم، حتى داخل العشيرة الواحدة، تبعاً للأعمال المقامة إلى جانب مراعاة الظروف، والفصل بين عهد وآخر، بالمفهوم السياسي.

ولا شك أن جبو يقدم جانباً استعراضياً لتاريخ طويل، وهو ما ينبغي ممارسة فصل السلطات، بين ما يقوله، وما ينقله عن غيره بأسلوب الرواية، ومدى دقتها، وما يعتمد على غيره من خلال أقوال كتّاب أجانب، وحتى مواقف سياسات قائمة وقد أرخ لها، وإلا لحصل تداخل يسيء إلى محتوى الكتاب في عمومته.

والملاحظة التي أريد تأكيدها هنا، هي أنني في تركيزي على كتاب جبو، وكما أشرت في نقاط سابقة، لا يعني إطلاقاً أنه الوحيد الذي يشكل «لبنة الكتاب وطينته وديكوره»، فمن خلاله ثمة تطرق إلى قضايا ساخنة، لها مواقعها ومرجعياتها الدقيقة تاريخياً، إلى جانب الوثائق، والتحليلات والإحالات المرجعية الأجنبية «بالفرنسية» التي تشكل تنويراً لهذه الفكرة أو تلك، ثم الفصل الذي يجب أن يؤخذ في الاعتبار، بين ما يُعتد به تاريخاً، وما يشكل منتسباً شفاهياً، سوف يكون له بابه ومحرابه تالياً، وما سيكون محل اعتبار آخر شعبياً في الغناء.

وبالتالي، فإن هذا الكتاب الأشمل والمثير في معلوماته رغم تداخل مكونات مختلفة في بنيته، يبقى مهماً.

إن أهم نقطة، جديرة بالعودة إليها، ومن ثم الاشتغال عليها كمفهوم، هو مفهوم الجدارة بالزعامة، أن يصبح أحدهم زعيماً، وبالقوة، هذا لا يكفي، فثمة من استخدم القوة لأغراض شخصية، ولاحتواء قوة العشيرة لصالحه، ومن استخدم القوة استعانة بالخارج، كما رأينا. القوة التي تمنح الزعامة خاصيتها الديناميكية والفاعلة، هي التي تخدم فكرة التاريخ، وقد أصبح أكثر تنويراً: تاريخ ضد نفسه، فيتغير، ومن أجل نفسه، ليصبح أكفاً.

ذلك ما يخدم حقيقة التاريخ المنشود كذلك. إنها ما يبقى القوة مسخرة في خدمة الأشياء في الواقع، والطبيعة ضمناً، ما يبعد القوة التي تعدم ذاتها وهي مستبدة، والقوة التي أسميها هنا، هي التي يجسدها الأقوياء، ليس لابتزاز من هم ضعفاء، وإنما ليتحرروا من ضعفهم، ولكي يصبحوا مستعدين للحفاظ على تلك القوة وديمومتها.

إذا كان عليكي بطي، كمثال، قد استلم الزعامة بكفاءة ذاتية، وعبر القوة المراثية، فهو قد دفع الثمن غالباً، وهو يحمل مجتمعاً بكامله داخله، ومثله كان حاجو الثالث، والتقييم بالطريقة هذه، يستشرف الشخصية الزعامية في مؤثراتها القاعدية، وكيفية تصريف القوة. فالدفاع عن القوة بهذا المفهوم، دفاع الحقيقة، وقد احتضنت مجتمعاً.

بالطريقة هذه لا تنحصر القوة كمفهوم في نطاق ما هو منطقي، كقضية، أو فيزيائي، هنا تكون القوة العضلية حاضرة، كلا، هناك قوة التحمل النفسية، قوة الذكاء في مواجهة الأشياء، أو المخاطر، قوة المجابهة التي قد تكون مميتة، وهذه لا يمكن تلمسها لدى كثيرين، وبذلك يجري الحديث عن القوة هنا وهناك، وبالنسبة لمن يستغرقون فيها، ينظرون سريعاً إلى أذرعهم، وما إذا كانت سواعدهم مفتولة، وقبضاتهم تحميهم ضد عدو ما. وهنا الكثير من القوى التي يجري تصريفها خارج سياق ما هو اجتماعي يسهم في تطوير المجتمع: قوة جهوية معينة، من باب فرض الذات، قوة المحسوبيات بأبعادها المختلفة، قوة النفوذ والتي ترتبط بمنصب معين.

تلك عاهات قائمة وداخلة في النسيج الاجتماعي، ويمكن ملاقاتها والصدام معها في جهات شتى من مجتمعنا.

بصد هفيركان، لحظة النظر إليهم، لم يبقوا كما هم، إن اعتماد القوة بخاصيتها الاجتماعية والسياسية هنا، تعيننا على معرفة جوانب حية في معرفة مصير هفيركان، شأنها في ذلك شأن عشائر وقبائل كردية أخرى، إنما هو حديث عن كيفية ممارسة هفيركان لشؤونها الاجتماعية، والتعبير عن وجودها سياسياً، وما يخرجها من نطاقها الذي عرفت به كمجرد اتحاد قبائلي. التحرك داخل العشيرة، دون النظر خارجاً، كثيراً ما يبقي العشيرة على حالها، رغم أن الدولة لا تدخر جهداً فيربطها بسياساتها الأحادية الجانب، سوى أن تحييد العشيرة، أو مساعي العشيرة في أن تبقى حيادية، ولا تدخل في مجرياتها، ذلك إنجاز كبير للدولة، وهي تجد في عزل قوة سكانية، ومن ثم فيزياء قوة اجتماعية لها وزنها، خارج الحسابات السياسية ومخاضاتها الإيديولوجية، كما لو أن هذه العشيرة اختارت الوقوف إلى جانب الدولة، وإن لم تسم ذلك، فالمجتمع بديموغرافيته مجموعة قوى متفاوتة كهذه.

هفيركان لم تختار البقاء منكفئة داخل حدودها الهفيركانية، إنما انقسمت على نفسها، من وراء الرهان على ما هو خارج، أي أن تنتقل إلى دائرة أوسع اجتماعياً، إنما في ظل قانون تتلمس صوتاً محسوباً لها فيه، فلم تعثر إلا على صوت مكتوم، محبوس، فكانت المواجهة، وكان التشتت، وكان التعادي داخل هفيركان بالذات.

وكأن القوة في حالة كهذه، تقوم على النبذ والتبعثر، جرّاء الصدام مع قوة أخرى، تكون رسمية، وبجوارها أو معها قوى محلية ضاغطة على القوة الأولى: الراضية لنظام الدولة الشمولي، وهي الضريبة التي تترتب على آلية المواجهة تلك، مثلما

تصرفت مجموعة الأنظمة المتقاسمة لكردستان بالكرد وهي تمارس فيهم تهجيراً وترحيلًا وتفتيتًا، كلما تحسست قوة مناهضة لها ذات قوام عشائري أو قبائلي، في ذلك الحين، وتاريخ العشائر يعلمنا بمثل هذه الحالات، وضمناً ما آذارت كل قوة، على الصعيد الاعتباري ضد الدولة.

وإذا كان من ملاحظة أخرى أيضاً، جهة ما سبق إيراده، فهي تتركز بالمقابل على التصارع الداخلي بالنسبة للقبيلة الواحدة، إذ بالطريقة هذه لا يعود لدينا من استثناء، ولا بأي شكل، فيتساوى الجميع، وليس الجميع في هذا الإطار بمتساوين، وهذه بداهة. فالصفة «التساوي» ربما أمكن إطلاقها، وإنما مع مزيد من الحذر. وهذا يواجها مجدداً بمفهوم القوة. عبر أسئلة كهذه: في أي منحى كانت قوة الزعامة تتم؟ من هم الذين يمثلونها؟ مع كانت علاقاتهم تتم في الواقع؟ أسئلة تقربنا من صلب الموضوع. وإلا لما كان هناك مثل الانقسام هفيروكانياً.

ولا أظن أن جبو، أو غيره، حين يتحدث عن هفيروكان وصلتها بما هو قومي كردي، يعني كل من كان ينتمي إليها، إذ لا أسهل من تأكيد أهم زعماء هفيروكان، تعرضوا لمضايقات من بني جلدتهم، من هفيروكان بالذات، ومن العائلة الواحدة نفسها، حيث جنسية الزعامة متغايرة: زعامة تريد تسليم رأس هفيروكان للدولة، وزعامة تسعى جاهدة، لأن تبقي رأس هفيروكان مرفوعاً في وجه الدولة، مثلاً علي في مواجهة جلبي! والدولة التي ركزت على مثل هذه النزاعات، تشتهر بطول باعها في هذا المضمار، تلبية لسياستها في الاحتواء.

فهي توجهه، وإن لزم الأمر، تتدخل، وإن لزم الأمر أكثر أيضاً، تستعمل كامل قوتها في محاولة القضاء على ما تعتبره الخطر الذي يهددها، كما في مواجهة هفيروكان، من خلال عليكي بطي.

إن ما يورده جبو تالياً، يظهر هذا التسلسل في عملية التدخل التصاعدي:

(كان علي بطي في وقت ما في منافسة مع زعيم آخر من العائلة وهو جلبي، وقد عرف كيف يمسك بزمام الأمور في الاتحاد بيديه، حيث إن أخذه بثأر حاجو كان لصالحه إلى حد كبير مقابل جلبي في السبق من أجل زعامة الاتحاد «لقد أقدم على أخذ ثأر عمه، وقتل جمو بيديه. وفي الأيام المضطربة التي أعقبت هزيمة العثمانيين في الحرب العالمية الأولى استولى على مدياد وسعى إلى إقامة حكومة مستقلة فيها. وحتى هذا الوقت كان يحكم الغالبية العظمى من الهفيروكان، وقد بدأ بإخضاع الأتراك

والعشائر الكردية الأخرى لحكمه. كما أن المسيحيين الذين تعرضوا للمذابح على يد الأتراك والعشائر الكردية نظروا إلى علي بوصفه حامياً لهم، وساهم مقاتلون أشداء من المسيحيين في زيادة قوته».

وهناك عامل آخر جعل الموقف في صالحه وهو الدعم الذي حظي به من الكرد الإيزيديين في المنطقة، والذين كانوا يعدون بمثابة «هنود حمر الكرد»، إلا أن الأمر الأساسي الذي جعل الكفة لصالحه، سواء بين الهفيركان أو بين الكرد عموماً، هو اشتهاره بميوله القومية والتحررية... كان هذا ميراثاً انتقل إليه من أجداده، وإذا كانت حرب الأنصار التي شنها ضد القوات العثمانية قد جعلته بطلاً أسطورياً في هفيركان، فإنه كسب تعاطف الكثير من العشائر المجاورة، خارج الهفيركان، والتي لم تكن على وئام مع الدولة. (ص 94).

هذه المنافسة ليست طارئة على هفيركان، إذ يمكن الرجوع إلى الوراء وتخيل سلسلة الحالات التي عاشتها، ومن ثم تنوع أو اختلاف الزعامات فيها، والصراع الذي جرى بين اثنين من داخل العائلة، ليس اقتصاراً على هفيركان عينها، في الوقت الذي يجب أن نتذكر، ضغط التدخلات، والتوترات المتصاعدة على خلفية منها، وهي تزيد في إقلاق الساعي إلى إبقاء هفيركان بعيداً عن تدخلات خارجية، أو تطويعها لخدمة الدولة أو رهنها لها.

وليس من مجال للمقارنة بين معارض للدولة، وما في ذلك من مصاعب تكلفه الكثير، وداعم لها، وما في ذلك من منافع يجنيها من الدولة، دون تقدير الضريبة الموجعة التي يجب عليها دفعها أو سدّادها، بما أن صراعات كهذه، وفي مشاهد فظيعة جرت وقائعها داخل العائلة الواحدة نفسها⁽¹⁾.

إذ إن المفيد ذكره، هو أنه يستحيل التفكير في وضع عشائري، في نطاق دولة غازية، أو مستعمرة، أو ممارسة سياسة الدولة الاستعمارية ضد المقيمين داخل

(1) يشير وديع جويده، في كتابه السالف ذكره، في الهامش الثاني «ص 155» إلى مثال صادم ومروّع بهذا الخصوص، ينقله عن عباس العزاوي، المؤرخ العراقي (قتل محمد باشا حمزة آغا واثنين من أبنائه واثنين من أخوته وأربعة أقارب... ويوضح فريزر وحشية مير في التعامل مع قبيلة مامش المهزومة، الذي صادف وجوده في المنطقة بعد فترة قصيرة من هذه الأحداث. وذكر فريزر أن أربعين من شيوخ قبيلة مامش، الذين احتجزوا مقيدون بالسلاسل في راوندوز بعد تقليص قبائلهم، تمكنوا من الهرب أثناء تفشي الطاعون في المدينة، ووفقاً لفريزر، قبض على معظم هؤلاء الرجال وقتلوا جميعاً مع سجانهم... الخ).

حدودها، دون استشراف ما هو كارثي، يرتبط بسياساتها، وفي هذا الجانب، فإن العثمانيين برعوا إلى حد كبير، في كيفية تلقيم العلاقات العائلية، من أصغرها إلى أكبرها. وهي براعة لم تكن ذاتية، أي من بناء قواها النفسية الخاصة، إنما متأثرة بمدى التناظر الداخلي الملحوظ للعشائر الكردية كذلك.

وبذلك، فإن قوة الدولة الضاربة، لا تكمن فيما تمتلك من إمكانات مادية ومعنوية في جبهات القتال، وإنما في تلك الوسائل التي تشدد عليها، لإضعاف الداخل باضطراد، تبعاً لمعايير مدروسة.

بالطريقة هذه، لا بد من وقوع أخطاء، لا بد من ارتكاب ما هو صادم، كما في حال الاقتتال الداخلي/ العائلي، وما يدفع بطرف إلى اعتماد لغة العنف أكثر من سواء، وهو ما يمكن النظر إليه بالنسبة إلى عليكي بطي، ما يمكن تقديره مستقبلياً، بخصوص الإجابة على من كان الأجدر بتولي الزعامة، ولحساب من تكون.

وفي النظر واسعاً إلى صيرورة العلاقات الهفيركانية، يُلاحظ هذا الضغط المركز، وهو كذلك، نظراً للتركيبة الاجتماعية والدينية، والحضور العددي لها، وهو ما كا يثير حفيظ الدولة من ناحية، خوفاً من تمتد بنفوذها إلى مساحات أبعد، أو تحرّض العشائر الأخرى على الوقوف ضدها، ومن ناحية أخرى، رغبة في استمالتها، حيث تكون في الحالة هذه يدها الضاربة ضد الجوار، بدلاً من أن تكون مرفوعة في وجهها.

ولعل القوة التي يُحسب لها الحساب الخاص، وتجذرهما في تاريخ المنطقة، هي قوة الإيزيديين الذين استمروا، رغم مختلف صنوف الإبادة ضدهم، ورغم التكتيل فيهم، وبِعَثَرَتهم، سوى أن سياستهم الداخلية، وقدرتهم على التكاثر تأكيداً على التشبث بالحياة، وتأكيد هويتهم الخاصة، كانت الداعم الأكبر لهذه الاستمرارية، والدولة كانت على علم بهذه التصورات، كتجربة تاريخية، ومن خلال فرماناتها ضدهم.

فلأى غرابة أن كانوا طليعة قوات عليكي بطي، لا غرابة أن كانوا اليد القوة والموجة في هفيركان ضد الأعداء، والدولة في الواجهة، لا غرابة أن أطلق عليهم لقب «الهنود الحمر» تأكيداً على خفتهم، وأهليتهم في الانتقال، وسريعاً من مكان إلى آخر، وفي الانقضاء على الأعداء، حيث البيئة علّمتهم الكثير الكثير في المناورة وتحمل الصعاب في مواجهة الأعداء. لا غرابة أن وجدوا أنفسهم الحلف القوي في هفيركان، أو الورقة الراحبة فيها في تهديد الآخرين ممن يشكلون خطراً على هفيركان.

يضاف إلى هذه النقطة، ما يخص القرابة التليدة بين الإيزيديين وزعماء هفيركان بالذات، أي جهة الأصول الإيزيدية للهفيركيين، وهذا يزيد في الارتباط بهم، والدفاع عنهم، من موقع «الدم الواحد»، بغض النظر عما إذا كان ذلك صحيحاً أم لا، إلا أنه في جوهره كان مفيداً في تقويم صلات الوصل بين أفراد هفيركان، لا بل وفي شعور الإيزيديين بأنهم إنما في قتالهم، لا يدافعون عن كردهم فحسب، وإنما عن بني جلدتهم من الناحية الدينية، وما في هذا الشعور من صلابة، ومن روح الفداء والتحدي للأعداء، ومن يقف مع الأعداء.

وقد تلمسنا هذه الروح المضحية مع حاجو الثاني، ونجده مع عليكي بطي، والعلاقة التاريخية، لاتزال قائمة على روابط القرى هذه إلى الآن، حيث الإيزيدي يفتخر، ومن حقه ذلك، بمثل هذا النسب دينياً.

هذه اللحمة الاجتماعية بمختلف قواها، كانت وراء رفع الروح المعنوية لعلكي بطي نفسه، كانت وراء التفكير بمرونة، في الخطوة القادمة، وهو يخطط لما يمكن أن يحصل، وما يمكن أن يقوم به، وملؤه شعور، كما يلاحظ، بالغبطة وهو ينطلق إلى خارج هفيركان، وقد ذاع صيت هفيركان، رغم حظر التعامل، ورغم أشكال الدعايات التي ركزت على هفيركان، سوى أن المرئي هو البرهان، وما تحقق في هفيركان، كان أثبت في البقاء، وفي التأثير في العشائر المجاورة، أو في استمالة مجموعة من العشائر إلى جانبها، مع تنامي وطأة الأحداث، في أتون الحرب العالمية الأولى، وأخبار الحرب المدمرة والمميتة، والنظر إلى الدولة على أنها تموت، ولكنها قبل أن تموت تحاول قدر المستطاع أن تدفن المزيد من الناس، أو تميتهم معها أو بالنيابة عنها كقرايين، وهم أحياء كذلك.

تمثيل العنف

ولا نبالغ في القول إن أكدنا على أن اللعبة لازالت سارية المفعول، بما أن العنف لازال شغلاً، وأن هناك من يمارسه، وهناك من يكون هدفاً له، ومن ينظر فيه، والعنف أيضاً لم ينحصر عن العالم، بالعكس، لقد أثبتت الأحداث أن وتيرة العنف، أو ما يمكن تسميته بـ «أنثروبولوجيا العنف» تكاد تستغرق العالم، ولو بشكل متفاوت أكثر من ذي قبل، وأن قائمة الأساطير المبتدعة التي تضيف عليه جمالية أسرة، تشجع على تبنيه والانخراط في لعبته الكونية، هي في ازدياد، مع التفريق بين سدنة العنف أو من هم أقطابه الرسميون، ومن يؤدون مهام ذات مسار عنفي باسمهم، ومن يمارسون

العنف دون الكشف عنهم، لجعله أكثر دراماتيكية، مَيَّزَهَا إشكال، إلى جانب صيغ التعبير ومن ثم التمثيل تكون مختلفة، كما لو أن عنف اليوم المسجَّل بماركات معينة، ومن جهات معينة، وهو يتنقل، ويتكاثر، باحثاً عن متعديه، أو ضحاياه على مدار الساعة، لا يعدو أن يكون عنف البدايات الأولى والتي يصعب تحديد سنة ولادته تاريخياً، حيث يتداخل أوله مع آخره، كما هو المحسوس في هذه المنطقة وكيفية أداء العنف لأدواره الكبرى، ونتائج المروعة في القتل والتدمير، وعلى مرأى من أعين العالم. نكون بذلك إزاء عشائرية كونية مستحدثة، وكونفدراليات مدماكها العنف اللفظي والجسدي بالمقابل.

والرهان الأكبر في هذا السياق، هو بين من يضع حداً لتمادي هذا العنف، ومن يستمرى تصعيده واشتاء ضحاياه هنا وهناك.

أهو استرسال في الكلام، أم توضيح للعنف الذي أحيط بهفيركان، ووجد ألسنة حاله في داخلها كذلك؟ شيء من هذا وذاك، وشيء أبعد من كليهما، على وقع ضراوة المجابهات المميّنة، ولعل هفيركان كانت في المواجهة.

وهذا ما يدفع بنا إلى الحديث عن حس المناورة، والدهاء الذي يستمد قوته من عالم العلاقات العامة، وليس من المدارس أو الجامعات، ومغزى القول أنه بصدد الحديث عن عليكي بطي وصلاته بالآخرين، يمكن تحرّي بنيته النفسية، وما إذا كان هناك رصيد معرفي مميّز، احتياطي، يعتمد عليه عند اللزوم، أم أنه في تصرفه مع الذين يحيطون به، يتعلم، بمقدار ما يتحسس، ويسمع ويشاهد، كما لو أن الآخرين وهم يتدخلون مع بعضهم بعضاً، أنهم في سرّائهم وضرائهم، إنما يشكلون المدرسة الأكثر حيوية ومنفعة لرجل في مقامه.

وفي ضوء مشاهداته ومكاشفاته، كما تعلمنا سرديّة أيامه المتواصلة، لا يبدو أنه يعيش انقطاعاً مع الحياة، في مختلف جوانبها، إنما لا يتجاهل شيئاً، بما أن العنصر الرئيس في إبقائه في قلب الحياة، هو استعداد له لأن يحاول التقاط كل ما تدفقه الحياة، أو ما يتدفق في الداخل، ومن ثم الوصل بين الحالتين.

لا أريد مما أقول هنا، في ما هو معروض أمامي، أن أكون منظرّاً له، وليس عندي أي رغبة في ذلك، إنما مسعاي، إذا كان مشروعاً، هو أن أنقّب في نوعية الحياة التي كان يتنفسها بين جنبه ليصمد هكذا، كما هي بيئته، أو جغرافية موطنه، بكل تنويعاتها التضاريسية، وقد خبرها مذ كان راعياً، أي مسكوناً بثرء الطبيعة.

لن نتوقف عند الفقرة التي نتحدث عن التزامن بين وجود عليكي بطي في السجن، واندلاع الحرب العالمية الأولى، وما كان في إثرها من تخفيف الضغوط على أهل المنطقة، إلا في تلك التوترات بينه وبين منافسيه من بني جلدته، وهو ما يثير السؤال تلو الآخر، وخلفية هذا الجاري، لأن هناك ما سبق وأن تباحثنا فيه، إلا في نهاية الفقرة، لأهمية المنشور فيها (على مدى سنوات الحرب العالمية الأولى كانت حالة التوتر الوحيدة في المنطقة هي سلوك عشيرتي أومري ودكشوري الممتعة عن إطاعة علي وسعيها لمسك زمام الأمور في هفيركان بيدها، وكانت المصادما تقع بينهما من حين لآخر، ولكن بصورة عامة كان علي هو المسيطر على المنطقة ص 95).

ماالذي كان يبقي المنطقة ملتهبة بنار العداوات الجانبية؟ ألم يكن في مقدور كل عشيرة أو قبيلة أن تدير أمورها دونما حاجة إلى الأخرى، أم أنها نار العداوات القديمة والتي تدور حول الزعامة، وتلك الروح الشقية التي لم تستشعر راحتها، إلا باستدامة النار تلك، ومن ثم بإبقاء ساحة المواجهة مشتعلة بين المتواجدين حولها ؟

تلمست في مثل هذه التوترات تلك الذاكرة المشحونة بالحساسيات الجانبية، وكانت درجة التوتر تزداد، كلما برز الحراك الاجتماعي والسياسي على الساحة أكثر، وفي ضوء المستجدات وتنامي الاهتمام بالمنطقة.

تبقى فكرة الزعامة في الحالة هذه، على غاية من الأهمية والخطورة، عندما تكون فترة تودي أحياناً بمن يشدد في المطالبة بها، انطلاقاً من حسابات ذاتية، أو عائلية سالفة، وكان ذلك يغيب الأصل في فكرة الزعامة، حيث إن الزعيم ليس أن تكون سيد جماعتك، أن تكون الاسم الأول فيها، والوجه الأكثر بروزاً فيها، وإنما الأول في الخروج إلى ساحة المواجهة للخطر المداهم لحماها «أي جماعة الزعيم» وأن الزعيم كمفهوم واعتبار ومكانة، لم يعد كما كان ذات يوم، في ظل الاعتبارات السياسية التي شهدتها العالم، ومن ذلك فكرة بحث كل أمة عن حريتها وشخصيتها القومية، وهذه تحتاج إلى صهر إرادات، وإلى التنازل عن مجموعة من الأنوات التي تمثلها دائرة الوجهاء الموزعين في بقعة جغرافية، نظراً للحاجة الماسة إلى مثل هذا التنازل، لأن هناك دخولاً في المدنية التي تقوم على مؤسسات، وعلى وعي اجتماعي، ومسئولية كبرى لمن يتولى زعامتها، وبالتالي، لم تعد الزعامة مجرد هبة، أو امتيازاً لأحدهم لكي يعلن نفسه آمراً ناهياً، دون التفكير في المسؤوليات التي يجب عليه تحمّل أوزارها، أو التعبير عنها، وتأكيد روح التضحية في نفسه، وليكون أكثر تعباً أكثر من أي كان.

ذلكيواجه الجميع ب: فيما إذا كانوا يعرفون عدوهم القومي، وماذا يتطلب الموقف منه من هذه الزاوية المعتبرة حادة؟

فلا تعود الزعامة «نوماً في الغسل» أو توقع الموت أو المتاعب على مدار الساعة، عدا المسؤولية الأخلاقية، التي تعرّف بمنصب الزعيم عبئاً، وليس مكراً، ولأن هناك من هم بالآلاف وأكثر يتوقعون الأمان من خلاله.

أحسب أن الذين كانوا يتوقعون إلى الزعامة ويستमितون في الدفاع عنها، وفي مجملهم لم يضعوا في حسابهم العقلي أو النفسي، أن المرحلة الجديدة بمختلف مكوناتها، هي وضع الشخص على المحك، تجنباً لكارثة قد تصيب جماعته، وأن الذين كانوا يسيل لعابهم كلما ذكرت الزعامة، كما أتوقع، كانوا بعيدين كثيراً عما هو كردي وثقل المهمة!

في هذا الإطار نفسه، ثمة مسألة تثار، عما يجعل مثل هذه الرقعة الجغرافية والتي تُسمى باسم «هفيركان» محط أنظار الكثيرين، ولماذا كان هذا التركيز عليها؟

إن السؤال الثاني مرتبط بالأول. ولعل الذي يمكن قوله قبل كل شيء، هو أن هذه الرقعة من حيث التقدير الضمني، حتى عند الذين يكتّون لها العداء، تحتفظ باستثنائيتها، أو تشكّل حالة ندرة، بأكثر من معنى، في مثل هذا الاتحاد، وهو بدوره، يترجم معناه في الحال على الأرض، جرّاء الشعور بالأمان، ومن ثم بالتوحد، والرغبة في الدفاع عنها، تأكيداً للبعد الاجتماعي والإنساني المختلف عن كثير مما كان يجري في الخارج، حتى بالنسبة إلى إمارة بوتان، والتي يرتبط بها الهفيركانيون تاريخياً، ومصيرياً، من هذه الناحية، أكثر تميزاً جهة التفاعل الاجتماعي بين المكونات التي سبق وأن توقفنا عندها، ولهذا بُذلت محاولات كثيرة لنسفها من الداخل، ويبدو أن الذي كان يحضّر لعموم الكرد، وهذه الرقعة الجغرافية بطابعها الكردي، لم تكن استثناء، هو ألا يكون لهم أثر، في مخططات الدول الكبرى آنذاك، وما كان يُحضّر أيضاً للدول المتشكلة حديثاً في المنطقة، أو التي أعطيت حدوداً سياسية جديدة، من خلال «سايكس-بيكو» ليكون الكرد من خلال موطنهم الذي تجزّأ هبة لهذه الدول، وهي هبة مادية ومعنوية، إنما بالنسبة إليهم عقوبة ذات خلفية تاريخية واجتماعية وسياسية في الصميم، مع فارق أن يكونوا بموطنهم الكردستاني، هبة للدول التي أسهمت في وضع اتفاقيتها التقسيمية للمنطقة، وأن تكون كردستان تابعاً لتابع، أي ملحقة كأجزاء بهذه الدول

الأربع، أشبه بوديعة تاريخية ذات ميزة ائتمانية شديدة التمايز، والتي لا أعتقد أن أحداً توقف عنده حتى الآن:

بالنسبة للدول الكبرى وقتذاك، ليس انكلترا وفرنسا وحدهما فحسب، وهما الدولتان اللتان تعرفان بالحضور الكاسح، والاستعماري للمنطقة، وإنما حتى دول أخرى لها ماض استعماري أيضاً، لم تتحرر منه في ممارساتها الأخلاقية، وازدواجيتها الإنسانية من خلال التطبيقات القانونية على صعيد دولي، وأعني بذلك ألمانيا وروسيا، قبل أي دولة أخرى «وأنا لم أسمّ كلاً من إيطاليا وإسبانيا» وهما من منظومة الدول الاستعمارية ذات الماضي المكروه، وحتى من خلال مصالحها في مناطق متفرقة في العالم، فسكاكين الطامعين في المنهار عثمانياً كثيرة، لأن الثور الجغرافي المطروح على الأرض سمين، ولا ينفد فيه لحم وشحم وعظم ودم مفيد إلى أجل غير مسمى «هنا لا بد، كما هو مقدر، أن يوضع بدلاً مما ذكرت لحماً وشحمًا وعظماً ودمًا، التالي: البترول، الماء الغالي تالياً، المواقع الاستراتيجية، والثروات الأخرى، ومنها كذلك: الموارد البشرية كطاقة متحركة على الأرض»، أي في نطاق الإمبراطورية العثمانية، وتركيا حديثاً، بالنسبة لألمانيا بصورة أوسع، حيث كل دولة كانت تجد ظلاً لها في مثل هذه الإجراءات، أي حين يتحول الكرد وقد تم تمزيقهم في استعمار مركّب، إلى ما يشبه «حصان طروادة» بالنسبة لهذه القوى ذات النفوذ العالمي والاستعماري، ليس لأن الكرد أرادوا ذلك، وإنما أريد منهم أن يكونوا كذلك، لتستمر «بلقنة» المنطقة التي ضمت إليها الكرد في جهاتها الأربع، وتحت أنظار هاتيك الدول، والتأكيد على أن الدول تلك، والتي كانت تراقب من بعيد «الولايات المتحدة الأميركية» في الواجهة العالمية الكبرى، سوف تعيش انتعاشها الاستعماري الجديد عن بعد، وعن قرب عند اللزوم، كما حصل ويحصل تاريخياً وحتى الآن. حيث إن الكرد طوال تاريخهم داخل هذه الدول المسماة بكياناتها الجديدة لم يهنأوا بالاستقرار، وبدقة أكثر، لم يستكينوا أو ينصهروا في جسم أي منها، بالعكس كان عنصر عدم استقرار، واضطرابات إلى يومنا هذا، إنهم مثل الكريات البيضاء التي تقاوم الفيروسات التي تغزوها من الخارج ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، تأكيداً على أن لهم سماءهم وأرضهم الخاصتين، لهم هويتهم، وثقافتهم، كما هو الملموس، أو الممكن النظر فيه بيسر طبعاً، في سلسلة المقاومات الضارية وعدم «الترويض: التدجين» لهم.

وفي الوقت الذي لم تدخر هذه الكيانات السياسية المابعد «سايكس- بيكو»، وهي في ممارساتها شتى أنواع القتل، التعذيب، الاضطهاد، التتكيل الجماعي، الإهانات،

الترحيلات الجماعية، النفي، الملاحقات، والاعتقالات بالمقابل جهة الكرد، لم تفلح إلى هذه اللحظة في احتوائهم، أو نزع الذاكرة المكانية - الزمانية منهم كردستانياً، بغض النظر عن طبيعة الذاكرة هذه، وهي بسمائها الجغرافية وإحداثياتها الثقافية ومعالمها الأثرية الناطقة باسمها كردياً، وفي المساحة والحضور العددي «الديموغرافي» إلا أن هناك مشكلاً عويصاً، ينتمي إلى المكان والزمان الملغوب بهما، وهذا ما تتجاهله الكيانات المتجاورة، وتتكرر لمثل هذا الحضور.

وبالنسبة لهذه الدول التي رأت في مثل هذا الضم الجغرافي والديموغرافي أعطيات أثارها، ومن خلال أنظمتها، ولا تزال قائمة بتلك القناعة، وتلك مشكلتها في وعيها السياسي، والمدني والإنساني، حتى تجاه شعوبها كأنظمة منفصلة عن شعوبها هذه، فكيف بالكرد، لم تتمكن، من ناحية، في القضاء على هذا الوعي الكردي المضاد لها، كما أنها لم يتبين لها، ومن خلال إرادة وعي تاريخية ناقصة فيها، أن هذا الذي جرى، ليس تكريماً جغرافياً وبشرياً لها، وإنما الزج بها في مشاكل يستحيل حلها حلها، طالما أنها لا تعترف بأن الذي جرى، من جهة الكرد وموطنهم، هو لإبقائها دولاً دون الدول، وأنظمة قائمة، ولكنها غير مفعلة تاريخياً، وهذا ما يمكن التأكد منه في بنية حصاد الحرب العالمية الأولى وتبعاتها.

لاحظوا ما تتضمنه هذه الفقرة ذات النسب التاريخي القويم في كتاب جبو:

(انتهت الحرب العالمية الأولى بهزيمة الدولة العثمانية، وحليفاتها «ألمانيا، امبراطورية النمسا، المجر، بلغاريا». وقد تكبدت هذه الدول خسائر فادحة. ويمكن القول أن الدولة العثمانية كانت أكثرها تعرضاً للخسارة. فقد خسرت معظم ممتلكاتها ولم يبق بيدها سوى الأناضول وجزءاً من كردستان. وقد جلست الدول المهزومة فرادى على مائدة التفاوض، ووقعت اتفاقيات هدنة. وقد فرضت هدنة موندروس التي وقعت الدولة العثمانية شروطاً ثقيلة على العثمانيين، وكان من بنودها:

- يحق لدول الوفاق «انكلترا، النمسا، إيطاليا» احتلال أية منطقة إضافية، إذا رأت أن أمنها يتطلب ذلك.

- تسريح الجيش العثماني عدا قوة جندرية صغيرة.

- وضع اليد على كل الأسلحة والمعدات والذخائر العثمانية.

وهكذا تمت تهيئة المبرر القانوني لاحتلال المناطق التي بقيت بين الدولة العثمانية. وبعد مدة قصيرة دخلت هدنة موندروس حيز التطبيق. وتم احتلال بعض

المناطق من الأناضول، وتسريح الجيش العثماني، والاستيلاء على كل أسلحته وذخيرته. وباختصار إزالة موجبات الدولة الواحدة بعد الأخرى. وكان النمرالكبير «أي الدولة العثمانية» يتحول إلى قطرة إلا أن الأمر المثير للاهتمام أنه عندما كان كل ذلك يحدث لم تمس دول الوفاق الوحدات العسكرية العثمانية في كردستان، لا سيما الفيلق الخامس عشر الذي كان تحت قيادة كاظم قره بكر. وكان ذلك جزءاً من الخطة التي تمت المحافظة عليها في كردستان بعناية، وهي خطة لم تتجل لحد الآن. ص (95).

ما قيل وتردد في هذا الاقتباس، وما هو ممكن تلمسه تاريخياً ومن زاوية السياسات المعمدة دولياً، يتضمن الكثير مما يستحق الوقوف عنده والنظر في الأبعد منه:

أولاً، لم يُرد للكرد أن يكون لهم كيان سياسي، حتى قبل الحرب العالمية الأولى، والدليل على ذلك أن هذه الدول التي أسهمت في خطة التقسيم، حوّلت الكرد وكردستان إلى ملاحق بالكيانات السياسية الجديدة بحدودها السياسية، مع وعي كامل بأن ما تقدم عليه، تعبير عن أن الخاصية الاستعمارية لم تنته، ولن تنتهي حتى بعد خروجها الاستعماري من المنطقة، حتى بالنسبة لدول لم تشارك في استعمارها مباشرة كـ «أميركا» لكن «موطيء قدمها» بقي محفوظاً، وكذلك مختلف الدول التي تجد رغبة لها بالتوغل فيها سياسياً وغيرها.

ثانياً، لم يُرد لهذه الكيانات السياسية في المنطقة، وهو ما تأكد في مختتم ما يسمى بالخروج الاستعماري منها، أن تحظى بتلك النعمة التي عرفتها أوروبا، أي أن تحضر نفسها للغد المأمول حال الدول التي بنت مدنها.

ثالثاً، أحياناً، هناك من يجري مقارنة بين مجموعة الدول المتنفذة «دول المحور» بعد الحرب العالمية الثانية، ومعها الاتحاد السوفياتي، وكيفية تقييد ألمانيا، وتجريدها من القوة العسكرية، لكنها لم تمسها في كيانها السياسي، ربما حتى تقسيمها إلى ألمانيتين، حتى نهاية ثمانينيات القرن الماضي، فيه ما فيه الكثير مما يمكن قوله، وهو أن ذلك كان مخططاً له، ويخدم تطلعات الدول «المنتصرة» في الحرب، وحتى بالنسبة للاتحاد السوفياتي الذي كان الحلف الذي تزعمه «حلف وارسو» وبالأعلى عليه، في حروبه الباردة، وليس الحرب الواحدة، وهي ساخنة عملياً، وهو لم يدخر جهداً في التدخلات المختلفة في المنطقة، باستعمار من نوع آخر، فكان انهياره تعبيراً عن هذا

«الشفغ» الاستعماري في وحدة ملغومة من الداخل، لتعود ألمانيا إلى وحدتها، وتعود روسيا وقد نُزِع عنها اتحادها السوفييتي، ولتخطط من جديد، كي تستعيد ماضيها الاستعماري القيصري بصورة ما .

وبالنسبة لليابان التي كانت فجيعتها الكبرى في هيروشيما وناغازاكي، ذات الصيت التاريخي الرهيب بالنسبة لأميركا، ومن معها، وكيفية لجمها، لكنها بقيت طليقة في حدودها البرية، ذات سيادة، وموقعها الجغرافي الآسيوي، ومندفعة إلى تلك المكانة التي انتظرتها وشكَّلتها: اليابان، امبراطورية التقنيات الالكترونية الكبرى، وكل ما له صلة بالصناعات التي سحرت ألباب أباطرة الصناعة في الغرب وأميركا بالذات، ليكون عقابها في حرمانها من القوة العسكرية، قوة دفع هائلة لها، كي تصنع يابان الغد .

هوية طبوغرافية للمكان

سوى أن الذي جرى في المنطقة، وهي بموقعها المختلف، وقد حُوِّلت أجزاء، كان لها شأن آخر، وعقوبات متنفذة فيها، ومحروسة، إلى هذه اللحظة، بحيث إن الذين يشددون، من ساسة القومية العربية ومنظريها، على التركة الاستعمارية البغيضة، باتوا هم أكثر حرصاً على هذه التركة، وليس الاستعمار، والوحدة وهم، يُراد به تجييش الوعي القطيعي للجماهير، دون أي إنجاز صوب ما يُسمى بـ«الوحدة»

ثالثاً، بالنسبة لتركيا، التي لاتزال تشدد على أنها خسرت الكثير، أي ما زالت تعرف بنفسها امبراطورية، أكثر من جارتها «إيران» ذات الاسم الأحدث في ثلاثينيات القرن الماضي، مثلما أن تركيا هو الابتداء الأحدث قبلها بعقد زمني، أرضاً وقوى بشرية وممتلكات، فهي من حيث التحديد الموقعي ليس لها أي رقعة جغرافية في عموم المنطقة التي تسمى «تركيا» إنما قدمت من الخارج، قبل سبعمئة عام بـ«عثمانياتها»، فكان ما كان، وهي في ظهورها الحديث مع ساعة «جمهوريتها» إنما شكلت القاعدة الكبرى لتغلغل دول متنفذة، لأميركا وغيرها، وإيهامها أنها دولة بالفعل»، وتنتمي إلى حلف «الأطلسي» كان في مقدور دول الحلفاء تصفيتها كردياً، بجعلها موزعة كما كانت بين كل من اليونان والأرمن والسراني والكرد، بالطريقة التي ترغب فيها، ودون اعتراض من أحد، حيث إن خدعة «حرب الاستقلال» بالنسبة لتركيا التالية، وعقب الحرب العالمية الأولى، هي ذاتها تتطوي على الكثير من الالتباسات استعماريّاً، إنتما على وهم كيان دولة لم تعرف لا الاستقرار ولا الديمقراطية، ولعلها لن تستطيع فعل

ذلك، وفيها ما ليس فيها ولها، بالنسبة لجثومها على أكثر من بيضة فاسدة لا تفقس إلا شروراً تحوّل بينها وبين بلوغ لحظة الأمان، وهي في وضعيتها الجغرافية والسياسية المثقلة بالمشاكل.

وليس إبقاء تلك القوة العسكرية لتركيا في المنطقة التركية، إلا تعبيراً ليس عن تقدير لها، وإنما لزجها في مشاكل تحرّم عليها النوم الهانئ، والثبات الآمن في المكان، فهي كانت قوة عسكرية لبلبلتها عملياً، حيث إن الرقعة الجغرافية الكردية الأكبر تقع في نطاقها الجغرافي، كما هو معلوم، تجاوباً مع المراد من ذلك استعمارياً، أي مراعاة لوضع تركيا، وللتكوين الديموغرافي التركي الذي هو في قوامه صحارة أمم وشعوب مستلبة.

وهذا ما جرى بعد ذلك، كي تتمكن من ردع أي قوة كردية ناهضة في الجهة الكردية «كردستان الشمالية».

وبذلك، لا يكون من المستغرب أن يحصل التالي:

(كان لكردستان نصيبها من عمليات الاحتلال التي تمت بموجب هدنة مونديروس. فقد كانت المناطق التي يتوفر فيها النفط «الموصل وكركوك وأطرافها»، والتي تقع ضمن حدود العراق وجنوب كردستان اليوم، من حصة الانكليز. والحقيقة أنهم كانوا قد احتلوا أثناء الحرب كل المناطق إلى الموصل...ص96).

كان من المحتّم أن يحصل ذلك، وكان من المحتّم أن يدخل الكرد في حروبهم الجهوية» كل مجموعة محصورة الآن في الرقعة الجغرافية الملحقة بكيان سياسي مختلف، لكنها الكيانات السياسية التي يجمعها قاسم مشترك واحد، وهو أنها من حيث النشأة تتقاسم شعباً وموطن شعب، لم يستقر تجاه ما هو عليه. حروب خاصة بهم، وبما يتناسب والكيانات الجديدة، ورقابة مستمرة من القوى المعنية بهذا المسرح الجغرافي الذي طوّته، والنتيجة أن الضعف البنوي ملازم للجميع، لأن التفكير يتركز في ناحيتين تخدمان القوى الاستعمارية عرابية التقسيم:

إبقاء هذه الكيانات صلبة أنظمتها غارقة في المشاكل، وهي تسخر نسبة كبيرة من ميزانيتها، كما أنها تشكّل نسبة كبيرة من مواردها البشرية في عسكرة المجتمع، لمواجهة الكرد أنّى كانوا، حيث إن هناك «وحدة» خطر، تتهددها مجتمعة، كما هو معلوم، وكما قدرته القوى الاستعمارية التقليدية سابقاً، ولكل دولة، وتبعاً لموقعها، وتكوينها الاجتماعي بالمقابل، تخطط لمثل هذه المستجدات النادرة في جسدها

السياسي غير المتناغم، وما يترتب على كل ذلك، من نسيان أو تناسي أي خطة مستقبلية تجعلها كيانات حداثية مدنية، وهي مفارقة كبرى لا يمكن أن تتحرر من ربقته: كيف يمكنها أن تصبح دولة مؤسسات في كل منها، وفيها مثل هذا الثقل المضاد، والذي يمنعها من تحقيق ذلك، إلى جانب أنها نفسها، وعبر أنظمتها منزوعة الرغبة في تحقيق ذلك.

إبقاء الكرد في وضعية التآزم والشعور بالاضطهاد المضاعف: القومي والاجتماعي، وهم بحضورهم العددي الكبير، ويشغلون مواقع مختلفة في المجتمع بإمكاناتهم «المغلولة» وقواهم الحية «المحرقة» بالنسبة إلى وضعهم، والتفكير الدائم فيما آل إليه أمرهم، وما في المحصلة من مواجهات وأزمات ومآس «على سبيل المثال، إن الذي يقال في هيروشيما وناغازاكي، وهو مدبر، ربما، ومخطط أساساً لذلك» عمل همجي بكل المقاييس، سوى أن الذي دفعه الكرد إلى يومنا هذا، من قرابين بشرية، سوى من خلال انتفاضاتهم وثوراتهم، وانتقالاتهم من مجابهة إلى أخرى، وبصيغ شتى، وهدر إمكانات، وضحايا لا حصر لها، فاق ضحايا المدينتين، وليس من تذكير بذلك، إلا بشكل خجول، وهذا جانب آخر من جوانب المشكلة الأخلاقية وصلتها بمفهوم القانون الدولي، بموقع «الأمم المتحدة» بعد سالفتها «عصبة الأمم» وهما مولدات القوى الكبرى والمنتفذة، والغالبية من دول العالم، ليست أكثر من مواقع معطلة ومقيدة في اعتماد أي قرار له طابع سياسي هنا وهناك.

نعم، ما جرى في أعقاب الحرب، بالنسبة للكرد، من دمار وقتل، يفسره ما كان يُخطط له قبل ذلك. وهناك الكثير الذي يشهد على مدى انخراط الكرد من جهة، والدفع بهم من جهة ثانية، في حروب لا تغنيهم، وهي تؤدي بهم كثيراً، وحروب تقع على حدودهم، لكنه تصيبهم بالكثير من الحروق والمخاوف والخسائر في الممتلكات، وحروب يضطرون إلى خوضها، وهي أقوى من إمكاناتهم، فيخسرون الكثير من قواهم البشرية، مثلما أنهم يتعرضون لشن حرب مكانية، حيث اقتلاعهم من موطنهم وتشيتيتهم صوب أماكن تمنعهم من التفكير في أي محاولة من النوع السابق. وليس هناك ما هو أكثر من هذه الأمثلة الدالة على هذا الرعب المركب.

أورد بعضاً منها في كتاب وديع جويده السالف ذكره، لأهمية ذلك:

جلبت الحرب العالمية الأولى الكثير من المعاناة والخسائر الفادحة للشعب الكردي. ولأن الوطن الكردي الأم قدّر له أن يقع على طول حدود الإمبراطوريتين

العثمانية والروسية، فقد وقع في طريق الجيشين المتحاربين، وغدا قسم كبير من أراضيه ساحة معركة منذ الأشهر الأولى للحرب. ص 307.

لقد سببت الحرب مطالب شديدة الوطأة على القوة البشرية الكردية. وعدد الكرد الذين انخرطوا في الحرب ليس من السهل تحديده...إنما هناك أمثلة، يقتبسها من الكاتب الكردي محمد أمين زكي:

الجيش الحادي عشر بمقره في خربوت والجيش الثاني عشر بمقره العام في الموصل، كانا من الكرد بالكامل. بالإضافة إلى ذلك، فإن معظم الضباط والرجل في الجيش التاسع، المتمركز في أرضروم، والجيش العاشر المتمركز في سيواس كانوا كرداً. وقاد الكرد أيضاً 135 سرية من الخيالة الاحتياط بالإضافة إلى عدد من وحدات الحدود ومجموعات كاملة من رجال الدرك وقوى الأمن...ص308.

وعدد الكرد الذين قتلوا جراء الحرب أو المذابح يضاهي، إن لم يتجاوز، عدد هؤلاء الذين ماتوا من البرد والجاعة والطاعون...ص309.

ومن الخسائر العينية: عندما دخل الروس إلى منطقة بايزيد- الشکرد في كردستان الشمالية في كانون الأول عام 1914، قيل إنه لم ينج إلا عشر السكان من ضراوة الوحدات الأرمنية المنضوية تحت لواء الجيش الروس.ص310.

عانت منطقة أخرى هي منطقة شمدينان- راوندوز في وسط كردستان كثيراً خلال الحرب..قيل أن قبيلة كورك التي كانت تعد 150 عائلة قبل الحرب لم يبق منها سوى سبع عائلات بحلول عام 1919، وحكي أيضاً عن أن 250 منزلاً في نهري لم يبق منها إلا سبعة منازل، في حين أن 2000 منزل في راوندوز لم يبق منها إلا ستين منزلاً في نهاية الحرب..ص 311.

في نهاية حزيران، عام 1917، جلا الروس من منطقة خانقين، وفي الحال احتلتها القوات التركية، وهذه الأخيرة، التي استخدمت طرقاً قاسية غير عادية في الحصول على الطعام والحاجات الأخرى، استكملت تدمير هذه المنطقة. ص 312.

في كردستان الفارسية.. في نهاية الحرب، بعد أربع سنوات من العنف والتدمير المنفلت من عقاله، كانت المنطقة كلها على شفير الخراب. تدفق آلاف الكرد المرضى والجوعى إلى أورميا في بحث عن الطعام والملجأ. كان حال هؤلاء اللاجئين مثيراً للشفقة إلى درجة أن أعداءهم اللدودين السابقين، الآشوريين، تأثروا لحالهم وقدموا

لهم المساعدة التي كان بإمكانهم أن يقدموها ويدافعوا عن قضيتهم أمام لجنة الإغاثة الأميركية ص 313.

في مثل هذه الملمات والفجائع، يمكن التعرف إلى الآخرين في معدنهم، يمكن أيضاً لمثل هذه الحالة التي تقوم على كيفية الاهتمام بالآخر، وتقديم ما يلزم في حدود الإمكان، مراجعة التاريخ والذات والموقف منهم.

ولا شك أن المشاهد التي نقلتها من الكتاب المذكور، من ناحية تكشف عن الحضور الكردي الهائل في ساحات الحرب، كما تكشف عن مدى انخراطهم في حروب أعدائهم، من ناحية أخرى. وينسون بذلك ما هم عليه، حيث يتعرضون للقتل قبل الحرب باعتبارهم كرداً، وأثناء الحرب، لأنهم يشاركون فيها لصالح أعدائهم وضد من سيصبحون أعداء مستقبلين لهم، وبعد الحرب، لأنهم يبقون كرداً في نظر أعدائهم أولاً، وجراء التركة الكبرى من الأوجاع والمآسي والمشاكل لحروبهم هنا وهناك، مشاكلهم مع جيرانهم من القوميات الأخرى: الأرمن، السريان، الجركس وغيرهم، ومشاكلهم مع بني جلدتهم، لأنهم آذروا أعمال قتل لحساب غيرهم، ليكونوا هم تالياً دافعي ثمن الفاتورة، وكونهم فقدوا ثقة بني جلدتهم أنفسهم، وما في ذلك من اتهامات توجه ضدهم.

ومقارنة بين الذين فقدوهم من أهلهم وأناسهم، وما فقدوه أعداؤهم في الحروب المختلفة، تفصح عن رجحان كفة الكرد، وهي لا تكون مبعثاً للراحة، بسبب تتبعاتها الكارثية طبعاً. وجراء هذا التداخلات، يركّز أعداؤهم وخصومهم، على سلبياتهم هذه، ليكونوا بالطريقة هذه رغم مصابهم المطلوبين لا المطالبين. ذلك ما يصل الكرد بطريقة وعيهم لأنفسهم، وكيفية التمييز بينهم وخلافهم، وتلك الحسابات التي تربطهم بالمستقبل.

لا غرابة، أنه في ضوء هذه المآسي والانفجارات المحيطية، أن يكون هناك قسم آخر من الكرد يتشطلون، تعبيراً عن مصالح قومية، أو كردية- كردية، من خلال تنظيمات وجمعيات لهذا الغرض، رغم وجوه العناد والتحدي الكرديين لذلك بينهم أو بجوارهم.

الحراك القاعي

ومن ذلك ما قامت به هفيركان:

(في غضون ذلك كانت هناك حركة مماثلة في هفيركان. إن شعلة الحرية التي لم تنطفئ أبداً بعد سقوط حكومة بوتان الكردية، ازدادت لهيباً. وكان هناك نشاط كبير في قصر علي بطي، إذ كان يجري لقاءات مع قياداته الحربية من جهة، ومع العناصر

الوطنية في هفيركان وغيرهم، من زعماء العشائر في المنطقة. وعمل على إنهاء حالات العداء والثأر المستمر لسنوات، وكان يعلن الصلح بين العشائر المتنازعة. وكان الهدف من كل ذلك وحدة الصفوف وإقامة كردستان مستقلة. وقد نقل المساعي من أجل هذا الهدف إلى خارج هفيركان وعمل من أجل بلورتها ...

في آذار 1919 ذهب إلى سوريا والتقى بحمزة آغا «عشير حجي سليمان» ومع الشيخ محمد زعيم عشيرة طي العربية. وبعد أن حصل على وعد من هؤلاء بدعم الانتفاضة التي سيقوم بها ضد الدولة التركية عاد إلى نصيبين مجدداً. كما أجرى اتصالات مع فرع ديار بكر، الذي يعد من الفروع المهمة لأبرز تنظيم سياسي كردي في ذلك الحين وهو جمعية التّغالي كردستان، وكان يتبادل إرسال الممثلين معهم.

ومن المعروف أنه التقى لنفس الغاية مع عبدالرحمن زعيم عشيرة شيرناخلي «شرنخ»، ومع رمضان زعيم عشيرة صلاحان وجرى في هذه اللقاءات أيضاً بحث موضوع الاحتلال الانكليزي في كردستان، وتفاهما حول موضوع اتخاذ موقف ضده في حال اتساع نطاقه إلى كردستان الشمالية، وقد أشارت مصادر مختلفة إلى ذلك. (ص 97).

لعل الذي ورد في هذا الاقتباس الطويل نسبياً، وقد أورته في عمومته، من أكثر المشاهد سطوعاً وتعبيراً عن تحركات عليكي بطي، ومساعيه التي ترتبط بوحي قومي كردي ناهض، بتلك الكردية التي يطمح إلى تحقيقها الكرد جميعاً، مثلما أن هذه النشاطات كانت تتم في ساحة واسعة جمعت بين «سرختي- بختي» وقتذاك.

وفي كل مقارنة ثقافية للكرد- وقتذاك - لا بد من مكاشفة طبيعة تحركات السياسة الترك، وفي مقدمتهم: مصطفى كمال باشا: المسلم لغاية في نفسه، والحدائي الأوربي إعلماً للأوربي، لكنه المحمل بديناميكية الطورانية بطبعها الأكثر غلواً تاريخياً.

وهذا يتطلب منا الكثير من المكاشفة الميدانية، وآلية العمل في هذا المضمار، وكيف أمكن له أن يتنشط بهذه الكثافة، على صهوة جواده، ومن زعيم عشيرة إلى آخر، وضمناً «عشيرة طي» العربية، أي ما يزيح كابوس الاستعمار التركي أولاً، ويعد ذلك يكون في الإمكان التفاهم حول كيفية التحضير للغد.

يعني أن ما قامت به الحركة في هفيركان، دل على وجود تنظيم اجتماعي وسياسي، وأن لعل عليكي بطي اليد الطولى في ذلك، وفي هذا الجانب، لا يمكن لنا

تجاهل طبيعة تلك الحركة، وفي تلك الفترة، على صعيد الصعوبات، والجهود التي بُذلت من أجل ذلك. والأهم من ذلك هو الوعي السياسي الذي تميز به عليكي بطي، وتلك الخطة التي وضعها مع رجاله أو آغوات الداخل للقيام بهذا العمل الجاد والنضالي في الصميم. طبعاً، لم يكن عليك المنافس الحرّ في مصطفى كمال، بالتأكيد، نظراً لاختلاف المواقع والظروف والقوى المتاحة، مثلما أنه لم يكن المحيطون بعليك هم نظراء من أحاطوا بالأول: كرداً ساعين إلى تحقيق حلمهم القومي، وإلى يومنا هذا، لحظة مقارنة طبيعة أنشطة الكرد «القومية» بما هي مفعلة لدى أعدائهم.

يعني ذلك أيضاً، وهذا هو المؤشر الاجتماعي والسياسي الكردي بعمق، ذلك الارتباط الذي يسهل تخيله وتقديره بين هذه الحركة وجملة الحركات التي قامت إبان ذلك، وذلك التنظيم أو التنسيق الذي أمكن اعتماده في ذلك.

وفي السياق نفسه، حيث تنعدم الاتصالات البرقية، فهذا يمضي بنا إلى الحديث عن أولئك الذين يلعبون دور عناصر اتصال بين جهة وأخرى، عدا الاتصالات المباشرة بين كل من عليكي بطي والذين تمت تسميتهم.

أما بالنسبة إلى عليكي بطي، فإن من السهل، بالمقابل، توقع الكثير من اللقاءات وما تضمنته من حوارات، وحتى مناقشات كذلك، وفي بنية كل ذلك تخيل زعامة كردية هفيركانية بالفعل، تليق ببطي من ناحية، وتخوّله لأن يكون رجل الداخل والخارج كذلك، من ناحية ثانية، إلى جانب أن هذا الزعيم الكردي الذي بالكاد نعثر على اسمه في الأدبيات النضالية، في إطار الحركة الكردية وقتذاك، لأسباب قد تعود إلى كتاب الفترة تلك، أو من كانوا شهود عيان على ذلك، أو ربما لأن الحديث الاستخباراتي قد تركّز على حركات أخرى، في خضم أحداث عاصفة عمّت المنطقة، وهذا يتطلب تصعيداً بالكلام بالمقابل، وهو -ربما- عدم وجود من يمكنه التأريخ لهذه الحركة في هفيران بالذات ومباشرة، ويجد من يدوّن روايته إلى جانب روايات أخرى، لأن الذي أراه في منتهى السهولة، وبناء على تقدير استقصائي لما كان يجري، هو المتعلق بهذا السؤال: من كان يتابع ما كان يجري في عموم كردستان آنذاك؟ ما هي صفته الكشفية أو التحريّاتية، أو الاستطلاعية، أو المعلوماتية كذلك، ليدوّن معلومات دون أخرى؟ ما هي جنسيته الفعلية، وطبيعة مهامه وهو في تنقلاته وتسقطاته لأخبار ما كان يجري؟ أسئلة لا أظنها ببعيدة عما كان يجري، والذي يدفع بنا إلى الآتي، هو أن المنطقة الجغرافية التي شهدت قيام حركات مناهضة للأتراك والفرس وحتى الانكليز

وغيرهم، لم تكن واحدة من ناحية، ليس درجة التوتر تحديداً، وإنما على مستوى الأهمية أو القيمة التي كانت تعطى لمثل هذه المناطق أو الجهات، ولهذا، لا يعود مستغرباً، أن عدم إيلاء حركة عليكي بطي اهتماماً، والتي لا بد أنها شملت لقاءات أخرى مع كل من له علاقة بما كان يجري، من منطلق التنظيم والتشارك في فعل مجابهة مع من ذكرت، حيث إن حركة هفيركان ومن خلال عليكي بطي ورفيق دربه النضالي الشهير شمعون حنا حيدو ورجالآلات آخرين، يجري تصنيفها في الاعتبار، وجهة أهليتها لأن تدوّن، أو تأخذ طريقها إلى الكتاب مباشرة، أو التقرير الأخباري لأحدهم، وهو مكلف بذلك، طبعاً كإجراء مسّحي وسياسي للقوى المتنفذة وذات الصلة المباشرة بمتغيرات الأحداث، ومن هذا القبيل، لم تكن في مستوى بقية الحركات التي قامت في الجهات الأخرى، كما في كل من كردستان الجنوبية وكردستان الشرقية، وهذا منبعثه نوع الاهتمام المركّز بالذات للاستعمار الانكليزي، أو متابعتها الحثيثة أكثر لأي حركة كهذه في تلك المناطق التي ربما كانت مناطق نفوذ لها، وأنها كانت تتابعها عن كثب، وتسجل كل شيء في الحال.

من ذلك، ما ما ورد في نص كتبه الكردولوجي نيكيّتين في «الملحق رقم ١» ويتعلق بالفصل الخامس من كتابه «الكرد»:

(عندما كنت أتبوأ منصب القنصل، كنت أسعى من خلال التوسط بين القيادة العسكرية الروسية والكرد، لأقلل ما وسعني الجهد، من أعباء المحن والمصاعب التي كانت تحل بهؤلاء. وقد ألّفتُ كراسة صغيرة تحتوي على المحادثات اليومية بالكردية والروسية ونشرتها، كما كنت أكافح من أجل التوزيع المتساوي للإمدادات الغذائية بين اللاجئين الكرد والمسيحيين، هادفاً من وراء كل ذلك إلى تسهيل إيجاد حسن التفاهم. وبعد ما تركت «ورمي» في نيسان 1918 ووصلت طهران، كتبت بيانات مفصلة وأرسلتها إلى الأمريكان بشأن الفقر والبؤس الذين «الذين. ملاحظة من ابراهيم محمود» يتخبط فيهما هذا الشعب النبيل الذي بات ضحية للحرب...الخ. ص478).

هذا النص مهم جداً، لأنه حصيلة مشاهدة عيانية مباشرة، ومن رجل متعدد اللغات، ومهتم في الأصل بالتعرف على كل ما كان في محيطه، وما تمكن من الوصول إليه، وتشبيته في كتابه الأثير، وهو ما سيتبين لنا كثيراً، من خلال أصالة تلك الفقرات الحية والفاعلة، بخصوص الفولكلور الكردي وتفصيله بذكاء رجل مطلع وخبير بما كان ينشغل به، ويدوّنه لديه، ومن ثم يجري تحليلاً ومقارنات ونتائج لا غنى عنها، في فصل «الأدب الشعبي».

ومن ذلك أيضاً، مساعيه في تكوين صورة معلوماتية عن الكرد حيثما وجدوا، واعتماداً على تلك الكتابات التي كانت ذات صلة ميدانية، كما يبدو بالمنطقة المعرّضة للمسح الميداني، وعلى سبيل المثال أيضاً، ما يقوله عن «الكرد في سوريا»، ومن خلال تنوع علاقاته:

(استقينا معلوماتنا عن ربع مليون كردي في سوريا من الدراسة الرائعة للمستشرق الفرنسي «بيير روندو» التي ضمّنها كتابه «فرنسا البحر المتوسطية والإفريقية» المنشور عام 1939، ص 81-136)، الذي يكمله في بعض النقاط مؤلف السيدة «فاكا» التي نشرت كتابها باللغة الألمانية عام 1937.

ولم يكن للكرد في سوريا دور سياسي يُذكر خلال فترة الانتداب الفرنسي، رغم أن وجودهم على امتداد الحدود مع تركيا أثار أحياناً بعض المشاكل. ويُقصد التخفيف من المخاوف التركية، أبعدت سلطات الانتداب الفرنسي من سوريا عميد أسرة بدرخان الأمير ثريا الذي كان يعيش هناك. وقد اضطر للانتقال إلى فرنسا وبقي فيها حتى وافته المنية في عام 1938، وقد ظل حتى النهاية وفياً. ملاحظة من إبراهيم محمود «لقضية شعبة الوطنية» شعبه. ملاحظة من إبراهيم محمود». بقي أن نذكر أنه في فترة الانتداب الفرنسي ظهر نشاط ثقافي كردي بفضل إصدار مجلة «هاوار» الكردية وطبعاتها المتعددة ونشاطات محرريها.

لم يتأثر الكرد في سوريا بالحركة الكردية في العراق لأنها كانت تجري في مناطق لم تكن على صلة بهم. وبالمقابل فقد اهتزوا للحوادث التي وقعت في الأناضول، فأرسلوا البرقيات الاحتجاجية إلى عصبة الأمم عام 1937 ضد القمع التركي في «ديرسيم». (ص 317).⁽¹⁾

(1) أنوّه إلى ملاحظة، وهي أن الذي أورده نيكيتين، والذي وافته المنية، كما أسلفت سنة «1960» يتطابق مع الذي أورده جويده نفسه تقريباً، في مصدره المذكور، بصدد دور كرد سوريا في الأحداث التي رافقت الحرب العالمية الأولى، وما بعدها مباشرة، وجويده نشر كتابه بالانكليزية سنة رحيل نيكيتين «1960»، فربما استقى معلوماته هو الآخر من «روندو» مع بعض التوضيح المكاني (على الرغم من مساهمة الكرد السوريين في الحركة القومية الكردية، يجب أن نوضّح أنهم مختلفون في نقطة هامة عن الكرد في تركيا والعراق وبلاد فارس. فسوريا لم تكن فيها مجموعات كردية كبيرة تامة بذاتها مثل تلك البلدان، ولا أي مراكز أساسية للحياة القبلية الكردية وتقاليدها يمكن أن تقارن ببديليس ودياربكر وجزيرة ابن عمر في تركيا، والسليمانية وراوندوز والعمادية في العراق، وسنّه وصاوجبولاق وأورميا

كما قلت آنفاً، ذلك يرجع إلى طبيعة الخطوط القرباية ومساراتها في الرقعة الجغرافية الكردستانية، والتحركات التي مثلت انتقال ساسة الكرد أو زعمائهم أو وجهائهم، حيث إن الأراضي التي يقيم فيها الكرد في سوريا، شكلت من وجهة نظرهم امتداداً لتلك الأراضي التي مثلتها كردستان الشمالية، وكانت تسمى، كما هو معلوم بالملحق بها، أو «الجنوب الصغير» تعبيراً عن الصفة الإلحاقية من جهة، وأن تعبير «بريا ميرديني» وبالكردية «Berya Mêrdînê» إنما يصبُّ في هذا الرافد الجغرافي- الديموغرافي بالذات، إلى جانب أنه ليس اعتباطاً أن يُسمى الكرد، ومنذ مطلع التاريخ الحديث، ربما مع بدء انتشار الرائحة المنفّرة لاتفاقية «سايكس- بيكو» وإعلان التقسيم للمنطقة «سرخت- بنخت» ما يعلو الخط «نسبة إلى كردستان الشمالية، و» ما يلي الخط «نسبة إلى هذا الملحق»، وليكون تعبير «بنخت» جهة التقسيم دالاً على ما هو تضاريسي، حيث القادم من الشمال يسلك مساراً منحدراً، وليس من صفة أخرى لهذه العلاقة، ومن جهة أخرى، لأن الذين قدموا من «سرخت» إلى «بنخت» إنما لم يتركوا أصولاً لهم: أهلاً ومعارف وأصدقاء فحسب، وإنما ذاكرة مكان استمرت في التعبئة والحنين الجغرافي والأهلي رغم بعدهم ونفيهم عن «المكان الأول» ومن الطبيعي إذًا، أن يأتي تركيزهم على جهتهم التي شكّلت «صرة» حياتهم الوجدانية والاعتبارية، كما هي طبيعة الثورات التي قامت بعد ذلك، وحتى في حال جمعية لافته بمحتواها «خويبون»⁽¹⁾ رد فعل على ما كان يجري هناك، في النصف الأول من القرن العشرين،

في بلاد فارس، ولهذا أخفقت كردستان سوريا بتقديم أية شخصية وطنية كردية بمنزلة الشيخ محمود في العراق أو سمكو آغا في بلاد فارس أو الشيخ سعيد في تركيا... (ص 350). ذلك صحيح من ناحية، ومن ناحية أخرى، يجب إضافة توضيح آخر، وهو أن الذين برزوا في سوريا كانوا استمراراً لما كانوا يعيشونه من أحلام وتطلعات كردية «كردستانية» في تركيا، وضمناً الأخوة بدرخان، وحتى الذين نزلوا إلى «برية» ماردین كانوا يحملون آثار طفولتهم من هناك، ويبقى الاستثناء هنا، بعد استقراره في «سوريا» حاجو آغا، كما أشارت إلى ذلك سابقاً، وعليكي بطي كان يعيش الهم الكردي في كردستان تركيا، وربما كان يعيش هذا الهم دون التنويه إلى فعل التقسيم الذي كشف عنه بعد رحيله سنة 1919، وهذا يعني أنه في متن انشغاله بهذا الجانب، كان يعتبر، كما أرى، ما يلي «سرخت» أي «بنخت» امتداداً لهذه الجغرافية.

(1) طبعاً، امتد نشاطها السياسي - الثقافي، حتى نهاية الحرب العالمية الثاني، والتي كانت بمثابة نعي لها، لتدخل كردستان الشمالية في وضعية «الاسم المجهول الممنوع من التسمية كردياً» ويبدأ النضال ثقافي الأقرب تعبيراً عن الذات الجماعية من خلال الذات الفردية، حتى ستينيات القرن العشرين، حيث تبدأ «الولادة الكردية من الخاصرة» بالنسبة لكرد

سوريا، وهي تتمثل في الوليد الكردي السياسي في كردستان الجنوبية، هذه المرة، وتشهد انتكاستها إثر اتفاقية الجزائر المشؤمة لدى الكرد، فيبدأ نزوح من نوع آخر، وهو يتسرب في بعض منه صوب الخاصرة تلك «سوريا» وخصوصاً على وقع الخلاف السوري-العراقي، وبعد اندلاع الحرب ذات الثماني سنوات بين العراق وإيران، لتتصاعد عمليات النزوح الكبرى «المليونية» في 1991، ودون نسيان أن الذي تخلل هذه الحرب في مستهل ثمانينيات القرن الماضي بالمقابل، انتقال أولئك العقائديين الكرد، ممن تشكل باسمهم حزب العمال الكردستاني، إلى جهات «برية» ماردين وقد احتفي بهم ممن كانوا في نسبة منهم ينتمون إلى «سرخ» ويحصل تداخل بين الذين ينتمون إلى «الخاصرة» ومن ينتمون إلى «الصدر»، بالمفهوم الاعتباري، والجغرافي، سوى أن الأهم في التعبير، والجدير بالثبوت، هو أن هذه «البرية» وصعوداً إلى الأبعد، صوب «دمشق» اللاكردية، واحتضنت كرداً بمختلف جهادهم، وهذا له اعتباره التاريخي، هذه البرية، أو روجآفا، أو «الجنوب الصغير» أو «الملحق بكرديستان تركيا»... الخ، شكّلت، وربما إلى هذا اليوم، المتنفس الأكبر لكرد الجهتين شمالاً وجنوباً، وما بذلته من احتضان واهتمام وتركيز أنظار كردي، لا يمكن إغفاله، أو التقليل من وزن حملته التاريخية والرمزية، أي الحاضنة لكل «انفجار» قاعدي هنا وهناك، وتحمل الصدمة، ومن ثم انتظار اللحظة التي تعود فيها الأمور إلى نصابها الطبيعي نسبياً.

طبعاً، ما يجري اليوم في «روجآفا» جهة التصريف الكردي استثنائي، ويتجه نحو مآل مجهول متخوّف منه كثيراً، بعد نزوح الكرد بمئات ألوفهم، وهم من أهل المكان، ليس هرباً من النظام حرفياً، إنما من المكان الذي ضيق عليهم الخناق كردياً، وهو بحث آخر، وفي مكان آخر، وإلى إشعار آخر، ربما خارج هذا الكتاب..

ومن باب التوثيق هنا، أشير إلى ما أورده الأكاديمي الفرنسي إميل بوفيه Emile Bouvier. في مقاله:

الكرد في سوريا: متحررون سياسياً، متحالفون جغرافياً. سياسة قمعية سوى أنها غير قابلة للقمع

LES KURDES EN SYRIE: POLITIQUEMENT DÉSUNIS, GÉOPOLITIQUEMENT ALLIÉS , UNE POLITISATION RÉPRIMÉE MAIS IRRÉPRESSIBLE

فلاحون كُرد. تصوير تشارلز لاليمان (1826-1904) في «سوريا، الأزياء، السفر والمناظر الطبيعية» 1865. مجموعة خاصة.

أي ما يرجع إلى مطلع القرن العشرين (فقد أثّرت فكرة منح الكرد دولتهم الخاصة عدة مرات خلال الحرب العالمية الأولى وتم تحقيقها تقريباً في فترة ما بين الحربين عندما تم التوقيع على معاهدة سيفر (10 آب 1920). ومع ذلك، عارض المؤسس التركي مصطفى كمال أتاتورك بشدة هذه الفكرة في مستهل عشرينيات القرن العشرين، بالتزامن مع بريطانيا، والتي كانت تجابه من أجل إنهاء العديد من الثورات الكردية في العراق. وستضع معاهدة لوزان (24 تموز 1923) حداً نهائياً لآمال الكرد في الحصول على دولة مستقلة بتأثير من المؤسسات الدولية.

ومن ثم ليركزوا شيئاً فشيئاً على المكان الجديد «البرية» التي بدأت تشهد نزوحاً تسلسلياً غير منتظم، تبعاً لطبيعة المستجدات، للسكان، ومن جنسيات مختلفة، بوصفه الحاضن لهم، والمذكر لهم بجوارهم المغتصب.

وهذا ما أشار إليه نيكيتين، حيث إن اهتمام الكرد بجهاثهم الجغرافية، كما هو مستقرّاً في خريطة التوضع السكاني الكردية، كان يتبع نوعية الصّلات التي تسمّي بؤرة انتقالاتهم الأولى. فکرد الجنوب، كانوا يتحركون كثيراً صوب كردستان الشرقية، لعلاقات سكانية، وانفتاح لبعضهم على البعض الآخر، حتى غيّرت بنية السياسة ورياحها العاصفة لا بل وزوايعها مسار تحركات الكرد، ونوعية الصّلات بين ما بات يُسمى «المركز» والتابع أو التابع، تبعاً للبعد السياسي النوعي «كردستان الجنوبية، في العراق» في النصف الثاني من القرن العشرين، ومن ثم حصول تباينات في العلاقات والتجاذبات بين الجنوب والشمال، بالمفهوم السياسي الكردي، في ثمانينيات القرن العشرين وفيما بعد، وفي الوقت نفسه، ليحصل تدافع جهوي، وتجاذب سياسي، وحتى تنازع إيديولوجي، من خلال استقطابات قاعدية ورهانات سياسية وغيرها بالنسبة لكرد «الجنوب الصغير» أو ما بات يُسمى في العرف السياسي الكردي هناك، وفيما بعد بـ «روجآفا كردستان» تأكيداً للوزن السياسي المتنامي له، رغم أنه من حيث التقدير، لم يتفعل، في الحد الأدنى كما يجب، ويكتسب تلك الصفة الجهادية «المكانية» وكيفية إدارة هذا النشاط الجهوي من ثيل المعنيين به، حتى الآن، ولعل أهم مفصل حركي أسهم في تدشين مثل هذه الاستقلالية، والسعي إلى إبرازها قضية جهوية خاصة مستقلة عما عداها، كان في ثلاثينيات القرن الماضي، وحتى ما قبل هذا التاريخ، مع «حاجو آغا» كما تطرقنا إلى ذلك في الكتاب الذي يحمل اسمه.

لقد وجد الكرد أنفسهم في تلك المنطقة التي احتوتها تركيا، وفيها تاريخهم المديد، وامتدادهم الجغرافي المؤثر.

ومن هناك أيضاً «من آمد إلى هكاري» وضعت مخططات عثمانية- تركية، وتحضيراً للزمن التركي القادم، لما بعد الحرب العالمية الأولى، وعن طريق التسلسل، للتخلص النهائي من الأرمن فالآشوريين وتالياً الكرد، لتبقى في الحالة هذه «تركيا

وقد عاش الكرد في سوريا، من جانبهم، تحت ولاية التفويض الممنوح لفرنسا من قبل عصبة الأمم (SDN) في 28 حزيران 1919.

حينها كانت حركة عليكي بطي مشتعلة، كما أشير إلى ذلك.

للأتراك» وهي مقولة شعارية رددت تأكيداً على وجود من لم يكونوا أتراكاً أبداً، إنما كانوا هناك قبل أن يروها العثمانيون بأمر أعينهم، كما في حال الكرد حيث كانوا المعنيين الأول بذلك، على خلفية من حضورهم المكثف، وفشلت مخططاتهم، رغم نجاح دعاياتهم المعتادة لتأليب الشعوب التي تعرضت للتتكيل العثماني- التركي، إلى بضعة عقود من الزمن، بعد الكشف عن «سوأتههم: عورتهم» العنصرية البغيضة».

كما نقرأ هنا:

(لم تكن الإبادة الجماعية التي ارتكبتها الامبراطورية العثمانية وهي على حافة الانهيار موجهة ضد الأقليات المسيحية وحدها «طبعاً هي لم تكن أقليات في بنيتها، إنما سميت هكذا، لتقليل حجم الخسائر الكارثية التي تعرضت لهم على أيدي العثمانيين، فالأتراك. ملاحظة من ابراهيم محمود». لقد خطط مرتكب هذه الأعمال الوحشية التي لا مثيل لها، وأثارت اشمئزاز العالم المتمدن بأسره، توجيه ضربتهم إلى الكرد وبطريقة خبيثة للغاية. لقد حاولت السلطات العثمانية مرات عديدة تأليب الزعماء الكرد ضد الأرمن والسريان والتتكيل بهم بأيد غريبة. الأمر الذي نجحت فيه في حالات عديدة من جهة، واعتزمت ستانبول من جهة أخرى على إظهار الكرد في أنظار الرأي العام الاجتماعي الاجتماعي بأنهم المذنبون الوحيدون في المذبحة الفظيعة وبالتالي التشهير بالحركة الكردية الوطنية وإلى الأبد.) لعل خير مثال على امتداد هذا النوع من التعامل البوليسي، بله، الاستخباراتي التركي، على طريقة «حليمة لازالت على عاداتها القديمة» هو ما تعتمده تركيا الدولة الاستخباراتية الأكثر تمثيلاً للعنف الدموي حديثاً، في سياساتها التصفوية ضد الكرد في المناطق التي يعيش فيها الكرد في الامتداد الحدودي لها، من «ديركا حمكو» إلى «عفرين» وكيف أنها توجه مرتزقتها ممن يُسمون بـ «الجيش الوطني السوري الحر، ونسبة كبيرة منهم، تركمانها» إلى هذه المناطق واستعمال مختلف أساليب العنف والقتل والتتكيل والطرْد والاختطاف والابتزاز المال وهتك الأعراض كذلك، إلى جانب محاولة محو أي معلّم كردي هناك، كما كانت تصرف أتاتوركياً قبل قرن من الآن «ما أشبه اليوم بالأمس» والقيام بتفجيرات «التفجير الأخير والمروع كان في قلب عفرين، في 28 نيسان 2020، شاهد عيان صارخ على ذلك»، حيث نزح عنها ثلاثة أرباع سكانها، جرّاء هذا العنف، لتجد في الحال من سمّته إرهابياً، ربما كانت تسمي سلفه في الخمس الأول من القرن العشرين هكذا، أو بصيغة موازية، ليس لأنه هكذا، وإنما لتسهيل عملية تحميله وزر مسؤولية كل عملية تفجير أو تتكيل أو قتل جماعية على هذه الشاكلة، رغم أنها عبر

أجهزة استخباراتها، وجنودها وآلياتها العسكرية، ومرترقتها «السوريين» ترصد كل حركة في المناطق التي تسيطر عليها، وضماً شطراً من ادلب وجوارها، حيث تجهز كل شيء مباشرة «أي اتهام حزب العمال الكردستاني بذلك» وهذا بحث آخر، إنما ما له صلة بتلك السياسات الاستتصالية التي لم تتغير لدى ساسة الأتراك إلى اللحظة، وحين تستشعر غباء تصريحاتها أو افتضاها جرأ ذلك، تقدم تفسيراً آخر، تعبيراً عن طغيانها التاريخي.

لعبة شد الكذب

ولنتابع ما بدأنا به، تعزيزاً لهذه الفكرة:

(كان ذلك أكذوبة فاضحة واستفزازاً مكشوفاً. فالقوات التركية النظامية والجهاز الإداري - البوليسي المحلي هما المنفذان الرئيسان لمذابح الأرمن والآشوريين ولم يكن للكرد ضلع في المذبحة سوى في حالات فردية. لكن ثمة وقائع كثيرة تشهد على تضامن الكرد والأرمن أمام خطر المجازر التركية، فقد وجد عدد كبير من الأرمن الملاح والمأوى عند الكرد، في ديرسم مثلاً، اختفى عن أنظار الأتراك نحو 20 ألف أرمني بين الكرد، وفي وقت كان الكرد يعانون فيه من الجوع راحوا يتقاسمون ما لديهم من الطعام مع الأرمن...)

وسرعان ما اقتنعت السلطات التركية بأن الكرد لا يصلحون في أن يكونوا مساعدين لها في سياسة إبادة الأرمن. وحينذاك راح الحكام الأتراك يعدون للكرد مصيراً مماثلاً لمصير الأرمن...⁽¹⁾.

(1) لازاريف، م. س، وآخرون: تاريخ كردستان، المصدر المذكور، ص 179-180. في هذا السياق نفسه، وبخصوص الحديث عن فرمانات ذات الصلة بإبادة شعب أو جماعة بشرية معينة، لا يمكن نسيان ما تعرض له الإيزيديون من ضيم، حيث إن تعرضهم للعنف الجماعي، والدموي، والمذهبي، يستغرق تاريخاً طويلاً، وفي مسعى لكي ينسوا أنهم إيزيديون، وهذا عنف من نوع آخر. حول ذلك، ثمة ما تنشره الباحثة الكردية أصليخان يلدرم في كتابها السالف ذكره، ما يجسد مأساة كهذه، وتحت عنوان فرعي لافت، وهو: «الحدود المشؤومة: الماء الأسود»، فنقرأ التالي:

لبلباسه الأبيض، والأخايد التي تغطي يده ووجهه وأساوره المباركة. وعبر الانسحاب على مدى مئات السنين، وفي حياة خفية، حافظ على حكاياته، إلا أن أبطال هذه الحكاية، مهما كان انسحابهم إلى الجبال أيضاً، سوى أنهم لم يكونوا بعيدين عنا، بقدر ما كانوا يعيشون في

وسطنا بخصوصياتهم، وللأسف، فإنه لم يرغب أحد لا أن يتعرف إليهم، ولا على خصوصياتهم. لهذا كان هؤلاء إيزيديين. حيث كان اسم ديانتهم بين المسلمين محظوراً، ولما يزالوا حتى الآن يحافظون على معتقداتهم هذه.

هذا ينطبق بصورة غالبية على إيزيديي قرص، إدر وأكري، إذ إنهم جرّاء هذا الموقف لا يستطيعون إظهار ديانتهم إلى العلن، لهذا تعرضوا للكثير من المذابح الكبرى.

إبان المذابح كانوا يريدون الهرب عبر الماء الأسود، والنجاة بأنفسهم، إنما للأسف، إذ تبعاً لما يقوله أجدادنا، يتعرض الكثير منهم إلى القتل وسط الماء الأسود. لهذا، فإن الماء الأسود في تاريخ إيزيديي يريفان وروسيا له خصوصية كبرى. حيث إن الماء الأسود يحيل الإيزيديين إلى قسمين: ويصبح فيما بينهم كحدود مشؤومة.

الماء الأسود، يقع ما بين مدينة قارص، وبلدة ديگور وحدود روسيا وأرمينيا، إنه نهر رفيع، وهو أسود في الواقع. ففي اللحظة التي يمد المرء يده إليه، يكون الماء أبيض، وعندما يجري، وجرّاء مذابح مئات السنين، وآلامه وأوجاعه، يتخذ النهر لوناً أسود.

الإيزيديون الذين لم يستطيعوا الهرب إلى أرمينيا وروسيا زمن المذبحة، مكثوا في قرص، وانقطع أثرهم. ألف أسف إذ كانوا قد تنكروا لدينهم، وبسبب الخوف من كلمة «نحن مسلمون» كان هذا الموقف من أجلهم مفاجئاً إلى حد كبير. بعدها، وقعت عائلات الإيزيديين بالجملة تحت تأثير المسلمين وذاقوا الويل. وللمرة الثانية لم يتهجوا اسم «الديانة الإيزيدية»، وربّوا أطفالهم بعيداً عن الإيزيدية. إذ إنهم عايشوا المذبحة ولم يريدوا أن يتعرض أطفالهم للقتل. لهذا السبب فقد أخفوا دينهم فيما بينهم.

لم يقولوا صراحة «نحن إيزيديون»، ولا قالوا عن قناعة «نحن مسلمون». بالنسبة لإيزيديي قرص الذي بقوا على أرضهم، صمتوا، وأخفوا حقيقتهم حتى عن أنفسهم، ولم يفصحوا عنها البتة، سوى أنهم لم يتخلوا أبداً عن مآثورات دينهم. وهي التي تنوّعت من وراء الأبواب المغلقة حتى اليوم، وخصوصاً في قرص، إيدر وأكري، إذ يمكن القول أنه في بيت كل كردي توجد أو منحوتات لطائر الطاووس، وهذا ملموس في بيوت أخرى أيضاً، بالنسبة لمصحف ره ش، إنما يجري إخفاؤه، أما فيما يتعلق بأسماء مثل ملك طاووس، مصحف ره ش وجبال كولي، فهي تتكرر في الدعاء سلباً وإيجاباً بشكل يومي.

ما كنا نعرف قصة ديننا، وبداية، أننا ما كنا نعرف ديننا أيضاً، إذ إن كبارنا كانوا يقولون لنا «نحن مسلمون»، سوى أنهم لم يكونوا يطلبون منا أداء الفرائض الإسلامية، ولا أن نعيش كمسلمين.

ما كنا نعرف ديننا، ما هي الإيزيدية. لكن القصص التي كانت تُبث من خلال إذاعة صوت يريفان، كانت تلفت انتباهنا، رغم أنني لم أكن أفهم الكثير من الكلمات المسموعة، سوى أن إيقاع الصوت إلى جانب أغاني عيشه شان كانا يؤنسائي، وما كنت أفارق الإذاعة حتى نهاية البرنامج. إن ذلك الصوت إلى جانب الأغاني، مازالاً يترددان في محيط أذني.

بالنسبة لكبارنا، فإنهم عندما كانوا يصغون إلى إذاعة يريفان، ما كان أحد يستطيع القيام ولو بحركة واحدة، وكان السكون يغطي المكان حتى نهاية البرنامج، وبالطريقة هذه كانت الساعة المخصصة تنصرم.

وفي سنوات 90، خرجت هذه القصة من وراء الأبواب، ومن ثم ترددت حتى من قبل أطفال الكُرد كذلك، لكن عندما كانت تقال بالمقابل، فإنها كانت تسرد كحكاية دين غريب. وحتى الآن لا يستطيع أي كان، ولا بأي شكل القول بـ «نحن إيزيدية»، وآباؤنا وأجدادنا إيزيديون. ص 375.

وللتعمق في هذا الجانب، أي على حقيقة مجريات الأحداث في الحرب العالمية الأولى، أحيل على قراءة ما كتبه اسماعيل بشكجي في مقاله: ماردين مدينة حزينة إسماعيل بشكجي: ماردين: مدينة حزينة

Mardin: Hüzünlü Kent, www.nerinaazad.org

في «8-6/ 2015» وهو عبارة عن قراءة في كتاب المطران حنا دولين «ماردين في التاريخ» والمترجم إلى التركية عن الانكليزية، وهناك معلومات مهمة جداً في الكتاب إلى جانب إضاءات بشكجي، من ذلك:

(في مكان ما من الكتاب، هناك بيان حول ثلاثينيات القرن التاسع عشر. وفي الوقت نفسه، كانت المدينة تتكون من 3643 أسرة. 1816 أسرة مسلمة، 1809 أسرة مسيحية و 18 أسرة يهودية. (الطبعة الثانية، ص 97).

وما يخص النقطة الأكثر سخونة، والتي تثار إلى يومنا هذا، بصدد «السلع الأرمنية والسريانية والإيزيدية»:

(كان أحد الأسباب المهمة للإبادة الجماعية لعام 1915 هو مصادرة ثروة الأرمن والآشوريين. ومصادرة ممتلكات الأرمن والآشوريين والإيزيدية الذين قتلوا وشردوا من ديارهم في ظل إرهاب الدولة وخضاعهم لسيطرة التاجر التركي المسلم. كانت سياسة مهمة للغاية من قبل لجنة الاتحاد والتقدم، ومن ثم الجمهورية. وربما انضم الكرد المنخرطون في إثارة الإبادة الجماعية إلى هذه الفئات. أنا لست في رأي أن الدولة تعطي القبائل الكردية، حتى لو كانت متعاونة، من هذه السلع التي تجرى لمسها.

لماذا؟

لأن سياسة الدولة الأساسية تجاه الكرد تجلّت في صهرهم. إن منع الكرد من الثراء، حتى لو كانوا متعاونين مع أوغون، هي سياسة تتبعها الدولة دائماً. لأنه، في ذلك اليوم، قد تصبح الأجيال القادمة من مطلق النار والأسر التعاونة مدركة لجذورها وتطلب حريتهم. وللتوضيح أكثر:

على سبيل المثال، في السنوات الثلاثين الأخيرة من حرب الكريلا، لوحظ أن أطفال العائلات التي انفصلت تماماً عن كردستان واستقروا في مدن مثل بورصة، مانيسا، جاناكالي، وأيدين انضموا إلى الكريلا. في هذا الصدد، من المرجح أكثر أن تتبرع الدولة بممتلكات غير منقولة من الأرمن والآشوريين والإيزيديين للعائلات التركية التركمانية القادمة من القوقاز والبلقان. هذه، بالطبع، أفعال عثمانية في المنطقة، كيف تم نقل الممتلكات، تم فحصها بالفعل. خلال الفترة العثمانية، يتم فحص موضوعات مثل من أنقذ عقاراً مسجلاً على الأرمن اليوم بالتفصيل. في رأيي، سيتم إجراء هذا والتحقيقات الماثلة. لقد بدأ القيام به. هذه العملية، ستستمر عملية البحث والتحقيق في السنوات المقبلة، وتكثيفها وتوسيعها.)

وتأكيداً على التفاوت في الاهتمامات، نجد كيف تم التركيز على مناطق دون أخرى، من المنظور الاستراتيجي، ليبقى ما يقوم الكرد حينذاك في «تركيا» وحيث كان هناك نسبة ملحوظة تقابل مع الأتراك تحت التأثير الديني، كما سيتضح تالياً، في التعتيم التركي الداخلي. ويقدم جويده أمثلة حية حول ذلك، وعلى سبيل المثال: نشاطات سمو آغا «صص 341 - 348» والفصل التاسع والمهم من كتابه «الاضطرابات في إقليمي الموصل وأربيل من أقاليم كردستان العراقية بعد الحرب العالمية الأولى. صص 355-383» والفصل الأهم في هذا المضمون، وهو العاشر «الشيخ محمود وصعود الاتحاد الكردي الجنوبي في كردستان وسقوطه بعد الحرب العالمية الأولى. صص 385-442» والفصل الحادي عشر «التمرد الثاني للشيخ محمود. صص 443-480... الخ.

التباسات وتداخلات، حالات مد وجزر في بنية العلاقات الكردية آنذاك، لكن الملموس، هو هذا التوق إلى وضع جديد، يُعمل من أجله، حيث إن التحركات التي شهدتها المناطق المجاورة لـ «بنخت» منحت «سرخ» ذلك الاعتبار الجغرافي-السياسي، وبدأت بتأهليه لأن يكون قاعدة مصغرة لانطلاقات سياسية كردية، تتراوح

وهي إشارة تاريخية لمحة من مفكرنا بشكجي، وردّ على مزاعم تركية، بوضع الكرد في واجهة الاتهامات في هذا الجانب.

ومن باب التوضيح، فإن بشكجي هنا أكثر تمييزاً لموقفه، مما تبين في كتابات سابقة، بخصوص هذه النقطة الحساسة، حيث أشرك كرداً في عملية القتل وسلب أموال الأرمن والسرّيان وممتلكاتهم. كما في كتابه «الدولة والكرد: اللغة، الهوية، القومية، الوطنية»، ترجمه عن الكردية وقدم له وعلق عليه: إبراهيم محمود، مركز بشكجي للدراسات الإنسانية، دهوك، 2017، م2، ص244، وفي ندوة السرّيان المنعقدة في 23 آذار 2012، بستانبول، ونص كلمته حول ذلك، هو... وحيث إن مصدر ثراء الأغنياء من الأتراك اليوم يتمثل في أموال الأرمن والروم وممتلكاتهم، وكذلك الحال، مع مصدر ثراء الآغوات ورؤساء العشائر والشيوخ الكرد، فهو يرجع إلى أموال الأرمن والسرّيان وممتلكاتهم. ص 244»

ينظر في كتابه، باللغة التركية:

Devlet ve Kürtler «Dil, kimlik, millet, milliyetçilik» Ismail Beşikci vakfı, İstanbul, 2013, s:358.

ومناقشتي لفكرته هذه، في كتابي: الدرع الواقي «اسماعيل بشكجي، وكتابة القضية الكردية: دراسة في سلوك وفكر رجل في العاصفة» من إصدارات جامعة دهوك، مركز بشكجي للدراسات أفنسانية، دهوك، 2017، صص 199-200... الخ

والقضية لازالت ساخنة إلى هذه اللحظة !

بين الحنين الطفولي إلى الشمال، ورائحة «مسقط الرأس» والتوق إلى عنفوان الصبا فالشباب، ومن ثم إقامة نوع من الفصل الإجرائي تجنباً للاختلاط المزد للصداع، عبر التركيز على المكان نفسه كخصوصية قائمة بذاتها، ودون تجاهل أن «سرخ» جغرافياً وسياسياً، منحت «بنخت» طاقة النفخ في جمر التاريخ الذي أريد له أن يخدم سريعاً من قبل سادة الاتحاد والترقي، وهنا يُذكر حاجو في الواجهة.

يقول جويده في هذا الصدد، توضيحاً لخط تحركات بطي وقتذاك (في هذا الوقت تقريباً، قيل إن علي بطي، رئيس قبيلة هافركان «زعيم هفيركان، في الأصل، تنويه من إبراهيم محمود»، التقى مع عبدالحمن، رئيس قبيلة شرخ، ورمضان رئيس قبيلة صالحان، وتوصل هؤلاء القادة الكرد الثلاثة إلى اتفاق على مقاومة التقدم البريطاني التالي. وكانت ثمة تقارير عن أنه تم الاتصال برؤساء قبائل آخرين لهذا الغرض).⁽¹⁾

علينا أن نتخيل طبيعة العلاقات التي كانت تتم، وصفة التراسل بين الأطراف المعنية، وتلك الأساليب التي كانت تُعتمد في الأوساط الشعبية، بالتوازي مع الدعاية المضادة التي كانت، هي الأخرى، تتمثل في قوى الضغط السياسية الكبرى في المنطقة: ثمة الإنكليز، الفرنسيون، الألمان، إلى جانب الدعاية التي اعتمدها الأتاتوركيون ومن كانوا في ركابهم من الكرد وغير الكرد، ووسط هذه المصاعب، كما هي ممرات «الخُلْد: الحيوان الجرابي» طبعاً، لنا أن نتخيل تلك المؤثرات التي كانت توجهها الجهات السياسية الكردية في دعاياتها، إلى جانب تحركاتها التي أحيطت بالسرية التامة، قدر استطاعتها، نظراً إلى الأعين الراصدة لما كان يجري، وسط المخاضات التي كانت المنطقة تعيشها، تهيئة لولادات من نوع آخر، بعلاماتها الفارقة سياسياً، تحت إشراف القوى المتنفذة، والرهانات التي تثير نزاعات جانبية فيما بينها حول مستقبل يمتد إلى الأمام، ولا زلنا محكومين بأنوائه وأدوائه، وبغية توضيح هذه النقاط المتشابهة، هناك بعض الوثائق وما يصلها ببعضها بعضاً:

(كُتب التالي في الوثيقة المؤرخة في 21 آذار 1919 ومن القسم الثالث، والمرسلة من بغداد إلى النيابة العليا في ستانبول: لقد أرسل عبد الرحمن آغا زعيم كرد شرخ

(1) جويده، وديع: في مصدره المذكور، ص 331. وهذا القول، والذي لم يتأكد من دقته، من خلال تعبير «قيل» أي دون إسناد روائي محل ثقة تاريخياً، يذكرنا بما أورده جبو، في الصفحة المذكورة، أي 97، حيث يختلف المصدر الذي أخذ منه القول لدى كل منهما، لدى جويده، من درايفر، في «كردستان والكرد» ولدى جبو، في صحيفة تركية، كما ورد الاسم في هامش الصفحة.

والتي تقع شمال شرق الجزيرة، قد أرسل رسالة حامية إلى زعماء الكرد في مناطقنا ضد الإنكليز. والرسالة تظهر أن ثمة تأييداً لهذه الحركة من جهة ستانبول، دون توضيح الاسم. تُرى هل يمكن تعقّب منظمي الحركة «من هم في ستانبول، في الملاحظة المترجمة»؟).

كذلك (في الوثيقة المؤرخة في 26 آذار نقرأ التالي (الأسماء المشاركة في النشاط المتعلق باستقلال كردستان في ستانبول، والمعروفة، هي: سيد عبدالقادر، سيد طه، د. عبدالله جودت، وسليمان نظيف «والي الموصل سابقاً».

وفي ستانبول يتم تمثيل بدرخان بقوة، والذين وردت أسماءهم آنفاً كانوا داخلين في علاقة حميمة، ويُرفع في التقرير أن له علاقات قوية مع ماردين وديار بكر وبطريقة قوية أيضاً عبر البرقية.

ولقد أسس كرد ديار بكر المعروفون هيئة قوية لدعم النشاط، وبالمقابل جرى تأسيس هيئة مماثلة في ماردين، وهذا النشاط يتم تأييده حتى من مصر واسم ثريا بك ابن بدرخان في الواجهة).

وثمة توضيح لا بد من ذكره («النائب الأعلى» في ستانبول في 7 نيسان، أعلن أن الحكومة التركية لكي تثبت النظام، أرسل ابن سيد عبدالقادر رئيس مجلس الأعيان التركي لكي يذهب إلى نصيبين أولاً ولاحقاً أيضاً إلى زاخو، أرسلته إلى المنطقة، والقيادة العامة لميزوبوتاميا للإنكليز أيضاً، كون المنطقة خارج نطاق سيطرتهم، تطلب من النائب بالضغط على الحكومة التركية من أجل التهدئة).

ثم (في الوثيقة المؤرخة في 8 نيسان والمرسلة من بغداد بصورة «عاجل» جاء ما يلي) على مدى أسابيع ثلاثة ونحن نعيش مناخ إشعال نار الفتن والأنشطة الموجهة إلى الإنكليز والمسيحيين في مناطق العشائر الكردية في شرق ولاية الموصل، حيث تم الإمساك بتقارير، مركزها: الجزيرة، وجاء فيها بلزوم معاقبة هؤلاء.

وقد جاء في الوثيقة السريّة والمؤرخة في 9 نيسان 1919 والمرسلة من القيادة العامة لميزوبوتاميا إلى النيابة العليا في ستانبول: (إن ممثلي اللجنة القومية الكردية ورئيسها سيد عبدالقادر والدكتور عبدالله جودت في وثيقة مكتوبة لهم لترد العشيرة على السلطة الإنكليزية والمطالبة باستقلالهم تحت الحماية التركية، وحوالي 25 آذار لكي يتوجهوا إلى السليمانية يعبرون الموصل «...»، أقترح بصورة عاجلة بإبعاد عبدالقادر وعبدالله جودت من ستانبول).

وما ينير صفحة وثيقة أخرى (تعلمنا وثيقة قادمة من الجزيرة، أن القائمقام قد خرج من الجزيرة، وبقي بعض الأشخاص ليذهبوا بدورهم، وثمة ما يشير إلى قرب وقوع الفتنة والتحريض على قتل المسيحيين في الجزيرة والمناطق المحيطة بها، ويجول على العشائر الكردية، ويحفّزهم باعتبار أن الحكومة الكردية الوشيكة على البناء تدخل مدينة الجزيرة. ومن جهتي فقد تلقيت رسالة من ناحية هزخ المسيحية والتي تقع غرب الجزيرة وفيها مسلحون حيث وقفوا في مواجهة الكرد والترك، وقد أوضحوا فيها أنهم لا يستطيعون الصمود أمام العشائر، ويتضح أن عبدالرحمن آغا شرخ، له تأثير كبير على العشائر المحيطة بها وهو يقف وراء الموضوع المشتعل في منطقة زاخو الواقعة شمال شرق الجزيرة، وأن المتنفذين يساندونه).

تالياً (في الوثيقة المؤرخة في 9 نيسان 1919، في القسم الثالث والمكتوبة في بغداد، والمرسلة إلى القاهرة، ستانبول، سيملا وطهران، يعلن فيها التالي:

- ثمة فتن تحاك ضد الإنكليز بين العشائر المقيمة شرق ديار بكر.
- الأنشطة تخص عامل البرقية ولائحة الموظفين في ماردين وديار بكر.
- عن طريق المنشورات تتم الأنشطة المسماة.
- إن عملاءهم نشطاء جداً في: حلب، نصيبين، الجزيرة، الموصل، زيا «الكبير» وفي أمكنة أخرى، يجري العمل.
- لقد أثمر النشاط كثيراً من ناحية التحرر، عبر مطلب النشاط، في حلب، ميدياد، هزخ، كويان، من جهة شمال زاخو، وفي الأمكنة التي تثير مشاكل جهة الشرق، وهذا يدخل في نطاق التحالف الكردي ضد المسيحيين.
- هذا النشاط ومنذ الآن كان سبباً لموت مبعوث انكليزي وفي حالة عدم ضمان عودة السريان المهاجرين.
- إذا تم الاهتمام بالمراكز العامة، فسوف تفشل الحركة كاملة، لكن إذا كان التقدم ساري المفعول بالطريقة هذه، فربما يتمكن النشاط من الاستمرار في الأيام المقبلة حتى دون الاعتماد على المركز العام.

في الوثيقة المؤرخة في 15 نيسان 1919 كتب التالي: (لوحظ أنه قد تأسس بعض الجمعيات الضعيفة والمعادية للانكليز. زعيم هفيركان علي بطي، وزعيم شرخ عبدالرحمن، وزعيم صلاهبي رمضان قد التقوا معاً، وتحالفوا فيما بينهم ضد

الانكليز، وبالمقابل، فإنه قد تشكلت جمعية سويركي، حيث إن عشيرة قره كجيان وفيها «12» ألف خيال مسلح، وبوجاغ وعشائر مرتفعات هاشيني تضمها إليها...الخ⁽¹⁾.

...الخ.

هذه المعلومات الوثائقية، والتي تسمي مرجعياتها الإنكليزية، تظهر في غاية الأهمية، لا بل والخطورة، بما أنها :

من ناحية، تفصح عن مدى اهتمام الاستخبارات الإنكليزية بما كان يدور في تلك المنطقة «إن ضابطها نوئيل، لا ينبغي أن ينسى ما قام به في جولته الاستطلاعية في المنطقة»، حرصاً على مصالحها .

ومن ناحية أخرى، تبين مدى التركيز على الكرد أكثر من أي مجموعة اشيية أخرى، ولا بد أن ذلك جاء انطلاقاً من الحضور الجغرافي- الديموغرافي لهم أولاً، وسعيهم الحثيث إلى الحصول على كيان سياسي باسمهم.

ومن ناحية ثالثة، تترجم السلوك العملي الدقيق للانكليز في المنطقة أكثر من الفرنسيين، وبما لا يقاس، تأكيداً على التواصل ومن ثم التفاعل الوجداني والقومي بالذات بين الكرد وهم موزعون في مساحات شاسعة.

ومن ناحية رابعة، لا ينسى ما لصفة الانتفاضات الكردية وثوراتها وحركات التمرد لها، من تداعيات، ومن تفعيل مؤثرات ودوبها، كما هي الهزة الأرضية، وبشكل متواصل، دون أي اشيية أخرى، ولها كانت تتابع ما يجري عن كثب، وبشكل يومي، ولا بد أن هناك أطقماً استخبارية كانت تتولى هذه المهام هنا وهناك.

ويكون الحديث عن ضعف موقع القوة للحركة في هفيركان، ربما نسبة إلى الجهة بالذات، وكونها في الداخل، عدا عن وجود قوات تركية، من جيوش وأسلحة واستخبارات رابضة في المنطقة اطمأنت إليها نوعاً ما .

(1) Yildirim , Eslıxan:Di sedsala 20an de Kurdistan û sînor, weşana Azad, Istanbul, ç1, 2013, rr: 114-116.

في الترجمة العربية، والتي قمت بها، المصدر المذكور، صص136-138، وأنوه إلى أنني نقحت بعض الكلمات في النص المترجم.

وهذه الوثائق، نقلتها المؤلفة يلدرم، عن كتاب أحمد مسعود: كردستان في الوثائق الإنكليزية «1918-1958»، وهو مهم جداً، كما يظهر من محتويات الاقتباسات التي نقلناها عن كتاب يلدرم.

ورغم ذلك، يظهر، وكما أرتنا الوثائق المنقولة، عن الدفع باسم عليكي بطي إلى خانة العمالة لهذا الطرف أو ذاك، وهو تقليد استعماري عريق، استتبع كثيراً في الأدبيات الكردية السياسية جهة تبادل الاتهامات فيما بينها، نظراً للأثر الكبير لمثل هذه التهمة والتركيز عليها في الأوساط الشعبية خاصة، نظراً لبساطة وعيها.

يكتب جبو:

(يتحدث كبار المسؤولين الأتراك، والمصادر الرسمية، وحتى المؤرخين الأتراك في الوقت الحاضر عن انتفاضة علي بطي بأنها مدعومة تماماً من الإنكليز، وأنها حركة كانت تخدم مصالح الإنكليز. وينقل مالميسانز عن أحد المسؤولين العسكريين الأتراك، وهو قائد الفرقة 13 البكباشي «المقدم» خالد اكمانصو بك، والذي عمل على إيقاف نشاطات جمعية التعالي كردستان في ديار بكر عام 1919، قوله في خطاب ألقاه في بناية البلدية:

«بعد ماردين ومدياد «مدياد» جاء المقدم نوئيل إلى ديار بكر دون أن يلقي القبض عليه، ثم ذهب إلى حلب. إن مؤيدي الحركة القومية الكردية أقاموا علاقات حميمة مع هذا الأجنبي، وقاموا بزيارته. ومن خلال هذا الاجتماع، الذي جرت فيه أحاديث مؤيدة للإنكليز، توصلوا إلى ترتيب انتفاضة ضد الحكومة «التركية» من قبل القوميين الكرد وبمشاركة أجنبية. وقبل ذلك كان الإنكليز قد احتلوا أورفة وتسلموا سكك الحديد. وبسبب حركة علي بطي وسلوكه المناهض للحكومة منح مرتبة البطولة «كذا»، ويُفهم من الاجتماع العلني الذي عقده القوميون الكرد في بلدية ديار بكر، والاجتماعات السرية والحوادث التي أشرنا إليها. إن تشكيل وإعلان دولة كردستان تحت الانتداب الإنكليزي كان أمراً وشيكاً جداً. (ص 98).

لنتابع السيناريو الساخن جداً:

(في ليلة «23-24 أيار» اتخذ خالد بك بعض التدابير الفورية في المدينة، قبل ذلك، رأى من الأفضل أن يلتقي بشخص ذي نفوذ وهو مفتي إبراهيم «أولوغ». سرد له حكاية رؤية دخول المسلحين ذوي العمامات للمدينة، طلب منه أن يقوم هو وأشراف مهيبين مثله بتوجيه النصائح لهذه الزمرة بأنهم ليسوا قادرين على إقامة حكومة كردية مستقلة...

وتمركزت بطارية جبلية بأربع مدافع في مرتفع داخل «إيجقالا» المسيطر على المدينة وبجانب سراي الحكومة في ديار بكر. كانت فوهة أحد المدافع موجهة إلى بيت رئيس النادي الكردي قاسم بك وابنه أكرم...

استيقظ الشعب في صباح «24 أيار» على المنظر المفاجيء للجنود في المدينة، وتراى لهم مسار فوهات المدافع بعد شروق الشمس بساعتين وفي هذه الساعات المبكرة، جاءت مجموعة تمثل الشعب مؤلفة من أعيان ديار بكر، رئيس البلدية والمفتي، لزيارة خالد بك تسأله، ماذا حصل يا أفندينا؟ هل ستحتلون المدينة بالمدافع؟ وأخبروه أنهم مخلصون للحكومة، ومن الخطأ اتهام الشعب بأكمله بعدم الإخلاص بشكوكهم ببعض الأشخاص وبعض العشائر... لقن خالد بك زواره ببعض الأمور الضرورية، بعدها أعرب لهم عن امتنانه لإقتناعهم بصواب التدابير المتخذة حيث قال:

(تم إخراج المدافع من أجل إعلام الإفطار والإمسك لاقتراب شهر رمضان. ليس القصد من ذلك الهجوم على المدينة بالمدافع، لقد سمعتم ورأيتم عصيان رئيس العشائر الشعبية «تيمور بك» و«علي بطي» و«علي هانكي»، إنه لأمر يستحق التأسف أن يقوم أولئك الرؤساء الجهلاء وقسم من أتباعهم بترويج الدعايات ونشر الدعايات الكاذبة، بدلاً من مد يد العون للحكومة والجيش في وقت عصيب. على عكسه يأخذون موقعاً مخالفاً وعاصياً، إن الجيش قادر على إفشال مختلف أنواع التمرد..⁽¹⁾)

الکرد بين الإنكليز والأتراك، إنما أيضاً فيما بينهم أنفسهم، وبما أنهم ليسوا في موقع القوة التي تمنحهم سرعة التصرف، أو التعامل بمرونة أكثر، والتحرك في مساحة سياسية أوسع، نظراً لوضعهم الصعب، يصبحون كما هي حال الكرة التي تتقاذفها الأرجل في الملعب الضيق، وهي تترد إلى هذه الجهة أو تلك، إنما أيضاً، يبقى وضعهم الصعب متوقعاً، في ضوء السيناريو السياسي الأمني الاستخباراتي بين كل من الإنكليز والأتراك، حيث إن كلاً منهم، يحاول التحكم بجهته قبل فوات الأوات، وفيما يشبه الوقت الضائع:

حيث انتهت الحرب العالمية الأولى، لتبدأ حرب من نوع آخر، ربما حاسمة ومفصلية أكثر تجاه الآتي، حرب الكرد من أجل البقاء، وحرب الذين تقاسموهم وقسموهم، ليكونوا دون اسمهم.

ولأن كل دولة تحاول ردع أي قوة جانبية تؤثر فيما رغبت في القيام به، أو بالنسبة لمصالحها المسماة، وتحديداً الكرد، وهم يتحركون هنا وهناك، رغبة في أن يسمع العالم صوتهم، ويكون لهم الكيان السياسي الذي يحلمون به.

(1) هذا الاقتباس منقول عن جبو، ص98، ولكنه ليس دقيقاً.. ولهذا وجدته في ترجمة مالميسانز العربية، المصدر المذكور، دقة أكثر، مع بعض الإضافات من الكتاب، وحتى تنقيح بعض المفردات نحوياً، صص 66-67.

ولعل كل دولة كانت على اطلاع دقيق بالنسبة لبنود «ساكس-بيكو» وتداعياتها، ولهذا كانت المساعي الحثيثة هي في كيفية سحب البساط من تحت أقدام الآخر، حرب الحدود، حرب التكتيك الذي يفيد في هذه المرحلة.

ضمناً، لا بد أن الذي تم تخمينه هو المتعلق بموقع الكرد في القريب العاجل، حيث المسافة الاعتبارية بين كل من «سيفر-لوزان» هائلة، بين اعتراف سياسي وسيادي للكرد على رقعة جغرافية تسمى لهم وطناً، مهما كانت محدودية مساحتها، ونفي الاعتراف، ولا بأي شكل بالكرد، في أي جهة من الجهات التي تم تحديد كردستان فيها، ولهذا لا يخفى ما للعبة المناورات، والدسائس وما وراء الكواليس، والاتفاقيات السرية الأخرى من دور كبير في حَبْك علاقات من نوع آخر، تتسخ سابقتها، وتمارس تعديلاً أو تحويراً أو نقضاً لأسباب وجيهة، من منظور القوى المتحكمة بالأرض والبشر والمقدرات كذلك.

وما كان يزيد في وضع الكرد تعقيداً، هو الكرد أنفسهم، لحظة الشعور بخطر مداهم «كما في توقع قصف المدينة بالمدافع»، وكيف أن بعضاً منهم سارع إلى طمأنة الضابط التركي بموقفهم من الأتراك، وتخيل اللهجة المتعالية أو نبرة التهديد في خطابه لهم، بما يجب عليهم القيام به، وهو يأتي على وصف من تسوّل لهم أنفسهم بالتمرد على الدولة، بوصفهم «جهلاء» ومن يتزعمهم، كما هو الوصف المتوقع من ساسة كهؤلاء، حيث يشنّعون كل سلوك مناوئ للدولة، فكيف الحال إذا كان انتفاضة أو ثورة، كما في حال شخص عليكي بطي؟

تُرى، ما الذي يبقي الكرد ضعفاء، مبغضين؟ سيقال، إن السبب ما عليه أعداؤهم من قوة، هذا صحيح، لكنه ليس دقيقاً، لأن استمرارية القول بذلك، تعني إبقاء الجواب الدقيق خارجاً. إنه ليس عامل الخوف وحده، ليس لأن الكرد مذ وجدوا أنفسهم كانوا محكومين بالآخر. ذلك أيضاً غير صحيح دائماً، لأن هناك دولاً، إمارات بنوها وحملت تلك أسماءهم، والتاريخ يشير إليهم من الجهات الأربع. لعله ضعف النقص بالانتماء المكاني الموحد ونسيان ما هو مجزأ فيه، وما يترتب عليه من التحرر من تلك الافتتاتية التي أبقت الكرد في وضعية تشرذم.

ذلك يدفعنا إلى نقطة أخرى، وهي المتمثلة، كما هو اليوم، في أن الكثير من الأوضاع التي يعيشها الكرد، لا صلة للأعداء بهم، وهم متطاحنون، متباذون، متصارعون، متخاصمون، متعادون، ومنقسمون على بعضهم بعضاً، حتى وهم في

أوروبا المجتمعات المؤسسات والتي تعتمد على قاعدة الاختلاف، إنما الإيجابي، والذي من خلاله، يتوقع كل منتم إليها ما يفيد في الآخر، وله ضمانات كاملة في العيش وبحرية، وبالعكس، حيث إن أساس المجتمعات تلك هو هذا المؤثر المسمى: الاختلاف، فمن خلاله يتمكن المرء من معرفة الآخر في نفسه، ونفسه في الآخر، وفي المسافة الفاصلة يستطيع التحرك في كلمة، وهو يكشف جديداً. وبالتالي، فإن رؤية العدد الكبير من الكرد في أوروبا وهم مختلفون فيما بينهم، ذلك الاختلاف السلبي، وليس الإيجابي، لأن مفهوم الاختلاف لدى كل طرف يفسر، ويُتدبر أمره انطلاقاً من طبيعة الثقافة داخله وهويتها الاجتماعية- السياسية.

أوروبياً، ينبع أصل الاختلاف، من وعي الحرية وحدودها، وميكانيزم المنافسة التي تصلح لأن تكون عراية إبداع، وفي الوقت الذي يجد كل أوروبي، من خلال هذا الاختلاف صورته النفسية، ظله، وتردد صداها، وهناك سيستام مرجعي، يكفل لهذا وذاك ما يحفز على التزام القانون والحرص عليه. إن أياً من هؤلاء الأوربيين فيما يقوم به، أو يفكر فيه، تكون الحصيلة المعلوماتية لديه والعائدة إليه، رغم أنها تجد لها نسباً فيما هو ثقافي، ومن ثم مجتمعي، سوى أن الذي يحتفظ به المجتمع في عمومها، كسلطة مرجعية ثقافية وسياسية وقانونية، أكبر بكثير، وأخصب، وأكثر انفتاحاً مما لدى الفرد هذا أو ذاك، وهذا الشعور بالنقص المعلوماتي، هو خميرة التحرك، أو مفتاح المغامرة في البحث في عالم خال من العفاريات أو الجان أو الغوريالات أو العسكر، حيث يجري تخويف المنتمي إلى مجتمعاتنا منذ الطفولة الأولى بهم، فيكون تقييد لحركة التفكير، والتفكير في الطبيعة ومساءلة كل ما هو فيها دون مخاوف أو خوف من الظلام، والصمت المطبق، والكرد الذين يتواجدون في أوروبا ومنذ عشرات السنين، وفي أغلبهم، ولأنهم يخرجون من مجتمع العفاريات والجان والعسكر والظلام المخيف، ويحملون بصمات هذه العوالم في أنفاسهم وفي لغتهم، ولا يترددون في إبلاغ صغارهم ممن ولدوا هناك، بما حصل لهم، يتعشش الخوف بدلاً من السلام الآمن في نفوسهم، ويحصل الصدام بين الثقافة البيئية وثقافة المدرسة والمجتمع، ولهذا، فإنه رغم مضي أكثر أوقات الطفل في المدرسة، وبعد ذلك صحبة أقرانه، إلا أن ما يقال له في السنوات الأولى، ينفذ إلى اللاوعي، ومن هناك تكون بؤرة التوترات وحالات «قبض النفس» المتنامية.

يسهم في مثل هذا الترسيع للمخاوف والأوهام بوصفها حقائق من لهم دور في إدارة النظام هنا، وتلك الاتهامات والنعوت التي يسهل التلفظ بها حتى في الكتب المدرسية، وفي الشارع ومنابر إعلامية مختلفة.

ويبقى العدد القليل ممن يخترقون هذا الحظر، خارج سرديات «الخطيرة» التاريخية الموبوءة.

ولا يعود للثقافة من قيمة تُذكر، إذ ما أسهل أن يصبح العالم منافقاً، أو زنديقاً، أو ملحداً، والمستقيم متهماً بالتلفيق والتلاعب بالنفوس، ومن يثور بالعصيان والتمرد والبلبل... الخ.

لهذا، فإنه حتى القلة القليلة ممن تثابر في موقفها تحرث في أرض صلدة، قاسية إجمالاً.

ويبقى للتاريخ ما يشير إليه، ما يدفع بالنظر إلى الخارج أوسع مما هو عليه.

ينقل جبو، مجدداً، اقتباساً من أحد الكتاب حول عليكي بطي:

(أظهرت التنظيمات الكردية نشاطاً في ستانبول تحت جناح قوات دول الوفاق. وأثناء معارك الجيش التركي مع الأرمن في الشرق ومعركتي إينونو الأولى والثانية ضد اليونانيين في الغرب، قامت حركات تمرد في جنوب شرق الأناضول، وكذلك في وسط الأناضول، مثل حركة علي بطي وقوجكيري... ومن بين حركات التمرد هذه، الحركة التي بدأ بها شخص يدعي علي بطي بتشجيع من الإنكليز في جنوب شرق الأناضول «كردستان الشمالية». وقد وصلت الانتفاضة إلى مستوى خطير في ماردين وأطرافها، ونتيجة لإصرار الجيش التركي على تعقبه فقد علي بطي ورجاله تأثيرهم. وقد دفع علي بطي حياته في 18 حزيران 1919 ثمناً لخيانته. ص 99).

تجاه نص مكتوب كهذا، وتحت إشراف أمنيّ تركي، أو عثماني- تركي، ليس مستغرباً أن تأتي الكتابة هكذا، أو سيكون من المستغرب، في نطاق الدولة الأمنية بأجهزتها، وبدءاً من السلطة العليا فيها، أن يجري الحديث عن أي شخص معارض لسياسة الدولة، ويكون محل ترحيب، أو يُثنى عليه بطريقة ما.

من طبيعة الدولة الأمنية أنها تختزل المجتمع، الثقافة، السياسة، الإعلام، التربية، العلم، والفن والتربية، كما أنها تختزل الإنسان من لحظة الولادة، كما أنها تختزل السماء والأرض وما هو خفي فيهما، بمقدار ما تختزل كل ما يصلها بعبادات الشعوب وتقاليدها، وحتى الأحلام العادية، وتحيل كل شيء، إلى منظومة محددة، في خانة ضيقة يجري فرضها على مجتمعهما، وعلى الذين يتولون مهامها الأمنية، والضغط على الناس ليكون في هيئة ما هو مرسوم أو محدود لهم، حتى في طريقة تنفسهم، وفي كلامهم وطعامهم وشرابهم، فكيف الحال مع من لا يكتفي بالتشكيك في بنية هذا

النظام الأمني، وإنما الطعن في شرعيته باعتبارها اغتصاباً واستبداداً مهلكين، ذلك ما يمكننا قراءته في تواريخ طويلة، ربما أمكننا لحظة الربط فيما بينها، إيجازها في تاريخ مختزل واحد، يصلح لكل هذا الأنظمة الأمنية في مختلف أنحاء العالم، قديماً وحديثاً، من خلال إيقونة الطغيان المقدسة فيها .

وأن يأتي التعريف بانتفاضات الكرد، بثوراتهم، بمحاولاتهم المطالبة بحقوقهم، إنما هو الروج على النظام هذا، ومن ثم يكون إلصاق التهمة الجاهزة بهم، على أنهم خونة، والخونة عملاء، والعملاء مهدورٌ دمهم بالتأكيد، ولهذا، ومن خلال متابعة ميدانية، وإعلامية، وعلى مستوى العلاقات الدولية، لا أسهل من أن يفسّر اليوم ما كان يجري في الأمس، حيث تمارس أوجه عنف دموية مختلفة تركياً، وأمام أنظار العالم إجمالاً .

بالمقابل، لم يكن عليكي بطي «الجاهل، العشائري، المخدوع، المزيف، المدعي، العاصي، الخائن، والعميل...» إلى آخر المفردات التي يمتلئ بها أرشيف كامل في دولة مثل تركيا، لا تحتاج إلى جهد، لإبراز أي كلمة أو مفردة، ومن ثم التلويح بها، وربطها بمن تعتبره من هذا النمط، وشرعنة كل صيغ العنف ضده ومن معه، ويقول تاريخ العالم، عالم منطقتنا أساساً، أن العنف الدموي هو المعلم والمرشد الرئيس والمنشود اعتماداً، لدى هذه الدولة ذات النظام الشمالية، والدول المشابهة لها في المنطقة، في تقييم أي مناوئ لها، فكيف بالمطالب بذلك الحق التاريخي التليد، أي استعادة الموطن المستلب منذ مئات السنين، ومحاكمة الجناة في ذلك ؟!

في بحث طريف ولافت، لباحث في علم الاجتماع عن «الخيانة trahison» هناك الكثير من النقاط المؤثرة والتي تهمنا ليس إزاء ما تقدّم، وإنما عموم صيغ التعبير عن الخيانة، والسياسية بصورة مركّزة، وما سنعرض له لاحقاً، من هذا المنطلق، ونوسع فيه بما يتناسب، وهذا الكم الهائل من النصوص والوقائع التي رافقت التاريخ الكردي: بين الكرد أنفسهم، بينهم وبين أعدائهم، ومن جهة اتهامات أعدائهم لهم زرافات ووحدانات، ومن ذلك:

(الخيانة ظاهرة شائعة، أو على أي حال أقل استثنائية مما نعتقد بشكل عام: لقد حدث لنا جميعاً أن نتعرض للخيانة أو الخيانة بدورنا . الكشف عن سر، أو عدم الإيمان، أو الوقوع في ولاءات متضاربة أو الانشقاق.)

سوى أن هناك حالات متفاوتة، ومناسبات، أو أمكنة، أو أطراف تختلف في الموقف من هذه المفردة تاريخياً، وتبعاً لما تقدم، ف(إن الخيانة تسمح لنا بالتشكيك في

العلاقات بين الأفراد والمجموعات التي هم أعضاء فيها، من خلال الاستجواب بشكل أساسي أكثر حول موضوع الانتماء والروابط. في الواقع، فإن الفاصل الذي ينطوي على أي خيانة يفترض دائماً وجود رابط سابق. لهذا السبب، تلاحق الخيانة العديد من العلاقات، حتى كاحتمال أو خيال. ومع ذلك، فإن أي تفاعل لا يمكن أن يؤدي إلى خيانة: سنظهر بذلك أن الخيانة هي دائماً نتاج توتر بين العناصر السياقية وبعض الثوابت).

من المؤكد أن هناك ثلاثة مواقع متجاورة أو متناظرة، هناك من يخون، ومن يخون، أو في موقع الخائن، وما يستحضر صفة الخيانة بالمقابل، أي ضمن نسق ثقافي، اجتماعي وسياسي معين، لهذا:

(ما هي الأفعال التي يعتبرونها على وجه التحديد خيانة؟ وبالمثل، ما هي الإجراءات التي يتم اتخاذها عندما تتعلق وسائل الإعلام والروايات والأفلام بالخيانة؟ حسناً، يتحدثون إلينا عن الخيانة الزوجية، صراعات الولاء، الكشف عن المعلومات أو السر، الانشقاق، الإذعان، حول «التأرجح»، التمرد ضد سلطة، تعاون، تجسس، هروب، تمرد، ابتزاز، فتنة...)

إنها قائمة من المرفقات التي تجعل الخيانة عالي الجودة، ناحية الاستعمال والتداول والتخويف والتشهير، وحتى على مستوى جماليات الخيانة، ناحية الثراء الهائل في أدبياتها عالمياً، وتبعاً لكل شعب، بتصور مختلف. وبذلك فإن الخيانة هي في حكم اللاشعور، المغيب، اللامسمى، حيث (إن الخيانة تتطلب «شخصاً خائناً، شخصاً يخون، وآخر نخون باسمه»).

وهذا يسمح لنا بتعقب العلاقات القائمة، ومن يحرك هذا الجانب، وبناء على أي معيار أخلاقي، حيث (إن أي مسافة من «نحن» من المرجح أن يتم وصفها بأنها خيانة وتواطؤ مع العدو. وبالتالي فإن انتشار جريمة الخيانة يدل على جنون العظمة الذي يسيطر على «نحن» في هذه المناسبات: لا يوجد في الواقع أناس أبرياء أكثر من الخونة المحتملين. يشير فليتشر في هذا الصدد إلى أنه في عهد الرايخ الثالث، كان مفهوم الخيانة العظمى واسعاً لدرجة أنه شمل حتى نقد هتلر. في أوقات الحرب، ونقص الحماس أو الإخلاص، يمكن أن يمر العصيان لمساعدة مباشرة أو غير مباشرة للعدو...).

وما يضيء هذا الجانب أكثر، ف(في الواقع، عندما يُتهم شخص بالخيانة، فإن الحصول على دعم جمهور كبير بما يكفي لفرض تعريف آخر للحالة يعني المضي

قدماً ووجود «سبب وجيه» معترف به أدى إلى عمل تخريبي. وهكذا، في ندائه إلى الناس، يمكن للمعارض أن يرفع قضية عادلة، يمكن للمخبر أن يتذكر أنه يعمل لصالح الدولة وبالتالي فإنه يسهم بطريقته الخاصة في الصالح العام، ويمكن للزوج غير المؤمن أن يقدم ما كان لديه «حب من النظرة الأولى» وأنه بالتالي ليس مسؤولاً فعلاً عن أفعاله، الجاسوس أخيراً، يمكنه الدفاع عن نفسه من خلال الإصرار على القيمة الأخلاقية لقضيته أو التأكيد على أنه يتصرف بهدف إنساني..).

وما يبقّي المحرّك الرئيس في الخيانة، بوصفها قضية حدودية، وردعاً عقابياً وإنذارياً أيضاً (فإن بعض المنشقيين أو المنشقين أو الجماعات السياسية الذين يعتبرون خونة في بلادهم مدعومون من قبل دول ثالثة – ليس بسبب الأسباب التي تتقدم بها – ولكن ببساطة لأنهم يشتركون في عدو مشترك. من وجهة نظر «ثيم Them»، فإن الخائن هنا هو «حليف الظروف» وليس «البطل» الذي تمت الموافقة على قضيته علناً «سيثبت في بعض الأحيان أنه حليف مرهق للغاية»..⁽¹⁾.

(1) Schehr, Sébastien: Sociologie de la trahison, www.cairn.info

شَهْر، سيباستيان: علم اجتماع الخيانة

من باب الطرافة والإيلام معاً، ينظر ما كتبه شيركو آمدي، في مقاله ذي الدلالة:

مصير الكرد في مؤامرات التواطئات والخيانة

Şîrkûh Amedî :Komplo ve ihanet kiskacında Kürtlerin kaderi, www.basnews.com

وهو يصلنا بما سبق، ومن ذلك ما يخص فضل الكرد على العثمانيين، طبعاً وهذا القول يمتد من ناحية فضله هذا إلى هذا اليوم، هنا وهناك:

(قال الفينيقي جيوفاني ماريو أنجيلولو، الذي كان في القصر العثماني، «لن يجزؤ التركي العظيم أبداً على مهاجمة شاه إسماعيل، إذا لم يتصل بالكرد» مباشرة بعد حرب 1514، وبين العثمانيين و 23 إمارة كردية، بجهود الزعيم القبلي الكردي إدريس بدليس...)

وضمناً، هناك مثال صادم، كغيره من الأمثلة العديدة السالفة الذكر، إنما تسمي هذه المرة عائلة جان بولاد «لنتذكر جنبلات في لبنان، المعتبر درزياً، وهو ليس كذلك»:

(قاد علي جان بولات باشا، الذي شغل منصب حاكم حلب بين عامي 1605-111، التمرد ضد العثمانيين بقوة قوامها 20000 شخص اجتمع حوله بعد إعدام عمه حسين باشا عام 1604 بحجة الرخاء وعمل بجد على العثمانيين. في فترة زمنية قصيرة، بدأ علي جان بولات، الذي وسع منطقة نفوذه إلى أضنة، من كيليس، واستولى على حلب ودمشق بعد أن حكم المنطقة وبعد ذلك كان لديه خطبة نيابة عنه وقطع قطع العملات المعدنية واتصل بالدول الأجنبية كقائد، في 1607 الإيطالية. وقع اتفاقية مع دولة توسكان. هزم الجيش الكردي من قبل الجيش العثماني تحت سيطرة الجيش الكردي كويوجو مراد باشا Kuyucu Murat Pasha

هذا التحليل الموقف الاجتماعي، يضعنا في الشبكة الهائلة للعلاقات الاجتماعية، ويكسب تحركاتنا بُعداً سياسياً، كما لو أنه يحذر من مغبة الوقوع في أخطاء قد تخرج العفريت من قممها، جهة السلطة، أو أي جهة متنفذة تمتلك صلاحية لعب دور العفريت ذاك، كما أنه يعرّي السلطة بكل مواقعها الاستثنائية والمحكرة للحقيقة، وهي في لحظة الشعور بالضيق، أو بالخطر، تلوح بالعصا الناتئة، وفي أعلاها «الخائن/ الخونة» وهي كافية، ولو لبعض الوقت، لأن تبلبل وعي المتهم أو المتهمين، حيث إن المفردة هذه تستقطرة كل ما هو شائن، وفي الوقت نفسه، تُحقّ على الخائن: الخونة عقوبة القتل أو الموت الزؤام، نتيجة معاشة تاريخية منذ آلاف السنين.

أثریات الخيانة والزيف

ولا بد أن كل دولة تتعامل مع هذه المفردة، من خلال قاموس مفهرس، أبجدي، تصنّف فيه، وحسب التسلسل القيمي، كل هاتيك المفردات ومشاياتها، ذات الصلة بالخيانة، بغية الإسراع إلى استعارة أي منها، وإلحاقها بمن تريد النيل منه، وتجييش وعي الناس بذلك.

خلال الحرب المتقطعة في سهل اورج Oruç في 24 تشرين الأول 1607. وبناء على طلب الإدارة العثمانية، تم قطع رأسه وإرساله إلى مركز السلطنة. وفقاً للباحث الشهير بولس كريللي الزوري، تعتبر هذه الثورة أول انتفاضة خطيرة ضد الهيمنة الإمبريالية المبكرة في أعين الأوروبيين. في هذا السياق، أرادت بعض الدول الأوروبية، وخاصة إيطاليا، الاتصال بعلي جان بولات باشا من خلال الوفود التي أرسلتها، لكن علي باشا لم ينظر إلى هذا الوضع جيداً. فوفقاً للزوري، كان الهدف من ثورة علي باشا جان بولات هو فصل سوريا وجنوب شرق الأناضول عن الحكم العثماني وإنشاء إدارة منفصلة. وهناك تحذير للسلطان العثماني...

في كتاب «قانون سلطاني Kanunnâme-i Sultan» الذي كان يعتقد أن عزيز أفندي كتبه بين عامي 1632-1633، كتب أن (قضاة كردستان، كانوا في وضع مؤلم وبائس من خلال إرغامهم على التعامل مع الاستبداد في حكمهم، وأفيد أن العثمانيين يجب أن يقوموا ببعض التطورات الإيجابية ضد الإمارة الكردية... وذكر عزيز أفندي نضال الكرد ضد الدولة الصفوية الشيعية، واقترح أيضاً تعزيز الإمراء الكرد. ومع ذلك، لم تؤخذ هذه المطالب والاقتراحات في الاعتبار، وضعفت الإمارات الكردية وتم القضاء عليها في نهاية المطاف.). يمكن للقارئ الكردي، أن يلاحظ، كيف يسارع كردي ما إلى لعب دور كبير في انتصار أعدائه، وكيف يسارع إلى القضاء على كردي آخر، لأنه يحاري أعداءه، وثالثاً، ما يمكن أن يحصل من رد فعل أحياناً، من قبل هذا المحارب من قبل الكردي «نظيره»، فيغيّر مسلكه وحتى عقيدته، وربما كان جنبلاط اللبناني «الدرزي» اعتباراً، المثال الأبرز.

وللكرد وعي يومي، وثقافة تاريخية تريحهم جوانب شتى من هذه الكلمة، عندما يخوتون بعضهم بعضاً، وهو ما سنتعرف إليه أكثر بعد حين، إنما المتوخى هنا، هو بالنسبة لأدبيات الأعداء، ومن موقع الخوف من الآخر، والذي تستبد به، من أن يرفع رأسه، أو يقول منتفضاً «لا» لهذا الاستبداد، حتى تدوي كلمة «خائن».

وهو ما تلمسناه في الاقتباس السابق، وكل ما يشبهه، وتحديداً عندما استشعرت تركيا الخطر المحدق بها، من خلال الأصوات المكتومة، أو المكبوتة تاريخياً، وما يرافق ذلك من لغة تهديد ووعيد، كحال الضابط الذي أُنذر وفد ديار بكر بما يجب عليهم القيام به. حيث إن الموقع الاعتباري للدولة يقول: الخيانة توجهها الدولة إلى أحد رعاياها، أو من هم في عداد الرعايا أو التابعين، وكونها تمتلك السلطة والقانون والقوة المعترف بها، وبالتالي، لا ضير في أن تستخدم هذه الكلمة، أو أي كلمة مناظرة لها، كما في حال «العمالة» وليس طرفاً ما، أو شخصاً في مقدوره اتهام الدولة بأنها خائنة أو عميلة، كما هو المعتاد في أدبيات الدول غالباً، وربما أمكن لنظام ما أن يُتهم بأنه «عميل» لنظام آخر، أو خائن للمبادئ التي نص عليها دستورها، ولكن الصدى ضعيف، تبعاً لوساعة العلاقات بين الدول، ولعبة المصالح التي تؤثر في قيمة الحقيقة وتداولها بالذات.

وهو ما تلمسناه في استسهال إطلاق نعوت كهذه، من قبل تركيا ضد المنتفضين في وجهها، مثل حركة عليكي بطي، أو أي حركة أخرى، في الموقع المناظر نفسه، قبلها وبعدها، من عبيد الله النهري إلى آخر زعيم كردي!

إنه إعلام داخلي، واستيعاب للدرس الذي ابتدعته السلطات المحلية في مثل هذه الوقائع تجاه من ذكرت:

(وكما لاحظنا لدى كبار المسؤولين والمؤرخين الأتراك إلى كل الوقائع التحريرية الكردية على أنها من تدبير زعماء العشائر الجهلة الذين انخدعوا بوعود الانكليز الذهبية.. نقول ينظرون، لأنهم في واقع الحال لا يعتقدون بذلك، ولأن عليهم تقديم ما يثبت ذلك. «إن أياً منهم لم يقدم دليلاً مقنعاً على ذلك».. وبسبب نظرهم هذه، فإنهم استعانوا دائماً باستغلال المشاعر الدينية لدى الشعب الكردي استغلالاً سيئاً، لأن هذه المشاعر ذات تأثير كبير عليهم، وبذلك تركوا حركات التحرر الكردية بلا دعم. ولهذا الغرض أعلنوا أن علي بطي «عميل إنكليزي»، وكما نعلم فإن هذا الموقف سيتكرر في انتفاضة الشيخ سعيد بيران، ويدافعون عن هذه التهمة بإصرار حتى اليوم. بيد أنه لا

يوجد دليل يقيم الحجة على ذلك. ولكن يوجد في التواريخ «المصادر التاريخية» المشار إليها الكثير من الأدلة والوثائق حول معارضة الكرد للانكليز. ففي الرسائل التي بعث بها إلى زعماء العشائر الأخرى بعد لقائه مع علي بطي مباشرة يذكر عبدالرحمن آغا شربناخلي «شرنخ» أنه «أي علي بطي» لم يقبل تدخلات النكليز، وأنه طلب من زعماء العشائر الكردية في المناطق التي يسيطر عليها الانكليز بدء المقاومة، وقد وقعت هذه الرسائل بيد المسؤولين الانكليز، الذين كانوا يتابعون التطورات عن كثب، وهي موجودة اليوم في مراكز وثائق الدولة. وقد ذكرت المصادر المشار إليها أن المسؤولين الأتراك بذلوا جهوداً كبيرة للتأثير على الكرد ليبدأوا بمقاومة الانكليز في المنطقة. وقد لجأوا إلى سلاح الدعاية الفعال ووجهوا خطابات دينية من قبيل «أيها المسلمون اتحدوا ضد التدخل المسيحي» و«الكرد والترك أخوة في الدين»، وبأنهم نجحوا في جهودهم تلك إلى حد كبير... (ص100).

نعم، ذلك تأريخ وتحليل لتأريخ، إنما أيضاً مكاشفة لبنية السياسة التركية باعتبارها سياسة نظام وإيديولوجية سلطة تستهدف إزاحة كل حجر عثرة في طريقها المرسوم بناء على معاييرها الاستتصالية، وحجر عثرة، هو شعب كامل هنا، بهويته، بجغرافيته، بتراته، بذاكرته الشفاهية، بلغته، بأعرافه وتقاليده، من خلال زج مختلف القوى التي تمكّنها من تحقيق مآربها التصفوية هذه، وعلى الصعد كافة: إعلامياً ومدرسياً وأكاديمياً... الخ.

وربما بالطريقة هذه يمكن تفهّم ومن ثم إدراك الحقيقة المتعددة الأبعاد لأي طرف معادٍ للدولة، ومن موقع التمثيل الاجتماعي والسياسي الفعلي لمجموعته، أو اثنيته، على أنه مستقر للجهات السياسية في الدولة، ولأنه على امتداد التاريخ، وفي تاريخ الدول الأكثر تمثيلاً سلطوياً لجماعة معينة تدعم وجودها من خلال التحكم في مجموعة أو مجموعات اثنية أخرى، وما في ذلك من تطفل واستغلال واستصغار لموقعها، وما يترافق مع هذه النوعية المركبة من العلاقات الجانبية من بث إشاعات وكتابات مغرضة ومفبركة عنها، على الأقل، تبريراً نفسياً وديماغوجياً، وعلى الصعيد الإعلامي الذي يحيل حتى أكثر المواقع اعتباراً علمياً إليه وتسطيحه، ليسهل «هضمه» وتداوله في أكثر الأوساط الاجتماعية شعبية، بغية أعمال المزيد من التعسف الاستحكامي فيها.

حسبي هنا، أن أن أستعين بذلك المفكر التركي الكبير بشكجي، والذي كتب في هذا الجانب، ما لم يكتبه أي كان، حتى بالنسبة في الجانب الكردي، عن الممارسات

السلطوية التركية، باعتبارها نتاج علاقات تعال، منذ اللحظة الأولى التي كشف فيها «الاتحاديون: الاتحاد والترقي» عن حقيقة توجهاتهم في ممارساتهم قبيل الحرب العالمية الأولى، لتكون لهم حريهم الأخرى، بالتوازي مع تلك الحرب، في هذا المضمار، وعلى طريقة «أهل مكة أدري بشعابها» عبر نماذج من كتبه التي انشغلت بها فترة من الزمن، عبر نقلها إلى العربية، اعتماداً على لغة وسيطة هي الكردية، وبشكجي في بنية هذه الكتب يتحرى نقدياً، وبمبضع النقد التاريخي والاجتماعي آلية الافتعال السياسي، وتحريف النهج العلمي عن مقاصده، في استخراج حقيقة الجاري كما تريد لها أن تكون. ومن ذلك، كما نوهت، موسوعته عن «المنهج العلمي وكيفية اصطناعه في تركيا»، في سبعة أجزاء، تستغرق التاريخ التركي الحديث، وهذه هي العناوين ذات العلاقة بتواريخها:

ونحن نطلق هنا من كتابه «منهج العلم 1976» Bilim Yöntemi, 1976، وفي أثره ما يلي:

Bilim Yöntemi, Türkiye'deki Uygulama 1 Kürtlerin Mecburi İskanı, 1977

منهج العلم وطرق اصطناعه في تركيا، 1- التوطن القسري للكرد، 1977

Bilim Yöntemi, Türkiye'deki Uygulama 2 Türk Tarih Tezi, Güneş Dil Teorisi ve Kürt sorunu, 1977

منهج العلم وطرق اصطناعه في تركيا، 2- أطروحة التاريخ التركي، نظرية الشمس- اللغة، والقضية الكردية، 1977

Bilim Yöntemi, Türkiye'deki Uygulama 3 Cumhuriyet Halk Fırkasının Tüzüğü ve Kürt Sorunu, 1979

منهج العلم وطرق اصطناعه في تركيا، 3- فرقة الشعب الجمهورية، ومرسوم «1927» والقضية الكردية، 1979

Bilim Yöntemi, Türkiye'deki Uygulama 4 Tunceli Kanunu (1935) ve Dersim Jenosidi, 1990

منهج العلم وطرق اصطناعه في تركيا، 4- قانون تونجلي «1935» وإبادة درسيم، 1990

Bilim Yöntemi, Türkiye'deki Uygulama 5 Orgenerâl Muğlalı Olayı, Otuzüç Kurşun, 1991

منهج العلم وطرق اصطناعه في تركيا، 5- حادثة الجنرال مصطفى موكلاله
و«33 رصاصة»، 1991.

Bilim Yöntemi, Türkiye'deki Uygulama 6 Cumhuriyet Halk Fırkası'nın Programı
(1931) ve Kürt Sorunu, 1990.

منهج العلم وطرق اصطناعه في تركيا، 6- برنامج فرقة الشعب الجمهورية
«1931» والقضية الكردية، 1990.

Bilim Yöntemi, Türkiye'deki Uygulama 7 Kürdistan Üzerinde Emperyalist
Bölüşüm Mücadelesi 1915-1925 I.Cilt (Bu eser yalnızca 1 cilt olarak
yayınlanabilmiştir) 1991

منهج العلم وطرق اصطناعه في تركيا، 7- كردستان مستعمرة دولية، 1991.
أي التأسيس المنهجي العلمي، كما قلت، مع «منهج العلم»، ومن ثم تأتي السلسلة
في حلقاتها السبع، كما هو جليّ أعلاه.

وفي كتاب «منهج العلم» ممارسة قاعدية وهرمية من هذا، حيث يسخر العلم في
خدمة الإيديولوجية الرسمية، أي ما يجعل العلم تزيفاً متحركاً على صعيد
مفهومه، فهو أبعد ما يكون عن العلم في جوهره، حيث يجري تفرغه من محتواه الذي
يكون عماده الأساس: الظواهر الحية والتي ينبغي التأكد منها فهي محك العلم، وعلى
صعيد المبتغى منه، وربما ما يجعل هذه العلاقة في مقام مقولة: الغاية تبرّر الوسيلة:
استعمال العنف «الوسيلة» للاستحكام الأبقي «كما في هذا الاقتباس الذي يتداخل فيه
صوت العلم وهو مخنوق، بصوت الإيديولوجية الذي يغطي على ما عداه:

(في تركيا، لا تشكّل الجامعة تلك المؤسسة، ليكون في مقدورها البحث عن
الواقعة الاجتماعية. بالعكس من ذلك، إنها مؤسسة تتجاهل الواقعة الاجتماعية،
وتعطّلها، وتحاول عكسها.

إن الجامعات التركية، بهذا النوع من التفكير تعاملت مع الظاهرة الكردية، ومشكلة
الكرّد/ كردستان. وتحدد الموقف نفسه بصدد مشاكل الشرق الأدنى: الأرمن،
السرّيان، البونتوس، والإيزيديين الكرّد كذلك. إن كلاً من الجامعات، البروفيسورية،
ورؤساء الجامعات... الخ، في هذا النطاق، يؤكدون مواقف الدولة. ومن عدا كلمة «هذا
الفكر، هذه النظرة هي الحقيقة، وما طبق هو الحقيقة، وهو ما لا يجري نقاشه
علمياً، ولا يطال الشك حقيقتهم.»، لم يقوموا بشيء آخر.

لقد ساندت الجامعات في هذا الجانب المواقف الرسمية، الإيديولوجيا الرسمية، وإذا كان هناك بعض الأشخاص في الجامعة، يبحثون عن الحقيقة، لا بد من إبعادهم عن الجامعة. إن هذا الموقف، دون ريب، لهو ضد الواقعة الاجتماعية، لهذا السبب، فإن الذي يمارس ليس علمياً، إنما هم علم مزيف.

وتباشر الدولة مع بدء تأسيس الجمهورية بتجاهل الوجود الكردي واللغة الكردية وإهانتهما. ومع بناء مؤسسة التاريخ التركي، مع مؤسسة اللغة التركية لعام 1930، برز هذا الرفض والتجاهل بصورة منتظمة ومتطورة. وكان هدف «أطروحة» التاريخ التركي، نظرية اللغة- الشمس «هو ما أشير إليه. فقد تردد دائماً من جهة الدولة والإعلام التركي، على إنكار الكرد واللغة الكردية. والدولة عن طريق بيروقراطية الدولة، والبيروقراطية العسكرية، مؤسسات التعليم، الإعلام، الدين، العائلات، الأحزاب السياسية، ومع المؤسسات الاجتماعية والمدنية، آذارت السيطرة بأفكارها ومواقفها هذه. وما يستحق النظر، هو أن البيروقراطية المسلحة أيضاً مؤسسة في نشر وتنشيط الإيديولوجيا الرسمية»⁽¹⁾.

(1) بشكجي، إسماعيل: منهج العلم، ترجمه عن الكردية وقدم له وعلق عليه: إبراهيم محمود، منشورات مركز بشكجي للدراسات الإنسانية، جامعة دهوك، 2018، ص242. كمثل مدعم بالأمثلة التاريخية المجاورة لذلك التاريخ العاصف في الخمس الأول من القرن العشرين، يمكن مراجعة كتاب Felat Dilgeş: Rojnameya kurdî ya pêşîn Kurdistan, «Nûbihar, stanbol, ç2, 2017.

فلات دلکش: الجريدة الكردية الأولى: كردستان، نوبهار، ستانبول، ط2، 2017. ومن خلال هذه الاقتباسات التي وجدتها مناسبة لهذا الباب أو النقطة، حيث أكرّرها هنا تعريضاً لأهمية الفكرة المطروحة في هذا السياق: كان هناك اثنان من أعضاء الاتحاد والترقي النشطين كرديين، عبدالله جودت واسحق سوكونتي. ص58.

بالنسبة لهؤلاء كانت الهوية «العثمانية» فوق الهوية القومية. إذ إن الجميع عثمانيون، قبل كل شيء، والجميع شركاء في الوطن، ومن ثم كان الكرد، البلغار، والأرمن. في جريدة «العثمانية» كانت تبدل جهود في الإمبراطورية العثمانية، بحيث لا تكون ملة دون أخرى، وعبدالله جودت، نادى جميع القوميات التي كانت تعيش ضمن الحدود العثمانية، بحيث تتوحد من أجل وطن واحد. يقول عبدالله جودت في ذلك «أنا كردي، أحب الكرد والكردانية، إنما بما أنني مواطن تركي، فأنا تركي قبل كل شيء». ويستمر في السياق هذا قائلاً «ويجب ألا يفهم من كلامي هذا وهو في كوني مواطناً تركيا، على أنه يجب نسيان اللغة الكردية، وأن تُنسى كرديتي. بالعكس من ذلك، على الكردي أن يعيش كرديته، والأرمني أرمنيته. ص59.»

في حياة الشعوب ثمة أيام مؤثرة، وهذه الأيام تترك بصمتها بأهميتها على مستقبل الشعب. لأن أياماً كهذه، تشكّل انعطافات تاريخية. حيث يشار إليها قبلها وبعدها. وهذا التوقيت هذه الأيام، مثل ولادة. وبالتالي، هناك ما يسبقها وما يلحق عليها. وما قبلها وبعدها ليسا واحداً. ص71.

يقول مقداد مدحت باشا في العدد الأول من جريدة «كردستان»: أيها الأمراء والآغوات. أسألكم: من منكم أرسل شخصاً يعنيه إلى جهة ما ليتعلم. ص84.

ويتابع كلامه قائلاً: لقد طفُتُ في أمكنة كثيرة وأنا الآن في مصر، وفي كل مكان أجد أبناء الجركس والأرناؤوط والعرب، حيث إن آباءهم، وأخوتهم، يرسلونهم إلى المدارس، لكي يتعلموا. وفي مصر، في جامع الأزهر، التقيت ببعض كرد سوران، من هم من كركوك، ومن هم من جهة السليمانية، كلهم يتعلمون. لكنني لم ألتق أبداً، ولا في أي مكان، أشخاصاً من عشائر كردية «من يتحدثون الكردمانجية» إذ كلما التقيت بهؤلاء، إما أن يكونوا خدماً، أو بؤساء وفقراء، لا يتقنون صناعة، ولا عملاً. ص85.

يقول عبدالرحمن بدرخان في العدد 17 ما يلي: في هذا الزمان، ليس من بلد إلا وهو غارق في نور المعارف. أذهب إلى البلاد الأجنبية، فلا أجد أحداً وهو لا يعرف القراءة والكتابة. المرأة، الرجل، الصغير. الجميع يقرؤون ويكتبون. جميع الشعوب، تعمل بكل السبل، لتحافظ على أمن بلادها وسيادتها. الأرناؤوط، مثلما أن الكرد في قارة آسيا «بقوا أميين. من الكاتب» في أوروبا بقوا أميين، إنما منذ فترة من الزمن، وهم يتتشطون، فقد بنوا الكثير من المدارس في بلادهم. والكثير منهم يطبعون الجرائد في البلاد الأجنبية، ويرسلونها إلى الوطن، ويوظفون شعبهم. والخدمات التي قدمها الكرد لهذه الحكومة أكثر من نظيرتها لدى الأرناؤوط. لماذا لا يطالب الكرد الحكومة بحقهم؟ اليوم، ليس من شعب، ولا حتى شخص، لا يطالب الحكومة بحقه، لا يترك حقه لدى الملك. هكذا أرى، أنه في الدول الأجنبية، عندما تغتصب الحكومة حق فرد ما، فإن الشعب جميعاً يطالبها بحق ذلك الفرد، وبالطريقة هذه تدوم العدالة. ص89.

يقول الكاتب: كمجتمع، هناك قسم من الأرناؤوط مسلمون، وقسم منهم مسيحيون. وقسم المسيحيين بالمقابل، فيهم الأرثوذكس والكاثوليك منفصلون عن بعضهم بعضاً. حينها كان مسلموهم تحت تأثير الثقافة الإسلامية، والأرثوذكس تحت تأثير الثقافة اليونانية، والكاثوليك بدورهم تحت تأثير الثقافة الإيطالية.

وسط الشعوب الإسلامية التي تخضع للإمبراطورية العثمانية، كان في مقدمتها الأرناؤوط الذين تخلّوا عن الفباء العربية، واختاروا لأجلهم ألفباء اللاتينية. وفي سنوات ستينيات القرن التاسع عشر، باشر مثقفو الأرناؤوط بالسؤال عن ألفبائهم، أي اللاتينية، والتأكيد عليها مع وزارة التعليم العثمانية كذلك. وبالرغم من أن الأرناؤوط على الصعيد الديني والاعتقادي، متباعدون جداً عن بعضهم بعضاً، فإن هذا الجانب، لم يصبح البتة عائقاً لكي يتفقوا على ألفباء مشتركة فيما بينهم. حيث إن الأرناؤوط وضعوا جمع خلافاتهم الدينية والمذهبية جانباً، واتفقوا فيما بينهم في مؤتمر يدور حول اللغة، على ألفباء مشتركة. وهذا الموقف واتفقهم حيراً العثمانيين وبلبلهم أيضاً. ص89.

تواجه الأرناؤوط المسلمون والعثمانيون وهم يستشيرونهم في البداية، بصدد الألفباء، سوى أنهم فيم بعد يقبلون بها. وتتم الموافقة على الألفباء هذه سنة 1869، وبالتالي، فإنه في عام 1880، تنتشر هذه الألفباء بين جميع الأرناؤوط وتتم المصادقة عليها. ص 90.

يقول مقدار مدحت بدرخان في العدد الثاني من كردستان، مخاطباً أعيان الكرد: أيها الأمراء والآغوات، أسألكم: من منكم، يعلمني، ماذا عمل حتى الآن لوطنه، لكي نعلم أنكم تحبون وطنكم. إن حب الوطن هو الحيلولة دون دخول أعدائنا إلى وسط وطننا. حب الوطن هو أن نبني وطننا، أن نبني مدارس ومكاتب ونعمل الخير. حب الوطن هو أن نعلم أبناء وطننا القراءة، وأن نعلمه الصنعة والمعرفة. ص 96.

ومثله يقول عبدالرحمن بدرخان: إن محبتي لشعبي الكردي، هي التي قادتي إلى هذه الجريدة «كردستان»، وأظهر طريق المعروف للكرد. إن الروم «اليونان» الترك حيث يكونون، يبنون هناك مدارس كبيرة، والحكومة تأخذ النقود من الكرد، وتصرفها للترك. والكرد اليوساء أسرى تلك الحكومة، وسبب ذلك، هو أنهم يمدحون القتلة. أسفي على الكرد، وهم أصحاب عقل أكثر من الشعوب الأخرى، وشجعان، وبقي متخلفين أكثر كل الشعوب. ص 96.

ويقول عبدالرحمن بدرخان، في العدد الثامن، من كردستان: في الصراع الأرمني- الكردي، أعلم أن الكرد قتلوا الكثير من الأرمن دون وجه حق، والله لا يرضى عن هذا الوضع، والكرد آذاروا هذا الظلم بسبب جهلهم. ماكانوا يعلمون أن قتل الأرمن مثل قتل المسلمين. وجانب من هذا الإثم ملقى على عاتق علماء الكرد. على العلماء تعريف الجهلاء بالفرق بين ما هو خير وشر، لئلا يقتلوا الناس الأبرياء. ص 114.

وفي العدد نفسه يقول عبدالرحمن بدرخان: لقد ضاق الأرمن بظلم الدولة، فرفعوا صوتهم عالياً، ورفعوا أيديهم عالياً مطالبين بحقوقهم، إنما لأن الكرد جهلاء، فقد باشروا بقتل الأرمن. وقتلهم خطيئة على عاتق الكرد. وأنتم «أي الكرد» أكثر مظلومية منهم، إنما كونكم جهلاء، لا تنتهبوا إلى أنفسكم، ولا ترفعوا صوتكم. ص 114.

حول الإيالات الحميدية، يكتب عبدالرحمن بدرخان في العدد 28 ما يلي: الهدف أساساً من تشكيل هؤلاء الخيالة، عندما تضايق الأرمن من ظلم الحكومة كثيراً، وطلبوا العدل، خوفاً من أن ينضم الكرد بدورهم إلى الأرمن ضد الحكومة، وينطلق الشعب منتفضين، لهذا تهيأ زكي باشا لما هو دام، وهو يقدم طلباً للسلطان يستأذن بتشكيل تلك الإيالات، والحاكم لا بد عليه أن يوافق ما بين الشعب والأشخاص الذين يخضعون له. لهذا وجد فكرة زكي باشا ملائمة جداً، لكي يقرب الكرد، ويبعدهم عن الأرمن، وأعطى فرماناً بالإسراع إلى تشكيل هؤلاء الخيالة. ص 116.

ويتابع قائلاً: ها هي عدة سنوات، على تشكيل الإيالات، ومضرتهم في هذا الوقت، للوطن والشعب عvisية على التوصيف. ليس الكرد والأرمن فقط. إنما كردستان اليوم، أصبحت ثلاث خانات: الأرمن، الفرسان الحميدية، والكرد غير الحميدية. اليوم تكونت في كردستان هذه الخانات الثلاث متعادية، وهي تنهب بعضها بعضاً، تقتل بعضها بعضاً. الوطن أصبح مذاهب. إلى درجة أن كثيراً من الكرد والأرمن تنادوا، ليتفقوا، ساعين إلى كيفية التخلص من ظلم الحكومة واستبدادها ص 117.

ويمضي عبدالرحمن بدرخان في إضاعة العلاقة بين كل من الأرمن والكرد، في العدد 26، يتساءل بداية: ترى هل أساء الكرد إلى الأرمن؟ كلا! لكن هل عانى الكرد من الأرمن؟ أبداً.

ليتابع قوله: هناك مثال في مدينة ديار بكر، كان هناك زعيم عشيرة ميران: مصطفى باشا. هذا الرجل، قبل نحو 10-15 سنة، كان يمتهن رعي الغنم في عشيرته. وكانوا يقولون له بالكردية «مصطو الأقرع Misto keçelo». ما فعل فعله، حتى أصبح محل إعجاب أفندينا، وقد ساق الغنم. يضاف إلى ذلك، القبائح التي ارتكبتها، مضت في حوش الملك، حيث إن الملك فكر على أن هذا الرجل جهة سفك الدماء والإساءات التي يلحقها بعباد الله، سيصبح له سنداً قوياً. فأسبغ عليه بلقب باشوي، ومنحه مقام زعيم الفرسان الحميدية. ص 117.

وفي نموذج آخر حول وضع كهذا، يقول عبدالرحمن بدرخان في العدد 27: قبل عدة سنوات، وفي وان، وفي اجتماع انعقد بأمر من الملك، عندما تم اعتماد القرار، وحمسوا الكرد، لكي يقتلوا الكرد، حينها قال المرحوم عبيدالله الذي تواجد في الاجتماع: بالطريقة هذه، يكون قتل الأرمن ضد أمر الله. إن ملكاً أصدر أمراً كهذا، ملك ظالم، ويعصي أمر الله، ويجب إسقاط هذا الملك عن العرش، وإبعاده عن وظيفته. إن مطلباً كهذا من أجل الملك ليس خيراً. ص 118.

لا مقدار ولا عبدالرحمن كانا يطالبان بالانفصال عن جسم الدولة العثمانية، إنما كانا يطالبان من أجل كردستان ومن أجل الأرمن بتحقيق بعض الإصلاحات. أي كانا ضد الضرر الذي يلحق بالدولة العثمانية، وفي ذلك يقول عبدالرحمن بدرخان، في العدد 16 من جريدة كردستان: بالنسبة للمسلمين، هم يريدون أن تبقى الدولة العثمانية.. وكما رأينا، أنه في حال إذا هاجمنا وحش، ندافع عن أنفسنا، وتنقضي على ذلك الوحش بكل الوسائل. سوى أن هناك الكثير من الوحوش، حيث لا نراهم، والأدق أننا نراهم، سوى أننا لا نتحسس مضارهم. لهذا فإنه بجلاء، يكون ملك ظالم، أضر من كل الوحوش، كون الوحش يهلك شخصاً اثنين أو ثلاثة، إنما ملك ظالم، يمحو شعباً ويفنيه. إن إنساناً أمياً، وأعشى، لا يمكنه أن يرى قباحة ملك غير عادل، حيث تغلبه حيل الملك ودسائسه، سوى أن الرجل العالم، يعلم بالحقيقة، ويرى. ومثلما أنه بقي نفسه من حية، هكذا ينبغي صون أنفسنا من الآمرين والمأمورين السيئين.

ودولتنا «الدولة العثمانية» مضى عليها زمن، وهي تعيش سوء إدارة الملك، حيث أصبحت هزيلة وفاسدة. فإذا لم نستطع نحن أفراد الدولة، من إيجاد علاج لها، فإن انقراضها، لا سمح الله وارد. ص 121.

وينظر أيضاً فيما يخص واقع الكرد المنقسمين ليس بين دولتين «إيران- تركيا» وإنما دول أخرى ذات نفوذ دولي، وكيفية التلاعب بمصائيرهم، في كتاب:

د. ن. آ. خالفين: الصراع على كردستان «المسألة الكردية في العلاقات الدولية خلال القرن التاسع عشر»، ترجمة: د. أحمد عثمان أبوبكر، جامعة بغداد، بغداد، 1969، في هذه الاقتباسات:

الفساد والرشوة ونهب الخزائن هي صفات متأصلة في الامبراطوريتين الاقطاعيتين التركية والإيرانية، وكذلك تفكك جهاز الدولة- كل ذلك انعكس بحدة على حياة السكان المحليين.

ص 18.

وليس خافياً أن أسلوباً كهذا يتخذ من الأرض كقاعدة تحرك عملياته الميدان الأكثر رحابة، جهة التصرف بالسكان، باجتماعهم من أصولهم، ومحو كل أثر لهم، بنفيهم أو تشتيتهم وإسكانهم في أماكن تجمد فيهم الذاكرة المكانية.

وهو ما يتضح كذلك، في الكتاب المرتبط بسياسة الدولة التركية ضد الكرد في تهجيرهم وإسكانهم القسري، ومن ثم ملاحقة كل شعور، كل ارتباط، كل دال ثقافي كردي، للقضاء عليه، كما في «التوطين القسري للكرد»:

وصف ديتيل الباحثة الروسي الذي زار إيران في الأربعينيات من القرن التاسع عشر الوصف الشيق الآتي: جمهور رث الثياب مع شارة بيضاء على الكتف- أولئك هم فرق الجيش، هؤلاء هم جيش المؤمنين الذي لا يقهر. هؤلاء المدافعون عن الدولة لهم حقوق لا تحد. فهم يتاجرون ويسرقون ويقطعون طرق السابلة- بكلمة، يعملون كل ما من شأنه جلب الفقر والكسل والبطالة والتسيب، وسكان القرى المذعورون من هذا الجراد الوافد يهربون إلى جميع الجهات حاملين معهم ما استطاعوا حفظاً على الأموال من الجندمة النهاية، حتى الأكواخ والحدائق والبساتين والأشجار تغدو ضحية النهب والاقتلاع. ص 19.

فصل: تغفل انكلترا في كردستان في الثلث الأول من القرن التاسع عشر. ص 27-40.

فصل: روسيا القيصرية في الثلث الأول من القرن التاسع عشر. ص 41-48

الحرب الروسية التركية 1877-1878 وموقف الكرد.

في بداية حرب 1877-1878 توجهت السلطات التركية إلى أبرز الزعماء الدينيين والسياسيين الكرد تناشدتهم إلى مساندة تركيا. واستجاب لهذا النداء قبل الجميع عبيد الله الذي توجه من هكاري نحو الشمال على رأس 300 مسلح. وقد نجح هو في الحصول على الموافقات بالاشتراك في الحرب لعدد من الإقطاعيين الكرد في شمال- شرقي تركيا الذين أملا أن يتخلصوا من وضعهم البائس على حساب مغامرات الحرب. ولعب في هذا الأمر بدور غير قليل، العملاء البريطانيون الذين اشتروا ولاء رؤساء القبائل الكردية. ص 101.

إن وضع الامبراطورية العثمانية البالغ سوء تدهور أكثر بسبب أزمات المالية حدة التي مزقت البلاد، وبسبب الفساد والرشوة بين الموظفين من كل المراتب والانحياز الكلي للجهاز الإداري. إن البوليس وكل أصناف جباة الضرائب عاشوا على حساب انتهاب السكان وتجمعت في أيديهم كميات هائلة من المال التي كانت الخزينة تحتاجها أشد الحاجة. والمحاملون الصغار صاروا ضحايا من هم أكبر منهم- الباشوات حكام المناطق والأقاليم. ص 111.

إن التدخل النشط للمبشرين في الحياة السياسية لكردستان وغيرها من أقاليم تركيا وإيران خلق مراراً المبررات المناسبة للدول الكبرى الرأسمالية لممارسة الضغط على الدوائر الحاكمة في البلدين الشرقيين لإجبارها على أن تكون أكثر تفهماً لمطالب التوسعيين الاستعماريين. ص 152.

طبعاً، لا يخفي الكاتب «السوفيتي» عقيدته الشيوعية تجاه مكونات الشعب «الطبقية» سوى أنه في جل ما أفصح عنه في كتابه، يضيء حقيقة تاريخية غاية في المراتبة كردياً.

فد (تحديد الإيديولوجيا الرسمية ونشرها، لنتجه مجدداً صوب نموذج تركي: إن استخدام الإيديولوجيا الرسمية في جهات كردستان قد جرى بهذه الطريقة: قبل كل شيء، إن الذين يعارضون الإيديولوجيا الرسمية، أو الأشخاص، فالمؤسسات، والعوامل التي يمكن لها أن تكون معارضة معها، وبصورة منتظمة، قد جرى فرزها الواحد إثر الآخر. سيستام الفرز هذا، قد ظهر في جميع الثورات الكردية والتي تقع ما بين عامي 1923-1938. إن كل العناصر التي تريد العيش بوصفها كردية، وعدم فقدان صفاتها، تم إبعادها ببعض الوسائل عن السيستام السياسي أو سيستام الدولة.

إن كل العناصر التي لا تريد أن تكون تركية، ولم تقبل بالترك، وأرادت العيش ككرد، تم إقصاؤها ببعض الوسائل، وأجبرت لأن تكون تركية. لقد قضيَ عليها عن طريق الجينوسايدات، وعن طريق النفي أيضاً قضيَ عليها، وكذلك عن طريق الإمحاء أيضاً قضيَ عليها، وعن طريق الضغط بالمقابل قضيَ عليها، وعن طريق الصهر القومي قضيَ عليها أيضاً. وذلك في إثر الزمان والمكان، الواحد تلو الآخر أحياناً، حيث استخدمت هذه الأساليب معاً.

إن العناصر المعادية للإيديولوجيا الرسمية أو القوة المعارضة معها تكون موجودة، بعد فرزها بطرق منتظمة، وسط الباقيين، ومن أجل الدفاع عن الإيديولوجيا الرسمية ونشرها للأكثر تجاوباً معها، قد تم انتقاؤها. هذه العناصر التي ترفض كرديتها، وتعرّف بنفسها تركية، قدّمت لها الدول كل الإمكانيات المطلوبة، وأزالت العقبات في طريقها، لكي تصبح في البرلمان وأشرافاً⁽¹⁾.

ومن يتابع هذه الكتابات البشكجية، يتلمس فيها ذلك التعاضد والتفاعل بين كتاب وآخر، وبدءاً من نهاية ستينيات القرن الماضي، وحتى مطالع تسعينياته، لتأتي مجموعة من الكتب الأخرى، وحتى الآن تعزيزاً لمقولاته السالفة حيث يتداخل فيها النظري والتطبيقي، وهو يستقرى تاريخ ممارسات السلطة التركية عبر حكوماته المتعاقبة على الأرض.

ففي كتابه «انبعاث كردستان الخيالية»، استشراف آخر، لذلك الوهم السلطوي الذي حاولت تجذيره، في نهاية عشرينيات القرن السابق، ومستهل ثلاثينياته، بعد إخفاق ثورة «آارات» بزعم أن كردستان «انتهت» إلى الأبد:

(1) بشكجي، إسماعيل: التوطين القسري للکرد، ترجمه عن الكردية وقدّم له وعلّق عليه: إبراهيم محمود، منشورات مركز بشكجي للدراسات الإنسانية، دهوك، 2018، ص 64.

(إن سياسة دولة الجمهورية التركية القائمة على معاداة الكرد وكُردستان، وحالة الدولة في كُردستان كما أوضحنا بداية، هي هكذا. حيث إن تركيا هي العائلة التي قدمت من مكان بعيد وتمارس التعدي. يرحل أتراك أوغز في القرن الحادي عشر من آسيا الوسطى، متجهين إلى إيران، ومن هناك أيضاً يدخلون إلى كُردستان والأناضول. والكُرد منذ القدم يعيشون على أرضهم، سوى أن الدولة التركية فيما بعد، وخصوصاً بعد حقبة الجمهورية، اغتصبت حقوق الشعب الكردي الاجتماعية والقومية، وعندما طالب الشعب الكردي بحقه، فإنها حينها أستخدمت طريقة التجاهل والتكبر. مثل «هل الكُرد موجودون، لا توجد لغة كردية، الجميع أتراك/ ترك، وأن لغة باسم اللغة الكردية هي جزء من اللغة التركية

Kürt yok ki, Kürtçe yok ki, herkes Türk ve Kürtçe denen dil de Türkçe, den başka birşey değil.».

وعندما أصرَّ على نيل حقه الديمقراطي والقومي، ومباشرة النضال، حينها اعتمد أولئك «الأعداء» ضغوط إرهاب الدولة، وسد الطريق في وجه ذلك المسعى «النضالي» للكُرد، وقد ضيقت الطرق الديمقراطية والسلمية، وأصبحت التهمة الفكرية أهم تهمة، أصبحت في مقام مسلك إرهابي ووضعية إرهاب. ولكي تتمكن الدولة من التغطية على إرهابها «التكبر له» وتغييبه عن الأنظار، فقد أشارت إلى إرهاب الكريلا وبالمبالغة فيه، حيث إنها قوّت إعلامها بشدة لهذا الغرض وبسهولة⁽¹⁾.

ولعل الوهم هذا وكما تبين من الاقتباس الوارد آنفاً، نتاج إرهاب الدولة بالذات، وهو نفسه من جعل من هذه العبارة عنواناً لكتاب له، وهذا ليس بالأمر اليسير، ففي كتابه «إرهاب الدولة في الشرق الأوسط»، هناك:

(الزعم، بأن الكُرد لا يمتلكون الإرادة على قيادة أنفسهم ليس صحيحاً، إنما هي إرادة استعمارية، امبريالية وعنصرية. الاستعمار، العنصرية والامبريالية، فقط هي من تستطيع المضي قدماً بمعاملة كهذه تقوم على شرعنة عملية نهبهم. إن العجز عن قيادة الكُرد لأنفسهم، يظل أفضل من أفضل إدارة تركية، عربية وعجمية، ومن ناحية أخرى، فإنه من أجل الكُرد، يجب معرفة حقوق الكُرد «غير المفيدة» هذه.

(1) بشكجي، إسماعيل: انبعث كردستان الخيالية، ترجمه عن الكردية وقدم له وعلق عليه: إبراهيم محمود، منشورات مركز بشكجي للدراسات الإنسانية، دهوك، 2018، ص55.

الزعم الآخر وفجواه بالمقابل، بأن بناء الدولة الكردية سوف يكون مرتبطاً بالامبريالية، سوف تصبح دولة الآغوات، البكوات والرجعيين. وهذا التقييم أيضاً غير صحيح، إذ لا بد أن بناء الدولة هذه سيتم بسواعد الكادحين، ولا بد أن يكون حضور الكادحين في الدولة هذه سائداً. عدا عن كل ذلك، على اليساريين الأتراك، الصحافة التركية، الجامعات التركية... الخ، القبول بأن للكرد حقاً في بناء دولة لهم، وتمتعهم بها. وأنا على يقين من أن هذه الفكرة سوف تتقدم قليلاً. إذ منذ سبعين عاماً واليساريون الأتراك يقودون نضالهم على هذا الأساس. ضد الدولة، يرسمون مبادئهم السياسي والإيديولوجي على هذا الأساس: تركيا بدورها دولة الآغوات والبكوات. إنها دولة الرجعيين والرأسماليين. الدولة التركية مرتبطة بالامبريالية بدورها.^(١)

...الخ

وتاريخ العلاقات القائمة بين ردود أفعال السلطة في تركيا تجاه كل حركة تحرر تركية إلى الآن، هو من هذا القبيل، وهو ما يمكن النظر فيه فيما قامت به حركة هفيران، والتي لم تتخذ حقها من المتابعة جغرافياً وسياسياً.

إن ما يقوله أحد الباحثين، وكما رأينا في الكتاب الأول، في مسلك حاجو الثالث، أو حاجو «هاجو» لديه، لا يعدو أن يكون استمراراً لما قامت به حركة عليكي بطي، إنما في مساحة جغرافية مجاورة، وعميقاً وتوسيعاً لها وبوسائل مختلفة:

(وبرز هاجو بيبك زعيم عشيرة هافرنيكي قائداً للمجاهدين العاملين في منطقة الحدود التركية السورية...)^(٢)

لعل هذه العلاقات تدخل في نطاق المتوالية الهندسية، وهذه المتوالية تحول الأرقام إلى بشر من لحم ودم، والخطوط البيانية وزواياها، تحيل الوقائع على الأرض، إلى علاقات، وتحركات، ودرجات شدة واسترخاء أو تصاعد عنف.

وفي المنحى، لا بد من مكاشفة أي حركة في ظروفها الزمانية- المكانية، حيث وطأة الظروف هذه، تترجم التحدي الذي تواجهه، والمصاعب التي تعترض سبيلها، وهي عملياً المخاطر البنيوية.

(1) بشكجي، إسماعيل: إرهاب الدولة في الشرق الأوسط، ترجمة وتقديم وتعليق: إبراهيم محمود، منشورات مركز بشكجي للدراسات الإنسانية، دهوك، 2017، ص 64.

(2) علي، عثمان: الحركة الكردية المعاصرة «دراسة تاريخية وثائقية 1833-1946»، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرنند- فرجينيا، الولايات المتحدة الأميركية، ط2 2008، ص 523.

جبو يقلل من الطابع الاجتماعي السياسي لجهود بطي، نظراً إلى محتواها، بإرجاعها إلى ما هو عشائري، وهو محق في ذلك، ولكن إيقاف المحتوى عند هذه النقطة، قد يقلل من شهادة التاريخ الذي يقول شيئاً آخر، على الأقل، تجاه ما كان يتردد في طبيعة اتصالات بطي بآخرين تحضيراً لحركته، ولما وجد ترجمة عملية له في الوثائق المتعلقة به:

(ومهما كانت مساعي أو جهود علي بطي موجهة نحو أهداف قومية تحررية إلا أنها بقيت من حيث الجوهر بعيدة عن التحول إلى بنية قومية عصرية...ص 100).

تالياً، يتوقف عند معركة «تتاتي/ تينات في الترجمة العربية» كتعبير دال على ذلك، وفي نص ذي طابع شعبي ملحمي، سيكون له مقامه في الفصل الأخير، كما أسلفت.

لنقرأ ما يخفف من هذا التحديد الوصفي، حيث يضيء القول بآخر، استدراكاً، أو تنويراً بخصوص الحركة تلك (إلا أنها ذات مضمون قومي ووطني من جهة أخرى. ويمكن ملاحظة ذلك من الجهود التي بذلها، والعلاقات التي أقامها بعد هدنة موندروس، فقد التقى زعيم الهفيركان في هذا السياق مع أكبر منافسيه، وحتى مع ألد أعدائه من زعماء العشائر، ولم يتردد عن المناداة بالوحدة، وكان أحد هؤلاء الزعماء العشائريين عزالدين آغا زعيم الدكشوريين الشهير...ص 104).

أكان ذلك هكذا تحديداً، أم أقل من هذا المحدد، فإن الذي تكشف عنه التقارير، ومن خلال خطوط تحركات بطي، تقول ما يثبت أنه كان من هذا النمط: كيفية رآب الصداق داخل «اتحاده» وداخل الرقعة الجغرافية الأوسع التي كانت هفيركان تعيش فيها والعشائر أو القبائل الأخرى التي تتجاورها أو تكون قريبة منها. ولا أنقد أن لقاءاً استثنائياً من هذا النوع، وهو يجتمع مع زعيم الدكشوريين، وكما جرى وصفه، يشكل شاهد حقيقة تاريخية، دون ذلك كيف يمكنه أن يتعدى تلك الشبكة الكبرى من التصورات والخلافات وحتى عمليات النزاع والتقاتل والمناورات الجانبية، ويمضي هو إليه؟

في ذلك شيء من ضبط النفس، وفي ذلك شيء من حكمة الواقع، وفي ذلك شيء من الوعي المتعدي للأناية، أي الغيرية.

وفي هذا المسار الصعب، يكون إلى تاريخ المرحلة متناسباً مع ما كان يجري، أي اعتبار الخسارة ليس هزيمة شخص أو جماعة محددة، وإنما انتكاسة الروح المراهنة عليها جماعياً، حيث لم يلتزم بها، إثر فسخ العقد التحالفي كما يظهر.

وبما أنني أتحرك تفسيراً وتأويلاً وتحليلاً، تجاه ما أقتبسه، وأستعين باقتباسات أخرى، ذات صلة، أو من الحقل الاسمي نفسه «حيث يتكرر اسم بطي»، يستحضرني قول شعبي بالعربية «هو لعب عيال»، والعيال هم الأطفال الصغار، الذين لا ينفكون يلعبون معاً، وبحميمية أسرة، وسريعاً ما ينفصلون، ويفكون العلاقة، بإيجاد المبرر النفسي.

لكنه في الواقع لعب أطفال صغار، ومحط انتباه المربين ممن له اهتمام بمجاله، حيث إنهم سرعان ما يعودون إلى اللعب نفسه، وكأن شيئاً لم يكن، طبعاً، لعدم وجود حسابات «سياسية» أو خلفيات معينة، تبقيهم متباعدين، وليس «متخاصمين»، بينما في الحالة التي نتابعها ليس الأمر كذلك، إنه «لعب عيال» من نوع ماكر، نوع محسوبياتي، تتدخل لغة الأنانية بخاصيتها النفسية الكبر: الحساسة، ودورها في إشهار ما يعزز مقامها، وكأن الواقع هو هكذا، إنما هو واقعها الخاص.

وما سنورده يشير إلى مثل هذه العلاقة وكيفية تلوينها ذاتياً:

(تضيف بعض المصادر الرسمية الجانب الديني إلى الموضوع بالقول بأن علي بطي كان يقول: «إنني ممثّل الخليفة الذي في ستانبول» لأجل إقناع أهل المنطقة.

وجاء في كتاب «جوانب غير معروفة من كتاب الجمهورية» كان يقوم بالدعاية لأجل كسب تأييد الأهالي وزيادة عدد أتباعه بالقول «نظراً لعدم كفاية قوات الدولة فقد ترك لي البادشاه» أي السلطان العثماني «أمر الدفاع عن المنطقة، وفي غضون مدة قصيرة سأسستقر في ماردين وأتحمل مسئولية الدفاع عن المنطقة».

يضيف جبو معلقاً: لم أجد في المصادر المحايدة التي استطعت الوصول إليها شيئاً بخصوص ما إذا كان علي قد قال مثل هذا الكلام أم لا. ولكننا نعلم أنه يوجد قول مماثل لمصطفى كمال. ففي نفس التاريخ كان مصطفى كمال قد وصل إلى الأناضول، ولأجل كسب تأييد الناس استخدم تكتيكاً مماثلاً، إذ كان يقول «هدفي هو إنفاذ السلطان والخلافة»..ص105).

إن أهم ما يفتقر إليه كتاب جبو، ونحن بصدد واقعة مسيئة كهذه، وهي مخرّجة من ذهنية ثكناتية وسلطوية معادية، هو جانب الوثائق، حيث كان يسهل عليه، وهو مؤلف كتاب بالتركية، أن يضمّن فقرات كهذه بالمزيد من الوثائق التي يمكن العثور عليها في الأرشيف العثماني، أو في تلك المرحلة، ليزيد في زخم التاريخ ويمنحه عمقاً وصلابة معنى أكثر.

وفي العودة إلى الموضوع نفسه، جهة الطرق المتبعة في جعل المعتبر عدواً، محملاً بمختلف النعوت التي تنفر الآخرين منه، وبهذا، فإن قراءة الأدبيات السياسية لدولة معينة، تكون خير دليل لمعرفة طبيعة النظام فيها، لا بل والحكم، ونوعية العلاقات التي تمارسها الدولة هذه أو تلك تجاه مواطنيها. حيث لكل كلمة مدلول خاص، مميز، لا يجوز استخدامها، إلا في السياق الذي يتناسب والظرف القائم. إن إطلاق العنان للنعوت هذه، مكاشفة فورية لحالة العراء التي تعيشها الدولة.

ذلك ينطبق على مفهوم «العدو» وابتداعه، ومن ثم اصطناعه، وبالطريقة هذه، يأتي كل نعت آخر، مضافاً إلى الكلمة «الأصل» أي العدو، لأن العدو يعني أن كل الرذائل أو القبايح تدرج في نطاقه، وما في ذلك من عنف المستخدم، ما في ذلك من الصراع الذي يعتمل في الجسم السياسي للدولة بالذات، وبالتالي (تطالبنا الشدة العالية التي تميز الصراع بين الأعداء بلزوم ربط ظاهرة العداء بظاهرة الحرب. ترى، ما الذي يدفع الجهات الفاعلة إلى نسب حالة العدو إلى خصومهم؟ من وجهة نظر الفاعل، يتعلق هذا الإسناد بالاعتناع بأن نشاط الطرف المعارض خطير بشكل خاص، حيث إنه ينطوي على تهديد خطير تجاه ما يعتبره الفاعل قيمة أو ممتلكات محمية، في كل مرة يتعلق الأمر بمسألة القيم أو السلع التي تؤهل الممثلين للوصول إلى العواقب الأخيرة عندما يتعلق الأمر بالدفاع عنهم).⁽¹⁾

إنها أسلبة الآخر، بما يجردّه من كونه الآخر، لأن للآخر، بالمفهوم الفلسفي، كيان، أو اعتبار شخصي، يستدعي الرجوع إليه، وتفحصه، وحتى التأكد من حقيقة المنسوب إليه من كلام، وهنا، أي سالفاً، يجردّ المنعوت بكل ما ليس إنسانياً، لأن الذي يضمن فيه هو: اللاسوية، أي الخبل، العته، السفه، العناد، الفساد، النجاسة، الغرور، الشقاوة... الخ.

وما هو منسوب إلى بطي، يدخل في هذه الخانة النعتية أو القدحية، أو التشهير، وهو: حرفياً «تزوير الحقيقة»، وهو يستند من حيث القيمة، إلى معرفة دقيقة للوسط الاجتماعي الذي يرتبط بكل من الناعت والمنعوت، ويعرف أي نوع من الكلام، وجراء التعامل اليومي معه، يكون أكثر تأثيراً، ومحاولة إفشال مساعي الآخر، وغلبته قبل بدء «الهجوم»!

(1) Errázuriz, José A: L'ennemi, encyclo-philo.fr

إيرازوريز، جوزيه: العدو.

والدولة العثمانية ووليدتها الأكثر حمولة بالعنف المركز، ذات تاريخ حافل في هذا المقام السيء الصيت، لحظة التعامل مع طرف، واعتباره عدواً، كما أشرنا إلى ذلك، في أكثر من نقطة، وللدين حظوته، كمطحنة كبرى، تملك حجري رحي، قادرين على طحن كل ما يدخل بينهما، لطحنه، وتذيريه، لأنه الحامل لما هو أخلاقي، وكيفية تزييف محتواه، يقول جبو:

(إن السياسيين ورجال الدولة يلجؤون إلى استغلال المشاعر الدينية لغرض التأثير في الناس وإخضاعهم لسلطتهم، وحتى لو أن مثل هذا الأمر لم ينجح كثيراً فإن لجوء زعيم هفيران يجب أن يكون حالة مماثلة «لم يكن هذا أول مرة يستخدم فيها الدين وسيلة لتحقيق المصالح، فالأتراك أيضاً استخدموا الدين وسيلة للتوحيد حيناً، وللتفرقة حيناً آخر حسب مقتضى الحال» ص 105).

ومن المؤكد أو المتوقع، أن فعل التصعيد بتوتير الأجواء، يمهّد للمواجهة، كما رأينا في الهجوم على نصيبين سابقاً، وما جرى إثر ذلك، حيث كان عليكي بطي وشمعون حنا حيدو، ورجاله الآخرون ممن انخرطوا في عملية الهجوم.

يعني ذلك أن بطي قد رفع من حالة المواجهة العادية والمتقطعة، إلى حالة الحرب، وهي الدرجة العليا فيها، وبالطريقة هذه، كما هو معلوم، يكون قد حدد بالنسبة إليه، أو الدولة، بداية النهاية، أي ما يخص الحسم، ناحية الدخول في الحرب.

لا مجال آخر أمام الدولة، وبوصفها دولة إلا أن تعلن حربها وبطريقتها، وأن تستمر فيها، وما هي ترى ما فعله «عدوها» فيها، جهة إذلالها، وفي عقر دارها، كما يقال. إذ كمنا رأينا، فأن يغزو المدينة، وهي رمز دال عليها، وألا يكتفي بمجرد الدخول، إنما كسر شوكتها، من خلال القوة التي تمثلها فيها، ومن ثم ما هو أكثر من ذلك، وفي وضع النهار، وعلى مرأى من العالم هناك، بتخطيط بوابة السجن، وإخراج السجناء، وإطلاق سراحهم، لهو التحدي الأعظم، ربما، في تاريخها، أو الإهانة الكبرى لدولة لا تزال تنتظر إلى نفسها، على أنها إمبراطورية، وتتعامل مع الدول الكبرى على أنها كذلك، وإن جرى وصفها بـ «الرجل المريض» وتعرّف بنفسها في جهاتها المتبقية على أنها كذلك، لا بل إن الناس، ومن خلال التربية «العثمانية» على أنها إمبراطوريتهم حيثما كانت، وباسم الإسلام، وما في ذلك من استعادة تلك الثنائية الفارقة «دار الإسلام ودار الكفر»، ومن خلال ألقابها، وكيل المديح لها على مدى مئات السنين، يعني ذلك أن الحق معها، وأن الله معها، كما هو المذاع أو المقرر في الأدبيات الإسلامية والدعوية الكبرى، وباعتماد

هذا التفريق، يصبح كل من يعترض طريقها أو يناصبها العداء، خارجاً، أي منتمياً إلى دار الحرب، فلا بد أن يكون كافراً، ويصبح إعلان الحرب ركناً مقدساً من أركان الإيمان والدود عن حياض الوطن دينياً، ولم يعد في الإمكان التأجيل، لأن «العدو» أصبح يهددها في هيبتها، وسطوتها ورمز كبريائها، وأكثر من ذلك، ينذرهما فيما تتخوف منه، وفي هذا التوقيت: تحويل الحلم الكردي إلى واقع، وما يترتب على فعل التحويل هذا من ردع لها، وتجزير لقوتها، أي طردها من بين أكثر البقاع الجغرافية ثراء وموقعاً استراتيجياً «کردستان» الموطن الذي يشدد عليه الكرد، وهذا ما دفع بها إلى مطاردته، وهو لم يعد ذلك «النكرة» الذي ما كان يسمى سالفاً، حيث الدعاية لم تعد تفيد هنا، لأن صوت البندقية أصبح هو المسموع، وقد أصبحت سلسلة الأمانة التي «اجتاحها» قوات بطي ورجاله تحت سيطرته، والذين يقيمون هناك، وبدافع التأثير، ومن خلال سماع الأخبار، باتوا ينضمون إلى قواته تلك، كما هو مفعول «عقار» القوة الذي يغير في مسار التاريخ، ويحيل إلى خائنه كل الأسماء والمسميات التي تكون في متداول الناس، وقد تلونت باسمه، وبدت سياسة بطي العسكرية لافتة، وقد أخذ معه إداري السجن والمدينة رهائن معه، وهو إذلال مضاعف، وتحدّ سافر لا قبل للدولة به سابقاً.

كما قلت، في وضعية كهذه، تتراجع الدعايات الجانبية، والنعوت والأوصاف التي توجه إلى «العدو» وقد اتسعت ساحته، وذاع صيته، كما تتراجع نجاعة كل استخفاف أو سخرية أو إطلاق «نكت» من باب التهكم فيه إلى الراء، لا بل تغدو هي الأخرى مقارنة بما يجري على أرض الواقع تعبيراً مباشراً عن انهيار الدولة، وهنا لا بد من الجد وليس سواه.

ومن المؤكد أيضاً، أن للانتصار، بالطريقة هذه، نشوته، سحره وفتنته، لا بل وتأثيره المتنامي، كلما تم تحقيق المزيد منه، وهذا من شأنه الزيادة المضطردة في رفع معنويات المحاربين، ومضاعفة التصميم والاستمرار بعزيمة أكبر، ومن ثم، ما يصيب أولئك الذين كانوا يستخفون بعلبيكي بطي بالذات، ويحاولون النيل منه داخل عشيرته، ويعقدون اتفاقيات، أو صفقات فيما بينهم، بينهم والدولة، ويلتحقون بصفوفها، أو حتى يرصّون صفوفهم في قتاله، والتنافس معه على الزعامة، ومن أقرب المقربين إليه، ها هم أيضاً يصيبهم الخذلان، وتآلهم الخيبة والخسران، ويكشف لهم خداعهم بأنفسهم، وبما يقولونه في حقه، وقد أصبح هو الاسم الذي تلوكة الألسن، وإليه تتجه الأنظار، شأن كل منتصر، حيث الحقيقة في الحالة هذه تكون معه، والقوة هي التي

تكون العرابة الكبرى، والضامنة الكبرى لاستقطاب المزيد من الناس: المحاربين، أي تتسع الدائرة مع الوقت، وحيث لا ينبغي نسيان الدافع الفاعل في الموضوع، من بين مجموعة الدوافع التي تتلاقى في مثل هذه الحالة التاريخية المصورة، وأعني به دافع المكبوت، للرجبات، وذات الصلة بالقهر والغضب والسخط، وقد انفجر، وأن أوانه، تعبيراً عن الانتقام الموعود، من عدو تاريخي، لم يدخر جهوداً في استلابهم أعز ما يملكون في بيوتهم، وفي حقولهم، وحتى الإساءة الكبرى إلى ما يعتبرون رمز بقائهم «شرفهم» حيث العبث به كان قائماً، فتصعد بهم همتهم القارة في نفوسهم فعلاً عملياً، من خلال التدفق روافد في نهر القوة المشكلة، حرب عليكي بطي ضد «الباب العالي» ومن يمثله الآن، كما هو العرف الساري المفعول، أي تسمية الحروب في وضع كهذا بأسماء من يتزعمونها بداية.

وما أردت التعرض له، من هذا المنظور الذي قد يكون وصفيّاً، إلا أنه من حيث البنية، له صلة مباشرة بأدبيات الحرب الدائرة على الأرض، وتلونات النفوس بذلك، ومتغيرات الحالة النفسية قبل خوض الحروب أو أثناءها وبعدها كذلك، وبالنسبة إلى الكرد، الذين لهم تركيب نفسي مختلف، جرّاء المظالم الذين يرونها دائماً مغايرة لمظالم الآخرين، وهي تتال منهم، جرّاء وضعهم المختلف، لهذا يكون التوق إلى هذه اللحظة الفاصلة في الزمان والمكان.

وعليّنا أن نتوقع ما يمكن أن يحصل، لدى الطرف الآخر، لا بل ومن يكون على امتداد الطرف الآخر: القوى المتنفذة على الأرض، وفي الجوار الجغرافي لهذه البؤرة المشتعلة والمنفجرة مواجهاً ميدانية، وقد بانت شرارات ألسنة نارها هنا وهناك، وصار هناك اهتمام أكثر، من ناحية المتابعة المكثفة، ومتابعتها خطوة خطوة.

وهنا تُستدعى إلى الذاكرة تلك القوة الاحتياطية المعدة لهذه الحالات المتوقعة، أو المخطط لها بين الدول ذات النفوذ: على كل قوة، مهما بلغت ضراوة، ومهما تأكدت مشروعيّتها، وفي حدود المقدّر لها، أن يُقضى عليها، طالما أن ليس هناك، تحديد مكان مستقبلي لها في خريطة «سايكس-بيكو»، وهذا ما كان يزيد في رصيد القوة لدى الأتراك عملياً.

هنا نقرأ ما هو ميداني في كتاب جبو:

(واصلت الفرقة الخامسة مطاردتها للهفيركان إلا أنها أدركت أن لا جدوى من ذلك. ولهذا فإن الوحدات التابعة للواء المشاة السادس في المنطقة بدأت التحرك إلا أن

جبال هفيران وحجارتها كانت تحترق تحت أرجل الجيش. وكان علي يتراجع، مثلما فعل عمه حاجو، معركة بعد معركة، كما كانت قواته تتضاءل مع مرور الوقت.

ومرة أخرى كان الكرد يتلقون الضربة من الكرد. فلأجل القتال ضد علي ليس إلا، انضم جليبي الذي أطلق سراحه من السجن إلى قوات الدولة مع أتباعه. وبالإضافة إلى ذلك انضمت عشائر دكشوري وأومري وكوسي وهبزيني وحصاري، وكثير من العشائر الكردية الأخرى إلى جانب قوات الدولة، وطوقوا علي ومجموعة صغيرة من المقاتلين في أطراف قرية مديه «مديه» Midih. ولم يبق سبيل للفرار هذه المرة.

وكان مقاتلو هفيران المسلمين والمنسيحيين والإيزيديين يسقطون قتلى واحداً تلو الآخر واستمرت المعركة يوماً (ص 107).

ثمة حاجة معرفية وتاريخية إلى وقفة عند مجموعة من النقاط التي شكّلت عوامل بناء هذا الاقتباس:

لقد لاحظنا، في الوثيقة المؤرخ لها في 15 نيسان 1919، تلك الإشارة إلى تحركات عليكي بطي. يعني ذلك الاستعداد لشن حرب ضد الدولة، ودون إعطائها تلك الأهمية، مقارنة إياها بتحركات زعيم آخر مثل الشيخ محمود، أو سمو آغا.

وهذا يعني ذلك، أن حركة هفيران كانت تنظّم نفسها، وتتسق مع الأطراف التي اتصلت بها من أجل هذه المجابهة.

فيكون بين تاريخ هذه الوثيقة وبدء العملية، في 11 أيار 1919، أقل من شهر، وهذا يشير، بحسابات ذلك الزمان، وطبيعة التحركات على الأرض ونوعية الاتصالات، في رقعة جغرافية معروفة بتضاريسها الصعبة، إلى ما هو نوعي، في الجاهزية، وسرعة التحرك والمناورات.

كما نوهت، تغدو القوة في بدايتها عامل إخافة حتى للطرف المحارب في نسبة منه، تجاه عدو تاريخي له صيته وسطوته، من خلال حجمه وانتشاره على الأرض، وحتى لدى من يتردد في الانضمام، فيحصل الانضمام، ربما خوفاً من حسابات سوف تُجرى جهة محاسبة من لم يشارك، وتداعيات هذه المعاملة وانعكاسها على موقعه، ومكانته كذلك.

لا أدري، إلى أي درجة يمكن المصادقة على الحديث المتعلق بلفح حرارة الشمس، ولسعها بالنسبة للجيش التركي، في جبال هفيران وحجارتها، وفي ذلك التاريخ، أي من المتوقع أن تكون الحرب الواقعة في شهر أيار. أي ما إذا كانت حرارة هذا الشهر

الربيعي، مؤلة وضاطعة على تقدم الجيش التركي أم لا، أم أن هناك عوامل أخرى، أوقفت تقدم الجيش، لم يُشَر إليها مباشرة، إثر تراجع قوات بطي، ولعل مباشرة القتال ضدها، جاء هذه بالوكالة أكثر، من ناحية القوات الكردية المتحالفة مع بعضها بعضاً، ضد قوات علي، تأكيداً على أن هذه من المنطقة، وتعرفها منخفضاً ومرتفعاً، سهلاً ووادياً وجبالاً، هضبة وتلة ووعرأ ومسيل ماء... الخ، وكيفية الدخول في المواجهة من خلال هذه المعرفة اليومية بالجهات الجغرافية تلك، ومن هذا، يتوقع أن الجيش التركي لم يترجع، بمقدار، ما جاء التكليف للقوات التركية: حليفته، لتخوض هي حربها الأكثر ضراوة، والأكثر تصميمًا، لأن فيها حرب وجود وحدود، حرب تأكيد ذات، لطالما كان لها الدور الفاعل والمؤلم في الحكم على النتائج أو النهايات المقررة لكل حرب كردية ضد عدوها، وما في ذلك من حسابات ثار وأحقاد جانبية بالمقابل، وكل محارب كردي، يعرف الآخر في قوته الفعلية، ومتى تتداعى، وضعفه، ومتى وكيف يُنال منه.

أي كما هو معروف تاريخياً: ظلم الأخ للأخ، أو ظلم القريب للقريب أفتك من ظلم العدو، كحال الشاعر في قوله الدال:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند
كل قريب يعرف نظيره: قريبه بالمقابل، حيث تتحول القرابة إلى لعنة، وسم زعاف في جسم الآخر، أي على قدر القرابة تكون الإصابة، كما يقال، وعلى قدر محبة القريب الأقرب لقريبه، في الحالة هذه، يكون الإيلام والانتقام بالمقابل.

هل لنا أن نتوقف قليلاً، بعد هذا التتوير الصادم للجسد الكردي وقد انقسم على نفسه، كما هي دوراته التاريخية؟

لا بد من ذلك، وهو السؤال الذي يقض مضجع كل معني بهذا الداء الذي لا بُرء منه، أو الجرح الذي ما أن يندمل قليلاً، والجسد يتعافى لبعض الوقت، وتعلن دورة قوته وبروز صيته عن نفسه، حتى تباغته دورة إضعاف من داخله في الحال!

إنما هناك أسئلة، أجدني متحمساً لطرحها هنا بداية، ودون تسمية أحد طبعاً، وهي:

ما الذي يثير في هذا الذي يصطف إلى جانب عدو «بني قومه»، من نوازع ومشاعر وانفعالات، ليكون هكذا؟

أي تخيل يملكه لذاته ذات الانتماء المحدد «الكردي» وهو يرى نفسه أكثر تجاوباً مع فكرة الانخراط في صفوف العدو؟

ألا يتصور أنه ربما يأتي يوم ما، في المستقبل، وقد تغيرت الأوضاع، ودون تاريخه لحظة لحظة، فيسائل نفسه عما ارتكبه من خطأ قاتل، وعما صنعه بنفسه، وأهله وقومه، وتحديداً، حين يواجهه بأسئلة كهذه من أولاده وأحفاده ؟

كيف سيكون انطباعه، أو موقفه من يوم كهذا، وهو يقرأ تاريخ الفترة الاحتدامية التي عاشها، وله اسم ثلاثي، وكيفية تعاونه مع عدو أهله، وحين لا يعود العدو في الميدان، إنما الذين ينتمي إليهم ؟

أي رد فعل سيصدر عنه، إن كان في وسط أهله وناسه، وفي مناسبات وطنية وقومية، وهو يسمع من يتحدث عن «خونة» أهلهم وناسهم، ويبيعون أنفسهم لأعداء بني جلدتهم؟ هل سيكون مغتبطاً بسماع أقوال كهذه ؟

أكثر من ذلك، كيف سينظر أي من هؤلاء، أي ممن أشيرَ إليه، وهو في تاريخ مغاير لتاريخ كرده، وإن كان بين أعداء بني جلدته، وهم يرددون، ليس على مسامعه، وإنما في مناسباتهم القومية الخاصة، دامن خونة الوطن والشعب والبلد، أو حين يأتون على ذكر قوميته، وينزلون أوصافاً ونعوتاً، ويكون هو نفسه مشمولاً بهذه الأوصاف والنعوت ؟

لهذا، فإن ما أقوله بصدد مثل هذا الداء المستدام، هو التالي:

بادئ ذي بدء، كما يقال، من الصعب تبين المؤثرات التي تستهض قوى مضادة للنفس، لجعل الخائن خائناً .

وإذا كان من الممكن التفريق بين خيانة اعتباطية، وخيانة لا لبس فيها، لحظة التعامل مع العدو الفعلي، والإساءة إلى شعبه من قبل المتعامل معه، فإن الذي سيقال هنا، يكون واضحاً وصريحاً، حيث الموقف هنا لا يؤخذ به على أنه تعبير عن مبدأ، طالما أنه مبدأ انتحاري، ولا أجد فيذلك أي تبرير أو عذر في مثل هذه الحالة .

لعل رد الفعل الصاعق والصادم والذي يكون في بعض الأحيان عنصر دعم وإسناد نفسيين، للتعامل مع العدو التاريخي، يحتفظ بقيمة فاعلة في هذا المضمار، إلا أنه من حيث التقويم، يكون مصيرياً، وخروجاً من تاريخ النسب الخاص به .

من جهة أخرى، لعل ما تقدّمنا به يكون إفصاحاً عن نفس ضعيفة، ارتزاقية، تستسهل عملية اللحاق بالعدو، وتقديم ولاء الطاعة له، ومن ثم الائتمار بأمره، وتنفيذ كل ما يطلبه منه ضدّاً على شعبه وقوميته ووطنه أساساً، وهنا الخراب الأكبر .

وفي إثر ما ذكرت، أرى أنه من الممكن قوله تعقيباً وتوضيحاً، هو أن الكرد الذين يحتفظون بذاكرة كردية منقسمة على نفسها، ذاكرة لم يتسن لها يوم أن شكلت ذاكرة واحدة، لا في الزمان ولا في المكان، إنما كانت تعادي بعضها بعضاً، ذاكرة تحمل من القوى التي تستبقيها، وتستنهضها، والقوى المضادة لها، وفي داخلها، وإزاء كم وافر من هذا الحضور السكاني، البشري، للذين انخرطوا، ولا زالوا ينخرطون في هذا المسلك سراً وعلانية. ومن المؤكد أن لهم مبرراتهم طبعاً، لهم قناعات تزيد في شغفهم بهذا التوجه الذي لا يُسمى كما يُسمى لدى أهلهم وأناسهم، إنما خلاف ذلك، وهم يستعذبون ما يردده عدوهم هذا أو ذاك من الكلام الذي يثني على مثل هذا الإقدام والتجاوب معهم، وتكون لهم مراتبهم وأوصافهم التي تطربهم من الداخل، وتحول بينهم وبين التفكير في أنهم ارتكبوا خطأ قاتلاً، حتى وهم يقاتلون بني جلدتهم بوصفهم أعداءهم. في صفوف من انضموا إليهم، أو بالنيابة عنهم، أو بكل السبل التي تشكّل عنصر دعم لعدوهم ذاك.

هذا الحضور العددي الذي يتردد ذكره كمّاً ونوعاً في الكتب الكردية الرسمية، وفي التاريخ المدرسي العائد إلى هذا الطرف الكردي أو ذاك، والتاريخ الجامعي: الأكاديمي، وفي المؤتمرات كذلك، وتبادل «التخوين» طبعاً، يحافظ تاريخياً على تلك النسبة اللافتة، وهي ماثرة سالبة ومحبطة لذلك الكردي الذي يتفاعل مع تاريخه، ويسعى إلى الإخلاص له، فإذا به أمام مثل هذا الحضور النوعي والعددي السالب، وسرعة تعرضه للإحباط وخيبة الأمل. كون الحضور ذاك والذي يُتخوّف منه، وهو يتناسل، أو يتجدد في الملمات، وفي الانتصارات كذلك، يشكل ذلك النصاب الذي «يلهم» آخرين، وينسب متفاوتة، ومن جهة إلى أخرى، من فترة زمنية إلى أخرى، كما لو أن «الخائن» أصبح قدوة ومحل احتفاء، ليكون هناك رفد مستمر لذلك النهار الطويل والمتعرج لسلاسل هؤلاء الرافضين لأصلهم، والراضين بسلطة أعدائهم عليهم.

وهذا يدفع بي إلى طرح سؤال كهذا: لماذا يتكرر هذا الفعل، ويؤدي على «خير» ما يرام، ويبقي الجرح كاوياً؟

لدي تصوّر فكري يقارب ما اعتبره حقيقة الدائر باسم «الخيانة» وكيف أنها اكتسبت اعتباراً كردياً، ومكرمة للبعض، وعلى مر التاريخ المدرك كتابة وشفاهة، وهو أن ذلك مرده ضعف الانتماء إلى المدينة !

نعم، لا أقول إن كلمة سر الخيانة الفصل في أزمنتها وأمكنثها ورموزها ومدّاحيها

الضمنيين، في المدينة، إنما لا أرى تفسيراً آخر، أكثر صواباً من هذا التفسير أو المقاربة التاريخية بوازعها النفسي العميق.

ما الذي يُستقى من محورية المدينة لإضاءة «حيوية» الخيانة كردياً؟

إنه الوعي المدني، والشعور المدني، والتشكيل المعرفي المدني، والتفاعل المدني، والإقامة الفعلية في المدينة، كما تفترض المدينة الفعلية مثل هذه العلاقة، وما في المدينة من هيئات، من مجالس، من مؤسسات، ومن تخطيطات.

الانتماء المدني الفعلي، هو الذي يتطابق مع فكرة عمران المدينة، وهي في تقسيماتها. إن لكل جزء منها وظيفته، أداءه، مهمته، غايته، رمزه، اعتباره القيمي، مهما بلغ ضالّةً، من الزاوية المحدودة المساحة في أي رقعة من المدينة، إلى أكبر ساحة، أكبر حديقة، أكبر مبنى مؤسساتي فيها. ليس من شيء في المدينة، إلا ويكون لشيئه ما يحفظ له قيمته.

على هذا المنوال، يأتي الأهم، والمتحصّل من كل ذلك، وهو أن التفكير في المدينة عن بعد، ومن الخارج، ليس كالتفكير العملي والنظري فيها من الداخل، إضافة إلى أن مفهوم التفكير محمول بمزايا وعلامات فارقة ذات صلة بالمكان وطبيعته الهندسية لا الحسابية، أي بتلك الأبعاد الحركية والحاجة إلى التعمق فيها، وفهمها والربط بين مختلف عناصرها.

وفق المتردد هنا، ما أكثر ما يدور الحديث عن المدينة، أي مدينة، بالمعنى العام للكلمة، حيث إنه يستحيل التذكير بأي جهة جغرافية، بأي بلد في العالم، مهما كان صغره، إلا وفيه مجموعة مدن، سوى أن المحك هنا، وهو أن ليس من مدينة تضاهي الأخرى، ليس في الموقع والمساحة والصفات وغيرها، وإنما في مفهومها الضمني بالذات.

أختصر في القول هنا، فأقول: لا أكثر من مدنا وبلداتنا، وهي في موقع الشقيقات الصغرى لتلك، في منطقتنا الشرق-أوسطية، ومثيلاتها في العالم، ولكنها في عملية التقويم تقتقر إلى الكثير الكثير من مقومات المدينة، بمعنى أدق: إنها، أي بالنسبة لكل منها: مدينة دون مدينة، وللكرد باع طويل في هذا التحديد الوصفي والحضاري بجلاء.

المدينة كتكوين حضاري تجمعي بشري، يضم فئات عمرية مختلفة، واختلافات ميول وأهواء، تكون الرحم المكاني والزمني لولادة ما يبقّيها موصولة بحبلها المشيمي، ومنتهاه: المدينة، وهي أعلى مراحل الحضارة تقديراً.

المدينة بهذا المفهوم، تتطلب في الانتساب الأتم إليها، التطهر من كل وعي قروي، ريفي، بداوتي، لأنها تقوم على تقسيمات وظيفية، ومعرفية تخصصية، وتفاعل مشترك فيما بينها، في خدمة المدينة: الرأس الأكثر حمولة بالتفكير المبدع والخلق والبناء والقائم على التنوع ونزع المحسوبيات.

في مدينة كهذه، لا محل إعراب يُذكر لذلك الداء الوبيل والذي يفتك بالکرد في نسبة متجددة فيهم: الأنانية الذاتية في مرتجعها العشائري، القبلي، الوجيهي، حيث النظر إلى الآخر لا يقوم على أساس فضيلة التمايز معرفية وكفاءة، وإنما على أساس النسب الذي يجرد كل شخصية من طاقم قواها الذاتية والاسمية. ففي المدينة هذه لا وجود لشيفرة النسب، ليس للأب دور حاضن للابن، إنما المؤسس، كل شخص هو أب نفسه، وهو ابن أبيه الذي يكونه هو نفسه.

ما يبقى الكرد عرضة لصحراء التاريخ ورمالها المذرورة، هو أن وجهتهم المدينة، إلا أن قبيلتهم خيمة العشيرة، ومرتبة الرمز القبلي، والکرد، رغم تواجدهم في المدن، لكنهم لم يرتقوا إلى مستوى المدينة، بالعكس لقد حرقوها عن مواقعها، وألبسوها ظلال خيمتهم العشائرية الضيقة، وألقاب أنسابهم المستقدمة من الخارج، وتحزيباتهم الممهورة بهذا الجانب، وبذلك، ينعدم التفكير المجتمعي الذي يجعل من المدينة في متناول حقيقتها الاسمية: اسماً على مسمى.

يعني ذلك أنه ليس في مقدور أي كان أن يدعي أنه ابن مدينة، إلا إذا أفلح في التكيف معها، وتلبسته مقومات تكوينها، وليس لدى الكرد ما يدعم هذا القول، حيث إن التناحية والتي تسبب إلى ما هو عشائري، مردّها هذا الضرب من الفضاء «الخيمي» والذي يحصر تفكير المقيم، لا المنتسب، في مساحة جغرافية ضيقة، وعدا عن ذلك، لا يكون التفكير مستقراً، كما هو حال الخيمة، إنما منشطراً، ومضطرباً، لأن ليس من رسوخ قواعد تشده إلى الأرض، وتمد بنظره إلى السماء.

وإذا كان لي أن أشير إلى نقطة أخرى في هذا المنحى، وهي مهمة جداً، وأكثر من كونها مهمة، فهي تتلخص في عدم الفصل المكاني، الفئوي، بين ما هو عائد إلى المدينة كمدينة، والقرية أو الريف، وأبعد كعالم الرحالة الخيمي، ثمة استثناءات، كما هي القاعدة وهامشها، وهذا يرتبط بعنصر النباهة والفتنة، حيث إن ساكن المكان الضيق، قد يبقى تفكيره أبعد من مساحته، وهو يصل ما بين الأعلى والمنبسط على الأرض. بمعنى أنه، من السهل التعرف على من لم يحقق في نفسه وموقعه في المدينة،

ما يستحق الذكر، ليشار إليه عن أنه «مديني» بجدارة، وثمة مقيم في الريف، في القرية، ولو بنسبة محدودة جداً، يتجاوز تفكيره حدود الريف والمدينة. وبالتالي، فإن المسافات المقامة بدلالاتها بين قائمة الألقاب: الآغا، الباشا، البيك، أمير الأمراء، ليست دقيقة كما هي محتواها المفترض، إنما كثيراً كثيراً ما تكون قادمة من الخارج، لا بل ومحل لعنة في بعض الأحيان، تعبيراً عن نوع من التواطؤ مع العدو الأعظم في قوته والممدوح خارجاً.

الألقاب لم تكن يوماً علامات تمايز جوهرية، بالعكس، قد تكون عنصر سلب، بالنسبة للذين يتظللون بها، ويتقاعسون، وبها يتفاخرون أباً عن جد، وخلفاً عن سلف ما، دون التفكير بميراث هذا اللقب أو ذاك، وهو الميراث المشعوذ.

آية ذلك، أننا رأينا كما نرى في التاريخ الكردي تداخلاً فظيلاً بين هذه الألقاب، وهي تختلط مع بعضها بعضاً، لنرى العجب العجائب، فكم من باشا، أو بك، وما يفترض فيه أنه كذلك «موسوعة مدينة محمّلة» وهو في مرتبة ساكن الخيمة الواطئة والضيقة، كم من آغا، مهما كانت قلة النسبة، يمضي بنا بلقبه إلى خارج المدينة، فإذا بما يفكر فيه، ويعتمد عليه مسلماً، يحمل كثيراً من مناقبية المدينة الفعلية، بطابعها السياسي والاجتماعي وحتى مما هو ثقافي بين جنبيه.

ولا أدل من قراءة سير هذه الألقاب وحملتها من كردنا، في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، على مستوى التنظيمات أو الجمعيات الكردية ومؤسساتها وأنشطتها ومبعث العطالة في كل ذلك، بالنسبة لألقاب أعضائها، وهو ما يستدعي التفكير أو النقد البنيوي لتاريخية اللقب، وكيف شكّل في محطات تاريخية كردية كثيرة عبئاً على صاحبه، أو مبعث خلاف ونزاع وإثارة بغضاء بينه وبين الآخرين، كما لو أنه «صك غفران» محرّر من كل مساءلة⁽¹⁾.

(1) لعلها مناسبة تاريخية، بالنسبة إلي، وأنا أحرر هذه الواقعة ذات الصلة بمفهوم اللقب، حيث أشير إلى الدكتور «الطيب» الراحل قاسم مقداد جميل باشا، والذي وافته المنية في «13-10/1992» والذي عرفته عن قرب، إذ اكتفى بكتابة «الدكتور قاسم مقداد» ولم يضيف اللقب، وعلى لوحة صغيرة، معلقة على الحائط، ما كانت تُقرأ إلا عند الاقتراب منها، وكان متنوراً في ثقافته، مديناً بحق في علاقاته، وكان مبرّره بتلك الكتابة ذات الاسمين، أن لقب باشا ليس له، وإذا أراد أن يكون باشا، فمن خلال ما يقوم به هو وليس من يمنحه هذا اللقب تماماً، وأستطيع القول أن تصرفاً ريادياً من هذا النوع، هو استثناء، وهو الذي دفع بي، لأن أنشر عنه كتاباً كاملاً، وتحت عنوان «الدكتور قاسم مقداد جميل باشا» تقديراً

مجتمع الألقاب هو المعرض أكثر من غيره لأن يطاح به، ولأن يبقى معلقاً بين أرض الجغرافية وسماء التاريخ، فيبقى متأرجحاً في عمومته غالباً، وللكرد أرجحتهم في التاريخ تحت وطأة عالم المستحدثات اللقبية، وحيث تكون المدينة غريبة عليهم، وهم بدورهم في غالبهم غرباء على المدينة، بما أنهم لم يخلصوا لمبادئها في التحرك والعلاقة.

وربما من هذا المدخل الضيق، يمكن النظر إلى هذا المفهوم الخطير والسام «الخيانة» وكيف أنه مألوف في الأوساط الكردية، بما أنه يُستسهل استعمالاً، وتداولاً، ونشراً من هنا وهناك، ودون أي شعوب بالذنب، وأنه في مختلف الظروف والأحوال، في النائبات وفي الانتصارات، كما أسلفت، نجد من يحاول تجسيده، أو هو نفسه «أي مفهوم الخيانة» يبحث عن رموزه أو أسمائه الحية وفي مواقع مختلفة، من خلاله يبقى التاريخ الكردي مثقوباً وهو يمطر أوبئة على جغرافيته.

وفي مثال عليكي بطي، ولا أكثر من خلاف الذين أرادوا ألا يكونوا في ظل تاريخه، إنما ارتضوا أن يكونوا في ظل ألد أعدائهم، وقد خسروا الجغرافية: جغرافية موقعهم، وأناسهم ولغتهم، على خلفية من هذه الأنانية الجاثمة في نفوسهم.

وفي المحصلة، خسر الكرد جميعاً، مع فارق من انتهى أمره كردياً حقاً، ومن قضى بعيداً عن اسمه ومسماه.

ولعلي على يقين شبه تام، أن ليس في مقدور الكرد، أنى كان موقعهم، ومهما تنوعت لغاتهم المكتسبة، وهم الآن ينتمون جغرافياً عدا موطنهم المجزأ، ربما بنسبة مئوية لافته، إلى قارات ودول ضمن قارات مختلفة، ومنذ عقود من الزمن، ويعيشون حالة من التخوين الفولكلوري هنا وهناك، رغم نأيهم عن المكان الذي شهد مثل هذا الجانب، أن يؤسسوا لتلك المدينة التي يريدونها، ويكونوا كرد الغد، إلا لحظة الدخول في اعترافات فيما بينهم، أن يعترف الأحفاد بأخطاء أجدادهم، تلك القاتلة، وحتى

لتلك السياسة العملية الفعالة، ومن باب تمييزه بهذا العنوان، أي ليكون معروفاً بالنسبة إلى الذين لم يعرفوه خارجاً.

لكم حورب هذا الكتاب من داخل قامشلو وأبعد، ولا أقول «ممن» فذلك تاريخ لازلت أعيش أدراجه إلى اللحظة، وجرى تسفيهه، والسبب، لأنني تطرقت إلى ما يشبه «الثوابت» الكردية الضالة والمضللة بهذا الصدد، ووقتذاك تحديداً، وحيث نشر الكتاب سنة 1994، وفي ظل ألقاب جديدة ومستحدثة، كما لوأن كرداً معينين معدّين بداء اللقب حسب المستجدات، لا تعرف أعينهم إلى النوم سبيلاً إلا من خلاله....

التحرّر من غوايات الألقاب التي أسمّتهم في إبقائهم ما دون كرديتهم، وآذاروا نقداً ذاتياً لتلك الحقب المريعة من تاريخهم المتقطع، وجغرافيتهم المتجزئة. وفي الوقت نفسه، اجتمعوا فيما بينهم على كلمة سواء، هي نسبهم الوحيد باعتبارهم كرداً، أبعد من حدود المظلومية التي يحصرّون أنفسهم فيها، وهم يحملون عدوهم المجاور لهم، والبعيد عنهم، وزرّ ما لحق من بهم، وما تعرضوا له من مأس، وما هم عليه من تفرقة.

أقول ذلك، من موقع المكاشفة التي قمت بها، وهي مكاشفة لم تكن وليد هذه القراءة الخاصة والوحيدة هنا، إنما حصاد قراءة عمر كامل، ومتابعات مختلفة، في تواريخ كردية وغير كردية، والمقارنة فيما بينها، وكيفية وقوع ذلك، ليكون مثل هذا الإقرار بفرادة مفهوم الخيانة كردياً، ومرارة التداعيات التي يفجرها كل عمل خياناتي، إن جاز التعبير⁽¹⁾.

وفي الوقت الذي تسمى المعركة بمكوناتها منتسبة إلى عليكي بطي، ويكون الآخرون في ركابه، كما هو الرسوم هنا، وفي الوسع المتابعة أكثر، انطلاقاً مما يورده جبو، نقلاً عن مقال منشور في مجلة «دراسات اشتراكية» مجلة الحزب الشيوعي السوري، المجلة التي نشرت فيها «في ثمانينيات القرن الماضي الكثير من مقالاتي الخلافية:

(1) أنوّه هنا إلى البرنامج الذي كانت قناة TRT الكردية، التركية رعاية وإشرافاً، تقدّمه، وهو «Wext çawa derbas bû» أي «كيف مضى الوقت»، وهو عبارة عن لقاءات مع معمرين، ويحتفظون بذكريات لها قيمتها في التاريخ الكردي، وغالباً ما يكون لهم حضور جهة أجدادهم في المنطقة، ومن ذلك، اللقاء مع حفيد عليكي بطي علي بطي الثاني، وهو مقيم الآن في مدياد، كما سنتعرض له، وهو يتحدث سيرياً عن جده، وقد أفصح في نهاية البرنامج، عما كان يجري من خصومات ونزاعات مميتة بين الكرد أنفسهم، بين جده أو عموم هفيركان، والعشائر الأخرى، وأنهم الآن متصالحون مع بعضهم بعضاً، وهذه ميزة حسنة، وقوله: وكنت أتمنى ألا يحصل ذلك، وهذه ميزة حسنة أخرى. سوى أن الرهان، ما إذا هؤلاء الذين ينتمون إلى الماضي، تاركين إياه خلفهم، وينظرون إلى بعضهم بعضاً بأعين الحاضر، وفي رحابة المدينة حقاً؟ هو سؤال، لا يوجّه إلى حفيد عليكي بطي تحديداً، وإنما عام، في نطاق ما يعيشه الكرد من انقسامات مختلفة، كما لو أن الماضي ماضٍ إلينا، بمختلف سيئاته، وكراهياته وأرشيده صراعاته، وإن كان هناك في جوانب مما كان، بعض مما يسجل له من مناقب، ومن اعتبارات تاريخية، وهو المتعلق بدماء الذين ضحوا بدمائهم في سبيل كرديتهم وموطنهم.

وثمة ما يعمّق الأثر الإيجابي لهذه العلاقة، من خلال ما ضمّنه الأستاذ بطي بطي، في توضيح له حول ذلك، في النهاية، جهة وحدة الكلمة الكردية.

(في تلك الفترة كانت الفرقة 13 في مركز ديار بكر بكردستان، وقد طلب قائمقام نصيبين المساعدة من اللواء الجبلي 24) الموجود في مدياد، إلا أن اللواء «24» طُوق من قبل الهفيركانيين. وفي 12 أيار 1919، أرسلت الفرقة الخامسة قوات جديدة إلى ساحة العمليات».

«لقد هاجم علي ورفاقه قشلة «مقر ثكنة أو مقر الحكومة» نصيبين وأخذوا القائمقام والمدعي العام وبقية الموجودين داخل القائمقامية كرهائن، ولأجل عدم إلحاق الضرر بالأهالي اخترق الطوق الموجود في أطراف المدينة وانسحب مع أتباعه نحو جبل اومريا. وبعد أن وصل إلى الجبال أطلق سراح القائمقام والمدعي العام وسائر العسكريين وموظفي الدولة.

وفي قرية تناتي، التقى برؤساء عشائر هبزيني وأومريا وطلب منهم الوقوف معه، إلا أنهم رفضوا ذلك، فبالرغم من ضعف الدولة حينذاك كان الكثير من الكرد ما يزالون يخشونها»

طبعاً لن نستطيع التعرض لماورد هنا، وفيه الكثير، إلا بعد أن نصل إلى مختتمه:

(وفي ساعات الصباح الأولى استمر الهفيركانيون في المعركة تحت قصف مدفعي عنيف. وجاء زعماء آخرون من الهفيركان لنجدتهم وشاركوا في القتال مثل حيتو، وعمرى شيرو، ومحمدا إيلو، وغليكا سيكفن، وأوسي عزام وغيرهم. وقد هجم شمعون حنا حيدو على الضابط الذي يستخدم المدفع وقتله. ودحرج المدفع نحو الأسفل وارتفعت بذلك معنويات الهفيركان جداً، وقد استمرت المعارك في منطقة أومريان 20 يوماً متواصلة دون توقف. وسحب علي بطي قواته نحو مدياد، وخاض معارك مباشرة «وجهاً لوجه» في أزقتها. وأصيب رجال كثيرون من الطرفين. وقد سارت ضد الهفيركان قوات تالواء السادس والآلاف من مفارز الميليشيات التي جمعتها الدولة من أهالي المنطقة.

وانسحب علي بطي إلى قرية مزيزخ وأصبح في وضع دفاعي هنا. وانضم إلى جانب قوات الدولة جبلي آغا الذي أطلق سراحه من السجن وسروخان الثاني، واشتركوا في الهجوم، وانضم أكثرية عشيرة دكشوري إلى جبلي. وبعد معارك عنيفة تعرضت مزيزخ إلى قصف مدفعي، واضطر علي بطي إلى مغادرة القرية، وقد نشر المقدم نوري بهلوان زاده أمر اللواء السادس بلاغاً في مدياد جاء فيه بأن الحكومة تطارد علي بطي فقط، وسوف لن تتعرض لأي من العشائر في حالة عدم تقديمها الدعم إليه».

التسلل في وضع النهار

استغلت قوات الدولة الفرصة ووزعت السلاح على بعض زعماء العشائر، كما زادت عدد الميليشيات. وفي 17 آب التفت قوات الدولة وعشيرة دكشوري حول قرية مديه الواقعة بجوار وادي جهنم، وجرت معركة طوال اليوم، وفي مساء اليوم التالي «18 آب 1919» جلبت جثة علي الذي قُتل في المعركة إلى مدياد وعُلقت أمام مقر الحكومة على كُلاب من النوع الذي يستخدمه القصابون، وبعد مضي أسبوع أخذ أقاربه الجثة «مقابل كمية من الذهب» ودفنوه في قرية مزيزخ، واضطربت مرة أخرى وحدة صفوف الهفيرانيين.. ص 109⁽¹⁾.

سيكون علينا التوقف لبعض الوقت أيضاً، من خلال الرواية التي اعتمدتها المجلة المذكورة، ومن خلال الوارد فيها، لا نعلم «لا علم لي أنا» ممّن صدرت هذه الرواية، وبعد مضي زمان طويل، وما الذي يضمن أنها الرواية التي اغترفت من نبع الواقعة الجغرافية، أم أنها وردت بالتواتر، أو من فم إلى آخر، ولماذا بقيت طوال هذه المدة ولم تتشر، كواقعة تاريخية ؟

(1) هذا الأسلوب في القتل والغدر واستدراج المعتبر خصماً أو عدواً، معروف في سياسات أنظمة الحكم في المنطقة، ولقد عرف العثمانيون بذلك كثيراً، في صراعاتهم المختلفة، لا بل وفي التاريخ العربي الإسلامي الطويل «ينظر حول ذلك، كتابي: الفتنة المقدسة: عقلية التخاصم في الدولة العربية - الإسلامية» أولاً لإرهاب الآخرين، وبالمقابل لتثبيت دعائم سلطتها. هذا يذكرني بما أفصح عنه الباحث أرشاك سافراستيان: الكرد وكرديستان، ترجمة: د. أحمد محمود الخليل، سردم، ط2، سليمانبة، 2008، وقبل أكثر من سبعين عاماً، وهو يتحدث عن بطل كردي عتيد، هو بشار جتو آغا، وقوله فيه بأنه: محارب له قلب أسد الجبال، كان الزعيم الأكثر احتراماً وشهرة لاتحاد خمس من العشائر الكردية، التي يمكنها في حالات الطوارئ حشد ثلاثة آلاف فارس مسلح، وكان بشار جتو رايضاً في معقل عائلته الواقع على جرف صخري شامخ في جبال طوروس، إنه معقل بعيد عن الدروب السالكة ويصعب اقتحامه. ص 17...

ومن ثم: لم يكن بشار جتو يقبل أي قانون سوى قانون قبيلته.. ص 18.. وجهة المروءة جتو وكيف أنه خطف زوجة الحاكم التركي في بدليس لإبراز تحديه له، ولإطلاق سراح حفيده السجين لدى الحاكم وتم له ذلك. ص 23..

وما قاله فيه تالياً: بقي الزعيم الأسطوري بشار جتو متحصناً في معقله الجبلي، وخلال الحرب الكردية- التركية عام «1930- 1931 م»، التحق مع كل قواته بالمعركة من أجل استقلال كردستان، واستطاع أن ينهك القوات التركية النظامية في الجبال الواقعة شمالي مدينة ديار بكر طوال أشهر عديدة، وعلى أية حال فقد عُرّر به سنة «1931 م» وجُر في ظروف غامضة إلى فخ نصبه له الأتراك، وقتل بشكل بشع مع ثلاثة من أبنائه. ص 23... الخ.

أقول ذلك، وليس لدي نسخة من هذا العدد كي أتوقف عند المقال كاملاً «لا أدري ما إذا كان المقال كاملاً أم لا»، وحيث إن مصدر المقال بالنسبة للسرد التاريخي له اعتباره: من يكون، أين يكون، كيف أفضى بهذه الواقعة ؟

من جانب آخر، إن ما يهم، وبامتداد الفسحة الزمانية الفاصلة بين 11 أيار- 18 آب 1919، أي ثلاثة أشهر، وهي مدة زمنية ليست بالأمر السهل، إنما هي الأخرى تثير المزيد من التساؤلات، عما كان يجري، حيث لا يشار حرفياً، إلى أنها أُستغرقت بالحرب أو المناوشات الجانبية. إنما من خلال التركيز على بعض الأزمنة «ما يُذكر هو المتعلق بعشرين يوماً، ودون توقف»، ويظهر الزمن الساخن والمصيري في يومي «17-18» آب 1919.

يعني ذلك، كيف أمكن لقوات عليكي بطي الوصول إلى نصيبين، بعد ماردين، من ناحية الزمن المقطوع؟ ثمة سرعة قياسية، من جهة المحاربين وما إذا كانوا جميعاً من الخيالة أم لا ؟ لا شيء من ذلك. إلى جانب أن التوجه إلى الحرب، يعتمد أسلوباً عملياً ومدروساً، أي عبر ممرات ومسالك تضمن سلامة المحاربين. وليس من معرفة مفيدة عن العلاقة بين تحرك قوات هفيركان في التاريخ المذكور، وتحرك الفرقة الخامسة التركية بعدها بيوم واحد فقط؟ بالنسبة إلى تقنيات ذلك الزمن، على صعيد تسقط الأخبار، حيث إن الممكن قوله منطقياً، أن الأخيرة لا يمكن لها أن تتحرك إلا عقب الأخرى. ومن جهة ثالثة، تلك الفترات الزمنية الأخرى، لا علم لنا، ومن خلال المنقول إلينا عما كان يدور في نطاقها.

ولهذا، فإن الأسئلة الممكنة الطرح هي كثيرة، ومنها :

كم كان عدد المحاربين من قوات هفيركان، ومن هم الذين انضموا إليهم عددياً ؟
من هم الزعماء والآغوات الذين شاركوا فعلياً في الهجوم منذ البداية ؟
بالنسبة لنوعية المحاربين، لا معلومة مفيدة، بالنسب الموجودة: كرداً مسلمين، وسرياناً، وكرداً إيزيديين ؟

كم كانت نسبة المشاة إلى الخيالة في الهجوم ؟

ما كانت نوعية الأسلحة التي استخدموها في بدء الهجوم ؟

كم استغرق قطع المسافة بين مدياد وماردين، ماردين وجزيرة، جزيرة ونصيبين، وهي المدن التي دخلوها ؟

ماذا أخذوا من غنائم الحرب، من أسلحة وعتاد، مما استولوا عليها بعد السيطرة على نصيبين ؟

كيف كان يتم التحرك من نقطة إلى أخرى؟

ألم يلتقوا في طريقهم حتى هذه المدن الأخرى، بنقاط عسكرية، حيث تم ذكرهم في نصيبين فقط ؟

كيف يمكن تقويم موقف عليكي بطي ورجاله، ومعهم رفيق درب نضاله شمعون حنا حيدو، من طريقة التعامل مع الرهائن، وهم رموز النظام السياسي، وحماته، وقد أطلق سراحهم دون المس بهم ؟

لماذا ينعدم أي مشهد بين عليكي بطي ورجاله، طوال هذه المدة، وهم يتداولون فيما بينهم مجريات الأحداث، وما كانوا يعتمدونه من خطط طارئة تجاوباً مع المستجدات في المعركة التي استغرقت أشهراً ؟

كيف يمكن تقويم العلاقة بين تعامل عليكي بطي مع الرهان، وتعامل عدوه التركي مع جثته وقد نكّل بها على مرأى من الناس، ولأيام معدودات؟ وذلك بالمفهوم العسكري والأخلاقي معاً، وفي وضع كهذا؟

بإيجاز شديد، ليس من تفاصيل في الحالة هذه، إزاء واقعة عسكرية، وليس حرب عصابات تحديداً، استمرت عدة أشهر، ولا يعرف تماماً عدد الضحايا، وما في ذلك من تجاهل لمجريات الأحداث، إما لأن الذين تواجدوا في المنطقة، وكان في مقدورهم إيصال معلومات مهمة، إلى المعنيين بالأمر، أو نقلها بالتشافه إلى أن تجد طريقها إلى التدوين، لم يشأوا نقلها، لأسباب ذاتية، أو من باب الخوف من تسريب أخبار، قد تترتب عليه عواقب تطال ناقل الرواية وأهله كذلك، خصوصاً، وأن المقارنة بين قوات هفيركان والجيش التركي والآلاف المؤلفة من الميليشيات ومن انضموا إليه من العشائر، غير قابلة للمقارنة، وهذا يقربنا هنا من صورة الحدث، ومن تكبد الجيش التركي ومن معه من مساندين لخسائر فادحة، أو لأن الذين تابعوا الأحداث الحربية امتنعوا عن التذكير بما جرى، تجاوباً مع موقفهم المناوئ على أرضية عشائرية، ولأن الذين ينتمون إلى هفيركان، وقد انشغلوا بالبكاء على قتلهم، وراثاً ما حل بهم في فجيعتهم الكبرى، وما يمكن أن يكونوا قد تعرضوا له من تنكيل، ومن ضروب إهانات، ليس من الجيش نفسه، وإنما ممن ساندوا هذا الجيش من الكرد أنفسهم.

ولو توافرت معلومات معينة، ولو بنسبة ضئيلة مقارنة بالمواجهة العسكرية، لكان هناك بحث آخر، وتفاصيل أخرى، تعطينا صورة أوضح، عن انتفاضة كردية، لا يُشكّ في أمرها أو محتواها الكردي، احتجاجاً على تعسف السلطة، ورفضاً للذين تواطؤوا معها بالمقابل.

ورغم كل هذا التقتير في المعلومات، أوشحها، فإنه في مقدور الباحث أن يلاحظ مجموعة من النقاط التي تحفّز في كل من الروح والذاكرة قوة المتخيل وطاقمة المكاشفة الجغرافية والتاريخية، ومحاولة الوصل بين ما برز جلياً بصور المواجهة البطولية ضد الأتراك ومن معهم، والفتزة الزمنية شاهدة عيان بليغة على ذلك، وما لم يُفصَح عنه، من خلال الفواصل الزمنية «من بين الأشهر الثلاثة، هناك بالمفهوم الزمني الشاغل أقل من شهر عموماً» وتخيّل تلك التحضيرات، أو الانتقال من نقطة إلى أخرى، أو استمرار الاشتباكات والمواجهات، ولو بصور متفاوتة في عنفها.

وهناك نقطة أخرى، وهي ذات صلة بمعرفة جغرافية المنطقة، وربما جرى مسح معين لها، وكيفية الانتقال من جهة إلى أخرى، في حال الخطر، رغم أن الذين حاربوا هم أهل المكان، ولكن المكان نفسه ليس واحداً، وتحديداً في حالة الحرب التي تستعمل فيها أسلحة ثقيلة، إذ لا بد من الاختفاء وراء سواتر ترابية معينة، أو صخور أو في حفر معينة... الخ.

وما يعيدنا إلى طريقة تعامل الهفيكرانيين مع الرهائن، ومقارنة ذلك بالأسلوب الهمجي الذي اتبعه أمر اللواء التركي المقدم نوري، في التشهير بعليكي بطي، والبال على نوعية الغل بكل صوره في هذا النوع من التعامل.

وهناك يمكن التساؤل: ترى، لماذا لم يقض عليكي بطي ورجاله على هؤلاء، وهم قوة عسكرية وأمنية تركية معادية في الأساس؟

هل كانوا يفكرون في احتمال ألا يفلحوا في الحرب التي باشروها وخاضوها، وبذلك تنتظر عائلاتهم وأهلهم عواقب أو انتقامات رهيبة؟

ترى، أكان نداء نداء أمر اللواء المذكور إلى الأهالي، بأنه لن يتعرض لأي منهم، لحظة عدم تقديم الدعم لقوات عليكي بطي، رد فعل على ما قام به الأخير، في فك أسر الرهائن دون أن يمسّهم بسوء؟

والأكثر صدامية هنا، أليس الذي تصرف به المناوئون الكرد لقوات عليكي بطي،

وقد تخلوا عنه، إلى جانب من انضموا إليهم فيما بعد، وبعد بلوغ نقطة الصعود الجبلية، وقد لزم الجيش مواقعه، تاركاً المجال مفتوحاً أمامهم، ليدخلوا في قتال مع أخوتهم، مع أهلهم، مع بني جلدتهم، وفي الحالتين يكون الجيش قد وفّر في الأرواح، قبل كل شيء، ومن ثم في العتاد بالتأكيد؟

سوى أن هناك نقطة أكثر مدعاة للتوقف عندها، تذكّرنا بطريقة قتل حاجو الثاني، بأيدي كردية، أي من قبل جموع بالذات، كما هو معروف، وهنا يكون حجم الصدمة وعمقها، ورد فعلها التاريخي وصداهها النفسي أكبر وأوسع وأكثر إيلاماً طبعاً، وأعني بذلك، أن أمر اللواء التركي، لم يكن بعيداً عن المنطقة، وثقافة المنطقة ذات القوام العشائري إجمالاً، والحساسيات الزعاماتية التي تقطعها طولاً وعرضاً، بالعكس، كان لديه معرفة عميقة بذلك، وهي تتمثل في استراتيجية الموقف الذي اتخذته في هذا المضمار، وهو يترك الكرد يصفّون بعضهم بعضاً، على طريقة «فخّار يكسّر بعضو» وهو على بينة من مكانة رجل زعيم ومتنفذ بكاريزميته، مثل عليكي بطي، حيث إن مقتله يزيد في نسبة الملح الكاوي المستفز للذاكرة المكانية، وهو الموضوع في الجرح الكردي، ومما من شأنه إطالة عمر الأحقاد الكردية المتبادلة، وتعميق النزاعات فيما بين الكرد أنفسهم، وهو ما يمكن النظر فيه، ولو بتفاوت، أو بصيغ شتى، من منطقة إلى أخرى. إن قتل عليكي بطي بأيدي كردية، وربما من أقرب مقربيه، يشكل انتصاراً مضاعفاً ليس للجيش التركي على قوات هفيركان فحسب، وإنما للسياسة التصفوية العثمانية وامتدادها التركي.

لا أدل على فداحة الحاصل، من أن الميلشيات الكردية المدعومة من الجيش التركي وقد تأكدت من قتله، لأدت بالفرار، خوفاً من الانتقام، ولما كان للرجل من هيبة، ومن تأثير في نفوس من حوله.

أما بالنسبة لتصرف أمر اللواء الشائن، فهو متوقّع، إذ إن العدو من وجهة نظره منزوع البعد الإنساني، والسياسة المعتمدة لإرهابه، هو في كيفية بث الرعب في نفوس الأحياء عبر التشهير بقتلهم، لقتل كل روح مقاومة في نفوسهم.

وما يمكن التساؤل حوله مجدداً، ما يعيد الانتباه إلى نقطة سالفة، وهي موقع النساء في الحدث العظيم والرهيب، نساء هفيركان، لا يبدو أنهن داخل التاريخ الجغرافي الحي، من جهة ردود الأفعال. إن الشيء الوحيد الذي يتبين لنا، في كل فاجعة قتل لزعيم من زعمائها، هو الندب أو البكاء، كما هي الصفة التي ألصقت بالنساء

إجمالاً، رغم أن لمفهوم «بكاء النساء» تاريخ طويل ومتعرج، وليس طبيعة ثانية فيهن، وهنا، وإزاء ما عرفت به هفيران من انفتاح، ومن مرونة علاقات بين أعضائها، يُتوقع بالمقابل أن يكون هناك ظهور لنساء معينات، وفي الواجهة، ولو امرأة واحدة، على أقل تقدير، حيث لم أحصل على أي وثيقة أو شاهد عيان، أو ولو نبأ عابر يفيد بالاتجاه المعاكس لما هو قائم في سياقات المكتوب أو ذاكرة الشفاهة، وهو ما يطرح السؤال تلو السؤال عن مفارقة المسموع عن هفيران، والمرتبطة بهذا الموقف السلبي من النساء. وحين أشير إلى ذلك، وكما قلت، إنما منطلقني: ما توافر لدي من معلومات هنا وهناك.

وعلي أن أوضح نقطة أخرى، لعلها تضيء ما سبق ذكره كتعليق خاص بالنساء وأدوارهن في المجتمع الهفيري. هو ما نُوهت إليه من خلال المترجم إلى العربية، وفي كتاب جبّو بالذات، عدا عن أنني لم أجد ما يفيد في مذكرات شاعرنا جكرخوين، إنما في كتابات تركية، تطرقت إلى هذا الجانب، أو مترجمة إلى التركية، كما سنرى في كتابات آباء سريان حول ذلك، عدا ما تبين لي فيما كتب إلي كردياً، من قبل الأستاذ مدني فرحو، وكذلك الأستاذ بطي بطي، ولكم استغربت في المحصلة، إزاء هذا التجاهل، أو عدم وجود كتابة من هذا النوع متداولة كردياً «بيننا».

وإذا تابعنا المتبقي من هذا المروي عن عليكي بطي، نتلمس في رواية رسمية تركية، ما يقربنا من الذهنية البوليسية في التعامل مع الحدث، إذ نقرأ التالي:

(بعث المسؤولون الرسميون في ديار بكر برقية إلى وزارة الداخلية مؤرخة في 24 آب 1919. وبعد الإشارة إلى إلقاء القبض على علي بطي ميتاً، تستمر في القول: بدأ أمر لواء المشاة السادس المقدم نوري بهلوان زاده مهمة البحث عن علي بطي مع مفارز مقسمة إلى مجموعات صغيرة. إن هذه الإدارة قامت بعد ملاحقة مكثفة، بالهجوم على موقع مدي، بعد أن علمت أن علي بطي مختف هناك. وبعد معركة دامت نحو ساعتين تم إلقاء القبض على رئيس العصاة ميتاً. وفيما بعد تم التشهير بجثته أمام الناس في مدياد. ص 109).

ذلك ما نتابعه في مكان آخر، حين نقرأ:

(لم يصدق الهفيريكانيون مقتل علي وكانوا يقولون «إن لديه رقية: تعويذة، وإن الرصاص لا يؤثر فيه». وقد قام أمر اللواء المقدم نوري بهلوان زاده بوضع الجثة على ظهر بغل، وطاف بها في أزقة مدياد تشهيراً به، وكان غرضه من ذلك إثبات النصر

الذي حققه، وتوجيه تهديد غير مباشر للأهالي، ثم علّقه على كُلاب أمام باب مقر الحكومة. وحسب رواية حفيد علي بطي الثاني فإنه أي أمر اللواء أجبر على إنزال الجثة المعلقة بسبب رد الفعل الذي أبداه الأهالي وتجمع حشد كبير منهم في الميدان. إن ما رواه شريف علي حفيد عليكي سيكفن بأن هرمرز آغا كان أهم حلفاء علي في الانتفاضة تؤيدها المقالة المنشورة في دراسات اشتراكية..

أنزلت جثة علي المعلقة بعد أن دفع أفراد العائلة مقداراً كبيراً من المال رشوة وتم استلام الجثة من قوات الدولة (ص111).

فمن المعلوم جيداً، أن الروايات التي تصدر عن السلطة، تبقى ممثلة إيديولوجيتها قبل كشيء، فكيف الحال، إذا كانت مرتبطة بواقعة تاريخية ومفصلية كهذه، جهة تسفيه «عدوها» وكيفية الإساءة إلى حقيقة الواقعة. وأن ما يقرأ وثائقياً، يسير في هذا المعترك بالمقابل.

في السياق نفسه، تقدّم لنا هذه الرواية العسكري وجهاً من وجوه الحقيقة المزيّفة فيها، وهي تستشرف نوعية الكذب والتدليس، حيث إن الضابط، في أكذوبته، يقدم صورة عن نفسه، وعما جرى، لتعزيز موقعه لدى أسياده.

في الجانب الآخر، تبقينا قراءة كل رواية، حتى وإن اختلفت قليلاً عن الأخرى، في مهب التأويلات والتفسيرات، ومن ثم البحث عن المرتكزات التي تعيننا على قراءة واقعة مقتلته من زاوية مختلفة، ووالذي يشار فيه إلى مدى تعلق الهفيروكانين ببطلهم، وأنهم لم يصدّقوا قتله أو موته، لا بد أنه يرجع إلى سبب وحيد ولافت، وهو أنه كان في سلوكياته، وطبيعة أعماله التي يقوم بها، إنما يكون شخصاً متفرداً في ذلك، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، لا بد أن هؤلاء قد وصلوا إلى تصور اعتقادي، أو قناعة كهذه، ليس عن عمى، وإنما من خلال ممارسات يومية، أي مواجهته لمصاعب، وتغلّبه على كثيرين من منافسيه داخل هفيروكان وخارجها، وإلا فإن مفهوم «الرقية/التعويدة» لا يشار إليه بمثل هذه البساطة. كما لو أن الذي أبقاه طوال هذه المدة، وهي محدودة نسبياً «37 سنة» في الروايات الأكثر تداولاً، يعود في فضله إلى قوة استثنائية لم تُمنح لأي آخر، من الذين عرفوا في المنطقة «ذلك ما سنتطرق إليه لاحقاً مع نقاط أخرى كذلك».

التعويدة تخفي حاملها عن الأنظار، أو تغيبه عن المحيطين به، ممن يريد إيذائه، إلى جانب أن قولاً كهذا، ينطوي على ضرب من الأوليائية، أو الصفة الكراماتية، حيث إن شخصاً

محاصلاً بالأعداء، وهم ليسوا سهلين، وينفذ منهم جميعاً، لا بد أن يكون في مقام «ولي» أي من أتقياء الله، ومن هنا تتبثق فكرة «الكراماتية: أصحاب الكرامات»، وهم يتابعونه عن قرب، ولذلك، كان موته صدمة لهم، جرّاء ذلك التصور المتجذر في أذهانهم عنه.

وما يضيف إلى واقعة البطولة التاريخية المميّزة في شخصه، هو تصرف الضابط التركي والذي نم عن عقدة الدونية من الداخل، أولاً، كونه عجز عن اللحاق به، أو القبض عليه حياً، وما كان ذلك سبباً، ربما، لأن يقرّع أو يؤنّب «يعنّف» من جهة رؤسائه في المقام العسكري، وعلى مستوى أعلى كذلك، وما كان سبباً في إثارة حنقه بالمقابل، وثانياً، كي يتحرر من وطأة هذا القهر/ العجز الداخلي، ولو لنفسه، وب نفسه، عبر اعتماد تصرف يليق بكل من يعتمد أسلوباً همجياً كهذا، وهو قد أظهر للخارج ما يعيد إليه كرامته المطعونة، وهو لم ينل منه حياً، فليّنل منه ميتاً، وكي يؤدّب الأحياء بالميت، وهو ليس أي ميت طبعاً، وهو على قدر التشهير، لا يهين أهله وعموم كرده في هفيران وخارجها، إنما يعرّي خواءه من الداخل، بالنسبة لمن يقرأ لغة العلامات، وإثبات أنه قوي، ودولته قوية، وأما عن تلقي الرشوة، فهو بُعد آخر، من أبعاد تلك اللصوصية التي تتمثل في كل نظام أمني متشدد، وعدم إخلاص له كذلك، بما أن المال يفسد العلاقة هذه ويدينها كذلك.

إن كل مكونات مشهد التشهير ومحاولات التتكيل، إشارات على الهواء مباشرة، تُري هشاشة العدو الفعلية في مواقف حاسمة كهذه.

وهناك أمثلة متعددة عن الرشوة في هذا السياق «ص 112، مثلاً» وأبعادها الأخلاقية المنخورة من الداخل.

ومن المؤكد أنه على قدر جسارة الآخر، باعتباره الخصم، تعتمد السلطة إلى المزيد من التعتيم والتضليل، أولاً لتثبت لنفسها قبل سواها أنها في موقع القوة، وللذين ينتمون إليها، على أنها لا تُهزَم، وبالنسبة إلى «رعاياها» على أنها محل ثقة، وأما بالنسبة لخصومها، فهي لا تتوانى عن تلفيق أكاذيب شتى، لتعظيم موقعها واسمها، تجاوباً مع إيديولوجيتها الشمولية.

وحين يشير جبو إلى اختلاف الروايات في واقعة كهذه، فهي حقيقة، إذ كما قلنا، يمكن أن نجد في اللحظة الواحدة، من لحظة سماع أو انتشار نبأ القتل، انفجاراً مؤكداً في الروايات التي تمثّل وجهات نظر مختلفة، من مواقف مختلفة بالمقابل، وما في ذلك من ثراء الموضوع نفسه.

ثمة رواية يوردها جبو، تستحق النظر فيها، وهو يعلّق على الرواية العسكرية
الآنفة الذكر:

(وفضلاً عن وجود روايات مختلفة حول كيفية مقتل علي، فإن مدى صحة هذه
الرواية الواردة في البرقية موضع أخذ ورد. وحسبما يفهم من البرقية الرسمية المذكورة
أعلاه فإن وحدات الجيش قد تخلت عن الملاحقة لكي «لا تحصل مشاكل فقط». وفي
هذه الآونة كان علي منشغلاً بتسوية بعض المشاكل داخل العشيرة. وقد حصلت معركة
عائلية داخلية في قرية مديه فعلاً، وذهب علي إلى القرية للتوسط في الأمر، وهكذا
قتل في المعركة التي وقعت في هذه القرية. ص 109).

ربما تكون هذه الرواية قريبة من الواقع، وتستأهل النظر في أرضيتها الاجتماعية
والسياسية، من جهة انقسامات هفيركان، لا بل وداخل العائلة الواحدة، كما رأينا
سابقاً، وكما شدّدنا على ضراوة عنف القرابة وعماها الأهلي بين أفراد البيت الواحد،
حيث ليس مستغرباً أن يكون علي ضحية ما أقدم عليه بطيب نية، ولم يحسب حساباً
لما لم يتوقعه.

أو يمكن لهذه الرواية أن توجه أنظارنا إلى مسار تحليلي، وتفسيري آخر، وهو
إطلاق العنان لها، لكي تنضم إلى مجموعة العائلات التي تشهد انقسامات وتوترات، لا
بل وعداوات بين أعضائها، بنية التشهير فيها، كما هو المقروء هنا، عندما نقارن بين
تاريخ كان، وتاريخ قائم؟

وثمة تخريج ثالث لهذه الرواية، وهي التي توجّه أنظارنا إلى السلطة وسياستها في
التعامل مع خصومها، ففي وسع الباحث في طريقة حبك أو نسج رواية كهذه، أن
يتلمس البعد الوجداني، أو الأخلاقي في السلطة بالذات، وإبرازها أكثر حرصاً على
رعاياها من رعاياها أنفسهم، رغم أن لها سهماً مسموماً، ابتدعته الدولة، في نطاق
بث العداوات في نفوس هؤلاء، ومن ثم تأجيحها.

ولدينا ما ينوع في المختتم أيضاً، ومن ذلك:

(إن شرفخان جزيري يروي في كتابه المعنون «أمراء أومريان» مقتل علي على
الشكل التالي:

«بعد بضعة أشهر من معركة تناتي قتل علي بطي في معركة وقعت في قرية مديه
بين اثنين من أقربائه وهما: آل حاجو وآل سروخان. ومثلما يقول الكثير من الرجال

الذين لا يعرفون بواطن الحادثة أو الواقعة فإن علي لم يقتل على يد الجنود الأتراك. بل على يد أحد أقربائه يدعى بهرامو في نزاع عائلي، إلا أن المسؤولين الأتراك أعدوا فيما بعد تقريراً كاذباً تبنا فيه الحادث، وحسب التقرير فقد تمت ترقية الجندي الذي قتل علي من رتبة دنيا إلى رتبة أعلى».

إن آلتان تان يكتب في كتابه المعنون «من طور عابدين إلى البرية» بأن الذي قتل علي بطي شخص يدعى مرادي شيركو وهو من قرية باساقى التابعة لعشيرة أوميركا.. (ص 110).

في الروايتين هاتين، ثمة مجال مفتوح للنقاش، وتعزيز قيمة كل منهما، من الواقع القائم نفسه. إذ إن حيثيات العلاقات المتوترة في المجتمع الهفيري، وطبيعة العداوات القائمة، لا تستبعد مقتلاً أهلياً، بغض النظر عمّن يكون، رغم أن ذلك مفيد، جهة القاتل الفعلي، أي فيما إذا كان من عائلة القتل نفسه، أم من خارجها، في هفيركان، وكيف تم ذلك. فكل رواية منهما رصيدها الاعتباري وطابعها التوثيقي القابلة للنقاش. فمن السهل نشر الرواية التي تبقي القاتل في محيط هفيركان، من قبل من يروونها، وهو ينتمي إلى خارج هفيركان، أولاً، لئلا يكون هناك انتقام خارجي، وثانياً، لئلا يكون هناك توريط لاحق على فعل الانتقام، والدخول في حساسيات مضاعفة، وثالثاً، بغية إذكاء نار الخلافات داخل هفيركان.

ومن السهل إطلاق سراح رواية، تسمي القاتل خارج هفيركان، أولاً لزيادة أواصر القربى بين الهفيريكانيين، وثانياً، ليكونوا موحدين أكثر ضد رمز حي وكبير لهفيركان، ولإضفاء الشرعية على أي عنف يمارس ليس ضد القاتل نفسه، وإنما ضد آخرين، وربما من يمثل العشيرة هذه أو تلك.

وربما يكون ناشر الرواية مطوباً تركيا، أولاً لتعميق النزاعات الجانبية بين الكرد جميعاً، ثانياً، لكي تتمكن السلطة من إيجاد المبرر للتدخل، كما لو أن ليس لها يد فيما حصل، وثالثاً، لتعطي صورة براقة لنفسها في «حرصها» المزعوم هذا.

وأرى أن ذلك يتناسب أولاً مع مكانة هفيركان في تاريخ المنطقة، وثانياً مع مكانة سلاطينها، أو زعمائها، وعليكي بطي هو البرزخ الفاصل هنا بين من كانوا قبله، حتى حاجو الثاني، في «الداخل: سرخت» ومن جاؤوا بعده، وفي شخص حاجو الثالث القدوة اللافتة في «الخارج: بنخت» رغم وهن الخط الحدودي الخيطي المصطنع بينهما.

وما يتوقف عنده جبو، يضيء هذه النقطة، وهو يشير إلى (أن هناك روايات مختلفة جداً عن الحادث، إلا أن الأمر المؤكد أنه لم يُقتل على يد العسكر كما ادعى المسؤولون الرسميون، بل على العكس من ذلك فإنه قُتل في معركة عائلية، أو بين الكرد في وقت كانت الدولة قد كُفّت فيه عن ملاحقته بعد أن يأسست من إلقاء القبض عليه. إلا أن المسؤولين العسكريين، الذين لم يستطيعوا اعتقال علي بأي شكل، وضعوا اليد على الجثة وأعلنوا بأنهم قتلوه، وذلك طمعاً في الحصول على المكافأة المرصودة لرأسه، واكتساب الشهرة والحصول على ترقية...ص111).

كما أسلفت ذلك وارد بالمقابل، وإنما من باب الاحتمال، وليس ترجيح رواية على أخرى، طالما أن ليس من رواية تاريخية ومن راوٍ سليم الحواس، ولا يُشك في شهادته وهو قريب من موقع الحادث، يمكنها أن تقطع الشك باليقين إلى حد ما.

ذلك يعني أن الذي أفصح عنه جبو، يندرج في سياق المتابعة القرائية لمجموعة من الروايات، وليس جميعها، وكما في مقدوره، كما نوّهت، أن يستخرج بعض الوثائق ذات الصلة المباشرة بهذا الجانب، ليزيد في حقيقة كتاباته قيمة تاريخية تؤخذ في الحسبان، ما عدا ذلك، تكون وجهة نظره، وهو يستعرض بعضاً منها، مقامة على ترجيحات معينة، هي ذاتها قابلة لأن تناقش، أو يُصغى إليها إلى حين.

من جهة نفي قتله على أيدي العسكر، يمكن المضي معه في هذا الاتجاه، إذا علمنا بمكانة عليكي بطي، وهيبته في المنطقة، ولأنه ينتمي إلى هفيركان ذاتها، وبالتالي، فهو يمتلك خبرة «هفيركانية» بشاردها وواردتها التاريخيين، أي من ناحية بواطن الأمور، ويكون قوله ممكناً حين يطعن رواية العسكر، وعائدها الاستخباراتي، أو الاستعراضي.

لكنه في الجانب الآخر، لا يجزم، وليس من تحديد قطعي في الموضوع: على يد من قُتل، قتل من العائلة، أو من الكرد، وهناك مسافة مكانية، واختلاف مشاعر وتوجه أفكار فيكل منهما.

ولعل سؤالاً يطرح نفسه هنا، وهو: أليس بين يدي جبو مواد، أو وثائق مسماة بأسماء أناس كانوا، عاشوا ما جرى عن قرب، ليضيف من عنده ما يعطي البحث قيمة تعزيزية لتاريخ عاصف، ومغيّب كثيراً، تاريخ لم يُورخ له كما يجب.

وليأتي ما يقوله جبو تالياً (انتهت حركة كردية أخرى، بخطأ وصوابها، وخيرها وشرها، في 18 آب 1919، وكان للكرد مساهمة كبيرة في إنهاؤها. ص 113).

إنه قول بمثابة النعي لهذه الحركة، والسخرية مما جرى، ممن كان لهم دور في إنهاؤها، وما إذا كانوا قد استشعروا متعة في رؤية بطل كردي، مهما كان الموقف منه، وهو باسمه يتجه إلى المستقبل بصفته محتفياً به هنا وهناك !

لكن ذلك لا يعني الخلط بين الأوراق، لا يعني التساوي بين الذين ماتوا وهناك ما يشدهم إلى حياة أخرى، وهناك أمل يشدهم إلى من يمثلهم في الحرية، وفي نطاق ما هو جماعي، وبين الذين مانوا بعيداً عن كل ذلك، حيث لا يعترف بهم حتى من قبل الذين ماتوا في ظلهم، ولا يمكن لموتهم أن يعني شيئاً للذين يتحدثون عن حياة مثالية.

صحيح أن الذين خرجوا عن جماعتهم، واختاروا طريقاً آخر، وهم بلغة أخرى، أي لغة لها مرجعية عقائدية على الضد مما يفكر فيه أهلهم وأناسهم، يمكن أن يأتي باحث ما على ذكرهم، إنما لا يكون لهم ذلك المقام الذي يُثني عليه. وليس من شعب، آذار ثناء على هؤلاء الذين أرادوا أن تكون وجهتهم خارج سياق ما يفكر فيه شعبهم، أمتهم، ليس من أحد بقادر على الدفاع عن أي من هؤلاء في الهواء الطلق، أي في فضاء الحرية، مهما كانت خدماتهم كبيرة لأولئك المعادين لشعبهم، ضد من يتعرض لهم، باعتبارهم اختاروا الطريق الخطأ، حيث ليس من خائن، ارتقى إلى درجة القدوة، وإن لم تذكر صفة الخيانة باسمه، لكنه يظل محل نبذ، لحظة مجابهة من يثني عليه، فيما لو خرج من جماعته من يسند عدوه.

لعله التاريخ الذي لا يُنسى، كما لا ينسى من خلال مدوناته الكبرى، في عمليات مفصلية من هذا النوع.

إن ما يستحق التذكير في هذا الصدد، هو أن الذين جاؤوا من بعده أبناء وأحفاء لا بد أنهم يجدون فيه رمزهم العالي، كما ينظر إليهم من هذا الباب، وقد (ترك علي بطي ولدين: هما يوسف ونذير، أما أخوه خليل بطي فقد قتل في المعركة. وقد ذكر لي علي بطي الثاني أن له أيضاً ولدين آخرين من أم ثانية وهما: سليمان وشينو، واسم أمهما هو أمينة، وكانت تُعرف في المنطقة باسم أمينة سيّد. وكان الاسم السابق المقرّر لشينو، الذي ولد في سنة مقتل علي، هو علي إلا أن أمه أبدلت الاسم إلى شينو، وهو اسم كردي يعني الحداد أو المأتم.

إن يوسف ونذير من أم واحدة «أي إنهما شقيقان»، ومع أنهما لم يكونا ذائعي الصيت مثل أبيهم، ولكن يمكن القول أنهم ساروا على نهجه، وواصلوا تقاليد الهفيران، وأصبحوا تابعين لحاجو، وشاركوا في الانتفاضة التي اندلعت سنة 1926

وذهبوا بصحبته إلى سوريا . وقد بقوا هناك لسنوات طويلة ثم استفادوا لاحقاً من العفو الصادر من الحكومة التركية وعادوا إلى كردستان الشمالية حيث أمضوا بقية عمرهم هناك، ومات الاثنان بأجلهما الموعود . أما علي بطي الثاني الذي كانت له مساهمة كبيرة في دراستنا هذه فهو ابن يوسف، وهو يعيش حياة هادئة في نصيبين...ص114).

أولاً، من المعتاد ألا تكون الحياة هي نفسها جهة الربط أو المقاربة بين الأشقاء، أو الأب والابن، وليس من الضرورة أن يتحقق محتوى قول «هذا الولد من ذاك الوالد» أو «فرخ البط عوأم»، إذ إن هناك جملة من المقومات التي تلعب دورها الكبير في رسم معالم الشخصية الاستثنائية، لتكون نموذج «بطل من هذا الزمان».

من جهة أخرى، من المدهش حقاً، أن يكون الولد من ذاك الوالد، وهي حالة شديدة الاستثنائية، ربما لوجود عوامل تلعب دورها في هذا التفاوت، عوامل تقوم على التحدي.

إن ظهور بطل من نوع حاجو الثاني، وبعد ذلك عليكي بطلي، ومن ثم حاجو الثالث، يتطلب تدقيقاً في بنية العلاقة بين كل منهم والآخر، من جهة الإرث الرمزية للبطولة أو التمايز، وهو ما اعتمدته كمثال في هذا المنحى، ومن باب التوضيح، وفي إطار وجهة نظر.

أن يكون هناك ظهور نجم بطل، وسط نجوم كثيرة «مطفأة»، فهذا يمضي بنا إلى تخيل كثافة الظلمات السائدة، وما تعنيه من مصاعب ومخاض معاناة، أو مكابدات، تستلزم بزوغ ذاك النجم، والذي يلفت الأنظار، وينشغل به المحيطون به بنوع من التابعة «الأتباع».

بالطريقة هذه، ربما من النادر جداً أن يكون لدينا بطل ابن بطل، أو يكون كلٌ من الأب والابن بطلين، ليس لاستحالة الارتقاء إلى هذا المقام، وإنما ربما لوجود ما يشبه قانون التحدي والذي يقوم على التفاوت.

أورد هنا فكرة قد تكون صادمة لذوق البعض، أو منقّرة لديه ولدى سواه، وهي التالية:

من المعلوم أن سفاح القربى، يعني حظر الزواج ممن هم من الرحم نفسه، من الصلب نفسه: الأخوة من الأخوات، من العمات، الخالات، والعكس صحيح، وكذلك

بالنسبة لحظر اتصال الأم بابنها، بأخيها، بابن أخيه، أختها، أو بالعكس، الابن بحفيدته أو بالعكس، الأب بابنته، مثلاً» أو العكس.... الخ، ذلك يلغم قاعدة الاستمرارية في العلاقات على أسس إرثية واجتماعية سليمة.

إن ابناً يتشبه بأبيه ربما يستحيل عليه أن يكون مثله، لأن الأب هو قدوة هنا، والقدوة تلغي عنصر التحدي عن قرب مباشر.

لا بد من مسافة زمنية معينة، لا يكون الأب موجوداً في الساحة، ليكسب الابن مناعة، كي يصبح الأب المقتدر.

كما لو أننا إزاء ما سمّيته بـ «سفاح القربى» تأكيداً على نوع من الاستحالة. إن ابناً يتزعرع في ظل أب بطل، بطل أسطوري، زعيم عن جدارة، وهو ملء أعين الحضور، لا أعتقد أنه سينمو النمو السليم، ليكون اسمه المنتظر، وبالتالي، في أن يصبح نظير والده أو أبيه بطلاً، لأنه يفتتن به، والافتتان من حيث الجوهر، يقوم على منح صفة الهيمنة السيادية للأب هنا على الابن.

وفي هذا السياق، ربما يكون الابن بطلاً دون الأب، أن يصبح الأب بأكثر من معنى، جرّاء التحديات التي يعيشها لم يخض الأب غمارها.

هل المثال المتعلق، هنا، بكل من حاجو الثاني وحاجو الثالث استثناء؟ كلا!

من جهة المتابعة التاريخية، تخبرنا سرديات العلاقات القائمة بين أفراد سلالة حاجو، بما يخدم هذه الفكرة.

إن تعرض الأب وهو في موقع الزعامة والبطل، لمواجهة وتحديات، ربما يتلقى ابنه هذا التأثير، وقد يتطلب ذلك، في العموم وجود حاجز/ فاصل زمني، فكل حالة تآثر، كانت تعني وجود استعداد لدى الابن في أن يصبح البطل، والأب غائب، أو ميت.

حاجو الثالث لم يظهر على الساحة، إلا بعد ظهور عليكي بطي ابن العم، وهو في موقع التحدي والتنافس، أو المحفز لأن يكون منافساً، وقد قتل حاجو الثاني، فكان عليكي بطي، وقتل عليكي بطي، فكان حاجو الثالث، أي حيث لا يمكن الحديث عن بطلين في آن واحد. أن يظل بطل ما، يتطلب عدم ظهور آخر من نوعه وتحت السقف الواحد نفسه.

ودون أن ننسى متغيرات الزمان والمكان، ومفهوم التحدي، وطابعه الاجتماعي!

ولننظر في هذا الترتيب، وكمثال طبعاً:

حاجو الثالث، جاء بعد حاجو الثاني، بعد ظهور عليكي بطي.

عليكي بطي، لم يكن له من ظهور، كالذي عرف به، إلا بعد ظهور جمو.

ولنأخذ بعين الاعتبار موقع كل من سرحان، سَروخان، وجليبي، بين من ذكرتهم آنفهم، وما يكونه التحدي الخاص، من إبراز أو ظهور البطل. إننا إزاء علاقة رياضية تماماً.

وإزاء عليكي بطي، وبالنسبة لما سطره جبو بخصوص أبنائه وأحفاده، علينا أن ننظر في الخريطة السياسية وقتذاك، وأن نتحرى كيفية تموضع الجغرافية الطبيعية، وقد تباعد أفراد العائلة الواحدة، جرّاء المتغيرات السياسية. هنا يتدخل الحساب أكثر من الهندسة.

كما لو أن الأب البطل، يصبح حكاية الابن أو سرديّة حكايته، وهو لا ينفك يأتي على ذكره ذلك إعجاب، والإعجاب يجعل المعجّب به قدوة، ويقلّل من فاعلية الذات الصانعة لقدوتها داخلياً!

أو أن بطولة الابن، تحمل علامة أخرى مغايرة لتلك التي حملتها بطولة الأب.

فأن يصبح الأب حكاية الابن أو الحفيد، يعني أن احتمال ظهور أي منهما بطلاً كسالفه صعب جداً، عدا عن متغيرات الظروف التي تعلمنا أن البطل بطابعه الملحمي يحتاج إلى ظروف خاصة، واستعدادات نفسية ليحمل صفته.

بالمقابل، أن يصبح الابن أو الحفيد راوية جده، أو سالك طريقه، في السيرة الحسنة، نصف بطولة أيضاً، كما أرى.

ومن يمارس مسحاً لجغرافية هفيركان، وأين حل أو استقر أهلها، أرى أنه سيكتشف الكثير من هذه العلامات الفارقات، وفي ظل سلطة مغايرة لسالفتها، ومكان مفتت، تعرفه المنافي والمغتربات أكثر، أما الزمان فقد بات «ساعاتياً» وليس شداًئدياً!

صفحة جكرخوين عن تاريخ عاصف

يقول سون الذي عاش بين الكرد وتكلم لغتهم ما يأتي «إذا أردنا أن نكون عادلين في أحكامنا على الكرد وجب علينا أن نقارب بين كردستان وأوروبا قبل 600 سنة. وحتى بالنسبة لآيامنا هذه، فإن المقارنة بين الأوربي والكرد لا تسيء إلى الأخير فيما لو جعلنا من القيم المثالية وقواعد الأخلاق معياراً للمقارنة. إننا نجد بين ألف كردي من أي فئة كانوا وكيفما جمعوا مجرمين خلقين أقل بكثير مما نعثر عليه في مثل هذا العدد من الأوربيين الذين يجمعون بالصورة نفسها.»

باسيلي نيكيتين: الكرد

الضمير الصريح أكثر

تلك إطلالة على اسم له شهرته، مقامه وميزته كردياً، لكنها الإطلالة التي لا ينبغي لها أن تحول بيننا وما نكون عليه، تاريخياً فعلاً، أن نعاين الواقع من نواحي شتى، بوصفه أكثر مما ينظر فيه، ويصغى إليه، ويتم تلمسه، أكثر مما يكتب عنه من زاوية واحدة، وباسم واحد، مهما علا مرتبة، وبرز اعتباراً.

وبذلك، فإننا لن نعود إلى الشاعر جكرخوين، لنتابع معه في بعض مما كتبه في سيرته الذاتية عن عليكي بطي. لقد استوقفنا جكرخوين في أكثر من نقطة في الكتاب الأول، وكما أنه لفت نظرنا في بعض منها، في هذا الكتاب، ولو بشكل محدود جداً، حيث تطرق إلى عموم هفيركان، كما هي نظرته، إلى جانب أنه أعطى حيزاً كبيراً لحاجو آغا، إذ تعرف إليه، وعاصره عن قرب، أما بالنسبة إلى عليكي بطي، فربما التقاه أو سمع به عن قرب، إذ كان حينذاك فتياً، عند ودع الأخير الحياة سنة 1919.

هناك القليل من المعلومات. إنها شذرات منها، رغم أنها تفيد في التعريف بنظرة جكرخوين الطبقيّة، وحتى من منظور ثقافي ونفسي، وليس القومية في حدود ما يمكن تنويره، بما أنه باشر كتابة سيرته في عمر متقدم، ونشرت، كما هو معلوم، بعد رحيله، بأكثر من عقد من الزمن «سنة 1995»، كما جاء في استهلال الكتاب.

ليس هناك تحديد دقيق للحظة البدء بالكتاب.

هل كتب السيرة على مراحل، ليحافظ على التواريخ الدقيقة، أو حتى ترتيب الأحداث والوقائع، أم دفعة واحدة؟ «في نهاية الكتاب، يتوقف عند تاريخ 1981».

متى باشر كتابة سيرته؟

أين باشر كتابة سيرته هذه؟

لقد تطرقنا إلى جوانب مختلفة من هذه السيرة في الكتاب الأول «عن حاجو الثالث» وبما يتناسب ومتطلبات البحث فيه، وبقي أن نشير إلى ما يمس موضوعنا هنا .

لحظة قراءة المدوّن عن عليكي بطي في أقل من صفحة «ص 42-43» في النص الأصلي، حيث توجد ثلاثة أرباع أرباع الصفحة أولاً، وفي الصفحة التالية، سطران ونيّف، وتحت اسم «معركة تتاتي ص52».

من المفيد إيراد هذا المدوّن هنا :

(كيفما اشتهر علي بطي بين الهفيركيين «في الترجمة ورد الاسم كتابةً هكذا: بطة» وكيفما اشتهر زعيم الهبزنيين عزالدين الحاج علي بين الدكشوريين، فإن أحمد سليمان كذلك كان قد اشتهر بين الأومريين.

أسرة عثمان كانت قد نزحت بسبب أحمد سليمان، وذهبت إلى علي بطي بين الهفيركيين. كان علي يريد أن يتسلل إلى وسط عشيرة الأومريين بحجة أسرة عثمان، لكن أحمد سليمان لم يرض بهذا الأسلوب.

بدأت معركة تتاتي فجأة. إذ اقتحم حشد الهفيركيين قرية تتاتي- إحدى قرى الأومريين الكبيرة- حيث بدأت المعركة الكبيرة من جديد، وقُتل الكثير بين الطرفين. لكن بعد مدة بعيدة وطويلة «طويلة جداً، في النص الأصلي»، التقى عزالدين وعلي، وقال عزالدين لعلي: يا علي، تعال لتتصالح ونتضامن نحن الثلاثة، وننشئ دولة لنا . ومن يعلم ما الذي يجري! فما هم الإنكليز تحت أنظارنا في الموصل، وسنطلب منهم المساعدة ونصير دولة .

قال له علي:

هذا حسن جداً، لكننا- أسرة عثمان- لم نر أرفع منّا . فإن وقّعتما كلاكما منذ الآن على أن أكون زعيم هذه الدولة فسأفعل، وإذا لم أكن الزعيم فلن أفعل .

لذا صار عزالدين حليف أحمد سليمان. وأتى لنجدة الأومريين الهبزنيون والهساريون والكوسيون والديرفريون وبعض المحلميين وحاربوا الهفيركيين. كما أن جنود الأتراك أيضاً جاؤوا لنجدتهم فتغلّبوا على علي وأخرجوه من تتاتي وقُتل علي بين الهفيركيين. وحُرق ونُهب الكثير من قرى الأومريين والقفيركيين.

بقي ولدان: يوسف ونذير من سلالة علي بطي. لكن لا أعرف جيداً كم ولداً لهما . كما أن خليل بطي قُتل ولا أعرف أسماء أولاده).

من المفيد أيضاً، تأكيد معركة تتاتي، وكما سنرى كذلك، في الأغاني التي دارت حول المعركة هذه، في كتاب جبو، وبإيجاز، في التمهيد، وبعد ذلك يعرض نص الأغنية، حيث سيدور حولها كلام آخر تالياً:

لجأ شخص يدعى ملا عثمان «الصحيح أسرة عثمان: مالا عثمان» إلى علي بطي، هارباً من ظلم أحمد سليمان زعيم عشيرة أومري. وقد أدى هذا إلى بدء المشاكل والاضطرابات بين الطرفين، وازدادت المعارك شدة بين قوات علي، التي دخلت إلى قرية تتاتي العائدة إلى عشيرة أومري، وبين قوات دكشوري وأومري، وقد وقفت قوات الدولة إلى جانب الدكشوريين، وتكبّد الطرفان خسائر. ولا شك أن أكبر خسارة دفعها الإنسان الكردي الفقير. إن هذه المعركة، والحوادث المريعة التي حدثت بعدها، تركت انطباعات عميقة في ذاكرة الناس في المنطقة..ص101).

بالنسبة إلى جبو، لا يعلمنا هنا من أين جاء بهذه الرواية، ربما نقلها عن جكرخوين، دون أن يأتي على ذكرى اسمه، لأن هناك تطابقاً - تقريباً - بينهما، واللافت أنه فيما بعد يعلّق على ما جرى متأسفاً، جرّاء مأساة المعركة، والتي آذت الكرد جميعاً، وهذا صحيح تماماً. إنما، ربما أمكن القول، كيف يمكن اتخاذ موقف مما جرى. ليس في تخوين أي طرف، والحديث عنه بوصفه خائناً للكرد، وإنما جهة التعامل مع الدولة، بعيداً عن إطلاق أي نعت أخلاقي، من نمط «الخيانة»، وما يترتب على علاقة كهذه، من تحديد توجهات كل طرف كردياً.

جكرخوين يعتمد على الذاكرة، وهي مدعاة للكثير من التساؤلات عن خلفيتها الاجتماعية والسياسية، إلى جانب عدم وجود المصدر المسمّى، والذي اعتمده في عملية النقل. وإذا كان لنا ألا ننظر إلى قول كهذا، على أنه ليس بتاريخ، إنما مجرد انطباعات، من خلال طريقة عرض المعلومات التاريخية طبعاً، فإننا نرى من يرجع إليه، ويفتخر منه، كما لو أنه من صلب التاريخ، عدا عن أن جكرخوين نفسه، في مجمل سيرته، يستعرض مشاهد تحمل بصمة تاريخ، وليس فيها ما هو إنشائي، أدبي لافت، حيث تكثر أسماء أشخاص من مراتب مختلف، إنما تستشرف بنا تاريخاً طويلاً من العلاقات فيما بينها، وهي في مواقع جغرافية وغيرها، وتكون متفاوتة، وكون الذي يجري تدوينه، يحمل نوعاً من الشهادة التي لا يمكن النظر فيها دون مساءلة بنيتها الثقافية والقيمية.

هناك إشارة لافتة عن حالة الصراع بين من أتى على ذكرهم، ولا أظن أن أسلوباً كهذا، هو صنعة كاتب تاريخ جهة التداخل بين الأسماء. وبعيداً عن أي تحييز، تظهر طريقة الكتابة لدى الشاعر، نقداً جلياً موجهاً إلى عليكي بطي، لا بل وإلى هفيران

بالذات، حيث إن القتال الذي جري تالياً، لا يخفي مسئولية عليكي بطي بشكل واضح. في الحالة الأولى، حين يجري تقديم شخصيته، وفي ذلك الحوار المذكور، مدى تعاليه، وحبه للزعامة، وتواضع محاوره، وفي الحالة الثانية، عملية هجوم الهفيركيين على تناتي. وليس هناك من سر، لحظة القول، أن الدكشوريين كانوا متحالفين مع الدولة دائماً، وجكرخوين نفسه، أشار إلى ذلك سابقاً «ص45»، والأومريون لم يكونوا مع الهفيركانيين إجمالاً، لهذا، لا بد من توضيح الخط الفاصل بين هذه الحالة وخلافها، دون إصدار أي حكم على الأقل، أما أن يأتي الكلام بالطريقة هذه، ففيه تعسف تاريخي. وهذا يدفع بنا إلى النقطة الثالثة، وهي تظهر بشكل أوضح تحيزه إلى جانب من خاصموا علياً، والحديث عن أن قتل بين الهفيركيين، ذلك يثير مجموعة من النقاط الأخرى:

الأولى، ما يجعل من عليكي بطي «أو علي» شخصية متباهية بنفسها، أو متعالية على واقعها، مستبدة، ولا تحسن إدارة العشيرة، أي غير كفؤة، باختصار. الثانية، إظهار هفيران الرافضة له، أو على الأقل، إبراز مدى الانقسام في صفوفها، وبالطريقة هذه، يكون علي محل مسئولية عما كان يجري جهة الانقسام، لأنه زعيمها، ومن ناحية أخرى، يتم وصف هفيران بعدم التماسك، أو بذلك الصراع الداخلي، والدليل الصارخ، أنها قتلت زعيمها، وهل هناك ذنب أكبر من هذا؟ الثالثة، ما يعطي انطباعاً للموالين للدولة في أن يشددوا على هفيران، لإثبات مصداقيتهم، دون السؤال عن المسار التاريخي وجانبه القيمي بالنسبة إليهم كردياً. وفي هذه النظرة بالمقابل، يكون انزياحه عن حقيقة ما كان يجري، وأنه كتب سيرته الذاتية، حتى وهو في السويد، أو في عمر متقدم، وهو يعتمد تزويراً لحقائق تاريخية، وتركيبها يميّعها.

وحتى بالنسبة لموضوعة الموصل، لا أدري، من أين جيء بهذا الاسم، وجعله موضوعاً خلافياً بين الاثنين، ومنح عزالدين مكانة اعتبارية أكثر، في وعيه التاريخي، رغم أنه، وإن حصل ذلك، كان يتحدث عن الموصل، تعبيراً عن دعمه لتركيا ووقوف معها، وهو ما لحظة لحظة إعلان الدولة الحرب عليه⁽¹⁾.

(1) يمكن الإشارة إلى نقطة مهمة جداً، لتوضيح بنية هذا الحوار، إذ كما رأينا في أكثر من مكان، أن الدعاية التركية، من خلال مساعي أعضاء الاتحاد والترقي، وأتاتورك في الواجهة، كانت تمارس نشاطاً مكثفاً، وعلى أعلى مستوى، وهو ممزوج بالدين، بصورة استثنائية، نظراً

وإن أردنا الماضي أبعد من ذلك، هو: هل حقاً أن جكرخوين، لا علم له بما جرى من مواجهة بينه وبين الدولة وطبيعة المواجهة هذه، ومن ساندوا الدولة بالذات؟ أليس عدم التدقيق يمثل مزاجية صارخة، تعدم كل قيمة تاريخية في سيرته تلك، لا بل وتظهر ذلك التحيز أو الاصطفاف لديه لصالح أعداء علي.

إن قراءة سريعة لما سطره جكرخوين عن «علي بطي ونصيبين» تفصح عن هذا الاستخفاف بحركته تلك:

(من المعروف أن «علياً» كان يريد أن يتدخل في شئون الأومريين بحجة أسرة عثمان آغا، وأن عزالدين وعلياً التقيا ولم يكن بينهما وئام. والتقى علي وأحمد سليمان فيما بعد أيضاً ولم يكونوا على وئام. نزل علي إلى نصيبين وحطم باب

للتأثير الكبير لمثل هذا السلوك، في الأوساط الثقافية الكردية، وعبر اتصالات مع زعماء العشائر وخلافهم، بغية التصدي للانكليز، حيث نقراً أنه (بحلول ربيع العام 1919، بدأت الدعاية التركية المناوئة للبريطانيين والمسيحيين تؤتي أكلها في كردستان العراق، لا سيما في تلك الأجزاء من ولاية الموصل، الأقرب إلى مركزي شرنخ وجزيرة ابن عمر حيث الاضطراب. كان يُنظر إلى البريطانيين من منظور أنهم الكفار العازمون على تشديد قبضة خناقهم الجائرة والغريبة على الكرد بهدف استعبادهم وتسخيرهم لخدمة مصالحهم الأنانية الذاتية، وكذلك مصالح المسيحيين المحليين، إخوانهم في العقيدة، جرى استحضار قيم الدين والوطنية والعادات المحلية ومعانيها لتعزيز زخم الانتفاضة في وجه الغزاة الفاتحين. ص 355).

هذا القول يثير مجموعة من التساؤلات بصدده ما كان يجري، من ناحية، وكما رأينا سابقاً، وفي كتاب جبو «ص 97» نشاط بطي في آذار 1919، وقد ذهب إلى سوريا، واتصالاته مع رجالات ذوي نفوذ هناك، للقيام بانتفاضة سيقوم بها ضد الدولة التركية، ودون نسيان الاتصال بجمعية تعالي كردستان، لهذا الغرض، وما كان يُعد له، من ناحية أخرى.

وفي الصفحة نفسها التقى بطي بآخرين، إنما في سياق آخر، وهو كيفية التصدي للاحتلال الانكليزي في كردستان في حال اتساع نطاقه إلى كردستان الشمالية من ناحية أخرى. وهذا قريب من التناقض، لكن اللبس ربما يزول إذا تم الربط بين فعل المجابهة للانكليز، إذا توغلوا في النطاق الكردي في كردستان الشمالية، وليس للدفاع عن الأتراك، أو الدولة التركية، كما يمكن أن يفهم هكذا، وهذا ما يتأكد -ربما- في ذات الصفحة لدى جبو، في الإشارة إلى مسئولين أتراك، وهم يذكرون بطي بالاسم، وربطه بانتفاضة سيقوم بها مدعومة من الانكليز. وبذلك يفقد قول محاور بطي أي عزالدين قيمته التاريخية والكردية الطابع، وهو يشير إلى وجوب إنشاء دولة كردية «وننشئ دولة كردية لنا. ص 52، من كتاب جكرخوين، النص المترجم، ص 42 من النص الكردي»، إذ كيف يتم طلب المساعدة من الانكليز، وهو مع الدولة التركية، وبالتالي، وكما هو مستقراً في السياق، يكون الحديث عن نشوء دولة ودون تحديد صفتها، في غير محله من التصريف...الخ.

السجن وأطلق المساجين كلهم. وفي اليوم الثاني طوّق جنود الأتراك المدينة. جعل علي وجهاء المدينة أمامه وخرج من المدينة. وعندما وصل إلى وسط الهفيركيين تعقبته نجدة الأومريين والدكشوريين والهساريين مع جنود الأتراك. وبدؤوا بالنهب والحرب. وقد قتل علي في أثناء الحرب وانتهت الحرب. لكن بعد هذه الحرب دخل بيت عثمان قرية «جالي»، وخرج أحمد سليمان ولجأ إلى محمد أحمد إسماعيل ثم عادوا إلى جالي وأخرجوا بيت عثمان من القرية. ص (83).

ذلك اختزال واضح لما قرأناه سابقاً، لا بل إن صورة علي في هذا الاقتباس، وهو لا يحتاج إلى قراءة معمقة بين السطور، تظهر في وضع لا يُحسد عليه. عليكي بطي، بإيجاز شديد، شخصية شقاوة، تبعاً لكتابة جكرخوين:

فمنذ البداية، لا يبدو في كتابته مثل هذا الود للاسم، أي ما يجعل مدار موضوعه دون النيل منه بالطريقة هذه، وهو يقدم بالمتدخل في شئون الآخرين. في النص الأصلي: لقد عرف كيف أن عليك كان يتدخل في وسط أومريان بحجة بيت/ أسرة عثمان آغا:

Hate zanîn ko çawa Elîk bi mehana Osman axê dixwest destê xwe têxî nav Omeriyan. R.68.

وحين يقابل بين كل من عزالدين وعلي، دون أي خلفية اجتماعية، أو طبيعة موقف كل منهما من الدولة.

وحين يتحدث عن دخول علي إلى نصيبين، يُقرأ النص، وكأنه الوحيد الذي دخل المدينة، وما قام به نوع من الشقاوة، إلى جانب طريقة سوقه لوجهاء المدينة «هكذا ببساطة» أي «ربما كدروع بشرية» ويعني أنه كان مع رجاله وقدموا لأجل هدف معين، وليس للقيام بعمل شقاوة.

وتالياً، يعطي الدور لمن تعقبوه، وما في ذلك من إضفاء نوع من كيل المندح عليهم، وكأن علياً فيما لاقاه، كان جزاء على ما قام به «على فعلته».

وفي مشهد القضاء على علي، حيث يختزل حركة هفيران «لا يُسميها إطلاقاً» يختزل شخصية علي في كل ما قام به، جهة التعامل مع الدولة ومن كانوا يساندون الدولة، حيث لا يوجد أي أثر له، من خلال يمكن النظر إلى عليكي بطي على أنه «شخص سوي» على الأقل «وليس بطلاً». إنه تحامل مشدد عليه هنا.

هناك مشاهد يجري تصويرها، مع بدء الحرب العالمية الأولى، من ذلك:

(بدأت الحرب، وفُرت عصابات الأرمن إلى قمم الجبال. بدأت إبادة المسيحيين. يدخلونهم دفعة واحدة إلى كردستان، ويقتلونهم بأيدي الكرد الجهلاء، الأميين والمتوحشين. اعتصم مسيحيو مدياد- طور في قرية عين الوردية. حشد الآغوات الكرد، والشيوخ الكرد العشائر من كل الأطراف باسم دين الإسلام وحاربوا إخوتهم المسيحيين اليعاقبة الكرد. يقتلون النساء والرجال، ينهبونهم، يحرقون البيوت، يسلبون الأمتعة، استمروا في حصار «عين الوردية»، لم يتمكنوا من النيل منهم. كان الهفيريكيون يساعدونهم ويرسلون إليها الأرزاق والأسلحة. كما أن اليعاقبة الكرد كانوا يحاربون ببطولة، كانوا يقاومون ولم يحنوا رؤوسهم لعدوهم. وحملوا أنفسهم برجولة، وقد بقوا في جبالهم، وقتلوا الكثير من أعدائهم أيضاً. ص 63).

لاحظ ماذا يقول في مشهد تال، جهة تجاوب الكرد مع العدو التركي إبان الحرب هذه:

(وكان الأمراء والآغوات أيضاً يخدمون العدو خدمة جلييلة مجاناً. كانوا يقتلون بعضهم بعضاً، وينهبون قرى بعضهم، يحرقونها بأيديهم، وهم بأنفسهم يتركون بعضهم بعضاً بؤساء وتحت سيطرة العدو. ص 81).

في المشهد الأول، يضيء واقعة تمثلت بالذين كانوا يغيرون على المسيحيين، ويمارسون فيهم قتلاً وسلباً ونهباً، ولكنه يشير بالمقابل، إلى الهفيريكيين الذين كانوا يقدمون المساعدات للمسيحيين ضد هذا الجور «الكردية» رغم أنه لم يُسم أحداً، ولا أظن أنه كان يجهل من يكون هؤلاء الذين يسيئون إلى الناس الأبرياء، بالطريقة هذه.

كما لو أن مقص التاريخ بيده وحده، يقص من هنا وهناك، بوصفه المرجع المعتبر الوحيد في هذا الجانب.

حسابات مسجلة

من جهة أخرى، لم يكن الشاعر مأخوذاً بمثل هذه الحركات، وفي ذهنه صورة مثالية عما يجب أن تكون عليه من حيث التركيب التنظيمي والاجتماعي والسياسي، ولهذا، فإن نغمة «الطبقية» ستكون بمثابة القاسم المشترك الأكبر في عموم كتاباته، لا بل إنها من ناحية التقويم، تلعب دوراً لافتاً في النظرة إلى عموم الحركة الكردية، ودون أن يكون اعتماده طبقياً في كتاباته هذه، حيث الطبقية بمفهومها «الماركسي-الشيوعي» تستوجب تلك المنهجية الصارمة، مهما بدت متعالية على واقعها، لكنها

توحد بين مختلف الجهات الاجتماعية والسياسية الفاعلة على الأرض، وهي ليست كذلك، إذ من السهل قراءة عشرات القصائد في قصائده، وحتى المتأخرة منها، وهي تمرر في هذا المسلك، حتى وهو معرّف به، حتى وهو يعرف نفسه شاعراً قومياً، والأكثر مبعثاً للغربة، أن رموز أول تنظيم سياسي حزبي كردي في سوريا سنة 1957، هم من هؤلاء الذين لم يكف عن توجيه النقد القاسي إليهم وحتى تقريعهم وتحميل وزر فشل كل مجابهة كردية للعدو، وفي الواجهة الحزب الذي لا زال يعتبر نفسه استمراراً لذلك التنظيم «الحزب التقدمي» والذي تزعمه حميد درويش حتى وفاته.

وإن أردنا الحديث بنوع من التوسع نقول، عن أنه في الفترة نفسها، وفي نطاق كردستان الشمالية حينذاك، كان هناك آخرون من حاولوا الانتفاضة ضد الأتراك، وليس من إشارة عما إذا كان هناك أي اتصال بين الحركتين، رغم إمكان حصول علم كل حركة بالأخرى، إن انطلقنا من المدة الزمنية التي استغرقتها حركة هفيران، عدا عن أن هناك تجاهلاً لهذه الحركة، وخاصة عندما نقرأ التالي:

(قامت أول حركة كردية خطيرة في المرحلة المدروسة في ملاطية صيف عام 1919، وشارك في التحضير لها عدد من أنصار جمعية تعالي كردستان، وبعد أن علم مصطفى كمال بالاستعدادات الجارية للانتفاضة، أرسل القوات إلى ملاطية. ولما علم القادة الكرد بقدوم القوات التركية انتقلوا إلى كياختا، حيث راحوا يستعدون للانتفاضة وتوجهوا إلى مدير «مصلحة الاستخبارات» في حلب العقيد بيل طلباً للمساعدة، لكنه حاول ثنيهم عن القيام بالانتفاضة ضد الأتراك، كما أنهم لم يحظوا بدعم العشائر المجاورة لهم، مما أسفر عن تشتت قوى الكرد المستعدة للانتفاضة في ملاطية).⁽¹⁾

ولا يُعتقد أن هذا التعيين كان يقتصر على ملاطية عينها، إنما في السنة ذاتها، وبعدها تماماً، وربما حين كانت حركة هفيران تخوض حرباً ضد الجيش التركي وميليشياته ومن كانوا يساندونه من الكرد الآخرين.

أيعقل أن أحداً لم يسمع بهذه الحركة، ولها مثل هذه المساحة الجغرافية التي تحركت في نطاقها؟ ربما كان الذي عرّضها للأهمال هو ذلك السقف الإعلامي-الدعائي، إلى جانب تنظيم سياسي وثقافي، كما في حال «خويون» يكون من مهامه التحضير لمثل هذه الحركة، وإن كان هناك إشارات تمت، وتمثلت في «جمعية تعالي

(1) لازاريف، م. س، وآخرون: تاريخ كردستان، المصدر المذكور، ص 203.

كردستان» وكان لبطي اتصالات بأعضائها⁽¹⁾، رغم أن الذي أشرنا إليه سابقاً، تمثل في ظهور حركات، هي عبارة عن تمردات، وانتفاضات، وثورات قبل ذلك في «تركيا»، فلماذا عتَم على هذه الحركة ؟

(1) يشار إلى أن جمعية التعالي الكردية، كانت على صلة مباشرة بالإصرار على تحقيق الحلم الكردي بالاستقلال.

واضاعتها في نشأتها ضرورية، ولما فيها أيضاً من خبر ينطوي على قدر كبير من المفارقة، كما هو الوارد في كتاب مالميسانز: عائلة جميل باشا الديار بكري...، المصدر المذكور، ص 39-40: تأسست جمعية التعالي الكردستانية بشكل رسمي في ستانبول في نهاية عام «1918» بهدف تحقيق المصالح الكردية العامة وتسهيل التطورات. بعد ذلك تم افتتاح «19» تسعة عشر شعبة لها في المناطق التي تسكنها الغالبية الكردية. كانت أيام تأسيس جمعية التعالي الكردية «أياماً جذابة»، لدرجة أن شخصية مثل «سليمان» التركي المعروف بتعصبه القومي اقترح على الشاعر «يحيى كمال» الانضمام إلى هذه الجمعية.

هكذا يكتب «جاهد تانيول»:

(تحدث لي يحيى كمال عن أمر جرى بينه وبين سليمان نظيف بهذه الصورة: التقيت في إحدى المرات بسليمان نظيف في محلة «باي اوغلو» عبر سليمان عن سروره بلقائي وقال لي: «لي حديث معك يا يحيى كمال». جلسنا في أحد المطاعم سألته عما يريد أن يقول، حيث قال: «تأسس في ستانبول جمعية التعالي الكردية، أرغب في أن تنضم لصفوف هذه الجمعية». عند قوله ذلك أصابني الدهول، لم أكن أعرف ماذا أقول حيال ذلك، أراد توضيح الأمر لي «عزيزي جميع الناس يكرهون التركي وينفرون من اسم الترك، لن يتركوا التركي يتنفس بسهولة بعد الآن، يمكن أن تظهر للوسط باسم كردي، لنخلص الوطن، أنا أفكر هكذا». تحدثنا حول هذا الأمر طويلاً، لكن في النهاية هو أيضاً تراجع عن فكرته. ص 40. في المصدر نفسه).

طبعاً، من باب التعليق، هذا الخبر يثير الدهشة من جهة، لكنه من جهة أخرى، لا يجب الاستغراب، لحظة النظر في متغيرات الظروف، وحيث الحرب العالمية الأولى حطت أوزارها، واتضحت معالم جديدة، وبات مصير العثمانيين، و«تركيا» المعلوم بها أتاوتوركا في كف عفريت، وربما كان هناك ما يشير إلى بوادر نشوء كيان سياسي كردي، وبذلك لن يعود هناك لتركيا «الغد» ذلك الأثر الذي يستحق الذكر، وتعرض سليمان نظيف لتغيرات من الداخل، وتبلبل عليه تفكيره، فيما يمكن أن يحصل ويده ملوثتان بدماء بني جلدته المسفوكة كثيراً، ومن ذلك، وهو الذي كان والي الموصل، مسؤوليته المباشرة عن إعدام الشيخ عبدالسلام برزاني سنة 1914، أو ما هو أكثر ترجيحاً من خلال سلوكه العدواني تجاه القوميات الأخرى، والكردية في الواجهة، يكون دافعه من اقتراحه ليحيى كمال، هو أن يكون عيناً على هذه الجمعية التي تأسست في عاصمة كردستان الشمالية، والتي تصلها بعموم المناطق الكردية، ومعرفة كل ما يخص هذا الجانب أولاً بأول... الخ.

ما يلاحظ أنه إبان التحضير للحركة هذه، وبتأثير من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي، كان هناك نشاط من نوع آخر، على النقيض تماماً لأهدافها وتوجهاتها، إذ حسبما يورد في هذا السياق، أنه (مبكراً في آذار عام 1919، اتصل أصحاب شأن بارزون من سيفرك مع السلطات التركية وقادة الفرع المحلي في جمعية الاتحاد والترقي في ديار بكر لبحث موضوع اتخاذ إجراءات مشتركة لمقاومة الاحتلال الأجنبي. وبالنسبة، جرى الاتفاق على خطة تتوافق مع تلك التي ستتعاون فيها القوات التركية والقبائل الكردية المجاورة في الدفاع عن منطقة سيفرك وديار بكر- وأورفا. وبهذا الهدف في ذهن، أطلقوا سراح محمود بن إبراهيم باشا، شيخ قبيلة المللي الأكبر، وعبدالقادر بن درعي، رئيس قبيلة القرقلشي اللذين كانا في السجن بتهم عدم الإخلاص للحكومة. وقد عرضوا إعادة محمود إلى موقعه بصفته الرئيس الأكبر لاتحاد عشائر المللي وجعله الشيخ الكردي الأقوى شرق الفرات إذا وافق على قيادة قواته والقبائل المجاورة لدفع الحاميات البريطانية إلى خارج أورفا وعبر الفرات).⁽¹⁾

وما يجدر التذكير به مجدداً أن جويده والذي ورد هذا القول/ التقرير الآن في الذكر في كتابه، هو نفسه من يشير إلى قائمة اتصالات لعللي بطي، كما يسميه، بمجموعة من رؤساء القبائل، وانطلاقاً من زعم في ذلك، في السياق نفسه «أي لمقاومة التقدم البريطاني» وليس إعلان الحرب على الأتراك، وينوّه جويده بعد هذا التقرير، أنه (في أورفا وحولها، يبدو أن الوضع كان غامضاً إلى حد ما. خلال الأسبوع الثاني من آذار، عالم 1919، أطلق أحد أنصار محمد بك، شخصية كردية مرموقة من أورفا وأحد المتحمسين للأخوة التركية، حملة ضد تدخل المسيحيين مثل البريطانيين، في قضايا الدولة الإسلامية. وفي الوقت ذاته، قيل إن قائدين من جمعية الاتحاد والترقي، علي أفندي من سيفرك وسعيد بك من بغداد، انخرطا في تحريض القبائل في جوار المدينة ونظما القوات لمحاربة البريطانيين. كما قيل إن رؤساء القبائل المجاورة جاؤوا إلى أورفا لتأكيد ولائهم للقضية الكردية).⁽²⁾

بين الكثافة في الدعاية التركية ضد الانكليز ومن معهم، في الوقت الذي كان يجري تشجيع الجرائم التي ارتكبتها الأتراك إلى جانب مجموعة من رؤساء عشائر كردية في المنطقة، ضد المسيحيين، والأرمن، قبل كل شيء، في الأوساط الدولية، وما يمكن أن يمارسه الأتراك عبر أبوابهم الدعائية بالمقابل، في الأوساط الكردية، وعلى

(1) جويده، وديع: في مصدره المذكور، ص 330.

(2) المصدر نفسه، ص 332.

أعلى مستوى ثقافي، وعشائري، بأن هناك من سينال منهم، انتقاماً مما ألحق بالمسيحيين صنوف قتل وتخريب، وتضخيم دور الكرد في ذلك، ليكسبهم في صفهم، عبر العامل الديني، وحين تبين لبطي بالمقابل، أن الذي يجري هو عبارة عن فخ للإيقاع بالكرد، كما رأينا سابقاً، ولهذا شدد على القيام بحركته، ولعله بذلك، فاجأ من كانوا يعتقدون أنه سيكون إلى جانب الأتراك ضد الانكليز، ودون أن يقرأوا محتوى التحركات على الأرض بدقة وعمق، وما كان للتأثير الديني من ترسيخ صورة العدو، بالمفهوم الديني، والحيولة دون تفهم هذا المستجد .

وبغض النظر عن طبيعة حركة هفيركان، وهي تسمية تاريخية دقيقة تماماً، يمكن القول أنها حركة، وفي زمانها ومكانها، كانت تتم في الاتجاه المعاكس لمجمل الكرد الآخرين في المنطقة، فدلّت على وعي كردي أكثر قيمة، لا بل تأكيداً على هذا التمايز الكردي «القومي الطابع» من جهة المضمون إلى حد ما⁽¹⁾.

وربما أمكن طرح سؤال آخر في الجانب الأبعد أو حتى الأقرب مما أثير إلى الآن، لتفعيل أثر المتردد هنا: أكان بطي ينوي الاكتفاء بإطلاق سراح المعتقلين في سجن نصيبين، والعودة إلى هفيركان، أم أبعد من ذلك ؟

إزاء ما يتردد في الخبريات المنشورة، رغم محدوديتها، وما يمكن أن يطلق من تكهنات، أو تأويلات، وهي كثيرة، كعلاقة عكسية: قلة المعلومات، كثرة التكهنات، يمكن التعرض لحركة هفيركان على أنها لم تكن الذهاب إلى حد المواجهة المباشرة مع الجيش التركي. وماذا كانت تبغني؟ رفع رصيدها الاجتماعي «العشائري» فقط في المنطقة، وبين العشائر المحيطة بها، أم بمثابة رسالة موجهة إلى الدولة، بأن هفيركان أقوى مما يُتصور؟

وكيف يمكن ربط الهجوم على السجن، دون توقع مواجهة مع الأتراك ومن معهم؟ هذا يعيدنا إلى البداية: ألم يُشر سابقاً، إلى اتصالات لبطي مع من تم ذكرهم، للقيام بانتفاضة ضد الأتراك؟

علينا في الحالة هذه، التنويه إلى ما كان يجري على قدم وساق في جهات الدولة وقتذاك، بخصوص رصد كل تحرك، ومهما كان نوعه، من قبل موظفين مكلفين من

(1) يُشار إلى أنه في الفترة التي كانت حركة هفيركان تجري وقائعها على الأرض، بزعمامة بطي، في العراق كان هناك ثورة الشيخ محمود برزنجي، أي في الفترة ذاتها «ينظر في كتاب لازاريف وآخرين: تاريخ كردستان، ص 207. مثلاً»..

الاتحاد والترقي، وأعاونهم، وهؤلاء كثر، وما كان يعقب كل تحرك من ردود أفعال، أو اتخاذ التدابير الردعية أو الوقائية المناسبة، وكثافة، أو تنبيهاً، أو توجيهاً، أو تهديداً، أو المزج بين هذه الأساليب مجتمعة، وحتى العنف عند اللزوم، تبعاً للجهة، وتقدير مستوى الخطورة فيها، بالنسبة إلى الدولة، وحتى التلويح بالقوة «استعراض القوة على الأرض» خطوة استباقية لهذا الغرض، وهذا ما يمكن توقعه بالنسبة لحركة بطي، ودون ذلك كيف يمكن فهم نصب المدافع «في مرتفع داخل إيجقالا» كما تمت الإشارة إلى ذلك، ولغة التحذير والتهديد في كلام «خالد بك» لزواره الكرد، وقتذاك، وهو يُسمي من يحاولون القيام بأعمال «شغب» أو «عصيان» أو «تمرد» ضد الدولة، وفي المقدمة، علي بطي، بأنهم جهلاء..

وأجد فيما يخص هذه النقطة، ولو في اقتباس طويل نسبياً، ما يضيء خلفية ما جرى، بدءاً من المقطع الأخير في تحذير خالد بك:

(قوموا بإعاقة جميع الدعايات التي يقوم بها أناس مخالفون لهذا الشعور بأفكارهم ولا تمنحهم فرصة استغلال نيّاتكم الحسنة. إن النادي الكردي محظور لكونه بدأ بهذا العنوان في هكذا مرحلة «...» لا فرق بين كردي وتركي. تكمن مصالح الطرفين في العيش سوية «....» بعد رؤية التأثير الإيجابي للتدابير العسكرية الفجائية أنهم حركتهم العسكرية بعد ظهر ذلك اليوم. كان لديار بكر تأثير كبير على الجوار، كونها تشكّل مركز الأفكار السياسية في الولاية، لذا تأثرت المناطق الأخرى مباشرة بالهدوء والصداقة الموجودة في المدينة. «كان خالد بك يقول عن هذه المدينة «إن ديار بكر في مرحلة المعاهدة، كانت بمثابة الكعبة للقوميين الكرد»، من مذكرات دكتور زيا كوكم.

تحققت الغايات، قسم منهم خوفاً والقسم الآخر نتيجة الإرشادات، بدأت بعض العائلات المعروفة والقوميين الكرد في ديار بكر بإظهار الصداقة. شاركت ديار بكر مثل باقي المناطق الأخرى في التنديد بإحتلال الانكليز لكل من أورفا وإزمير والحكومة في ستانبول. بذلك أعلنوا صداقتهم وارتباطهم بالأمة التركية. في هذه المرحلة، تم تعيين عثمان بك قائد مركز شرطة طرابزون في ديار بكر، بوظيفة وكيل مدير الشرطة. بدأت الشرطة بالفعاليات تحت إمرة عثمان بك وبدأت تلاحق القوميين الكرد.

كان الهدف من عملية إطلاق النيران في الجوار من الأسلحة والمداع بحجة التدريب، إفهام الشعب إن فيلق الجيش يملك الأسلحة الكافية والمؤن ووسائل

الاتصال. باتخاذ هذه التدابير، وإعاقة احتمالات الانفصال، بالفعل حصلوا على النتيجة المطلوبة بهذا الشكل. جاء اليوم الذي مُنع فيه مجرد التفكير بكلمة الكرد.

إلى جانب ذلك، واجه الناس في المنطقة مشاكل جدية ووطنية، نتيجة الخلافات الحزبية الموجودة. كما سيظهر أدناه وبسبب ترددهم في الحصول على الترخيص لعقد مؤتمرات ارضروم وسيواس، يصبح دليلاً مثيراً للغضب.

بعد ذلك وإثر ما تحدث به أكرم جميل باشا في النادي الكردي حول قضية الانفصال، تم إغلاق النادي في ديار بكر بتاريخ «4 حزيران 1919»، بإصرار من قبل خالد بك وبأمر من الولاية. بنفس الشكل تم إغلاق النوادي الكردي في كل من سيرت وألغيز وسحب أختامها، تم سرد هذا الحادث بالشكل الآتي: زار أحد رجال شبخ محمود «شيخ محمود برزنجي» ديار بكر برفقة القائد العسكري نوثيل. دعاه أكرم، الذي يُعتبر من أحد أكثر الأعضاء نشاطاً في النادي الكردي لزيارة الكردي. تحدث له أكرم وبشكل متحمس قائلاً «لا توجد هنا لا القومية التركية ولا العثمانية، هناك كردستان المستقلة».

تساءل بعض المخلصين للدولة من المتواجدين الذين يعلمون بما تضرر الحكومة للقوميين الكرد «أنت تتحدث باسم من يا أكرم» ويقطعون حديثه، بهاجمونه وينزلونه من المنبر، يتم نقل هذه الأحداث إلى المركز العسكري في ديار بكر. إثر وصول الخبر للعدلية والولاية، بسبب خوفه يترك أكرم ديار بكر أولاً، في اليوم التالي وبعد وصوله خبر عن فتح محضر بحقه من قبل القضاء، يضطر للهرب إلى حلب.⁽¹⁾

(1) مالميسانز «تأليف وإعداد»: عائلة جميل باشا الدياربكري... المصدر المذكور، ص 69. إلى جانب ما ذكرت، أجد أنه من المفيد أكثر، إيراد ما يلي ما أوردته، ولو أنه يتضمن عدة صفحات، إلا أن أهمية الوارد هنا، وفي سياق ما هو تاريخي، وإضاءة بحثاً في نطاق الأشهر التي برزت فيها حركة هفيركان، تبقى مؤثرة، ومن باب التعمق والاطلاع، في الكتاب نفسه، باعتباره توثيقاً مؤثراً جداً:

جمعية الدفاع عن الحقوق الشعبية لشرق الأناضول في ديار بكر وعائلة جميل باشا «1919»: يروي شوكت بيسان أوغلو، قصة تأسيس فرع جمعية الدفاع الوطني في ديار بكر اعتباراً من نيسان «1919». قسماً من المثقفين كانوا يستعدون للعمل من أجل تأسيس فرع لجمعية الدفاع الشعبي لحقوق الولايات الشرقية.

تم إلقاء القبض على بعض الأفراد بشأن التهجير في «14 أيار 1919» ثم البدء بملاحقة كل من صدقي برنجي زاده «تارانجي»، شوقي يابن زاده «أولوغ» والرفاق الآخرين. أصرت قوات الانضباط بالقبض على بعض من هؤلاء في اليوم نفسه. انتهت المصادمات التي جرت في

زقاق «تلغراف خانة» بدون نتائج تُذكر. تمت محاصرة مسكن شرف بك مفتي زاده من أجل إلقاء القبض عليه. دامت الصدامات التي جرت بين شرف بك ورفاقه وقوات الانضباط حوالي ثلاث أو أربع ساعات.

أثار موقف الوالي الموالي للسلطان والممارسات السيئة لقوات الانضباط رد فعل الشعب. في النتيجة حصلت مصالحة بوساطة المفتي حاجي إبراهيم أفندي والد شرف بك. على أساس تسليم شرف بك نفسه للسلطات لإجراء التحقيق معه، من ثم إطلاق سراحه، ثم التقيّد بشروط المصالحة وأغلقت الدعوة.

تم إنهاء الفتور الموجود بين الاتحاديين والوفائيين بواسطة شخصيات معروفة في المنطقة. حدث الاتفاق والاتحاد تجاه الوضع الخطر. بدأت مبادرات لتأسيس جمعية تنتسب إليها شخصيات من الطرفين. خلال هذا الوقت وصلت برقية من الهيئة الشعبية لرد إلحاق إزمير بتاريخ «22 أيار 1919» يُذكر فيها «يتم إلحاق إزمير ومحيطها باليونان. لقد بدأ الاحتلال» «....».

في ذلك الوقت، توجهت مجموعة من أعيان المدينة للاجتماع في صالون البلدية بتاريخ «22 أيار 1919»، بناء على دعوة رئيس البلدية «عبدالرحمن أفندي دلال باشي زاده» في الوقت الذي كانت تدور فيه النقاشات حول إقامة مظاهرة للتنديد باحتلال إزمير ومحتوى البرقية التي سيتم إرسالها بهذا الشأن. دخل الشعب في ليان، نتيجة وصول أنباء لأسماعهم، تم نشره من قبل الصدر الأعظم «فريد باشا»، عن طريق وكالات الأنباء، تتحدث عن تأسيس أرمنستان ذات حكم ذاتي في المحافظات الشرقية.

على هذا الأساس رفعت المجموعة الديار بكرية برقية للصدر الأعظم فريد باشا، يسألون فيها عن مصير كردستان وحدود إدارة أرمنستان المرسومة.

كما أوضحنا بسبب أخرى سابقاً، وحسب ما ذكره رئيس قيادة الجبهة في ديار بكر «خالد بك» إن «غالبية المشاركين في هذا الاجتماع كانوا موالين للقوميين الكرد ومؤيدين لفكرة الانفصال من الأمة التركية». كما شارك في الاجتماع بعض أفراد عائلة جميل باشا، مثل، مصطفى، قاسم، جودت، عمر وأكرم.

هناك أمر ملفت للنظر، وهو أنه في تلك الأيام وبعد فترة قصيرة من ذهاب مصطفى كمال إلى سامسون، اهتم عن كثب بالقضية الكردية وجمعية التنالي الكردية في ديار بكر. في البداية حاول كسب أعضاء الهيئة الإدارية لجمعية التنالي الكردية في ديار بكر إلى جانبه. بدأت محاولاته بتوجيه النصائح والرجاء. على سبيل المثال في برقية موقّعة من قبل الحاجب الفخري للسلطان، أرسله النائب ديار بكر «كامل بك» عام «1919». بأن «حضره السلطان الأعظم» عيّنه مفتشاً لقطاع الجيش التاسع ليقوم بمهامه كمفتش عسكري عام في الولايات الشرقية، من أجل الحفاظ على استتباب الأمن والاستقرار في المنطقة ويرجو «القيام بالترتيبات اللازمة بشأن النادي الكردي في إطار الحفاظ على الاتحاد الشعبي وذلك من أجل خلاص المنطقة». في اليوم التالي يتم التوقف على هذا الموضوع ثانية من خلال برقية رفعها إلى رئاسة مركز القيادة:

« علمت من خلال البحث إنه هناك تباعد بين مؤيدي فكرة كردستان المستقلة التابعين للنادي الكردي في ديار بكر وبين مؤيدي الحكومة من النوادي الأخرى.

وجهت نصائح مؤثرة وتوضيحات ضرورية للشخصيات الكردية والكردستانية الطليعيين والمعروفين، حيث كسبتُ حبهم ومودتهم خلال فترة الحرب وأرسلت لهم برقيات مشفرة بواسطة فيلق الجيش بالذات، أشرح لهم الوضع السياسي للدولة، لاتخاذهم الموقف المناسب تجاه الوضع. حسب بعض المعلومات التي وصلتني في الأيام الأخيرة، يتوجب إعطاء الأهمية للمنطقة الكردستانية والانشغال بها.

يرسل مصطفى كمال باشا بتاريخ 1 حزيران 1919، برقية للمتصرفيات المستقلة في كل من «ديار بكر، أرضروم، وان، بدليس، ألعزيز، سيواس، أرزنجان وقصري»، يسألهم عن الوضع التنظيمي، هل هناك علاقات تنظيمية لجمعية الدفاع عن حقوق الولايات الشرقية بين مركز المحافظات والنواحي والأقضية التابعة لهم؟ من هم المؤسسين والممثلين الرسميين؟ هل ربطوا علاقاتهم بالتنظيمات الموجودة في المحافظات المجاورة؟ وهل هناك جمعيات أخرى؟

بعد مرور أسبوع، أي بتاريخ 8 حزيران 1919، يرد نائب والي ديار بكر «مصطفى» على برقية «مصطفى كمال باشا»، يخبره بإغلاق جمعية التعالي الكردية في ديار بكر «النادي الكردي». كذلك يتبين في جوابه، عدم وجود أي جمعية أخرى في ديار بكر، أما الأحزاب، فلا يتواجد منها سوى حزبين وهما الحرية والائتلاف.

ويسرُ مصطفى كمال باشا بهذا الخبر، ويعبر عن سروره هذا من خلال برقية أرسلها من أماسيا إلى نائب والي ديار بكر «مصطفى» بتاريخ 15 حزيران 1919 يذكر فيها:

تُعد عملية إغلاق وحل كافة أنواع الجمعيات التي تجرّ المواطن للنزاعات والصراعات من أهم الواجبات الوطنية، إن الموقف والقرار الذي اتخذتموه بشأن الجمعية الكردية «النادي الكردي» مقبول وحسن ما فعلتم.

رغم ذلك ومن أجل كسب أعضاء النادي لجانبه، يضيف لنفس للبرقية نفسها الآتي: «أقترح عليكم مدى أهمية مد يد العون لتأسيس جمعية الدفاع عن الحقوق الشعبية وجمعية رد الإلحاق في ديار بكر والمناطق المجاورة واللقاء مع أعضاء النادي الكردي، والمساومة معهم في إطار ما ذكرته لكم في برقيتي».

من جانب آخر وبتاريخ 16-6/ 1919، يرسل لرئيس جمعية التعالي الكردية في ديار بكر «قاسم جميل باشا» إثر سماعه لخبر إغلاق الجمعية يقول فيها:

«إلى قاسم جميل باشا ..

أنا واثق من مشاعر الحب التي تكنونها تجاهي واعتمادكم علي واستعدادكم للتضحية في سبيل الحفاظ على السلطنة والخلافة من الزوال والبقاء على استقلال الدولة التام.

إن نظرية انفصال الكرد من الدولة وبناء كردستان مستقلة تحت حماية الانكليز ليست صائبة، لأن هذه النظرية عبارة عن خطة تم ترتيبها من قبل الانكليز ولصالح أرمنستان، عند قدوم

الممثل الأمريكي إلى منطقة بايزيد، برفقة ضابط أرمني بلغ بقرار رسمي، أن الأرمن المهجرين سيبدأون بالعودة تحت حماية الجنود الأرمن. بالطبع لم أقبل ذلك ولن أقبل. لا يمكن قبول انفصال الكرد والترك من بعضهم كونهم إخوة. إن ضميرنا يملئ علينا اليوم، أن نعمل الكرد والترك وجميع المسلمين كجسد واحد ويقلب واحد في سبيل استقلالنا وإعاقبة تقسيم وطننا. عندما يعقد الشعبين «الشعبان» التركي والكرد عزمهم من أجل تحقيق هذا الهدف سيحصلون على نتيجة تامة.

إن قناعتي هذه ثابتة تعرفون بأنني لا أغير من قناعاتي... وعزمي على أمر ما أمام أية قوة مهما كانت. أنا أعلن تأييدي لمنح الكرد مختلف أنواع الحقوق والامتيازات وتأمين كافة السبل من أجل تقدم أخوتنا الكرد وحصولهم على الحرية والرفاه. لكن بشرط واحد، دون أن تتعرض الدولة العثمانية للتقسيم. حيث إنه وبدون شك ستشاركوني الرأي في ذلك. بلغوا تحياتي ورأيي لكل من أكرم، فؤاد، جودت، كريم، فكري، نجدت وأديب. إن الأمر الجدي والهام الذي أنتظره منكم، هو مشاركتكم لي في الرأي وبذلي التضحية اللازمة.

شاركوا في تقوية جمعية الدفاع عن الحقوق الشعبية وجمعية رد الإلحاق في ولاية ديار بكر، إذا أمكن الحقوا بي في سيواس من أجل الحوار وأبلغوني عن تحركاتكم عن طريق الولاية. أبعث بتحياتي واحتراماتي لـ «كامل بك» والأصدقاء وجميع أهالي ديار بكر مع قبلاتي: مصطفى كمال

يكتب في نفس البرقية لقائد الجبهة الآتي:

«إلى قائد الجبهة

أرجو تسليم هذه البرقية لـ «قاسم بك» بعد إعلام الوالي.

يتوجب تنظيم جمعية الدفاع عن الحقوق الشعبية ورد الإلحاق بشكل قوي في ولاية ديار بكر ونشرها في كافة النواحي والأقضية. أخبروا وبشكل سري الهيئة المؤلفة من: «صادق: من سيلوان» خطيب بك، وجميل جتو «من حازرو» أنني دعوتهم من أجل اللقاء. قدّموا لهم التسهيلات اللازمة والفتوا انتباههم لضرورة كتمان السر.

مصطفى كمال.

تتضمن هذه البرقية أموراً ملفتة للنظر وهامة. والخاصية الأهم هو قوله «أعلن تأييدي لمنح الكرد كافة أنواع الحقوق والامتيازات وتوفير كافة السبل من أجل تقدم الكرد وتحقيق الحرية والرفاه لهم» بشرط أن لا تتعرض الدولة العثمانية للتقسيم... الخ. صص «74-79» ويمكن التعرف على موجز حياة أكرم جميل باشا «1891-1974» ذي الحضور هنا، بصورة أوسع في الكتاب نفسه، صص 154-173.

اكتفيت بهذا الاقتباس، ليلاحظ فيه أي أسلوب حوار، ديماغوجي، استدراجي أتبعه أتاتورك في التعامل مع مسئولي الكرد وأهل الثقافة المعروفين «في ديار بكر بصورة خاصة»، وفي أجواء ملبدة، ومخاوف اشغل عليها أتاتورك وطاقمه السياسي، الأمني، والعسكري، بصدد تحذير الكرد مما يحضر له الأمن، وكذلك اليوناني، وتحت رعاية القوة المتنفذة وقتذاك،

هذا المشهد الساخن والمضطرب، لم يؤخذ من داخل هفيركان، أو في الجوار، وإنما داخل مدينة كردية عريقة، ومن قبل من تمرسوا في السياسة، وكانوا الألى في الهضم الثقافي، والتمثيل الثقافي والامتلاء بالكردية كثيراً، وما يمكن تخيله في نطاق التوترات الكبرى، كما لو أن الكرد: في بريهم، ومدنيهم، في جليلهم، وواديهم، في سهلهم، وقفرهم... الخ، قد تلاقوا هناك، وأسمعوا بعضهم بعضاً أصواتهم، ومخاوفها ومحاذيرها وتحفظاتها.

كما لو أن الكردي نفسه اسمٌ صراعي، أنه ما يتم تلفظه من قبل الكردي بالذات، حتى يشعر باضطراب على أكثر من صعيد، لحظة أخذ حقيقته المتجذرة في التاريخ، بعين الاعتبار. أليس كل منا، وهو يتكلم الكردية، إنما كما لو أنه يعيش حيويات الكرد جميعاً فيها، ويتشقق غبارها ونقاء هوائها؟

والناظر في الذي أشير إليه، وما تم إسناده في المعتبر هامشاً، وهو في بعض اعتباراته الكبرى، الشاهد الأكبر على ما يجب اتباعه في التفسير والتعبير جهةً المعتبر متناً، سوف يتبين له، لکم ينقسم التاريخ على نفسه، من خلال هذا الاقتباس المحدود بكلماته وحدود الكلمات هذه، وهو فور قرائته، يستدعي تاريخ ما كان، مرفقاً بجغرافيته المتفاوتة التضاريس، حيث كانت حركة هفيركان، أو كان عليكي بطي، يسلك طريقه غير الممهّد والوعر بين مدن مسكونة بالأعين الراصدة، والمتريصين وراء

وحيث انتهت الحرب العالمية الأولى، وتسربت أخبار ودعايات مختلفة، عما سيحصل، بالنسبة إلى مصير كل من الأرمن، السريان، الكرد واليونان... الخ، وكل اسم من هذه الأسماء لا يعرف من أين تبدأ حدوده، ولا أين تنتهي، أي مخافة من وقوع الأعظم.

نعم، ربما التآني مهم جداً، لحظة قراءة هذا الاقتباس الطويل يتبين التعقيد النوعي فيما كان يجري. ولهذا فإنه من الظلم بمكان إصدار أحكام قطعية على ممثلي الكرد وقتذاك، باعتبارهم رجعيين مباشرة، أو انتهازيين، أو قصيري النظر، والقول بأنه كان عليهم أن يفعلوا كذا وكذا.. دون النظر في حدود قواهم المتاحة، والظروف، ربما تصبح الصورة أكثر موضوعية، لو تخيل ما كان يجري حينذاك وهو في ذلك التاريخ، الأمر الآخر وهو راهن: تُرى، ماذا فعل هذا الموجّه سعم نقده المباشر بالنسبة إلى مجتمعه، وثقافته الذاتية، وما يخص رصيده الاعتباري ثقافياً وسياسياً؟ أم إن التذرع بأن أخطاء أولئك أوصلتنا إلى ما نحن عليه، وهي التعويذة الماراتونية التي تتكرر على لسان هذا أو ذاك أمثال من نوهت إليه، تعبيراً صارخاً عن حواء عقلي، نفسي... الخ؟

طبعاً ليس منعاً من مساءلة ما كان يجري، وإنما الارتقاء إلى مستوى تلك التحديات، وملابساتها، وكيف يمكن تحديد المسافة الفاصلة بين رأس الكردي من رجّليه، كما يقال.

معطيات طبيعية: أحجاراً، أشجاراً وغيرها، لحظة المقارنة والتقابل بين التواريخ المذكورة، وما تم ذكره في الذي حُص به عليكي بطي، أي حيث يكون مسار التاريخ كما هو الفيلم الملحمي، أو المتعدد الأصوات، كل مشهد يصار إلى تقابله بآخر، وإن كان على مسافة غير مرئية مباشرة، أو في وجوه، وأمكنة، لا تُرى إلا لحظة الاقتراب منها كثيراً... الخ.

يظهر التاريخ في ضوء ما أثرناه، عصياً على الإحاطة به، جرّاء هذا التنوع، ذلك يسمح بالمقابل، لأن نأخذ في حسابنا ما ننظر أبعد من حدود ما ننظر منه وإليه، على الأقل، كي ندرك، أن هناك ما يفكر فيه عدونا، وما يقيم فيه عدونا، وما يتنقل داخله عدونا، وما يرانا من خلاله عدونا، لنكون أكثر يقظة وأقل تعرضاً للخسائر.

ربما كان ذلك مؤلماً، وهو كذلك، خصوصاً حين نشدد على نقطة أكثر من سواها، أو نلتزم برؤية معين، للعالم الذي نقيم فيه، وليس هو الذي يقيم داخلنا، ونكون أقل تدمراً، وأقل استعداداً للصدمات كذلك، وفي الوقت نفسه، أكثر قابلية لأن نعين ما نخضع له من مؤثرات موجعة، على أن لنا يداً فيه، حيث يكون عدونا أكثر فطنة مما حققه لنفسه، واكتسبه من «انتصارات» لا بل وسيادة له علينا، وهو ينفذ أحكام سطوتنا فينا على أرضنا، واعتماداً على نسبة معلومة ممن يكيلون له المديح لهذا المتحكم بهم تركيا، بمقدار ما يحطون من قدر بني جلدتهم في أنفسهم وخلافهم⁽¹⁾.

(1) هناك مقال ذو دلالة لافتة، لموسى عنتر، اسمه «سد أتاتورك»، صغير، لكنه مؤثر، ربما له صلة بما أفصحنا عنه، ونعيشه محكومين به، نص المقال:
في 28 شباط 1992، زُفَّت إلينا عبر الإذاعة بشرى مسمومة. البشرية كانت كالتالي: سوف يمدّون إلينا الكهرباء من سد أتاتورك في شهر آذار القادم. وما موقعنا من الإعراب؟
ترى أي نفع أنابنا من مال أتاتورك حتى الآن، حتى ننتفع من كهرباء سدّه؟ فليفرح كل من وهبي كوج، سابانجيان وغيرهما.

هناك حكاية متداولة في منطقتنا. مضمونها: يقال أنه كان لابراهيم آغا خادم، اسمه رشو، وقد صار له ولد، فبشّروه به، فرد رشو: بالله عليكم، وأي نفع أجنبي منه، بشّروا بيت الآغا، بأنه ولد لهم خادم. ومن ناحية أخرى، هناك حكاية أخرى أيضاً، وهي تشبه وضعنا نحن الكرد في تركيا. ثمة مطاعم فخمة وكبرى، وفي أطعمتهم وزبائنهم العجب العجائب، الأطعمة لذينة وغالية، وزبائنهم بالمقابل، عموماً، هم لصوص ولاعبو قمار، لا يهمهم المال، حتى لو كانت بأسعار جنونية، فهم يأكلون ويشربون على حساب الناس، ومن ناحية أخرى، هناك مئات الشباب ممن يخدمونهم.

الملح في الجرح المفتوح «عليكي بطي بصفته قضية»

من خلال متابعتي حتى الآن، وكما سيظهر، أو سيتضح تالياً، يتبين لي، أن المثار حول هفيركان، وما يخص كلاً من عليكي بطي في «سرختي» وحاجو آغا في «بنختي» وهما معاً في المحصلة، يمس البعد «القومي» الكردي في الصميم. ليس لأنني أسميهما قوميين كرديين، وبمفهوم العصر، وإنما باعتبارهما أقرب إلى صفة الكردية التي تنمو وتتحرك صوب هذا المفهوم. إن لم يكن الأمر كذلك، فما الذي يمكن استنتاجه من قائمة الدراسات والمقالات وحتى الندوات، إلى جانب أطاريح جامعية، تصدر عن أروقة جامعية تركية، بصورة رئيسة، وبصدد عليكي بطي، وموقعه في التاريخ الحديث عموماً، وفي التاريخ الكردي خصوصاً، وفي المقابل، حين يشار إلى حاجو الثالث، كما لو أنه عبر الخط الحدودي المصطنع، ليعيد على الأسماع ما كان عليه الوضع الجغرافي الكردي قب اصطناع الخط، ليكون التالي بعد بطي «هناك» مأخوذ

أولئك الشباب اللطفاء، يقدمون الطعام اللذيذ، كخدم أجراء لهم عموماً، والمطعم من جانبه، يقدم لهم إما برغلاً، معكرونة، أو فاصولياء. نحن الكرد في تركيا، أشباء هؤلاء الخدم الأجراء. مثل رشو. وقد هجرنا ما سبق. لقد أمضيت من عمري سبع سنوات، مع غيري، وأنا أعمل لغيري، وسط الضرب والإهانات، وفي المحصلة نبقى جوعانين. انظروا ماذا قال شاعرنا الكبير قبل خمسين عاماً: «وطننا كله ذهب وفضة، إنما ما الحيلة، ينهبه الآخرون».

وما سمعته البارحة من الإذاعة، ذكرني بقولة جكرخوين، وأنا بدوري أريد أن أذكركم به. ما بين قزل تبه ونصيبين مقابل عامودا، يوجد تل، قبلها كان اسمه تل عامودا. والآن بدوره حوّلوه إلى ملكية أتاتورك، يقال لها «كماليه»، وكماليه على الحدود السورية، وتُرى بالعين المجردة من جهة عامودا.

جعلوا التل دعامة لتمثال كمال باشا، وهو مصنوع من الحجر الكلسي، وعلى الجهة اليسرى، مكتوبة هذه العبارة «طوبى لمن يقول أنا تركي»، وفي الجهة المقابلة «تركيا للأتراك». الحافلة تمر من هناك، ينظر شخص من ستليلي صوب التل ويقول «ما الذي كتب هنا؟»، يترجمون المكتوب له، فيقول الستليلي «إيه والله نحن لسنا أتراكاً. تعساً لنا، حيث لسنا أتراكاً. تركيا ليست لنا. في ستليلي يسمونها تركيا. يعني ذلك أننا جنّا بفضلهم». لا أعلم ماذا أقول لرشو وشيخ كوتي ستليلي؟ أنظر، أنا مثلها أيضاً.. ترى، بالنسبة للكردي العاقل والشريف، ألا يكون مثلنا؟

4-10 نيسان 1992 ♦

♦ من كتابه «شجرة دلي» بالكردية، المصدر المذكور، صص 17-18.

بحرارة هذه الذاكرة اللاخطية، رغم كل ما يمكن قوله عن حساسيات عائلية، يمكن إيجاد شبيهات لها في «أرقى العائلات»؟

أليس لأن هناك تاريخاً يتسرب خارجاً، أعني به ينبوعياً، الاسمنت السلطوي الممثل للمنع الرقابي خارجاً، ليفصح عن نفسه، ولو لم يكن الحال كذلك، فأى حكمة في قائمة هذه الدراسات بتقسيماتها المختلفة هنا وهناك، وهي تركز عليهم. أمن باب تزجية الوقت، التسلية، أم لأن هناك حسابات تاريخية تلوح بسطوة حقيقتها.

هنا أشير إلى موضوع لا يخفي حرقة، ودلالته، بالنسبة لموضوع لا يخفي خاصيته التشهيرية، أو دعواه عن المخفي والمستور في بنية هذه العائلة، وتحديدًا: عليكي بطي، وبالتركية، وفي موقع موسوم بالكردية، وبشارة كردية لافتة كذلك. أورد مجمل المنشور، ليكون الطريف والموجع بالمقابل، متمثلاً في بعض الردود، ومنها رد باشير بطي، حفيد بطي توضيحاً لبعض الحقائق. والمشكل المسمى إيزيدي.

وهو يدخل في نطاق ما أشرتُ إليه، في الصراعات الحدودية، ومن يتحدث الكردية ضد الكردية، أو التركية مع الكردية، أو يكون الخارج عليهما معاً.

وأرى في هذا المقدم مثلاً من نوع آخر، يقرّبنا من نوعية الملح الكردي الذي يُسكَب بيد كردية، في الجرح الكردي العام، ومن قبل من يريد الإكثار منه وتعميق الجرح.

وما يحفز الخيال الثقافى على المسائلة عن حقيقة كل من الموقع، ورصيده الثقافى الفعلي، وحقيقة الاسم وأرضيته الفكرية، والمراد من المنشور بالمقابل.

المقال الموجز لديار أيدين، واستفساري: انتفاضة علي بطي، أم مذبحته؟

وبالتركية، مع التاريخ:

Aydin, Diyar:Ali Batê «İsyani» mı, Katliamı mı? newroz.com.18
May 2008 / Comments, 17 may,2008.

يكتب العديد من الكتاب اليوم عن الإيزيديين، يمكننا مناقشة هؤلاء الكتاب في فئات مختلفة. يعتمدون عدم الأمانة وتاريخ عدم الأمانة لمصالحهم الخاصة. يمكن أن نطلق عليها «الإيجار rantçıda» «Bunlara rantçıda»، وعندما نقول ذلك، فإن هدفنا ليس إيذاء أي شخص أو احتقاره أو إهانته، وإنما نظراً لأن هذه المقالات والكتب التي ألفها هؤلاء الأشخاص تتناقض مع الحقيقة، فإننا نرد عليها بشكل طبيعي. وحيث إنهم بعض

الحالات، يقدمون كل شيء يجدونه دون معرفة ما إذا كانوا على حق أم خطأ بالنسبة إلى كردهم. ومؤخراً نُشر مقال عن «تمرد İsyani» علي بطي. وليس لدي أدنى شك في كردستان من صديق يدعى وداد عنيد Vedat Anit، الذي نشره. سوى أن البيانات التي قدمها لم تعبر عن الحقيقة، وليس لدي أي بيانات موثقة. وقضيتي هي رواية شيوخوا، وقد قدّم وداد عنيد أنيت سلوكيات علي بطي كما لو كانت ثورة كردية ضد الدولة العثمانية. لأن هذه الحركة، التي ظهرت على أنها «تمرد»، تمت ضد الإيزيديين والآشوريين. حيث قتل الرجال وسبى النساء، من هاتين الديانتين، واضطرت العديد من النساء إلى إعلان إسلامهن. على جبل باغليشي Bagileşê، وذبح سبعة إيزيديين وسلم آذانهم.... وعلى الرغم من أن هذه المناورات هي لأعمام وأقارب مقربين، إلا أنها في بعض الأحيان تكون أسباباً مؤدية إلى صراعات بسبب المصالح الخاصة والشخصية.. لقد كان تقليداً، هذه هي رواية شيوخوا، فعند نقطة ما فتحت الثغرة بين حاجو وجليبي. وذات يوم، يذهب جليبي إلى باب حاجو مع عدد قليل من الفرسان، لكنهم لا ينزلون من خيولهم، ويلتقي به حاجو عند الباب. يطلب من جليبي أن ينزل. لكن جليبي يقول إنني لن آتي وأجلس في منزله ما لم تحضر أبوزيدي مرادي، الذي لن ينزل، ومعرفته، يقول حاجو آغا إن طلبك مستجاب. ويتم ذلك، وقد صنعا السلام في هذه المناسبة. بالطبع، أصبح الإيزيديون ضحايا السلام، إنما من يهتم. فهم يحرقون ويسمون النار ويسمونها في فم الكهف. حيث يذبحون مئات الأبرياء من الإيزيديين، والآن لا يستطيع الناس التفكير دون بذلك. فهل هؤلاء الأشرار أتراك، أم أن هذه المحاولة «تمرد» على الدولة التركية بينما يُذبح هؤلاء الإبرياء؟ ومن أجل التعرف على هؤلاء الكرد جيداً، من الضروري النظر إلى دور أحفادهم اليوم. إنهم يحاربون الأمة الكردية بأخذ سلاح الدولة التركية.

إنهم أكثر حراس القرى ذبحاً في منطقتنا، وقد صادروا أراضي د الذين غادروا بلادهم وهاجروا إلى الدول الأوروبية، وصادروا في أراضي قبيلة ``داسكا" وأعطوها للآخرين مقابل المال. من وقت لآخر، كان يكتب رسالة إلى السيد، الذي قيل أنه في إيمرالي... الوطنية الكردية ليست في احتكار أي شخص، سوى أن جد هذا كان خائناً وليست المذبحة الكردية عقبة أمام وطنيته. أقاربه يسيطرون على أراضي الإيزيديين، وليس له صوت. ولكن إذا كانوا يسألونني (؟؟) إذا سألوني، فهل يمكنني القول أنه لن يكون من الأفضل إذا استخدم عائلته قبل البحث في العقيدة؟

وهذه بعض الردود، بالتركية والكردية، في مقتطفات منها، تضيء ساحة هذه الخصومة العالقة للأسف:

رد: علي بطيه «تمرد» أم مجزرة؟

عزيزي ديار آيدين أنا لا أعرف من أنت. لقرون عديدة، أجبرت الدولة العثمانية، المعروفة الآن باسم الدولة التركية، الآلاف من الكرد على النفي وصهرهم في الأناضول، وتستخدم الدولة التركية الآن الآلاف من الكرد كحراس قري korucu olarak. إنه عدو شعبك فقط، وهو التركي الذي يمكن أن يكتب ما كتبت عنه. لأن الأتراك والعرب والأوروبيين والإيرانيين يتحدثون عن ثورات حاجو وعلي بطي، وإذا نظرت إلى الأرشيف حول هذا الموضوع، فربما تدرك ما هو الخطأ. أنا متخصص في نشر مجلة تستخدم اسم نوروز دون فحص ورقة مليئة بالأكاذيب.

رد: علي بطيه «تمرد» أم مجزرة؟

حتى الأتراك الذين كتبوا في تاريخ إنكارهم هم أكثر واقعية من تعليقات شخص مثلك... أنت إنسان بدون تاريخ كردستان. هل تعرف بوضوح متى استمر تمرد علي بطي؟ بالنظر إلى تقويمك، اتضح أنك لا تعرف حتى التاريخ. لا يمكنني أيضاً أن أسأل سؤالاً عادياً دون أن أفسر. هل تؤيد الأموال التي يتم جمعها بين شعبنا وحراس القرى الذين هم أعضاء لدى Celap و Asret في البلدان الأوروبية كل عام؟ أو من أحفاد حراس القرية الذين أظهروا أكبر خيانة للشعب الكردي في مدياد وحولها؟ يظهر كم من الوقت يفتقر التاريخ إلى صراع باسم كردي كمذبحة لشعوب كردستان. أيضاً إذا كنت لا تعرف كيف أن علي بطي وحاجو هما أكثر الرجال السريان والإيزيديين موثوقية، إذا كنت تعرف ذلك التاريخ حقاً. هل سمعت من قبل أن شمعون حيدو بالنسبة إلى علي بطي كان الذراع اليمنى في اعتبارنا؟ ودخول علي بطي نصيبين وكسر باب السجن والإفراج عن «...» جميع السجناء.. مجرد مثالين صغيرين يعرفهما الجميع.. كيف يمكنك تقديم مثل هذا التقويم نيابة عن الصحافة والكتابة، على الرغم من أنك تفتقر إليهما معاً؟ يمكنك أن تكون أكثر موضوعية إذا تعلمت أولاً أن تسأل نفسك ثم تحكم على أولئك الذين انطلقوا نيابة عن الآخرين مثلك. إن الحفاظ على تقاليد أجداد فرحو المتحضرين هو تقليد وطني عميق يمكن لأشخاص مثلك مهاجمة القيم الكردية فقط من خلال خدمة التجاهل أو العدو.

بخصوص: «تمرد» علي بطي،

على الرغم من أن ديار أيدين نفسه قال في مقالته «ليس لدي أي بيانات»، فقد نشر محررو Newroz.com هذه المقالة من البداية إلى النهاية لهذه المقالة المشوّهة والفظيعة الخالية من الوثائق، وعدد مواقعنا الفارغة وتفتقر إلى الأخلاق والمبادئ الصحفية. أحد أسوأ الأمثلة... لا يمكننا فصل عائلة هفيركان، المسماة بـ أسرة أوصمين – التي تتكون من بطي، وحاجو، وسرحان، وفرحو وبعض العائلات الأخرى عن عائلات أخرى في مناطق كثيرة في كردستان. هناك كرد إيزيديون انضموا إلى جلبي، منفصلين عن هفيركان التابعة لإمارة بوتان، واتحدوا مع الدكشوريين. وصاروا ضد كردهم.

هذا التقليد لا يزال مستمراً. خلال هذه الفترة، سار بعض الكرد الإيزيديين أيضاً مع شيلبيس، لذا خانوا هيفركان... ونعلم جميعاً أن أكثر المحاربين شعبية لدى علي بطي هم كبار السريان والإيزيديين. السيد «أيدين»، بينما كان يتجاهل الإيزيدية الوطنية، الذين كانوا في الخط الأمامي pigones593n٥٩٣، بغض النظر عن الأسباب، وتحت أي ظرف من الظروف، ويصف مع الدولة..... أليس هذا يحدث حتى الآن؟... أما بالنسبة للمسألة التي يسيرها عليها أحفاد علي بطي وحاجو وفرحو في طريق أجدادهم، نعم هذا صحيح، لكن طريقة «أيدين» عقيمة. الكرد يتعرضون للتعذيب الشديد في زنانات الجمهورية التركية... إذا حاولنا كتابة أسماء الأبطال الذين استشهدوا من هذه العائلات هنا في العقد الماضي، فستكون القائمة طويلة جداً... منذ عام واحد فقط قتل كل من والدي الكاتب القدير مدني فرحو المسنين بطريقة بشعة من قبل، الدولة والمتعاونين معها. والمجزرة الوحشية كانت الحلقة الأخيرة لهذه السلسلة... نترك الوثائق في الروابط أدناه لتعليقات القراء. فلا يجب أن نقول للسيد السيد أيدين. يبدو أنه يريد أداء «وظيفته، واجبه» بشكل صحيح. ومع ذلك، نقترح أن يراجع موقع newroz.com وسياساتهم التحريرية في إطار الأخلاق الصحفية.

رد:

هناك اقتراحات لديار أيدين... ليس التاريخ مجرد كلمات، والوثيقة ليست كذلك. لا تتم كتابتها حسب الكلمات والقصص في زوايا الغرف والمقاهي. نحن لا نعيش في زمن هيروودوت. هل لديك دليل من هيروودوت؟ السيد ديار أيدين، هل كلمة تتفوه بها تجعلك محترماً، وتسميك كاتباً؟ لا تتخدع... كل كلمة تخرج من فم الشخص

ولا تكتب بدون احترام. الكتابة عمل شاق ومكشّف، إنها ثقافة مختلفة. الثقافة هي أيضاً تحقيق عقود. اقتراحات لديار عايد. 1- اقرأ قسم ماردین من موسوعة الجمهورية التركية. 2- اقرأ كيفية مكافحة الشغب Uçğende Uç Isyan. 3 لفاائق بولوت 4- اقرأ الكرد في الوثائق الانكليزية Ingiliz Belgelerinde Kurtler .

إذا قرأ المحترم هذه الكتب وحدها، فسوف يصبح رجلاً.

وهناك مشكلة أخرى: عائلة حاجو وبطي وفرحو ومصطفى المعروف بـ 14 شهيداً، فكم هو وزنك ووزن عائلتك ؟ وحتى الآن، ومن هذه العائلة هناك من يحاربون الدولة، من أجل الحرية، فأني موقع لك ؟ ولقد ألّف مدني فرحو 14 كتاباً، وهو هو صحفي منذ عام 1965. ربما حينها ربما لم تكن قد أبصرت الدنيا بعد .

المؤلف هذا أيضاً لديه قواعد أخلاقية، فإذا كنت تعرف هذه الطريقة، يمكنك الحصول عليها من عليكي بطي. والكتابة بدورها، تتميز بمنهجيات أخلاقية. ولو كنت تعرف هذه الطريقة، لاقتديت بملحمة عليكي بطي، كونها شعبية. والفن الشعبي رأسمال المجتمع وذخيرته. وأشك في أنك تعرف هذه الأمور. وقد ظهرت مواقع إلى الساحة، وصار كل من ينشر فيها يُسمّى نفسه كاتباً. وهذا يسيء إلى الشعب الكردي وإرادته. العلاقة بين أسرة أوصمينوالإيزيديين، كالعلاقة بين الظفر واللحم. وما بين أسرة أوصمين والسريان، كالعلاقة بين القلب والكبد. وهذا ما أثبتته التاريخ. ويا أخ أيدين، لازلت نائماً على أذنك «في أذن الثور. بالتعبير الكردي»

رد: علي بطي «تمرد» أم مجزرة؟

لقد قرأت مقال ديار أيدين، الذي كتب عن تمرد علي بطي وجميع الإجابات التي أعطيت له، وبما أنني من هذه العائلة، فلدي الكثير من المعرفة عنها، لذلك سأحاول تبويرك بشأنها. وقيل بإيجاز الحقائق التاريخية: 1- في الصراعات التي اندلعت مع انتفاضة مي ربوتان بدرخان ضد الدولة العثمانية (في أربعينيات القرن التاسع عشر)، كان هناك انقسام كبير بين القبائل الكردية الواقعة في محيط بدرخان. كان جلبي، أقربها، ليحصل الانقسام العائلي. فيصطف جلبي مع الدكشوريين. وكان الآخرون إلى جانب المنتفضين. . كان لدى كلا الجانبين مؤيدون للإيزيدية والسريان والمسلمين. في عام 1913، اقتيد الجميع من قادتهم إلى سجن خربوت .

وهناك من هرب من السجن «وضمناً علي بطي»

إنما بقي جلبي آغا ولم يهرب. وقتل علي بطي بالرصاص في عام 1919 على يد القوات التي تلقت الدعم من القبيلة، وسيطرت على المنطقة تحت زعامة جلبي آغا.

وهرب كبار الشخصيات السريانية من هفيركان، أو سجنوا، أو ذهبوا إلى سوريا وتم إطلاق النار على بعضهم في سوريا. ولم يكن هناك من تفريق بين مكونات الهفيركيين: الكرد المسلمون والإيزيديون والسريان. ودعموا أيضاً ثورة الشيخ سعيد، وفر حاجو وأتباعه إلى سوريا تماماً بعد ثورة الشيخ سعيد 1925، محتمياً بالفرنسيين.

بما في ذلك مئات الإيزيديين والعائلات السريانية. بعد هذا التاريخ، لم يصبح أحد سيداً على العائلة هنا وهناك.

وأنا لا أعرف من الذي أخذ أراضي الإيزيديين من أيديهم، لكن لا علاقة لكل من حاجو وبطي بالموضوع.

وإن الاتهامات المنسوبة إلى مدني فرحو لا علاقة له بأجداده، فالرجل نفسه لديه القدرة على تفسير ما قاموا به.

وكانت عائلة حاجو في سوريا، وقد كان من مؤسسي جمعية «خويبون» وكان لهذه دور مهم كردياً.

أما بالنسبة إلى مجازر السريان، فليس هناك من أحد من هؤلاء «جلبي، سرحان، بطي، وحاجو» مشاركة فيها، إنما كلهم قاموا بحماية السريان ودعمهم قدر المستطاع، ولم يكن هناك من لم يعرف ذلك أيضاً.

وصحيح أن الإيزيديين قُتلوا في صراعات المواجهة، لكنهم قُتلوا في سوريا ومن المسلمين، وهذه المواجهة هي نتيجة وليس لها علاقة بحركة وطنية.

نتيجة لذلك، أود أن أقول ما يلي: إن الأخطاء التي ارتكبت في التاريخ، من خلال الصراعات العشائرية، وعلى مدى قرن، وقامت على الفتنة والشر، لا علاقة لها بالصدق أو القومية.

باريش بطي

سيرة ذاتية للمؤلف

إبراهيم محمود

باحث ومفكر كوردي سوري

مواليد قامشلو 1956.

إجازة «بكالوريوس» في الفلسفة من كلية الآداب، قسم الفلسفة، جامعة دمشق/1981.

التفرغ للدراسة والتأليف في مجالات فكرية وأدبية وتاريخية ونقدية مختلفة، بعد ممارسة التدريس في معاهد قامشلو لمدة عشرين سنة.

الآن لاجئ في إقليم كوردستان، ويعمل في مركز بشكجي للأبحاث الانسانية في جامعة دهوك.

مؤلفاته: نشر أكثر من ثمانين كتاباً في حقول نقدية: فكرية وتاريخية وأدبية مختلفة ويركّز بصورة خاصة على الجانب الانثروبولوجي في دراساته، وفيما يخص الجسد، عدا مشاركاته في كتب جماعية، ومقدماته وشروحاته لكتب مترجمة عن الفرنسية (لجاك دريدا خصوصاً)، ومن مؤلفاته:

الكتب الورقية:

- مغامرة المنطق البنيوي (البنيوية كما هي)، مركز الدراسات والأبحاث الاشتراكية في العالم العربي، دمشق/1991.

- صورة الأكراد عربياً بعد حرب الخليج، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت، ط1/1992.

- الجنس في القرآن، شركة رياض الريس، لندن، ط1/1994/ط2/2000، ط2، دار رؤية، القاهرة، 2016.

- البنيوية وتجلياتها في الفكر العربي المعاصر، دار الينابيع، دمشق، ط1/1994.

- الهجرة إلى الإسلام، دار الفكر، دمشق، ط1/1995.

- الكورد في مهب التاريخ، كرد برس، بيروت، ط1/1995.

- أئمة وسحرة «البحث عن مسيلمة الكذاب وعبدالله بن سبأ في التاريخ» شركة رياض الريس، لندن، ط1/ 1996، ط2، دار رؤية، القاهرة، 2017 .
- جغرافية الملذات «الجنس في الجنة»، شركة رياض الريس، بيروت، ط1/1998، ط2، الريس، بيروت، 1998، ط3، دار رؤية، القاهرة، 2016.
- الفتنة المقدسة «عقلية التخاصم في الدولة العربية الاسلامية»، شركة رياض الريس، بيروت، ط1/ 1999، ط2، دار رؤية، القاهرة، 2016.
- المتعة المحظورة «الشذوذ الجنسي في تاريخ العرب»، شركة رياض الريس، بيروت، ط1/2000، ط2، دار رؤية، القاهرة، 2017 .
- إيقاعات مدينة «فصول من سيرة مدينة القامشلي»، دار الينابيع، دمشق ط1/2000.
- صدع النص وارتحالات المعنى، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط1/2000.
- تقديس الشهوة «الرموز الفلكية في النص القرآني»، شركة رياض الريس، بيروت، ط1/2000.
- ألقعة المجتمع الدماثية، دار الحوار، اللاذقية، سوريا، ط1/2001.
- الحنين إلى الاستعمار، دار الينابيع، دمشق، ط1/ 2001.
- جماليات الصمت «في أصل المخفي والمكبوت» مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط1/2002.
- قراءة معاصرة في الإعجاز القرآني، دار الحوار، اللاذقية، ط1/ 2002.
- الشبق المحرم «أنطولوجيا النصوص الممنوعة»، شركة رياض الريس، بيروت، ط1/2002، ط2، دار رؤية، القاهرة، 2016.
- أرواح اليوم الثامن، دار الينابيع، دمشق، ط1/2002.
- في الثقافة العربية المعاصرة «صراع الإحداثيات والمواقع»، دار الحوار، اللاذقية، ط1/2003.
- صائد الوهم «الطبري في تفسيره»، دار كتابات، بيروت، ط1/2003.
- الضلع الأعوج «المرأة وهويتها الجنسية الضائعة»، شركة رياض الريس، بيروت، ط1/2004.

- وعي الذات الكوردية، الشركة العربية الأوربية، بيروت، ط1/2004.
- نقد وحشي «رؤية لنص مختلف»، دار الحوار، اللاذقية، ط1/2005.
- الموسيقى «عتبات المقدس والمدنس»، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط1/2005.
- مجالس الورد والشوك «بين ذاكرة القرية وأرشفة المدينة»، دار الينابيع، دمشق/2005.
- الباحثون عن ظلالهم «العبور إلى فيينا» دار الينابيع، دمشق، ط1/2005.
- قتل الأب في الأدب «سليم بركات نموذجاً»، دار الينابيع، دمشق، ط1/2007.
- النقد والرغبة في القول الفلسفي المعاصر، دار الحوار، اللاذقية، ط1/2007.
- القبيلة الضائعة «الأكراد في الأدبيات العربية الإسلامية»، شركة رياض الرئيس، بيروت/2007.
- وإنما أجسادنا.. الخ «ديالكتيك الجسد والجلد»، وزارة الثقافة السورية، دمشق، ط1/2007.
- أحدهم يتغزل بزوجتي «رواية»، دار الينابيع، دمشق، ط1/2008.
- المنغولي أو مجهول الريح «رواية»، دار الينابيع، دمشق، ط1/2009.
- الأنثى المهذورة «لعبة المتخيل الذكوري في صناعة الأنثى»، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط1/2009.
- الجسد المخلوع بين هز البطن وهز البدن، شركة رياض الرئيس، بيروت، ط1/2009.
- جنازة المؤخرة «في مائة وواحد وعشرين نصاً»، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط1/2010.
- الصائد الخفي «جدل الصامت في حوارات نبيل سليمان»، دار الحوار، اللاذقية، ط1/2010.
- النص- الجسد- الهاوية «قراءات في ظلال المعاني»، دار تموز، دمشق، ط1/2011.

- زئبق شهریار «جماليات الجسد المحظور في الرواية النسوية العربية»، دار الحوار، اللاذقية، ط1/2012.
- قراءة في رواية يوم الدين، دار الجديد، بيروت، ط1/2012.
- نصوص أفستا وقراءة في النص الأفستاني، دار تموز، دمشق، ط1/2013.
- الإسلام: مدخل جنسي - دراسة- شركة رياض الريس- بيروت، ط1/2013.
- لا قمامة في هذه المدينة، عن اتحاد الأدباء الكورد - المركز العام أربيل، ط1/2013.
- سيرة المحلّق أرضياً «دراسة في شعر جكرخوين»، الأكاديمية الكوردية - أربيل، ط1/2013.
- الجسد البغيض للمرأة- دراسة- دار الحوار- اللاذقية، ط1/2013.
- الحيوانات تستعيد ذاكرتها «قصص»، كلاويد، السلیمانية، ط1/2013.
- الرجل الذي كان: شيركو بيكه س: الحياة والكتابة، الأكاديمية الكوردية/2013.
- قتل الجياد الكوردية: عن محمد اوزون مجدداً «دراسة»، منشورات سردم، السلیمانية، 2015.
- علم جمال الجسد المغاير «دراسة»، دار الحوار، اللاذقية، 2015.
- أسئلة التأويل «دراسة»، دار الحوار، اللاذقية، 2015.
- بروق تتقاسم رأسي «سيرة فكرية»، دار الحوار، اللاذقية، 2015.
- الأكاديمي «هل هناك أكاديمي كوردي؟»، دراسة، دار تموز، دمشق، 2015.
- معذبو النور «في التصوف الكوردي»، دراسة، دار تموز، دمشق، 2015.
- الإقليم خارج حدوده، مديرية الطباعة، دهوك، 2015.
- اليد والقفاز «التنوير البحثي في كتابات الأستاذ الدكتور عبدالفتاح علي البوتاني» دراسة، أربيل، 2016.
- طريدو التاريخ «الكورد في خضم حروب الآخرين»، مركز بشكجي للدراسات الإنسانية، دهوك، 2016.

- تراجيديا الضحك، دراسة، دار الحوار، ط1، 2017.
- ظلال الوجه الآخر «دراسة في شخصية محمد كرد علي»، مركز بشكجي للدراسات الإنسانية، دهوك، 2017 .
- الدرع الواقى: اسماعيل بيشكجي وكتابة القضية الكردية «دراسة في سلوك وفكر رجل في العاصفة»، مركز بشكجي للدراسات الإنسانية، دهوك، 2017 .
- الذئب الكردي «دراسة في شخصية ضياء كوك آلب «دار سبيريز، دهوك، 2017.
- سطوح الهاوية «دراسة عن الكورد والفيسبوك»، الأكاديمية الكردية، أربيل، 2017 .
- لا ليس لي لحية، دراسة في العلاقة بين محمد كرد علي والتصوف، دار تموز، دمشق، ط1، 2017 .
- سرديات الحية «دراسة انتروبولوجية»، دار رؤية، القاهرة، ط1، 2018 .
- الجسد الدبق، دراسة، دار رؤية، القاهرة، ط1، 2018 .
- رهانات التهجين بين الجسد والثقافة ، دراسة ، دار الحوار، اللاذقية، ط1، 2018 .
- نساء في لعبة الذكور، دراسة ، دار تموز، دمشق، ط1، 2018 .
- نزلاء اللغات الأخرى «سياحات كردي في أوروبا»، مركز بشكجي للدراسات الإنسانية، دهوك، 2019 .
- الكورد وفوضى العولمة، مركز بشكجي للدراسات الإنسانية، دهوك، 2019.
- صورة الكورد في الصحافة الفرنسية، صحيفة «لوموند دبلوماتيك» نموذجاً، مركز بشكجي للدراسات الإنسانية، دهوك ، 2019 .
- العرب لا يحبون البصل «دراسة في متخيلات اللغة العربية» دار سطور، بغداد، 2019.
- ثلاثية شجرة قابيل، عن دار سطور، بغداد لعام 2019: العراق «أم واحدة وأزواج كثيرون» - سوريا «العيش في ظل زوجة الأب» - كردستان «أرملة وأخوة أعداء».

- ألف قطرة دم وقطرة «دراسة في الإبادة الجماعية»، مركز الأنفال، جامعة دهوك، 2019 .
- منطق طائر اللون «دراسة فنية في أعمال نصر ورور» ، دار تموز، دمشق، 2019 .
- النزول إلى «الجبل» تعريف بالأدب الكردي، دار تموز، دمشق، ط1، 2019.
- جسد العاهرة «دراسة في نصوص السوءة المباحة»، دار سطور، بغداد، ط1، 2020.
- أن نلبس سروالاً قصيراً «نصوص ما فوق الركبة» دراسة» دار سطور، بغداد، ط1، 2020 .
- الهارب إلى التاريخ «ابن خلدون ووعي المجهول «دراسة» دار أمل الجديدة، دمشق، 2020 .
- أطيايف الصابون: «فسحة الرغوة والجلد» «دراسة» في جماليات الصابون وملابساتها دار أمل الجديدة، دمشق، 2020 .
- نحو قراءة معاصرة في إعجاز القرآن «دراسة» دارالأمّل الجديدة، دمشق، 2020 .
- الموت قبحاً «أوهام العيش المشترك»، مشروع دراسة، دار أمل الجديدة، دمشق، 2020.
- مرحباً أيها الموت وماذا بعد؟ «عن جنون الهجرة والمتاجرين بأرواح المهاجرين»، دراسة، دار أمل الجديدة، دمشق، 2020 .
- المؤلّف بين الرأس والعصا «البحث عن الجزرة»، دراسة، دار أمل الجديدة، دمشق، 2020.

ترجمات:

- الحيوان الذي أنا عليه، لجاك دريدا، نصوص مختارة، ترجمة عن الفرنسية، دار تموز، دمشق، 2020 .
- الحيوان الذي أنا عليه، لجاك دريدا، نصوص مختارة، ترجمة عن الفرنسية، دار تموز، دمشق، 2020 .

- الأرشيف، الأثر، الفن، لجاك دريدا، الترجمة عن الفرنسية، دار الحوار، اللاذقية، 2020 .

- أصوات (مقابلات مع جاك دريدا)، الترجمة عن الفرنسية، دار الحوار، اللاذقية، 2020 .

- ديكة بمنقارين: عن الصراع بين أقطاب التحليل النفسي، الترجمة عن الفرنسية، دار أمل الجديدة، دمشق 2020 .

- مقاومات في التحليل النفسي، لجاك دريدا، الترجمة عن الفرنسية، دار الأمل الجديدة، دمشق، 2020 .

- حدوس: البنية- الاختلاف- العمارة- الفصل العنصري، لجاك دريدا، الترجمة عن الفرنسية، دار الأمل الجديدة، دمشق، 2020 .

- لاكان نفسه «سيرة حياة، ومقالات موازية ومتممة» لفيليب سولرز، الترجمة عن الفرنسية، دار الأمل الجديدة، دمشق، 2020 .

- ميثولوجيا النهايات «مقالات مترجمة حول الأدب والتحليل النفسي» الترجمة عن الفرنسية، دار الأمل الجديدة، دمشق، 2020 .

- أطفال التحليل النفسي: «مقالات مترجمة عن الطفل من منظور التحليل النفسي» الترجمة عن الفرنسية، دار الأمل الجديدة، دمشق، 2020 .

أما عن كتاباته بالكوردية فقد صدر له ديوان شعر تحت عنوان

Weke çemekî ji dil derkeve-Şam-2005

الترجمات عن الكردية:

أيام حسو الثلاثة ، رواية لالش قاسو ، ترجمة ورقية، زائد انترنتية منقحة .

الخراب، رواية لالش قاسو ، طبعة خاصة .

المتنور، رواية لالش قاسو، دمشق .

القيامة، رواية حسن مته، دمشق .

کردستان والحدود في القرن العشرين، دراسة لأصليخان يلدرم، مراجعة وتدقيق

الأستاذ الدكتور: عبدالفتاح بوتاني، منشورات الأكاديمية الكردية ، أربيل، 2016 .

أعمال للمفكر التركي اسماعيل بشكجي، عن طريق الكردية، مع تقديم وتعليقات، وهي صادرة عن منشورات مركز بشكجي للدراسات الإنسانية، جامعة دهاوك :
في مصافحة يد بيضاء «اسماعيل بشكجي كردولوجياً» مع ملحق، عن خليل خيالي، 2017.

رسالة إلى اليونسكو ، 2017 .

الكرد بين التاريخ والجغرافيا، 2017 .

الكرد والدولة «اللغة، الهوية، القومية، الوطنية» م1، 2017 .

الكرد والدولة «اللغة، الهوية، القومية، الوطنية» م2، 2017 .

إرهاب الدولة في الشرق الأوسط، 2017 .

الكرد وهموم الكرد «مقالات حديثة مختارة» 2018 .

انبعاث كردستان خيالية، 2018 .

منهج العلم، 2018 .

التوطين القسري للكرد، 2018 .

مذبحة الأرمن 1915، 2018 .

الكتب الالكترونية المنشورة على موقع أمازون العالمي، ولم تنشر في أي مكان، ولا نسخة ورقية لأي منها:

في التاريخ : إسلاميات «مقالتان» - الاستكراد «دراسة في ثقافة أحادية» -
سيرة ثقافية للنخلة- شركاء المصير الواحد: كما قرأت عن السريان كما تعرفت
إليهم كما أعرفهم- الآخر الذي يغزونا: عن غزو عفرين: قبلها وما بعدها تركياً-
السلام الاسود: يوميات السلام الهمجي: عن الغزو التركي لروجآفا بدأ من 9-10/
2019 - دواعشيات: نصوص للنظر- الآخر الذي يغزونا: عن غزو عفرين : قبلها
وما بعدها تركياً.

في تاريخ المرض: كورونا ... كورنر «حوارية زمن طارئ» - يوميات الفيروس
الأخير.

عموميات: ألوان الطيف الفكري «مقالات»- شذر مذر «مقالات شاردة» - عن
الفراغ وما يليه «مقالات شاردة» - مجابها «هم حيث تقول نصوصهم» - مقالات

قائمة بذاتها- نصوص الشهوة الآثمة «مقالات في المختلف» - نقديات «قراءات في كتب مختلفة» - هبة مقالات- فيسبوكيات إبراهيم محمود «مقالات مشاعة» - الطائر المائي: في الواقع الذي نقوله، في الكلام الذي يقولنا- تيارات صوتية : ملتقيات وجوه.

فلسفيات : بخصوص الكائن «س»: دراسة حالة نفسية - في بعض أحوال جاك دريدا «مقالات»- في انتظار مثقف مختلف «أدوار المثقف المختلفة» - الممسوسون «عن الصوفية وهذياناتهم: دراستان» - الطفل والعاطفة والأدب «دراسة» - فكريات في انتظار اسمها «دراسة في التنوع» - انتهاكات موسيقية «نصوص غير منضبطة موسيقياً» - أطلال الموتى: في الذين رحلوا إلى الاختلاف- تداعيات مستقبلية «مقالات مفخخة» - حياة تتنفس سخطاً: نصوص لم تكتمل.

نقد أدبي: جغرافيات متخيلة «تنظيم العالم في الشعر العربي» - إمضاءات سريعة على ديوان - أنفاس الشعراء، روائح الشعراء «مقالات في الشعر» - حنا مينه في الذكورة المطمئنة- شعريات «قراءة في نصوص شعرية» - شهوات مجنحة «في الفعل الروائي» - في الوجدان الشعري «حول تجربة شعرية نبطية» - منمنمات روائية «متابعات روائية» - تفكك العالم.. جنون النص: (دراسة خرائطية في روايتي) مدائن الأرجوان- جداريات الشام: نمونما (لنبيل سليمان)-

وجدانيات: معهم حيث هم- راحلون إلينا «عن الذين غادرونا بأجسادهم» الإيزيدية- مدائح الكردي الشائنة «عن الكردي المأخوذ بغفلته» - هوامشيات كردية: بين التاريخ والمجتمع- لا سمعاً ولا طاعة «كتابات تجديفية»- كرديانا «مقالات تمس الوعي القطيعي» - كتابات على النار- كتابات بالنار «مقالات على الطريق» - قبضيات الشارع الكردي «الهجرة إلى المدينة السعيدة» - كُردستان ليست لي: مكاشفات وكشوفات واكتشافات- من يقتل الحجل الكردي؟ «نقود في سير كُردية متهاكة»- أثريات التملق: نصوص وسلوكيات قيد التعرية- الطريق المعبّد بالألم: وقائع ناطقة في الطريق الممتد بين دهوك- قامشلو- وضّع اليد على الجرح «دراسات نقدية حول كتابات كردية في التاريخ والجغرافيا»- نزيف الجبل «كتابات عن استفتاء إقليم كردستان العراق 25 أيلول 2017 وما يكون باسمه»

نقديات كردية: الحمى الاستعراضية للكاتب الكردي «دراسة» - الراعي والقطيع «هل يمكن مكاشفة الطاغية : دراسة مع نماذج بحثية - الكتابة وحرفة

الأيمان المغلظة «عن شنكال، عن حياة الإيزيدي المراقبة» - جسد بين أنثيين «حول ترجمة «ذاكرة الجسد» إلى الكردية- في الحداثات الشعرية الكردية «مقدمات ونصوص ترجمة» - ما هو أبعد من الترجمة- مترجمنا جلجامش «حول تجربة ترجمة- مرايا نازفة «قراءات في الرواية الكردية» - نحو وعي أوسع لموسيقى الشعر الكردي- في القصة الكردية المعاصرة «سردية البداية: دراسة»- النبع والمجرى «عن روابط الشعر الكردي: «دراسة» - في القول الرجيم «حالة شعرية ساخنة في وطن مفتت» - كُرسيات «بكائيات نافرة» - نسيج الماء الحي «في متابعة نصوص أدبية كردية»- شعريات «قراءات في نصوص شعرية : دراسة» - الجهة الخامسة: حول كتابات الراحل رزو أوسي «دراسة» .

شعر: أسفار الطيش الكردي- الرأس المدبب «نص طويل نسبياً» - املاً الفراغات الماضية- أنا المدعو : حيوانكم المطيع «نصوص طافية» - حيوانات حيوانات «نصوص الاتجاه المعاكس» - سيرة لحم «مجرد نص» - مجرد كتابة عطر- الكردي في ... الأخير امتحان الكردي إلى فراغاته: نصوص شعرية- هي سورة شنكال هذه المرة- ضوء يتجه ليل حتى الثمالة «نصوص شعرية» - أهواء عند اللزوم «نصوص شعرية»- مدائح لا تشتهيها النفوس «شعر» - مرايا الكردي العمياء «نصوص شعرية» -

أسوار الريح، تداعيات الورد «نصوص شعرية» - سيرة كردي سكوب بالألوان.
رواية:

قردة لاهية على شجرة صنوبر- كوكب الجنس الأصفر «رواية لم تكتمل/ولن تكتمل»

قصة:

قطعة على السلم

ترجمات:

متواليات الامراض في التاريخ: مقالات منقولة عن الفرنسية، مع التقديم- مباهج الجسد المريض: تمثيل المرض في الكتابة..مقالات في المرض، مختارات منقولة عن الفرنسية، مع التقديم- إجازة في الحجر الصحي: نصوص شعرية ونثرية في المرض والصحة، مختارات منقولة عن الفرنسية، مع التقديم- ثالوث

المرض والأدب والفن: مقالات مختارة عن الفرنسية ، مع التقديم- أجنحة النار
«مقالات ونصوص مترجمة في الشعر عن الفرنسية» - في ذمّة كتاباتهم «الكرد
في لعبة السياسات الصحفية : «مقالات منقولة عن الفرنسية»، مع التقديم.

سلسلة «نحو أمس دافىء»:

الخطر المحمول: اقتباس وأقوال منقولة عن الفرنسية، مع التقديم .
لعبة الجنس: أقوال في الجنس بألسنة كتاب، سياسيين، علماء،
وفنانين مختارات منقولة عن الفرنسية، مع التقديم.

معزل المؤخّرة: أقوال وأمثال اختارها منقولة عن الفرنسية ، مع التقديم .
إن تكلمت الهدية: أقوال وأمثال مختارة عن الفرنسية، مع التقديم.
بالإذن من الفيلم: كلمات مقتبسة من الأفلام، مختارات عن الفرنسية، مع
التقديم .

ألسنة سالكة: أقوال لمشاهير الكتاب، مختارات منقولة عن الفرنسية، مع
التقديم .

طرب الأمثال والمأثورات: حول الحياة، الموت، الحب، الحيوان،
الخرأ، الجهل.... الخ مختارات منقولة عن الفرنسية ، مع التقديم.

قبسات من أفواههم، أقوال من مشاهير السياسيين، مع التقديم .
الضحك الصادم : مختارات من أقوال الممثل الكوميدي الفرنسي الكبير كلوش
1944-1986 .

بالكردية :

Tirs bi xwe, û helbet, bilî wê: Helbest

Gotinên beravêtî: Helbest

Yek du: Gotar in ji xwe re

Av û nivîsandin

الترجمة عن الكردية:

أسفل الشلال: مختارات ترجمة مع تعليق من نصوص كردية.

